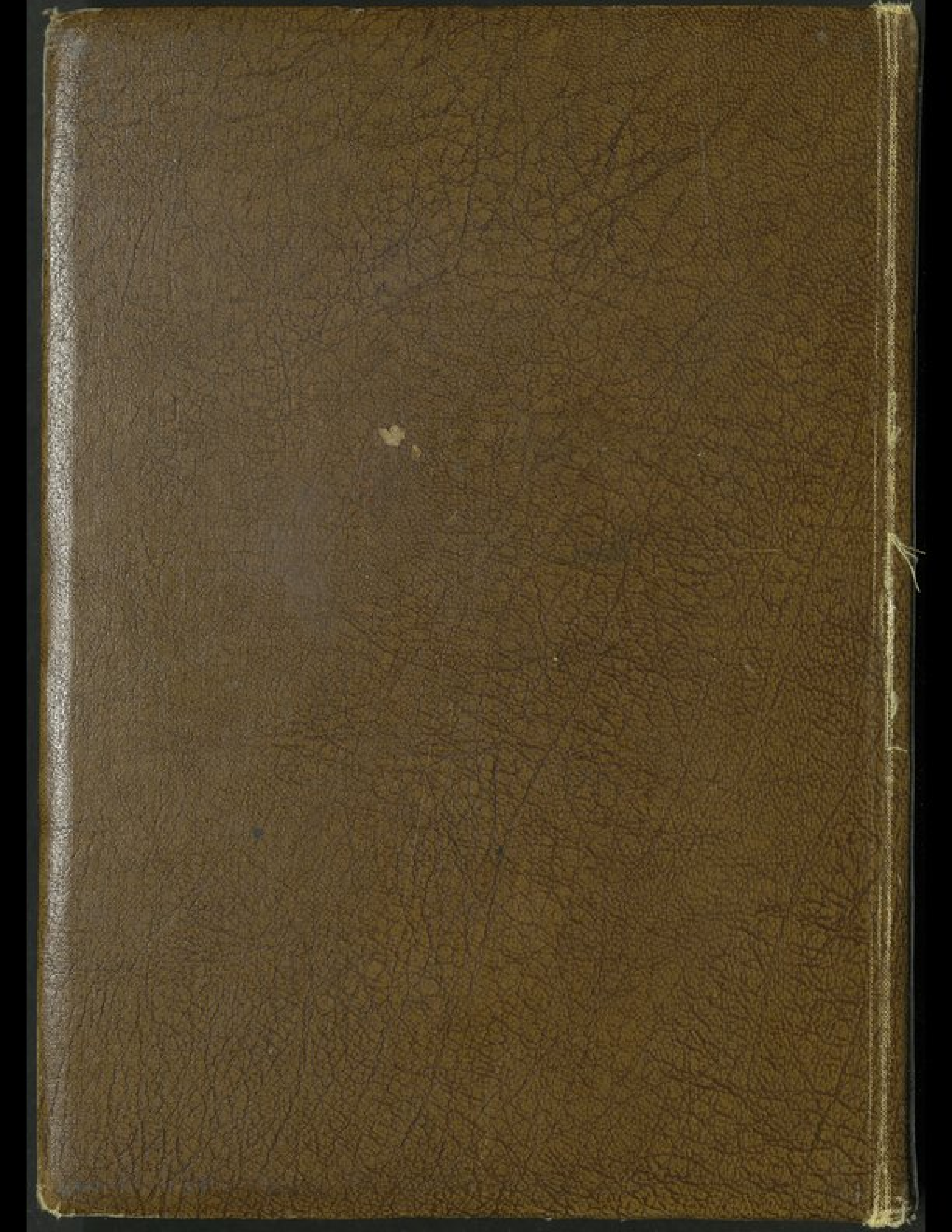
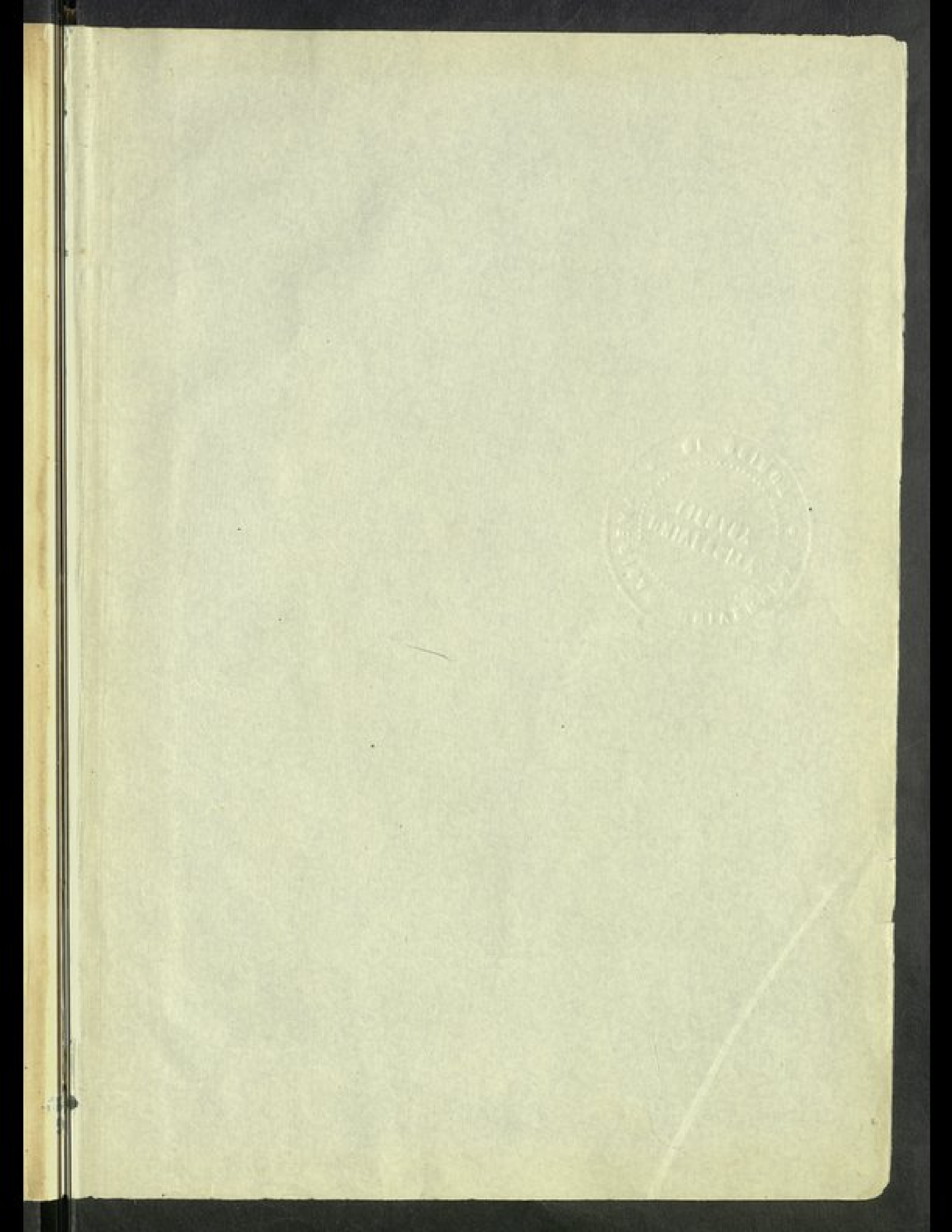



كمال حموده
وقل رب زدني علما
Kamal Hamouda



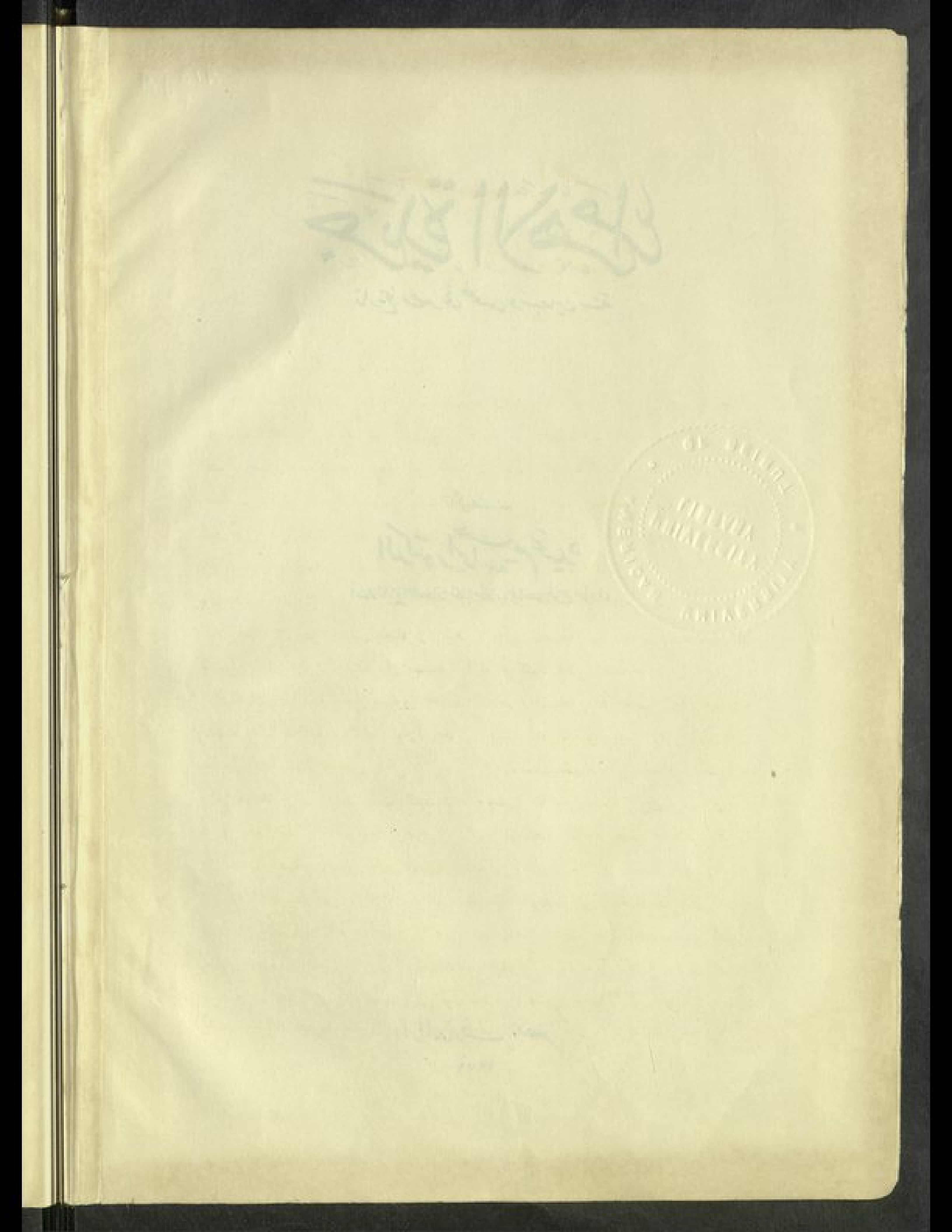


جريدة الأهرام

تاريخ مصر في خمس وسبعين سنة

تأليف
الدكتور ابراهيم عبده
أستاذ تاريخ الصحافة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

دار المعارف بمصر
١٩٥١



الأهرام
ديوان الحياة المعاصرة

للدكتور طه حسين باشا

« ديوان الحياة المصرية المعاصرة »

هذا أصدق وصف يمكن أن توصف به « الأهرام » كما أن أصدق وصف وصف به الشعر العربى القديم هو أنه ديوان العرب . حفظت « الأهرام » دقائق الحياة المصرية منذ خمسة وسبعين عاماً على اختلاف ألوان هذه الحياة وتباين فنونها ومذاهبها . حفظت دقائق الحياة السياسية منذ أواخر عهد إسماعيل فسجلت ما كان بين مصر وبين أوربا من تقارب وتباعد ومن تواصل وتقاطع ، فى تلك الفترة الدقيقة من حياة المصريين ؛ وسجلت الثورة والاحتلال ، وسجلت المقاومة المصرية الخفية ثم المقاومة المصرية الظاهرة . ثم الثورة بالاحتلال والمحتلين ، ثم ما كان بعد ذلك من الأحداث الجسام التى تتابعت إلى الآن . وهذا كلام يقال فى يسر ويؤدى معناه فى أسطر ، ولكن تفصيله ليس بالهين ولا باليسير ولا بالشىء الذى يمكن أن يؤدى فى صفحات قليلة أو كثيرة يمكن إحصاؤها ، وإنما الطريقة الوحيدة إلى تأديته هو صدور صحيفة كالأهرام تسجل الأحداث يوماً بعد يوم مفصلة غالباً مكتفية بالإشارة الموجزة أحياناً . وليس التاريخ اليومى لبلد كمصر أثناء خمسة وسبعين عاماً بالشىء الذى يمكن أن يصور فى الأسطر القليلة أو الصفحات الكثيرة ، وإنما هو محتاج إلى ديوان يفصله تفصيلا ، ويحصى دقائقه إحصاء لا يفوته منها شىء ، ويهيئ بذلك للمؤرخ أن يوازن ويقارن ، ثم يوجز ويختصر ، ثم يعرض الخلاصة القريبة فى الكتاب الضخم أو ذى الحجم المتوسط .

وهذا الديوان هو « الأهرام » ، فهى الصحيفة الوحيدة التى أتيح لها أن تماشى الحياة المصرية المعاصرة ثلاثة أرباع قرن ، تسعى معها متباطئة متثاقلة حين كانت الحياة المصرية تسعى متعثرة فى سعيها ، وتسرع معها الخطو نشيطة خفيفة حين كانت الحياة المصرية تستطيع أن تمضى إلى أمام مطمئنة إلى قوتها وأيدها ، وتجرى معها لا تلوى على شىء حين أخذت الحياة المصرية تعدو إلى أمام عدو الجواد الأصيل الذى لايريد أن يريح ولا أن

يستريح قبل أن يبلغ الغاية، والذى لا يكاد يبلغ غاية حتى تبدو له الأعلام تدعوه إلى غاية أخرى أبعد منها مدى وأصعب منها منالا ، ولكنه يعدو إليها جذع البصيرة قارح الإقدام، لا يحس جهداً ولا يدركه لغوب ، وإن أحس من حوله الجهد كل الجهد واللغوب كل اللغوب .

كذلك مضت « الأهرام » منذ نشأتها مع الحياة المصرية فى هذه الحقبة الطويلة ، لم تتعب ولم يدركها الكلل ولا الملل ، ونشأت من حولها صحف كثيرة سابقتها ما استطاعت مسابقتها ولكن الإعياء أدركها جميعاً فتعثر منها ما تعثر وتخلف منها ما تخلف وانقطع منها ما انقطع ، وظلت « الأهرام » وحدها مجلية حتى بلغت مع الحياة المصرية المعاصرة غايتها الأولى ، وهى ماضية معها إلى غاياتها الأخرى التى رسمها لها الزمان وأضمرها لها الغيب .

فإذا قلت إن «الأهرام» ديوان الحياة المصرية الحديثة ، يصورها أدق تصوير ويصفها أصدق وصف وأبرعه ، لم تكن مسرفاً ولا متكثراً .

***

والحياة السياسية لشعب من الشعوب لا تمضى وحدها وإنما تمضى معها ألوان أخرى من الحياة العامة : تمضى معها الحياة الاقتصادية وقد حرصت « الأهرام » أشد الحرص على تصوير هذه الحياة ومجاراتها كما صورت الحياة السياسية وجارتها . وتمضى معها الحياة العقلية وقد حرصت « الأهرام » على أن تكون لهذه الحياة مرآة مجلوة ناصعة فليس بين المصريين المفكرين الذين عاصروا «الأهرام» من عاش منهم ومن مضى إلى جوار ربه، إلا من شارك فى تحرير « الأهرام » من قريب أو بعيد ، وإذا صنعت « الأهرام » فى يوم من الأيام ثبتا بأسماء الذين شاركوا فى تحريرها من قرب أو بعد فما أظن إلا أنك ستجد فى هذا الثبت أسماء المصريين الذين كانت لهم فى الحياة العقلية مشاركة دون أن يشذ منهم واحد . وما أحسبنى أصور الواقع تصويراً صادقاً ! فلم يشارك المصريون وحدهم فى تحرير « الأهرام » أثناء هذا الدهر الطويل ، وإنما شارك فى هذا التحرير كل مثقف عربى يستطيع أن يجرى القلم فى موضوع من الموضوعات التى يمسها الشعر أو النثر ، وعسى ألا أكون دقيقاً فى هذا التصوير أيضاً ! فكل شرقى يحسن العربية قد شارك فى تحرير « الأهرام » مباشرة أو بالواسطة منذ استأثرت هذه الصحيفة بالزعامة بين الصحف الشرقية . وما أظن «الأهرام» صورت لوناً من ألوان الحياة كما صورت الحياة الأدبية العربية منذ عهد «إسماعيل» إلى الآن . صورتها بتلك اللغة المتكلفة الغامضة التى كانت لغة العقل والقلب فى أواخر القرن الماضى ، ثم جعل الوضوح والبساطة يجريان فيها قليلا قليلا كما يجرى الماء فى الغصن كلما تقدم الزمن . فإذا رجعت إلى عهدها الأول وجدت

فيها لغة القرن التاسع عشر . وإذا رجعت إليها فى أواخر هذا القرن وجدتها قد أطلقت لغتها من قيود التكلف والغموض . وإذا رجعت إليها فى أول هذا القرن الذى نعيش فيه وجدتها قد خطت بنثرها خطوات بعيدة ولكنها مستأنية فى سبيل الوضوح واليسر ، حتى إذا انقضت الحرب العالمية الأولى وجدتها قد اندفعت إلى الحرية الأدبية مع مصر كلها بل مع العالم العربى كله اندفاعاً عنيفاً حتى بعُد العهد أشد البعد بين لغة « الأهرام » لأول صدورها ، ولغة « الأهرام » بين الحربين ، شأنها فى ذلك شأن الأدب العربى كله ، مع هذا الفرق البسيط : وهو أن الأدب العربى قد تطور مع اختلاف الشعراء والكتاب بحيث لا تعرف شاعراً واحداً أو كاتباً واحداً يعرض عليك هذه الأطوار المختلفة للغة فى شعره ونثره ، إنما كتب جيل بلغة القرن التاسع عشر ، وكتب جيل آخر بتلك اللغة المتوسطة التى نعرفها بين الاحتلال والحرب العالمية الأولى ، وكتب جيل بهذه اللغة التى نكتب بها نحن الآن .. تعاقبت الأطوار على اللغة بتعاقب الأجيال التى تتكلمها وتكتبها ، أما « الأهرام » فشخصيتها واحدة منذ نشأت إلى الآن ولكن لغتها مختلفة أشد الاختلاف ، لأن « الأهرام » واحدة مختلفة إن صح هذا التعبير : واحدة بالفكرة التى أنشأتها والروح التى سيرتها إلى الآن ؛ مختلفة باختلاف الأقلام التى حررتها والأجيال التى عاصرتها وأحيتها بالكتابة فيها والقراءة لها . فالأهرام لا تصور منشئها ولا الذين أشرفوا على إدارتها وتحريرها بل هى لا تصور جيلا وإنما تصور الأجيال التى عاصرتها إلى الآن كما ستصور الأجيال التى ستعاصرها بعد الآن .

أصدق وصف للأهرام إذن هو ذلك الوصف القديم الذى كان يوصف به الشعر العربى ، فالأهرام ديوان الحياة المصرية بل ديوان الحياة العربية المعاصرة ، كما أن الشعر العربى القديم ديوان العرب القدماء ، على اختلاف شديد مع ذلك : فقد كانت حياة العرب القدماء يسيرة ساذجة متشابهة لا عسر فى تصويرها وتدوينها ، على حين نرى حياة العرب المحدثين عسيرة أشد العسر ، معقدة أعظم التعقيد ، متباينة كل التباين . فتصويرها ليس بالشىء الذى يكفى أن يراد لينال ، وإنما هو محتاج إلى الذكاء الواسع العميق النافذ الذى يعرف كيف يحصى وكيف يستقصى وكيف يستخلص اللباب وينفى القشور ؛ وهو محتاج إلى الإرادة القوية التى تعرف كيف تعزم وكيف تصمم ؛ وهو محتاج إلى الصبر الذى يعرف كيف يقهر المصاعب ويذلل العقاب ويثبت للخطوب حين تلم وينفذ من الظلمات حين تدلهم ؛ وهو محتاج إلى الشجاعة التى تعرف كيف تقدم حين يكون الإقدام عزماً وكيف تستأنى حين تكون الأناة حزماً ؛ وهو محتاج إلى الصدق الذى يعرف كيف ينبئ الأجيال المقبلة بحياة الأجيال الماضية ،

بل كيف بني الأجيال الحاضرة بحياتها ، وكيف ينصح لها في هذه الحياة لا يماري ولا يداري ولا يجاري ولا يألف الغش ولا المداجاة .

هو محتاج إلى هذه الخصال كلها، وبهذه الخصال كلها استطاعت «الأهرام» أن تنشأ واستطاعت الأهرام أن تعيش .

***

«الأهرام» ديوان الحياة العربية المعاصرة . وصف صادق من غير شك، ولكن ينقصه بعض الشيء : فالأهرام لم تسجل حياة العرب المعاصرين وحدها ولم يكن يمكن أن تسجل حياة العرب المعاصرين وحدها ، لأن الحياة الحديثة ليست كالحياة القديمة ، كانت العزلة ممكنة في الحياة القديمة إلى حد بعيد ، وكان الشعر العربي يستطيع أن يصور حياة العرب وحدهم لا يلم بحياة الأمم المعاصرة لهم إلا قليلا أما الحياة الحديثة فالعزلة فيها وهم من الأوهام وسخف لا يطمع فيه إلا السخفاء . حياة كل شعب من الشعوب المعاصرة قطعة من حياة الشعوب الأخرى، فتصويرها تصوير لحياة هذه الشعوب من بعض نواحيها على أقل تقدير .

وقد حرصت «الأهرام» على أن تصور للعرب حياة العالم الخارجي وتفوقت في تصوير هذه الحياة الخارجية، وانظر إن شئت إلى أي عدد من أعدادها في أي عهد من عهودها، فسترى أنه لا يصور حياة العرب وحدهم وإنما يصور للعرب حياة الأمم الأخرى إلى أقصى حد يستطيع أن يبلغه .

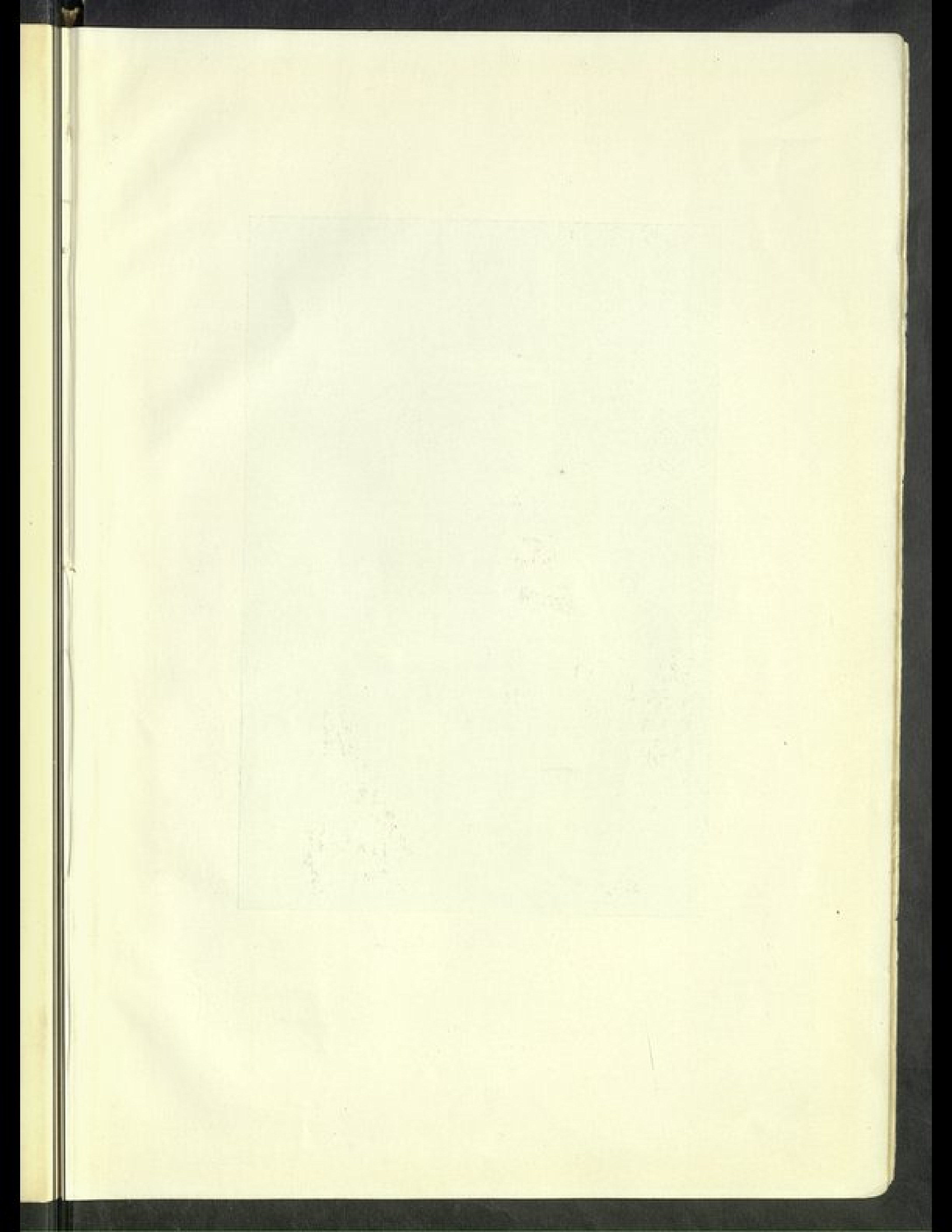
فالأهرام ديوان الحياة العربية المعاصرة ما في ذلك شك، ولكنها ديوان الحياة الإنسانية المعاصرة إلى أبعد حد تستطيع أن تصل إليه الصحف العالمية الكبرى . وما أقول هذا كله ثناء على «الأهرام» أو إطراء لها فحسب ، وإنما أريد بهذا كله شيئاً أعظم خطراً من الثناء والإطراء . فالأهرام درس حي للشباب الذين يستقبلون الحياة ويريدون أن يقهروا مصاعبها وينفذوا من مشكلاتها .

هذه العصبة التي تعاقبت على إنشاء «الأهرام» وإحيائها وتنميتها وتقويتها. إنما أتيح لها النجاح وكتب لها الفوز لأنها امتازت بكل تلك الخصال التي أشرت إليها آنفاً : بالذكاء النافذ والإرادة القوية وبالصبر والشجاعة وبالإخلاص والصدق. فلينظر الشباب إلى هذا النجح نظرة الطامع الطامح ، ولينظر إلى هذا الفوز نظرة المتأثر المتأسي الذي ينتفع بالقدوة الصالحة ويستفيد من الأسوة الحسنة. وليحب «الأهرام» لأنها تصور هذه الخصال كلها أولاً ، ولأنها بعد ذلك صحيفته إن كان كاتباً ، وصحيفته إن كان قارئاً ، وليتمن لها خير ما يتمنى الإنسان لمن يحب من اضطراد النجح والفوز .

فهرست



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول



كلمة المؤلف

فى صيف ١٩٤٢ أهديت إلى المغفور له جبرائيل تقلا باشا «تاريخ الوقائع المصرية» وهى الطبعة الأنيقة التى نشرتها الحكومة على نفقتها فى مطبعة بولاق . ولاحظ رحمه الله أنه أول مؤلف عن أقدم صحيفة رسمية فى مصر ، وتمنى أن يكون لصحيفته «الأهرام» تاريخ فى عيدها الماسى باعتبارها أقدم صحيفة شعبية مصرية ، ومنذ ذلك الحين وأنا تشغلنى فكرة صاحب الأهرام ، فتوافرت على دراسة صحيفته متمهلاً حتى إذا حل عام ١٩٤٨ أقبلت على بحث تاريخها زهاء ثلاث سنوات ، وجلت ذلك كله فى هذا الكتاب الذى يسعدنى أن يصدر فى عيد الأهرام الماسى ، مشتملاً على صور واضحة لهذا التاريخ الزاخر بالعبر والعظات .

وقد اعتمدت فى تأريخى لهذه الصحيفة على كثير من الوثائق الرسمية المحفوظة فى قصر عابدين أو فى إدارة المطبوعات ، كما راجعت الكتب المتصلة بالموضوع ، وصححت الأخطاء التى انطوت عليها ، واستندت فيما استندت عليه من مراجع إلى أقوال بعض الصحف المعاصرة التى عاشت مع الأهرام ردحاً من الزمن .

وكان أهم المصادر عندى جريدة الأهرام نفسها ، فهى مورد أصيل لتاريخها . وتحتفظ دار الأهرام بمجموعة كاملة من أعداد صحيفتها ، وليس فى دار الكتب ولا فى أى دار أخرى مجموعة كهذه المجموعة يمكن الاعتماد عليها أو الاطمئنان إليها .

وأحب أن أذكر فى هذه المقدمة القصيرة أن المتن كله من قلمى وأن الأستاذ الفاضل بولس غانم قد زاد عليه أبيات الشعر التى يراها القارئ تحت عنوان كل فصل أو خلال المتن فى حالة أو حالتين كما أضاف جميع العناوين الخاصة بالفقرات ، قاصداً معاونة القارئ على استيعاب المتن المثقل بالوثائق والأسانيد .

وأحب أن أذكر أيضاً أن الزمن لم يسعفنى باستكمال الفصل الأخير استكمالا

يقارن بالجهد المبذول فى بقية الفصول ، فتكرم المسئولون فى الأهرام بمراجعته وإضافة ما فاتنى وأنا أتهيأ للسفر فى طريقى إلى دراسة صحفية أخرى عبر البحر أو عبر المحيط ، فكان من الطبعى أن أذكر لكل جهده ، وهو واجب محتوم على من يؤمن بالبحث العلمى الذى يفرض إسناد الوقائع إلى أصحابها .

ثم بقيت كلمة شكر يجب أن تقدم لأصحاب الأهرام الذين تفضلوا بنشر هذا الكتاب فى هذه المناسبة السعيدة ، مناسبة مضى خمس وسبعين سنة على إنشاء جريدة « الأهرام » فإن هذا الكتاب لا يعنى تاريخ « الأهرام » وحدها ، بل يتضمن تاريخ مصر من وجهة نظر شعبية ، وهو نهج جديد فى دراسة التاريخ المعاصر ، أرجو أن أكون قد وفقت إليه أو أحسنت روايته .

القاهرة فى ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٥٠ إبراهيم عبده

رسالة الأهرام

العَلَم الذى تحييه اليوم بنظرة من الفخر وبسمة من الأمل ليس علماً ناعم الملمس مزدهر الألوان ، لا ينشر إلا فى مباهج الزينات . هو علم مجعَّد ممزق ، بقَّعته دماء الأبطال ، لأنه جرَّر أذياله خمساً وسبعين سنة فى ساحات القتال . ولا نملك تحية له أوفى بتكريمه من رفعه إلى أوج ساريته ، ليُنشدنا المعانى الروحية التى تعمر ثناياه ويصطفق بها فى زرقة سمائه .

سايرت « الأهرام » ثلاثة عهود من تاريخ مصر الحديث ، طال كل منها ربع قرن على التقريب : كان العهد الأول الشطر الرابع من القرن الماضى ، وفيه نزل « إسماعيل » عن العرش ، وشبت الثورة العرابية ، وتوطدت أركان الاستعمار . وكان العهد الثانى الربع الأول من القرن العشرين ، فشهد بشائر النهضة القومية ، وتيمن باستكمال أسبابها ، وتم فيه الاستقلال أولى غاياتها . وجاء العهد الثالث ، عهد التنظيم لمرافقنا العامة ، ومشاطرة العالم المتحضر عبءَ الحضارة . فهى عهود ثلاثة عالجت مصر فى خلالها ما خص شطراً منها ، أو عمها كلها ، من أزمات سياسية نفسية ، ومشكلات اجتماعية خلقية ، تمت إلى أعمق المذاهب أثراً فى تطور الأمم العصرية . فبعضها يتصل بشرعية القوة فى فلسفة الاستعمار ، وبعضها بقضية الحرية ، أو معنى الحكم الديمقراطى أو واجب القادة والزعماء ، وبعضها بسلطان الدولة أو حق الفرد على الجماعة ، أو الصراع بين العمل ورأس المال .

ذلك مجمل الكفاح الوطنى فى واسع مدلوله ، شقَّت « الأهرام » أقوم سبله ، وعيدنا اليوم الطواف بميدانه ، نستذكر القيم المعنوية التى استلهمتها فى هذا الكفاح ، فنجمع ما ضفر القدر على جبينها من أكاليل الغار ، فى باقة نعاهد الوطن على تجديد نضارها كل يوم من حياة « الأهرام » .

نكبت مصر بالاحتلال البريطانى وصحيفتنا بنت سنوات ، فانبرت فى حداثتها الجريئة تقاتل الاستعمار ، فتنكر على أية دولة أن تظن نفسها أولى بالحياة الناعمة فتثرى على قوت أمة جائعة . تنكر أن يكون عبء الرجل الأبيض فى بلاد السود والصفر عبء مغانمه الفادحة . وكان مصدر وحيها فى طلب الاستقلال وجوب التحرر أولا من قيود الذات ، فأبت إلا أن تقرن جهاد السياسة بجهاد الأخلاق .

وشبّت مصر عن الطوق فتطلعت إلى الحكم الدستورى ، وكان الخطر أن تحسب النظم الحرة كفيلة بأن تخلق الشعوب الحرة . والحق أن الشعب الحر لا يستمد حريته من نظمه ، وما نظمه حرة إلا لأنه يخلع عليها الحرية بذاته . الديمقراطية التى يعوزها الديمقراطيون شر دكتاتورية ، ومن آمن بأن النظم الحرة تنقذ الحرية لم يؤمن بها بل يمقتها لشعوره بأنه غير أهل لها . وسيان أنكرها أو ادّعى الإيمان بها فقد صار لا يعرف كيف يستخدمها ، وما أهون أن يفقدها بعجزه عن استخدامها ! وبعد ، فإن حكمها حكم جائر ، إذا بقيت مسطورة فى القوانين مع أنها محيت من الضمائر !

وكان الخطر أن نتلقى الحرية كأنها منحة توهب ، أو علم يُلَقَّن . وهى قوة منبعها النفس فمردها إلى أصول التربية . يسعى لها بعضنا على أنها حق نظرى يُطلب لذاته ، ويُغنى نيله عن مداومة الظفر به . فلا يرونها إلا نعمة ، وهى مصدر التزام . دعة النفس كل خير يرجونه منها ، إذن يؤثرون عليها هذه الدعة ، فتنبت الحرية فى نفوسهم من أعماق الأنانية . توهموا أنهم يحبونها وهم لا يحبونها إلا لأنهم ينعمون بها . هى فى الأصل داعية للتضحية ، ولا يرتضونها إلا بشرط أن تغنيهم عن التضحية ، وإذا قيل لهم أن لا مندوحة للمجتمع عن قدر من البذل والتجرد ساوموا الغير على أن يؤدى بدلهم القَدْرَ المفروض عليهم من هذه الجزية . . . إنهم يغنمون ربح الحرية فى روح من العبودية .

وكان الخطر أن تقتل الحرية فى الذود عنها ، ولا سبيل إلى الذود عنها إلا بوسائلها . فالفاجعة أن تضيع الحرية باسم الحرية إذ تطلب حمايتها بالجور وليس يحميها الجور حتى على أعدائها . شجرة الحرية لا تنمو بارتوائها من دماء الطغاة . فلا ينقذها البغض بل ينقذها الإخاء . تعساً لمن ينظم الحرية على الأساليب العسفية ، ويتمثل الديمقراطية وفقاً لمبادىء الدكتاتورية . حرية الفرد لا تستقيم إلا بحرية غيره ، كما أن مقياس الديمقراطية حرية فكره . وكم منا مَن يخون حرية الفكر لأنه لا يدافع عنها إلا لنفسه !

* * *



الخديوى إسماعيل : وله فى تاريخ الصحافة المصرية تاريخ

وأهلّ النظام النيابي فأشفقت « الأهرام » من انحرافه عن جادته المثلى بآفتين من طغيان العدد وممالأة القادة لسلطانه الأعمى . فإن كان العالم الذى تسطو عليه القوة عالم مقت ، فإن العالم الذى يسطو عليه العدد عالم خزى . القوة العاسفة قد تغزو كل شيء دون أن تملك شيئاً ، ولكنها قد تخلق أبطالا بالدفع إلى الثورة . أما عسف العدد فجرثومة فساد تسرى فى جسم الجماعة ولا تبعث فيه حمى . حتى لقد صار يجب على بعض الدساتير الديمقراطية أن تتضمن حكماً يقيها شر الديمقراطية، بعد أن راحت الديمقراطية تشكو علة من العلل الشبيهة بالأدواء الجسمانية الناشئة عن نقص غذائى ، وما علة الديمقراطية إلا نقص الإباء ، نقص الشرف ، نقص البطولة .

لذلك طلبت « الأهرام » للشعب قادة يخدمونه لا يستخدمونه ، وقالت للساسة الذين يتملقونه : ما كنتم لتحظوا بسلطانكم عليه لو لم تستغلوا جوانب الضعة من قدره ، وأنتم إذ تنادون به ملكاً عليكم تنضوون فى عداد المهرجين من حاشيته . ولئن كان نيل الغرائز أعسر استغلالا من الأثرة والحقد فتذكروا أنه أدرّ عليكم للربح ما دمتم لا تقيسون قدر العمل إلا بربحه .

• • •

وباشتراع النظم النيابية تضاعف حق الشعب على الصفوة من أبنائه إذ تضاعفت حاجته إلى العلم والآداب العامة ، ووجب على النخبة من الشعب أن ترضى بالغرم فى مبادلته المنفعة . وكم راحت « الأهرام » تقول لهذه النخبة بلسان الأحداث الواعظة : المدنيات لا تموت كصرح ينهار فجأة فى ضجة ، بل تموت كشجرة تفرغ من مائيتها فى صمت ، يوماً بعد يوم ، حتى لا يبقى منها إلا لحاؤها . ونفوسكم مائيتها الخفية ، ولكنكم تتحررون من نفوسكم إذ تضعون عنها الأعباء المنطوية تحت ميزاتها يا أصحاب الضمائر الشاحبة . كيف يحق للصفوة أن تطالب بحق المحافظة على ذاتها وهى لا تسأل نفسها هل تحافظ على المثل الأعلى الذى تستمد منه حقها ، وهل هى باقية نخبة لتبقى على أداء الواجب المنوط برفعتها ؟ ولا عجب فإن الجماعة التى يستمنحها قادتها أكثر مما يمنحونها، جماعة معكوسة الآية مآلها إلى الفوضى . والصفوة ، حتى فى النظام الديمقراطى ، أرستقراطية إن لفظاً وإن معنى ، والأرستقراطية لا تحيا إلا من التضحيات التى تبذلها ، وهى تموت من الواجبات التى لا تحسن تأديتها .

• • •

وفى مستهل القرن العشرين دخل النزاع بين حق الفرد وسلطان الدولة طوراً بات يرتهن بأمره مصير الحضارة . وكانت « الأهرام » تهيب بالدولة أن تقوى شوكتها لتستغنى عن العنف بالقوة . ولكنْ لما نزع تطور الأخلاق السياسية إلى تأليه الدولة ، نادت « الأهرام » بحقوق للفرد تهدرها الجماعة للفرد ، وتأبى عليه شريعته الإنسانية النزول عنها ، وذهبت إلى أن إغراق الدولة فى بسط سلطانها على الفرد مقياسه جبن الرعيّة ، وأن السلطة الزمنية تزداد حينئذ بما ينقص من القيم الروحية . ولا ريب أنه إذا فرضت الجماعة على الفرد من الواجبات ما ينفى طبعه وينفى طبعها ، كان واجبه الأول أن يرميها بنقض النظام الخلقى من حيث أنها لا تطلب قيامها للإنسان بل تطلب قيام الإنسان لها . عندئذ لا يكون للدولة من ند إلا رجل ، ليس هو الرجل العاصى ، ليس هو الرجل الفوضوى ، بل هو الرجل الحر لأنه الرجل القوى .

* * *

وتجبرت سطوة الآلة وطغت على الحضارة الموروثة ، وصارت الآلة تقص أطراف الشخصية ، فلم يعد التقدم رقى الإنسان بل رقى العلوم الفنية ، أو رقى الوسائل المصطنعة لاستغلال المادة الإنسانية . قيل عن الإنسان إنه حيوان دينى ، وراحت مدنية الآلة نعرّفه بأنه حيوان اقتصادى ، فصار جوهراً جامداً تتحكم فيه الجبرية الاقتصادية ، ولا أمل له فى التحرر من ربقتها لأنها لا تعرف قانوناً إلا قانون الربح والفائدة . وهكذا صار الإنسان قدراً مهملا فى ذاته ، لا قيمة له إلا باستخدامه عنصراً من عناصر الجماعة التى تفنى فيها قوة فرديته .

وفى هذا وذاك اشتد النضال بين القديم والجديد : قديم يدعو إلى الثبات والمداومة ، وجديد يطلب الحياة فى الحركة . فكان الأول رادعاً ، والثانى دافعاً . ونادت « الأهرام » بأن كليهما يؤدى وظيفة لازمة ، فما القوتان متعارضتان بل متكاملتان . ذلك أن الإبقاء على كل تقليد ضرب من الحمق ، والقضاء على كل تقليد لون من العسف . فرأس الحكمة أن يذعن الحى لقانون الحياة ، وقانون الحياة البقاءُ مع التجدد والتجدد مع البقاء . فالمحافظ الحكيم إذا أبى جناء الثمرة الفجة سلّم بأن النضج يتعجل الجناء . والثائر الحكيم مهما يعبث بالقديم لا ينسى أن القديم هو الساق الذى تتفرع عليه الأغصان .

واجترأ القديم على الجديد بلسان دعاةٍ للرأسمالية أسبغوا على حق التملك معنى مطلقاً لا يرعى الخير العام ولا يصون كرامة العمل ، فاستنكرته « الأهرام » على أنه ظاهرة من

ظواهر المادية ، وأبت أن تقيم على أركانه الكافرة معبد المدنية .

واجترأ الجديد على القديم مشيداً بسلطان الطبيعة ، يظن الظنون بأصول الدين ، فنادت « الأهرام » أن ردوا الله إلى الشعب وردوا الشعب إليه ، ثم تولوا الدفاع عن حقوق الله لأن حقوق الإنسان مستمدة من حقوقه . وتلفتت إلى الفتيان الحائرين يطلبون وميض نار فى رماد الفوضى الفكرية أو الإباحة الخلقية ، الفتيان الذين إن علموا كيف يستخدمون سواعدهم لا يعلمون كيف يستخدمون قلوبهم ، فدلتهم إلى القمم من المثل العليا ، وإن تكن القمم التى تستجلب الصواعق . . . أهابت بهم أن يجعلوا من الحياة حلماً ومن الحلم حقيقة ، وتوسلت إلى الشاب أن يبقى شاباً قائلة له إن الشباب ليس طوراً من أطوار الحياة بل أثراً من الإرادة والفكر ، يومض فيهما بريق الشعر . . . لا تتجعد النفس إلا بنزولها عن مثلها الأعلى . فالشك والخوف واليأس ، ذلك ما يحيلها تراباً قبل الردى .

• • •

وشاءت فعلة من الأقدار أن تتفرق الكلمة بعد جمعها كأن الاستقلال لم يكن ثمرة اتحادها . فتحتم علينا أن نتعلم كيف يصير الشعب الحر شعباً قوياً . وكانت « الأهرام » أول من سمع الأموات يشكون خيانة الأحياء ، فدعت الأحياء إلى الوفاء بدَينهم للأموات . وكان عقوق الأحياء تنابذاً وقطيعة ، فصاحت بهم : فيم الخصام ونحن إخوة لأم واحدة هى الحرية ؟ التعصب آية العجز عن الإيمان ، وفيه سخف الدعوة إلى التآخى بالإكراه . والتعصب بغض ، وليس البغض مبعث قوة إلا فى النفوس الوضيعة . فهل هى القوة الكفيلة بأن ترفع شأن البلاد ؟ ليس إلا لأبطال الوطن أن يقولوا ما فى سبيله يفعلون ، على أن أبطاله يفعلون ولا يقولون . والوطن لا يرضى المفاخرة بين موفور ومعدوم فى أداء الواجب الوطنى ، لأن عرق العامل هو دم الجندى .

قامت « الأهرام » تفتّح العيون وتفتّح القلوب ، وتستخرج صوت الرجاء من أعماق القبور . تقول للقوى : إن الظلم قوة الجبان ، وتقول للضعيف : لا أسألك ما حزبك ، ما دينك ، بل أسألك ما تشكو إلى الديان . وتقول لأرباب الحكم : إن حكمتم ضعيفاً أو قوياً فلا يكفى أن تعدلوا فى الرعية وتقيسوا بالسوية ، بل اجعلوا من أهل السعادة من أردتم أن يكونوا من أهل الفضيلة .

• • •

هى المثل العليا التى تيقظ على نغمها الوعى القومى ، وبروحها اشترعت « الأهرام »

استقلالها فى الرأى ، وولاءها للعرش ، ونضالها من الحق ، فكان استقلالها ترفعاً فوق ما يحجب الأفق من تراب ودخان ، وكان ولاؤها براً بمعنى السلطة وإجلالا للنظام ، وكان نضالها تقديساً لقيمة الإنسان .

مصارع لنزعات الفكر ثبتت فيها « الأهرام » كالدوحة المتجبرة تهصر الرياح فروعها ؛ ولكنها دوحة تؤمن بأصولها فتعلم أنها لا يمحقها إلا الصاعقة .

هذا تراث « الأهرام » نودعه عناية الله باسم مؤسسيها « سليم وبشارة تقلا » ناسجى شعارها ، وباسم مجددها بل منشئها الثالث « جبرائيل تقلا » رافع منارها ، باسم صاحبها الكريم وصاحباتها الكريمات ، نعمت بهم ونعموا بها ، ينشرون ما انطوى من صفحات ، تخفق فيها روح « الجميّل » بعد روح « مطران » وروح « بركات » ، وأستميحهم الإذن فى أن أضم إليهم أصحاباً أخر « للأهرام » صارت ملكهم بحق حدبهم عليها ، وإكبارهم لمهمتها ، هم مئات الألوف أو عشرات الملايين من قرائها السابقين واللاحقين ، لأنهم كل مصرى أو كل شرقى عربى رَهن َ أو برهن بجهود صحيفته ما يطلب لبنى قومه من تثقيف وتهذيب .

عاشت « الأهرام » لرفعة الوطن فى قوة الوحدة وسعادة الإخاء .

عزيز ميرزا

رئيس التحرير بالنيابة

الكتاب الأول

١٨٧٥ - ١٨٨٢

الصحافة فى الأرض الطيبة

رسا أصلها تحت الثرى وسما بها إلى النجم فرع لا ينال طويل

« السموءل »

ترجع معرفة المصريين لفن الصحافة إلى ثمان وسبعين سنة سبقت ظهور العدد الأول من جريدة « الأهرام » أم الصحف العربية .

وإذا كان علم المصريين بالصحف ورسالتها لم يكن واضحاً لهم يوم عرفت بلادهم هذه المهنة فذلك مرجعه إلى أن الصحيفتين الأوليين اللتين ظهرتا فى مصر كانتا غريبتين على حس المصريين ولغتهم إذ كانتا من صنع الحملة الفرنسية التى قادها الجنرال بونابرت وغزا بها مصر وبعض بلاد الشآم .

وهاتان الصحيفتان هما « كورييه دوايجبت » Courrier de l'Egypte و « لاديكاد اجبسين » La Décade Egyptienne اللتان أنشئتا سنة ١٧٩٨ ، وكانت الصحيفة الأولى للدعاية ونقل الأخبار وتوجيه الإرشاد إلى الجنود الفرنسيين فى مختلف الأرجاء المحتلة . وكانت الصحيفة الثانية الصادرة فى أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ صحيفة علمية وقفت حياتها على دراسة الشؤون المصرية من اقتصادية وأدبية وتاريخية واجتماعية[١] .

ويستطيع المؤرخ للصحافة المصرية أن يحكم بأن الجريدتين الفرنسيتين لا تمثلان الصحافة المصرية فى شىء .

ولم يحاول بونابرت أن ينشىء صحيفة عربية تكون أجدى عليه وعلى صحبه فى توجيه المصريين وتعميم الحضارة الجديدة التى حملها معه إلى وادى النيل . وقد كان ذلك فى مقدوره بما حمل معه من مطابع وحروف ، وقد جعل فعلا من هذه المطابع العربية إحدى الوسائل

(١) إبراهيم عبده — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية . القاهرة ١٩٤١

لاتصاله بالمصريين بما كان يذيعه عن طريقها من منشورات « ألصقوا منها نسخاً فى مفارق الطرق ورؤس العطف وأبواب المساجد »[1] .

جريدة التنبيه

فلما تولى الجنرال « منو » حكم مصر بعد « كليبر » ، وكان قد أشهر إسلامه ، فكر فى أن يقارب بين تفكير الفرنسيين والمصريين فأمر بإصدار جريدة « التنبيه » L'Avertissement فى ٢٦ نوفبر سنة ١٨٠٠ على أن توزع فى جميع أنحاء مصر واليمن والشآم وأن يتولى تحريرها الشيخ الخشاب أحد أعلام الأدب فى ذلك الوقت .

ولو أن هذه الجريدة صدرت يومئذ لكانت أم الصحف العربية المصرية ، ولكن الأمل الذى كان معقوداً بظهورها لم يتحقق لما نشب من حروب وثورات داخلية فبقى أمر إنشائها معطلا[2] . وهكذا لم تشهد مصر صحيفة عربية رغم المحاولات التى بذلها الفرنسيون لإنشاء جريدة التنبيه .

الوقائع المصرية

ولما ولى محمد على الكبير شؤون مصر أنشأ سنة ١٨٢٨ الصحيفة العربية الأولى فى الشرق العربى وهى « الوقائع المصرية » التى تخطت جميع الصعاب وبلغت فى عامنا هذا اثنين وعشرين عاما بعد المئة .

وقد كان غرض « ولى النعم » من إصدارها استكمال مظهر من مظاهر السلطان لأن الحكومات الواعية لدى الأمم المتحضرة جرت على أن يكون لها لسان يعبر عنها ، لذلك كانت « الوقائع المصرية » وسيلة من وسائل الحكم وعنواناً على الدولة ووثيقة تؤرخ نشاط الحكومة ، كما كان لها نصيب فى التوجيه والإرشاد العام .

وهكذا سدت الوقائع المصرية فراغاً لم يسده « جورنال الخديو » الذى كان أشبه بالأوراق الخبرية منه بالصحيفة السيارة ، وقد نشرت هذه الجريدة فى سنة غير معروفة بعد إنشاء مطبعة بولاق سنة ١٨١٩ — ١٨٢٠ وقبل ظهور الوقائع المصرية بزمن قصير ليتعرف بها الباشا أحوال البلاد والعباد .

وقد مضت الوقائع المصرية تصدر فى عهود محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وهى فى حالى الإملاق والرخاء صورة طيبة لصحيفة حكومية ، زاخرة بالأخبار الرسمية مقلة من الأخبار العامة . وكان المقال فيها قطعة من أدب جلّه كلمات محفوظة وأسجاع

(١) الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . ج ٣ ص ٢٠ .

(٢) إبراهيم عبده — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر من صفحة ٩٧ إلى ١٠٨



سليم تقلا بك
أحد مؤسسي الأهرام

منمقة تتخلله ألفاظ تركية وعبارات غريبة وأفكار قاصرة تتفق واتجاه العصر الضيق الأفق بالقياس إلى ما أثر عن تقدم المصريين فى النصف الثانى من عهد الخديو إسماعيل[1] .

الجريدة العسكرية – الجورنال الجمعى

وظلت الوقائع المصرية وحدها فى ميدان الصحافة حتى أصدر محمد على صحيفة أخرى خاصة بالجيش سنة ١٨٣٣ أسماها « الجريدة العسكرية » ثم أصدر إبراهيم باشا حين ألقيت إليه مقاليد الأمور « الجرنال الجمعى » فى سنة ١٢٦٤ هـ . محتوياً على « الأشياء التى تباع فى ظرف كل جمعة بساحات وسواحل مصر واسكندرية . . . » ويقوم ديوان المدارس بجمع هذه الأخبار بوساطة المديرين والمأمورين على أن تضمن هذه الصحيفة إلى ما ذكرنا « أخبار العلل وطرق علاجها وأخبار الترع والجسور وأنباء العمارات والحوادث التى تتصل بالقناطر والخسائر التى تنزلها الفياضانات والمجهودات التى تبذل لإصلاح الحال . . . »[2] .

عصر الخديو إسماعيل

كأنك شمس والملوك كواكب إذا ما بدت لم يبد منهن كوكب

« النابغــة »

وأقبل عصر الخديو إسماعيل عصر النور والحضارة فاستقبلت مصر مع عصره الزاهر نهضة صحفية ملحوظة . وقد شارك إسماعيل العظيم مشاركة أصيلة فى هذه النهضة المباركة وبرز فى ميادينها سخيا بالبذل مشجعاً بالعطف الأدبى .

يعسوب الطب – الجريدة العسكرية – جريدة أركان حرب الجيش المصرى

أنشأ إسماعيل سنة ١٨٦٥ صحيفة طبية أسماها « يعسوب الطب » كانت ميداناً للأطباء من المصريين والأجانب ومما يؤثر عنها أنها كانت أول صحيفة أذنت للنساء بالكتابة فيها فقد كانت القابلة جليلة تمرهان توافيها بالمقالات الفنية .

وأنشأ إسماعيل صحيفتين للشؤون العسكرية أولاهما سنة ١٨٦٥ أسماها « الجريدة العسكرية المصرية » يرى فيها القراء العسكريون والمدنيون « فوائد جليلة وإرشادات جميلة لا بد منها لكل إنسان متمدن ولابأس بها لكل حاذق متفنن من المعارف النافعة والفنون المتنوعة مع

---

(١) راجع إبراهيم عبده . تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨ — ١٩٤٢ الطبعة الأولى ١٩٤٢ أو الثانية ١٩٤٢ أو الثالثة ١٩٤٦

(٢) محفوظات عابدين التاريخية — وثيقة رقم ١٩٨ دفتر ٧٥٩ — ديوان الخديوى فى ١١ ربيع الآخر ١٢٤٦

ما ينضم لذلك من تحلية هذه المجموعة بإدراج يوميات ما يحصل فى سائر أقطار الدنيا من الحوادث الكبيرة البولوتيقية » .

وسميت الصحيفة الثانية التى أنشئت سنة ١٨٧٤ « جريدة أركان حرب الجيش المصرى » ولم تكن هذه الصحيفة للعلوم الحربية الخالصة فحسب بل كان فيها من المعانى الوطنية فصول عن « وقائع الجيوش المصرية المظفرة فى الشام وبلاد العرب وكريت وغيرها » .

مجلة روضة المدارس

وختم الخديو إسماعيل مآثره على الصحافة الرسمية بإنشاء مجلة : « روضة المدارس » فى سنة ١٨٧٠ وكانت للطلاب والمعلمين : « تتضمن الفوائد المتنوعة والمسائل المتفرعة . . . بقلم سهل العبارة واضح الإشارة حتى تنكشف للعامة مخدرات العلوم وتستضىء بنورها أرباب العقول السليمة وأصحاب الطبائع المستقيمة »[١] .

جريدة وادى النيل لعبد الله أبو السعود

وأنشأ عبد الله أبو السعود وهو أديب معروف فى ذلك العصر صحيفة وادى النيل سنة ١٨٦٧ وكانت أسبوعية تصدر فى القاهرة تشبه الوقائع المصرية من حيث المنهج وتوجيه المسائل العامة والنظر إلى الأمور .

نزهة الأفكار لإبراهيم المويلحى وعثمان جلال

وأصدر إبراهيم المويلحى وعثمان جلال وكانا على جانب من العلم والاستعداد مجلة « نزهة الأفكار » سنة ١٨٦٩ بيد أنه لم يصدر منها إلا عددان اثنان ثم صادرتها الحكومة لانتقاد خفيف وجهته إلى بعض المسائل الخاصة بالجيش[٢] .

روضة الأخبار لمحمد أنسى

وفى سنة ١٨٧٥ نهج محمد أنسى نهج أبيه عبد الله أبو السعود فأنشأ « روضة الأخبار » لتحل محل جريدة وادى النيل التى تخلفت فى الطريق فجاءت صورة مطابقة لجريدة أبيه بما حملت من موضوعات ومقالات فى السياسة والأدب .

وفى هذه الصورة بلغت الصحافة المصرية مكانها فى سنة ١٨٧٥ فإذا هى صحف معظمها

---

(١) راجع فى ذلك كله فصلا عن تطور الصحافة الرسمية فى كتاب إبراهيم عبده « تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية » .

(٢) إبراهيم عبده . تطور الصحافة المصرية — طبعة ثانية صفحة ٦٥

من صنع الدولة . مرهون ظهورها واحتجابها بعطف الحكومة ومساعدتها ، حتى إذا تقررت المسؤولية الوزارية وكفّ إسماعيل يده السخية أفل نجمها على مدى الأيام ، وهذه الصحف جميعها لم يكن محرروها مهما سمت أقدارهم يملكون نشر موضوع إلا إذا أتاهم الوحى من الأمير ؛ فشاعت فيها الدعوة للحكومة ، وإذا رأيت فيها أثراً من الآثار الأدبية فجله منقول من الأدب القديم ، وقل أن تقرأ فيها موضوعاً محلا لنقد الكاتب وتحليله .

الطباعة فى لبنان وسوريا وهجرة أدبائهما إلى مصر

ومنذ سنة ١٨٧٥ رأينا المهاجرين من أدباء اللبنانيين والسوريين يفرون إلى مصر انتجاعاً للحرية بتشجيع إسماعيل، ويساهمون فى إرساء قواعد الصحافة ، وقد كانوا أهل علم وأدب يؤيدهم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نشاط أدبى ومطبعى ملحوظ .

فقد كانوا فى ميدان الطباعة أقدم سكان الشرق العربى لمعرفتهم بأدوات هذه المهنة الرفيعة ، وقد عرفت بلادهم المطبعة قبل أى بلد عربى ، فقد أنشأ أحد رجال الدين من الموارنة مطبعة عربية فى حلب حوالى سنة ١٧٠٢ ونقل إليها الحروف من بخارست بينما كان علماء الدين فى تركيا وولاياتها الأخرى يرونها — حتى بعد ذلك بمائة سنة — رجساً من عمل الشيطان[١]

ثم وفق الكاثوليك من ناحيتهم فى إنشاء أكبر مطبعة عربية فى بيروت سنة ١٧٥٠ . وكانت هذه المطابع تؤدى رسالتها أحسن الأداء فأصدرت كثيراً من الكتب الدينية أولا ثم أصدرت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بعضاً من الكتب العلمية والأدبية .

وكان الأمل وثيقاً بأن تسير هذه النهضة المباركة سيرها بمؤازرة نوابغ الكتاب والأدباء وقادة الفكر والرأى أمثال المعلم بطرس البستانى وزملائه وتلامذته لولا ما أصاب تلك البلاد سنة ١٨٦٠ من المآسى والثورات الدامية التى وقفت إلى حين ذلك النشاط العلمى الرفيع .

ثم عاد هذا النشاط بعد زوال الغمة فكثرت المطابع وتعددت الصحف وأخذ رجال الفكر والقلم يؤلفون وينتجون .

ولاية السلطان عبد الحميد الثانى

فلما ولى السلطان عبد الحميد عرش الخلافة العثمانية تعثرت هذه النهضة المباركة لأنه

---

(١) راجع : Lord Lindry, Letters on Egypt,, Edom and the Holy Land, V. I. p. 60.

لم يرض أن تنال تلك الصحف أعماله وأعمال حكومته بالنقد والتجريح ، وكانت تمثل هذه الصحف جرائد الجوائب والبشير والجنان والجنة وثمرات الفنون فى بيروت[1] فتقيدت حريتها وأقام عليها السلطان رقابة صارمة حتى صارت جسماً بلا روح تأتمر بأمره ونهيه .

ويذكر فيليب دى طرازى المؤرخ المعروف بعض فعال الرقيب بالصحافة مستشهداً بقول شوقى فيه :

لو ابتـلى الله بـه عاشـقاً   مات به ، لا بالجوى والولـه
لو دام للصـحف ودامت لـه   لم تنج منـه الصحف المنزلـه

هجرة الصحفيين إلى مصر

وهكذا لم تعد الحياة الحرة ممكنة فى لبنان وفى ربوع الشآم فسئمت نفوس الأدباء والمفكرين والأحرار فيها ، فهاجروا جماعات إلى وادى النيل حيث كان إسماعيل العظيم سخى اليد شديد العطف يتمثل بالخلفاء العباسيين الذين كانوا يقربون إليهم العلماء والشعراء ويغدقون عليهم العطاء . فأخذ يعمل على إحياء الآداب العربية ويجود بهداياه على رجال الصحافة ، تخص منهم بالذكر بطرس البستانى عميدهم فى بيروت وأحمد فارس الشدياق زعيمهم فى الآستانة[2]

ويذكر لنا الفيكونت دى طرازى الأسباب والدواعى التى دفعت باللبنانيين والسوريين من رجال الأدب والفكر الحر إلى أن يأخذوا سيرهم إلى البلد الطيب فيقول : « كان الخديوى إسماعيل يمدهم بالمال ويشد أزرهم فى كل الأمور طمعاً بما كانت تتوق إليه نفسه من حب الاستقلال . . . ولولا تنشيطه الأدبى والمادى لبقيت الصحافة منحطة ولما شاهدنا منها تلك النهضة الكبيرة . . . ولم يكن الخديوى وحده المعين للصحافة والأدب بل ساعد وزراء مصر فى تعزيز هذه الحركة الأدبية »[3]

هذا كله ذكره دى طرازى وهو يمثل رأى اللبنانيين والسوريين جميعاً فى الظروف والأسباب التى دعت أدباءهم ومفكريهم إلى الهجرة لمصر ، فإن خديوها إسماعيل كان يختلف أشد الاختلاف عن نظرائه من ولاة الدولة العثمانية بل يراه كثير من المؤرخين فى مقدمة المفكرين أصحاب المثل والأهداف ، وهو أسرع من جيله وأقوى من سلفيه وأقدر من حاشيته .

---

(١) كانت الجوائب أكبر الصحف العربية فى الشرق الأدنى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وكان لصاحبها صلة وثيقة بالخديو إسماعيل (راجع أعلام الصحافة العربية لابرهيم عبده — الطبعة الثانية ص ٣٦ وما يليها)

(٢) راجع دى طرازى ج ٢ ص ٧

(٣) طرازى ج ٣ ص ٤

وقد رسم إسماعيل سياسة معينة للاستقلال بمصر وعمل على الدعاية لهذه السياسة عند السلطان ولدى الدول الأوربية وجعل من أهم وسائله الصحافة والصحفيين .

رسل إسماعيل وعيونه

فأقام فى الآستانة ثلاثة دعاة هم إبراهام بك وعلى بك الكريدى وأحمد فارس الشدياق صاحب جريدة « الجوائب » الذى كان يشرف أيضاً على هذه الدعاية فى بلاد الشام ويتوسط لدى أدبائها الأعلام ورجالها المفكرين

وأقام فى باريس سليم بك على رأس مكتب يدعو لسياسته عن طريق مكتب المطبوعات الفرنسى والصحف الباريسية . وتولى الكونت زيزنيا الدعاية له فى الصحف البلجيكية كما قام بهذه المهمة فى صحف إيطاليا قنصلها العام فى الإسكندرية ، وكان له فى تونس سليم الشدياق محرر جريدة الرائد التونسى[١] .

ويقول لويس شيخو المؤرخ اللبنانى : وكان للأمير المصرى « صاحب الأريحية والتنشيط » صلات متصلة بصحف لبنان وفى مقدمتها « الجنان والجنة » وغيرها من الصحف التى أعانها إسماعيل فى سخاء كان مضرب الأمثال . لذلك لم تدهش حين وضحت لنا هذه الحقائق التى سببت هجرة الممتازين من أصحاب الأقلام من الشام إلى مصر، وفى مقدمتها ضيق الحياة الحرة فى ذلك القطر واتساع الآفاق فى الأرض الطيبة بأميرها الممتاز .

ولم يكن الخديو إسماعيل وحده الذى جعل تجاوباً بين مصر ولبنان فى الروح والمزاج ، بل إن كبار نظاره قد تنافسوا فى تأييد الصحفيين ولا سيما رياض باشا وشريف باشا ، وإن اختلفا فى الرأى والاتجاه ، فلقد شجع الأول منهما أصحاب المقتطف على الانتقال إلى مصر يوم قسا نظام المطبوعات فى بلاد الشام[٢] . ولقد شجع الثانى أصحاب الأقلام الحرة وفى مقدمتهم أديب إسحق صاحب جرائد مصر والتجارة ، « ومصر القاهرة »[٣] .

صلات الود بين الصحفيين المهاجرين وبين زملائهم المصريين

وإذا كان لإسماعيل فضل فى توجيه السياسة الصحفية فى مصر والشرق العربى فلا

---

(١) لمراجعة سياسة إسماعيل الصحفية يجب الرجوع إلى عشرات الوثائق بقسم المحفوظات التاريخية بسراى عابدين باللغتين العربية والفرنسية وعرضنا لها فى البحث الذى نشرناه (حول الصحافة فى عصر إسماعيل) فى سنة ١٩٤٧ . المؤلف

(٢) طرازى — تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ١٤٠

(٣) إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية — الطبعة الثانية ص ١١٩

ينبغى لنا أن نغفل من تقديرنا تلك النخبة المنتقاة من أدباء المصريين وصحفييهم الذين وصلوا زملاءهم الجدد بالود والمعروف وأقاموا بأدبهم وعلمهم علاقات قوية مع الصحفيين والأدباء اللبنانيين .

وصادفت هذه الهجرة أن وجدت فى مصر شخصية إسلامية كبيرة لها قدرها ومكانتها فى عالمى الأدب والصحافة تلك هى شخصية « جمال الدين الأفغانى » الذى حنا بواسع علمه ، وعالى مكانته على الصحفيين ، وحماهم حين استطاع ذلك ، من إرهاب أولى الأمر الذين تجهموا للرأى الحر والفكرة الناضجة ، كما ساهم فى تحرير بعض الفصول الصحفية[1] ، وأذن لتلاميذه بنشر آرائه فى صحافة ذلك العهد[2] .

وهكذا كانت مصر أرضاً طيبة للآراء الجديدة والأفكار الحرة ، وهكذا وجد اللبنانيون فى مصر مبتغاهم من حيث صلاحية التربة لأداء رسالتهم الأدبية والصحفية والتمثيلية ، فى جو أفعم بالمعانى الحرة الجديدة ، وشغل ناسه بالمسائل الدستورية ، وباحثوا ودارسوا فى أموره الاقتصادية ، وعنوا بمظاهره الأوربية ، وعملوا على نهضته العلمية والفنية .

وقد ألقى اللبنانيون بدلوهم فى هذا كله ، مساهمين فيه مساهمة الأصيل فى جميع نواحيه وكتبوا صحيفة من أروع الصحائف أثبتت أن الوحدة العربية التى يتحدثون عنها فى أيامنا كانت حقيقة ناصعة فى عهد الخديو إسماعيل .

سمة هذه الهجرة

وكانت سمة هجرة اللبنانيين الواضحة سمة فكرية خالصة ، أهم جوانبها « الصحافة والتمثيل » وهما فنان وليدان فى الشرق العربى ، كان الاهتمام بهما قليلا عند الحكومات المختلفة ، بل كان الرأى فيهما عند عامة الناس أنهما غير جديرين بالتقدير والاعتبار .

ولكن هذين الفنين لقيا وزنهما عند الخديو إسماعيل الذى كان يقدر الفنون الجميلة ويعرف لها أثرها فى حياة الشعوب . ودليل هذا التقدير ما منحه ليعقوب بن صنوع ، الممثل المصرى الأول ، من معونة وتشجيع[3] .

لذلك أقبل اللبنانيون على اصطناع هذا الفن فى مصر قبل احترافهم الصحافة . وكان فى مقدمة من ساهم فى إحيائه سليم نقاش ، وأديب إسحق ، ويوسف خياط ومن إليهم سنة ١٨٧٦ . ولما انصرف ولى النعم عن تشجيعهم حين اتجهوا برواياتهم إلى السياسة

---

(١) إبراهيم عبده — تطور الصحافة المصرية — الطبعة الثانية ص ٧٩

(٢) جريدة الأهرام — راجع مقالات الشيخ محمد عبده ابتداء من العدد الثامن سنة ١٨٧٦

(٣) إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية — الطبعة الثانية ص ٥٠ وما يليها

انصرفوا هم أيضاً عن احتراف التمثيل إلى المساهمة فى إنشاء الصحف وتحريرها[1] ، وكان لهم فى تاريخ الصحافة المصرية صفحة رائعة ، كما كان لهم فى الدفاع عن استقلال مصر وحرياتها صفحات ناصعة البياض نزلوا من أجلها فى السجون ، وذاقوا المر وتحملوا الشدائد ، وأوذوا فى مالهم وصحتهم واحتملوا التبعات والمسؤوليات كما احتملها المصريون سواء بسواء .

ولم ير اللبنانيون فى مصر مهجراً فحسب، بل اتخذوها وطناً عزيزاً . لهم فيه فكرة يحيون من أجلها ويموتون فى سبيلها . وقد شاركوا حقا مشاركة الوطنى الأصيل فى التوجيه والإرشاد ، والذود عن هذا الوطن ، وأصبح لهم فى كل رأى نصيب ، سواء اتصل ذلك بحياة مصر الاجتماعية أو بحياتها السياسية والاقتصادية .

وقد أحسنت مصر وفادة الوافدين ، وأفسحت صدرها للنوابغ المجتهدين ، وكانت أرضها الطيبة أرضاً بكراً ، تشهد لأول مرة فى حياتها هزات فى الرأى العام لم تكن معروفة ولا مألوفة ، وتبحث أمورها العامة فى ضوء النهار ولم تكن خافية على الناس أو مستخفية ، وكانوا يشاركون فيها إذا اختلفوا إلى القهوات أو استقروا فى بيوتهم ، وكانت الصحف وسيلتهم للعلم بما يدور فى آفاق البلاد ، قرءوها أو استمعوا إلى قارئ لها وهم منصتون ، وكان الاضطراب الفكرى عاماً وغير مقصور على طبقة دون طبقة ، لذلك كان ميدان الصحافة ميداناً فسيحاً لمن وثق من نفسه ، وتحصن بالعلم والخلق ، وفهم قدر الصحافة فى حياة الشعوب .

---

(١) مجلة الهلال — السنة الثانية عشرة ص ٤٧٠

إنشاء الأهرام

ذريني أنل مالا ينال من العلا　　فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين إدراك المعالى رخيصة　　ولا بد دون الشهد من إبر النحل
« أبو الطيب المتنبى »

« أنشأت الأهرام وأنا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب ، وقد كنت أقضى النهار والليل عاملا جسما وعقلا »
« سليم تقلا »

بهذه الكلمات صور سليم تقلا صاحب الأهرام متاعبه لأحد أصدقائه يوم فكر فى إنشاء أم الصحف الشعبية المعاصرة(١) ، ولصاحب هذه الكلمات تاريخ عظيم فى الأهرام . ينبغى أن نؤرخ له قبل أن نؤرخ لصحيفته ، فإن فى سيرته وحياته درساً للنشء وجوانب جديرة بالنظر والاعتبار .

حياة سليم تقلا ونشأته

ولد سليم سنة ١٨٤٩ م . فى قرية من قرى لبنان تسمى « كفر شيما » وفى هذه القرية الصغيرة درج كما درج غيره من فتيان جيله يتلقى العلم فى الحيز الضيق فى القرى اللبنانية ، وكان أبواه ذوى فضل ويسار فبعثا به فى الثانية عشرة من عمره إلى بيروت حاضرة لبنان ليتلقى العلوم والآداب على معلم الجيل « بطرس البستانى » فى مدرسته الوطنية المعروفة ، فتفوق سليم على أترابه وعرف بالحرص على الدروس والتعمق فى البحث .

ولما أتم دراسته اختارته المدرسة البطريركية لتدريس اللغة العربية وآدابها ، وهناك التقى بصفوة من أهل البيان من زملائه المعلمين وفى مقدمتهم الشيخ نصيف اليازجى ، وزاده

(١) راجع جورجى زيدان — مشاهير الشرق — طبعة ثالثة . ج ٢ ص ٩١



بشارة تقلا باشا
مدير الأهرام الأول وأحد مؤسسيها

الاتصال بهذه النخبة المنتقاة تعمقاً فى دراسة اللغة والأدب فوضع كتاباً فى الصرف والنحو أسماه « مدخل الطلاب » فجاء هذا الكتاب عمدة لطلاب العلم فى المدرسة البطريركية وأظهره للناس وقدمه على غيره من المدرسين .

هجرته إلى مصر

وحين بلغ سليم هذه المكانة العلمية والأدبية طمحت نفسه إلى معالى الأمور ولمّا يتجاوز بعد السادسة والعشرين من عمره ، وكان قد اتصل به نبأ النهضة التى قدم لها الخديو إسماعيل فى مصر بما أنشأ من مدارس وصحف ومعاهد كما سمع بما فى مصر من الحرية الفكرية وبما فى أمرائها من الأريحية[1] فحزم أمره على الهجرة إلى مصر ليدلى بدلوه فيا يذهب إليه أهل الرأى فيها ، وقرر أن يساهم مع المساهمين فى تدعيم النهضة الصحفية المصرية .

وتم له ما أراد ، ونزل مصر وحده ثم لحق به شقيقه وصفيه بشارة تقلا .

وعرف سليم كيف يدخل البيوت من أبوابها ، فنظم قصيدة رائعة فيا يقول به معاصروه رفعها إلى خديو مصر « إسماعيل » فأعجب بها هو والمحيطون به ، وكانت هذه القصيدة الباب الذى ولجه سليم إلى إنشاء الأهرام .

سليم الصحفى الأديب

وصحفينا هذا الذى نصور فى هذه الكلمة مكانه من تاريخ الصحافة المصرية ، أديب كبير ، لا تحس أدبه فيا نشرته له الأهرام ، فأسلوب الأهرام فى هذا العصر أسلوب صحفى صحيح ، ولكنه يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الصحافة فى عصرنا هذا .

أجل . كان محررو الصحف المصرية جميعاً من عهد إسماعيل إلى قيام الثورة العرابية يتبارون فى إبراز مقدرتهم الأدبية حتى إذا كتبوا سياسة أو اجتماعاً أو اقتصاداً ، ولم يكن هذا أسلوباً صحفيا يتفق وطبائع الأشياء ولا سيما أن قراء الصحف فى ذلك الزمان لم يكونوا فى عامتهم قادرين على فهم ما يقرأون من أدب علا فوق مستوى المجموعة القارئة حتى فى زماننا هذا الذى اتسعت فية آفاق القراء وألموا بالمعانى وأصول البيان .

لذلك درج سليم فى تحرير الأهرام على أن يخفى صنعة الأديب فى قلمه ، حتى أن القارىء يداخله الشك فى أن سليماً كان ذا أسلوب عربى يضارع فى جماله أسلوب أئمة الكتاب ، مع أنه كان أديباً رائع البيان فى فنى المنظوم والمنثور ، كما كان شقيقه بشارة

(١) الأب لويس شيخو — الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ج ٢ ص ١٤٩

ناثراً حسن الأسلوب ، وشقيقاه إبراهيم وحبيب شاعرين صادق الحس رقيق المعانى .

وكان سليم يجانب مجهوداته الصحفية مترجماً قادراً عرّب كثيراً من الروايات الفرنجية وعرف حسن الترسل . ونحن نورد من نثره مثالا فى رسالة كتبها إلى صديق مهنئاً، قال : « لا أدرى أى الثلاثة أهنئ : إياك أم الرتبة أم النفس . أما أنت فبتساميك وإن كنت فوق ما نلت . وأما الرتبة فبتشرفها لأنها دون من سعت إليه ، وأما أنا فلأنى أول مخلص لك . فتهنئتى بما أفتخر به لك . وحبذا لو كان لى مداد برقىّ ، ويراع كهربائى أفيك به حقك من سرورى ، ولعل ما بين قلبينا يقوم هذا المقام عنى » .

أما شعره فرصين رقيق ، فيه صور بديعة ، ومعان رفيعة .

قال يصف أساطيل حربية

تلك الأساطيل فوق الغمــر سابحة	والغمر منها كسهل وهى كالقلــل
دانت لهيبتها الأنــواء خاضعــة	فحيثما قصدت حلت بــلا مهل
خاضت عباب بحــار الأرض آمنة	عصف الرياح وقصف الرمى بالكلل
فإن تشامخ حصن دك من أسس	ولو تطاول مرفــوعاً إلى زحــل
هذى قوى الماء فوق الماء ناشــرة	بند الهلال فصف ما تبتغى وقــل

استمع إليه يسامر بعض أصفيائه وقد لاموه على التدخين والإكثار منه

عذل التدخين قــوم قــد رأوا	فى يــدى سيجــارة أعشقها
قــال دعهــا فهى سم ناقــع	قــلت لا والله لا أعتقهــا
إن تــكن سماً فــإنى محــرق	شــرها بالنار إذ أحــرقها
وعليــه فاعذلوا أو فــأعــذروا	فعــلى الحالــين لا أطلقهــا
إن حــلالا أو حــراماً شربهــا	فأنــا الصب الــذى يعشــقها

طلبه الترخيص بإصدار الأهرام

ولما عقد سليم العزم على إنشاء جريدة الأهرام تقدم بطلبه لنيل الترخيص من ولى النعم وهو وحده صاحب الحق بإصدار كل ترخيص .

وكان على الطالب إذا كان مصريا أو عربيا أن يتقدم بطلبه إلى نظارة الخارجية لترفعه إلى ولى النعم ، فإن حاز قبوله ، صدرت الجريدة ، وإلا فلا حيلة للطالب مهما يكثر أنصاره وتعظم مؤهلاته ومسوغات طلبه . وكتب سليم طلبه بعد أن رفع قصيدته التى حازت قبول ولى النعم ، وكانت السبيل الذى مهد له صدور الترخيص .

نص طلب الترخيص الخاص بجريدة الأهرام وهو بخط منشئها سليم تقلا

صورة من إنشاء الدواوين فى ذلك العصر

ومن حق التاريخ علينا أن نورد هنا مثالا للإنشاء الديوانى فى ذلك العصر فإن سليماً حين كتب طلبه بلغة الدواوين وتلقاه المسؤولون ورأوا فيه إجمالا واقتضاباً كتبوا على هامشه ما نصه :

« يتوضح من مقدمه عن كيفية الجريدة الملتمس إنشاها فى مدينة الإسكندرية مع إيضاح موقع المطبعة المقتضى الطبع فيها وإن كانت حجر أو حروف »

فكتب سليم على نفس « العرضحال » .

« الإفادة عن ذلك أن الجريدة الملتمس إنشاها فى مدينة الإسكندرية تحتوى على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية ، وكذا من المقاصد طبع بعض كتب كمقامات الحريرى وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشيا التاريخية والحكم والنوادر والأشعار والقصص الأدبية وما شاكل ذلك من الأشيا الجايز طبعها بدون أن أتعرض للدخول مطلقاً فى الأمور البولوتيقية ، وإذا وقع منى مخالفة أو أجريت طبع شىء مما لا يجوز طبعه فإنى قابل ما يترتب علىّ حسب قوانين المطبوعات كما أتعهد بأن كل ما يجرى طبعه أقدم من كل طبعة نسختين لنظارة الخارجية الجاليله ، وبما أن المطبعة المقتضى طبع الكتب المذكورة فيها كائنة بجهة المنشية بالإسكندرية ، وأنها مطبعة حروف تحت اسم مطبعة الأهرام .... » سليم تقــلا

وبعد أن استوفى المسؤولون تلك البيانات على الصورة المتقدمة ، استأذنوا ولى النعم فى الترخيص ، ولم يطل انتظار صاحب الإهرام بل تمت الموافقة فى ٢٧ ديسمبر ١٨٧٥ م وكتبت نظارة الخارجية فى ذلك إلى ضبطية الإسكندرية إفادة تحت رقم ٥ بهذا النص :

« تقدم إلى الخارجية إنهى من الخواجة سليم تقلا يلتمس التصريح إليه بإنشاء مطبعة حروف تسما « الأهرام » كائنة بجهة المنشية باسكندرية يطبع فيها جريدة تسما « الأهرام » أيضاً تشتمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية ، وكذا بعض كتب كمقامات الحريرى ، وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشيا التاريخية والحكمة والنوادر والأشعار والقصص الأدبية وما ماثل ذلك من الأشياء الجايز طبعها . وحيث أنه أخذ على الخواجه المذكور التعهد اللازم بعدم التعرض للدخول مطلقاً فى المواد البولوتيقية ، وامتثاله لقانون المطبوعات ومعاملته بمقتضاه عند وقوع أى مخالفة منه وعلى أنه يقدم للخارجية نسختين من كل ما يطبعه وأعطيت له الرخصة اللازمة



السيد جمال الدين الأفغاني



الأستاذ الإمام محمد عبده

من قلم المطبوعات بالخارجية فاقتضى ترقيمه لسعادتكم للمعلومية وعدم المعارضة للخواجة المذكور فى إنشاء المطبعة المحكى عنها على الوجه المتقدم ذكره . أفندم»(١)

فى ٢٩ ذو القعدة سنة ١٢٩٢ هـ ناظر خارجية وتجارة

« ختم »

وهكذا تم لصاحب الأهرام الحصول على الترخيص فى أيام معدودة

قدوم بشارة تقلا إلى الإسكندرية

وفى تلك الأثناء خف بشارة تقلا إلى شقيقه سليم ، وقد كان لا يزال حدث السن لا يجاوز العشرين من عمره . وكان هذا الفتى النابه أثيراً لدى شقيقه ذا أصالة ونجابة ستتحدث عن أثرهما فى نهضة الأهرام ، وحسبنا الآن أن نذكر له فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الجريدة ، أنه كان نعم العون لأخيه فيما عقد العزم عليه من إنشاء صحيفته الأولى .

وكان الأمل كبيراً فى أن تصدر هذه الصحيفة بعد أيام أو أسابيع من صدور الإذن بالترخيص لها ، ولكن الأهرام لم تصدر فى موعد ملائم ، بل تأخر ظهورها سبعة أشهر وتسعة أيام .

وقد يبدو ذلك غريباً فى حياة جريدة أذنت الحكومة بإذاعتها ولديها مطبعة مستكملة حاجاتها المطبعية فى ظل حكومة سفراؤها فى ذلك الجيل العلماء والأدباء والصحفيون ، وولى الأمر فيها يشجع هؤلاء وأولئك بالعطف والمال . ولكن الخديو إسماعيل كان يعلق هذا العطف وذلك التشجيع على ذيوع الصحيفة وانتشارها وعلى قيمة الخدمات التى تسديها إليه ، وجريدة الأهرام لما تصدر بعد حتى يزنها الخديو فيعطف عليها . كما أنه لم يكن ليدرى ما تكون سياسة سليم فى تحريرها . أتكون لساناً من ألسنته ، أم خصما له ولسياسته ؟

متاعب جريدة الأهرام

لذلك قبض الخديو يده عن نصرة الجريدة الناشئة ، ولم ينل سليم من تأييده إلا الإذن بإصدار جريدته . وكانت جميع الصحف إلى ذلك الوقت أسبوعية ليست لها موارد ولا هى تباع فى الطرق أو ينادى عليها فى مكان عام ، بل كان أكثرها يعتمد على إعانات الدولة أولا وقبل كل شيء (٢) وكان لها فى ذلك غنى عن السعى فى التوزيع أو زيادة عدد المشتركين وكانت بعض الصحف تباع للناس عند باعة الطرابيش فى حى الموسكى أو بعض أحياء

(١) وزارة الداخلية — إدارة المطبوعات — دوسييه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ الجزء الأول

(٢) إبراهيم عبده — حول الصحافة فى عصر إسماعيل طبعة ١٩٤٧ ص ٧

الإسكندرية . لذلك كثرت متاعب الأهرام لأن الحكومة لم تشجعها بمال ، ولأن الناس لم يكونوا قد ألفوا بعد قراءة الصحف والإقبال عليها ، ولأن وسائل الدعاية الصحفية لم تكن ميسرة ولا سهلة

وكان بشارة تقلا يبذل الجهد المستطاع فى سبيل الدعاية لصحيفته والحصول على عدد من المشتركين ، ولكن إقبال الناس على الصحف كان قليلا فى ذلك العهد فلم يلق إقبالا ولا تشجيعاً .

وكان إعراض الناس مدعاة لتثبيط الهمم لولا أن الشقيقين أوتيا من قوة العزيمة وسعة الأمل ما شجعهما على المضى فى إنشاء تلك الصحيفة .

ولم يكن الرأى العام القارىء يعرف عن الأهرام وصاحبها شيئاً ، ولو كانت الأهرام جريدة تصدر فى لبنان قبل صدورها فى مصر ، لكان إقبال الناس وخاصتهم عليها عظيماً كما حدث لأصحاب مجلة المقتطف لما نقلوها من هناك إلى وادى النيل .

لذلك ظل الشقيقان سبعة أشهر يعدان العدة لإصدار الأهرام والدعوة لها والحصول على الاشتراكات فيها ، حتى وفقا بعد جهد إلى إصدار ما أسموه يومئذ « مثال جريدة الأهرام » وكان ذلك فى يوم ١٥ يوليو سنة ١٨٧٦ .

مثال جريدة الأهرام

ثم مشى الشقيقان سليم وبشارة تقلا قدماً إلى إصدار جريدة الأهرام بعد أسابيع ثلاثة وبعد صدور الترخيص بها بسبعة أشهر وتسعة أيام ، ولكنهما نشرا قبل ظهور العدد الأول من الأهرام صورة لما ستكون عليه هذه الجريدة ، من ورقة واحدة فى صفحتين سمياها : « مثال جريدة الأهرام » وقد اختلف المثال عن الجريدة من حيث مظهر الرأس فى كليهما .

تعريف بالصحافة وفضلها

وقد كان مثال الأهرام فى معظمه مقالا واحداً تضمن خطة واتجاها ، وقد بدأه سليم تقلا بحمد الله ثم أخذ يتحدث عن التفاوت بين أفراد الناس نتيجة اجتهادهم وأن هذا التفاوت حادث أيضاً بين الأمم والشعوب ، وأشاد بالإقدام عند الشعوب المتحضرة ، وذكر أن هذا الإقدام لم يقتصر على أفراد معدودين ، بل تجاوزهم إلى سائر أفراد الأمة الذين اتخذوه ديدنهم ، ورضعوه مع اللبن بواسطة تلك التربية الجليلة التى تولد فيهم حاسات الشرف والمجد.

ثم استرسل سليم فقال: « إن غاية المجد يستطيع أن يبلغها الناس بثلاث وسائل:

مثال جريدة الأهرام

مثال جريدة الأهرام الذى نشر للدعاية للأهرام قبل ظهورها بحوالى ثلاثة أسابيع

مدارس ، وقاعات للتمثيل ، وجرائد » ثم يمضى مبيناً فوائد المدارس والتمثيل ، ثم يذكر فضل الصحافة على الأمم ، ومكانتها فى حياة الشعوب فيقول « لقد تبين للناس ضرورة إنشاء الجرائد وتسيارها فى جميع الأقطار حاملة أخبار الأمم تفصيلا واختصاراً ، ليعلم المطالع مجمل حوادث الأرض ، ويحيى أوقاته باستيعاب الإفادات سواء أكانت سياسية أم تجارية أم علمية ، وجعلوا للصحافة الأهمية الأولى والاعتبار الثابت وأطلقوا عليها تسمية « لسان الأمم » . . . لذلك أنشئت الجرائد فى جميع بلاد الجنس المتمدن وتسابق أهلوها على إحرازها والانتفاع بها فى كل صقع وناد ، وبات كل يعرف جزءاً من يومه بمطالعة الجرائد مهما كان شغله شاغلا ليكشف أخبار العالم ، ويبرهن على أنه منه . . . وهكذا أمست البلاد المتمدنة تسر بإنشاء الجرائد فيها ، وتمهد للمقدمين عليها سبل الراحة رغبة بالاستفادة » . فنحن نرى من الاطلاع على بعض هذا المقال الذى نشره سليم تقلا فى مطلع حياته الصحفية أنه قد قوّم الصحافة ومكانتها من حياة الأمم والشعوب بمعيار يفهمه هو

فقد اعتبر الصحافة لساناً للأمم وملاذاً للجماعات ، ونسى أو تناسى أن المسؤولين فى زمانه لم يروها إلا صورة للدولة وظلا لها ، ولكن صحفينا يعقب على قيمة الصحافة كما يراها هو ويراها المتقدمون من أصحاب الفكر الحر ، بحديث عن « الحكومة المصرية السنية التى نلت من لدنها السماح بإنشاء جريدة عربية عمومية تطبع فى الإسكندرية تحت ظلها الشريف وتفاخر بأن تسمى « الأهرام » وهذه النشرة مثال ونسق لها »

« كيف لا . ولمصر حقوق البلاد المتمدنه الغنية بالعلم والمال وبأعظم من ذلك ، لها كل الفخر لأنها مرعية بظل ولى النعم رب السيف والقلم من صار لمصر نيلا على نيل ، عزيزها وأميرها الخديو إسماعيل » .

ثم يمضى سليم بعد هذه التحية لأمير البلاد يتحدث عن مصر بقوله « وتقدم يامن تعترض إلى هذه الأقطار ، ودع عينيك تنظر وأذنيك تسمع . . . أرنى مقرا لم تصل إليه الكهرباء ، أو قرية لم يزرها طير البر ، أو بقعة من تلك الأراضى الرحبة لم يروها النيل المبـــارك .

قد أصبح النيل يبكى من تفرقـــه والأرض تبسم من إحـــرازه فيهـــا

ثم يتجه صحفينا إلى المواطنين طالباً مناصرتهم وتشجيعهم ليضمنوا له تحقيق الغايات التى توخاها من إصدار جريدته ، ثم يعد قراء الأهرام بأن صحيفته ستكون مثالية حافلة بالأخبار والبرقيات ، ثم يدعو حملة الأقلام البليغة : « أن يزينوا جريدته بما يسطرونه من

بديع الكتابة والحكم والفوائد التى يلذ باجتنائها كل ذى ذوق سليم » .

وينشر مثال الأهرام بعد ذلك بيانات عن الأهرام بعنوان : « فى هيئة الأهرام » فيذكر أن الجريدة ستصدر يوم السبت من كل أسبوع وأن حجمها سيكون ضعف هذا المثال وأن عنوانها « جريدة سياسية وعلمية وتجارية » وأنه سينشر فيها الإعلان ، وأنه أقام لها فى جميع الجهات وكلاء ، وقد كان عدد هؤلاء اثنين وعشرين وكيلا عدا وكلاء القاهرة، يمثلون اثنين وعشرين بلداً فى مصر والشام والعراق وتركيا ، وقد حدد المثال قيمة الاشتراك بالفرنك فجعله ثلاثة وعشرين فرنكاً فى مصر والإسكندرية وسائر البلاد العثمانية ، وجعله فى أوربا والجزائر وتونس وزنجبار وكلكتا ثلاثين فرنكاً .

دار واسعة للنشر

ولا تقف دعاية صاحبى الأهرام عند الإعلان عن وشك صدور العدد الأول من الأهرام فى ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ بل تتعداه إلى مشروعات خطيره فى عالم الصحافة المصرية إذ يعدان القراء بإنشاء جريدة يومية تجارية « متى وجد مشتركون وافون للقيام بإدارة الجريدة اليومية » . ويعدونهم أيضاً بإصدار جريدة أخرى على هيئة كتاب متضمنه « جميع المواد العلمية والتاريخية والزراعية والصناعية والنكات الأدبية » .

وبعد فهذه دار أنشئت للنشر لأول مرة فى الشرق أفصح عنها هذا الإعلان ، وهى دار لها مطابعها بحروفها العربية المتعددة ، وحروفها الفرنجية المختلفة الصور والأحجام .

وقد أثبتت الشهور التالية لظهور الأهرام صدق ماوعد به صاحباها من إنشاء الصحف ، فلم تمر سنة أو سنتان من تأسيس دارهما حتى كانت لهما صحف ومجلات سيأتى الحديث عنها بعد قليل ، ولقد كان لهذه الدار الناشئة نظام بديع مستحدث للتوزيع والصلة بالناس مصدره هذا التنظيم الرائع للوكلاء فى المدن والقرى وسائر البلدان .

ولكن الشىء الذى يلفت النظر كبدعة فى تاريخ الصحافة المصرية أن يقدّم صاحبا الأهرام للقراء « مثال جريدة الأهرام » فإنى على ما شاهدت من صحف عربية وفرنجية تجاوزت الألف جريدة ومجلة لم أعثر قط على جريدة منها قدمت لنفسها بمثال كما فعلت جريدة الأهرام ، وأكبر الظن أن الظروف التى صدرت فيها الأهرام هى التى أملت على صاحبيه فكرة طبع هذا المثال لتوزيعه على من كانا يتوسمان فيه قبول الفكرة والاستعداد لتشجيعها بالاشتراك فيها ، أو بالمعاونة على الدعوة لها ، فإن الناس ما كانوا يعرفون قبل صدور هذا المثال أن جريدة عربية ستصدر فى الإسكندرية ، وأن هذه الجريدة ستكون

شعبية بعد احتجاب ما تقدمها من الصحف ، وكان هذا المثال دعاية واسعة النطاق وفكرة جديدة موفقــة .

صدور جريدة الأهرام

وقد صدرت الأهرام كما وعد المثال فى يوم السبت ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتوسط رأسها هرمان وفى منتصفهما أبو الهول رابض تحت اسمها ، ويعلو اسمها هلال تتوسطه نجمة ظاهرة ويتصدر نهرها الأيمن افتتاحية العدد الأول ننشرها بنصها :

كتب سليم تقلا المحرر الأول للأهرام

« هذا هو العدد الأول من السنة الأولى لجريدة الأهرام المرعية بعناية الحكومة السنية والمستعدة الاستعداد التام لأن تجعل من يتصفحها واثقاً بما يطالعه لأنها تعانى البحث لتقف على الفوائد الصحيحة فتوفى بحقوق الجرائد ، وتكسب قبول الجمهور ، والاستقبال شاهد . فعلى أولى الغيرة والهمة مدّ يد المساعدة الأدبية المنتجة المادية وذلك بالإقدام على الاشتراك فتتشجع ولا تبالى بالصعوبات الابتدائية كيف كانت .

وعلى الجمهور أن يلاحظ من عدد إلى عدد التقدم الذى يحدث بالتدريج فإنه لمؤكد أن كل ابتداء صعب وأن ثبات البناء موقوف على رسوخ الأساس وإحكامه فأملنا أن لا نكتسب الملام لكن حسن القبول من العموم بعد الافتخار باكتساب الالتفات الشريف من حكومتنا السنية التى تبذل وسعها بنشر الإفادة العمومية وتسهل للجميع سبل النجاح ، فحينئذ تحظى الأهرام برضاها ورضى الجمهور وتحل عندهم محل القبول .

أما هذا العدد فسيرسل إلى حضرات الوكلاء فى جميع الجهات ليوزع على الذين وصل إليهم المثال وعلى سواهم أيضاً كعادة الجرائد ، فمن يقبله يكن قابلا الاشتراك وحينئذ يسمح بتقييد إسمه فى لائحة المشتركين التى تكون مع الوكلاء والموزعين . فالمرجو أن يمن علينا الجمهور باقتباله بالوجه الباش ولهم مزيد الفضل والمنة . »

وقد ارتاح السكندريون لصدور الأهرام بعد أن حرموا الصحف ، كما أحس القاهريون وسكان المدن الأخرى أن هناك حدثاً جديداً فى صحافتهم وتاريخها .

وكان استقبال الأهرام عظيماً عند أهل العلم والمثقفين ، وقد حمل العدد الأول تحية طيبة « من الفاضل الأديب الأريب على أفندى مظهر » الطالب فى الأزهر . فلقد أثر فيه مثال الأهرام فكتب إليها يذكر أنه « يحق لكل أديب أن يسر من الاطلاع على مثال



(الى القراء)

في الاسكندرية من سنة واحدة للاشتراك عشرون فرنكاً وعن ستة اشهر نصفه عشر فركات واما في الخارج فالقيمة نحو الموضحة بالصورة الآتية

	فرنك عن سنة	فرنك عن ستة اشهر
في مصر وسائر الارياف المصرية	٣٠	١٦
في الاستانة العلية	٢٥	١٦
في سورية وسائر الممالك العثمانية	٢٥	١٦
في اوروبا والجزائر وتونس	٣	١٧
في سائر البلدان	٣	١٧

ثمن كل نسخة من الاهرام ربع فرنك نصف فرنك

بالاسكندرية في يوم السبت الخامس من آب سنة ١٨٧٦

(مكاتبات الاهرام)

جميع المكاتبات التي ترسل الى ادارة الاهرام ينبغي ان تكون خالصة الاجرة باسم سليم تقلا صاحب الاهرام ومحل ادارتها في شارع البورص بجانب الزهرة.

(وكلاء الاهرام في الخارج)

سيذكر وكلاء الاهرام في الخارج في الاعداد الآتية ويمكن الحصول على الاهرام في الاماكن التي ليس بها وكلاء بارسال حوالة الى ادارتها او بارسال طوابع البوسطة عن ربع كل شهر قيمة الاشتراك

التاريخ ١٥ رجب الفرد سنة ١٢٩٣

هذا هو العدد الاول من السنة الاولى لجريدة الاهرام المؤسسة بعناية الحكومة السنية والمستمدة الاستعداد التام لان تعمل من جميع صفاتها وأسبابها ما يطالعه لانها آمال الحث لتقف على الفوائد الصحيحة حيث عنوانها الفوائد وتكسب قبول الجمهور والاستقبال شاهد عمل أولي الامر الى آله منذ بدء المباحثة الادبية التحفة المادية وذلك بالاقدام على الاشتراك المتنوع ولا تبالي بالصعوبات الابتدائية كيف كانت وعلى الجمهور أن يلاحظ من عدو أن عدم المبدأ الذي يحدث بالتدريج ماء الموقع لكل ابتداء صعب وان ثبات السائر موقوف على رسوخ الاساس وحكمه امثال لا تكتسب الا بالتكرار حسن الاول من العمر عند الاختبار باكتساب الانتقاد الشريف من حكومتنا السنية التي تنزل وسعت نشر الافادة العمومية وسهل الجميع سبل النجاح … الاهرام برضاها ورضى الجمهور ونحن … القبول ولما هذا العدد سيرسل الى حضرة الوكلاء في جميع الجهات ليوزع على … وصل الى … وعلى سوائهم … الاشتراك … مع الوكلاء والموزعين فالرجاء ان يرعانا الجمهور بالتفاته بالوجه اللائق وله مزيد الفضل والمنة

كيف ما يوجه العاقل افكاره ناظراً من حركة العالم الانساني يرى فروع الحوادث راجعة الى اصل واحد … حيث … على ما … الى السلام وعدمه ولو … الفكر ملياً للوقوف على حقيقة تلك النتائج العظيمة … الحقيقة الى البحث البسيط … بالنسبة الى الشخص الواحد حيث يحرك الجميع من الفرد وحينئذ يسهل علينا ان نحرك هذه الامة او تلك المجتمع … وسطوتها الادبية والمالية بالنسبة الى … وحركاتها في ساحة الهيئة الاجتماعية … التي … من دونها … بأية حال كانت

ومن بحثنا مدة تبين في الفرد الواحد تأخر في ذاته وعالمه بالنسبة الى غيره لاحتياج الناس … انتخاب تلك الصفة الشريفة التي لا تحلو بها اللسان ولا تحول عن الحد الى … من … عادة في القدر لا يعرفها الا الكثير ولن اردنا ان نعدو عن هذه الصفة ما يدل على ما يتدعونه الافكار مسابقة الى التصريح بها غرطاحب الذات حب الذات والحقيقة ان هذه الصفة الغريزية مستقلة في كل فرد وطالما … بين الاثرة المطلقة والسلطة المطلقة الاعتراف ولا تنكر ان هذه الخلة هي من الخلال الشريفة التي تحمل الانسان على الشرف وترفعه من عمق الكسل والتهاون وتلبس رداء الفلاح ويتكلل بتاج الانام فيها … الله منها الا المجاوزات لسان التعريب وكانت غير مخالفة … الاعتدال التي … ان تعمل الناس تلك العمل … حيث لا تساوي حظوظها بالنسبة الى حظ الآخرة بل تذهب … لكل انسان … لا يراعى حرمة زيد ولا يسأل عن حقوق عمرو وكأنه يقول لا يوجد غيري على وجه الكرة فتراه مستقلاً دون الكافة بالحصول على ذلك والحرص على تلك الخ

ولدى وقوفنا على هذه الحالة العجيبة المتعلقة بالواحد لا يصعب علينا الوقوف على الحقيقة المتعلقة بالاثنين او بالثلاثة وهلم جرا اذا لاحظنا … الاول الى الثاني دون الثالث والعائلة الثالثة الى الرابع دون الخامس حيث يتألف من ذلك قبيلة شمالية وأخرى جنوبية والواحدة غربية والثانية شرقية الخ وعند الاتحاد الادبي يصدر … المجامع … كل منهم … مع … في الوضع … من … الى … ما … على … تحت … من … بالعدوان …

الى عدم الراحة … السلام بكافة غير الحروب والقلاقل … من تشويش الافكار واختلاف حركات الاحوال … مسالكها الغريبة … ذلك … شتى … متنوعة ومذاهب مختلفة … من حركات متضادة متدافعة … بعد … ان نرجع هذه الفروع الى الاصل … النتائج … الحال … حب ذلك … ما نرى

الاخبار البرقية الواردة الى الاسكندرية

باريز في ٣ يوليو الساعة ١٢ … لم ترد الدول ان تتداخل في … العساكر الشاهانية … الجبل الاسود … في اوروبا

باريز في ٣١ يوليو الساعة ١١ ان العساكر الشاهانية انتصرت على السرب في … مراكز السرب غير مأمونة

باريز في ٢ آب ان العساكر الشاهانية انتصرت على العصاة في … وقد تمت …

حوادث مختلفة

حصل قريباً محاورة رسمية في مجلس نواب الامة في انكلترا بخصوص الحوادث الحالية

لقد تشرف بالمثول امام حضرة المرشال مكماهون رئيس الجمهورية الفرنساوية الجنرال … الحكومة الفرنساوية … الكتاب … حضرة المرشال … السفارة … الامور … التي … الاتفاق … حضرة المرشال …

جريدة الأهرام التى هى بلا ريب من أجل مآثر هذا العصر الذى أشرقت فيه شموس التمدن فى مصر . . . . » .

صلة الأزهر بالأهرام

ولعل من واجب التاريخ علينا أن نستبق مجرى الحوادث وقد أشرنا إلى طالب فى الأزهر سبق الناس إلى تهنئة الأهرام . فنذكر للأزهر وعلمائه وطلابه فضله فى معاونة الأهرام ، وشد أزرها بالقلم واللسان والإقبال . فقد كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أول من أمتع الأهرام وقراءها بثمار قلمه وغزير علمه وفضله وأضفى عليها من الروح الجديدة التى بثها فى الشرق جمال الدين الأفغانى وتلامذته .

وقد حذا حذو الأستاذ الإمام كثير من الأعلام الأزهريين على مر السنين .

وقد كانت الأهرام من الصحف ذات الصلة الوثيقة برجال الأزهر . أعلام الفكر فى ذلك العصر ، تنشر لهم آراءهم وتؤازرهم فى مطالبهم ، وتشجع حركتهم الفكرية والتقدمية ، وتفتح لهم صدرها لتنشر كل مقال يطيب لهم نشره ، ولا نزال نقرأ حتى اليوم على صفحات الأهرام البحوث الدينية والفقهية وأحاديث الصيام وعصارة أدمغة رجال الأقلام فى هذا المعهد القديم الذى مهد بما كتب ونشر للنهضة الفكرية والنزعة الاستقلالية والوعى القومى الصحيح فى بلاد الشرق .

وقد تعددت رسائل المعجبين بالأهرام والمحبذين لظهوره ، وكان بعضها شعراً وكان أكثرها نثراً فأما الشعر فقد جاء منه لأمين الشميل أحد أدباء ذلك العصر — الذى سنؤرخ له ولأسرته فيما بعد

مصر أهرامها كنوز بناء   وبهذى قامت كنوز معانى
إن تكن تلك آية العصر قدما   فبذى آية لكل زمان
فلأهرام بنت مصر معان   ما لأهرام أمها من مبانى

وكتب نقولا توما الذى أصبح فيما بعد من كبار المحامين المصريين يهنىء الأهرام فيقول من قصيدة :

حسناء تستر وجهها عن جاهل   ولوصل عاشقها الأديب مبادره
تأتيك بالخبر الصحيح لأنها   من مصدر الصدق المحقق صادره[1]

وتتابعت التهانى تترى من الأدباء والعلماء والمفكرين .

(١) الأهرام — العدد الثانى الصادر فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٦

شهادة الشيخ محمد عبده

وكانت أجمل شهادة للأهرام شهادة الأستاذ الشيخ الإمام محمد عبده . وقد كان لا يزال طالباً فى الأزهر الشريف ، كتب إليها أجمل تحية نجتزئ منها ما يأتى :

إلى حضرة الهمام الكامل محرر جريدة الأهرام . . . « إنه نظر لدى كل قاص ودان واشتهر بين بنى الإنسان أن مملكة مصر كانت فى سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك ، إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة فى الصنائع ، والابتكار فى أنواع البدائع ، فكان أبناء العالم إذ ذاك ينتدون نداها ، ويستجدون جداها ، يستمطرون من الغيث قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلا حين كان عند غيرها طفلا . . . » .

وبعد هذا التاريخ البديع لحضارة مصر القديمة يتحدث الإمام عن غياب العلم عن مصر وعودته إليها ثم يقول فى جريدة الأهرام وصاحبيها :

« فلما أعجب بالمثال حداه حادى الكمال ، لأن ينسج على هذا المنوال ، فأنشأ لنا جريدة الأهرام . المؤسسة على أحكم قواعد الأحكام ، الكاملة بإرشاد المسترشدين ، وتنبيه الغافلين ، بما فيها من المبانى الرقيقة والمعانى الدقيقة، والأفكار العالية، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم بين العموم ، فيالها من جريدة أسست قواعدها فى القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادى بمقالها وحالها : حىّ على الفلاح ، وهلموا إلى موارد النجاح ، لا تقفوا عند صورة المبنى ولكن تجاوزوا عنه إلى المعنى ، تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح ، تلك ظواهر صور وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان السماوات ، نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذى قد سطعت فيه شموس العرفان ، ونشأ فيه بنو الإنسان نشأة أخرى ، وتقلب فى فنون الحقائق بطناً وظهرا ، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم ، وأين الذى تفنيه الرياح والأمطار من الذى لاتوهنه توالى المدد والأعصار ، فإن مقره العقول العاليات والنفوس الزكيات التى لا يتناولها الفنا ولا يبتذلها العنا ، فبخ بخ بمنشيها ، وطوبى لقاريها ، فمن الواجب على ذوى الألباب أن يجتنوا جناها ، وأن يستطلعوا سر معناها ، فيتنوروا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من الله ونعمة ، فإنه ليس شىء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألذ من حكمة يصادفها ، هذا إيجاز فى مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها » .

وكأنى بهذا المقال البديع ينم عن نشأة صحفى سيكون له فى الغد مكانة تزهو على كل مكانة ، وأن الناس سيعرفونه إماماً من أئمة الأزهر وعلماً من أعلام البيان ، وفى طليعة مجلس شورى القوانين ، ولا يعرفون أنه كان أمس إماماً من أئمة الصحافة المصرية فى عهدى إسماعيل وتوفيق [1] والشيخ إذ يرى فى الأهرام رأياً حسناً فإنما يصدر رأيه عن حس دقيق واقتناع وفهم صحيح للأشياء ، فلقد ملأ الأستاذ الإمام فيما بعد صحافة العصر بالمعانى الرائعة التى خطها قلمه ، والدراسات العميقة الممتعة التى نشرتها له صحف الأهرام والوقائع المصرية ، والعروة الوثقى وغيرها من الصحف المعاصرة ، ولكن مقاله فى تحية الأهرام كان أول مقال تنشره له الصحافة المصرية . وهو مقال يشعر بمقدرة هذا الشاب ومكانه ، لا فى تاريخ الصحافة فقط بل فى تاريخ مصر الحديث كله . وهو مقال يدل على علم أصيل ، ووطنية صادقة وثقة بالوطن فى رسالته القديمة والحديثة — ويعطى صورة بديعة عن قدرة بعض أدباء العصر على التعبير فى سجع مطبوع ، أعجبت به جريدة الأهرام ، فمهدت لحديثه الممتع بقولها :

« وردت إلينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة ، والأديب الفهامة الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر فنشرناها بحروفها » [2].

وقد تعددت تحيات المواطنين إلى الأهرام عدداً بعد عدد حتى ليعز علينا أن نتعقبها وهى أكثر من أن تعد .

شعور الحكومة نحو الأهرام

أما شعور الحكومة نحوها فأمره إلى اليوم غير معروف ، وقد يكون الخديو إسماعيل أعانها كما أعان غيرها من الصحف التى كانت تصدر فى مصر ، إلا أن الوثائق — فيما أعلم — لم تشر قط إلى أى تأييد مادى قدمه ولى النعم إليها ، أو قدمه أحد رجاله ممن أعانوا الصحف بمال عام أو خاص ، وإن ذكرت بعض الصحف أن الحكومة دعت الناس إلى الاشتراك فيها وأن رياض باشا كان من أنصارها المؤيدين [3]. ويضع هذا الرأى موضع التجريح هذه الخصومات التى نشأت بينها وبين المسؤولين — وموضع تفصيلها فى فصول مقبلة — ولمّا يمض على ظهورها شهور ، وقد عودتنا « المعية السنية » ألا تمنح صحيفة إعانة من الإعانات ، إلا إذا اطمأنت لقدرتها وفائدتها وأمنت شرها إن لم تطالبها

(١) إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية الطبعة الثانية من ص ٦٨ إلى ٧٩ .
(٢) الأهرام — العدد الخامس ٢٥ سبتمبر ١٨٧٦
(٣) تاريخ بشارة تقلا باشا ص ١١٧

بتوجيه المسائل على النحو الذى ترضاه مقابل ما قدمت لها من جزاء . وربما صح ما ذهب إليه جورجى زيدان من أن الحكومة اشتركت فيها بمئآت النسخ[1] وأكبر الظن أن الحكومة قد قصرت اشتراكها على السنة الأولى فقط إذا صح أن تأييدها للأهرام قد تم فى هذا النطاق المحدود .

وقد راجعنا الوثائق المتصلة بالمنح والهبات التى قدمت للصحافة العربية والأجنبية فى مصر والخارج سنة بعد سنة ، سواء كانت تلك الوثائق مطبوعة فى الكتب أو لا تزال مخطوطة فى محفوظات عابدين ، فلم نجد أثراً لمنحة أو هبة قدمت للأهرام أو لصاحبيها .

كذلك راجعنا فيما راجعنا ميزانية الدولة منذ سنة ١٨٧٥ ، وفيها كانت أبواب خاصة بالأموال التى صرفت للصحافة عامة فى سبيل الدعاية ، فلم نعثر فى أى ميزانية من تلك الميزانيات حتى نهاية عهد إسماعيل فى سنة ١٨٧٩ على أى مال صرف للأهرام أو لمحرريها أو لأصحابها ، مع أن تلك المنح كانت تفصل فى ميزانيات الدولة، تفصيلا ظاهراً وخاصة قبل تقرير المسئولية الوزارية ، وغل يد الخديو عن التصرف فى الأموال العامة .

ومهما يكن من أمر ، فإن إعانة الحكومة لأية صحيفة لم تكن عيباً أو عاراً ، وحسبنا أن كثيراً من الصحف الوطنية المتطرفة ، الخصيمة للحكومة وسياستها قد بذل لها الخديو بسخاء رغم خصومتها لسياسته ، بل إنه استطاع أن يشترى كثيراً من محرريها ، ولم يجد الجيل فى ذلك ضرراً ما دامت الصحافة تؤدى رسالتها أحسن الأداء .

---

(١) جورجى زيدان — مشاهير الشرق — ج ٢ طبعة ثالثة . ص ٩٢ و ٩٣

تحرير الأهرام

لما رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيصير بدراً كاملا
(أبو تمام)

صدرت الأهرام أول ما صدرت صحيفة أسبوعية ، وكان موعد صدورها فى يوم السبت من كل أسبوع ، وقد تلقى المصريون العدد الأول منها فى اليوم الخامس من أغسطس سنة ١٨٧٦ متضمناً فى رأسه البيانات التى أعلن عنها «مثاله» من قبل ، مبيناً مكانه واسم مديره واشتراكاته وثمن الإعلان فيه الذى كان فرنكا عن السطر الواحد فى الصفحة الأولى ونصفه فى الصفحة الرابعة وهى الأخيرة ، ثم مشيراً إلى أن «جميع المكاتبات ينبغى أن تكون خالصة الأجرة باسم سليم أفندى تقلا محرر الأهرام» ، أما حجم الأهرام فكان عرضه سبعة وعشرين سنتيمترا وطوله ثلاثة وأربعين سنتيمتراً تقريباً ويتكون من أربع صفحات، ولا يكلف ثمن النسخة الواحدة إلا نصف فرنك . وكانت كل صفحة تحتوى على ثلاثة أنهر وكل نهر يضم من ثلاثة وثلاثين سطراً إلى سبعة وأربعين سطراً ، ويبلغ عدد كلمات السطر الواحد تسع كلمات فى المتوسط ، وحروف الصفحات قسمان : قسم كبير كامل واضح قليل الهمزات يشبه كثيراً حروف (الوقائع المصرية) . وقسم دقت حروفه فبدت صغيرة تشبه حروف اللينوتيب التى تغلب على صحفنا اليومية المعاصرة .

العدد الأول من الأهرام

والعدد الأول من جريدة الأهرام صورة بديعة لعشرات الأعداد التى تلته من حيث وحدتها وانسجامها ، واتفاق الغرض منها وتجاوب الروح فيها ، فقد رأينا الصفحة الأولى تضمنت أو كادت تتضمن دائماً افتتاحية قد تطول فتبلغ الصفحة كلها ، أو تقصر فلا تزيد على نهر أو نهر ونصف نهر ، ثم نجد موضوعاً عاماً فيه كثير من التوجيه الخلقى ، ثم عدة برقيات واردة إلى الإسكندرية ، بجانب قليل من الحوادث المختلفة ،

الصفحة الثانية من عدد الأهرام الأول ويرى في أسفلها موضوع « تاريخ أهرام الجيزة »
وقد استغرق نشره عدة أعداد

وهى فى الأكثر حوادث خارجية ، ثم نرى فى الصفحة الثانية أخباراً فى مجماها تتصل بدول أوربية . وحفظ مكان فى الصفحة الثانية والثالثة لرواية تاريخ أهرام الجيزة فى الأعداد الخمسة الأولى، وقدمت الجريدة لذلك بقولها: « بما أننا اخترنا تسمية جريدتنا هذه باسم أعظم أثر موجود فى القطر المصرى وفى سواه أيضاً وهو الأهرام رأينا من باب الإفادة أن ندرج فى كل عدد بالاستقراء تاريخ هذا الأثر . . . » . فإذا مضينا إلى الصفحة الثالثة رأيناها مختصة بإذاعة الدعاوى المنظورة فى مجالس القضاء وأحكامه ولوائحه وما إليها ثم بعض أخبار داخلية وإعلانات صغيرة . أما الصفحة الرابعة فعظمها أخبار داخلية ونوادر وتتضمن أيضاً أسعار البورصة ، وكانت هذه الأخبار تطول أحياناً فتبلغ نصف نهر حتى ليخيل لقارئها أنها أشبه — لتفاصيلها — بالمقال وأبعد ما تكون عن الخبر .

وهكذا صدرت الأهرام فى هذه الصورة الواضحة ، يحرر مقالاتها الداخلية ويعالج موضوعاتها العامة سليم تقلا ، ويقوم بالترجمة شقيقه بشارة تقلا ، وإن حمل عبئاً آخر يحدثنا عنه بقوله « فإذا فرغت من الترجمة أتيت الإدارة ونظرت فى حسابها من دخل وخرج ، واشتغلت بالتصحيح وكتابة بعض الحوادث ثم جلست أعاون الفعلة على طى الأعداد وتهيئتها للتوزيع ، وكنت أتناول غذائى فى الغالب وأنا بين صحيفة أطويها ولقمة أزدردها . على أننى كنت أشارف من وراء هذا العناء الجم إقبالا ونجاحاً » .

كل من سار على الدرب وصل

وتاريخ الأهرام شاهد على أن هذا الاجتهاد الذى عرض علينا صاحبه بعضه ، كفيل أن يجد الإنسان بعده « إقبالا ونجاحاً » على أن النشاط الصحفى النادر المثال لم يخل من نقص بسيط ، يظهر واضحاً فى الأخطاء المطبعية التى كانت تصدمنا أحياناً ، كما يظهر فى هذا السهو الملحوظ فى ترقيم الأعداد والسنوات ، فقد ذكرت رقم العدد العاشر ، ولكنها وضعت الصفر على يسار الواحد ، ثم صدرت الأعداد الخامسة والحادية عشرة والثامنة عشرة من شهر يناير سنة ١٨٧٨ ولكن السنة كتبت ١٨٧٧ . وهذه الأخطاء تجد لها اليوم شبيهاً فى صحف يومية راقية .

عنايتها بصدق الأخبار

وكما أن أهرامنا الحديثة — صحيفة للخبر فيها مكانه الأصيل — فقد دأبت منذ صدورها وهمتها فى روايته الدقة المطلقة مهما يكن راويته أثيراً لديها أو على صلة بها من قريب

أو بعيد ، فهى قد استنت منذ سنتها الأولى سنّة التحرج والتحرز فى نشر الأخبار ما لم تكن صحيحة واضحة ، وفى ذلك نشرت على النهر الأول من الصفحة الأولى :

« المرجو من حضرات الوكلاء فى جهات سوريا ، أن يتكرموا بالإعلام عن الحوادث المهمة التى تجرى عندهم بعد مراعاة التحرى ، فإنه قد ورد إلينا رسائل عديدة من غيرهم لم تدرجها حذراً من الخلل ، فالأمل أن لا يبخلوا علينا بذلك »[1] . ثم تمضى ناشرة هذا الرجاء أسبوعاً بعد أسبوع .

أمثلة من أخبارها

ومن أخبارها القاهرية ما جاء من مراسلها فى العاصمة عن « التياترو العربى بالمحروسة » حيث ذكر أنه « فى ٩ الجارى تقدم قومبانية جناب الشاب النبيه يوسف أفندى خياط رواية المظلوم ذات خمسة فصول ، ويخصص دخل هذه الليلة للمشخصة الأولى . . . »[2] ، ومن قبل حثت على تأييد فن التمثيل بحماسة منقطعة النظير ، فكانت تنشر الخبر وتعلق بقولها « فأملنا أن تسر الجمهور وتحل عنده محل القبول ، والمرجو من أولى الغيرة أن يعضدوا هذا المشروع الحسن ويساعدوا مدير التياترو سليم أفندى نقاش تلك المساعدات الأدبية التى امتاز بها أهل هذه المدينة »[3] . ثم تنشر خبراً لمراسلها فى طنطا عن مولد السيد البدوى : « إن مولد السيد البدوى الذى بدأ فى يوم الجمعة من الأسبوع الماضى كان تام النظام أما ازدحام العالم فكالسنين السالفة لكن أكثرهم من القرى . . . »[4] .

ونحن إذ ننشر هنا بعض الأمثلة من أخبارها المحلية فإنما نقتصر على الأخبار القصيرة ، ونوجز فيها أيضاً ، فقد بلغت رواية الخبر فى بعض أعدادها أكثر من أربعين سطراً كأنه مقال أو حديث[5] . ومن أخبارها القصيرة ما نشرته فى باب التعيينات حيث قالت : « بلغنا أنه بمقتضى الإرادة العلية الخديوية وجهت عضوية الاستئناف المصرى إلى حضرة رفعتلو نقولا أفندى الحجار . والمعلوم أن الأفندى الموما إليه هو أول من تشرف بالتوظف فى عضوية مجالس الاستئناف العليا من المسيحيين فى عهد الحضرة الخديوية الفخيمة التى لا تزال تتعطف بالإحسان على الجميع ولا سيما على العائلات القديمة التى هاجرت مواطنها واعتزت بفيض مراحمه . فنهنىء حضرة الأفندى الموما إليه فى نواله هذه الرتبة »[6] .

(١) الأهرام فى ٢٨ أكتوبر ١٨٧٦
(٢) الأهرام فى ٧ فبراير ١٨٧٩
(٣) الأهرام فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦
(٤) الأهرام فى ١٠ أغسطس ١٨٧٧
(٥) الأهرام فى ٣ أغسطس ١٨٧٧
(٦) الأهرام فى ٢٧ يناير ١٨٧٧

وعلى هذا الغرار نشرت فى الحوادث المحلية أنباء كبار الموظفين كخبر شفاء محافظ القاهرة إذ قالت : « يسرنا أن نبشر عموم الأهالى بأن صاحب السعادة مصطفى فهمى باشا محافظ مصر قد شفى تماماً من المرض الذى عرض على سعادته وأنه من عدة أيام قد رجع إلى معاطاة مهام مأموريته بالنشاط والإقدام اللذين هما من بعض صفاته الحسنة »[1].

وإذا كانت الأهرام قد عنيت فى صدر حياتها بالأخبار التى تتصل بالوظائف والموظفين ، فإنها لم تغفل فى كثير من أعدادها نشر الحوادث الداخلية ، وإن كانت قليلة ونادرة فى الأعداد الأولى ، ومن أمثلة هذه الأخبار ما جاء فيها بعنوان (حادث محزن) قالت عنه : « قبل ظهر أمس كان المرحوم مكس نسل آل عايده الكرام مع بعض صحبه راكباً حصانه فى خارج البلدة يتنزه فساقت التقادير أن انذعر الحصان فعدا وخان صاحبه فألقاه على الأرض المحجرة وتركه معفراً يخبط فى دمائه فنقل حالاً ولكن لم تكن فيه إلا بقية حيوة وريثما وصل إلى البيت سلم الروح لباريها فجفل لهذا الخبر الجميع ورثاه كلٌ نادباً شرخ صباه »[2] .

أخبار الوفيات

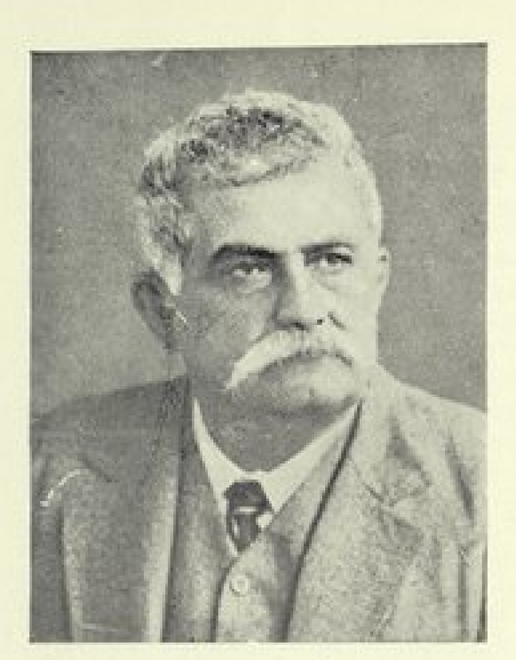
وقد كانت تروى خبر الوفيات بين أخبارها الداخلية المختلفة ، وقصرت ذكرها على عظماء الرجاء أو كبار الموظفين ، ولكنها تطالعنا فى أواخر سنتها الأولى بنعى عنوانه (داعية الشجن) وجللت ما حواليه بالسواد ، وهو أول نعى تنشره الأهرام فى تاريخها الطويل ، وقد قدمته على كل ما عندها من أخبار ومقالات فكان على رأس النهر الأول من الصفحة الأولى ، قالت ناعية رائية كريمة شريف باشا : « فى هاجرة السبت المنصرم غالت يد الأقدار مجيدة الفرع والأصل ومجيدة الأدب والفضل زينب هانم كريمة من شرف قولا وفعلا ، وعزيت إليه اللطائف والمعارف وضعاً وحملاً . مولاى صاحب الدولة والإقبال شريف باشا ناظر الخارجية والعدلية الأفخم فأورث فقدها الشجن والغم والحزن ، وأسف على أسف دولته . . . ،فتغمدها الله برحمته ورضوانه وأسكنها فسيح جنانه وأودع فى فؤاد دولته سر الصبر الجميل وأتم عليه ظاهر الفضل الجزيل ، على أننا فى مثل هذه الحال يليق بنا أن نخاطبه متمثلين بقول من قال :

أنت بحر والحزن جمرة نار   من رأى جمرة تسخن بحرا[3]

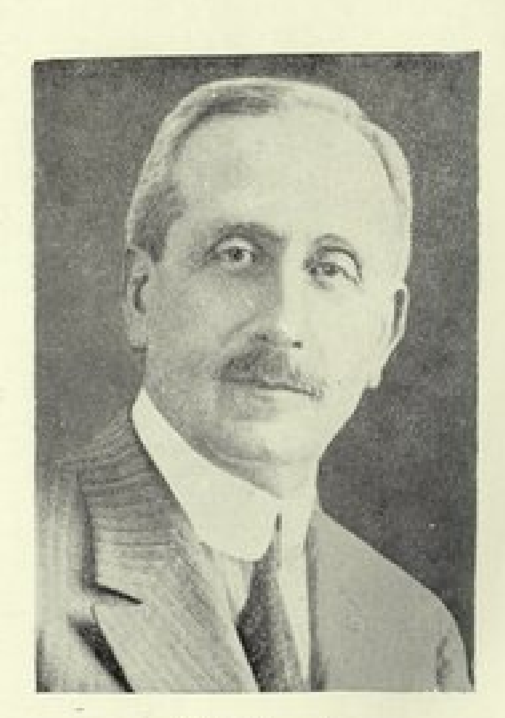
(١) الأهرام فى ٢ ديسمبر ١٨٧٦
(٢) الأهرام فى ١٩ أبريل ١٨٧٨
(٣) الأهرام فى ٢٠ يوليو ١٨٧٧



الأستاذ أمين الشميل



الدكتور شبلي الشميل



ماريوس الشميل بك



رشيد الشميل بك

[illegible]

بورص الاسكندرية والاخبار البرقية الواردة اليها

[illegible]

حوادث محلية

[illegible]

محلات الاشتراك	اسماء الوكلا
الاسكندرية	مكتب ادارة الاهرام
الاستانة العلية	مكتب ادارة الجوائب
دار السعادة	[illegible]
المحلة الكبرى	[illegible]
المنصورة	[illegible]
طنطا	[illegible]
كفر الزيات	[illegible]
[illegible]	[illegible]
رشيد	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
بور سعيد	[illegible]
يافا	[illegible]
عكا وحيفا	[illegible]
صور	[illegible]
صيدا	[illegible]
بيروت	[illegible]
مركز متصرفية لبنان	[illegible]
زحلة وبعلبك	[illegible]
دمشق الشام	[illegible]
طرابلس	[illegible]
حلب	[illegible]
بغداد	[illegible]

الصفحة الرابعة من العدد الأول ونرى هنا فى منتصف النهر الثانى أول نعى لأحد الباشوات

وعلى هذه الصورة مضى مُحرر أسلوبها فى الأخبار الداخلية سواء اتصلت هذه الأخبار بالنشاط الشعبى أو الرسمى .

المقال فى الأهرام

أما المقال فى تحرير الأهرام فكان إلى حد بعيد شديد الشبه بعبارات الأخبار ، وإن كانت المعانى فيه أوضح وأسلم ، وتدل فى كثير من الموضوعات على العمق والفهم ، فقد بدا الأسلوب أخف على السمع وأروح للنفس فى مطلع سنة ١٨٧٧ حيث تقدم تقلا يهنىء قراء الأهرام بالعام الجديد قائلا : « لقد أقبل علينا عام ١٨٧٧ متّع مشتركى الأهرام بأطول الأعمار . وأفاض عليهم من صيب رحمته الغيث المدرار . وحياهم بسلام الأعوام . وأعوام السلام ، وأنسانا وإياهم فى العام المبتسم قلاقل العام المنصرم . إنه على كل شىء قدير . وبالإجابة جدير . » [1].

ثم تعقب الأهرام فى سنتها الجديدة بأن تبدأ بسنّة جديدة هى حدث لم تسبقها إليه صحيفة ، ذلك أنها دأبت ابتداء من عام ١٨٧٧ على نشر ملخص واف عن أحداث العام المنصرم ، وهى إنما تتشبه فى ذلك بما رأته من « عادة جليلة عند أرباب الجرائد الأوربية الشهيرة .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح »[2]

وهذه السنة تعتمد الأهرام فى تحقيقها على ما تصنعه صحف عالمية كالتيمس مثلا ، بل تأخذ فى تلخيصها عن تلك الجريدة ، فإذا هى توجز تاريخ عام ١٨٧٦ بالنسبة إلى الحالة الدولية بما فيها حالة تركيا ولا تمس مصر من قريب أو من بعيد .

عنايتها بالمقالات الخارجية

ولا نذهب بعيداً فى تصوير هذه الفترة من تاريخ التحرير فى الأهرام حين نقرر أن العناية بالمقالات الخارجية كانت تسبق عنايتها بالمقال الداخلى ، وقد قطعت فى ذلك شوطاً ملحوظاً حتى أن بعض أعداد السنتين الأولين كانت مقالاتها جميعاً فى السياسة الخارجية أو فى موضوعات نسبها إلى حياة الشرق ضئيل وهى فى الحق تعالج الشئون الخارجية علاج الخبير العارف بحياة الأمم والشعوب الواقف على خفايا السياسة الدولية ، وتنقد ما تراه فى سياسة الدول بعد مراجعة وتدقيق . انظر كيف تصور اضطراب انجلترا فى سياستها إزاء

(١) الأهرام ٣٠ ديسمبر ١٨٧٦
(٢) الأهرام ١٩ يناير ١٨٧٧

روسيا وهى تتحرش بتركيا وتهدد مصالح الإنجليز فى شرق البحر الأبيض :

« تنقض فى هذا اليوم ما أبرمته أمس وبالعكس . وتأتى فى المساء بما رفضته فى الصباح فلا يستقر لها مقام ولا تقف على كلام . تخاف متحذرة من وقوع أمر يعود عليها بالويل فتتظاهر بالاستعداد لمقاومته قبل وقوعه ثم ترجع عما عزمت . يوماً يعلن الدالى تلغراف أن بريتانيا العظمى سيرت أساطيلها فى عرض البحر وشغلت بها مياه المتوسط تهديداً لروسيا . وساعة يقول التيمس إنها عدلت عما عزمت، ينشر استندرد فى الصباح أنها تراعى صالحها فلا تسمح بمسه ولو ان دون ذلك خرط القتاد فيعلن المورنن بوست فى المساء أنها تحب السلام ولا تخرج من الحيادة . تارة يقول اللورد الفلانى إن إنكلتره ذات ثقة بأوعاد القيصر فلا تخشى العواقب وطوراً يقول اللورد الثانى أن لروسيا ميلا إلى الفتوحات وأن ذلك داع إلى عدم ثقة انكلتره بأوعاد إمبراطورها . وخلاصة المقال عنها ، ما سيصدر منها غدا يعلمه العالم مما تصدره اليوم »[1] .

وهذا تصوير بديع لموقف انجلتره فى سنة ١٨٧٧ من المشكلة الروسية التركية التى ذهب فى التعليق عليها المؤرخون مذهب الأهرام فى سنتها الثانية ، وإذا أراد المؤرخون أن يطمئنوا إلى سلامة التصوير والإبداع فى التعبير فلينصتوا قليلا إلى ما قالت فى موقف الإنجليز والروس فى عدد تال بعنوان : (خلاصة الأخبار الأخيرة وآراء الجرائد) ، وهى لا ترسم الخطوط من غير علم بل تعرضها عرضاً أدبياً علمياً جميلا بقولها :

« قل لنا متى النهاية . تحملنا ما لا يطاق . صبرنا على البلوى . فحتامَ ننتظر . وإلام نصطبر . . .

الصدر ضاق فلم يطق والصبر غادر منزله
فإلامَ نحتمل العنا ومتى تحل المسأله

مسألة شرقية وعقدة إبليسية عبث القلم بها زمنا فزادها تعقيداً فاعتيض عنه بالسيف على حد قولهم .

السيف أصدق إنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

فيل يناظر سمكة . وسمكة تبارى فيلا وكلاهما بعيد مقراً . هذا له من اليابسة ثمنها وتلك لها من البحار أنفعها . هذا يفتخر من اليابسة بعديد الرجال وتلك تفتخر من البحار بوفرة المال . فلا يقنع هذا بخيرات الأرض ولا تكتفى تلك بكنوز المياه . ونحن بينهما هدف ترمى عليه أسهمها فبئست حالتنا . . . أخالك قد جزعت حملا على اشتداد الأزمة فتجلد

(١) الأهرام فى ١٠ أغسطس ١٨٧٧

فلعل ذلك من قبيل الإيذان بالفرج وما بداية دون نهاية . فاعتض عن الجزع بالوقوف على الحالة ودع لسواك الحكم .

أبت الروسية الانقياد إلى إرادة بريتانيا . . . فلما سمعت بريتانيا ذلك اقشعرت وتقبضت وصرخت علىّ بالجند الاحتياطى وتأهب الأساطيل وإتمام الاستعدادات . . . فاعتاض بعضهم عن السؤال . أحرب أم سلام . . . على أننا فى ما ذكرنا لا نبرم حكماً قاطعاً يناقض قول ذاك البعض بل نبسط للمطالع الحالة وله النتيجة »[1] .

أرأيت حديث الفيل والسمكة ؟ أنه لتشبيه بديع لروسيا وانجلترا إذا عالجنا الموضوع من نواحيه الجغرافية ومواقفه الحربية ، وقد أيد التفصيل الذى استغرق أكثر من نهرين آخرين قدرة المحرر على بحث المشكلة السياسية التى نشأت بين الروس والإنجليز ، معتمداً فيما ذهب إليه من مقدمات ونتائج على معلوماته الخاصة ودراساته من الصحف الأوربية الكبيرة ، وهو يحمل فى عنف وشدة على روسيا كلما كشرت عن نابها لتركيا ، تلك الدولة النهمة الشرهة التى « عظمت شعباً وأرضاً » ولكنها « تناهت بحب الذات فلم تقنع بعظمتها ولا اكتفت بما حازته فى شمالى آسيا لكنها تطلب أكثر حتى إذا حالت الدولة بينها وبين التهام ما تريد التهامه من البلاد العثمانية هللت لذلك إذ خاب سعى الروس وحبطت نواياهم »[2] ولكنها حين ترى فى سنة ١٨٧٨ أن تركيا قد تنازلت عن قبرص لانجلترا علقت على ذلك بمقال بديع جاء فى رأسه :

كنا نحاذر من عـــدو أصفــر   حتى بلينـــا بالعـــدو الأزرق

ومضت تبين خطورة ما ذهب إليه مؤتمر برلين فى جعل قبرص من حق الإنجليز فإن ذلك يجعل لانجلترا « سطوة عظيمة فى البحر المتوسط وتفتح لها أيضاً أبواب سوريا ومصر وتمهد السبل الموصلة إلى الاستيلاء على المشرق مستقبلا . . . » ، ثم تقول معلقة على موقف الدول التى وافقت على هذا : « أترى تخشى الدول سطوة روسيا على آسيا والمشرق أم سطوة انكلترا عليهما وقد علمن أنها أتمت بقبرص امتلاك البحر المتوسط فبابه بوغاز جبل طارق وبهرة كبده مالطة وطرفه قبرص »[3] .

والأهرام حين تعالج الشئون السياسية الخارجية تحتفظ بنصيب واف منها للحديث عن تركيا وشئونها ، وقلما كانت تمس شئون تركيا الداخلية حتى طلعت علينا بمقال ممتع يعقب فيه المحرر

---

(١) الأهرام فى ١٢ أبريل ١٨٧٨
(٢) الأهرام فى ٢٨ أكتوبر ١٨٧٦
(٣) الأهرام فى ١٩ يوليو ١٨٧٨

على افتتاح « البرلمنتو الجديد » فى تركيا جاء فيه : « إن خطأ من لا يعمل لأنه لا يعلم أخف كثيراً من خطأ من لا يعمل لأنه يعلم ، فنحن إذاً الآن من قبيل من يدرى أنه يدرى فلا نكونن من قبيل من يدرى ولا يدرى أنه يدرى . لقد شكونا من الاستبداد الموصل إلى الدمار فهيأ لنا الآن أن نقصيه بعيداً ، والخطاب السلطانى قال قد اشتهرت وثيقة الإصلاحات وأوجدت البرلمان مؤكداً للجميع العدالة والحرية . أما وطننا العزيز فقد وضع بإزاء بصائرنا وأنظارنا صورة نقشها بنان العدالة بقلم الحكمة وكتبت على دائرتها دائرة أرسطو المشهورة (وهى العالم بستان سياجه الدولة . الدولة سلطان تحجبه السنة . السنة سياسة يسوس بها الملك . الملك راع يعضده الجيش . الجيش أعوان يكفلهم المال . المال رزق تجمعه الرعية . الرعية عبد يتعبدهم العدل) . وأخرجت من كلمة العدل خطاً موصلاً إلى وسطها مشيراً إلى جملة أحكم تنميقها وهى (بالإصلاح النجاح) فلا يحول بيننا وبين هذه الصورة إلا عمى يستحوذ على البصيرة والبصر . . . . »[1] .

بدء معالجتها للأمور الداخلية

ويكاد يكون مقالها عن البرلمان العثمانى وسطاً بين المقالات الخارجية والمقالات الداخلية فهو وإن تحدث فيه الكاتب عن مسائل تركيا الخارجية فإن له صدى فى أعماق المصريين باعتبارهم جزءاً من هذه الدولة التى تشهد لأول مرة فى تاريخها الحياة البرلمانية الحديثة ، ومنذ هذا الحديث الوسط بين شؤون الداخل والخارج أخذت الأهرام تتحدث عن المسائل الداخلية ، فهى تحمل على عاتقها نقد حياتنا الداخلية فى رفق شديد ، وتتجه فى هذا النقد إلى الجمهور فتؤنبه دون الحكومة لأن زمن نقد الحكومات لم يكن قد أزف وقته فى سنة ١٨٧٧ ، فتحدثنا فى مقال بعنوان (نشتهى ولا نفعل) حديث اللائم لهذا الجمهور وارث أعظم مدنية عرفها تاريخ العرب وهو لا يشجع أديباً أو كاتباً مهما يقدم الأديب أو الكاتب من عصارات ذهنه ما يفيد هذا الجمهور ، والمحرر يبكت المواطنين الذين ينصرفون عن تشجيع المؤلفين ومصدرى الصحف ومخرجى الروايات التهذيبية على ما فيها من الفائدة والملاءمة[2] .

تشجيع الأهرام للمؤلفين

ومن ذلك ما جاء فيها مدحاً لكتاب « الأديب الفاضل والحكيم الكامل جناب الخواجة

---

(١) الأهرام فى ٢٤ مارس ١٨٧٧

(٢) الأهرام فى ٣ مارس ١٨٧٧

أمين شميل المحترم » وهو عبارة عن خمس مقامات وستة وعشرين قصيدة « ويسوؤنا أن نرى مؤلفاً كهذا لم ينتشر الانتشار المقتضى لتعم منافعه المقصودة من تأليفه ، ذلك أكبر سبب لتقصير باع أهل العلم فى الشرق عن الجهاد لإغناء لغتنا الشريفة لأنهم لا يخسرون التعب فقط بل يلتزمون بمصروف الطبع دون التعويض تاركين تلك الكتب والعت(١) ».

وهذا الموضوع الداخلى الذى لخصنا لك فى سطور مغزاه يمثل عدة موضوعات قليلة عرضت لها الأهرام فى سنتها الأولى إلى جانب ما اعتادت نشره من فصول أدبية واجتماعية ملخصة أو منقولة من صحيفتها الثانية (صدى الأهرام) ومن جريدة الجوائب التى تصدر فى الآستانة لصاحبها أحمد فارس الشدياق ، وجريدة روضة الأخبار الشبه رسمية أو جريدة الوقائع المصرية ، وكانت فى الحق تتخير ما تنقله لطرافته أو فائدته ، ومن أجمل الفصول التى نقلتها عن روضة الأخبار فصل بعنوان « تعريفة اللغم البحرى المدعو باسم « التوربيل » وما أدراك ما هذا الفخ الحربى المهول(٢) ».

الأهرام فى سنتها الثانية

ثم تقبل السنة الثانية من تاريخ الأهرام وصاحباها ممتلئان ثقة فى المستقبل ذلك لأنهما يؤديان واجبهما الصحفى أحسن الأداء ، فقد كفل جهدهما الأمل فى صحيفتهما ، أليسا صاحبى رأى فى قيم الصحف؟ « والجريدة المعتدلة الناهجة منهج الحقيقة لا تحتاج إلى من ينادى بها رجاء بالاشتراك لا سيما فى عصر كالعصر الحالى فيه انقشع سحاب الجهل من ذلك العقل ، وكم من جريدة تُطلب دون أن تطلب ، تلك هى التى تضاعف جهد مؤلفها فلا يأسف على تعب ولا يأنف من نصب(٣) » وحقاً قد ذهب سليم وبشارة تقلا بصحيفتهما مذهباً جديداً فكبر حجمها ووضحت حروفها وامتاز حبرها وقل خطؤها المطبعى أو كاد أن ينعدم .

عنايتها بالشؤون الداخلية

بيد أن الأهرام أفسحت صدرها لكثير من الشؤون العامة الداخلية ، وقامت بينها وبين « ثمرات الفنون » الجريدة اللبنانية المعاصرة خصومة عنيفة مصدرها هذا النقد الهيّن اللين الذى نشرته الأهرام للسياسة الداخلية فى تركيا ، ولا يعنينا من

(١) الأهرام فى ٣ فبراير ١٨٧٧
(٢) الأهرام فى ٧ يونيه ١٨٧٧
(٣) الأهرام فى ٣ أغسطس ١٨٧٧

هذا المقال – الذى لم تر له مثيلا فى العنف والشدة زهاء الأعوام السبعة الأولى من تاريخ صحيفتنا – إلا ما ذهب صاحبه فيه إلى وظيفة الصحافة إذ أن « وظيفة الجرائد فى جميع البلاد المتمدنة نشر الأخبار الحادثة سواء كانت تلغرافية أم بريدية مما يعتبر ذا فائدة عمومية لذوى السياسة أو العلم أو التجارة أو غيرهم من أصناف الناس ، وكلما سبقت تلك الجرائد إلى نشر هذه الأخبار مراعية حقوق النقل والحدث حسب لها ذلك فخراً ونالت اسما جميلا » .

ثم يذكر المحرر لصاحب ثمرات الفنون أن فى مصر حرية للفكر والقلم « وقد جعلتنا والحالة هذه فى مركز يفرق نوعاً عن مركز الثمرات » ، فنحن كما يريد أن يقول سليم تقلا « فى بلاد نظراً إلى أهميتها التجارية أضحت مقراً لجميع أمم الدنيا من كل جنس ولسان ، فيها تنشر كل يوم أخبار العالم من كل نوع فى لغات كثيرة ، وكانت إرادة خديويها المعظم هى تحقيق الفوائد الإخبارية الحاصلة للأجانب لرعاياها فى كل نوع فأذنت للمشتركين التجاريين المعروفين باسم روتر وهافاس أن تأتيها بالأسلاك البرقية وسمحت لنا ولغيرنا بنشر هذه الأخبار عربياً لفائدة الذين لا يحسنون اللغات الغربية من أبناء الوطن » ثم يعيّره لتقصيره فى الفن الصحفى إذ أن « الأخبار التى قبل أن تصل إليه تكون قد ترجمت إلى كل لسان ونادت بها الأولاد فى الأزقة » ، ثم يعلمه « أن مركزنا يلزمنا ذمة وشرعاً بأن نسرع إلى نشر كل خبر وإن كان مكدراً خوفاً من أن صمتنا فى هذه البلاد يفسره الناس على أنحاء شتى كلها مضرة للأمة . . .[1] » .

سياستها وطنية عثمانية

ولم يفكر صاحب « ثمرات الفنون » فى مهاجمة الأهرام لأنها نشرت أخبار الحرب الروسية التركية نقلا عن روتر وهافاس ، بل كانت حملته لهذا النقد الهين اللين الذى أشرت إليه الموجه إلى السياسة التركية فى تلك الفترة وهو نقد المواطن الذى يسوؤه أن يتنكب أصحاب الرأى الطريق السوى ، ولم يؤثر قط عن سليم أو بشارة تقلا خاصة أى ميل عن تركيا أو عدم الاعتراف بفضلها وإيثارها بالخير ، فقد كانت تلك سياستها ، سياسة مبنية على الولاء للسلطان والاعتراف برعايته حتى قالوا فى سياستها إنها وطنية عثمانية[2] . وآية ذلك تلك المقالات المتصلة التى نشرتها تشجيعاً لجمع المال فى سبيل

(١) الأهرام فى ٢٩ نوفبر ١٨٧٧
(٢) جريدة الشعب فى ٨ مايو ١٩١٢

مساعدة جرحى الحرب فى الإسكندرية[1] ، وفيهم الأتراك وإن كانت أكثريتهم مصرية ، وكانت هذه المقالات تتصدر الجريدة فى صفحتها الأولى ، كما كانت تنشر كل ما من شأنه أن يعاون على البر والإحسان ، مثال ذلك ما جاء فى إعلان عن أن « دعوة الأنس التى كانت معينة أمس لتياترو زيزينيا من الجمعية الوطنية لمساعدة جرحى الحرب المصريين قد أخرت إلى مساء السبت فى الساعة ٨½ نظراً إلى داع أوجب ذلك[2] » . وتنشر هذا وغيره فى حماسة تمليها العاطفة الصادقة نحو مواطنيها من « النسل العربى » أتراك أو مصريين .

الأهرام فى عامها الثالث

ثم تدخل الأهرام فى عامها الثالث قوية متوثبة ، « تلك صحيفة الأهرام خدمنا بها الوطن منذ عامين ، وهذا هو العدد الأول من سنتها الثالثة وقد شهد مطالعوها بأنها جرت على الحقيقة سالكة الجد فأمنت العثار . وعلم الله أننا قد هجرنا دونها كل عمل أمل أن نقوم بالواجبات التى تلزم أرباب هذه الصحف فاتخذنا الحقيقة فى الأخبار دستوراً ولم نبال بما اضطهدنا ولا نزال نضطهد لأجلها فإن ذلك أحب أمر لنا » .

« صادفنا من إقبال الجمهور علينا واشتراكه فيها ما ضاعف عندنا الرغبة والاجتهاد فى إحكامها وتزيينها بالأخبار الصادقة المفيدة فكانت بذلك تكسب الثناء والنمو والنجاح والتقريظ من العموم لا من محررها نفسه كما يفعل من جهلت نفسه قدره . وما سبيلنا أن نفخر فى ما أتينا به من إتقان الجريدة ، ونعظم قدرنا وقدرها ولا أن نتخذ الطعن فى سوانا وسيلة لمدح أنفسنا لأن كلتا الوسيلتين نقيصة ، ولا يقتحم الأولى إلا الجاهل الغشوم ولا الثانية إلا الأحمق اللئيم . ولكنا نداوم الجهد السابق ونزيده ما أمكن راجين أن خدمتنا هذه تستمر مرعية القبول من الجمهور[3] » .

دفاعها عن الموظفين المصريين

وحديث صاحبى الأهرام فى مطلع عامها الجديد غريب بالقياس إلى السنتين السابقتين ، فالمحرر يشير هنا إلى اضطهاد وقع ولا يزال واقعاً ، وهو حديث ، مكان ذكره فى فصل مقبل ، أما وعده بأن يداوم الجهد السابق ويزيده فذلك ما يعنينا فى تحرير الأهرام ،

---

(١) الأهرام فى ٢٢ ديسمبر و ٢٨ ديسمبر ١٨٧٧
(٢) الأهرام فى ١١ يناير ١٨٧٨
(٣) الأهرام فى ٢ أغسطس ١٨٧٨

فقد صدقت الأهرام وعداً ، وزادت عنايتها بالأخبار والمقالات الداخلية خاصة ، فهي يوماً تعالج متاعب الشرق العربي وتتحدث عن إصلاحه[1]، ويوماً تصور الحياة المصرية الجديدة في مقال استغرق الصفحة الأولى تقريباً[2]، ثم تنشر خبراً من المحروسة بعنوان « الوزارة المصرية والمتوظفون الوطنيون » ، ولا يتجاوز الخبر ثلاثة أسطر ، ولكنها — أي الأهرام — تعلق على الخبر بقولها « أهم ما ينبغي البحث فيه حالا وأفضل ما يجب على الوزارة أن تراعيه النظر في حالة المستخدمين الوطنيين أبناء اللغة العربية الشريفة بأن تعتبر أنهم أحق من سواهم في الحصول على الوظائف أو في بقائهم مالكين زمام وظائفهم ، ولا ننطق في ما ذكر عن الهوى بل نرى عدلا وحقاً في هذا الشأن ، وبرهان ذلك أن ابن الوطن أولى من سواه بالإكساب والاكتساب ولا عذر لنا أو لا سبيل لأن نتمحل عللا وأسباباً لا طائل تحتها بقولنا إن ابن الوطن ليس كفوا للقيام بأعباء الأعمال التي تلقى عليه فإن ذلك تكذبه شواهد الحال فقد رأينا ونرى كل وقت أن الوطني أهل لقبول أسمى الوظائف إذا أذن له باستعمال حرية القول والفعل وعلم أنه مطالب وحر في شغله » ، ثم تمضي مسفهة فكرة إحلال الأجانب في وظائف الدولة محل الوطنيين لأن ذلك يضر ولا ينفع ، فالأجنبي كما ترى هي ، لا يستطيع العمل من غير مترجم ، كما أنه يجهل طباع المواطنين وأخلاقهم جهله بلغتهم « كما أنه يتقاضانا ضعف ما يتقاضانا الوطني[3]».

غيرتها على الشرق

ثم تدأب الأهرام على مناقشة المسائل الداخلية الدقيقة وتناقش السياسة العليا في مقالات غاية في العمق ، وتوازن بين الشرق والغرب وتعلن طرائق النظر إلى الحياة في كليهما ، وتعطي القارىء صورة قاتمة لحياة هذا الشرق المحروم من الحرية ، مع أن هذا الشرق — في عرفها — « أفضل قسم من أقسام الكرة تربة وماء وهواء . ورجاله أسمى رجال العالم عقلا وأتمهم بنية وأسرعهم اكتساباً وأقبلهم استعداداً وأكثرهم تجلداً واحتمالا . هذه هي حالة تلك البلاد التي كانت للكون بالحرية في العلم والأدب والفن وجمال الطبيعة[4] ». وهكذا تشغل الأهرام معظم أعدادها بصفحات متصلة من الموضوعات الرفيعة ومناقشة المسائل العامة التي تشغل أذهان المواطنين في معاشهم ومعادهم .

---

(١) الأهرام في ٢٠ سبتمبر ١٨٧٨
(٢) الأهرام في ٢٦ سبتمبر ١٨٧٨
(٣) الأهرام في ٤ أكتوبر ١٨٧٨
(٤) الأهرام في ١٥ نوفمبر ١٨٧٨

نشر أحاديث السياسيين ورجال الفكر

وإذا كانت الأهرام قد أغنت قارئها بما زودته من أخبار داخلية وخارجية وبما عرضت عليه من مقالات سياسية تعالج حياة الغرب أو تصور حياة مصر والشرق ، فإنها درجت منذ سنة ١٨٧٩ على نشر ألوان من الأسلوب الصحفي لم يكن معروفاً فى مصر ، وكانت فيه أسبق الصحف جميعاً فى الشرق العربي ، ذلك هو باب الأحاديث فى صفحاتها ، وهى أحاديث فى أكثرها يتصل بشؤون السياسة المصرية ، فقد زار مصر أحد كبار الصحفيين فى شهر فبراير ١٨٧٩ ولقيه مدير الأهرام ، فدارت بين الصحفيين الكبيرين أحاديث سجلتها الجريدة فى صفحة كاملة ، وقدمت لها بقولها : « وفى هذا المقام اخترنا أن نبسط لك المحاورة التى جرت منذ يومين بين المسيو شارم جبرئيل أحد محررى جريدة الديبا الفرنسوية الذى قدم مصر من مدة وما زال فيها وبين مدير جريدتنا لتقف على ما هنالك من الأفكار وقد جعلنا المحاورة تحت لفظتى الديبا والأهرام » .

الدفاع عن حقوق المصريين

ومن يطالع هذه المحاورة البديعة يرى صحفينا قد طاول المحرر الفرنسى فى النظر إلى الأمور العامة ، بل كان فى كثير من نواحى المحاورة يبزه نضجاً ويفحمه رأياً ، ولم تؤثر علاقة آل تقلا بالفرنسيين وإعجابهم بمثلهم ، ومدح هذا المثل من حرية وأخاء ومساواة فى مقال منذ عشرين يوماً سابقة على هذه المحاورة ، لم يؤثر ذلك على الدفاع عن المواطنين الذين أثقل الأجانب كواهلهم بالضرائب والديون ومن بينهم الفرنسيون ، كما أن مدير الجريدة المصرية دافع عن الدستور ونافح عن مجلس الأمة وحقوقة دفاعاً يثير إعجاب من يقرأ هذا الحوار البديع بين الديبا وبين الأهرام[1] .

معالجة الشؤون الاقتصادية

ثم تأخذ الأهرام فى معالجة الشؤون الاقتصادية معالجة الخبير الباحث ، فإن الاضطراب المالى الذى أصاب مصر فى سنة ١٨٧٩ كان علتها الأولى إذ « كل ما ترى من الحوادث التى طرأت أخيراً على حكومتنا وجذبت الأوربيين من كبد بلادهم للتدخل فى أعمالنا معلول عن علة واحدة هى خلل النظارة المالية ، فإن سوء الإدارة أوجب التثقيل على الرعية فأفقرها فوجل الدائنون فكان ما كان مما لا نود ولا نرضى به طويلا لأنه باعث على

(١) الأهرام فى ٢٧ فبراير ١٨٧٩

مناصبتنا وبخسنا حقنا وتأخيرنا أدبياً ومادياً ، ولما كانت المسببات تزول بزوال أسبابها لزمنا أن نعمل الفكرة فى مطلق الوسائل الآذنة بإزالة خلل العلة ليزول المعلول فنكفى شر المستقبل وننسى بالراحة أتعابا سلفت[1]» . وتناقش الأهرام الوسائل التى تنقذ الوطن من متاعبه المالية فى نفس المقال الذى استغرق ثلاثة أنهر .

استبدال الحكم الاستبدادى بالشورى

ثم تكتب فى الأسبوع التالى مقالا تعالج فيه أمر الوزارة الجديدة التى كان يرأسها ولى العهد وتناقش فكرة « الحكم الاستبدادى » واستبدال « المقيد الشورى » به ، وتعدد المشاكل التى تمت منذ استقالة نوبار باشا من رئاسة الحكومة وتعيين الأمير توفيق مكانه . وموقف انجلترا وفرنسا وتمسكهما بالوزير المستقيل ، ويبين الكاتب«أن الدولتين المنوه عنهما تعدتا ما لهما من الحقوق وأخذتا تعترضان ما كان وتتعرضان لما سيكون » ، ثم يعرض لفكرة المجالس النيابية مؤيداً لها ، إذ أن فكرة الحكومة الشورية « تستلزم إقامة قوتين متضافرتين متحدتين إحداهما تسمى القوة الوزارية والأخرى تدعى المجلسية وهما لازمتان متلازمتان لا تتطلبان انفكاكاً ولا تقتضيان خلافاً . وهاتان القوتان تصانان بالقوانين المرعية بواسطة ناظر عام هو المالك المنفذ ، فهما مسئولتان لدى المالك وهو مسئول لديهما ، والأولى مسئولة أمام الثانية والثانية مسئولة أمام الأمة ، فهى الحاكمة المقسطة ذات الحق الشرعى العرفى . فنتج ما ذكرنا أن لا بد من مجلس أمة » . ثم تبحث فى ماهية الوزارة ومعنى مجالس الأمة حتى تنهى المقال فى النهر الرابع من الصفحة الأولى[2].

هكذا دلفت الأهرام فى إسراف نحو المسائل الداخلية المصرية حتى كانت لها الصدارة مقالات وأخباراً ، وهى فى مقالاتها أشبه بالمعلم أو المبشر بين الناس ، فكل جملة من مقال لها مغزى ومعنى القصد منه أن يعى القارىء المعانى الجديدة ويتشرب محاسنها حتى يترضى الزمن من أجلها بإعانة المسؤولين على رفع الحيف وإقالة الأمة من ديونها . والمحرر يحدثنا عن تداخل الدول فى شئوننا حتى تتفتح عيوننا فإن مآسى وشيكة الوقوع[3] ، ثم يصور « حالتنا » فى مقال بهذا العنوان ، مذكراً بأن « رأى الأمة واجب الاتباع وواجب الاحترام[4] » ، ثم يعقب فى عدد تال متحدثاً عن « الحكومة الشورية والقطر المصرى

(١) الأهرام فى ٢٦ مارس ١٨٧٩
(٢) الأهرام فى ١٣ مارس ١٨٧٩
(٣) الأهرام فى ٣ أبريل ١٨٧٩
(٤) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٨٧٩

أو الحرية فى مصر » ، وهو حديث فى الأدب والتاريخ والسياسة وصدى لما كانت عليه مصر من حال[1].

تقلا يحصل على تأييد ولى الأمر

ولا تكتفى الأهرام بما كتبت من مقالات فى هذه المعانى الرفيعة التى شغلت المصريين فى تلك الفترة من حياتهم الدقيقة ، بل سعت لهذا التوجيه إلى تأييد من صاحب الأمر يزكى وجهة نظرها فذهب (بشارة تقلا) إلى القاهرة واستطاع أن يتشرف بلقاء الحضرة الخديوية السنية فى شخص الخديو إسماعيل الذى ساءه فى تلك الفترة تطرف الأهرام فعالج أمرها بعنف وشدة ليس هنا مكان الحديث عنهما .

حدث جديد فى الصحافة المصرية

وكان لقاء صحفى من المواطنين للخديو شيئاً جديداً فى حياة المصريين ، وأكثر منه جدة فى حياة الصحافة المصرية أن ينال المحرر حديثاً من ولى النعم يؤذن له بنشره فى الأهرام ، وتبدو القدرة الصحفية واضحة فى الحصول من الخديو على حديث يؤيد فيه حرية الرأى والقلم ، فقد « تنازل سموه للإعراب عن غايته التامة فى أنه يود أن تكون الحرية ناشرة لواءها وأن الجرائد تراعى حقوقها وواجباتها بنشر الأخبار الصادقة مع ملء الحرية وأن مجلس النواب سيراعى حرمة الصحف الإخبارية لتنقل عنه إلى الأمة أعماله كما أن مجالس الشورى سيفتح لأرباب الجرائد باباً رحباً فيدخلونه ويلتقطون من فرائد فوائده دور المعارف والأخبار ويقدمونها للرعية وما شاكل ذلك[2] » . ويرحب بشارة تقلا بحديث الخديو الذى يؤيد توجيهات الأهرام فى مقالاتها الداخلية المتصلة ويذكر أن المتأمل فى المعانى التى صرح عنها الخديو يقضى « جازماً أن سموه أعزه الله له غاية الرغبة فى تأييد الحكومة الشورية وتوطيد دعائم الحرية خلافاً لما يُروى من استند إلى أسباب أوهن من نسج العنكبوت » .

الدور الذى لعبته الأهرام فى حياة الأمة

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نصور الدور الذى لعبته الأهرام فى تثقيف العقول وكشف المستور من اتجاهات السياسة الدولية نحو مصر منذ نشأتها إلى خلع الخديو

(١) الأهرام فى ٢٣ مايو ١٨٧٩
(٢) الأهرام فى ١٥ مايو ١٨٧٩

إسماعيل أو بعد خلعه بقليل ، فهى دائبة التوجيه نحو المثل العليا التى كان يتغناها أحرار القرن التاسع عشر ، فقد كانت – ومنذ هلت سنة ١٨٧٩ خاصة – تكتب فى كل أسبوع مقالا عن الشؤون الداخلية المصرية ، وهى وإن كانت مقالاتها فى أكثرها مقالات سياسية فعذرها مقبول فى إهمال المسائل الداخلية الصغيرة الأخرى ، إذ كانت حياة مصر السياسية الشغل الشاغل للمواطنين جلّت قيمتهم أو هانت ، وهى تشبه من هذه الناحية جميع الصحف المعاصرة فى تلك السنة ، المعتدل منها والمتطرف على السواء ، ولم يكن يشغلها فى أواخر سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٨٠ إلا الخوف من الفكرة التى لاحت فى أفق الساسة الغربيين ، فكرة احتلال مصر وفرض رقابة مالية عليها والهيمنة على شئونها العامة رضيت تركيا بذلك أو رفضت ، فكانت مقالات الأهرام فى هذه الناحية تشغل حيزاً كبيراً من صفحاتها، وكانت تكشف للمواطنين مواضع الضعف فى الشرق ومواضع القوة فى الغرب ، وتبين لهم الوسائل التى ينبغى أن يلجأوا إليها للمدافعة عن شرفهم والمنافحة عن استقلالهم ، ومن أهم هذه الوسائل أن يعتاد الشرقى حكم نفسه فى ثقة واطمئنان ، معتمداً على قوته وقوة أخلاقه . ثم يطلب المحرر إلى القارىء أن يمضى معه « مستخلصاً أن الشرق لا يسلم من تعدى الغرب إلا متى استطاع أن يحكم نفسه بنفسه ، وقد أعربنا عن تلك الوسائل التى تخوله هذه الاستطاعة فجاهدْ ثابتاً وتوقع من الجهاد الثابت حسن العاقبة(١) ».

وبقدر ماأسرفت الأهرام فى علاج مسائلنا العامة فى سنة ١٨٧٩ فقد ارتدت إلى شىء من القصد فى سنة ١٨٨٠ ، ويصور هذا الاتجاه استقبالها للسنة الخامسة من حياتها ، فقد ذكرت أن العام الرابع قد انقضى « ولكن آثار حوادثه لم تنقض ، فبعضها مما يتعلق بقطرنا المصرى ترك الذكر الجميل لأنه كان لهذا القطر السعيد عام بركة وإحسان ، ففيه انصرمت أسباب مشاكلنا وحلت عقد معضلاتنا واعتيض عن الخلل بالنظام، والفساد بالصلاح، والضيق بالسعة، والشدة بالرخاء. بظل أمير أرسله الله للبر توفيقاً ولا ريب أن اسم المرء لا يخلو من لوائح(٢) ».

وقد كانت الأهرام فى مقدمة الصحف التى استقبلت تعيين الخديو توفيق مكان والده إسماعيل استقبالا حسناً ، وهى – كما سنؤرخ لذلك فى فصل مقبل – شديدة الصلة به ، شديدة الإعجاب بنواياه الحسنة ، لذلك خفّت فى سنة ١٨٨٠ المشاكل التى كان الخديو إسماعيل طرفاً فيها فقصرت مقالاتها على الشئون الداخلية الصرفة مؤرخة لبعض

(١) الأهرام فى ٥ يونيه ١٨٧٩
(٢) الأهرام فى ٥ أغسطس ١٨٨٠

أحداث مصر فى عهود الولاة السابقين كحديثها عن « سياسة أبهتلو سعيد باشا لقاء التداخل الأوربى[1] »وكمقالات بشارة تقلا فى « آمال سياسية[2] » و « البذخ[3] » مع العودة إلى العناية بدراسة أحوال الشعوب الأوربية كما رأينا فى دراساتها المتواصلة عن « العدميون فى الروسية[4] » وعن « منشئ هذه الشيعة وتعاليمها الفاسدة » وما إلى ذلك من مقالات للترويح عن النفس لا إشغالها بالمشاكل السياسية الداخلية .

هذا إلى أن العناية بالأخبار الداخلية فى البلدان والقرى والأقاليم كانت تستغرق جزءاً كبيراً من نشاطها ، كما أن أخبار المدارس وحفلاتها والتعيينات لكبار الموظفين كانت محل رعايتها وملاحظتها ، وكان مندوبها فى القاهرة — وهو إذا ذاك بشارة تقلا — يوافيها بالأخبار عن طريق البريد والبرق كما حدث وأرسل لها برقية بتعيين « الشيخ العدوى شيخاً للإسلام وشاكر باشا مديراً للغربية وطه بك للشرقية ومديرها للدقهلية . . .[5] ». وهكذا استوت الناحية الإخبارية فيها، وانصرف صاحباها إلى استعداد عظيم كانا يعدانه بمناسبة صدور الأهرام يومية منذ أهلت على المصريين سنة ١٨٨١ .

الأهرام صحيفة يومية يديرها بشارة تقلا

وقد أصبحت الأهرام صحيفة « يومية سياسية تجارية أدبية فكاهية » إبتداء من يوم الاثنين ٣ يناير سنة ١٨٨١ ، وتغير شكل رأسها فبعد أن كان منذ العدد ١٦٣ الصادر فى ١٩ سبتمبر ١٨٧٩ مزخرفاً يتوسطه أبو الهول بين هرمين يعلوها جميعاً اسم « الأهرام » ثم يخرج من خلف الإطار فى أعلى العلم متوسطاً لفظى « جريدة أسبوعية »، أصبح رأس الأهرام عبارة عن اسمها كبيراً يتوسط المكان وحده وفى أسفله لفظ Les Pyramides ومنذ صدرت الأهرام جريدة يومية أصبح « بشارة تقلا » مديراً لها مكان شقيقه سليم ، وبيعت النسخة الواحدة منها بقرش صاغ وزاد اشتراكها فكان فى السنة خمسة وخمسين فرنكا ، وفى نصفها خمسة وثلاثين فرنكاً فى القطر المصرى وسائر الجهات .

الاقتصاد فى النعوت والألقاب

وقد جاء فى صدر الصفحة الأولى « تنبيه مهم » من الأهرام قالت فيه « لقد رأينا أن



(١) الأهرام فى ١١ نوفبر ١٨٨٠
(٢) الأهرام فى ٢٥ نوفبر ١٨٨٠
(٣) الأهرام فى ٩ ديسمبر ١٨٨٠
(٤) الأهرام فى ٢٦ نوفبر ١٨٨٠
(٥) الأهرام فى ١٠ أبريل ١٨٧٩

العدد ٣٠١ — يوم ... في ٣ جانويه سنة ١٨٨١ — الموافق ٢ صفر سنة ١٢٩٨ — السنة الخامسة

الأهرام

LES PYRAMIDES

جريدة يومية سياسية تجارية ادبية [illegible]

[illegible]

الاسكندرية في ٣ جانويه سنة ١٨٨١

الأهرام اليومية

[illegible]

سنة ١٨٨٠

[illegible]

أول عدد من الأهرام حين صدرت يومية في ٣ يناير ١٨٨١

نراعى فى جريدتنا الأهرام اليومية بعض ملاحظات ضرورية يستلزمها تحسين الجريدة واتهاجها منهج الجرائد الغربية ، وإنا لنبسطها لتعلم ولا يكون هنالك توجيه لوم أو إيراد اعتراض وهى :—

أولا : نغادر ألفاظ النعوت الشخصية عند ذكر الأشخاص مكتفين بإثبات التحديد الرسمى المعين للرتب فقط فنشير إلى صاحب الرتبة الثالثة بلفظ رفعتلو مثلا والثانية عزتلو والأولى سعادتلو ورتبة المشيرية دولتلو دون إثبات ألفاظ أخرى وصفية كالوطنى النزعة والهمام والنبيه والوجيه وما شاكل ذلك .

ثانياً : نضع أسماء المسافرين أو القادمين إلينا من ركاب الدرجة الأولى والثانية دون ذكر الألقاب والنعوت .

ثالثاً : لا نضع من أسماء الذين يتوجهون من الإسكندرية إلى المحروسة أو يقدمون منها إلينا إلا أسماء الباشوات والقناصل والويس قناصل (تعنى فيس قنصل أى وكلاء القناصل) ورؤساء المصالح .

رابعاً : ليس لرسائل المدح عندنا نصيب ولا للطعن المتعلق بالشخصيات لا بالوظيفة .

خامساً وأخيراً : نرجو من حضرات المشتركين أن يطالعوا شروط الجريدة المثبتة أعلاه ليتبينوا كيفية الاشتراك ومقداره وكيفية المراسلات وأجر الإعلانات وما شاكل ذلك » .

وليس لنا من تعليق على هذا الدستور الذى نشرته الأهرام اليومية ، فى أول عدد منها إلا أن نعقب بأن هذا الاتجاه كان ملحوظاً فى الأهرام الأسبوعية منذ صدورها فى أغسطس ١٨٧٦ اللّهم إلا قليلا من النعوت التى كانت تضفيها على أولى الأمر ، ولم تنج منها بعد إعلان دستورها وإن قلّت فى أعدادها عن ذى قبل ، وقد مضت الأهرام — ولا تزال ماضية — فى تحقيق هذه المبادىء فلا تخلع لقباً إلا على من استحقه ، ثم خلت صفحاتها فى الخمس والسبعين سنة الماضية من الطعن والإقذاع حتى فى مجادلاتها مع الأشخاص العموميين إلا ما صدر عنها من خصومة عنيفة للعرابيين بعد الاحتلال وإن لم يطل أمد هذه الخصومة وخفت حدتها بعد قليل من نهاية المأساة ، كما خلت ألفاظها من الحوشى النابى فلم تنهج فى صراعها ما نهجته الصحف الوطنية الأخرى التى لقيت ما لقيته الأهرام من الثورة وزعمائها .

جرأتها فى الحق

ثم عقبت الأهرام على دستورها بمقال استغرق معظم الصفحة الأولى من عدد ٣ يناير



أحمد عرابي باشا



محمود سامي البارودي باشا

١٨٨١ المذكور بعنوان « الأهرام اليومية » بدأه بتأريخ ما أصاب الشرق من تأخر واضطراب « ذلك ما ولدته لنا أعمال الظلم والغدر بل ذاك ما ولده القنور والتوانى والكسل فساءت حالتنا ووصلت بنا الأيام إلى مقام منحط ليس من دونه مقام حتى ظن سوانا أن ليس لنا من نهضة بعد هذا السقوط وأن قد كنا بالأمس شيئاً مذكوراً أما الآن وقد صرنا إلى ما صرنا إليه فلم نعد شيئاً ، ولكن لما كان التجدد من الطبيعة وشمس المشرق ما زالت شمساً وجب أن يخيب ظن السوى إذ عاهدتنا العدالة بحقوقها فانجلى عنا غيهب الظلم فسرحنا الطرف وإذا بنا نبصر ».

ويستمر المحرر فى مقاله متنقلا من معنى بديع إلى معنى أبدع . ويحسن بنا أن نقتطف بعض ما جاء فى هذه القطعة الأدبية الرائعة : « أى نعم قد انكشفت عنا سحابة الاستعباد والرق فرأينا ما دنا ونأى وتذكرنا بسالف المجد وسمو المكانة ومديد الفضل ، وأدركنا حقيقة ما قادنا إليه الخمول والذل ، وعلمنا أسباب كلا الجانبين فأبى ذاك الشعور الطبيعى إلا أن يدفعنا إلى اعتناق الأفضل ولزوم الأكمل ورعاية الأجل ، فنشطنا من التهاون والتوانى وبذلنا فى شاكلة جواد الهمة مهماز الإقدام ، ولم نأنف من بذل النفس والنفيس فى جنب النفيس متذكرين قول شاعرنا :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وقد اعتضدنا بالثبات وعلمنا أن القناعة إنما هى من الألفاظ المرادفة لفظة الكسل . والرضى بالموجود لعدم الاهتمام بما هو ممكن فصل من فصول الخمول . والبقاء على حالة واحدة هو عين التقهقر إلى الوراء . والاعتماد على التمنى والتعلل دون العمل ضرب من ضروب المجون ، وأن الفضل بالجد لا بالجد ، وأن المرء بأصغريه لا بثوبيه ، وبطىّ لسانه لا بطيلسانه ، والكثير خير من القليل ، والقليل خير من العدم ، والضرب فى بلاد الله طلباً للنجاح أفضل من ملازمة المأوى مع الإقلال، فلا تنال العلى بالمنى ، ولا المجد بالمهد، ولا الفضل برعاية الأصل ، فمن طلب المعالى سهر الليالى .

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل »

سياسة واضحة

رسمت الأهرام اليومية سياستها واضحة ، وفيها كثير من أهدافها القديمة ، ومضت قدماً فى حياتها الجديدة كثيرة الأخبار القيمة فى أسلوب واضح وإيجاز ملحوظ ، زاخرة بالمقالات فى كل ناحية من نواحى الحياة . منها المقالات الأدبية أو الاجتماعية أو الطبية[1]

(١) الأهرام فى شهر يناير ١٨٨١

من تحريرها أو من تحرير أصدقائها العديدين ، ومن أبرز الأشياء فى عهدها الجديد أن دراستها للمسائل التى تشغل الرأى العام الدولى كانت دراسة علمية بديعة كالمشكلة التونسية التى شغلت بعض صفحاتها من سنة ١٨٨١ وبحثت أسبابها وعللها وقضت فيها برأى يذهب إليه جلة علماء التاريخ حين تكتبوا تاريخ تونس الحديث .

نشرها للروايات

وقد دأبت الأهرام اليومية على جديد لم يكن معروفاً فى الأهرام الأسبوعية ، ذلك نشرها الروايات المعربة عن كبار الكتاب الأجانب ، ثم إذا فرغت من نشرها فى مئات الأعداد المتوالية طبعتها وباعتها بأرخص الأثمان[1]. وكانت أول رواية مسلسلة نشرتها الأهرام « رواية الكونت دى مونغوميرى » ، وهى قصة فرنسية لإسكندر ديماس ، عربها « حضرة قيصر أفندى زينيه » وقدم لتعريبه بحديث لطيف رأيت أن أجتزئ منه آخر فقرة جاءت فيه :

« وكان بودى أن أرى أدباء العرب مشتغلين بتأليف القصص المفيدة عن المؤلفات النحوية التى ملأوا بها خزائن الكتب » فإن الأدب فى أسلوب القصة « أقرب مناولة للعقول وأعلق فى الذهن منه فى الأراجيز والمؤلفات الضافية الذيول الكثيرة المذاهب[2] ».

استبدالها السجع بالمرسل

وكان دأب الأهرام فى صدر حياتها أن تمكن للسجع من أسلوبها سواء أكان المكتوب مقالا أم نعياً أم خبراً ، وكان فى مقدور محرريها (سليم وبشارة تقلا) أن يمضيا فى ذلك عاماً بعد عام حين كانت الصحيفة أسبوعية تصدر على شىء من المهل الذى يعين على السجع ، أما فى تحرير الأهرام اليومية فقد عز السجع فيها نظراً لصدورها يومية حيث لا يسعف الزمن بالسجع والتنسيق والتزويق وهذا مشاهد لا فى الأهرام وحدها ، بل فى جميع الصحف اليومية المعاصرة وفى مقدمتها (الوقائع المصرية) التى كان يحررها إذ ذاك إمام من أئمة السجع فى عصره ، أقصد الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وإن لم يمنع ذلك بعض المصاحفين من السجع فى مقالاتهم التى أرسلوها لتنشر فى الجريدة تزكية منهم لها أو تزكية لهم منها . غير أن الملاحظ أن أسلوب التحرير فى جميع فروعه كان متبايناً ، فساعة تقرأ خبراً لعبت فيه الصناعة الأدبية من تشبيه ومجاز وأخرى يردنا

(١) الأهرام فى ٧ يوليو ١٨٨١
(٢) الأهرام فى ٣ يناير ١٨٨١

كاتب الخبر إلى عهد الأهرام القديمة وزميلاتها المعاصرات ، إلى ركاكة الأسلوب ولكنته الأجنبية ، ومرجع ذلك – فيما نعتقد – تعدد القائمين على كتابة الأخبار والحوادث ، فقد كان ذلك فوق مقدور محرر واحد ، هذا إذا علمنا أن الأهرام كانت تؤنسها شقيقات أخريات لم يحن الحديث عنها بعد .

ومن أمثلة الأخبار التى عنى بأسلوبها المحرر ما جاء عن الطقس فى الإسكندرية : « انجلى وجه سمائنا أمس فظهرت الغزالة تتجلى بعد أن حجبتها السحب عنا بضعة أيام[1] » ، ثم انظر كيف يبعد الخبر مع طرافته عن هذا الأسلوب العربى الفصيح فقد جاء تحت عنوان « الحوادث المحلية » أنه « فى نحو الساعة التاسعة من صبيحة هذا النهار جرت تجربة التليفون فى بورس مدينتنا بمحضر من سعادتلو محافظ الثغر وحضرة وكيل الضبطية وغيرهما من الذوات وستذكر فى أهرام غد تفصيل ما كان من ذلك[2] » . ثم تصف ما حدث عند التجربة فى اليوم التالى ، وهو وصف جذاب لمن يعاصر دخول التليفون فى مصر أو يقرأ عنه فى أيامنا الحالية[3] .

وزنها الأخبار وتحريها الصدق فى الرواية

والذى ينبغى أن يسجل هنا لجريدة الأهرام أنها كانت فى مقدمة الصحف المعاصرة فى وزن الأخبار وإهمال التافه منها وإبراز الخطير الجليل على صفحاتها ، بحيث يستطيع الإنسان أن يؤرخ لكثير من الأشياء التى تعاصرنا اليوم ويتحسس أصولها واضحة إذا عاد إلى الأهرام فى سنواتها السبع الأولى ، وكثير منا لا يعرفون بالضبط متى وأين استعمل الترام فى القاهرة ، ولكن الأهرام تسجل هذا التاريخ حين يبعث لها مراسلها من العاصمة ذاكراً أنه « تقدمت المعروضات إلى نظارة الأشغال العمومية بشأن إقامة التراموای ، ونظن أن المسيو بيرد سينال امتياز ذلك على أن مجلس النظارة سيبحث فى هذا الموضوع بالتمامه فى ٢٩ مايو[4] » . فهنا خبر لو أراد مؤرخ أن يكتب للترام سيرته فى مصر لقرأه ثم مضى مع الصحيفة حتى تعينه على إتمام تاريخه . ومثل خبر الأهرام على طرافته وأهميته بالنسبة إلى القاهرة نقرأ خبراً عن « الأمنيبوس » فى الإسكندرية ، فإذا الحكومة قد أقرت « تفويض المسيو تريكون بإقامة خدمة الأمنيبوس فى ثغركم على نحو ما هى عليه فى مرسيليا إجابة

(١) الأهرام فى ٨ مارس ١٨٨١
(٢) الأهرام فى ٩ فبراير ١٨٨١
(٣) الأهرام فى ١٠ فبراير ١٨٨١
(٤) الأهرام فى ٣٠ مايو ١٨٨١

لطلبه[1] . وحتى يجد معاصرونا لذة التعرف على أصل هذا الأمنيبوس ولا يقعون فى الخطأ حين قراءة الخبر تعيننا الأهرام مرة أخرى على استكمال لذتنا فتذكر فى عدد آخر طول العربات التى لا تزيد على أربعة أمتار ، ثم تعين صفات (الخيول) التى تجرها . . . إلى آخر هذا الخبر الذى يفرق لنا بين أتوبيسهم وأتوبيسنا[2] .

الأهرام تؤدى رسالتها كاملة

أليست الصحافة سجلا للنشاط الشعبى والحكومى ؟ أليست صورة بديعة للعصر وآدابه وفنونه ؟ إنها بحق هذا كله لو أدت الرسالة كاملة دون ضعف أو وهن ودون إهمال لجليل الأخبار وهينها . وأهرامنا صورة طيبة لهذه الصحافة القادرة النشيطة فى ذلك الجيل ، وهى تذيع الخبر أحياناً ولكنها تضمنه التأييد سواء فى عنوانه أو فى متنه ، ومن الأمثلة على ذلك ما بعث به إليها مكاتبها من القاهرة تحت عنوان « مشروع حسن » ذكر فيه : « أن الحكومة شرعت فى حارتى الإسماعيلية وعابدين باختبار عمل ترجو الاستقرار عليه والسير بموجبه فى سائر الأحياء وفى ثغركم أيضا ألا وهو تنمير البيوت والاستفحاص عن أسماء سكانها والمهن أو الحرف التى يتعاطونها والدور الذى يقطنونه من المنزل وأسماء أصحاب الملك[3] » .

ويعنينا أن نقرر هنا أن كثيراً من الصحف المعاصرة قد استغرقها المقال فى تلك الفترة من حياة مصر ، وأغفلت من فنونها الصحفية قيم الخبر وأهميته فى حياة الجمهور ، وكانت الأهرام فى الصدر من صحف الجانب الآخر التى جعلت للخبر الداخلى مكانه الملحوظ ، وإنما تتميز على غيرها من زميلاتها فى زمانها بنشر الأخبار الغريبة التى تستوقف الأنظار وتترك بين الناس مجالا يروون فيه ويتحدثون ، ومن أمثلة ذلك ما نشرته بعنوان « الفونوغراف » من أخبار العاصمة « قدم المسيو بارجون بعد ظهر يوم الأحد حفلة فونوغرافية فى إحدى قاعات نظارة المعارف حضرها أصحاب السعادة عبدالله باشا فكرى وحسن باشا الشريعى وحسين باشا وحضرات الشيخ المفتى وأساتذة وتلامذة مدارس درب الجماميز وخلافهم ، ولقد أدهش الحضور ولا سيما التلامذة أن اسطوانة من نحاس تتكلم بأية اللغات وتنقل بكل ضبط أية الأصوات التى تدفع إليها ، فشكروا للمسيو بارجون وعظموا العلم وأهله والاختراعات

(١) الأهرام فى ١٦ يوليو ١٨٨١
(٢) الأهرام فى ٢٩ يوليو ١٨٨١
(٣) الأهرام فى ٨ ديسمبر ١٨٨١

وصانعيها[1] » . فإلى أى مدى أدهش هذا الخبر عامة القراء ، وشغل أئمة الفكر والعلم والدين ؟ .

المقالات فى الأهرام اليومية

هذا مجمل لألوان الخبر فى جريدة الأهرام اليومية ، أما المقالات فقسمان : قسم يعالج الشئون الخارجية ولكنه لا يطغى على القسم الثانى الخاص بالشئون الداخلية ، فمقالات هذا القسم أكثر واعم والعناية بها فى الأهرام اليومية فاقت الأهرام الأسبوعية ، وتميزت هذه المقالات بالتنوع ، فإذا عنيت صحيفتنا « بالمسألة الإيرلندية[2] » وأفردت لها صفحاتها فإن هذه العناية لاتتجاوز القدر الذى يطغى على شؤون الداخل وخاصة فى سنة ١٨٨٢ وإن ازدحمت سنة ١٨٨١ بالمقالات عن الحرية والاستبداد[3] . وزخرت بالموضوعات الاجتماعية كمناقشتها لموضوع الزواج ورأى الفلاسفة فيه[4] ، وموضوع التعداد ومكانه من حياة الأمم والشعوب[5] إلى ما نشرته من القصص والجمل الأدبية والتاريخية كحديثها عن شم النسيم ومكانه من تاريخ مصر كله[6] ، ثم مناقشة ميزانية الدولة والتعليق على تقرير رياض باشا وبسط الرأى فى الميزانية والتقرير[7] . وكانت افتتاحيتها تتضمن ذلك كله وإن كان لها فى أكثر من مقال عنوان دائم هو « نظرة عامة » تأتى تحتها المسائل المختلفة أدبية كانت أو اجتماعية أو سياسية .

تحقيقات صحفية

وفى هذه السنة التى صدرت فيها الأهرام يومية نشرت رسائل بديعة لمديرها « بشارة تقلا » من الآستانة فى رحلة قام بها خلال صيف عام ١٨٨١[8] ، ثم يمضى هذا المدير النشيط القادر إلى بلدان أوربا ، وخاصة انجلترا وفرنسا ، ومن هذه يضع بشارة تقلا أصلا من أصول الفن الصحفى ما كان أحوج مصر إليه ، ذلك هو الأحاديث التى أجراها

---

(١) الأهرام فى ٢٢ فبراير ١٨٨٢
(٢) الأهرام فى ٤ يناير ١٨٨١
(٣) الأهرام فى ٣ يناير ١٨٨١
(٤) الأهرام فى ٤ يناير ١٨٨١
(٥) الأهرام فى ٢١ يناير ١٨٨١
(٦) الأهرام فى ١٩ أبريل ١٨٨١
(٧) الأهرام فى ١٢ يناير ١٨٨١
(٨) الأهرام فى شهر أغسطس ١٨٨١

مع قادة الرأي ووزراء البلاد الغربية فى الشئون المصرية ، وهى أحاديث من شأنها أن تلقى ضوءاً على وجهات النظر الأوربية، وكان ينبغى أن تكون محل درس وفحص من ولاة الأمور فى مصر ، ثم هى – إلى جانب ذلك – تصور تيارات الحكومات الغربية وفى مقدمتها فرنسا وانجلترا ، وهى آخر الأمر ذخيرة لنا حين نريد أن نكتب تاريخ تلك الفترة من حياتنا(١)، ولم يقصر بشارة تقلا هذا الجديد الذى صنعه فى صحافتنا على نشر أحاديث كبار الرجال فى أوربا ، بل مضى يتقصى مواقف الصحف ويدافع عن وجهات النظر المصرية وعن رجال الحكم فى مصر « وقد اجتمعت ببعض محررى الجرائد الأولى فى لندن كالدالينيوز وغيرها وبينت لسائلىّ وضوح المسألة لأنى كنت أراهم يقضون على الجميع ويرون بدولتلو شريف باشا رجلا فرنسويا ، وقلت لهم ما شريف باشا إلا رجل مصرى يحفظ بلاده أولا ويحافظ ثانياً على مصالح الأوربيين حسب أهميتها بالعدل وكم سنة خدم الحكومة ولم يسمع عنه ما يشينه فإنه مستقيم عفيف النفس(٢) ».

بقيت بعض الحقائق الجديدة بالذكر كى يستوفى بحث التحرير فى الأهرام غايته، فنحن قد تعقبنا الأهرام فى سنواتها الأولى حتى أصبحنا أمام صحيفة يسترعى نظرنا نضجها واستواؤها، فلم تفوت جديداً فى عالم الصحافة المعاصرة فى الغرب إلا وحاولته ، فمضت تحاكى الصحف الأوربية وتذيع الملاحق فى المناسبات الدقيقة كتعيين شريف باشا ناظراً للنظار ، وكان تعيينه فى تلك الظروف « حدثاً يستحق أن تنام الإسكندرية وهى على علم به(٣) » ، وكذلك الملحق الذى أصدرته بقلم « أمين شميل » فى مناسبة علمية فى عدد ٨٠ شهر فبراير ١٨٧٨ .

سبقها فى نشر الصور

وإذا كانت الأهرام أول صحيفة معاصرة نشرت ملحقاً لها فى المناسبات الهامة كما تفعل كبريات الصحف العالمية فى الأوقات العصيبة ، فإنها كانت أول صحيفة مصرية تنشر صوراً فوتوغرافية وهى تعالج موضوعاً من الموضوعات ، فقد طالعتنا فى سنة ١٨٨١ بصورة بديعة عن فردينان دلسبس فى صدر الصفحة الأولى ، هى غاية فى دقة الإخراج وجمال الطبع (٤).

(١) أهرام أغسطس وسبتمبر وأكتوبر ١٨٨١
(٢) الأهرام فى ٢٣ سبتمبر ١٨٨١
(٣) الأهرام فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١
(٤) الأهرام فى ٤ مايو ١٨٨١

الأهرام

جريدة

LES PYRAMIDES



المسيو فردينان دي لسبس الشهير

صورة المسيو فرديناند دي لسبس وهي أول صورة تنشر في الأهرام

استكمالها مظاهر الصحف الكبرى

ثم استكملت مظاهر الصحف الكبرى حيث قررت تعيين المكاتبين فى الخارج ليوافوها بأدق الأخبار والبحوث السياسية المختلفة ، وأبدت ذلك بنشرة قالت فيها : « لقد أقمنا فى باريز الزاهرة مكاتباً حاذقاً عالماً كل العلم فى الفنون الإدارية والسياسية والمالية ، وله وسائل الاطلاع على أهم ما يقع من الحوادث الكلية والجزئية ، وقد ورد إلينا منه مع الوابور الذى وصل أمس رسالة مسهبة متفننة المواضيع »[1].

طرق الإعلان فى الأهرام

ونختم هذا الفصل بكلمة موجزة عن تاريخ الإعلان فى (الأهرام) منذ صدورها سنة ١٨٧٦ إلى شهر يونيه سنة ١٨٨٢ ، فقد كان فى أكثره لوناً من التحرير يصدر عن الجريدة نفسها أو يجئ إليها من المعلنين. ولهذه الناحية من الأهرام أهميتها التاريخية فهى ترينا تطور الإعلان وكيف بدأ تحريراً ومضى على الزمن يتغير أسلوباً وشكلا حتى أصبح صورة ورسماً ، ثم تشير إعلاناتها الخاصة بها إلى نوع الدعاية التى كانت تسعى بها عند الناس ، وكانت هذه الإعلانات الخاصة قدوة لغيرها من المعلنين . ويعتبر أول إعلان صدر فى الأهرام الإعلان الذى جاء فى ذيل الصفحة الثالثة من العدد الأول[2] تحت عنوان (إعلان) ننشر نصه لطرافته وليتبين القارئ البون الشاسع بين أول إعلان فى الأهرام وآخر إعلان رأوه فيها عند قراءة هذا الكتاب « نخبر الجمهور أننا قد فتحنا مكتباً للترجمة من اللغات الفرنساوية والإيتاليانية والإنكليزية إلى العربية وعن هذه إلى الفرنساوية ، ونترجم فيه الأوراق الشرعية وخلاصات الدواوين وحججا ورسالات تجارية وبنود جرائد وكتب مطبوعة أو منسوخة وجميع ما يلزم . ثم إننا مستعدون أيضا لخدمة الأشخاص الذين لهم أو عليهم دعاو وليس عندهم وقت كاف لمعاطاتها بالأجرة الخفيفة وسنبلغ غاية الجهد فى إتمام واجباتنا لنرضى من يشرفنا بخدمة ويكون على ثقة منا . أما المكتب ففى وكالة الأديب أمام البورس .الإسكندرية فى ٢٦ تموز سنة ٧٦ . إبراهيم عرب حنين خورى » .

---

(١) الأهرام فى ٣٠ أكتوبر ١٨٧٩
(٢) الأهرام فى ٥ أغسطس ١٨٧٦

صور من إعلاناتها

هذا أول إعلان يناسب فى مضمونه الرسالة التى تنشأ من أجلها الصحف ، إنه ــ كما ترى ــ إعلان عن الترجمة من لغة إلى لغة سواء كانت كتباً أو صحفاً أو حججاً . وهكذا تمضى الإعلانات فى هذا الأسلوب حتى نستقبل العدد الثامن من الأهرام فإذا على رأس صفحته الأولى إعلان عن شركة للتأمين ، والجديد فيه هذه الكلمات الفرنجية التى ظهرت بين السطور العربية فى حجم كبير[1]. وإذا كانت الأخبار والمقالات تصور جانباً من حياة الشعب ونشاطه فى كافة الميادين ، فإن الإعلانات أيضاً لها نفس هذا النصيب إذا أراد الإنسان أن يتقصى الحقائق جميعاً فى عصر البداوة الصحفية ، فقد رأينا فى مصر دوراً للترجمة فى عهد إسماعيل ، وعلمنا أن هناك سعياً ليفهم الناس قدر التأمين فى حياة الأفراد والشركات ، ثم تطالعنا الأهرام بإعلان يزن لنا قيم المحاماة والمحامين« إنه قد فتح محل جديد فى ثغر الإسكندرية باسم دوفنسيكه بيمونتل الأبوكاتو ، وهو مستعد لأن يحامى عن كل الدعاوى التى يوكل بها سواء كانت فى المجالس العربية أو الإفرنجية ، فمن يرغب توكيله فى دعواه فليشرف محله الكائن أمام البوسطة الإيتاليانية نمرة ٢٢ فى وكالة أحمد باشا . أما الدعاوى التى للفقراء فيقبل المحاماة عنها مجاناً »[2].

مغزى هذا الإعلان

ولسنا ندرى بالضبط كيف كانت توضع أصول هذه الإعلانات ، فقد يضعها صاحبها الأجنبى وتترجمها الأهرام ، أو لعل المحرر يقوم هو بوضع تلك الأصول كما كان يصنع فى كتابة بطاقات الأتراح والأفراح أولعله كان يتلقاها وقد صاغتها مكاتب الترجمة التى أشرنا إلى إعلان عنها ، والذى يعنينا هنا أن إعلانات الأهرام كانت محلا للنشاط الاجتماعى والاقتصادى والأدبى ، ومن الأمثلة الجديرة بالذكر فى هذه الناحية إعلان الدكتور « إبراهيم صوصه حكيم الأسنان » فقد أرّخ لنا هذا الإعلان ناحية خاصة حين قال : « أعلن أننى بعد أن صرفت مدة طويلة بمطالعة حكمة الأسنان فى مدرسة برلين المشهورة ونلت الشهادة الديبلوماتية المعلنة بإتقانى ذلك حق الإتقان مع كل ما يتعلق به من الأصول والفروع تهيأت للعمل بما تعلمت ، وبحوله تعالى نجحت أتم نجاح .

---

(١) الأهرام فى ٢٣ سبتمبر ١٨٧٦

(٢) الأهرام فى ٥ أغسطس ١٨٧٦

(٭ صورة دعوى ٭)

[illegible]

(٭ حكم المجلس ٭)

[illegible]

حوادث داخلية

[illegible]

اعلان

[illegible]

إعلان طريف فى الصفحة الثالثة فى أول عدد من الأهرام ، وقد أشرنا إليه فى المتن

والآن قد حضرت إلى مصر قاطناً لأشتغل بالمعالجة فى ما يكون من متعلقات هذه الأمراض كيف كانت ، مؤملا بمعونته تعالى أن أنال ثقة الجمهور .... »

التعليق على الاعلانات

والطريف أن الأهرام تستقبل إعلان الطبيب إبراهيم صوصه معلقة عليه بقولها « يسرنا جداً أن نرى أحد أبنائنا العربيين صرف عدة من السنين فى مدرسة شهيرة نظير مدرسة برلين ونال الشهادة المعتبرة فى ما طالعه ، لكن يسوؤنا جداً أن لا نرى لبضاعته رواجاً بدعوى أنها عربية مع أنه ممن نبغوا بهذا الفن وله فيه آثار تذكر ، فالمأمول من أهالى مصر الكرام أن يثقوا به فيروا من أفعاله ما يطيب »[1]، فهى تقدم بدافع من وطنيتها إعلاناً للإعلان ، حتى تقضى على الشائعات التى عاشت فى مصر إلى مطالع القرن العشرين ، تلك الشائعات التى وضعت أطباءنا فى المحل الثانى بعد الأطباء الأجانب.

ثم يتطور الإعلان فى الأهرام ، فلا يصبح تحريراً عربيا خالصاً ، أو تحريراً عربيا تتضمنه بعض الألفاظ الأجنبية ، بل ينشر مع الإعلان العربى بعض الرسوم عن الماكينات المعلن عنها ، وكان ذلك فى السنة الثانية من تاريخها[2]، ثم يتطور الإعلان مرة ثالثة ، فإذا الصفحة الرابعة تطالعنا فى عدة أعداد متتالية من سنة ١٨٨١ بإعلان ضخم على عرض الصفحة كلها بلغة أجنبية لها ترجمة عربية ركيكة[3]. ومع أن الإعلان أصبح فى حياة الأهرام شيئاً أساسياً فإنها لم تحاول تقديمه للقارىء كما تصنع اليوم بعناوين مصنوعة أى كليشيهات تجذب المطلّع عليه وإن عمدت إلى ذلك فى الدعاية إلى بعض الموضوعات الأخرى[4].

(١) الأهرام فى ٢٤ فبراير ١٨٧٧
(٢) الأهرام فى ٩ نوفبر ١٨٧٧
(٣) الأهرام فى ١٢ نوفبر ١٨٨١
(٤) الأهرام فى ١٠ فبراير ١٨٨١

دار الأهرام

ونمت أهـــرام تقـــلا روضة   عطرّت أنحـــاء مصـــر بشذاها

« غانم »

عرفت الأهرام كمؤسسة واسعة النشاط متباينة الجهد حين تعددت مجهوداتها وظهرت آثارها فى وضوح ، فهى دار مطابع وصحف ، ولم تكن وقفاً على الأهرام وحدها بل تعدتها إلى صحف أخرى وفى ذلك تحدث إلينا (مثال جريدة الأهرام) « وبما أن البعض يرغب أن يرى فى لغتنا العربية جريدة يومية تجارية فنحن نعد الجمهور بأنه متى وجد مشتركون وافون للقيام بإدارة الجريدة اليومية لا نتأخر عن إنشائها وتقديمها كل يوم » ، ثم يقول « وهكذا مع تكاتف المساعدة لا نكتفى بذلك بل بالتتابع نقدم لهم جريدة أخرى على هيئة كتاب لتحفظ منضمة إلى بعضها » ، ثم يتحدث عن الحروف التى ستصدر فيها الأهرام فإذا هى صنفان[1] ، كما يبين ذلك أيضاً طلب ترخيص الأهرام وأكد أنها مطبعة حروف لا مطبعة حجر[2] .

وتاريخ مطبعة الأهرام فى السنوات السبع الأولى تاريخ حافل وإن لم تشر إليه كثيراً الوثائق الرسمية التى اطلعنا عليها هنا وهناك ، وكان اعتمادنا فى هذا التاريخ على ما ذكرته الأهرام عنها فى تلك السنوات ، بمناسبة الصحف والكتب التى قامت بنشرها والإعلان عنها . ومجمل القول إن مطبعة الأهرام بدأت ذات حرفين ، أحدهما أشبه بحروف الكتب العادية ، والثانى دق حتى كأنه الحرف الذى تستعمله ماكينات اللينوتيب الحديثة ، ثم كانت المطبعة زاخرة بحروف فرنجية متفاوتة الأحجام ، شهدنا لها أمثلة كثيرة فى أعداد الأهرام وشقيقاتها الأخريات ، ولم تبق الأهرام على الحرف العربى الكبير زمنا طويلا ، بل أصبح فى المحل الثانى بعد ظهور عددها السادس وفى ذلك تقول « نظراً إلى إقبال

---

(١) مثال جريدة الأهرام فى ١٥ يوليو ١٨٧٦

(٢) وزارة الداخلية — إدارة المطبوعات . دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ الجزء الأول

المشتركين على الأهرام اعتمدنا أن نجعل حروفها فى العدد الآتى وما فوقه من الجنس الثانى – أى الصغير – فتكون جامعة أكثر من الجنس الأول وكافلة بدرج ما يجب وضعه مما يفيد المطالع »[1].

وتشاء (دار الأهرام) أن تساهم فى النشاط المطبعى إلى أقصاه فلا تكتفى بالمطبعة وحروفها عربية وفرنجية ، بل تعاون على إصدار الكتب فى شكل جميل مناسب ، وفى ذلك تعلن « للجمهور بأن إدارة الأهرام قد استحضرت على مجلد لتجليد الكتب متقن هذه الحرفة حق الإتقان ويأتى بحسب إرادة الطلب سواء كان المطلوب تذهيباً أم كتابة وما شاكل ذلك . فمن يرغب تجليد شىء فليخاطب الإدارة »[2].

تجميل مطبعة الأهرام

ولما اشتد النشاط الصحفى فى دار الأهرام ، واعتمد مجلس الاستئناف الأهرام وصداه لنشر الإعلانات القضائية ، وهى إعلانات كان لها فى مقومات الصحف نصيب كبير ، فكر آل تقلا فى تجميل المطبعة وزيادة قدرتها على أداء وظيفتها أداء يناسب العهد الجديد الذى خلقته الإعلانات القضائية .

وتتسع دار الأهرام فى نشاطها الصحفى اتساعاً ملحوظاً ، فكانت تشترى الحروف فى أول الأمر ثم أنشأت لها فى ربيع ١٨٧٨ مسبكاً خاصا ، وبعد شهور من إنشاء هذا المسبك تذكر – وهى تحدثنا عن موعد صدور إحدى صحفها – « أن الوابور الذى كنا ننتظر حضوره قد حضر فى هذا الأسبوع ، وهو آلة جميلة تطبع فى الساعة نحو ألف طلحية من الورق طبعاً نظيفاً متقناً للغاية ، واستحضرنا قبله ومعه جميع أشكال الحرف الإفرنجى الجميل لتقوم إدارتنا بحقوق الجريدة الرسمية المختصة بمجالس الحقانية التى تطبع عندنا الآن بالعربية والفرنسوية والإيتالية ، ولتقوم أيضاً بخدمة من يشرفنا بطبع ما يروم . فنرجو من الجمهور أن يثق باستعداداتنا لمرضاته وهى حسبنا »[3].

إصدارها الصحف والكتب

وهكذا استكملت دار الأهرام مطابعها فى سنة ١٨٧٨ ، وهى مطابع تناسب الزمن ، وتعين الدار على سبق غيرها من حيث النشاط والمقدرة ، وبتلك المطابع ، قديمها وحديثها ،

---

(١) الأهرام فى ٦ سبتمبر ١٨٧٦
(٢) الأهرام فى ٧ أكتوبر ١٨٧٦
(٣) الأهرام فى ١٦ أغسطس ١٨٧٨

استطاعت الأهرام أن تصدر عن دارها خمس صحف لها ، وتطبع ثلاثاً أخرى على ما جاء فى إعلانها ، غير عشرات الكتب وآلاف البطاقات التى قامت بطبعها ونشرها ، ومن بينها كتب طبعتها ونشرتها لحسابها الخاص ، وأشارت إلى ذلك فى غير موضع من صفحاتها وفى أكثر من عدد فى جميع السنوات ، كما تميزت هذه المطابع بأشياء وإن بدت صغيرة إلا أنها من مقومات المطابع التى تعرف للفن أصوله ، فقد كانت مطبعة الأهرام فى مقدمة المطابع التى عنيت بالهمزات والشدّات ، وكانت فى غيرها أشياء تافهة لا يؤبه بها عن جهل بقدرها عند القارىء الذى تعنيه هذه الأشياء على فهم مايقرأ وتجعل المكتوب سهلاً لا يحتاج إلى استقراء .

• • •

صدى الأهرام اليومية

ومنذ اللحظة الأولى التى تهيأت فيها مطبعة الأهرام لإصدار صحيفة آل تقلا الأولى ، كان الاستعداد كاملا لإصدار أكثر من صحيفة وفى ذلك تقول الأهرام فى عددها الأول الصادر فى ٥ أغسطس ١٨٧٦ أنها « تعد الجمهور بأنه متى وجد مشتركون وافون للقيام بإدارة الجريدة اليومية لا تتأخر عن إنشائها وتقديمها كل يوم جامعة جميع الحوادث البرقية اليومية وميناء البصل وسائر الواردات والصادرات بأثمانها وما شاكل ذلك » .

وبرت (دار الأهرام) بوعدها فأصدرت الصحيفة اليومية وسمتها « صدى الأهرام » ، واختلف المؤرخون فى موعد صدورها فيذكر فيليب دى طرازى أنها صدرت فى ٣ أيلول ــ أى سبتمبر ــ سنة ١٨٧٦[١]، وذكر الدكتور محمد صبرى أن موعد صدورها كان فى ٩ سبتمبر ١٨٧٦[٢] ، ولكن مولدها لم يكن فى أى من التاريخين ، ودليلنا أن الأهرام أعلنت فى العدد السادس الصادر فى ٩ سبتمبر ١٨٦٦ خبراً عن صدى الأهرام قالت فيه: « لقد أصدرنا مع هذا العدد مثال « صدى الأهرام » أى الجريدة التجارية اليومية

ولا يعتبر يوم ظهور « المثال » تاريخاً لصدى الأهرام ، حكمها حكم الأهرام التى سبقها صدور مثال لها ، ولم يؤرخ ذلك لنشأة جريدة الأهرام ، ثم ذكرت الأهرام فى عددها الثامن الصادر فى ٢٣ سبتمبر ١٨٧٦ خبراً ثانياً عن (صدى الأهرام) يؤكد خطأ ما ذهب إليه المؤرخون إذ قالت « قد اعتمدنا بعد الاتكال عليه تعالى بأن تصدر صدى

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٣ ص ٥٤

(٢) محمد صبرى : La Genèse de l'Esprit National Egyptien, p. 129.

عدد ٣٢٦ نشرة يومية تجارية السنة الثانية

صدى الاهرام

قيمة الاشتراك في الصدى

	عن سنة فرنك	عن ستة اشهر فرنك
في الاسكندرية	٣٠	١٨
في المحروسة وسائر الارياف	٤٠	٢٥

سطر الاعلان في الصحيفة الاولى فرنكان وفي الاخيرة فرنك

قيمة الاشتراك في الاهرام وصداه

	عن سنة فرنك	عن ستة اشهر فرنك
في الاسكندرية	٤٥	٣
في المحروسة وسائر الارياف	٥٥	٣٥

الاهرام م وكلا الصدى

في يوم الخميس ٧ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ الموافق صفر ٥ سنة ١٢٩٥

الاخبار البرقية

افتتاح البورس

ليفربول ٦ فبراير سنة ٧٨

بالة

١٠٠٠٠ مبيع النهار

١٤٠٠٠ وارد

السوق ماسك

لوندره في ٦ منه

٥٣ ١١ ض المتاز بعد قطع الكوبون

٣٩ ٣/٤ الموحد

٩٥ ٩/٨ القونسليد الانكليزي

٨ ١/٤ البرستو العثماني سنة ٦٥

٧٠

باريز في ٦

٤٦٣ القرض المتاز

١٤٧ الموحد

الدخل الفرنساوي

اسهم سكة الحديد العثمانية

نيويورك في ٥

١٠٢ ١/٤ اسعار الذهب

١١ ٨/١٠ قطن ميدلن اوبلاند

٤٨٣ القطع على لوندره

بالة

٣٠٠٠ قد ورد هذا النهار الى امريكا

وارد الجمعة الى مين

١٢٠٠٠ صادر . . انكلترا

الى فرنسا وغيرها ١/٨

١٥٣٠٠ دبوزيتو في كل مين امريكا

قفل البورس

ليفربول في ٦

	بالة
١	مبيع النهار
٨٠	منها مصري
	وارد النهار
	مبيع الجمعة
	منها مصري
	دبوزيتو الجمعة
	منها مصري
	وارد الجمعة
	منها مصري
	منتظر قدومه
٦ ٣/٤	الفير المصري
٦ ١/٢	ابيض
٥ ١/١٦	ميدلن برون
٥ ٨/١١	دولرا
٦ ١/٦	ميدلن اوربلان
	السوق ماسك

لوندره في ٦

٥٣ ٣/٨	القرض المتاز
٣٩ ١/١	الموحد
٩٦ ١٣	القونسليد الانكليزي
٨ ١/٨	البرستو العثماني سنة ٦٥

٤٣ . . . ٧٠

٤ اسهم البنك العثماني

المدفوع من البنك اليوم لا يوجد

سوق الحبوب

باريز في ٦ منه

١١٠ و ٥٠ القرض الفرنساوي

٧٤ ٩٠ الايطاليانى

٢٥ ١٤ الكامبيو على لوندره

نيويورك في ٥

١٠٢ ١/٤ اسعار الذهب

١١ ١/٢ قطن ميدلن اوبلاند

٤٨٣ القطع على لوندره

وارد النهار الى مين امريكا

دبوزيتو في كل مين امريكا

الكامبيو على لوندره

٩٧ الى ٩٧ ١/٤		٣ ايام نظر عملة تجارية
٩٦	٩٦ ١/٢	٣ اشهر على بنك
٩٥ ٣/٤	٩٥ ١/٢	٣ اشهر على بنك تجاري
		٣ اشهر تجاري

على مرسيليا

٩٣ ر

على برسا

٥١٨ الى	٥١٩	الجمادى ٣ ايام نظر فرنك
٥٢٠	٥٢١	٣ اشهر على بنك
٥٢٣ ١/٤	٥٢٥	٣ اشهر على بنك تجاري
		٣ اشهر تجاري

الأهرام أى الجريدة اليومية التجارية فى أول الشهر القادم إتماماً لرغبة كثيرين من الذين يميلون إلى إنشائها ، وقد صرحوا بقيد أسمائهم فى دفتر المشتركين ، فأملنا أن نقدم لهم فيها أخباراً صحيحة مفيدة فنكتسب ثقتهم بها . » .

ثم تطلع علينا الأهرام فى العدد التاسع منها بخبر جديد عن (صدى الأهرام) تقول فيه « إن الجريدة اليومية التجارية المسماة صدى الأهرام يكون صدورها إلى المشتركين يوم الخامس تشرين الأول (أوكطوبر) وأعددنا لها كل ما تلزم إفادته وتقتضى درجه مما يهم المطالع فالمرجو أن نأتى بالمرغوب فتحل عند الجمهور محل القبول »[1].

وهكذا حددت الأهرام موعداً واضحاً لصدور جريدة (صدى الأهرام) ، وهو اليوم الخامس من شهر أكتوبر ١٨٧٦ ، ولكن هذا اليوم مضى دون أن تظهر صدى الأهرام ، ثم عقبت الأهرام فى عددها العاشر الصادر فى ٧ أكتوبر ١٨٧٦ « بأننا قد أخرنا صدور صدى الأهرام أى الجريدة اليومية التجارية إلى نهار الثلاثاء فى ١٠ الحاضر وفى هذه الفرصة أعددنا ما يلزم من الوسائل المؤذنة بتحسينها » .

وليس فى وسعنا بعد هذا الاضطراب فى موعد ظهور (صدى الأهرام) أن نجزم بتاريخ اليوم الذى صدرت فيه ، فقد اختلف فيه المؤرخون ، وآية ذلك تلك الإعلانات المتصلة التى أذاعتها الأهرام عن صداها وموعد صدوره ، ولم نعثر على العدد الأول من جريدة صدى الأهرام حتى نقطع بموعد صدورها ، وكل ما حصلنا عليه من أعداد كان لسنوات متأخرة ، وهى أعداد نادرة تحتفظ بها مكتبة طلعت حرب فى بنك مصر ، ومع ذلك كله نرجح أن (صدى الأهرام) قد صدرت فى اليوم الذى حددته لها جريدة الأهرام فى آخر إعلان عنها ، وهو يوم ١٠ أكتوبر ١٨٧٦ ، حيث وقفت الأهرام الإعلان عنها ، ثم أشارت إليها إشارات عابرة فى غير عدد من أعدادها التالية يثبت أن الجريدة قد صدرت وأنها تلقى من المواطنين التأييد والتشجيع .

وهكذا صدرت أول صحيفة عن (دار الأهرام) ، وكان صدورها حدثاً فى تاريخ الصحافة المصرية لأنها أول جريدة يومية فى مصر وقد كان مشتركوها ممن يعنون بشؤون التجارة والزراعة ، وفى ذلك تقول إدارة المطبوعات المصرية إن معظم مشتركيها « من تجار الأرياف وعمدها ومشايخها لاشتمالها على مطلق الأخبار التجارية والأشغال الريفية ، والأسعار البورسية فضلا عن الحوادث المحلية . . . . »[2]، وكان إقبال المشتركين

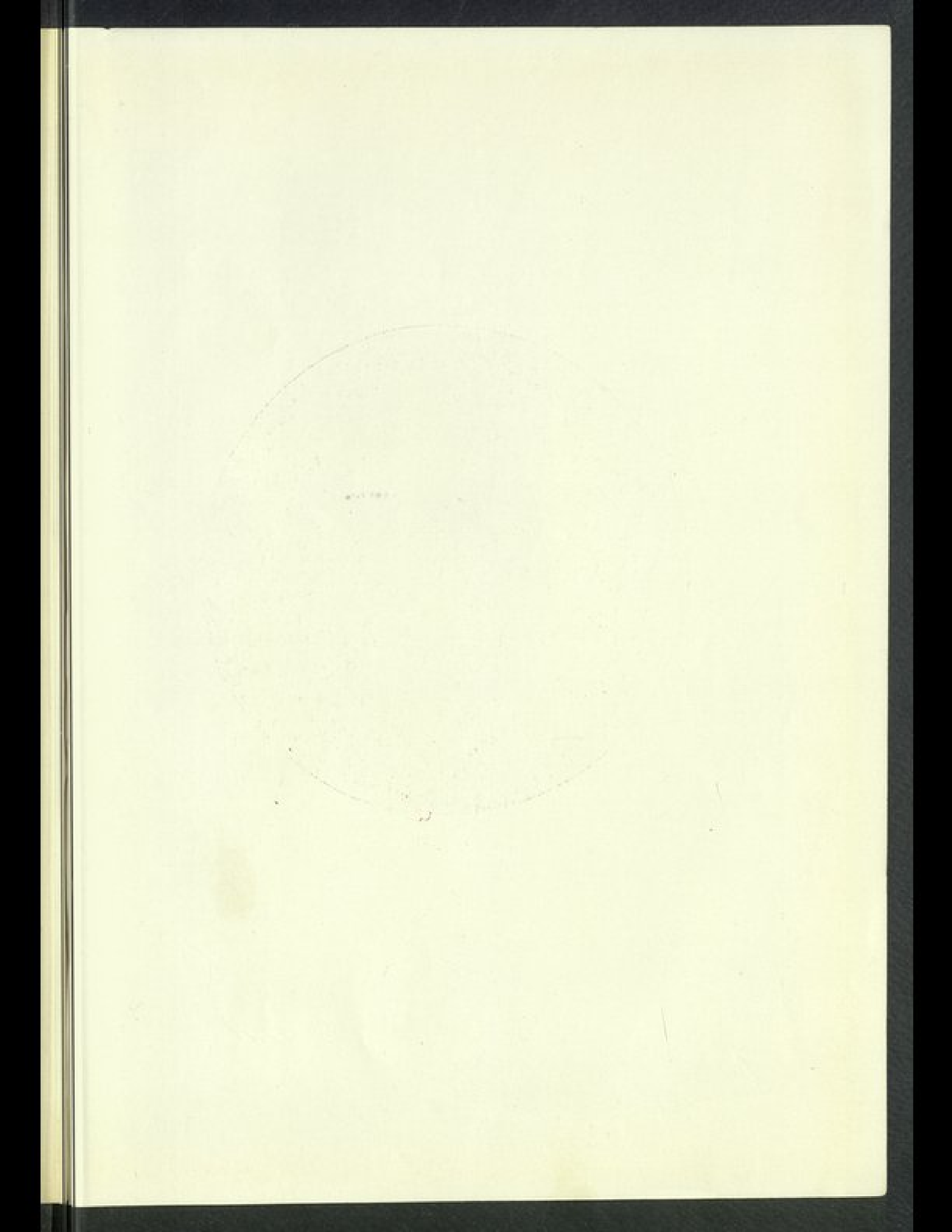
---

(١) الأهرام فى ٣٠ سبتمبر ١٨٧٦

(٢) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات جزء أول ١١ — ٩٤٦/٢ .



الخديو توفيق



يعتوره فى أول الأمر شىء من التردد الشديد الذى يفسد العمل ويثبط الهمم ، فقد طبع آل تقلا من جريدتهم اليومية أربعة آلاف نسخة وهو قدر كبير جداً على الظروف الصحفية فى ذلك العصر ، ولكنهم قصدوا أن يبعثوا لأكبر عدد ممكن من الأعيان والنخبة بنسخة من صدى الأهرام لعلها تعجبهم فتبلغ الاشتراكات نصف هذا العدد المطبوع ، وكانت تلك عادة الصحف أول ظهورها ، بيد أن معظم الآلاف الأربعة ردت إليهم[1]، ومع ذلك لم يقف نشاط آل تقلا ولم يفشل مشروع أول صحيفة يومية فى مصر بل مضت قدماً نحو استكمال مظاهر الصحافة اليومية الكبرى .

ولما كان يعوزنا تصوير شكل (صدى الأهرام) لعدم وجود أعداد منه فى السنوات الثلاث الأولى فقد اعتمدنا على الأهرام نفسها فى تصيد الأخبار عن صداها ، فقد جاء فى أعدد الأهرام الصادرة فى مارس سنة ١٨٧٨ ما يأتى : « فى يوم الإثنين القادم أو الثلاثاء يظهر هذا الجرنال اليومى بثوب جديد يروق فى عين كل مشترك ومطالع والله الموفق »[2]، وقد يظن أن تجديداً قد حدث لصدى الأهرام فى شهر مارس ١٨٧٨ رأت الأهرام أن تعلن عنه ، ولكن الحكومة — على ما يبدو من وثائق المطبوعات — كانت قد عاقبت الجريدة فتوقفت صدى الأهرام عن الظهور من ١٥ فبراير ١٨٧٨ أثر مقال نشرته فى عددها رقم ٥٧٠ الصادر فى ١٠ صفر ١٢٩٦ هـ (٢ فبراير ١٨٧٨[3]) ، فهى إذن تعود إلى سيرتها الأولى وتصل ما انقطع من نشاطها الذى وقفته الحكومة لخلاف ليس هنا موضع تفسيره .

ولكن الجديد الذى أصاب صدى الأهرام هو هذا الذى أعلنت عنه الأهرام بمناسبة اعتماد مجلس الاستئناف جريدتى الأهرام وصدى الأهرام بين الصحف التى أجيز لها نشر الإعلانات القضائية ، وكانت هذه الإعلانات — التى ترفضها أهرام اليوم — مورد الرزق الأول لأية صحيفة ترجو النضج والاستواء أو تسعى إلى الحياة والبقاء ، ونستطيع أن نعطى صورة لصدى الأهرام منذ سنة ١٨٧٨ مأخوذة من الأعداد القليلة التى خلفتها لنا مكتبة طلعت حرب فى سنتى ١٨٧٨ و ١٨٧٩ ، فهى فى حجمها تشبه حجم الأهرام الأسبوعية سنة ١٨٧٦ ، وقد صدرت « يومية للتجارة والحوادث والإعلانات » فى مدينة الإسكندرية ، ويتكلف المشترك فيها ثلاثين فرنكاً عن العام الواحد وثمانية عشر فرنكاً

(١) مشاهير الشرق ج ٢ طبعة ١٩٢٢ ص ٩٢ .
(٢) الأهرام فى ٢٩ مارس ١٨٧٨ .
(٣) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات جزء أول ١١ — ١٩٤٦/٢ .

عن نصف السنة ، وذلك فى مدينة الإسكندرية ، أما فى « المحروسة والأرياف » فكان اشتراكها أربعين فرنكاً فى السنة وخمسة وعشرين فرنكاً لستة شهور ، وكان أجر الإعلان عن السطر الواحد فرنكين فى الصفحة الأولى وفرنكاً واحداً فى الصفحة الأخيرة .

وقد خصصت الصفحة الأولى عادة لمقال افتتاحى تعقبه الحوادث الداخلية وهى فى أكثرها منقولة عن وكلاء دار الأهرام فى المحروسة وما إليها من مدن القطر المختلفة ، ثم تمضى الأخبار الداخلية فى الصفحة الثانية موزعة هنا وهناك ، أما الصفحة الثالثة فاقتسمتها الأخبار التجارية المختلفة وبعض الإعلانات المتباينة فى أغراضها ، وتميزت الصفحة الأخيرة ، وهى الصفحة الرابعة ، بأنها كانت وقفا على الإعلانات .

وتغلب على افتتاحيات صدى الأهرام الموضوعات الخارجية كحديثها عن مسألة الأفغانستان وتقرب الإنجليز من أميرها[1]. وكان للموضوعات الاجتماعية المقام الأول فى شؤون مصر الداخلية ، وكانت تتلقى معظم هذه المقالات الاجتماعية من فضلاء المدن غير سكان المحروسة والإسكندرية ، ومن أمثلة مقالاتها ما جاءها من أحد أفاضل النزلاء فى طنطا ، وهو نقد لطيف لما يتبعه بعض الأهلين فى الزلفى إلى كبار الموظفين ، قال الكاتب : « أرى الكثيرين أسرع من القطا إلى إرسال الرسائل الامتداحية المتضمنة الإطراء بحجة أن ذاك الموظف قام بالواجب عليه أو أتى عملا رأوه حسناً. فلا أدرى وأبيك لذلك إلا واحداً من سببين ، إما لأن القائم بالواجب نادر فيرون ما أتى عظيماً ولو انه حقير ، وإما لأن الرعبة ما زالت مستولية على أفئدتهم فيعتاضون عن التنديد بالمديح ، وكلا الأمرين خطأ . والذى أرى أن القائم بواجباته لا فضل له ولا تفضيل على سواه إلا إذا استثنينا مقابلته بمن لا يقوم بها ، وليس لهذا التفضيل من مزية .

ألم تر أن السيف يصغر قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا[2]

تعطيل جريدة صدى الأهرام

وهكذا تمضى مقالات صدى الأهرام فى أسلوبها الهادئ إذا اتصل ذلك بالشئون الاجتماعية ، وهى زاخرة بأخبار مصر الداخلية وخاصة أخبار المحروسة ، كما تخصص جزء من صفحتها الثانية لنشر الوفيات المختلفة ، أما مقالاتها فى السياسة الداخلية فلم تلق هوى من الحكومة ، فقد اتجهت صدى الأهرام منذ سنة ١٨٧٨ إلى نقد الحكومة

---

(١) صدى الأهرام فى ٢٧ أغسطس ١٨٧٩

(٢) صدى الأهرام فى ١٧ مارس ١٨٧٩

فى سياستها المالية حتى أصدرت المطبوعات قراراً بتعطيلها جاء فيه « حيث أن جريدة صدى الأهرام نمرة ٥٧٠ المؤرخة ١٠ صفرسنة ٩٦ قد نهجت منهجاً مخالفاً للإخطار السابق إصداره اقتضى الحال تعطيل الجريدة المذكورة مدة خمسة عشر يوماً على حسب نظامنامة المطبوعات » ، وكان هذا القرار بأمر ناظر الداخلية فى ٢٢ صفر ١٢٩٦ هـ[١]، فإذا عادت صدى الأهرام إلى الظهور كانت صحيفة معارضة حتى أن وزارة شريف باشا لم تطق صبراً على بقائها وأصدرت أمراً بإغلاقها .

وقد علقت جريدة التجارة على هذا الأمر – بالرغم من خصومتها للأهرام وصداه – بقولها « ساءنا ما جاء فى رسالة مكاتبنا بالمحروسة من تعطيل جريدة صدى الأهرام مدة غير محدودة . . . لعلمنا ما يترتب على الجرائد من الفوائد فإنها واحدة ثلاثة هى محور التهذيب ، نريد المدارس والجرائد والتياترات »[٢] ، ثم تعقب فى اليوم التالى على ما ذهبت إليه الوزارة فى العصف بالحريات العامة بالقضاء على الصحف قائلة « إن مأمولنا من حكومتنا السنية الآخذة الآن بأسباب الشورى أن تنظر إلى الجرائد بعين الرفق ولا تمسها إلا بالتؤدة فهى واسطة المعاملة بينها وبين الرعية ، فإن قيدت وهى لسان الحال فإن هيئتنا المدنية تكون خرساء لا تحسن النطق فضلا عن البيان »[٣].

وقد صدر قرار التعطيل تحت رقم ١٣٩ مطبوعات فى ١٠ جماد أول سنة ١٢٩٦ هـ مدعيا بأن صدى الأهرام شوشت على الأذهان ودخلت فيما لا يعنيها وذلك فى العدد الصادر فى ٧ جمادى الأولى ١٢٩٦ هـ وفى العدد ٦١٥ فى ٨ منه ، كما ذكر فى قرار التعطيل أن تحقيقاً سيجرى مع صاحبها « على حسب نظامنامة المطبوعات »[٤]. وقد أبت الحكومة أن تعود عن قرارها هذا ، وكتب لأول صحيفة يومية أن تصرع فى جهادها حين كان المسئولون يعدون مصر لاستقبال عهد الحرية والشورى وينظمون صحافتها فى جو من الطمأنينة والاستقرار .

• • •

نشرة البرقيات

لقد وعدت الأهرام حين ظهرت بإصدار الجريدة المصرية اليومية الأولى ، وهى

---

(١) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات . دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢
(٢) التجارة فى ٢ مايو ١٨٧٩
(٣) التجارة فى ٣ مايو ١٨٧٩
(٤) الوطن فى ١٠ مايو ١٨٧٩



اخطار من نظارة المطبوعات

حيث ان جريدة صدى الاهرام نمرة ٥٧٠ المؤرخة ١٠ ... قد نهجت منهجاً مخالفاً للاخطار السابقة اصداره اقتضى الحال تعطيل الجريدة المذكورة مدة خمسة عشر يوماً بموجب نظامات المطبوعات

ضبط احترامي ناظر ... سعادة الوكيل

بمقتضى هذا الاخطار المحرر صورته اعلاه الصادر من قلم المطبوعات يصير تعطيل جريدة صدى الاهرام مدة خمسة عشر يوماً تبتدئ من يوم تبليغه ... سعادتكم ابتداؤها من وقت وصول ... ناظر ...

مدير المطبوعات

وثيقة تعطيل صدى الأهرام وفيها جميع التفاصيل الخاصة بالتنفيذ

صحيفة (صدى الأهرام) ، ولكنها لم تقصر نشاطها على الأهرام وصداها ، بل تجاوزت هذا فى العام التالى من تأسيس الدار فأصدرت نشرة بالبرقيات التى تأتيها من وكالات الأنباء، وقدمت لهذه النشرة بإعلان منها جاء فيه أنه « بالنظر إلى كثرة التلغرافات السياسية التى ترد فى مثل هذه الأوقات واستقراء إدارة الأهرام وصداه جميع الأخبار الواردة من شركة روتر ثم من شركة هافاس اختارت هذه الإدارة أن تترجم بالدقة والضبط جميع الأخبار البرقية العامة التى يعول عليها الجمهور وتوزع على الدوائر والمحال العمومية الشهيرة وذلك فى الصباح ووقت الظهر وفى المساء كما جرى الأمر فى مدى هذا الأسبوع »[1] .

وكانت هذه النشرة توزع على المشتركين ، ثم تذكر دار الأهرام أنه حذرا « من وقوع بعض ترجمات فى أيدى الناس تكون مخالفة الأصل كما جرى ذلك اخترنا وضع علامة إدارة الأهرام ثم اسم المدير لكى لا نتحمل مسئولية التلغرافات الأخرى التى بدون ذلك»[2].

وليس فى وسعنا أن نصف هذا النشاط الصحفى الصادر عن دار الأهرام سنة ١٨٧٧ بأكثر من أنه (نشرة) مترجمة عن وكالات للأنباء ، وهو عمل صحفى طيب يعين الجاهلين باللغتين الأجنبيتين من أصحاب الأعمال على العلم بمجريات الحوادث النهار كله ، فهى – أى دار الأهرام – تقوم مقام الوكالتين – روتر وهافاس – فى الإسكندرية حيث تعرض برقياتهما على قرائها كما تصنع الوكالات فى انجلترا وفرنسا . ولا سبيل إلى تصوير هذه النشرة بغير هذه الصورة التى ذكرتها الأهرام فى الإعلان عنها حيث عزّ علينا مثال لها يعيننا على الحديث عنها فى دقة تستكمل الإعلان الذى أذاعته الأهرام ، وتوضح النشرة شكلا وموضوعاً يزيد المؤرخ بها علماً .

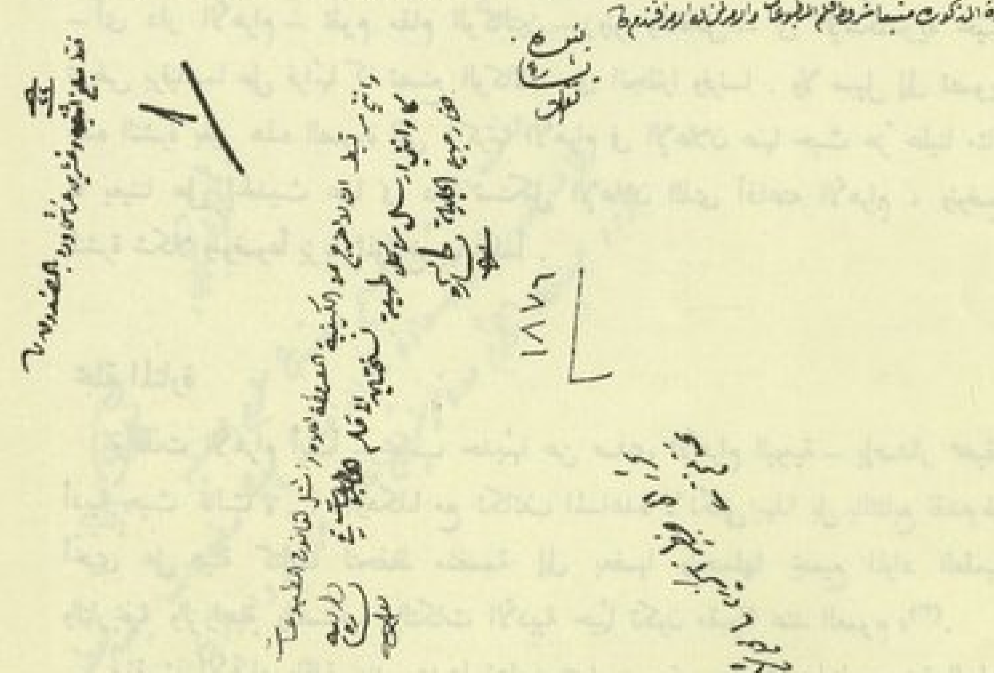
• • •

مجلة المنارة

وعدت الأهرام أيضاً – بجانب حديثها عن صدى الأهرام اليومية – بإصدار صحيفة أدبية حيث قالت « . . . وهكذا مع تكاتف المساعدة لا نكتفى بهذا بل بالتتابع نقدم لهم أخرى على هيئة كتاب لتحفظ منضمة إلى بعضها ونجملها بجميع المواد العلمية والتاريخية والزراعية والصناعية والنكات الأدبية حيثما تكون مقبولة عند العموم »[3].

وبقيت الأهرام واقفة عند وعدها زهاء سنتين ، حتى طلعت علينا جريدة الوطن

(١) الأهرام فى ٥ مايو ١٨٧٧
(٢) الأهرام فى ١١ مايو ١٨٧٧
(٣) الأهرام فى ٥ أغسطس ١٨٧٦



العرضحال الذى تقدم به بشارة تقلا راجياً الإذن بإصدار المنارة

يخبر عن تحقيق هذا الوعد القديم قائلة : «قد سرنا ما بلغنا من أن صاحب جريدة الأهرام قصد أن ينشر جريدة علمية تسمى المنارة فنهنىء حضرته على هذا المشروع الحسن »[1].
وصاحب الأهرام الذى أشارت إليه الوطن هو بشارة تقلا مدير دار الأهرام منذ وجودها ، ولهذه المجلة التى وعدت الدار بإصدارها منذ ٥ أغسطس ١٨٧٦ قصة لا بأس من روايتها تحقيقاً للفائدة التاريخية المرجوة من هذا البحث .

تقدم بشارة تقلا فى ١٨٧٦ ، وهى السنة التى وعدت الدار بإصدار المنارة فيها إلى « دولتلو أفندم حضرتلرى » ناظر النظار (بعرضحال) يقول فيه « إن الصناعة والتجارة والمعارف من الأمور التى ترتاح إليها النفس ويتقدم بها الوطن » وإنه لذلك يتقدم بطلبه « ملتمساً صدور الأمر بإعطائى الرخصة لإنشاء جريدة تحفظ بهيئة كتاب تصدر مرتين فى الشهر وتطبع فى الإسكندرية بمطبعة الأهرام تحت اسم (المنارة) تبحث عن الأمور التجارية والصناعية والزراعية والإخبارية والطبية والكيماوية جاعلا أجل الاعتماد على التجارة والزراعة والصناعة لكونها الوسائط الوحيدة الكافلة للتقدم . فبما أن وطننا المصرى ينظر عزيزه وولى نعمته أخذ بالفلاح فاسترحم قبول استدعاى هذا بنشر الجريدة المذكورة متبعاً شروط قلم المطبوعات والأمر لمن له الأمر أفندم » . ثم يكتب فى هامش « العرضحال » « وإننى مرتبط أن لا أخرج عن الكيفية المعروضة أعلاه وأمتثل لقانون المطبوعات كما وأننى أرسل من كل طبعة نسختين إلى قلم المطبوعات فى الخارجية الجليلة »[2].

ومن الغريب أن سنة ١٨٧٦ قد انقضت وأعقبتها سنة أخرى ولم يؤذن للمنارة بالصدور وإذا بنا نقرأ فى ٢ فبراير سنة ١٨٧٨ أمراً لضبطية الإسكندرية يتحدث عن التماس بشارة تقلا بإصدار المنارة وأنها صحيفة نصف شهرية أى أنها تصدر مرتين فى الشهر ، وتطبع فى الإسكندرية محتوية على المواد التى ذكرها طلب الترخيص ، ثم يذكر المسئولون أنه لا بأس من إجابة بشارة تقلا إلى ملتمسه « بإنشاء ونشر الجريدة الراغب إنشاءها بالكيفية المحكى عنها بدون التعرض للمواد البولوتيقية والإدارية . . . »[3].

وقد يدهش القارىء لتراخى الزمن بين طلب الترخيص وإجابته، ولكننا نقرأ فى جريدة الأهرام إعلاناً عن (المنارة) يلقى ضوءاً على الأسباب التى أخرت إجابة ملتمس بشارة من الحكومة ، فقد جاء فى الإعلان : « يذكر السادة مطالعو جرائدنا بأننا منذ ابتدائنا

---

(١) الوطن العدد ١٥ فى سنة ١٨٧٨
(٢) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات ، دوسييه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول
(٣) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات ، دوسييه ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول

فى أشغالنا أعلنا تكراراً إستعدادنا لإنشاء جريدة جامعة عامة على شكل كتاب متضمنة كل ما رق وراق من المواد المختلفة وجعلنا وفاء الوعد محمولا على ورود الزمن المؤذن بذلك »[1]. فصاحب الأهرام قد أكد عزمه على إصدار (المنارة) وكرر ذلك مراراً ولكنه علق الأمر على « ورود الزمن المؤذن بذلك » . وأكبر ظنى أنه يشير إلى الحكومة بذلك الزمن ، فهى قد برمت بالأهرام فى سنتها الأولى حتى أنذرتها ، فلم يكن من المعقول وهى تنذر الأهرام أن تسمح لأحد الشقيقين أن يصدر صحيفة أخرى مهما يؤكد انصياعه لقانون المطبوعات ، فقد وعد آل تقلا بذلك فى طلب ترخيص الأهرام نفسها ثم نقضوا هذا الوعد فى نظر الحكومة حتى أنذرتهم ، وهناك ناحية مادية أخرى ، فقد كان الشقيقان يصدران صحيفتين ــ الأهرام وصدى الأهرام ــ ولم يكن فى وسع مطابعهما أن تقوم بإصدار صحيفة ثالثة ، لذلك أهمل بشارة أمر (المنارة) حتى واتت الفرصة باتساع النشاط المطبعى فى دار الأهرام .

ولم نعثر على أية نسخة من مجلة « المنارة » لنقول فيها كلمتنا ، وعلى ذلك نقتصر على ما جاء عنها فى جريدة الأهرام حيث قالت « نعلن أننا باشرنا بعد أن حصلنا على الأمر السامى من لدن الحكومة السنية بإنشاء جريدة عربية جامعة باسم أحدنا بشارة أفندى تقلا . تتضمن هذه الجريدة خلاصة الحوادث التى جرت فى مدة ١٥ يوماً مما يتعلق بداخلية كل دولة وخارجيتها ، ثم أهم الحوادث التاريخية ، وأجل المواضيع العلمية والصناعية ، ولاسيما ما كان فيها متعلقاً بالزراعة ، وأعم الفوائد الصحية والفكاهات الأدبية ، وما شاكل ذلك معتمدين على أجل المؤلفات والنشرات العربية والإفرنجية ، مقتطفين منها ما كان جليلا عميم النفع جامعاً بين العلم والعمل ، باذلين غاية جهدنا فى تنقيح عباراتها وإيضاح إشاراتها مستعينين بالصور والرسوم عند الإنشاء حتى تكون غاية فى الإتقان . فيجد بها الجليس أنيساً ، والأنيس جليساً ، وقد سميناها « المنارة » باسم منارة الإسكندرية الشهيرة فى التاريخ وسنصدرها بهيئة كتاب كل خمسة عشر يوماً مرة ، وعما قليل نبرز لها نموذجاً دالا عليها »[2]، وأكبر الظن أن المنارة بقيت مشروعاً حسناً كما قالت جريدة الوطن سنة ١٨٧٨ فلم تشر إليها الأهرام بشىء بعد ذلك مما يؤيد رأينا فى أنها لم تصدر قط .

---

(١) الأهرام فى ٩ فبراير ١٨٧٨
(٢) الأهرام فى ١٥ فبراير ١٨٧٨

مجلة حقيقة الأخبار

لقد رأينا كيف برزت (دار الأهرام) بين دور الصحف قوية قادرة مواتية تصدر الصحف اليومية والأسبوعية والنشرات والكتب وغير ذلك من النشاط الأدبي والاجتماعي الرفيع ، ويؤثر عن هذه الدار ميول نحو الترك معروفة وليس هنا مكان الحديث عنها ، وكان لهذه الميول أثر على إنشاء الصحف فى الأزمة التى نشأت بين الترك والروس وأثيرت من أجلها حرب ضروس بين الدولتين ، وكان لهذه الحرب آثار بعيدة المدى على تفكير الناس واتجاه الصحافة الشعبية ، فقد كانت هذه الحرب أول مسألة خارجية اهتم بها المصريون لأنها تتصل بأمر الدولة صاحبة الشأن فيهم وهى فى كفاح مع دول أخرى ، وكان الأجانب فى مصر يتناولون الصحافة الأوربية الواردة من الخارج أو الصادرة فى مصر ، وفيها من تفاصيل الحرب ودقة الأخبار ما يغرى بقراءتها . وهؤلاء الأجانب أصحاب مصالح عند خاصة المصريين وعامتهم ، فكانوا يتحدثون إليهم بهذه التفاصيل ، ولم تجد الصحف الشعبية العربية بدأ — على قلتها — من إرواء ظمأ قرائها بنشر تفاصيل هذه الحرب ، فقلدت الصحافة الغربية وانطلقت فى إيراد الحوادث ونشرها ، وظهر من بين السطور ميلها إلى ما كانت تأتى به العساكر الروسية من ضروب الشجاعة ، كما ظهر ازدراؤها لما كان ينسب إلى الجنود العثمانية من التهاون ، واختلف الناس فى أمر هذه الصحف واستقبلوها بين منفر ومحبذ ، وقد نشأ عن هذه الحرب أن استحدثت صحف لنشر أخبارها ونشطت هذه الصحف الجديدة فى رواية الأخبار والتعليق عليها ومعارضة الصحف القديمة فى الرأى والمذهب حول هذه الحرب[1] . وقد ساهمت الأهرام ودارها فى هذا النشاط الصحفى الملحوظ .

وكانت هذه المساهمة واضحة فى المقالات الكثيرة التى قرأناها فى الأهرام وجرت على مثالها صدى الأهرام ، وهى فى أكثرها وفى مجملها تتفق واتجاهات الدولة العثمانية ، ثم رأت الأهرام أن تساهم فى النشاط الصحفى من أجل الحرب الروسية فأنشأ بشارة تقلا مجلة صغيرة سماها (حقيقة الأخبار) كان يجمع فيها ترجمة وافية للبرقيات التى تتلقاها دار الأهرام عن الحرب الروسية التركية ولا تستطيع استيعابها صحيفتاه الأخريان ، وكان ربح المجلة يذهب قسمة عادلة بين دار الأهرام ومساعدة الجنود العثمانيين ، وكان موعد صدور المجلة فى سنة ١٨٧٨[2] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٧ — ٣٨

(٢) تاريخ بشارة تقلا ص ٣١ و ص ١٤٢

ويتصل نشاط دار الأهرام ولا يقف مهما جابهت صاحبيها الأحداث والمتاعب ، لقد أغلقت الحكومة صحيفتى الأهرام وصدى الأهرام لأسباب سياسية نرجىء الحديث عنها ، ثم عادت الحكومة فأذنت للأهرام الأسبوعية بالصدور وأبت على صدى الأهرام العودة إلى الحياة فكتب سليم تقلا إلى إدارة المطبوعات يطلب إنشاء ، جريدة (الفلاح) بدلا من صدى الأهرام اليومية « نصدرها فى كل يوم مشتملة على الأخبار السياسية والتجارية ونتعهد بالامتثال لما يقتضيه قانون المطبوعات » ولكن الوزير المختص رفض الترخيص بإنشاء (الفلاح) [١]، ولكن سليماً لم يرض بقرار الحكومة وعاود الطلب وإن غير اسم الجريدة فكتب إلى مدير المطبوعات الأهلية يبين له حاجة الدار إلى صحيفة يومية إذ أنه « لما كانت الجريدة اليومية – يقصد صدى الأهرام – هى الجريدة التى بها قوام أمرنا وعليها معول أشغالنا وهى هى محور أعمالنا ، وكان انقطاعها موجبا لنا الخسارة الكلية وباعثاً على إيجاب الضرر المبين لجميع المشتركين فيها الذين معظمهم من تجار الأرياف وعمدها ومشائخها لاشتمالها على مطلق الأخبار التجارية والأشغال الريفية والأسعار البورسية فضلا عن الحوادث المحلية والتلغرافات والأخبار السياسية ، فاقتضى تقديم هذه العريضة التى نرجو فيها الترخيص لنا بإنشاء جريدة عربية يومية للتجارة والسياسة تسمى (الوقت) بدلا من صدى الأهرام . . . »[٢].

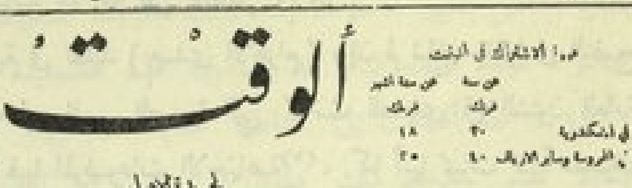
وصدرت (الوقت) فى أوائل سنة ١٨٧٨ ولم تحتفظ دور الكتب إلا ببعض الأعداد المتأخرة[٣] من سنة ١٨٨٠ ، وهى جريدة « يومية تجارية سياسية علمية » من أربع صفحات فى حجم الأهرام الأسبوعية ، وقيمة اشتراكها عن سنة ثلاثون فرنكاً فى الإسكندرية وأربعون فرنكاً فى المحروسة والأرياف ، ويكلف الإعلان عن السطر فى الصفحة الأولى فرنكين ، وفرنكاً واحداً فى الصفحة الأخيرة ، وقد اعتمدتها محكمة الاستئناف ضمن الصحف التى تنشر الإعلانات القضائية ابتداء من ٦ إبريل ١٨٧٨ ، على أن من أهم ما تتميز به جريدة الوقت بين جرائد ذلك العصر ازدحامها الشديد بالإعلانات فى مختلف النواحى فى معظم صفحاتها ، كما أنها زخرت بالأخبار الداخلية الموزعة فى كل

(١) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات دوسييه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ الجزء الأول

(٢) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات دوسييه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ الجزء الأولفى ٢٤ ج ١٢٩٦هـ

(٣) احتفظت دار الكتب بها من العدد ٨٠٥ الصادر فى ٢٩ فبراير ١٨٨٠ إلى العدد ١٠٠٢ الصادر فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٠

العدد ٨ — الجمعة في ٢٧ شباط (فبراير) سنة ١٨٨٠ — الموافق ١٧ ربيع الاول سنة ١٢٩٧ — السنة الرابعة



قيمة الاشتراك في البلاد	عن سنة فرنك	عن ستة اشهر فرنك
في الاسكندرية	٣٠	١٨
في المحروسة وسائر الارياف	٤٠	٢٥

قيمة الاشتراك في الخارج والخارج	فرنك	عن سنة فرنك
في الاسكندرية	٤٥	٤٠
في المحروسة والارياف	٥٥	٣٥

لجريدة الاهرام

جريدة يومية تجارية سياسية علمية

اجرة سطر الاعلان في الصحيفة الاولى فرنكان وفي الاخيرة فرنك



في ٦ ابريل سنة ١٨٧٨ قرر مجلس الاستئناف تعيين الاهرام والوقت لنشر الاعلانات القضائية

اعلان

من ديوان المعارف

الاسكندرية في ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٠

لائحة المحاكم الشرعية

قواعد ابتدائية

(بند ١)

(بند ٢)

(بند ٣)

(بند ٤)

كانت الوقت هي الصحيفة التي وافقت الحكومة على صدورها بعد إغلاقها صدى الأهرام

صفحاتها فيما خلا الصفحة الأخيرة فهذه كانت وقفاً على المسائل التجارية والإعلانات الخالصة ، وكان لأخبار المحروسة المكان الأول بالنسبة إلى أخبار المدن والأقاليم ، كما تناثرت فى صفحاتها بضع برقيات مترجمة عن هافاس وروتر .

وتعتبر (الوقت) محاولة طيبة فى تقليد (صدى الأهرام) وإن لم تبلغ مرتبتها فى النضج والاستواء ، وهى فى التقليد تعطى نفس الصورة التى كانت للصدى فى الشئون العامة والنظر إلى الحياة ، وإن غلبت فيها الموضوعات الاجتماعية[1] ، كما أنها تميزت تميزاً ملحوظاً على صدى الأهرام فى علاج المسائل التجارية والاقتصادية ثم اتخذت لها سنة طيبة فى التحرير فكانت تنشر فى كل يوم سبت « مراجعة أسبوعية مالية تجارية » تستغرق فى الأكثر الصفحة الأولى ، تتحدث فيها عن الحالة المالية مبتدئة بأثر المال وقيمته قائلة : « بأن مطلق الأعمال يتوقف على المال فهو قطب رحاها ومحورها ومحط رحالها »[2] ، ويرى المؤرخ أن (الوقت) عنيت عناية خاصة بقوانين الحكومة ولوائحها فلم تفوت شيئاً منها وسجلت نشاطها من هذه الناحية أحسن تسجيل[3] .

. . .

التفكير فى الصحف الفرنسية

رأينا كيف نشطت دار الأهرام فى إصدار الصحف والمجلات والنشرات فى وسط المتاعب التى كانت تكتنف مصر إذ ذاك وتحول دون حرية الرأى فى أى صورة من صورها ، ولم تقتنع دار الأهرام بصحفها الأسبوعية واليومية العربية ، فقد كان ذلك جهداً فوق طاقة الكثيرين ولكنه لم يكن فوق طاقة الشقيقين سليم وبشارة تقلا وخاصة الأخير منهما فإنه كان حركة دائبة ومدرسة قائمة بذاتها لخدمة الصحافة المصرية ، لذلك اتجه تفكيره إلى إصدار صحيفة باللغتين الفرنسية والعربية خدمة للآراء المصرية عند الأجانب والجاهلين لغة البلاد ، فتقدم إلى ناظر الخارجية مصطفى فهمى باشا يرجو أن يمنح ترخيصاً بإصدار صحيفة تحت عنوان La Revue de la Presse باللغتين العربية والفرنسية على أن تصدر مرة كل أسبوع ، وكان طلب ترخيصه فى ٧ أكتوبر ١٨٧٩ فأذن له به فى اليوم التالى مباشرة[4] ، وليس فى مقدورى أن أجزم بأن هذه الصحيفة قد صدرت ولكنى أعلم أن

(١) الوقت فى ١٩ أكتوبر ١٨٨٠ و ٢٧ ديسمبر ١٨٨٠

(٢) الوقت فى ٣٠ أكتوبر ١٨٨٠

(٣) الوقت فى ٢٩ فبراير ١٨٨٠

(٤) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول

صاحبها بشارة تقلا تقدم فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٠ إلى مدير المطبوعات المسيو ليونكافاللو بك Leoncava lo يعلنه أنه سيصدر هذه الصحيفة تحت اسم L'Orient[١] ، ولم يبين كتاب بشارة الخاص بتغيير الاسم ما إذا كانت الجريدة صدرت قبل ذلك باسمها الأول أو لم تصدر ، فإذا كانت الدار قد أصدرت هذه الصحيفة فى سنة ١٨٧٩ أو فى سنة ١٨٨٠ ، فقد أضافت إلى نشاطها جديداً ، وإذا لم تكن الظروف قد واتت بشارة فليس مرجع ذلك عندى إلى نقص فى كفاية المطبعة ، وإنما أرى أسباب التأخير إلى قلة المحررين القادرين على تحرير صحيفة بلغة أجنبية ، وتعبر تعبيراً صحيحاً عن أغراض المصريين وأهدافهم ، وهذا أمر يؤكد فى الحالين قدرة أصحاب الدار على الإنشاء والبناء فى تاريخ الصحافة المصرية الفرنجية .

وقف الأهرام وحريق المطبعة

وأخيراً تتوالى الحوادث على (دار الأهرام) وتتأزم الأمور بينها وبين السلطات العسكرية فى صيف ١٨٨٢ وتضطرب حياة الدار اضطراباً لم يبق إلا على الأهرام وحدها ، وهذه أيضاً لم تسلم من الأذى فصدر أمر بتعطيلها شهراً ابتداء من أول يونية ١٨٨٢ وذلك بناء على طلب ناظر البحرية والجهادية عرابى باشا[٢].

أغلقت الحكومة الأهرام شهراً ولكنها أبقت على مطابعها فكان ذلك حافزاً لصاحبي الدار على ألا يقعدا عن جهادهما الصحفى مكتفين بما تدره مطابعهما من مال وما تبذله من جهد فى نشر الثقافة العامة ، فتقدم كلاهما — سليم وبشارة — يطلبان ترخيصاً بإصدار صحيفة (الأحوال) على أن يكون الأول صاحبها والثانى مديراً لها ، وقد اختارا إسماً مناسباً للأحوال فى ذلك الزمان ، ولم تبخل الحكومة عليهما بالترخيص المطلوب بعد أن أخذت مائة ليرة مصرية على سبيل التأمين ، وصدر العدد الأول منها[٣] فى ٧ يونيه ١٨٨٢ فى أدق الظروف وأحرجها تتصدره كلمة من محرريها بعنوان طويل جداً « يا محول الأحوال حول حالنا إلى أحسن حال سبحانك وريحانك . ما أعظم قدرتك وشأنك تغير من حال إلى حال . ولا تتغير فى سائر الأحوال ، » ثم يأتى بعد هذا الدعاء حديث عن الصحف فيذكر المحرر أن هذه الجريدة على صغر حجمها قد سمحت بها الحكومة السنية ، ويعد بأنها ستتكفل « بنشر جميع أخبارنا المهمة بين سياسية وحوادث محلية وتلغرافات عمومية

(١) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٠
(٢) المحروسة فى ٣ يونيو ١٨٨٢
(٣) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات . دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول .

طلب ترخيص الأحوال وقد وافق المسئولون على إصدارها بعد تعطيل الأهرام فى صيف ١٨٨٢

وخصوصية وأعمال التجارة وترجمة ما تثبته الجرائد الإفرنجية المحلية لقاء تشريف الوفد العثمانى . وخدمة لحضرات النواب الكرام الذين أخذوا فى الحضور إلى عاصمتنا بل خدمة لجميع القراء الذين يجهلون اللغات الأجنبية فلا تفوتهم معرفة حوادثهم ، وإنا لنسأل لسمو خديوينا المعظم ورجالنا الكرام وقطرنا السعيد سلاماً وسعادة وحسن حال » .

ولم يكن تحرير هذه الصحيفة تحريراً ينافس جريدة الأهرام أو صدى الأهرام أو الوقت ، بل كان تحريراً فيه شىء كثير من التحرز ، وكانت أخبارها جميعاً أخباراً أملتها الظروف وفرضتها المناسبات ، ولم يطل بها العمر ، فقد احترقت مطبعة الأهرام فى ثورة الإسكندرية بعد أسابيع واحتجبت (الأحوال) مع أخواتها السابقات [1] .

• • •

هذا ملخص قصير عن النشاط الصحفى الذى تقدمت به (دار الأهرام) نحو مواطنيها من المصريين ، تؤيده مطابع مستكملة معداتها ، ويؤيده أيضاً « وكلاء لهم إلمام ومعارف فى جميع الأمور والأحوال لتستند على أخبارهم الوثيقة الصحيحة الخصوصية والعمومية الجارية فى جهاتهم فتكون فائدتهم أتم » [2] ، ومن بين هؤلاء الوكلاء من كان له نصيب موفور فى تدعيم الدار وتخطيها للمتاعب والأخطار ، وفى مقدمتهم فتح الله بك جاويش الذى تولى وكالة الأهرام فى سوريا زهاء عشرين عاماً وكان لها مراسلا قادرا ، وقد بلغ المشتركون فى الأهرام على عهده ألفاً وخمسمائة مشترك ، وكان وسيطاً فى شراء المطابع والمسابك والحروف لدار الأهرام ، وكثيراً ما كان دعاة السوء يوقعون بالأهرام عند المسئولين فى سوريا فكان جاويش بك يرفع الغبن عنها وينال ترخيصاً بدخولها ، وقد نجح فى ذلك سبع مرات خلال تسعة عشر عاماً [3] .

وكانت إدارة المؤسسة قادرة على كسب أصدقاء لصحفها وخاصة الأهرام فقد عطفت عليها الحكومة فى رواية من الروايات واشتركت فى كثير من نسخها ، وكذلك كان شأن الأهرام مع تجار الإسكندرية ، وفى ذلك تقول « إن كثيرين من كبار التجار العربيين فى مدينتنا هذه الذين لهم غيرة على الآداب وذويها طلبوا من عمدة البورس أن يكون لجريدة الأهرام نصيب بقبولها فى قاعة المطالعة » [4] وهى تكسب الأصدقاء العديدين

(١) تاريخ الصحافة العربية — فيليب دى طرازى ج ٣ ص ٥٣ .
(٢) الأهرام فى ١٩ يناير ١٨٧٧ .
(٣) تاريخ الصحافة العربية — فيليب دى طرازى ، ج ٣ ص ٥٤ .
(٤) مثال جريدة الأهرام فى ١٥ يوليو ١٨٧٦ .

مكاتبات الجريدة




قيمة الاشتراك

يا محول الأحوال

دولتلو درويش باشا

اخبار العاصمة

الاشتراك

العدد الأول من جريدة الأحوال التي وافق المسئولون على إصدارها بعد تعطيل جريدة الأهرام إبان الثورة العرابية

حتى تستقر أمورها فإذا هى كما تروى عن نفسها بعد سنة من وجودها « جريدة تطلب دون أن تطلب »[1] ، وهى تقابل تشجيع المواطنين وتأييدهم بالوعد بتلبية قراء الأهرام الأكثرين الذين يرغبون صدوره مرتين فى الأسبوع . . . دون أن نغير فى حجمه أو حرفه أو نزيد فى قيمة اشتراكه. . . »[2] .

ولا ينبغى أن نسقط من حسابنا ونحن نتحدث عن نشاط دار الأهرام هذه النخبة المختارة من رجال الفكر والبيان التى ساهمت فى تحرير صحفها ، مأجورة أو هاوية ، وهى النخبة التى ستتحدث عن نصيبها فى هذا المضمار بتفصيل يبين قدرها وخطرها فى تاريخ الجريدة وشقيقاتها الأخريات .

وإلى جانب ذلك كله عاونت المطبعة معاونة صادقة على تقدم الدار وارتقائها ، فقد كانت فى أول العهد مقصورة على طبع الأهرام وحدها ، حتى استكملت على مدى الزمن مقوماتها بما استجلبه صاحباها من آلات حديثة من الخارج ، وترتب على ذلك أن استطاعت الدار أن تنشر إلى جانب صحفها صحفاً للدولة زادت من الدخل زيادة ملحوظة شجعت على تحسين المطبعة وخدمة الصحف التى تصدر عن صاحبى الأهرام ، فبزت من حيث الشكل والطبع والموضوع جميع الصحف المعاصرة بما فيها جريدة الوقائع المصرية التى بذلت الحكومة فى تحسينها غاية ما تستطيع من جهد ومال .

(١) الأهرام فى ٢ أغسطس ١٨٧٧ .

(٢) الأهرام فى ٩ فبراير ١٨٧٨ .

المحررون

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم   مثل النجوم التى يسرى بها السارى

« الأعشى »

بدأت الأهرام عملها معتمدة فى أول الأمر على قدرة صاحبها سليم فى الإنشاء والتحرير ، يؤآزره فتى فى غاية النشاط والاجتهاد هو بشارة تقلا، أحد أعلام آل تقلا الصحفيين ، وشقيق صاحب الجريدة وصفيه ، ومعينه فى الصعاب والملمات ، وإليهما يرجع الفضل فى إصدار مثال جريدة الأهرام وعددها الأول الصادر فى ٥ أغسطس ١٨٧٦ ، ويكاد المتصفح لجريدة الأهرام فى سنتها الأولى ينكر وجود بشارة الشقيق الأصغر لصاحب الجريدة سليم تقلا ، ذلك أن سليما اعتاد أن يمهر الأهرام فى آخر صفحة منها ، ولم يؤذن لأحد بحق إمضاء المقالات إلا لبعض المصاحفين من هواة الكتابة والتحرير ، على أن بشارة تقلا كان روح الإدارة والتحرير معاً ، أنصت إليه وهو يحدثنا عما لقيه من صعاب فى إدارة الصحيفة وتحريرها : « كنت أطوف على الناس صباحاً أتعرفهم وأعرض عليهم الجريدة ثم أقصد أحد منتديات القهوة فأول ما أطلبه جريدة أوربية أطالعها وأعرب أهم أخبارها ، فإذا فرغت من الترجمة أتيت الإدارة ونظرت فى حسابها من دخل وخرج واشتغلت بالتصحيح وكتابة بعض الحوادث ثم جلست أعاون الفعلة على طى الأعداد وتهيئتها للتوزيع ، وكنت أتناول غدائى فى الغالب وأنا بين صحيفة أطويها ولقمة أزدردها»[١].

وكانت الأهرام تصدر فى السنوات الأولى معنية أشد العناية بالأخبار الخارجية والموضوعات الأوربية حتى كانت فى بعض الأحيان تغلب هذه النواحى على المقالات والأخبار الداخلية .

---

(١) تاريخ بشارة باشا تقلا س ٥ (وهو أفضل كتاب تحدث عن بشارة تقلا ومرجع من أهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى مقدمة هذا الفصل) .

تاريخ بشارة تقلا

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على أحد

« النابغة »

ومعنى هذا أن بشارة تقلا كان يقوم إلى جانب الإدارة بأكبر قسط فى تحرير الأهرام ، ويكاد يكون وحده المحرر الأصيل فى دار الجريدة بعد شقيقه سليم .

فبشارة تقلا إذن أول محرر فى دار الأهرام ، وسيبقى فيها المحرر والمدير بعد وفاة شقيقه إلى مطلع القرن العشرين ، وهو فى سيرته مثال المكافح المجاهد فى سبيل فنه، وكانت سمة الكفاح فيه تغلب جميع السمات ، وهى طبع متأصل نشأ عليه ودرج به ، ويذكرون هذا أن الطبع كان واضحاً فى طفولته ومراهقته حتى أنه أراد أن يقرأ ويتعلم فحبس نفسه عن كل شىء إلا عن الكتب يأنس إليها ويجالسها شهوراً متصلة حتى استكمل ثقافته من المطالعة الخاصة والبحث العميق ، فإذا عمل إلى جانب شقيقه الكبير فى إدارة الأهرام وتحريرها أثبت جدارة وعزماً لا يعرف الكلال ، فكان فى أول عهده مديراً ومحرراً لجريدة أسبوعية تصدر عن مطبعة صغيرة ثم قضى مالكاً لأكبر الصحف الشرقية العربية ، ولأكبر دار طباعة صحفية فى الشرق العربى كله ، يعمل فيها عشرات من العمال والمحررين والمراسلين والوكلاء والحاسبين .

وبشارة تقلا صحفى بطبعه ، وقد ذكرنا طرفاً من مجهوداته الصحفية التى برز فيها ، وذلك بإنشاء الصحف المختلفة سواء أكانت عربية أم فرنجية ، وهو صاحب فكرة تحويل جريدة الأهرام الأسبوعية إلى جريدة يومية ، وهى صورة مثالية بديعة لأهرامنا الحالية ، التى لا تزال متبعة التقاليد التى وضعها بشارة حين حول الأهرام إلى صحيفة يومية ، وعاونه ثباته وجرأته على إصدار الأهرام يومية والإبقاء عليها فى صورتها الجديدة بالرغم من الخسائر والمتاعب التى جابهته فى أول الأمر ، فإنه رأى وحده أن تكون الأهرام يومية ، وكان عملا صحفياً جريئاً ، صدم أول الأمر فيه ولكنه نجح وفاز بفضل مقدرته الصحفية وثباته .

قال يصف التجربة الخطيرة التى تحولت فيها الأهرام من صحيفة أسبوعية إلى جريدة يومية « وزّعت الجريدة وتوزعت وراءها فى كل مكان . أسعى وأتقصى وألح، فكانت ثمرة ذلك العناد أن زاد عدد مشتركيها خمسة فقط ، فلما رأى ذلك أبر الناس بنا جزعوا وقالوا هذا أول الإفلاس والسقوط ، غير أننى لم أحفل بالحاضر وانطلقت أتنقل بين مصر والأرياف وأعرض بضاعتى بين أيدى الناس من كل طبقة وكنت كمن أتاهم

بيدعة عجيبة فلم أرجع إلا وقد ضمنت للجريدة اليومية البقاء ، ولم أبال بالسهر والجوع والعطش والسفر والحر والبرد » .

هذه صفة قلما نجدها فى رجال أعمالنا، صفة الكفاح فى سبيل تحقيق الفكرة المتأصلة، والمنافحة من أجل المهنة التى يصطنعها مؤمنا بها ، ولم يتهاون قط فى عمل من الأعمال بل كان يجد لذة فى الحصول على أمانيه بعد كفاح مرير ، فذلك عنده أحلى من أى خير يأتيه بلا كفاح ، وهو يحدثنا عن ذلك بقوله « إنى قلما نلت أمنية لم أسع إليها سعياً حثيثاً ، ومع ذلك لم أستبشر قط بشىء أصبته بلا عناء » .

ويرى معاصرو بشارة تقلا أنه كان رجلا وسطاً فى سياسته المالية ، لم يبسط يده كل البسط ولم يغلها إلى عنقه ، ولم يكن يؤجل عملا أو يتردد فى رأى ، بل كان رجلا منظماً مثالياً فى هذا النظام ، وفى ذلك يقول صديقه خليل مطران : « وكان ينظر فى كل دقيق وجليل ويسير وكثير ، ويكره الخلط وتشويش النظام وتأخير الشىء من يوم إلى يوم حتى أننى لم أره قط أرجأ عملا عن الوقت الذى هو فيه إلا أن يستحيل عليه فى ذلك الوقت ، ولهذا كانت إدارته لا تضارع بنظامها وإتقانها ، وكانت ثروته فى نمو مستمر، ودخل جريدته ومطبعته يربو على دخل مثلهما بسبب التدقيق فى المراقبة وإنفاذ كل عمل فى حينه » .

وقد اختلف المؤرخون فى أدب بشارة تقلا وأسلوبه ، فصديقه خليل مطران لم يعطه حقه حين أثنى فى تحفظ ملحوظ على أسلوبه سواء أكان نثراً أم شعراً ، فليس الصحفى مطالبا بأن يقرض الشعر قرضاً ينافس فيه الشعراء الملهمين ، بل ليس الصحفى مطالباً بأن يقرض الشعر حتما وإنما يكفى أن يسيغه ويفهمه ويتأثر به ويؤثر فيه إن أراد النقد والإصلاح ، كما أن الصحفى الناجح لا ينقص من قدره أن يكون أسلوبه مفهوماً وعبارته معتدلة ، ولا يرتفع أسلوبه إلى أساليب الأدباء المطبوعين ، فللصحافة أسلوبها لأنها مزاج من الشعر والنثر ومن المقال والخبر ، ومن الترجمة الطويلة والقصيرة فإذا استطاع المحرر أن يعبر عن هذا كله بأسلوب عربى وعبارة سليمة كان صحفياً ممتازاً وإن لم يبلغ مرتبة الأدباء أو الشعراء . وإذا كان خليل مطران قد نقد صحفينا وهو يثنى عليه فى تحفظ وتحرز فقد فاته أن يراجع الصحف الأخرى المعاصرة ليضع محررنا فى مكانه بين محررى عصره ، فقد كان صحفياً يمثل أجمل ما فى الصحافة من آداب .

وكان أول مواطن ينشر صحيفة يومية هى صدى الأهرام ثم الأهرام من بعدها ويكون له فى صفحاتها مقالات فى السياسة الداخلية والخارجية ، ثم يبتدع الأساليب الصحفية



رياض باشا



شريف باشا



نوبار باشا

الأوربية المعاصرة فى صحيفته ، فيسافر فى رحلة إلى الآستانة فأوربا فى سنة ١٨٨١ ، ولا يمضى صحفينا مستشفياً أو معتكفاً بل يوالى جريدته برسائله الخاصة عما شاهده وأحسه من حياة الشرق والغرب ، وفى هذه الرسائل من الدراسات التاريخية والاجتماعية ما يضع صحفينا فى مقدمة الصحفيين الدارسين الملحوظين[1] ، فإذا فرغ بشارة من هذه الرسائل التى عرض فيها لحياة الشعوب والأمم ، ودرس اتجاهاتها الفكرية وأساليبها فى تناول الحياة وطرائق النظر إلى الأمور ، فكر فى جديد آخر لم يؤثر عن صحيفة يومية أو أسبوعية معاصرة ، ذلك تمكنه من لقاء وزراء خارجية الدول العظمى ورؤساء حكوماتها ومن إليهم من العظماء الذين كان لهم نصيب فى توجيه أوربا أو رأى فى القضية المصرية ، ولم يكن اللقاء لتعرف أو الزلفى أو جرياً وراء السمعة والفخر ، بل كان يجرى معهم أحاديث لينشرها فى الأهرام ، وهذا حدث صحفى منقطع النظير ، لم يستطعه أحد قبل بشارة تقلا الذى وفق منذ سنتين إلى نشر حديث لخديو مصر إسماعيل ، وقد ذخرت سنة ١٨٨١ بهذه الأحاديث المتصلة التى لا تخفى قيمتها السياسية والأدبية عن قادة الرأى فى مصر الذين كان فى وسعهم أن ينظموا أمورهم فى ضوء ما ذهب إليه رؤساء الدول الكبرى فى النظر إلى الشؤون المصرية الداخلية[2] .

ثم يستقبل بشارة تقلا حوادث الثورة العرابية ، وتمر به محنها ، فإذا وضعت الثورة أوزارها ، عاد فأصدر الأهرام وسط خرائب الإسكندرية ، تعوزه المطبعة والمحررون ، فقام على إخراجها فى جو من الحاجة المادية والأدبية فى إحدى المطابع الصغيرة ، فكان يبنى من جديد ما أفسده الزمن فى إيمان لا يتزعزع وعزيمة لا تعرف الكلل[3] .

وكان بشارة على ثقافته الغربية الواسعة وصلاته الكثيرة بوزراء الدول فى أوربا شديد الإعجاب بوطنه مؤمناً إيماناً لا حد له بهذا القطر من الشرق العربى « إن الشرق هو وطننا ، وفى الشرق محصورة خدمتنا ، خدمة الوطن هى ضالتنا ننشدها فى كل آن بلا محاباة ولا مراعاة » . وقد حاولوا عبثاً أن يغروه بنقل الأهرام إلى عاصمة الخلافة لتكون صحيفتها العربية اليومية ، ولكنه « لما اختبر أحوالها حق الاختبار وطبق حرية الأقطار المصرية على التضييقات الواقعة فى تلك الديار »[4] فضل أن يحيا فى مصر ولمصر .

وحين انفرد بشارة بالأهرام بعد وفاة شقيقه سليم فى سنة ١٨٩٢ وضحت مزاياه

---

(١) الأهرام فى شهر أغسطس ١٨٨١

(٢) الأهرام فى صيف سنة ١٨٨١ و ٥ أكتوبر و ٨ أكتوبر و ١٧ أكتوبر ١٨٨١

(٣) بشارة تقلا باشا ص ٣٣ ، ٣٤

(٤) بشاره تقلا باشا ص ١٤٥

الصحفية النادرة وضرب أحسن الأمثلة لصحفيي جيله ، فكان يعيش فى جريدته كأنها بيته وناديه ، بل محرابه ومعبده ، وكان يشرف على كل صغيرة وكبيرة فيها ، فيتلق الصحف الغربية ويشير بقلمه على أهم موضوعاتها لتترجم ثم يراجع الترجمة فإذا أقرها نشرت[1] ، ثم يستقبل المخبرين ـ وهو أول من عين للصحف فى مصر مخبراً بعد الوقائع المصرية ـ ويناقش أخبارهم ثم يغربل الأنباء فلا ينشر نبأ إلا إذا تأكد من صحته ، أو يهمله إذا شك فيه مهما ينتظر من ورائه من ربح أدبي أو مادى ، وكان حريصاً على أن يعطى كل ذى حق حقه ، ويبحث عن صاحب الحق حتى يوفيه ، وله فى ذلك قصة ، هى قصة والده الذى قضى مديناً ، فإذا أثرى بشارة ذهب إلى لبنان يبحث عن مدينى أبيه حتى يلقاهم ويرد لهم الدين مع أرباحه[2].

حدبه على معاونيه

ومن التقاليد التى رسمها بشارة تقلا لجريدة الأهرام أن تحدب على محرريها حدب الأم على ولدها ، حتى يشعر كل محرر أنه لها كما هى له ، وفى ذلك شىء كثير من الاطمئنان ، فإن مهنة الصحافة كانت فى عهده ـ ولا تزال أحياناً ـ مهنة من يصطنعها مفقود بحيا على أكف القدر ، وقد أحس الرجل أن الصحافة رسالة يجب أن يطمئن العامل فيها من الناحية المادية حتى يؤدى رسالته أحسن الأداء ، كما كان يراها وظيفة تأبى على حاملها أن يزل فى لفظ أو يخطئ فى تعبير ، وفى ذلك كان يوصى كل محرر جديد قبل أن يجلس إلى مكتبه ويقبض على قلمه بقوله « إذا رأيت أن كلمة تقولها يخسر معها شخص قرشاً وتربح الأهرام آلافاً فلا تقلها ولو خسرت الأهرام فوق الربح المنتظر أضعافاً . . . ولا محاباة ولا مراعاة فالأهرام وقف على ذلك من يوم وجدت ولا تتبدل خطتها »[3].

جهاده فى سبيل الصحافة

وكان بشارة طموحاً مجداً ، يريد أن يكون للأهرام دار كما هى الحال فى فرنسا وانجلترا ، فكانت أهرامه اليومية صحيفة فى القاهرة ، وأصدر صدى الأهرام صحيفة يومية فى الإسكندرية ، كما أنشأ فى القاهرة سنة ١٨٩٩ صحيفة البيراميد Les Pyramides يومية باللغة الفرنسية ، وأنشأ إلى جانبها مجلة أسبوعية مصورة للأدب باللغة الفرنسية أيضاً لتوزع

(١) بشارة تقلا باشا ص ٤٢
(٢) بشارة تقلا باشا ص ٣٢
(٣) بشارة تقلا باشا ص ٤٢

بالمجان على مشتركي البيراميد[1]، وكان يعتبر هذا العمل الصحفي الضخم لونا من الجهاد ، وكانت هذه الكلمة – كما يقول جاك لورين محرر البيراميد – «تمثل أحسن تمثيل رأى تقلا باشا فى الصحافة ومقصده من جريدته – يقصد البيراميد – وذلك لأنه كان يأبى أن يؤجر فى مصلحة أحد أو أن يصالح خصومه على غير حق ، وكان يريد محاربة المظالم وإحباط المساعى السيئة ودفع الأراجيف وتأييد معتقده ومبادئه ، وعلى هذه الخطة جرى إلى آخر نسماته بلا ملل ولاتوان»[2]. وقد عاش الرجل عاملا مكافحاً فى دار الأهرام حتى إذا حضرته الوفاة لم يسأل إلا عن الأهرام ، وهذه كلماته الأخيرة : «تحروا المباحث المفيدة للأمة ولا تخشوا فى الخدمة الصحيحة والحقيقة المفيدة أحداً واجتنبوا المثالب واسكتوا عن المطاعن ولو كانت على»[3].

وقد وفق الله بشارة تقلا فى حياته العامة والخاصة ، فنال من الرتب أعلاها وحصل على أرفع النياشين من تركيا ومصر وغيرها وتأهل بزوجة صالحة فى ١٥ يونيو ١٨٨٩، ولذلك أهمية خاصة فى تاريخ الأهرام لأن تلك السيدة التى اختارها بشارة أليفا ، كانت إلى جانبه فى عمله المتصل ، فإذا قضى نزلت هى إلى الميدان الصحفى وأشرفت بنجاح على سياسة الأهرام وكانت تقضى سحابة النهار وبعض الليل فيه ، لتبقى على هذا التراث الصحفى الرفيع لولدها جبرائيل تقلا ، وكان يومئذ حدثا فنشأته أحسن تنشئة ، وجعلت أباه فى ناظريه قدوة صالحة للتمثل بها وبعثت به يتلقى العلم ، فى مصر تارة وفى أوربا تارة أخرى ، وخلقت فيه حس الصحفى ومزاجه حتى أصبح مشغوفاً بالمهنة شغف أبيه ، فلما أيفع تسلم التراث من أمه ، وحلّق فى الحياة الصحفية المصرية وجلّى فى ميادينها المختلفة .

الصحفيون الهواة

وإذا أرخنا لبشارة تقلا كمحرر له اليد الطولى فى إحياء دار الأهرام إلى مطلع القرن العشرين ، وجدنا أسماء تتردد على صفحات الأهرام وشقيقاتها ، يذكرها المؤرخون كعمد بنى عليها تقدم الدار وازدهارها ، ثم نرى إلى جانب هذه الأسماء التى رددت الكتب وظيفتها فى الأهرام منذ صدورها إلى قيام الاحتلال ، أسماء أخرى كان لها نصيب فى تحرير جريدتنا، وهو نصيب الهواة القادرين الذين تفسح لهم الصحف صدرها لتقوى بأسمائهم وما ينشئون من مقالات ، وكان أمر هؤلاء المحررين الهواة يهم أصحاب الصحف

(١) بشارة تقلا باشا ص ١١٣
(٢) بشارة تقلا باشا ص ١٢٧
(٣) بشارة تقلا باشا ص ٢٠

فى ذلك الوقت ، فقد كانوا بمكانتهم الملحوظة بين العامة والخاصة سنداً للصحيفة التى تسعد بمعلوماتهم ، وكانت هذه المعاونة شهادة للقارئ العادى يقدمها صاحب الجريدة وثيقة على قدر صحيفته بين الصحف ، وفى هذا تنافس الصحفيون ، ووزنت أقدار الصحف بما ضمته فى أعطافها من أقلام ، ويجدر بنا أن نعرض أولا لهؤلاء الأدباء المصاحفين[1] لمكانتهم فى عالم الدين والسياسة والأدب .

الإمام محمد عبده

وقد سبق لنا أن ذكرنا طرفاً من معاونة الشيخ محمد عبده فى تحرير الأهرام فى سنتها الأولى ، وقد بقى الأستاذ الإمام يصل وده بدار الأهرام فترة طويلة إلى أن شغلته المسائل العامة وتخاطفته الصحف الأخرى حتى استقر به المقام صحفياً محترفاً فى الوقائع المصرية جريدة الحكومة الرسمية ، وقد مضى يحررها زهاء سنتين حتى وقعت حرب العرابيين ، وانصرف عن عمله الصحفى إلى عمل صحفى آخر فى باريس[2] ، ثم عاد إلى مصر ولم يكن له فى تاريخ الصحافة نصيب وإن كان له فى مهنة التدريس والإفتاء أنصبة أخرى برّز فيها كما برز فى أعماله الصحفية الكثار ، على أن ما يعنينا هنا من تاريخ الأهرام ومصاحفيها من الأدباء والكتاب أن الأستاذ الإمام كتب أول ما كتب فى صحيفتنا ، وكانت كتاباته ألواناً من الفكر الجديد والأسلوب الرائع البديع[3] .

أدباء أسرة الشمّيل

ومن كتاب الأهرام البارزين بعض أدباء أسرة الشمّيل ، أمين وشبلى شمّيل وغيرهما ممن جاء بعدهما ينهج نهجهما فى صحف أخرى أو فى فنون أخرى لها فى حياة المصريين أثر كبير ، وقد درجت تلك الأسرة المجتهدة النشطة من لبنان فى كفر شيما ، وكان والد هؤلاء

(١) المصاحف من يكتب للصحف على بعد من نشاطها المادى . انظر محمود عزمى فى كتابه «مبادئ الصحافة»

(٢) أصدر الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين الأفغانى مجلة (العروة الوثقى) سنة ١٨٨٤ فى باريس ، ونجمل الغرض منها بذكر بعض ما قاله فى افتتاحية العدد الأول « سنأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطريق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت» . وكان الشيخ فى صحيفة المهاجر هذه ، عالى السياسة لا يسف فى لفظ أو تعبير ، وكانت العروة الوثقى فى الفترة القليلة التى صدرت فيها صحيفة مثالية من حيث تحريرها الذى كان لقضايا مصر إرثا أدبيا لا ينكر فضله .

(٣) كانت مقالات الأستاذ الإمام هنا فى معظمها تلخيصا لمحاضرات الأفغانى وكانت تشغل أحياناً مساحات كبيرة من أعداد متصلة وهى خمس مقالات : الأولى فى ٢ سبتمبر ١٨٧٦ والثانية فى ٢٣ سبتمبر ١٨٧٦ والثالثة فى ٣٠ ديسمبر ١٨٧٦ والرابعة فى ٢١ أبريل ١٨٧٧ والخامسة فى ١١ مايو ١٨٧٧ .

الأبناء – على ما تقول الأهرام وهى تنعاه – « شهماً مقداماً واسع الرواية حاد الذهن مطلعاً على أجل العلوم بليغ العبارة جرىء الجنان »[1] ، فكان الأخوة أمين وملحم وشبلى وسبع شميّل مثالا لهذا الوالد الذى نشأهم أحسن تنشئة ووجهم أفضل توجيه .

أمين الشميّل

وكان أظهر الأشقة أمين شميل . وقد كان إلى جانب علمه وأدبه صبوراً مجالداً ، ولد فى سنة ١٨٢٨ واحترف التجارة فى انجلترا أول الأمر ثم أنشأ محلا تجارياً فى مدينة الإسكندرية ولم يكن من الميسور لشاعر أديب أن يفلق فى الأدب والتجارة معا ، فنجح فى مكانته العلمية وكبا فى تجارته ، فصفى ماله فيها ونزح إلى القاهرة سنة ١٨٧٥ محترفاً مهنة المحاماة ، ومساهماً فى كل نشاط أدبى أو اجتماعى عرفته مصر إذ ذاك ، فأنشأ مجلة (الحقوق) وهى أول مجلة خاصة بهذه الناحية من النشاط الفكرى ، ثم كتب فى القانون بعض الكتب والرسائل ، وعالج فى كتب أخرى نظم الحكم والسياسة ، ومن أهم هذه الكتب كتابه عن المسألة الشرقية الذى طبعته له جريدة الأهرام سنة ١٨٧٩ وفيه عرض لحياة العرب وطرائق نظرهم إلى الحياة منذ عرفوا الإسلام إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وآثاره الأدبية أكثر من أن تعد فى هذه العجالة التى نصوره فيها صحفياً ساهم فى تحرير الأهرام مساهمة الأصيل . ووقف إلى جانب أصحابها موقف الصديق الموالى فى شتى الظروف والحالات . وكانت تغلب على أسلوبه المعانى الفلسفية ، ومع أن الدراسات الفلسفية قد تمكنت كثيراً من نواحى نفسه فإنها كانت موسومة بطابع الإيمان العميق بوجود الله ، وفى ذلك يقول شعراً جاء فيه[2]

هو المهيمن والأكوان صاغرة ... تجثو لقدرته العليا وترتعد

وقد عرف أمين شميل أول ما عرف عن طريق الأهرام ، وهو وثيق الصلة بصاحبيها سليم تقلا ، وعلى ود أكيد قام بينهما قبل صدور الأهرام . حتى كان أمين شميل يبعث إليه بمقالاته من القاهرة وفى صدرها كلمة تبين مدى الصلات بين الصديقين فيخاطبه بقوله « الأخ الحبيب » ثم يمضى فى مقاله عن حرية القول والفعل والفكر ، وكيف أن هذه الحريات من مستلزمات حياة الأمم ، وأن من ينكرها على الشرق فإنما يتجنى على الشرق ، ذلك لأن الشرق مهد المدنيات « وثلاثة أرباع الكرة إنما أخذت قوتها الأدبية والسياسية القائم عليها مدار نموها ونجاحها من شريعة المشترعين العظيمين المولودين فى أفقر

---

(١) الأهرام فى ٢٤ يونيه ١٨٨٠

(٢) لويس شيخو — الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ج ٢ ص ١٥٧ — ١٥٩

العالم أى فلسطين والحجاز[1] » ، وأمين شميل هذا الذى ينشر فى معظم أعداد الأهرام فى سنتها الأولى المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية « أخ حبيب » أيضاً تدعو الأهرام لكتبه فى مقالات، وتعاتب المتأدبين حين لا يقبلون على مؤلفات علمائنا وأدبائنا « العربيين » من أمثال أمين شميل[2] .

سبقه لجيله

ونستطيع أن نعثر على أدب أمين شميل وعلمه فى كثير من أعداد الأهرام وشقيقاتها الأخريات، وكل ما كتبه هذا الأديب يعتبر فى ذمة التاريخ شيئاً جديداً على عصره سابقاً لجيله ، وهى دراسات ممتعة فى التاريخ والاجتماع والسياسة[3] ، وكانت الأهرام تفسح صدرها لقلمة يجول به ويصول على ما يشتهى ، حتى أنها — فيما أعلم — أصدرت أول ملحق لها فى تاريخها العريض ليكتبه كله أمين شميل ، وليناقش فيه خصومه الأدباء وعلى رأسهم أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب[4] إذ كانت له قبل ذلك وبعد ذلك مقالات فى الأدب كانت محكاً لقدرته الأدبية وهو يصارع الشدياق وأساطين البيان[5] . ومن أمتع ما أثر عن أمين شميل تلك المجادلات البديعة التى ساهم فى طرف منها هو وأخوه الدكتور شبلى شميل ، ونزل إلى ميدانها أحمد سمير ونجيب غرغور واسكندر نحاس وغيرهم ، وذلك عن موضوع أنشأه عبد الله نديم مؤيداً فيه أن « حفظ الذات بحفظ اللغة » فرد عليه أمين شميل بمقال عنوانه « حفظ اللغة لا يكون إلا بحفظ الذات » ، وأفسحت عدة صحف صدرها لهذا الجدل البديع وفى مقدمتها التنكيت والتبكيت من ناحية ، والمحروسة والعصر الجديد من ناحية أخرى[6] .

إقباله على التأليف

ولا يقصر أمين شميل مجهوده على تحرير المقالات فى الأهرام وفى غيرها من الصحف ، وإنما ينشىء الكتب منفرداً كما بينا من قبل أو بمؤازرة سليم تقلا محرر الأهرام ، وقد ألفا معا « الوافى فى تاريخ المسألة الشرقية ومتعلقاتها » وهو تاريخ لتركيا يشرح حياتها السياسية

---

(١) الأهرام فى ١٦ سبتمبر ١٨٧٦
(٢) الأهرام فى ٣ فبراير ١٨٧٧
(٣) الأهرام فى ١٥ و ٢٢ ديسمبر ١٨٧٧
(٤) ملحق الأهرام رقم ٨٠ (العدد الأصلى صادر فى ٩ فبراير ١٨٧٨)
(٥) الأهرام فى ٢٦ يوليو ١٨٧٨
(٦) طرازى — تاريخ الصحافة العربية ج ٣ ص ٩٢ .

والاجتماعية فى عصورها القديمة والحديثة حتى سنة ١٨٧٧ وقد تضمن الكتاب صوراً بديعة للملوك والقواد والساسة (١) . . . وكانت الأهرام تعلن عن الكتاب فى صدرها وتنشر أسماء المشتركين فيه .

وإذا كان أمين شميل قد فشل كتاجر فليس معنى ذلك أنه كان جاهلا بأصول المال بل كان الرجل فى الحق عالماً بالشئون الاقتصادية ، وكانت نظرته إليها مبنية على علم ومعرفة ، وهى صفة تغلب عليه فى كل ما كتب ، حتى أنه كان يخضع دراساته الأدبية والتاريخية للنظريات العلمية ، وله فى النشاط الاقتصادى دراسات وكتابات شهدتها الأيام الأخيرة من عهد إسماعيل والأيام التى تلتها قبيل الثورة العرابية ، فقد عرف أن الأزمة المصرية التى نشأت فى عهد اسماعيل وانتهت بخلعه وجعلت للأجانب معبراً يعبرون منه إلى التدخل فى شؤوننا جميعاً ، ويكون لهم فى الحكم وزيران يمثلانهم ، ويكون لها أضخم الوزارات – المالية والأشغال – عرف أن هذه الأزمة الثقيلة التى ألحت على حياتنا كانت وليدة الاضطراب المالى والديون التى أثقلت كواهلنا . لذلك كان التفكير الشعبى منصرفاً إلى التخلص من هذه الديون بأى وسيلة من الوسائل ، فأخذ أمين شميل على عاتقه أن يقدم لمواطنيه مشروعاً لإنشاء بنك يشبه كثيراً بنك مصر الحالى (٢) ، وتكون من أغراضه الرئيسية التخلص من الديون المصرية المختلفة .

دعوته إلى إنشاء مصرف وطنى

وانصرف أدب أمين شميل إلى معالجة الشئون الاقتصادية فى سنة ١٨٧٩ فكانت له المقالات البديعة فى الاقتصاد السياسى فى معظم الصحف المعاصرة كالتجارة وفى الأهرام وصحفها خاصة . وقد أرّخت جريدة (التجارة) لهذا النشاط بأن نشرت لمكاتبها من القاهرة خبراً جاء فيه : « وبلغنى أن جماعة من التجار وغيرهم وفيهم حضرة الفاضل أمين افندى شميل نزعت بهم غيرتهم إلى تقرير أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الدين فى ظرف ثمانية وعشرين سنة ، وهو أنهم يفتتحون بنكاً وطنياً يكون رأس ماله أربعة عشر مليوناً من الجنيهات تجمع من سائر أفراد الأمة على أقساط ثلاثة أو أربعة (٣) » ، وفيها أن إدارة البنك ستكون وطنية وسيعدل بنك انجلترة ويفوق بنك فرنسا بستة ملايين . ومن فوائده :

(١) توطين الدين العام وبذلك تتقوى القراطيس المالية فى السوق

(١) الأهرام فى شهر يونيو ١٨٧٨
(٢) طلعت حرب . لإبراهيم عبده طبعة ١٩٤٥ ص ٣٠ وما بعدها
(٣) التجارة فى ٥ أبريل ١٨٧٩

(٢) حصول الحكومة والبنك على كوبونات عشرة ملايين من غير مقابلة .

(٣) انتظام تجارة البلاد وزراعتها فيقبل الأهالى على المشروعات والشركات النافعة .

(٤) استهلاك مقدار وافر من ديون الحكومة وبذلك تتخلص البلاد من الاستعباد الأجنبى[١] .

ثم يمضى « مخترع » الفكرة ينافح عن فكرته ويدافع عنها ويفزع فيها إلى الصحف تارة وإلى الوزراء تارة أخرى ، حتى أنه سعى حتى لقى الخديو وعرض عليه مشروعه ، وفى ذلك نشرت له الأهرام مقالا جاء فيه : « أكتب هذا إظهاراً لامتنانى مما نشرتموه فى صداكم وأهرامكم من النبذ الجيدة فى مشروع البنك الأهلى الذى جعلته موضوع بحثى فى هذه الأيام لما رأيت من الارتباك المحيط بنا متهدداً حياتنا الوطنية، ومن حبوط الإدارة الأجنبية المتكبرة . وقد جهل غريب البيت ما فيه كما ظهر من فعل رجال الإدارة المذكورة . وهذا المشروع الذى أحسبه سداً اسكندريا فى وجه الأجانب وإن كان لا يخلو من الصعوبة الاجرائية لسعة رأس ماله المسمى ، إلا أنه ممكن ، ولا يقاوم الهمم العالية إلا المستحيلات بالطبع ، بل على قدر أهل العزم تأتى العزائم » . ثم يؤرخ لنا موقف الخديو من هذا المشروع فيقول : « وإنى لقى ما شهدت من لين الجانب وعلو الهمة وحسن الاهتمام لدى الجناب الخديوى عند تشرفى بالمثول بين يديه وعرض مشروعى عليه ما يعد بالعناية ويدل على الإقدام ... » . ثم يستنفر الهمم وخاصة همم الأدباء والكتاب « ذلك ما أراه أنا الحقير أقدمه لهم وأساعد فيه بضعفى غير ملتمس عوضاً ولا قبلا ، ولا أستطيل به على الناس ولكن حسبى أن يكون له أثر لا يمحوه كرور الأعصار ، وذكر تتداوله الأدوار والأكوار ، فلتساعدنى أرباب العلم والحكم إن رأوا فى مشروعى خيراً ، فرحم الله من لبى صوت وطنه وسعى لخير عطفه . أولئك هم الكاسبون »[٢]

وقد رحبت الأهرام من ناحيتها بهذا المشروع حتى شكرها أمين شميل كما رأينا ، وذكرت تفاصيله وإن اختلفت فى روايتها عن هذه التفاصيل مع (التجارة) لصاحبها أديب إسحق ، فقالت : « . . . رأينا من باب المناسبة أن نذكر ما علمناه أكيداً عن مشروع مالى جديد أولدته نيرة ذاك العلامة الفاضل والحكيم العاقل جناب الخواجا أمين شميل الشهير ، من غايته إحكام نظام شامل يكفل للبر المصرى إعادة موازنة ماليته وسقوط تدخل الأجانب فى أحكامه بطريق الاقتضاء فى مدة ثلث سنين ، وهو مع ما فيه من الفلسفة التجارية

---

(١) التجارة فى ١٧ أبريل ١٨٧٩

(٢) الأهرام فى ١٥ مايو ١٨٧٩



جوردون باشا



اللورد كتشنر



اللورد ملنر

والصرافية غاية فى البساطة تام البراهين التى لا سبيل لنقضها بالنظر إلى النتائج »[1].

وأثارت مقالات أمين شميل ومجهوداته فكر المصريين وذوى الرأى منهم ، ومضوا يحاولون هذه المحاولة ، أى محاولة إنشاء بنك وطنى لمصر حتى سنة ١٨٨٢ قبيل الثورة العرابية بقليل ، وكتبت الأهرام فى ذلك مقالا بعنوان (البنك الوطنى) جاء فيه بعد شرح الفوائد التى تعود على القطر المصرى من وجود هذا البنك تفصيل للمحاولة الجديدة .

« . . . وعليه فيسرنا أن نعلن الآن بأن بعض أعيان ثغرنا وجهوا عنايتهم إلى هذه الوجهة وفكروا فى إنشاء بنك وطنى مصرى تناط إدارته بالمصريين وتعود فوائده عليهم ، وقد وضعوا له شروطاً واضحة وقواعد راسخة يتأتى عنها تسهيل سبل الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية فى جميع أرجاء القطر »[2] ، ثم تذكر همة القائمين به واتصالهم بأصحاب الرأى فى العاصمة .

شبلى الشمّيل ومذهب داروين

ولا يساهم أمين شمّيل وحده من أسرته فى تحرير الأهرام ، بل يشارك أخوه شبلى شميل فى ذلك أيضا ولكن فى حيز ضيق بالقياس إلى نشاط أمين الصحفى ، وقد بدأ كتاباته فى الأهرام فى الشهور الأولى من حياتها فكان له مقال عن استحضار الأرواح ، ذكرت الصحيفة أنها تلقته بالبريد من صاحبه « الدكتور شبلى أفندى شميل الموجود الآن فى الآستانة[3] » ، ثم مضى يراسل صحيفتنا ويكتب مقالات لطيفة طريفة فى الطب والعلم[4] ، ثم تطورت موضوعاته وتنوعت ، وكانت منذ سنة ١٨٧٩ مقالات طبية متصلة بالشئون الصحية ، فيها نقد لمصلحة الصحة[5] كما أن فيها أحياناً دراسات لكثير من الأمراض وأحدث ما اكتشف لها من علاج ، ويتميز الدكتور شبلى فى أسرة شميل أنه أثار موضوعاً خطيراً شغل البلاد العربية جميعاً ، عرض له فى الأهرام وفى غير الأهرام من صحف العصر ، ذلك هو مذهب داروين الذى صادف هوى من نفس صاحبنا ، فمضى يبشر له بين قراء اللغة العربية ، ويكافح خصوم المذهب من الأعراب والفرنجة ، وله فى ذلك كتاب غير مقالاته الرائعة التى نشرها هنا وهناك ، فإذا اختلف معه مواطنوه فى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأدنى انبرى لهم يرد عليهم فى مقالات علمية رائعة ضمنها كتاباً اسمه (الحقيقة) وصفه شبلى شميل

---

(١) الأهرام فى ١٠ مايو ١٨٧٩

(٢) الأهرام فى ١٧ مارس ١٨٨٢

(٣) الأهرام فى ٢١ أكتوبر ١٨٧٦

(٤) الأهرام فى ٢ ديسمبر ١٨٧٦

(٥) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٨٧٩

بأنه « رسالة تتضمن ردوداً لإثبات مذهب داروين فى النشوء والارتقاء » ، وكان كاتبنا فى مقالاته المتصلة بمذهب داروين مجادلا من الطراز الأول ومنازلا لا يشق له غبار .

ولم يقف نشاط شبلى عند مهنة الطب فى طنطا أو التحدث عن مذهب داروين أو نشر المقالات فى صدر تاريخ الأهرام أو فى جريدة (البصير) فيما بعد ، بل أنشأ فى فبراير ١٨٨٦ مجلة (الشفاء) التى بوأته مكاناً طيباً بين أعلام النهضة الفكرية المعاصرة بما نشر من مقالات وبحوث فى الشئون الاجتماعية والأدبية والفلسفية والطبية ، ومضى يشغل معاصريه بما كتب حتى وافاه القدر خلال الحرب العالمية الأولى[1] .

الشيخ أمين الحداد

وإذا لم يكن فى مقدورنا أن نزعم أن آل شميل قد احترفوا الصحافة كمهنة فى الأهرام وأن أمر معاشهم كان معلقاً على وظيفتهم فيها فإن تاريخ الأهرام فى عهدها الأول يشير إلى اثنين لا شك فى وظيفتهما فى جريدتنا ، أولهما الشيخ أمين الحداد بن الشيخ سليمان الحداد الشاعر الأديب وحفيد الأديب الشيخ نصيف اليازجى العالم المعروف. وقد هاجر أمين الحداد فيمن هاجر إلى مدينة الإسكندرية حيث كانت الأهرام فى مستهل حياتها ، فاشتغل فى مطبعتها مشرفاً على صف حروفها ورعاية أدواتها بجانب ما أداه من أعمال أخرى فى أبواب التحرير ، وقد بقى يؤدى وظيفته فى صحيفتنا سنوات حتى أنشأ بصحبة شقيق له ومعاونة زميل من رجال الأهرام هو عبده بدران جريدة (لسان العرب) فى سنة ١٨٩٤ ، ولم يمض فيها طويلا ، وتنقل بين تحرير صحف « الاتحاد المصرى والسلام ومجلة أنيس الجليس » حتى استقر به المطاف فى جريدة (البصير) إلى أن وافاه أجله المحتوم[2] .

عبده بدران

أما ثانى الاثنين اللذين ساهما فى تحرير الأهرام فهو عبده ميخائيل بدران من شبان لبنان الذين نزحوا إلى مصر حيث كان ولدا خالته سليم وبشارة تقلا يصدران الأهرام فى الإسكندرية ، فانضم إليهما وشغل عدة وظائف فى جريدتهما ، فبدأ فى أعمال المطبعة وشئونها وانصرف بجانب ذلك إلى المطالعة والتثقف حتى أجاد اللغة العربية وأصبح من كتابها النابهين ، فحرر فى الأهرام فصولا كثيرة قدمته على أقرانه الكثيرين ، ولما أنس فى نفسه الكفاية اشتغل بأعمال مطبعية وصحفية أخرى بقى يعالج أمورها سنوات متصلة ،

---

(١) البصير بمناسبة مرور خمسين عاما على إنشائه ص ١٠٢ و ١٠٣
(٢) البصير بمناسبة انقضاء خمسين سنة على ظهوره ص ٢

ثم اشتغل بوظائف الدولة ، وأخيراً انضم إلى تحرير البصير وكانت له فيه مقالات وطنية رائعة خلال الثورة المصرية سنة ١٩١٩ لقيت تقدير الزعماء وقادة الرأى من المصريين .

وكان عبده بدران أديباً خلّف لنا ثروة قصصية طيبة بما نشره من قصص فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين(١) .

الشيخ عبد الكريم سلمان

ثم فتحت الأهرام صدرها لغير هؤلاء من المواطنين الذين كان لهم فى تاريخ مصر الحديثة نصيب ، وكان بعضهم عابراً على الصحافة فى تلك المقالات القليلة التى كتبها فى جريدتنا كعلى بك مظهر(٢) وابراهيم أفندى الخورى(٣) وغيرهما كثيرون ، وكان البعض الآخر على استعداد أدبى ملحوظ وموهبة صحفية غير خافية على أصحاب النظر البعيد ، ومن هؤلاء ذلك الشاب الذى قدمت له الأهرام فى كل مقال كتبه بقولها « جناب العلامة الأديب والفاضل الأريب الشيخ عبد الكريم سلمان أحد أهل العلم بالجامع الأزهر » (٤) وكانت مقالاته فى الأهرام أول ما كتبه فى الصحف فيما نعلم ، وكانت بدءاً حسناً لشاب على كفاية واستعداد ، ومن على منبر الأهرام عرفه المصريون كاتباً وأديباً ، حتى أن الشيخ محمد عبده اختاره فيمن اختار من النخبة المنتقاة لمعاونته فى تحرير الوقائع المصرية حين ألقيت إليه مقاليدها فى أكتوبر ١٨٨٠ . والشيخ عبد الكريم سلمان من هذه الطليعة التى تتلمذت على الأفغانى وآمنت بتوجيهاته ، فأشركه محمد عبده فى تحرير الوقائع ووجهه فيها توجيهاً طيباً (٥) ، وقد بقيت صداقتهما مثلا وودهما صادقاً متصلا إلا فى فترة الثورة العرابية وإن عادت بعد ذلك صافية مواتية(٦) . وقد ورث عبد الكريم سلمان صديقه وأستاذه محمد عبده فى تحرير الوقائع المصرية حين ألقى القبض عليه ونفى إلى سوريا(٧) فأصبح رئيساً لتحريرها منذ ٢١ سبتمبر ١٨٨٢ ، وقد طالت صحبة عبد الكريم سلمان لتحرير الجريدة الرسمية إلى أن أشار الشيخ محمد عبده بعد الاحتلال بفترة . بتعيينه قاضيا فى المحاكم

---

(١) البصير بمناسبة انقضاء خمسين سنة على ظهوره ص ١٠٣
(٢) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٨٧٧
(٣) الأهرام فى ١٣ أبريل ١٨٧٧
(٤) الأهرام فى ١٦ مارس ١٨٧٧
(٥) المنار ج ٢ ص ٤٠٦
(٦) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٧٨
(٧) إبراهيم عبده — تاريخ الوقائع المصرية ، طبعة ثالثة ص ١٥٣ — ١٥٤

الشرعية ، واختاره زميلا له فى لجنة إصلاح الأزهر ، وقال فيه الأستاذ الإمام « أكننته كى فأدنيته منى وجعلته فى مكان النحو من ابن جنى . . . . »[١] .

السيد جمال الدين الأفغانى

وقد أثبتت الأهرام أنها كانت تتخير مصاحفيها حين فتحت صدرها لأمثال الشيخ عبد الكريم سلمان ، وكسبت بذلك حسن السمعة عند عامة القراء فى الشرق العربى جميعاً ، بيد أن أخطر الأقلام التى حررت فيها كان قلم زعيم الجيل كله السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد أثر عن الأفغانى نشاط ملحوظ فى ميادين الفكر سواء فى مصر أو فى الشرق ، عربيا كان أو مستعربا ، وقد أثار وجوده فى مصر فى عهد الخديو إسماعيل تياراً من الفكر الحر ، فقد تتلمذ له الكثيرون من طلاب العلم المتعطشين إلى الآراء الجديدة ، وكان حديثه إليهم « ينير العقل ويطهر العقيدة ويذهب بالنفس إلى معالى الأمور ويستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلاب العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالون إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وتنبهت عقول وخف حجاب الغفلة من أطراف متعددة من البلاد وخصوصاً القاهرة[٢] » .

ولم يقف حظ الحياة الفكرية من فضل جمال الدين الأفغانى عند حديثه الحلو ومحاضراته الممتعة لطلاب العلم ورواده من خاصة الناس ، بل كان له على الصحافة الشعبية فضل عاون على ظهورها ثم نضجها واستوائها ، فهو الذى أوحى ليعقوب بن صنوع بإصدار مجلة « أبو نظارة » أقدم الصحف الهزلية المصورة فى الشرق[٣] ، وهو الذى اقترح على أديب إسحق الأديب المعروف أن ينشىء صحيفة « مصر » فى القاهرة[٤] . ويرجع إلى الأفغانى فضل السعى فى إخراج جريدة « مرآة الشرق » فقد توسط لصاحبها هنا وهناك حتى منح الترخيص بها[٥] ، ولم يكن للأفغانى فضل الإيحاء والإشارة بإخراج هذه الصحف فحسب بل كانت له فيها المقالات الممتعة فى السياسة والأدب والاجتماع ، وكان يمهر تلك

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ س ٢٧٨ و ٤٢٧ و ١٠١٩

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ س ٣٧

(٣) إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية ، طبعة ثانية ، س ٥١

(٤) مشاهير الشرق س ٧٠

(٥) صاحبها سليم عنحورى من الشآميين تلاميذ الأفغانى وساعده فى إنشائها إسكندر نحاس مديرها وسعيد البستانى مترجمها الأول وكتب فيها محمد عبده وعلى يوسف ، وهى لسان الحزب الوطنى فى نهاية عصر إسماعيل (راجع مرآة الشرق ٢٤ يوليو ١٨٧٩ والتجارة فى ٢١ أبريل ١٨٧٩)

المقالات باسمه سافراً تارة . وتارة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح[١]) ، ثم أوحى فيما بعد إلى أديب إسحق أن ينشىء صحيفة « التجارة » التى كانت من الصحف المحببة إلى نفسه ، وكانت مجالا له ولتلاميذه فترة من الزمان[٢] ، وكانت التجارة أشد الصحف المعاصرة إيمانا بالأفغانى ، فكانت تسميه « سيدنا فهرست كتاب الكمال وفذلكة حساب الجلال أستاذنا الأجل الفيلسوف الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى[٣] » .

كان للأفغانى إذن نصيب وافر فى تأييد الحركة الصحفية وإرساء قواعدها ودعم بنيانها ، وكانت له مكانة فريدة عند أولى الأمر وأصحاب الشأن حتى زعموا أن الأمة وكلت إليه السفارة بينها وبين الخديو[٤] ، ولم يكن للرجل فضل فى إنشاء الأهرام لأنها نشأت قبل أن تعرف الصحف الأخرى الحياة ، وقبل أن يكون للأفغانى هذه المكانة الملحوظة التى تعينه على خلق الصحف وتشجيعها ، ولكنه تخيرها بالرغم من وجود الصحف التى أنشأها وبعث إليها المقالات ، وكانت الأهرام كغيرها من صحف الجيل تستقبل مقاله بالتجلة الواجبة وإن قصر مقالاته على الشئون الأدبية الصرف كحديثه عن « كتاب دائرة المعارف » فتذكر أنها تلقت الرسالة المنشورة من « حضرة الفيلسوف الفاضل والأستاذ الكامل العلامة السيد جمال الدين الأفغانى[٥] » .

وقد مضت علاقة الأهرام بالسيد جمال الدين الأفغانى علاقة لا غبار عليها ، تتميز بالإكبار الذى ناله الرجل العالم من خاصة المصريين ، وفى مقدمتهم رجال الصحافة المختلفين الذين كانوا دعاة أفكاره عند المواطنين من قرائها العديدين .

وقد استمر الود قائماً بين صحيفتنا وبين الأفغانى فى أحلك الأوقات وأدق الظروف، إذ اختلف الرجل مع الخديو توفيق ، اختلافاً عميقاً ، كان من نتيجته طرد السيد جمال الدين من مصر ودعت الحكومة صحف العصر إلى التهوين من شأن الرجل ، فكانت الأهرام من الصحف القليلة التى أبت تلبية الدعوة ، بالرغم من الروابط التى تربطها بولى الأمر الذى كان له فى عنقها جميل مأثور .

وليس فى وسعنا أن نعدد محررى الصحيفة المحترفين فى السنوات السبع الأولى من حياتها الطويلة أو نكتب لكل منهم تاريخا منفرداً ، فقد قصرنا بحثنا عن المحررين العاملين فيها

(١) الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥
(٢) التجارة فى ١٧ يونيه ١٨٧٩
(٣) التجارة فى ١٩ مايو ١٨٧٩
(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨
(٥) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٨٧٩

على صاحبيها سليم وبشارة تقلا ، وبينا أقدار بعض المصاحفين من علية القوم وسادة الجيل وأعلام العصر فى الآداب والعلوم والفنون والسياسة ، وقد بلغ عدد العاملين فى تحرير الأهرام وصحفها من كتاب ومترجين محترفين حوالى عشرين كاتباً ومترجماً (١) فى مقدمتهم جميعاً صاحباها ، أما المصاحفون من أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وغيرهما فيجل حصرهم لكثرة عددهم سواء فى الأهرام أو فى شقيقاتها الأسبوعيات واليوميات .

وإذا قورنت الصحف المعاصرة بكتابها الهواة كانت الأهرام فى مقدمتها ، محلا للثقة وموضعاً مؤتمناً ، ومكاناً يخاطب فيه الخاصة عامة الناس وخاصتهم. وكان أولئك الهواة يعرفون مكان السياسة العامة فى صحيفة الأهرام ، فلم يلجأ إليها ثائر عنيف ، بل كان كتابها وقراؤها أيضاً من النخبة المعتدلة التى تناقش فى هدوء ولا تأخذ المسائل بعنف ، ولا تجادل فى غير حق ، لذلك كانت بحوثهم وملاحظاتهم وليدة التبصر والتعمق لا ينبو فيها لفظ ولا يجرح تعبير ، وكانت طبيعة الصحيفة تؤثر فيهم وتوجههم، وسياسة صاحبيها الهادئة وتقاليدهما المأثورة تحدد أغراض الكاتب وتفرض المصلحة العامة وتغلبها على كل غرض خاص .

(١) فيليب دى طرازى ج ٣ ص ٥٣

سياسة الأهرام

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل   وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

« الطغرائى »

لم تكن للأهرام سياسة مرسومة أو واضحة المعالم فى السنتين الأولين من حياتها الطويلة ، فقد اعتمد صاحباها فى إصدارها على النقل من الوقائع المصرية أو الجوائب أو المونيتور أجبسيان أو غيرها من الصحف التى كانت الحكومة توجه أقلام أصحابها توجيهاً يلائم السياسة المصرية الاستقلالية التى رسمها الخديو إسماعيل بنفسه ، فإذا كانت للأهرام سياسة فى أول عهدها بالحياة ، فهى سياسة الدولة التى منحتها الترخيص وأذنت لها بالصدور ، إلى قليل من الدراسات التاريخية والعلمية والوقائع الجارية والحوادث الماثلة فى أوربا منقولة عن صحف فرنسية وإنجليزية وألمانية ، وكانت هذه الدراسات تدق أحياناً على القارئين ، ورواية الحوادث فيها ميل واضح نحو السلطان أمير المسلمين .

برم الحكومة بسياسة الأهرام

ومع ذلك فإن الحكومة برمت بالأهرام وتحريرها ، وبعثت إلى صاحبها سليم تقلا تلفت نظره إلى تجاوزه الحدود التى رسمها له ترخيص الجريدة ، فكتب المحرر إلى « عزتلو مدير قلم المطبوعات الأفخم » يذكر له أنه تلقى تحذيره ، ويعقب على ذلك بقوله « فيا مولاى من يراجع مدققاً فى النمر الماضية من جورنال الأهرام يتبين له جليا بأننى لم أخرج عن جادة الصواب بما يتعلق بالأخبار الداخليه مطلقاً ، فإن ما كنت أنشره من وقت إلى آخر أنقله حرفياً عن جورنال الوقائع المصرية أو عن المونيتر اجبسيان[1] وكلاهما

(١) صدرت لومونيتور اجبسيان فى سنة ١٨٧٤ جريدة « يومية سياسية علمية تجارية وللاعلانات » ولكنها كانت صحيفة خبرية قبل كل شىء ، ولم يعرف عنها أنها صحيفة رسمية إلا فى سنة ١٨٨٠ ، ولكنها كانت موضع عطف الخديو إسماعيل وتقديره ، ورآها الفاضل والمواطنون صحيفة شبه رسمية — لا رسمية — فى

رسميان ، وأما ما يتعلق بالمواد السياسية فما كنت أنقل إلا على سبيل الاستطراد من الجرنالات الشهيرة الخالية من التعصب والمقبولة من الحكومة كالليفانت هرالد[1] والفار دالكسندرى[2] ، وسعادتكم تعرفون جلياً ما لى من الانقياد لأوامر الحكومة المحلية وما لقلمى من الكتابة بمدائحها صدماً للجورنالات العربية الخارجية التى تتكلم ذما كالجورنال الذى يطبع فى لوندره وغيره ، وعلى ظنى أن من تكون طويته هكذا لا يعامل معاملة مذنب وحكمتكم أدرى بملاحظتى وعلى كل فلا بد من التشرف بمقابلة سعادتكم فى وقت مناسب . . »[3].

فلم تكن هناك سياسة تضير المسئولين ، ولكن الحكومة فيما أعتقد هالها هذا الجديد الذى تضمنته مقالات السياسة الخارجية المنقولة أو الملخصة عن « الجرنالات الشهيرة الخالية من التعصب » ، فالليفانت هيرالد Levant Herald ولوفار دالكسندرى Le Phare d'Alexandrie صحيفتان أجنبيتان إذا دعتا للحكومة المصرية فليس يمنعهما شىء من أن تعرضا لمعانى الحرية أو تناقشا المسائل الدولية فى صراحة تؤذى من يخشى فهم الشعب المصرى لحياة الأمم والشعوب الأوربية ، وهى حياة فيها من الحرية والتطلع إلى المثل الجديدة الشىء الكثير ، لذلك هال مدير المطبوعات أن تترجم الأهرام أو تلخص عنهما بعض ما يذيعان من مبادئ ومعان رفيعة[4].

ولم يطمئن مدير المطبوعات إلى الحجج والتفاصيل التى كتبها سليم تقلا فى خطابه إليه .

ذلك العهد ، إذ تميزت بنشر الأوامر واللوائح والقوانين ، وأعفاها المجلس المخصوص دون الصحف الفرنجية جميعاً من رسوم البريد . (راجع فى ذلك تطور الصحافة المصرية للمؤلف ، طبعة ثانية ص ٢٢٤) وقد بقيت الصحيفة شبه رسمية حوالى عشر سنوات حتى صدر قرار باعتبارها جريدة الحكومة المصرية فى يناير ١٨٨٥ . (راجع فى ذلك الوقائع المصرية للمؤلف ص ٢٠٥ وما بعدها) .

(١) كانت الليفانت هيرالد صحيفة تصدر فى الآستانة ومحررها إدجار وينكر ، وكان يقوم فى صحيفته بالدعاية للخديو إسماعيل ، وعنها تنقل معظم صحفنا المصرية ، وكان محررها أيضاً وسيطاً من الوسطاء الذين وظفهم إسماعيل فى الدعوة لمصر وتمهيد الطريق لمشاكلها القائمة ، وكان يلق من ولى النعم التأييد المادى والأدبى سواء كان فى اسطنبول أو جاء إلى مصر .

(راجع محفوظات عابدين ، وثيقة رقم ٢٦ دفتر ١٩٧٩ ص ٣٦)

أمر إلى المالية — وحول الصحافة فى عصر إسماعيل للمؤلف ص ٩) .

(٢) أما جريدة لوفار دالكسندرى فقد بدأت خصما للخديو ورجاله فى سنة ١٨٧١ ، ثم عقدت الحكومة مع مديرها المحامى هايكاليس (باشا فيما بعد) اتفاقا لمدة خمس سنوات ينتهى فى ٣١ ديسمبر ١٨٧٩ وبمقتضاه تصبح الجريدة لساناً للسياسة المصرية ، وإن كانت هذه الجريدة بغيضة إلى نفوس المصريين .

(راجع تطور الصحافة المصرية للمؤلف ، طبعة ثانية ص ٢٢٢ و ٢٢٣) .

(٣) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول فى ١٠ أكتوبر ١٨٧٦

(٤) راجع الأهرام فى ٩ سبتمبر ١٨٧٦ و ٢١ أكتوبر ١٨٧٦

خارجية وحقانية ناظري دولتلو افندم حضرتلري

ان محرر جرنال الاهرام بالكندرية قد تجاوز الحدود المطلوبة بتداخله في الامور السياسية الغير جائز تداخله فيها وفضلا عن ذلك فانه تسبب بطبع جرنال يسمى بجرنال المذكور بدون اذن وحيث ان الذي يظهر لنا هو ان الاوفق كان عدم الترخيص لمحرر ذلك الجرنال بطبعه بدون المطلوب [illegible] فعل مطبعة لتجارة [illegible] المخالفة [illegible] ذلك [illegible]

[illegible] خارجية

وثيقة منقولة عن المطبوعات تبين رأى محافظ الإسكندرية فى جريدة الأهرام

عزتلو مدير قلم المطبوعات افندم

تشرفت [illegible] سعادتكم [illegible] فيا مولاي [illegible] في النمرة الاخيرة من جرنال الاهرام يتبين له جليا باني لم اخرج عن جادة الصواب بما يتعلق بالاخبار الداخلية مطلقا فان ما كانت انشره من وقت الى آخر انقله حرفيا عن جرنال الوقائع المصرية او عن المونيتور اجيسيان [illegible] واما ما يتعلق بالمواد السياسية فانها نقل [illegible] الجرائد [illegible] من التعصب والمقبولة من الحكومة [illegible] وسعادتكم تعرفون جيدا [illegible] من الكتابة [illegible] العربية الخارجية التي [illegible] يطبع في لوندره [illegible] في وقت مناسب [illegible] وفي جميع الاحوال [illegible]

[illegible] سليم

اسكندرية في ١٠ [illegible]

وثيقة منقولة عن المطبوعات فيها دفاع من سليم تقلا عن سياسته

وكتب محافظ الإسكندرية إلى الوزارة فى ٢٨ رمضان سنة ١٢٩٣ هـ يذكر لها ان محرر جريدة « البيراميد » بالإسكندرية قد تجاوز حدوده وغرق فى المسائل السياسية التى يأبى ترخيصه الخوض فيها ، ثم سمح لنفسه بأن يصدر « جرنال تلحيق للجرنال المذكور بدون إذن »[1] ويبين للوزارة أنه لم يكن مرتاحاً لأن يصدر آل تقلا جريدة الأهرام إذ « أن الأوفق كان عدم الترخيص لمحرر ذاك الجرنال بطبعه » وأن المخالفات التى صدرت عن جريدته تفرض على الحكومة أن تغلق مطبعتها « لتجاريه على المخالفة » . وقد كتب المحافظ بذلك إلى « خارجية وحقانية ناظرى دولتلو أفندم حضرتلرى » حتى يؤذن له « بمنع ذلك أفندم » .

إنذار الأهرام

وكتبت الوزارة بعد إلحاح المحافظ ومدبر المطبوعات إلى سليم تقلا إنذاراً جاء فيه « قد تعهدتم بأنه لا يطبع فى الجرنال المعروف باسم بيراميد أى الأهرامات الجاريين نشره باللغة العربية فى ثغر الإسكندرية سوى المواد العلمية والأدبية والتجارية . والآن حاصل من مدة منكم التشبث بدرج مواد سياسية وإدارية ، وبهذه الحيثية قد تعديتم حدود الرخصة التى منحها لكم الديوان حتى نشأ من هذا السلوك جملة تشكيات فى حقكم ، وحيث أن هذه الحالة المخالفة لكل من التعهدات المأخوذة عليكم ولقوانين المطبوعات الجارى عليها العمل لا يمكن تحملها فنبادر بالتنبيه عليكم بأن لا تشتغلوا من الآن فصاعدا إلا بالمواد المرخص لكم بالتكلم فيها ، ويجب عليكم أيضاً الامتناع والاحتراس من كونكم تطبعوا فى جرنالكم مواد سياسية سواء كانت محررة بقلمكم أو تكون منقولة من بعض الجرانيل كما ولا يسوغ لكم أن تشتغلوا بأخبار من هذا القبيل ولا بما يتعلق بإدارة البلدة وفى حالة عدم الإجرا والامتثال بدون تأخير لهذه التنبيهات فيصير اتخاذ الوسايل القوية فى حق الجرنال المذكور والمطبعة تعلقكم »[2] .

ثم لم يكتف محافظ الإسكندرية بذلك بل استكتب سليم تقلا تعهداً جاء فيه « قد تعهدت لديوان محافظة إسكندرية بأنه من الآن لا تدرج المواد الموجبة لتهييج الأفكار الأهلية عن أحوال الحروب الحاضرة بجرنال الأهرام وتسلك السلوك الحسن فى هذا الجرنال

---

(١) يظن أن ما قصده المحافظ هو « صدى الأهرام » فقد أصدرت دار الأهرام مثالا له فى أوائل سبتمبر سنة ١٨٧٦ دون استئذان وإن تأخر صدور الصدى وقتاً آخر ، فخشى المحافظ ظهور صدى الأهرام كجريدة ملحقة بجريدة الأهرام الأصلية

(٢) محفوظات الداخلية ، إدارة المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول فى ٦ نوفمبر ١٨٧٦ .

Selim Effendi Takla
Alexandrie

١٨٧٧

Monsieur,

~~[illegible]~~

Contrairement à votre engagement formel, que le journal "Les Pyramides", que vous publiez en langue arabe à Alexandrie, ne s'occuperait que de matières scientifiques, littéraires et commerciales, vous vous occupez depuis quelque temps de sujets [illegible] politiques et administratives. Vous avez ainsi dépassé les limites de l'autorisation que ~~[illegible]~~ le Ministère vous avait accordée et vous avez, par cette conduite, donné lieu à plusieurs réclamations contre vous.

Cet état de choses, aussi contraire à vos engagements personnels qu'aux règlements en vigueur sur la presse, ne pouvant pas être toléré, je viens vous inviter à ne vous occuper désormais que des seules matières que vous avez été autorisé à traiter. Vous devez vous abstenir donc de faire ou de reproduire des autres journaux des articles politiques, [illegible] vous occuper de nouvelles de [illegible] [illegible] touchant à l'administration [illegible]. Dans le cas que vous ne vous conformiez pas [illegible] [illegible]

ترجمة العربية

الى سليم تقلا افندي باسكندرية

قد تعهدتم بانه لا يطبع في الجرنال المعروف باسم بيراميد اي الاهرامات الجاري نشره باللغة العربية في ثغر الاسكندرية سوى المواد العلمية والادبية والتجارية والآن حاصل من مدة منكم التشبث بدرج مواد سياسية وادارية وبهذه الحيثية قد تعديتم حدود الرخصة التي منحوا لكم [illegible] حتى نشأ من هذا السلوك جملة تشكيات في حقكم وحيث ان هذه الحالة المخالفة للتعهدات المأخوذة عليكم ولقوانين المطبوعات الجارية عليها العمل لا يمكن تحملها فبادرنا بالتنبيه عليكم بأن لا تشتغلوا من الآن فصاعداً الا بالمواد المرخص لكم بالتكلم فيها ويجب عليكم ايضاً الامتناع والاحتراس من كونكم تطبعوا في جرنالكم مواد سياسية سواء كانت [illegible] بقلمكم او تكون منقولة من بعض الجرانيل كما ولا يسوغ لكم ان تشتغلوا باخبار من هذا القبيل ولا ما يتعلق بادارة البلاد وفي حالة عدم الاجراء والامتثال بعد هذه التأكيد لهذه التنبيهات فيصير اتخاذ الوسائل القوية في حق الجرنال المذكور والمطبعة نعلمكم

[illegible]

نص التهديد الذي تلقاه سليم تقلا من المسئولين نقلا عن إدارة المطبوعات

وتتجنب ما فيه التهويل عن الأحوال الحاضرة ، وإذا كان بعد الآن لا نصغى لهذه التنبيهات فلديوان الخارجية إبطال ومحو جرنالنا بدون أدنى عذر »[1].

وبعث المحافظ فى اليوم التالى — أى فى يوم ٨ ذى الحجة — إلى « دولتلو أفندم حضرتلرى » يذكر له أنه أخذ تعهداً على « صاحب جرنال الأهرام » بعد إنذاره « بعدم حصول ذلك وإن كان بعد الآن لا يصغى لهذه التنبيهات فلديوان الخارجية إبطال ومحو الجرنال المرقوم بدون أدنى عذر » ثم بعث المحافظ إلى دولته بالتعهد الذى أمضاه سليم تقلا[2].

دولتلو افندم حضرتلري

انه ينبغي تذكر دولتكم فقد اخذنا الخواجه سليم تقلا صاحب جرنال الاهرام وبعد الانذار اللازم والتأكيد عليه بعدم درج امور مهيجة للافكار الاهلية بجرناله والتلغرافات الجاري طبعها عن الاحوال الحاضرة فقد اخذنا عليه تعهد بعدم حصول ذلك وان كان من بعد الان لا يصغي لهذه التنبيهات فلديوان الخارجية ابطال ومحو الجرنال المرقوم بدون ادنى عذر. فلذلك تحرر لدولتكم بطيه التعهد المذكور افندم في ٨ الحجة سنة ٩٦

خطاب المحافظ عن التعهد الذى وقعه سليم تقلا

(١) المصدر السابق

(٢) وزارة الداخلية ، محفوظات المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢

ذكرنا موقف الحكومة من الأهرام لنبين فى أى جو كانت الصحف تؤدى رسالتها ، فالأهرام تنذر على مقالات عربتها أو لخصتها وليس فيها أى إيماءة تسىء إلى المسئولين اللهم إلا إذا كان الحديث عن حياة الدول الغربية ومثلها الجديدة يعتبر عند الحكوميين إهانة لهم توجب الإنذار وتستدعى كتابة التعهدات ، وقد بقيت الأهرام تصدر فى هذا الجو من التضييق سنتين وسيف الإرهاب مصلت عليها حتى إذا بدأت سنتها الثالثة ذكرت ذلك فى صراحة تامة ولم تعرض من قبل إلى نقد تصرفات الحكومة معها ، فقالت بمناسبة دخولها فى سنتها الجديدة « فاتخذنا الحقيقة فى الأخبار دستوراً ولم نبال بما اضطهدنا ولا نزال نضطهد لأجلها فإن ذلك أحب أمر لنا »(١).

وقد بدأت الأهرام معالجة الشؤون السياسية الداخلية معالجة صريحة منذ ١٨٧٨ ، وفى أسلوبها شىء من الشدة وفى معانيها شىء من البسط والاستطراد ، وهى آراء جديدة تأبى الحكومات الشرقية إلا أن تكون مستخفية لا تفصيل فيها ولا بيانات ، وكانت الأهرام تعمد إلى المقارنة دائماً حينما تعالج موضوعاً من الموضوعات ، تقارن دائما بين مصر والبلاد الغربية ، فقد بحثت أمر الضرائب فى مصر فجعلت عنوان موضوعها « شرق وغرب » وأخذت المقارنة تتسع حتى استغرق المقال الصفحة الأولى كلها وهى تبشر المصريين بأن النية قد اتجهت إلى وضع نظام للضرائب « فليس ثمّ عصا ومقرعة وامتهان واحتقار وتعذيب . وإن ابن اللغة العربية يعامل معاملة سواه بالرفق والحق . وأن المجالس تنتظم وتتروى حقوق العباد ولا يعود للرشوة مجال . . . »(٢).

معالجتها المسائل السياسية

وقد دلفت الأهرام فى أواخر سنة ١٨٧٨ إلى مناقشة المسائل السياسية فى حماس قل أن يشاهد مثله فى الصحف الوطنية الأخرى ، وهو حماس نقلها من الوسط إلى اليسار فى المعارضة نقلالم يؤثر عن الأهرام فى حياتها جميعاً ، فصفتها الغالبة عليها تمثيل الاتجاه المعتدل وأخذ الأمور فى هوادة ورفق ، ولم يخرجها هذا الاندفاع ، عن المألوف فى أدب الصحافة الرفيع ، فقد كان اندفاعاً يسيل الدم ولا يجرح كما تقول الأمثال . كتبت فى شهر ديسمبر ١٨٧٨ مقالا بعنوان « مصر وعصرها الجديد » قدمت له بخطاب إلى الوالى — ولعلها تقصد إسماعيل — « اعلم أيها الوالى أن الملك بمنزلة رجل فرأسه أنت

(١) الأهرام فى ٢ أغسطس ١٨٧٨
(٢) الأهرام فى ١٥ نوفبر ١٨٧٨

وقلبه وزيرك ويداه أعوانك ورجلاه رعيتك وروحه عدلك » ، ثم ختمت بخطاب للمصريين جاء فيه « فيا أبناء هذا القطر أو بالحرى يا أبناء العرب نسل أولئك الذين طأطأ لهم السماك وخضعت لهم الشوامخ ، لقد حان لكم أن تعلموا أن الراعى لكم ولستم للراعى ، غابت الحرية عن ربوعكم حيناً من الدهر فسلبتكم فخركم وهدمت أبراج عزكم . دنتم للظلم رهبة وإهمالا فذللتم وقد زللتم واستولى الخوف على أفئدتكم فأخذ منكم كل مأخذ . الإنسان أشرف الخليقة وله شرف الحقوق فكيف لا نعيش عيشة الإنسان وكيف لا تكون لنا حقوقه . . . انبذوا الخوف جانباً وقاوموا بدرق الحكمة والشجاعة سيوف الظلم ، لا تخشوا سطوة مدير أو عامل أو حاكم وأنتم أبرياء . . . حافظوا على كرامة البلاد وشددوا على حفظ كرامتكم . لا تهابوا من يروم إبعاد الحق ولكن تهيبوا الحق . . . ستعدل عليكم الضرائب والعوائد وتقرر ، فلا تمنعوا دفع ما عليكم ولا تدفعوا درهماً غير مقرر عليكم . لا يأخذكم الشيخ بسوطه والعامل بصوته والعمدة بعدته . انبذوا عنكم ذلا قد استحوذ . وليعلم الفلاح أنه أفضل عامل فى الأرض وأن ما له من الحقوق لا ينبغى أن يفقد منه مثقال ذرة » . ولم تخل هذه المقالة التى استغرقت صفحة كاملة وغلبت عليها الحدة من دعاء للخديو إسماعيل وأسرته الذى جعل المسئولية الوزارية قاعدة حياتنا السياسية ، ثم جاء فى ختام المقال « نيلنا عجب وأرضنا ذهب وخديوينا أعدل من غلب »[1].

وهذا الأسلوب الأدبى الممتاز يحمل شيئاً من الحدة بيد أنه يصور مدى الحرية التى بلغتها الصحافة المصرية عقب تقرير المسئولية الوزارية ، واستعداد الوزارة الجديدة لاستقبال جميع شكاوى المواطنين ، لذلك كتب الأفراد يشكون ، وأعلنت الصحف حاجات الشعب وتحدثت عن رغباته فى حرية منقطعة النظير ، تحميها الحكومة الجديدة التى كانت تريد أن تصور مآسى الشعب حين ألقيت أموره إلى فئة قليلة غير مسئولة ، وفى ذلك تحدثنا الأهرام فى إحدى مقالاتها « لقد حان والله لنا أن نرتشف من كأس الرحمة خمرة العدل ، فإن صاب الظلم قد رشفناه طويلا فأساء حالتنا ونكد عيشنا وسد فى أوجهنا طرق السلام ، وأعدمنا لذة الراحة وأفقدنا حقوقنا الشرعية ، ورمانا على شوك القتاد وقلبنا على جمر الغضا . فلا والله يطيب لنا عيش فى جانب الظلم ، ولا يستقيم لنا أمر ولا نرضى العود إلى حالة يجلب لنا ذكرها من الغم غايته ، ونعجب كيف أننا رضينا بها وفينا بقية من تلك الأريحية العربية والنخوة الجاهلية »[2].

---

(١) الأهرام فى ٢٥ ديسمبر ١٨٧٨

(٢) الأهرام فى ٣١ ديسمبر ١٨٧٨

دفاعها عن الفلاح

والذين يؤرخون للاهرام فيذكرون صداقتها لفرنسا ينسون أن هذه الصداقة لم تؤثر قط فى وفائها نحو الوطن إذا جد الجد ، وأقرب الأمثلة على ذلك أن الحكومة التى ضمت المسيو بلينيير وزيراً للأشغال فيها ، رأت فى شئون الضرائب نحواً لا يروح عن المواطنين فهاجمت الأهرام تلك السياسة فى مقال طويل جاء فى ختامه « . . . وكيف نطلب إحياء صناعة لترويج سوقها فتثرى الأهلون وتتم نقصك من ملأهم وأنت تلقى على الصناعة ضرائب تدعو أربابها إلى تركها لئلا يشتغلوا لسواهم دون أجرة . وهلا يترك ذلك الزارع زرعه إذا رأى أن ما يشتغل به آناء الليل وأطراف النهار ويتحمل لأجله البرد والحر والتعب والنصب يكون نصيب تلك الضريبة وهذه العوائد . وهلا تتذكر صدى أصوات الأهلين ضاجين مشتكين من ظلم الدخولية التى سلبتهم مالهم . . . فمثل هذه العوائد والضرائب يجب أن يلغى بعضها إلغاء ويعدل بعضها تعديلا ثم يقتضى الالتفات إلى ما تتطلبه البلاد من الإصلاح العائد بالنفع والفائدة فإن الأهلين ينتظرون ذلك بفروغ صبر ، وقد علموا ما وراء الإهمال من التأخر والخلل ووجهوا النظر إلى الوسائل التى تفيدهم وهى ما وعدت بها الوزارة ونشرتها الجرائد »[1].

ومع أن الأهرام كانت على ود أصيل بالأمير توفيق ولى العهد ورئيس الحكومة المصرية ، وإليه يعود فضل حماية دار الأهرام من الخديو إسماعيل كما سنبين ذلك فيما بعد ، فإنها لم تتردد فى الحديث عن مجلس النواب والوزارة المصرية حديثاً شعبياً يتبرم له أصحاب المدرسة القديمة وعلى رأسهم الأمير توفيق ورياض باشا ، فتذكر مكان مجلس النواب من حياة الأمم ثم تقول « ويسوؤنا والله أن نرى هذا المجلس عديم الحقوق والنظام مع ما له من الأهمية ، بل يسوؤنا أن نرى الحكومة متغاضية عن تأييد حقوقه ، هذا إذا لم نوجه مطلق اللوم عليه لأنه تهامل وأغضى عن طلب ما له وارتضى بأن يفقد أجل لوازمه ، أعنى الحرية التى عليها معول أمره فهو المشخص الأمة والمدافع عنها ووكيلها والذائد عن حوضها »[2].

معالجتها الجريئة للمالية المصرية

ثم يعالج الكاتب حالة المالية المصرية بعد تكوين وزارة توفيق باشا فيحمل – كما

(١) الأهرام فى ٣١ يناير ١٨٧٩
(٢) الأهرام فى ١٣ مارس ١٨٧٩

كانت تحمل صحف الوطن والتجارة وغيرهما – على العهد السابق فى صورة محاورة بين القطر والحكومة ، فيقول القطر المصرى لحكومته « سلبتنى مالى ، أفقدتنى ثروتى ، أعدمتنى وسائل الفلاح وحملتنى ما لا أطيق فسقطت تحت ثقل الأحمال ، وقد وعدتنى بتخفيفها لأستطيع النهوض وأتقوى رويداً رويداً فأتمكن إذ ذاك من القيام بالحمل الأول وآتى بك إلى ساحة الراحة فنغتنم العيش الرغد ، ونحتسى صهباء السرور فلم أر لذاك الوعد انجازاً . . . »[1]. فإذا ضغطت الحوادث واضطرت أعضاء لجنة التفتيش الأجانب إلى الاستقالة وتغيير الوزارة فإن « من أحكام المبادىء العامة أن رأى الأمة واجب الاتباع وواجب الاحترام . أما وجوب اتباعه فلتفت إليه بالنسبة إلى حاكم تلك الأمة . وأما وجوب احترامه فمنظور إليه بالنسبة إلى الحكومات الخارجية سواء كان لها معها علائق أو لم يكن . وأنت تعلم أن التعبير الأخير الذى طرأ على هيئتنا السالفة كان معلولا عن الأمة . فحاكم البلاد إذن مضطر إلى اتباع رأى الأمة وقد فعل ، والحكومات الأخر مسئولة أن تحترم هذا الرأى إذا كان ثم عدالة ولكنها إلى الساعة لم تفعل ولعلها تفعل »[2].

الأهرام وسجن بشارة تقلا

ثم تمضى الأهرام ناقدة تصرفات المسئولين سواء فى أخبارها أو مقالاتها أو برقياتها تعاونها فى ذلك شقيقتها اليومية (صدى الأهرام) التى كان أسلوبها غاية فى الشدة والقسوة ، والتى كان يشرف على تحريرها بشارة تقلا . فكتب مقالا بعنوان « ظلم الفلاح »[3]، حمل فيه على تصرفات الخديوى المالية ، وكانت الحكومة ترقب لآل تقلا أهون الأخطاء فصدر أمرها بالقبض على الشقيقين وإغلاق صحفهما ومطبعتهما ، فأما الشقيق الأكبر سليم تقلا فقد هرب إلى القنصلية الروسية – لا الفرنسية كما هو المتواتر – وقبض على الشقيق الأصغر بشارة تقلا عدة أيام ، ولكن هذه الأزمة لم يطل أمرها لأن القنصل الفرنسى من ناحية ، والأمير توفيق باشا ولى العهد من ناحية أخرى توسطا فى الأمر عند ولى النعم ، فقد كتب المسيو جازو Gazeaux قنصل فرنسا إلى باروت بك فى ٣ مايو ١٨٧٩ يذكر له أن « بشارة تقلا صاحب جريدة الأهرام سجن بعد مقالتين ، إحداهما عن سفر رياض باشا إلى أوربا ، والثانية عما يشاع من أن الخديو احتجز مائة ألف جنيه استرلينى » ، ثم

(١) الأهرام فى ٢٧ مارس ١٨٧٩
(٢) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٨٧٩
(٣) تاريخ بشاره باشا تقلا ص ١٤٢

دولتلو ناظر سعادتلو أفندم حضرتلري

ليس بخاف ما تعودت عليه بعض الجرائد من التدخل في الأمور السياسية والقدح بأوجه في دواوين ومصالح الحكومة وأرباب الوظائف صغاراً كانوا أو كباراً من دون تحقيق ومن ارتشاء وسيما جريدة الأهرام وصداها إدارة الجوائب تسليم نقلاً فإنها في الغالب لا تخلو من هذه الأنواع ومع أنه بناء على ما سبق درجه في بعض نسخ الصدى مما لا يليق قد تقرر من إدارة المطبوعات بتوقيفه مدة خمسة عشر يوماً وكان المأمول أنه بذلك تحسن الحالة وينكف عما لا يعنيه لكنه مع ذلك في الصدى الذي أصدره صاحب الأهرام من بعد انقضاء التوقيف قد درج في نسخته عبارة صريحة بالطعن في حق الحكومة ونسبتها للتساهل وعدم رعايتها لحقوق العباد وتجاوز بأن جعل ذلك في قالب مستهجن لا ينبغي ذكره فضلاً عن نشره كما يستبان من الطي وبما أن ذلك مما لا يجوز الإقدام عليه على أن المسائل التي بني عليها القدح لم يثبت بصحتها كلياً ولا حصل ارتباك ولا إجحاف في حقها للدرجة المستلزمة وأما نفس الدعاوي هم الذين أوقفوا سيرها للتأني لعدم حضورهم لإقامة دعاويهم وبأنه من نتيجة ما يستلزم عليه لمحو اللازم إذ كانت دائرة محاكم عمومية وبابها على الدوام مفتوح وليس لها ملاحقة كما أنه واضح من نفس المقالة ما يدل على عدم التساهل من جهة الحكومة في شيء وبهذه المناسبة ما كان ينبغي لمدير الجريدة إرداف ذلك بالأقوال الغير لائقة ولو أنه ناسب ذلك لديه حسبما لديه إلا أنه لا يعتذر فيه حيث كان الواجب عليه التحاشي عما لا يجوز إعلانه ومراعاة ما هو من خصائصه فبناء عليه ذكر لزم العرض لسعادتكم وإرسال نفس النسخة المذكور بها العبارة للنظر وإجراء ما تقتضيه استنساباتكم أفندم

[illegible]

وثيقة تبين إلى أي مدى كانت إدارة المطبوعات حساسة ولا تطيق صبراً على أي نقد يوجه للحكومة ، ويبدو من هذه الوثيقة كيف كان المسئولون فى المطبوعات يدفعون وزراء العهد إلى التضييق على حرية الصحافة

يقول القنصل « إنه ليس من حق التداخل فى مسألة بشارة تقلا ، ولكننى أظن أنه من الفائدة أن نعرض على صاحب السمو أن هذا السجن له آثاره السيئة . . . كما أنه يخالف الأفكار الحرة التى تدعيها الحكومة المصرية الحاضرة »[1]، ثم تدخل الأمير توفيق لدى والده ، فنزل عند رجائه وأطلق سراح بشارة تقلا[2].

عودتها إلى الظهور

وقد أبدت الأهرام فى غير موضع إكبارها للأمير توفيق سواء كان ذلك قبل إغلاقها والقبض على صاحبها أو بعد ذلك حين اشتدت الأزمة وبلغ الأمير الأريكة الخديوية فى ظروف غاية فى الدقة والحرج ، وكان عندها دائماً « الجيد الصفات الحسن الأخلاق الصادق النظر[3] »، وقد استطاع سموه أن يغنى صاحبى الأهرام من متاعبهما بالتوسط لهما عند أبيه ويقف أمر محاكمتهما ثم ينتزع لهما الموافقة بصدور الأهرام من جديد وإن عجز عن التصريح بصدور صدى الأهرام ، فقد كتبت إدارة المطبوعات الأهليه إلى صاحب الأهرام تنبئه أنه « تقدم فى ١٠ جماد أول سنة ٩٦ نمرة ١٣٥ أعلناكم ضمناً عن لزوم توقيف نشر جريدة الأهرام موقة (يقصد مؤقتاً) لحين أن تنتهى محاكمتكم بسبب ما توقع وحيث الآن عنى عنكم وصرف النظر عن المحاكمة فلا مانع والحالة هذه من إجرى إعادة نشر الجريدة المذكورة فقط كما كانت فبناء عليه اقتضى تحريره بالإشعار فى ٢١ جماد أول سنة ٩٦ »[4].

ولم يقف فضل ولى العهد عند الإفراج عن صاحبى الأهرام وجريدتهما ، بل مكن لأحدهما — بشارة تقلا — من لقاء الخديو إسماعيل وكتب فى ذلك بشارة تقلا مقالا جاء فيه وصف لمثوله بين يدى ولى النعم « لما تشرفت بهذه الأثناء بتلك الحضرة الخديوية السنية الجلى وفزت بالرضى العالى تذكرت بأن معاملة الراعى الصالح لرعيته تحاكى معاملة الأب الشفيق لابنه العزيز ،وهذا ينطبق على ما كان من أمرى ، فإن سموه قد تنازل بتوجيه الالتفات أكثر من السابق ، ورمق بطرف الرضى والقبول كرماً وفضلا فكان مصدقا لما قيل من أن رحمته قد عاهدت غضبه فليس ثم انفكاك »

---

(١) مخطوطات عابدين التاريخية Dossier 45/2 .

(٢) ذكر لى قصة تداخل الخديو توفيق وهرب سليم إلى القوضية الروسية ، المرحوم جبرائيل تقلا باشا .

(٣) الأهرام فى ٢٧ فبراير ١٨٧٩

(٤) وزارة الداخلية — مخطوطات المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ جزء أول فى ١٢ مايو ١٨٧٩ .

ثباتها فى الدفاع عن الحريات العامة

وفى نفس هذا العدد كتب سليم تقلا مقالا عن حالتنا يبين سياسة الجريدة الجديدة وهى هى نفس السياسة القديمة إذ أن « كل خراب إنما هو ذريعة لعمران . وكل ظلم ليس إلا مدرجة لاستتباب عدل . وكل عبودية هى مستعقبة لحرية . وكل قيد هو متضمن لإطلاق » ، وهو يصور بذلك حادث الأهرام وهربه وحبس شقيقه والفراغ من ذلك كله كأن لم يكن « لا يظن ظان ولا يتوهم متوهم أن ما ألم بنا فى هذه الأيام الأخيرة ، وما انتابنا من النوائب يورث همتنا فتوراً أو يكسب نفوسنا ضعفاً أو يعدل بنا عن جادة الاستقامة بل لا بد أن يتيقن أن هذا الملم قد زاد هممنا ارتفاعاً ونفوسنا علواً وعزمنا ثباتاً وهدينا استقامة وثبت جأشنا وأيد حزمنا وأوضح لنا سبل الوصول إلى استكمال سيرنا الحق الأول ، ولولا قطعنا لتلك العقبة، وجوبنا لتلك المفازة لما كنا نصل إلى هذا المقصد الأسنى والمطلب الأسمى . وسيرى كل مطلع على جرائدنا ما يدل على صدق مقالنا بأقوى حجة وأوضح دليل وأقوم سبيل . . . ومع كل ذلك فإننا نبث الشكر وننشر طيب الذكر ، ونثنى ثناء الحق على حضرات الأماجد والأماثل الذين ساعدونا على طى تلك الشقة وخلصوا بنا إلى ساحل تلك الغمرة قياماً بحق الإنسانية وسعيا فى نشر نور الحرية الذى لا تنبت أشعته إلا من شموس الجرائد »[1].

ولم يبد على الأهـرام أى تخاذل فى الدفاع عن الحريات العـامة « والحكومة الشورية »[2]، ولم تترك قصة السجن أى أثر فى توجيه الجريدة غير وجهتها اللهم إلا ملاحظة ، لها وزنها واعتبارها فى تاريخ الأهرام وخاصة فى الثورة العرابية ، وهذه الملاحظة هى إكبار الخديو توفيق ومدحه والثناء عليه فى إيمان الواثق بما يكتب ويقول ، فإن مشاكلنا عند الأهرام محلولة بحسن طالع هذا الخديو الجديد « وليس يخاف أن مشاكلنا الحاضرة كلية وصعوباتنا عديدة وليس من سبيل إلى إزالتها إلا حكمة توفيقنا . . . فلا تقنط أيها الوطنى فسترى عما قليل مطلق ما تمنيت ، وتعلم أن الله عاهدك بالتوفيق فكان لوطنك خير توفيق »[3].

وفيما عدا ما ذهبت إليه الأهرام من تقدير الخديو توفيق ، واعترافها بيده بقيت

---

(١) الأهرام فى ١٥ مايو ١٨٧٩
(٢) الأهرام فى ٢٣ مايو ١٨٧٩
(٣) الأهرام فى ١٠ يوليو ١٨٧٩

تتحدث فى الشئون العامة دون التفات إلى قانون المطبوعات أو الرضوخ إلى العنت والإرهاب ، حتى لم يعجب أسلوبها شريف باشا ناظر النظار الجديد على ما كان عليه من سعة الأفق وواسع الصدر وتقدير حرية الصحافة ، فأمر بإغلاق « الأهرام والوقت » ، ثم رجع عن هذا الإغلاق فى نفس اليوم وأحسب أن للخديو توفيق دخلا فى الرجوع عن إغلاقهما ، بما كان يحدب به على صاحبى الأهرام من سابغ العطف(١) ، فقد عرف أن علاقة الشقيقين بالخديو الجديد — وخاصة بشارة تقلا — كانت علاقة وثيقة حتى قيل إنه كانت لبشارة رسالة فى أزمة الخديو إسماعيل كان فيها سفيراً لتوفيق بينه وبين بعض الجهات وأدى واجبه أحسن أداء(٢) ، ثم هاجم صاحبا الأهرام الباب العالى حين تلكأ وحبس فرمان التولية ، وأشارت الأهرام إلى تهديدات الدول للسلطان وخسارته الأدبية الفادحة إن هو أصر على إهمال تنفيذ الفرمان الصادر عام ١٨٧٣ حتى جاءت « البشرى » بفرمان التولية كما سمتها الأهرام(٣).

وقد نطيل لو أردنا أن نعطى صورة لما كان بين الأهرام والخديو توفيق من صلات فكل عدد من الأعداد التالية لارتقائه عرش مصر نقرأ شيئاً فيه كثير من تمجيد ذاته والإعلان عن أفضاله ، حتى أن بشارة كتب فصلا عقد فيه مقارنة بديعة بين « توفيق الأول خديو مصر وفكتور عمانوئيل ملك إيطاليا » موجها كلامه للقارىء « هذه كانت حالة إيطاليا وتلك أعمال ملكها ، فشخص حالة القطر المصرى مقابلا ولا تظن أن سيكون لك من أميره أقل مما أتاه فكتور عمانوئيل . . . فلا تقنط من بؤس الحالة ولا تيأس من إصلاح الشئون فقد أتاحنا الله أميراً عزيز الجانب سمير الحزم يقدر الرجال قدرها ويعلم أنه مبتكر الإصلاح . . . » (٤)

وفاؤها للخديو ودفاعها عن الحريات العامة

هل أثر هذا الوفاء للخديو توفيق على اتجاه الأهرام فى المسائل العامة ؟ هل نقلها الإعجاب بتوفيق إلى حظيرة الرجعيين خصوم الحرية والدستور ؟ هل دفعها الاعتراف بالجميل لصاحب الجميل إلى مخاصمة الثورة العرابية ؟ كل هذه الأسئلة ينتظر التاريخ عليها الجواب الصحيح ، فأما اتجاهها نحو المسائل العامة فلم يتغير أو يتبدل ، وبقيت الأهرام بالرغم من إعجابها

(١) التجارة فى ٨ يوليه ١٨٧٩
(٢) تاريخ بشاره تقلا باشا ص ٨٦ ، ٨٧
(٣) الأهرام فى ٣١ يوليو ١٨٧٩
(٤) الأهرام فى ١١ ديسمبر ١٨٧٩



سعد زغلول باشا

بتوفيق خير مدافع عن الدستور « فلا بد من الوصول إما إلى الدستور أو إلى الملاشاة ، ولا يمكن الحصول على الأول إلا بقيام رجال راسخى أقدام ذوى نزعة حرة يدعمون قوام الحرية بدعائم ثابتة لا تقوى على مسها زوابع الأغراض فيشدون إزر البلاد بروابط وقوانين ترفع مكانتها »[1] . أليس هذا حديثاً قويا إلى جانب الدستور والحياة الحرة ؟

موقفها المعتدل فى ثورة عرابى

أما الثورة العرابية وموقف الأهرام منها ، فقد سارت الصحيفة معها لم تسىء إلى نشاطها ، ووقفت إلى جانبها فى أدق الظروف وأحرجها ، فإذا روت مثلا حادثة الضباط « على فهمى وأحمد عرابى وعبد العال » وشكواهم من عثمان رفقى لم تسىء فى روايتها إلى أحد ، بل تسعى إلى التهوين من الإشاعات السخيفة التى ذكرها المغرضون فى مصر والخارج فتقول : « ومهما يكن من المسألة فليس هناك ما يبعث على الاضطراب والقلق ، فإن حكمة سمو الخديو واهتمام الهيئة الحاضرة وتهذيب التنظيم العسكرى تؤدى إلى النتائج المرضية بتأييد الحقوق وحفظها ورعاية واجب القانون[2] » . ولم يطلب أولئك الضباط العظام إلا تنظيم العسكرية وإعطاء المصريين حقهم ورعاية القانون فى حياتهم .

ولم تغفل مسائل العرابيين ، حتى أصغر أخبارهم عنيت بها وأبرزتها ، وكانت تنفى عنهم دائماً فكرة الفتنة والثورة ، ثم تحتفل بخطب عرابى فتلخصها تلخيصاً بديعاً ، من ذلك ما نشرته عن « ملخص خطاب حضرة عزتلو أحمد بك عرابى مير ٤ جى بيادة بمجلس الأنس المنعقد بديوان نظارة الجهادية فى ليلة الأحد الموافق ٢٥ جماد أول سنة ١٢٩٨هـ »[3] .

فإذا أخذت الثورة طريقها واستطاع الرأى العام العسكرى والمدنى أن يؤثر فى توجيه الحوادث حتى يختار الخديو شريف باشا ناظراً للنظار استقبلت الأهرام وزارته استقبالا حسناً وكتبت تصف لقاء الناس لها « قدم إلى مقامه العدد العديد من وطنيين وأوربيين مهنئين دولته باستلام زمام رئاسة النظار ومتوقعين إصلاح الحال على المنهج الأقوم والسبيل الأعظم »[4] . وتقول فى يوم آخر واصفة ما ينتظره الشعب من شريف باشا ولا ريب فى أن سيتم كل أمر بترتيب من باب وضع الشىء بمحله بناء على ما يعهد بحضرات أعضاء الوزارة الجديدة من علو الهمة كما دلتنا خداماتهم السالفة ، وترى دولتلو شريف

(١) الأهرام فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠
(٢) الأهرام فى ٣ فبراير ١٨٨١
(٣) الأهرام فى ٢٨ أبريل ١٨٨١
(٤) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٨٨١

باشا مجتهداً فى إنجاز ما يقتضى على الوجه الأحسن والطريقة المثلى »[1] . ثم تصور رأى الأجانب فى الرئيس الجديد بقولها « ولقد قابل المسيو ماليت دولتلو رئيس النظار فلقى منه شهما متوقد الفكرة جليل المقاصد حسن النوايا »[2] .

هذا ما استقبلت به الأهرام شريف باشا صديق العرابيين وممثل وجهة النظر الوطنية الدستورية ، ولم تقصر استقبالها على ما يبعث به مراسلها من القاهرة ، بل كتب إليها بشارة تقلا من لندن عن الوزارة الشيء الكثير ، وفيما كتبه ما يؤيد حسن الصلة بين الثورة ومدير الأهرام ، فلم يكن صحفينا فيما كتب مؤيداً للوزارة فحسب ، بل كان داعية لشريف أيضا ، وإن كانت دعاية هادئة رصينة ، إذ نشرت له الأهرام تحت عنوان « حادثة مصر » فصلا حدثنا فيه بشارة عن أقوال صحافة أوربا المختلفة فى حوادث مصر الأخيرة ، ثم كتب يصف رأى أصدقاء مصر فى انجلترا « واستحسن كلهم ما آلت إليه المسألة ، وكان فى لندن وباريز للوزارة الجديدة حسن الوقع كما رأيت بعينى وسمعت بأذنى خصوصاً إذا قام دولتلو شريف باشا بما عهد إليه ولا نظنه إلا قائماً فالبلاد والأمة وسمو الخديو وأوربا شاخصون إليه وجميعهم يعضدونه ، ولسنا نشك فى أن المسئولية كبيرة ولكن الوطنية تكسر عصا المشقات وتسحق المضادات . نعم إن البعض لا يرى فى المسألة إلا هجوعاً ثم لا نلبث أن نسمع لإيقاظها دوياً أما أنا فأقول إن ذلك يتبع منهج سير الوزارة والخديو فإنى لست أرى دواء شافياً إلا الإخلاص المتبادل والنظر فى صالح الأمة والبلاد لأنه إذا حدث حادث فى مصر فلا يقال « زيد » بل يقال مصر . أهل مصر إلخ . وقد اجتمعت ببعض محررى الجرائد الأولى فى لندن كالداليتيوز وغيرها وبينت لسائلى وضوح المسألة لأننى كنت أراهم يقضون على الجميع ويرون بدولتلو شريف باشا رجلا فرنسويا وقلت لهم ما شريف باشا إلا رجل مصر يحفظ بلاده أولا ويحافظ ثانياً على مصالح الأوربيين حسب أهميتها بالعدل وكم من سنة خدم الحكومة ولم يسمع عنه ما يشينه فإنه مستقيم عفيف النفس»[3]

والذين يعودون إلى جريدة الأهرام فى السنة السابقة للحرب بين العرابيين والإنجليز يدهشون حين يرون التاريخ يروى نبأ الخصومة العنيفة بين الأهرام والعرابيين ، فإن الثورة العرابية لقيت فى مقدماتها الهادئة ، أى حين كانت شئون مصر ملقاة إلى شريف باشا ، استقبالا حافلا من صحيفتنا ، فهى دائبة الحديث عن تنقلات رجالها مدنيين وعسكريين :

---

(١) الأهرام فى ١٩ سبتمبر ١٨٨١
(٢) الأهرام فى ٢١ سبتمبر ١٨٨١
(٣) الأهرام فى ٢٣ سبتمبر ١٨٨١

واصفة حفلات التكريم التى اقيمت لهم[1] ، ناشرة خطب عبد الله نديم خطيبهم[2] ، ذاكرة الكثير عن مهرجاناتهم[3] وهى لا تكتفى بالرواية بل لها فى مقدمات ما تكتب أو فى ختامه تعليقات يتضح المدى الواسع الذى آزرت فيه الأهرام عيون الثورة وزعماءها فقد دعا الأستاذ الشيخ على العلايلى إلى حفلة تكريمية لعبد العال حلمى أحد الضباط العرابيين ، ورد هذا الضابط التحية بأحسن منها فكتبت الأهرام تصف ذلك بقولها « ولما رأى حضرة عزتلو عبد العال بك حلمى أن حبه الوطنى صادف أناساً نشأوا بالغيرة وتغذوا بلبان النخوة لم يغفل عن إظهاره لهم محبته الأكيدة . . . . »[4] . وليس يطلب من صديق صحفى أكثر مما أعطت الأهرام من توجيه واتجاه .

حسن استقبالها لمجلس النواب

وإذا أجريت الانتخابات لمجلس النواب ، وانعقد المجلس — وهو وليد الحركة العسكرية واليقظة الشعبية — استقبلت الأهرام يوم افتتاحه استقبالا رائعاً فقالت « هو عيد الحرية وقد نشرت راياتها فى حزون البلاد وسهولها ، هو فرح الأهالى فقد تهلل به شبانها وشيوخها ، هو مدرجة العز وباب التمدن ، هو فاتح كنوز النجاح » ثم تصف المدعوين وملابسهم ونياشينهم ، وتعرج خاصة على وصف « الفسحة الخارجة » حيث كانت هناك « فرقتان من برنجى آلاى من العساكر ، وكانت الموسيقى تعزف بألحانها الشجية والجنود طائعون إمرة حضرة أمير الآلاى المذكور عزتلو على بك فهمى الذى كان مع حضرة عزتلو عبد العال بك مطمح أنظار الجمهور »[5] . وفى ذلك تحية خفية لضباط العرابيين فى عيد الدستور .

وتمضى الثورة من نصر إلى نصر ، والعرابيون فى مقدمتها يجنون ثمارها ، والصحف فى أكثرها موالية لهم ، وكذلك كان شأن الأهرام التى كانت فى مقدمة المناصرين وإن لم تكن صحيفة ثورية (كالطائف) مثلا ، فإذا استقبل الخديو توفيق أحمد عرابى بك بمناسبة تعيينه « وكيلا للجهادية » أى وكيلا لوزارة الدفاع ، صورت الأهرام ارتياح الناس لهذا الاختيار ، وإقبالهم « على مقام حضرة البك المومأ إليه » ليعلنوا عن سرورهم ورضائهم .

(١) الأهرام فى أول أكتوبر ١٨٨١
(٢) الأهرام فى ٣ أكتوبر ١٨٨١
(٣) الأهرام فى ٤ أكتوبر ١٨٨١
(٤) الأهرام فى ٨ ديسمبر ١٨٨١
(٥) الأهرام فى ٢٧ ديسمبر ١٨٨١

ويبينوا له قدره فى نفوسهم ، والأهرام تصف هذا كله وتعلن سرور الناس وغبطتهم لأن السلطات المسئولة أعطت « القوس لباريها » باختيار عرابى وكيلا للدفاع ، ولا يطلب من الصحف الصديقة أن تزن الأمور بأحسن من هذا الوزن ، ولا تعرض وجهات النظر بأجمل من هذا العرض[1] .

دفاعها عن العرابيين

ومنذ شهر فبراير ١٨٨٢ تبدأ الأهرام دفاعها عن العرابيين وحكومتهم ، فإذا حملت الصحف على هذه الحكومة ، واعتبرتها حكومة ثورية يخشى منها على سلطان الخديو والمراقبة ، انبرت الأهرام للرد على هذه الصحف فى حزم وتأكيد بأن الالتزامات التى على المصريين لخديوهم لا يختلف فيها اثنان « وأن المصريين عموماً يعترفون مع الاحترام بسلطة أميرهم المعظم » ، ثم تسفه فكرة إهمال المراقبة فإن من غايات المصريين أن يتخلصوا من ديونهم وينفذوا فى هذه الناحية ما عليهم من واجبات[2] .

وقد مضت الأهرام تنشر آراء الصحف الأجنبية عن الحالة فى مصر ثم تناقش ما جاء فيها ، وفى نقاشها ما يؤيد وجهة نظرنا من أن الأهرام لم تكن قط خصيمة للثورة ورجالها وإن ساءها آخر الأمر أن تجابه الثورة أمير البلاد وله فى عنق الجريدة يد ومعروف ، وهى هنا تناقش « الطان » الجريدة الفرنسية الكبرى فتقول « كنا نخال جريدة الطان معتدلة فألفيناها اتبعت خطة غيرها من الصحف الأوربية فادعت أن فى مصر ثائرين يرغبون النصرة وامتلاك السلطة حالة كوننا نحن فى البلاد وصاحب البيت أدرى بالذى فيه ونعرف ما ظهر وما بطن ، فالجهادية طائعة لأمرائها والضباط متبعون أوامر الحكومة بأتم الخضوع وليس فى قطرنا أحزاب عسكرية بل الأمة وحدها تحت سلطة سمو أمير البلاد تسعى فى طريق النجاح ، وقد عهدت إلى نائبيها أن يخدموا المصلحة العمومية بالاتفاق مع الحكومة السنية ونحن على يقين من الفوز طالما أن النوايا سليمة والمقاصد حميدة ، وهذا ما تشتغل به كل أمة فى أى البلاد طلباً للرفعة وإصلاح الشؤون . أما الشعب المصرى فلم يقصد البتة أن يلقى الفتنة أو يجحف بالمصالح الدولية فليس ثمة باب لإنكلترة وفرنسا بالانفراد أو لأوربا عموماً يخولهن التداخل فى أمورنا الوطنية »[3] .

---

(١) الأهرام فى ٩ يناير ١٨٨٢
(٢) الأهرام فى ١٥ فبراير ١٨٨٢
(٣) الأهرام فى ٢٢ فبراير ١٨٨٢

ثم تناقش فى يوم آخر صحيفة فرنجية أوروبية ، زعمت أن الحكومة والنواب يعبثون بحقوق المراقبة وأنهم يعطون الوظائف لغير مستحقيها ، وأن السلطتين التنفيذية والتشريعية تحولان بين اطراد الإصلاح الذى أخذت مصر بناصيته من قريب ، فترد الأهرام بأن الحكومة « قد أعلنت بصريح العبارة أن المراقبة والتعهدات والجزية ألخ . من المطالب المقدسة فلا تمس ولا يعبث بها ولا ولا ، وأدل من ذلك ما جاء فى قانون مجلس نوابنا مما يؤيد هذا القول ، وقد شهد العمل على المقال فانتفى الإشكال وسقطت الدعوى » ، ثم تدافع الأهرام عن سياسة الاقتصاد التى تتبعها الحكومة بإرشاد نواب الأمة قائلة « ومن يجهل إلى الساعة ما لسادتنا النواب من سمو الأفكار وحسن المقاصد وهو يعلم ما أتوه وأتوه ويطلع على مذاكراتهم ومناهج أعمالهم التى رسمت لهم عبارات الثناء والمدح فى سجل السياسة »[1] .

ردها على حملات الصحف الأوربية

وتشتد حملة الصحافة الأوربية على حكومة محمود سامى البارودى وهى حكومة للعرابيين فيها الصدارة ، وتزعم أن مصر مقبلة على الفوضى وأن شئونها المالية ستمسى هباء ، وأن الخديو أرغم على تكليف البارودى بالوزارة وأن الأمر للضباط لا لرجال السياسة ، وأن نواب مصر جهلة بالسياسة والإدارة ، إلى آخر ما ذهبت إليه تلك الصحف وحشت به صفحاتها الكثار ، فتبرز لهم الأهرام مجادلة مدافعة عن النواب الذين لم يطلبوا غير « ما لهم الحق بطلبه لقاء ما عهدت إليهم الأمة فى خدمة مصالحها العمومية ، ولم يقصدوا فى ما أتوا اضراراً بالمراقبة أو غيرها ، وكيف يتسنى لهم التهجم على ما اتهموا به وهم قوم جبلوا على الحرية الوطنية والاستقلال الفكرى ، وأعلنوا بقانونهم عن رضى بينهم واتفاق على الحكومة أنهم لا يمسون أعراض التعهدات الدولية ولا يعدون عن احترام حقوقها . ومن العجب أن بعض الأوربيين لا يرون فى الشرقيين كفاءة للعمل بالنظامات الشورية وعهدنا برجالنا أنهم أعطوا من الذكاء والدراية ما لم ينله سواهم ، وفى مجلس أمتنا نواب عرفت الإدارة لهم فضلا ومقاماً وأرتنا أعمالهم ما يحمدون لأجله ويشكرون ، فإنهم منذ التأموا فى الندوة التى تجمع بينهم لم يبحثوا إلا ما من شأنه إصلاح الحال وحسن المآل . . .[2] »

وتبلغ الأزمة ذروتها بين مصر والدول حين رأى مجلس النواب أن ينظر فى ميزانية الدولة ويقرر فيها ما يراه ، فإن النظر فى الميزانية من الحقوق الأساسية لنواب الشعب فى

(١) الأهرام فى ٤ مارس ١٨٨٢
(٢) الأهرام فى ٧ مارس ١٨٨٢

النظم الدستورية الحديثة ولكن « الدول العظيمة بعثت بلائحتها المتحدة إلى قناصلها الجنراليين عندنا مشتملة على إنكارهن حق مجلس النواب فى اقتراعه على الميزانية المتعلقة بالدين . . . » . وهذا ما حدث فعلا فى تلك الفترة العصيبة من حياة مصر ، وتؤرخ الأهرام لهذه الأزمة برواية قصتها وكانت سراً على الناس ، أذاعته نقلا عن مراسلها فى القاهرة ، وهى لا تروى الأزمة أو تصورها دون تعليق من عندها بل تناقش رأى الدول فيما ذهبت إليه من حرمان مجلس النواب أهم حقوقه « فإذا ما حظرت الدول عليه حق الاقتراع على ميزانية الحكومة فى حين لا يرى إلا احترام الدين كانت مانعة إياه من حقوقه الوضعية التى لا تمس حقوقها . وإننا نترك الخوض فى بحر هذه المسألة إلى حكمة رجالنا الكرام الذين لا يلوون عن النظر فى كلما من شأنه أن يعود على البلاد بالفائدة » . ثم تتحدث عن الحكومة القائمة ، وهى حكومة الثورة العرابية ، قائلة « إن الحكومة موجهة وجه العناية إلى إصلاح الشئون وتوطيد الأمن ومنع العبث وتمكين الألفة والمودة بين جميع الأجناس الذين يقطنون هذا البر السعيد . سهل الله أعمالها وحفظ رجالها الكرام[1] » .

وإذا كانت الأهرام تناصر الثورة فى اعتدال ، فلم يكن من طبائع الأشياء أن تطالب بأكثر من ذلك فى هذا الجو المتوتر ، والمشاع فى ذلك الوقت أن هناك انحرافا بين الخديو والعرابيين ، وهى — كما ذكرنا فى أكثر من موضع — تحفظ لهذا الخديو معروفه ولا تنسى أنه أخذ بيدها يوم كان البطش بها شيئاً سهلاً ، وما كان فى وسع أصدقائها حمايتها ، ولنا فيما صنعه الخديو بجريدة أبى نظارة وصاحبها أسوة ، فقد فشلت إيطاليا حاميته فى تجنيبه غضب إسماعيل الذى أغلق صحيفته ونفاه من مصر[2] ولكن الأهرام حماها توفيق ، بل قربها من والده فاستقبل مديرها وتحدث إليه وأذن له بنشر الحديث فيها ، وليس هذا بالشىء القليل على من يحفظ المعروف ولا ينسى الجميل .

وقد رأينا كيف مضت بالرغم عن الظروف الدقيقة المحيطة بها تناصر العرابيين وتدافع عنهم ، ومع ذلك كله فقد أنذرتها الحكومة مرتين ، وسبب الإنذارين بسيط لا يدعو إلى الضيق بها والتبرم منها ، فقد نشرت بين أخبارها خبراً عن تنقلات الوحدات العسكرية إلى البحيرة والشرقية، فبعثت الحكومة إليها بإنذار فى ٢٣ أبريل ١٨٨٢ قالت فيه « وحيث أن أمثال هذه الجمل مما يضر نشره بالنظام العمومى لزم إنذاركم إنذاراً ثانياً ، وهو آخر إنذار بمقتضى المادة الثانية عشرة من القانون[3] » .

(١) الأهرام فى ١٢ أبريل ١٨٨٢
(٢) إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية — الطبعة الثانية ص ٥٢
(٣) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٨٨٢

برم الثورة بأشد الجرائد موالاة لها

ولا يستغرب من الحكومة أن تنذر الأهرام لأتفه الأسباب ، فقد كانت الثورة العرابية دقيقة الحس من هذه الناحية حتى خسرت معظم الصحف الموالية ولم تبق إلا على صحيفتين – الطائف والمفيد – والأولى صحيفة عبد الله النديم صحفى الثورة وخطيبها ، والثانية معاونة لها وصورة منها ، فهما صحيفتان ، الأولى رسمية تقريباً والثانية صحيفة شبه رسمية ، أما الصحف الأخرى التى امتازت بالنضج والاستواء فى عهد إسماعيل وخلال الثورة العرابية ، والتى هيأت للثورة وجودها بما نشرت من معان ، ودافعت عن الحزب الوطنى والعرابيين فقد فقدت وجودها وبطشت بها الثورة فى غير تردد ، وأقرب الأمثلة على ذلك موقف الثورة من أديب إسحق ، وهو لبنانى فى مقدمة أدباء العصر ، وقف قلمه سنوات على الدفاع عن الحرية والحياة الدستورية ، وأنشأ فى سبيل ذلك صحيفتين (التجارة ومصر) ، وقد اضطهد وحورب ، وأغلقت صحيفتاه فسافر إلى فرنسا بتكليف من الأحرار المصريين ، وأنشأ هناك صحيفة تدعو لهم وتهاجم خصومهم ، وهى صحيفة (مصر القاهرة) وكان لساناً بديعاً من ألسنة شريف باشا ومناصريه فى الرأى والاتجاه من العرابيين وغيرهم ، فإذا استبعد رياض باشا من الحكومة ووليها شريف باشا عاد إلى مصر ، وعين فى وظيفة كبيرة ، وأعاد نشر جريدته مصر لساناً للعهد الجديد ، بيد أن الثورة كانت دقيقة الحس دقة بدت آثارها فى إنذار الصحف الصديقة وإغلاق غيرها من الصحف القوية ، ورأى كثيرون من الصحفيين التخلف عن الميدان بعد أن تعذر عليهم أداء الواجب الصحفى بالأسلوب الذى اعتادوه وبالطريقة التى مرنوا عليها ، وفى مقدمة هؤلاء أديب إسحق(١) .

موقفها الحكيم بين الأمير ورجال الثورة

ومع أن الأهرام أنذرت مرتين فإنها بقيت إلى جانب العرابيين لا تألوا جهداً فى الذود عنهم ، وآية ذلك موقفها من تعيين عرابى باشا فى منصب كبير فقد برم بهذا التعيين كثيرون فى مقدمتهم الأجانب وصحفهم الأوربية ، وأخذت تلك الصحافة تهاجم هذا الاختيار منددة به ، معلنة خطره على الأمن والنظام ، ولكن الأهرام تعرض هذه الآراء وتهاجمها ذاكرة أن هذه الترهات « صادرة عن سوء فهم » ثم تقول « وبعد فإن ترقى سعادتلو

(١) إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية ، طبعة ثانية ص ١١٩

عرابى باشا ورفاقه ناتج عن قابليتهم للارتقاء وأهليتهم لاستسلام زمام الأعمال وخدمة الوطن ، وقد تم لهم ذلك بإجماع الآراء وتصديق السمو الخديوى . . . ولا سبيل لتبيان الانتظام فى أحوال الجهادية فذلك قد أقرّ به البعيد والقريب ، واعترفه ابن البلاد والغريب ، ولم ينل الرتب والوظائف السامية إلا من استحقها بصداقة خدمته واستعداده . . . أما الطمأنينة فلم تبارحنا وهى ناشرة ألويتها فوق صروح القطار تطمئن خواطر الأهلين ، وتحمى الأجانب من كل غائلة . وغاية ما نتمنى أن تسكت الجرائد الأوربية عن التكلم فى أمور تجهلها حتى لا تلقى فى الأفكار وساوس لم تخطر ببال رجال حكومتنا السنية وأمراء جهاديتنا الكرام[1] » . وهذا دفاع إن لم تكن حرارته قد بلغت ما ذهبت إليه الطائف أو المفيد أو غيرهما ، فإنه دفاع مشكور له وزنه واعتباره من صحيفة درجت على اعتدال الرأى ، ولها بالخديو صلات قوية تعلم هى قبل غيرها تبرمه بالثورة ورجالها .

وإذا كانت الأهرام تريد أن تحايد الثورة فقد كان فى مقدورها أن تقف موقفاً وسطاً ، وتغفل من حسابها كل ما ذكرنا طرفاً منه ، ولكنها كانت حريصة على أن يكون لمصر برلمان وحكومة مسئولة ، لذلك لتى مجلس النواب فى صفحاتها مكاناً واضحا جداً لأخباره وأحداثه وكذلك لقيت حكومة محمود سامى البارودى نفس المكانة من قلب الأهرام ، وهى إحدى حكومات الثورة ، وصورة بديعة للأمانى المصرية الجديدة ، وآية ذلك أن الأمور تأزمت وأشيع أن الخديو سيستغنى عن خدمات الحكومة البارودية فلما انجلت الأزمة ، وظهر أن السلطان لم يشر بذلك ، وأن النواب حزموا أمرهم على الوقوف إلى جانب حكومتهم نشرت الأهرام رأيها فقالت « طير البرق إلى جهات العالم أجمع ما أثاره حضرات السادة النواب من الحزم والثبات والمحافظة على القانون والنظام فكان لهم فضل أشهر من نار على علم ، ولم نكن لنرتاب فى كفايتهم فهم خيار من اختارتهم البلاد للذبّ عن مصالحها ، وهم الأنوار الذين يستضاء بمشكاة حكمتهم على أنهم تمكنوا والحمد لله من نوال إجابة الرجاء ، ولقوا بسؤالهم لدى سمو الخديو المعظم حسن القبول . . . »[2] وليس أبدع من هذه التحية لنواب الأمة فى موقف مشرف ، حالوا فيه بين الأمير واقالة الحكومة ، وقد صدرت هذه التحية عن الأهرام صديقة الأمير والمنذرة مرتين من هذه الحكومة .

---

(١) الأهرام فى ٢٩ أبريل ١٨٨٢
(٢) الأهرام فى ١٩ مايو ١٨٨٢

ملخص لوجهة نظرها

هذا ملخص لوجهة نظر الأهرام فى الشئون الداخلية السياسية المتصلة بالدستور والحياة النيابية ، وقد رأينا كيف عالجت الأمور برفق ، ولم تخرج قط عن طابعها المشهورة به من حيث النظر إلى الأوضاع والأفكار نظرة المتئد الباحث ، كما بينا فى غير موضع أنها لم تكن خصما للثورة فى جميع مراحلها ، وأنها إذا مالت إليها فإنما تميل بقسط لا يذهب بها إلى التطرف الملحوظ فى غيرها من الصحف ، وكذلك كان شأنها فى علاج المسائل الأخرى التى شغلت بال المصريين فى أمر معاشهم ، فقد كانت نعم النصير للموظفين ، تدافع عنهم وتهاجم فكرة تقديم الأجانب عليهم[1] ، وكذلك ناقشت الأمور الاقتصادية والتجارية فى كل عدد تقريباً فى شىء من الدراسة العلمية النادرة ، وقد أبرزنا مواقفها فى تشجيع الجمعيات الخيرية وافتتاح المدارس ونشر الثقافة بطبع الكتب والقصص فى صفحاتها أو فى كتب على حدة ، وقد تميزت الأهرام على كثيرات غيرها من الصحف المعاصرة بميزة مأثورة عنها هى تحرى الصدق فى رواية الأخبار حتى أنها لم تكذّب إلا مرة واحدة أو مرتين فى ٧ سنوات ، وكان التكذيبان لتصحيح خبر له من الواقع نصيب[2] ، ولم يؤثر فى سياستها فكرة القدح الشخصى ، وقلما كنا نعثر على كلمة نابية أو لفظ جارح ، وقد قست مرة واحدة حيث هاجمت إسماعيل فى مقالها عن « ظلم الفلاح » وكان جزاؤها الإغلاق وسجن صاحبها ولولا توسط الأمير توفيق لحيل بينها وبين العودة إلى الحياة ، ولعله كان المقال الوحيد الذى يؤخذ على المحرر فيه بعض الألفاظ الشديدة والعبارات الجافة التى لم تعتد استعمالها فى أدق الظروف والمناسبات .

كلمة عن سياستها الخارجية

بقى أن نذكر فى ختام هذا الفصل كلمة عن سياسة الأهرام الخارجية فى سنواتها الأولى ، فإن خلاف الكتب والصحف قد طال فى هذا الموضوع ، وفيه من المتناقضات الشىء الكثير ، إذ ذهب المؤرخون إلى رأى يخالف رأى الصحف المعاصرة ، فن قائل إنها جريدة وطنية عثمانية ، ومن قائل إنها صحيفة وطنية ذات ميول فرنسية ، والحق ضائع

---

(١) الأهرام فى ٤ أكتوبر ١٨٧٨

(٢) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات — دوسييه رقم ١١ — ٢/٩٤٦ جزء أول فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ .

بين الرأيين ، ولو أننا رجعنا إلى الأهرام وما كتبته فى سياستها الخارجية لعرفنا هذه السياسة على صحتها ، وخير دليل على هذه السياسة ما كتبته الأهرام نفسها . أما عن صلتها بتركيا فهى صلة التابع بالمتبوع ، كما كانت الحال مع الرعايا العثمانيين من الخليج الفارسى إلى مشارف الأطلسى ، وليس فى ذلك غرابة ، فأصحاب الأهرام رعايا السلطان وقد وقف سليم تقلا قلمه زهاء سنة كاملة يهاجم الروس ويعلى من شأن الأتراك ، وكان ذلك فى أول عام شهدت فيه الأهرام الحياة ، فإذا اشتدت الحرب بين الروس والأتراك ، أنشأ بشارة تقلا مجلة (حقيقة الأخبار) لعلها تكون مورداً للرزق يقتسمه مع الجنود العثمانيين ترفيهاً لهم وتشجيعاً[1] . وبلغ ولاء صاحبى الأهرام ذروته فى سنة ١٨٨٢ قبيل اندلاع الثورة العرابية ، فقد لقيا التفاتاً من سلطان تركيا فكتبا فى صدر جريدتهما « الأهرام » كلمة بعنوان (الشكر) وقعها سليم وبشارة تقلا جاء فيها :

« الناس فى الدهر لفظ أنت معناه والدهر فى الناس عبد أنت مولاه

هو خيرة السلاطين يعتز به دهر علم أن مولاه ومولانا هو جلالة أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد المعظم أعزه الله . واصلتنا نعماؤه برتب الشرف فطوقت أجيادنا بطوق الفضل والمنة واستخدمت اللسان والفؤاد والشعور فكلها معلن عبارات الشكر والحمد »[2] .

وقد جاء عطف السلطان أو تعطفه عليها بعد عشرات من المقالات نقدت فيها الحياة السياسية التركية ، وبينت مدى التأخر الملحوظ فى البلاد العثمانية لاستبداد حكامها وحرمان الوطنيين من الحرية ، بينما يتمتع الأوربيون بالحريات العامة فتقدمت مداركهم واستقرت أمورهم ، وكثيراً ما لفتت الحكومة نظرها إلى ألوان النقد التى توجهها إلى الدولة العلية ، وكان لفت النظر الأخير فى ١١ فبراير ١٨٨١ وهو إنذار للأهرام بإلغائها « الغاء مؤبداً » إذا عادت إلى هذاالنقد مرة أخرى[3] .

والذى ينبغى أن نقرره هنا بحق وبلا لبس أن الأهرام كانت قبل كل شىء جريدة وطنية مصرية وأنها فى سياستها نحو تركيا كانت خصماً عنيفاً لها كلما وقف السلطان موقفاً يسىء إلى مصر كما حدث ذلك حين تلكأ الباب العالى فى بعث فرمان التولية للخديو توفيق ، وكانت أحياناً تؤازر السلطان وتمتدحه ، وتذهب فى مدحه كل مذهب إذا بدرت منه بادرة تؤيد مصر فى حق من حقوقها ، وكان ذلك واضحاً لما وقف السلطان

(١) تاريخ بشارة باشا تقلا ص ٣١
(٢) الأهرام فى ٢٦ أبريل ١٨٨٢
(٣) الأهرام فى ١٢ فبراير ١٨٨١

إلى جانب مصر وحاولت أن تتدخل فرنسا وانجلترا فى شئونها ، فذكرت الأهرام أن « للباب العالى علينا حق التابعية ، فكلنا نقر بنعمائه السامية وسلطته الرفيعة »[1] فهى إذن لم تكن وطنية عثمانية ، بل كانت مصرية قبل كل شىء ، تميل حيث يميل صالح مصر ، وكان ذلك ظاهراً جدا فى سنواتها الأولى ، وإن كانت بعد الثورة موالية لتركيا فى غير تحفظ نظراً لخصومتها للإنجليز مما سيأتى الحديث عنه فى مكانه .

أما قصة أنها وطنية ذات ميول فرنسية فمرجعه إلى أن فرنسا فى تلك الأيام كانت المثل الأعلى لجميع الأحرار فى كل مكان ، بما كانت مبادئها تدعو إليه من حرية وإخاء ومساواة ، وليس بعجيب أن يشيد كل فرد بالأمة التى كانت تدعو إلى هذه المبادئ السامية ولا سيما صحيفة تحمل علم الحرية وتدعو إلى المساواة ، ومن المصريين من كان يرى رأى الأهرام فى فرنسا ، وفى مقدمتهم شريف باشا الذى نسب إليه ما نسب للأهرام ، وكذلك كان رأى الأفغانى والشيخ محمد عبده وأديب إسحق ويعقوب بن صنوع ومن إليهم فقد كانت فرنسا ملجأهم وملاذهم حين نزلت بهم النوازل ، فإلى فرنسا نفى يعقوب ابن صنوع ونشر هناك صحفاً يهاجم بها الرجعيين فى مصر والإنجليز واحتلالهم لبلاده [2] ، وكذلك كان شأن أديب إسحق[3] ، وعلى أثرهما نهج الأفغانى والأستاذ الإمام فى أعقاب الاحتلال[4] ، وكانت فرنسا مضيافاً لهم جميعاً ، ومتنفساً لآرائهم وأفكارهم .

وإذا كانت فرنسا بموقفها من القضية المصرية وتدخل الإنجليز العسكرى قد أساءت إلى مصر وخيبّت أملهم فيها ، فإن ذلك لم يمنع الأهرام من مهاجمتها والحملة عليها كما فعلت مع الإنجليز . ولا حال إعجاب الأهرام بمبادئها وآرائها ونصرتها إياها يوم ضاقت بها الحكومة المصرية ، لم يحل ذلك كله دون نقدها لفرنسا كلما تعارضت مصلحة الفرنسيين مع مصلحة المصريين . ومن يراجع صحيفة الأهرام منذ سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٨٢ ير صدق ما ذهبنا إليه فى تقرير هذه الحقيقة . وإذن لم تكن الأهرام وطنية فرنسية النزعة ، ومع ذلك فهى لا تعاب إن أعجبت كما يعجب كل حر بمبادىء الثورة الفرنسية ورجال فرنسا الأحرار ، ومدحت آداب فرنسا وعلومها ومثلها الرفيعة فى الحياة .

---

(١) الأهرام فى ٢٢ فبراير ١٨٨٢

(٢) إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية — طبعة ثانية ص ٥٢ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ١١٩

(٤) إبراهيم عبده — تطور الصحافة المصرية ، طبعة ثانية ص ٢٤٢ وما بعدها .

الكتاب الثانى
١٨٨٢ - ١٨٨٤

الصحافة المصرية فى مفترق الطرق

فلا أدرى إذا يممت أرضاً   أريد الخير . أيهما يلينى

« المثقب العبدى »

اضطربت الحياة السياسية فى مصر اضطراباً خطيراً منذ أهل شهر يونيو ١٨٨٢ إلى أواخر شهر سبتمبر من نفس السنة ، وحدثت فى هذه الشهور الأربعة أحداث كان للصحافة المصرية فيها نصيب موفور ، فهى إحدى الوسائل التى عاونت على هذا الاضطراب وساهمت فيه وإن اختلفت فيما بينها اختلافاً شديداً ، فذهب بعضها إلى أقصى اليمين ، وذهب بعضها إلى أقصى اليسار ، ولم يكن فى الوسط إلا صحيفة واحدة صدرت عن دار الأهرام هى (الأحوال) التى عرفنا العدد الأول منها فى ٧ يونيو ١٨٨٢ ، ولم تستطيع الأحوال أن تثبت فى هذا الميدان فأخلت الطريق لصحافتى اليسار واليمين .

ضحايا هذا الاضطراب

وقبيل شهر يونيو سنة ١٨٨٢ ، كانت الصحافة المصرية تأتمر بأمر الثورة العرابية وتخضع لتوجيهاتها فتتغنى بمثلها وتؤيد زعماءها إلى غير حد ، وإذا اقتصرت الصحيفة على أن تشيد بالمثل وحدها وبالثورة دون رجالها عدها المسؤولون معادية وأصلاها رجال الثورة هى ومحرريها حرباً لا هوادة فيها ، وكان من نتيجة ذلك تعدد الحملة الشعواء التى أثارها ومشى فى طليعتها السيد عبدالله النديم فى « الطائف » صحيفة الثورة الرسمية[1]

(١) المعروف عن السيد عبد الله النديم أنه كان أعظم خطيب مصرى لا فى الثورة العرابية وحدها ، بل فى القرن التاسع عشر كله ، كما كان فى خلال الثورة كاتبا فى صدر كتابها وداعية فى مقدمة دعاتها ، وله آثار صحفية فى كثير من جرائد العصر ، وقد أنشأ والثورة فى عنفوانها صحيفة (الطائف) ، وكانت هذه الصحيفة أكبر الصحف المصرية وأخطرها إذ ذاك حتى أن محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب كتب فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٩هـ إلى « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتلرى » يقول « حيث أن حضرة محرر الطائف أظهر ارتياحه إلى نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه وما يتبع ذلك مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية للمجلس رؤى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية

وشايعه فيها أصحاب الصحف المتطرفة كحسن الشمسى فى المفيد[1]، وجرى على أسلوبها كثير من الصحف الأخرى . فإذا المصريون الذين يمتون إلى أصل لبنانى عرضة للتهجم ومحل للنقد العنيف سواء أكانوا موظفين فى الحكومة أم كتاباً فى الصحف ، ولم يسلم من هذه الحملة جماعة من كبار الكتاب والأدباء ، أمثال أديب إسحق صاحب التاريخ الناصع فى خدمة القضية المصرية والعمل على تحقيق أهدافها[2]، وسليم وبشارة تقلا الشقيقين اللذين كتبا أجمل الصفحات فى تاريخ الصحافة المصرية الوطنية على ما بينا فى فصول سابقة ، وسليم نقاش صاحب (المحروسة) إحدى صحف اليسار التى اتهمتها الثورة فى آخر الأمر من غير مبرر معروف .

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يأسف لهذا الموقف الذى وقفته الثورة العرابية من الصحفيين الذين عاونوها مخلصين وتحملوا فى سبيل معاونتها ومعاضدتها كثيراً من ألوان العذاب التى صبها عليهم الرجعيون فى مصر ، فسجن بعضهم ونفى البعض الآخر وشرد كثير منهم فى سبيل الفكرة النبيلة التى أقام عليها العرابيون تاريخهم ، فكرة استقلال مصر ، وحرية أفرادها ، وتحقيق العدالة بين المواطنين جميعاً .

وقد أثر موقف الثورة هذا من هذه الأقلام تأثيراً سيئاً ، فقد كان الصحفيون اللبنانيون فى مقدمة العناصر الحرة الملتهبة حماسة لاستقلال مصر وحياتها الدستورية ، وقد ذكر ذلك كله سليم نقاش فى مقال له يرد به على خصومه الذين رموه هو وزملاءه المتمصرين بأقبح ما يرى به مواطن ، فقال إن صحيفته « تجرأت أيام الاستبداد المحض ونادت بالحكومة الشورية » وإن صحيفته كانت عنواناً لغيرها من صحف النازحين إلى مصر فى الأخذ « بناصر الحزب الوطنى » ومعارضة « النفوذ الأجنبى » عند « خوف الإفراط فيه » وأنها « صرحت بسوء إدارة بعض المصالح الأجنبية وتحملت غضب المسيو دوبلينيار وتحامله

لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات بمعرفة هذه الصحيفة ممتازة بهذا الاختصاص ولسبتها إلى المجلس على الوجه الذى قدمه حضرة محررها الموما إليه » .

(راجع فى ذلك أعلام الصحافة العربية للمؤلف من ص ١٢٥ إلى ١٢٩)

(١) المفيد جريدة من جرائد الثورة العرابية بلغت حماستها غايتها فى سنة ١٨٨٢ وهى تمثل جوانب الثورة الاجتماعية والاقتصادية .

(راجع تطور الصحافة المصرية للمؤلف ص ١٢٢ وما بعدها)

(٢) صحفى استوطن مصر وأصدر فيها جريدتين ، وضاقت به حكومة رياض باشا سنة ١٨٨٠ فاضطر إلى السفر إلى باريس حيث أنشأ صحيفة (مصر القاهرة) لتعبر عن آراء شريف باشا ورجال الثورة التى لم تكن قد اتضحت اتجاهاتها بعد .

(راجع فى ذلك أعلام الصحافة العربية للمؤلف من ص ١١٦ إلى ١٢٤)

عليها وقد حرمت لذلك من فوائد جمة حباً منها بالوطن وأهله . . . وكم وقفت وكم أنذرت وكم عطلت وكم حذرت . . . »[1].

اضطهاد الثورة للصحف المعتدلة

ولكن الثورة لم تعد تحتمل صحفاً وسطاً ، فهى قد احتضنت الصحف المتطرفة وحدها كصحيفة (الطائف) التى كانت تتمتع بحماية الحكومة وأذن لصاحبها على ما عرف به من فضل وخير بأن يخرج عن آداب المناظرة ويسف أحياناً وهو يؤرخ للخديو إسماعيل ، ويبدو تأريخه لهذا العاهل تأريخاً لحمته الغرض وسداه المبالغة ، وقد بلغ من حقده أنه كتب لقرائه وهو فى سرير المرض يعتذر عن تحرير صحيفته إلا تلك الفصول التى أملاها عليه البغض ، فإن فى كتابتها – كما يقول – « علاجاً يستعين به على دائه » . وقد أثار هذا العنف ثائرة بعض المعتدلين من رجال الثورة كالشيخ محمد عبده رقيب المطبوعات فأمر بإغلاق الجريدة التى لم ترع أدب المناظرة ولم تحسب لولى الأمر وهو ابن إسماعيل أى حساب ، ولكن الحكومة عادت فأذنت لها بالصدور ما دامت تؤدى التزامها من الثناء الذى لا حد له لرجالها وما دامت تخرج فى هذا القلم العنيف الذى أطلق فلا حدود له ولا قيود[2].

ثم كالت الثورة لصحف الوسط بكيل آخر فكانت أشد استبداداً بها من حكومة رياض . وقد اضطر أديب اسحق – وهو من خيرة اللبنانيين الذين لهم فى الصحافة المصرية أثر معروف – إلى الانسحاب من جريدة (مصر) والتخلف عن إصدارها بعد حملة (المفيد) عليه[3]، ولم يقتصر الأمر على اضطهاد المتمصرين بل إن الحكومة الثورية تعدته إلى الصحف الأخرى التى لم تذهب إلى المدى الذى ذهبت إليه صحيفتا المفيد والطائف ، فقد فرضت على جريدة (البرهان) ، وهى جريدة كانت من أشد الصحف ولاء للخديو توفيق أن تستغنى عن خدمات الشيخ حمزة فتح الله محررها لصلته بالقصر واعتداله فى معالجة الأمور ، ورضيت (البرهان) مضطرة إلى إخراج الشيخ حتى تحتفظ بوجودها وتأمن بطش الثورة وحكومتها[4]. وصحيفة (الزمان) وهى من الصحف المصرية المعتدلة لقيت حتفها على يد الثورة ، وادعت الحكومة وهى تعلن نبأ إغلاقها بأن تلك الصحيفة

---

(١) المحروسة فى ١١ أبريل ١٨٨٢

(٢) أعلام الصحافة العربية للمؤلف ص ١٢٦ و ١٢٧

(٣) مصر فى ٨ مارس ١٨٨٢ (راجع وداع أديب إسحق لها فى ذيل الجريدة)

(٤) البرهان فى ٣٠ مارس ١٨٨٢



مصطفى كامل باشا



محمد فريد بك

« قد جاوزت حقوقها وأساءت إلى الدين الإسلامى كما أنها دأبت على المطاعن الشخصية وأهانت جانب الحكومة . »[1].

تعطيل صاحب الأهرام لجريدته

وهكذا طبقت الثورة العرابية قانون المطبوعات الصادر فى نوفمبر ١٨٨١ تطبيقاً عنيفاً على الصحف المعارضة لها ، وكانت هذه الصحف ، وكان رجالها إلى شهور مضت يحملون حملة عنيفة على هذا القانون ومصدريه ، فأخذوا وقد أصبح بيدهم الأمر يستغلون هذا القانون استغلالا واسع النطاق ، ويطبقونه على الصحف الفرنجية والعربية دون استثناء إلا ما كان منها مشايعاً للثورة ورجالها ، وكان من آخر الصحف التى لقيت حتفها ، والبركان ثائر ، جريدة الأهرام التى استعاض عنها صاحباها بجريدة (الأحوال) فى ٧ يونيو ١٨٨٢ ثم أغلقاها بعد أن عز عليهما أداء واجبهما الصحفى فى تلك الظروف القاسية وسافر صاحبها إلى الشآم حتى تهدأ الثورة أو ينتهى أمرها إلى مآل .

أمر الصحافة فى يد الهواة

ولم تعد الصحف المصرية — منذ يونيه ١٨٨٢ تطرق الموضوعات القوية العميقة أو تناقش المسائل العامة بخبرة الدارس الحصيف ، بل انتهى ذلك العهد حين ألقيت مقاليد الصحافة إلى أيدى الهواة — فيما خلا عبدالله النديم — الذين أنشأوا صحفاً على أنقاض الصحف القديمة كصحف الفسطاط[2] ، والسفير والنجاح[3] ، غرضها إثارة حماس الجماهير ودفعها إلى الثورة وتأييد رجال الحكم المخاصمين للخديو وأنصاره ، مستعينين على ذلك بأسلوب قد أسفّ حتى مس الأعراض وناقش الحرمات ، وخلا من الدرس والفحص وشغل القارىء بألفاظ وعبارات لم تشهد لها الصحافة المصرية نظيراً لا من قبل ولا من بعد .

الصحافة تتنازعها ثلاث بيئآت

ومنذ ضربت الإسكندرية ونزل فيها الأميرال سيمور فى يوليه ١٨٨٢ أصبحت فى

---

(١) المفيد فى ١٧ أبريل ١٨٨٢

(٢) من محضر استجواب رفعت بك مدير المطبوعات — راجع مصر للمصريين لسليم خليل نقاش وجرجس ميخائيل طبعة ١٨٨٦ ص ١٧١ و ١٧٢

(٣) حرر الشمسى جريدة (السفير) وهى أقل أهمية من (المفيد) وأخيراً اختفى المفيد واستبدل به الشمسى جريدة النجاح فى ١٠ أغسطس ١٨٨٢ — (نقلا عن الشمسى فى السفير ٢١ أغسطس ١٨٨٢)

مصر ثلاثة تيارات صحفية ، أو ثلاث بيئات صحفية ، الأولى فى القاهرة وهى تضم صحف الثورة إلا الطائف ، وكان من بين هذه الصحف الثورية جريدة الوقائع الرسمية وهى صحيفة الحكومة المصرية ، والثانية فى الإسكندرية تناصر الخديو وتقف إلى جانبه وفى مقدمتها صحيفة (الاعتدال) لصاحبها الشيخ حمزة فتح الله ، وتحمل فيها على عرابى ورجاله « البغاة الجهال العاصين الخليفة ونائبه »[1]. وكان يعاون الشيخ حمزة فى تحريرها أديب إسحق الذى لقى من الثوار جزاء سنمار[2] ثم صحيفة الأهرام التى عادت إلى الحياة متعثرة الخطى من غير مطبعة . وكانت هذه الصحف جميعاً خصماً للعرابيين فى هذين الشهرين ، منذ نزل الإنجليز ثغر الإسكندرية إلى يوم احتلوا القاهرة وقضوا على الثورة فى مهدها الأول حيث تزدهر معظم صحفها .

عبد الله النديم وصحيفة « الطائف »



عبد الله النديم صحفى الثورة العرابية وخطيبها

أما البيئة الصحفية الثالثة فلم تكن فى القاهرة أو الإسكندرية بل كانت فى وسط المعمعة وفى أتون الميدان ، وكانت هذه البيئة الصحفية المغامرة تتمثل فى صحيفة المغامر الأكبر السيد عبدالله النديم ، فقد انتقل الرجل بصحيفته (الطائف) إلى حيث كان الجيش يتهيأ للقاء الإنجليز فى التل الكبير ، وكان صاحبها يحررها على مقربة من النشاط الحربى فى معسكر « كنج عثمان » وكان معظم مقالاتها لاستثارة الهمم والطعن فى الخديو والإنجليز . وعنها كانت صحف القاهرة الثورية تنقل أخبار الحرب وتفاصيل الحوادث ثم تضيف مقالات عبدالله النديم بأكملها أو بموضوعها[3]. ولم يقصر عبد الله

(١) مصر للمصريين ج ٥ من ص ١٨٦ إلى ١٩٣
(٢) المصدر السابق ص ١٩٤
(٣) المصدر السابق ج ٧ ص ٢٦٦ من محضر استجواب حسن افندى الشمسى

مكاتبات الاهرام

جريدة

الاهرام

يومية سياسية تجارية ادبية

قيمة الاشتراك

العدد ١٤٢٤ — الاسكندرية في ٢١ اغسطس سنة ١٨٨٢ — السنة السابعة

قسم رسمي

تنشرها جريدة الأهرام حين صدرت فى الإسكندرية بعد احتراق مطابعها

النديم نشاطه الصحفى هناك على المقالات الحامية يدبجها أو على الأخبار وتنقلات الجيش وخطورة استعداده والدعاية له ، بل جاوز ذلك إلى إنشاء ملاحق لصحيفته ، وقف قلمه فى كل ملحق منها على خصم من خصومه ، سواء أكان هذا الخصم الخديو توفيقاً أم واحداً من أصدقائه ومعاونيه . وقد ازدحمت هذه الملاحق بهجو مقذع خرج فيه الكاتب عن الأسلوب الأدبى المأثور عنه ، وأسف إسفافاً لا مثيل له .

وهكذا أصبحت الصحف خلال الثورة على « مفترق الطرق » بعضها يصدر فى الإسكندرية ، وبعضها فى القاهرة حيث يستلهم وحيه ونشاطه من صحيفة الطائف وملاحقها الصادرة فى الميدان .

ضعف الصحافة موضوعاً وأسلوباً وشكلاً

وأصبحت الصحافة فى مفترق الطرق لا من حيث هذه الحدة الغالبة على التحرير فقط بل من حيث الأسلوب والموضوعات ورواية الأخبار .

أما الأسلوب فقد ضعف ضعفاً ملحوظاً . ومن يقرأ ما كتبه الشيخ حمزة فتح الله بالأمس فى « البرهان » يدهش أن يكون هذا أسلوبه وهو يحرر « الاعتدال » لأن هذه الجريدة انصبت على القدح والهجو .

أما رواية الأخبار فقد تأثرت أيضاً بظروف الحال ، وأصبح أثر الاصطناع فيها ظاهراً ، ولا يسع المؤرخ لهذه الفترة إلا أن يقرر أن الأخبار كانت تلفق غالباً فى الجريدة أو عند من يحمى الجريدة ثم تنشر على الناس ولا وازع لصانعها أو كاتبها أو ناشرها

وكذلك أصبح شكل الصحف فى « مفترق الطرق » وحروفها وطباعتها سقيمة . وهكذا انهار هذا التاريخ الجميل الذى كان لصحافة مصر فى هذه الناحية من الاستعداد المطبعى ، والذى كانت « الأهرام » عنواناً ومثلا طيباً له فى مصر والشرق قبيل الثورة فى صيف ١٨٨٢ .

شعب مهيض الجناح

وأصبحت كالبازى المهيض جناحه   يرى حسـرات كلما طار طائر
« لشاعر عربى قديم »

أصبح الشعب المصرى بعد الهزيمة وبدء الاحتلال مهيض الجناح ، مكلوم الفؤاد ، له حكومة ، وله صحافة ، غير أنهما صورة ناطقة ليأسه وبؤسه . وكيف تصور حكومة شعب تحتله جنود لا صلة لها بجنسه أو بدينه ، ويعبر عن رأيه صحافة أصلت فوق رأسها سيف الاحتلال ؟ .

ومع أن الثورة العرابية كانت صدى لثورات أخر فى الدولة العثمانية وفى خارجها ، إلا أنها وجدت من يعيبها وبصورها بدعة لم تعرفها أمة من الأمم. والحق أنها ثورة طبعية تشهد لها ثورات شبيهة لها شبّت على الجانب الغربى من البحر الأبيض المتوسط فى أول القرن التاسع عشر لمثل الغرض الذى قامت من أجله ثورتنا ، طلباً للاستقلال ونزوعاً إلى الحرية وسعياً وراء الدستور ، هكذا كانت مطالب الثورة الفرنسية الكبرى ، وهكذا كانت مطالب الثورة اليونانية فى مطالع القرن التاسع عشر وهى الثورة التى تغنى بها شاعر المحتلين فى مصر ، وهكذا كانت مطالب الولايات التركية فى شرق أوربا ، فى النصف الثانى من القرن الماضى ، بل هكذا كانت مطالب الأتراك فى قلب سلطنتهم ، ومن أجل هذه المطالب ثاروا على خليفة المسلمين وأرغموه على الوفاء للثورة ومطالبها إلى حين . . .
فأى عجب أن يثور المصريون – مدنيين وعسكريين – لهذه المطالب التى يدفع لها جور السلطان الذى لا حدود لسلطانه ، وتداخل الأجانب تداخلا شل مظاهر القومية ومعانيها ، ووقف النشاط الاقتصادى وعقد الحياة تعقيداً فرض الثورة فرضاً ، وجعل الحرب وسيلة للتبرم وطريقاً للعلاج .

ولم تخفق الثورة إذن لأن مطالبها كانت فوق متناول اليد أو شيئاً يخالف ما جرى عليه عرف الشعوب المتطلعة إلى حرياتها ، وإنما أخفقت لأن السلطنة صاحبة التوجيه

وسيدة الموقف لم تعالج الأمر بحزم كانت هى فى حاجة إليه لمعالجة أمورها ، وتركت ثورة المصريين المسلحة نهباً للظروف يحيك الأجانب لها الدسائس ، وأصبح قادة الثورة بين قتيل وشريد وسجين ، واستقبل الإنجليز عند احتلال القاهرة أمة فى شبه ذهول، اتفق خاصتها وعامتها على التسليم للقضاء والركون إلى القدر المحتوم ، ولم يعد أمام المحتلين أحد يطاولهم فى رأى أو يناقشهم فى حساب .

الرأى العام الرسمى

وقد أنفق اللورد ديفرين Dufferin سفير الإنجليز فى الآستانة زهاء ستة أشهر فى القاهرة يحاول تنظيم أمورها فى ظل احتلال مؤقت ، وكان أظهر ما صنعه فى تنظيم الرأى العام إنشاءه مجلسى شورى القوانين والجمعية العمومية ، ويتكون الأول من ثلاثين عضواً ، أربعة عشر منهم تعينهم الحكومة ويضاف إليهم وزراء الدولة بحكم مناصبهم[١]، وستة وأربعون عضواً لتتكون منهم جميعاً الجمعية العمومية . ولم يكن لهذين المجلسين شأن على الحكومة ، ولا لرأيهما قطع فى المسائل العامة فيما خلا حق الجمعية العمومية على الحكومة فى إقرار الضرائب الجديدة[٢] . ولم تكن هذه هى الحياة النيابية التى من أجلها ثارت مصر وكافحت فهى « صورة كاذبة للحكم الدستورى أجيد رسمها » كما يقول أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى[٣]، فلا عجب أن بقيت مصر أربعين عاماً وهى تفتقد عبثاً مجلساً نيابياً يعبر عن أغراضها وينطق بلسان أبنائها .

الرأى العام الشعبى

هذا هو المجهود الذى بذله « ديفرين » لتكوين الرأى العام الرسمى ، أما الرأى العام الشعبى ممثلا فى الصحافة المصرية فقد تحدث عنه اللورد العتيد فى ختام تقريره قائلا : « إنه بقى فوق ذلك نظام واحد ضرورى لجعل النظم التى تقدم وصفها فعالة مثمرة ذلك هو الصحافة الحرة »[٤] . ويعقب بعض المؤرخين على إشارة اللورد نحو وجوب خلق صحافة مصرية حرة بأن ما دعا إليه قد تم وفق هواه حتى أنه«أهمل قانون سنة ١٨٨١ إهمالا تاماً ونالت مصر حرية صحفية لم تعرف فى شمال إفريقية أو غرب آسيا »[٥].

---

(١) George Young; Egypt. London 1927. p. 150-151.

(٢) الرافعى — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال . القاهرة ١٩٤٢

(٣) مضابط البرلمان الإنجليزى ١٨٨٣ مجلد ٢٦٧ ص ١٣١

(٤) مصر رقم ٦ سنة ١٨٨٣ ص ٥٠

(٥) Young: Egypt. p. 179-180.

احتضار الصحافة

ومن طريف ما ينقض رأى المؤرخين الإنجليز وتأكيدهم رعاية الاحتلال للصحافة المصرية أن اللورد دوفرين كان يدرس شؤون مصر فى الوقت الذى كانت الصحف الشعبية تلقى حتفها الواحدة تلو الأخرى ، ولم تكن من بينها واحدة ضالعة معهم ، أما الخديو فقد استقامت أموره ولم يعد فى حاجة إلى صحف خاصة كما كانت الحال قبيل الثورة أو فى أثناء الحرب . أما الصحف المصرية جميعاً فكانت فى معظمها صحفاً مصرية ضالعة مع الترك والفرنسيين لا تصانع الاحتلال إلا خائفة أو متهيبة ولكنها على أى حال لا تقدم مصالحه على سياستها العامة ، ومع هذا لم تنج هذه الصحافة من شر الاحتلال .

وقد ألغت الحكومة المصرية وهى صنيعة ذلك الاحتلال صحفاً كثيرة فى مقدمتها صحيفتا (الزمان و السفير) ، وكان إلغاء الأولى « من قبيل الاستصواب » وكان إلغاء الثانية مبنياً على أن صاحبها من أنصار عرابى ، ثم أصدرت نظارة الداخلية بلاغاً ننشره بنصه لنبين كيف كذبت الوقائع ما سجله ديفرين فى تقريره ، فقد ذكرت النظارة أن جريدة الوطن افتتحت فى « عدد يوم السبت الماضى ٧ شوال سنة ٣٠٠ بجمل نطقت بما لا يصح الخوض فيه من الكلام فى شأن الدولة الإنكليزية ثم جاءت جريدة روضة الإسكندرية فى جملتها الافتتاحية من عدد ذلك اليوم ببعض أسطر نهجت فيها منهج الحدة بالنسبة للدولة البريطانية ثم جاءت مرآة الشرق فى جملتها الافتتاحية من عدد ذلك اليوم أيضاً فى عرض كلامها مع الجرائد الإنكليزية بما يقرب من ذلك ثم حذت حذوها جريدة البرهان فجاءت فى عددها الصادر يوم الإثنين ٩ شوال سنة ٣٠٠ بمثل ما جاءت به تلك الجرائد .

« ومن حيث أن هاته الجرائد تعلم حق العلم أن مثل هذه الكلمات لا تفيد شيئاً سوى إثارة الخواطر وتخديش الأذهان وهما أمران يجب التباعد عنهما بقدر الإمكان ولا يليق الخوض فيما يجلبهما ، وأن الجرائد لم تنشأ إلا لتقويم الأخلاق وتهذيب الطباع ، والخروج عن هاته الخطة يجعل وجود الجرائد مضراً بالناس ، فلهذا كله وجب تنبيه هذه الجرائد وسواها من التى تطبع فى القطر المصرى بلزوم خطة الاعتدال . . . والتباعد عما من شأنه أن يمس بحقوق إحدى الدول المتحابة التى بيننا وبينها روابط ودادية وعلاقات حبية . . . ولتعتبر الجرائد المحلية عموماً أن هذا بلاغ عمومى لها فمن تجاوزته من الآن

فصاعداً عوملت بما تقضى به نظامات المطبوعات فى البلاد . . . »[1]. ثم ذكرت الأهرام فى ذيل هذا البلاغ الذى اقتطفنا منه بعض فقراته خبراً عن إنذار بعثت به نظارة الداخلية «لجريدة الأجبشيان كازيت وغرمتها بعشرين جنيه لأنها تحاملت على بعض أعضاء الحكومة فى عدديها المؤرخين ٩ و ١١ الجارى طبقاً للبند الرابع عشر من الدكريتو الصادر فى ٢٦ نوفبر سنة ١٨٨١ » .

وقد راجعنا الصحف التى جاء ذكرها فى البلاغ فلم نجد فيها ما يستوقف النظر ، بل إن من يراجع جريدة الوطن خاصة ، يعيب عليها فى تلك الأيام ، هذه الزلفى الملحوظة للإنجليز إن جاء ذكرهم فى خبر أو مقال . وليس هناك صحيفة منها جميعاً ناقشت الاحتلال فى أمر من أموره ، وإنما لجأ بعضها إلى إبداء بعض الملاحظات على ما تنشره الصحف الإنجليزية خاصاً بمصر . كما أن الاحتلال الإنجليزى كان رقيق الحاشية رقة لا تحتمل مناقشة صحيفته الشبه رسمية (الأجبشيان جازيت) لأمر من الأمور ، وهو يوقع بها الجزاء مستمداً قوته القانونية من قانون المطبوعات الذى زعم يونج Young فى كتابه أنه « أهمل إهمالاً تاماً » .

عودة جريدة الأهرام إلى الظهور

وفى وسط هذا الضيق الذى عاشت فيه الصحافة المصرية عادت الأهرام إلى الصدور فى أغسطس يومية كعهدها، معنية بأخبار الحكومة مزجية أطيب الثناء إلى الخديو توفيق، ذاكرة تفاصيل التصفية الخاصة بمخلفات الثورة ، حاملة على رجالها حملة متصلة وقد سمتهم « الطغاة » مرة و « العصاة » مرة أخرى مجردين من ألقابهم ورتبهم إلا الشيخ محمد عبده فكان توقيرها له ملحوظاً كلما جاء ذكره فى سطورها[2]، وهى بعد لم تذهب فى نعوتها لرجال الثورة ما ذهبت إليه الصحف الأخرى وخاصة جريدة (الوطن) فقد كانت جريدة الوطن خصماً عنيفاً للعرابيين ، فإذا فشلت ثورتهم هاجمتهم فى سمعتهم وشرفهم ، ودافعت عن موقف الإنجليز فى احتلالهم دفاعاً لا يدافع به الإنجليز عن أنفسهم ، ولا غرو فهى التى دعت قبيل الاحتلال إلى صرف الجيش ليعنى بالزراعة مطمئنة مواطنيها بأنه «إذا أم مصر أحد بسوء دافعت عنها إنكلترا وفرنسا فإنها تعتبر تحت حمايتهما»[3]. فإذا لم يعجبها الحكم الصادر ضد العرابيين وأحست أن تعليقها على الحكم قد أساء إلى الإنجليز

---

(١) الأهرام فى ١٨ أغسطس ١٨٨٣
(٢) الأهرام فى ٩ يناير ١٨٨٣
(٣) الوطن فى ٨ مارس ١٨٧٩

كتبت تقول « . . . إن جريدة الوطن دون غيرها طالما دافعت عن سياسة إنكلترا ونشرت مآثر أهلها ومكارم أخلاقهم ونقلت أفكارهم وغرر أقوالهم إلى غير ذلك ، ولما اشتد كرب تلك الفئة الباغية – تقصد العرابيين – كنا نتمنى لو أتت دولة البرابرة لتنقذنا من مخالبها فما بالك بدولة بريتانيا المتمدنة المشهورة بحسن السياسة ومزيد الكياسة ودهاء الرجال وسداد الأعمال فهل يظن أن تقابل معروفها بالغمط والكفران »(١) .

وإنما نذكر موقف جريدة (الوطن) لنقارن بينها وبين جريدة الأهرام ، فإنها علقت على الحكم تعليقاً لا يشوبه الغرض ولا يمليه الحقد ، فهى أولى من الوطن ومن غيرها ضيقا بالثورة وأصحابها ، لما نالها من ظلم ، ولكنها ترفعت عن التشفى حين حكم القضاء ، وعالجت فى تعليقها على الحكم ناحية موضوعية خالصة ، ودهشت لأن الحكم وتخفيفه قد صدرا فى وقت واحد « فقد اتفقت الشرائع العامة بل حكمة المبادئ الطبيعية على أن العفو يترتب على القضاء بالقصاص فيعلن الشرع قضاءه أمام الجميع ثم يدفع إلى ولى الأمر وهذا له حق التنويع ، ولقد جرى الحكم فى هذه المسألة على غير هذا النمط لأن المجلس لم يأمر بالقضاء حتى قفاه بإعلان العفو . . . ولم نكن لنتدخل فى عدل القضاء . . . ولكننا نلحظ كل الملاحظة على عدم مناسبة الطرق التى روعيت للوصول إلى هذه النقطة . . . »(٢) .فهى تعالج الأمر – كما بينا – دون زلفى إلى أحد ودون أن تحكم مشاعر الموتور الذى أفسد عليه واتره ماله وصحفه ومطابعه ، بل تبحث موضوعاً عاماً خالصة من الحقد الذى بدا فى معظم صحف العصر عند النطق بالحكم على عرابى

لعل هذه القضية كانت الموضوع الأول الذى نقدت فيه الأهرام تصرفا حكوميا فقد انصرفت عن الشؤون الداخلية ومعالجتها تحرجاً من الضيق الذى قد تنزله بها السلطات إن مدت أنفها إلى الأمور العامة بالأسلوب المأثور عنها قبيل الاحتلال حتى لاحظ عليها ذلك « إنجليزى يجيد اللغتين العربية والتركية » ، فقد قال لبشارة تقلا مدير الجريدة ومندوبها فى القاهرة « إننى أعجب من عدم نشركم جملا – أى مقالات أو موضوعات – من قلمكم عن الحالة والرأى العام » . وقد بعث بشارة إلى أخيه بتلك الملاحظة فى رسالة نشرتها الأهرام قال فيها « ولعلكم لا تمسكون البراع عن إثبات ما تعلمون ولو جعلتم الموضوع السياسة العامة »(٣) .

---

(١) الوطن فى ١٦ ديسمبر ١٨٨٢
(٢) الأهرام فى ٧ ديسمبر ١٨٨٢ — راجع الافتتاحية
(٣) الأهرام فى ١٣ نوفبر ١٨٨٢

عودها إلى الخوض فى السياسة

ومنذ كتب بشارة يستحث أخاه سليماً على إنشاء المقالات أصبحنا نجد بجانب أقوال الصحف الإنجليزية والفرنسية وغيرها عن المسألة المصرية تعليقاً صادراً من الأهرام على أقوال تلك الصحف ، فيه نقد لها وتصحيح لأخطائها ودفاع عن مصالح مصر فى خضم السياسة الدولية التى انصرفت بكلياتها إلى مشكلة الاحتلال الإنجليزى ، ثم تطرقت من ذلك إلى معالجة مسائلنا الداخلية ، وراعت فى أول الأمر ظروف الحال فناقشت الحالة الاجتماعية فى مقالات افتتاحية كان من أظهرها مقال عن « المسؤولية تتعلق بالمقام »[1].

وقد تولى بشارة تقلا مدير الجريدة من العاصمة مناقشة المسائل العامة ، وله فى ذلك ملاحظات وتوجيهات طيبة ، فقد كتب يعالج مسألة المراقبة وموقف الإنجليز والفرنسيين منها وموقف مصر أيضاً ، وختم حديثه بقوله « فحل مسألة المراقبة يقضى بوجوب ضمانة حقوق مصر أولا والدولتين ثانياً والدائنين ثالثاً » . وهو لا يغمط أحداً حقه ، فيعطى للدولتين مالها فى هذه المسألة وكذلك يحافظ على حقوق الدائنين ، ولكنه يطلب أولا حفظ حقوق مصر . ثم ينتقل من مناقشة مسألة الدين إلى التعويضات التى ينبغى أن تعطى لمن يستحق التعويض .[2]

نقد السياسة الإنجليزية

كانت ملاحظة الإنجليزى لبشارة تقلا ملاحظة دفعت صاحبى الأهرام إلى الخوض فى المسائل المصرية العامة سواء أكانت مسائل سياسية أم اجتماعية ؟ وقد بدأت الأهرام تنقد السياسة الإنجليزية فى موقفها من القضية المصرية ، وهو نقد وإن كان قد صيغ فى أسلوب هادئ إلا أنه يصور حقيقة الموقف الإنجليزى إذ ذاك ، فهى تذكر أنه « قد زاد المسألة غموضاً صمت الحكومة البريطانية عن ذلك وإباءتها الجواب الصريح كما يستفاد ذلك من مذكرات مجلس العموم بإنكلترا فإن كل سؤال يستدعى جواباً صريحاً يستخلص منه حكم استقبالى لا يجاب عنه إلا بالإغماض والتأجيل أو بالمواربة والاستدراكات فلا يهتدى السائل ولا المطالع إلى الحقيقة »[3]. وحسبنا هذا القدر من

---

(١) الأهرام فى ١٧ نوفبر ١٨٨٢
(٢) الأهرام فى ٢٨ نوفبر ١٨٨٢
(٣) الأهرام فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٢

المقال الذى استغرق الصفحة الأولى كلها ، فإنه قدر يصف موقف الإنجليز من حقوق مصر والجلاء عنها لا فى سنة ١٨٨٢ بل فى خلال ستين سنة أعقبتها ، ثم عادت إلى الموضوع نفسه بعد ذلك بأيام(١). وهى فى مقالاتها هذه لم تكن تمثل إلا بوادر الكفاح الذى أخذته على عاتقها فيما بعد ، وهو كفاح هز أعصاب المصريين وكتب لها صفحة خالدة فى تاريخ الصحافة المصرية .

ثم تودع الأهرام السنة المنقضية بقولها « نقلنا كر الليل والنهار إلى عام ١٨٨٣ بعد أن كرت علينا دواهيهما وكوارثهما عام ١٨٨٢ فودعنا الفائت متذكرين غير آسفين وقابلنا المقبل مؤملين غير قانطين . . . »(٢). وقد خلت شهور ١٨٨٣ الأولى من مناقشة المسائل السياسية العنيفة ، وإن كانت قد نشرت بعض أحاديث أو أقوال للمسؤولين ، فيها من المعانى جديد يقرأه المصريون لأول مرة بعد الاحتلال ، فقد أبرزت نصاً جاء فى كتاب شريف باشا للورد دوفرين بمناسبة سفره من مصر قال فيه « وبمقتضى الأفكار الدستورية شعرت الحكومة بالاحتياج لإرضاء الأمانى الحرة التى يتمناها شعب كثر ما تحمل فقد كل ضمانه ضد الاستبداد »(٣) . وبهذا القدر من الأسلوب تنفست الأهرام قليلا وبدأت تزدلف إلى المسائل السياسية العامة ازدلافاً أوقعها فى محظور ذلك الزمان .

حملتها على الحكومة من أجل الكوليرا

وفى سنة ١٨٨٣ انتشرت الكوليرا أو « الهواء الأصفر » أو « الهيضة » كما كان يسميها معاصرو ذلك الزمان ، وكان للأهرام فى هذا الموضوع رسائل نقد هزت الحكومة ولفتت النظر إلى كثير من الأخطار التى كانت تهدد سلامة الشعب ، وقد شغلت من صفحاتها شهوراً وهى تعالج موضوع الكوليرا وأسبابها والتهاون الذى سبب انتشاره فى القطر كله ، وتحمل فى غير هوادة على المسؤولين الذين أهملوا واجبهم(٤) وقد ضايقت الحملة المتصلة رجال الصحة وغيرهم من الحكام ، فقامت الوقائع المصرية تدافع عنهم دفاعاً شديداً وتكذب ما ذهبت إليه الأهرام . بيد أن الأهرام عادت تنشر تفاصيل الإهمال الذى ارتكبه مجلس الصحة العمومية وتتحدى الوقائع المصرية ومن يختفى وراءها ،

(١) الأهرام فى ١٨ ديسمبر ١٨٨٢
(٢) الأهرام فى ٢ يناير ١٨٨٣
(٣) الأهرام فى ٤ مايو ١٨٨٣
(٤) الأهرام فى ٣٠ يونيه ١٨٨٣

فنشرت الوقائع فصلا عن الأهرام وموقفها من موضوع الكوليرا ، لحمته الشتم وسداه التهديد بتعطيل الحكومة لها ، وزعمت الجريدة الرسمية أن علاج الأهرام لمشكلة الهواء الأصفر أخطر من الهواء الأصفر ، وطالبت الحكومة بتعطيل الصحيفة فإن وظيفتها – أى الحكومة – دفع الضرر عن البلاد والعباد من أى نوع كان »[1] .

وقد نشرت الأهرام رداً على الوقائع المصرية فى أسلوب ساخر ، وبعد أن لقنتها درساً فى أدب الخطاب أثبتت ما ذكرته من الأخطاء التى ارتكبت والتى « تؤيد حجتنا فى ما نسبناه إلى مجلس صحة مصر من الإهمال » ، وهى عشرة أخطاء فى مجموعها ، فصلتها الجريدة تفصيلا[2].

هذا لون من ألوان المسائل التى عالجتها جريدة الأهرام فى صدر الاحتلال ، ولم يمض عليه فى مصر عام ، وقد كان للأهرام جولات مماثلة فى النقد ، ولكننا تخيرنا موضوع « الهيضة » لأنه كان موضوعاً شغل الرأى العام المصرى واستقل بكثير من عنايته والتفاته ، فهى صحيفة قد أرخت بصدق تلك الشهور التى أفزعت المصريين من خطورة المرض وانتشاره ، وقد عالجت الأهرام الوباء علاجاً بديعاً بما لفتت إليه أنظار الحكومة من تهاون ، وبما أفسحت من صدرها لمقالات الأطباء الذين مدحتهم على عنايتهم بمواطنيهم بما شرحوا من أعراض الداء ووسائل الوقاية منه أو العناية بعلاجه أثناء الإصابة به[3].

الأهرام صحيفة الرأى العام

وهكذا بدأت بوادر كفاح جريدة الأهرام فى سنة ١٨٨٣ فى نقد مواقف الإنجليز من احتلالهم لمصر فى رفق ، ونقد تصرفات الحكومة فى المسائل الداخلية ، مما ردها إلى سابق العهد بها صحيفة رأى ، لا تعنى إلا « بالرأى العام » وإرضائه والعمل على تصويره شيئاً يحسب حسابه فى حياة الشعوب حتى أنها ما بدأت مقالا أو ختمت حديثاً إلا وذكرت « الرأى العام » الذى تضع بين يديه مواقفها ليحكم عليها أو لها .

---

(١) الوقائع المصرية فى ٤ يوليه ١٨٨٣
(٢) الأهرام فى ٦ يوليو ١٨٨٣
(٣) الأهرام فى شهور صيف سنة ١٨٨٣

معركة الجنوب

ليس فيها إلا كلام وإلا حسرة بعد حسرة تتهادى

« حافظ إبراهيم »

اختلف المؤرخون فى سياسة جريدة الأهرام بعد الاحتلال الإنجليزى ، فكان رأى خصومها من صحفيى العصر أنها صحيفة هادنت الإنجليز . أما رأى المؤرخين من المحايدين فقد خالف ذلك خلافاً شديداً حتى أن جريدة (الشعب) وهى من صحف الحزب الوطنى كتبت فصلا تؤرخ فيه للصحافة المصرية فقالت عن الأهرام « إن سياستها عثمانية مصرية تدافع عن مصالح فرنسا فى مصر سواء كانت اقتصادية أو سياسية ولكنها لا تهمل المصلحة المصرية وهى تقر للحكومة الحسنة وتبين لها السوءة . . . وهى أكثر الصحف عناية بمصالح الوطنيين وأحياناً تشتد فى نقدها كأكثر الصحف الوطنية تطرفاً »(1).

ثم يؤرخ لها فيليب طرازى فيقول « وكانت خطة الأهرام الداخلية مصرية عثمانية ، بمعنى أنه يجب أن تكون مصر للمصريين تحت سيادة الدولة العثمانية . وكانت سياستها الخارجية تميل إلى فرنسا لعدة أسباب ذاتية وعامة . فأما الأسباب الذاتية فهى أن فرنسا حمت مؤسس الأهرام من ولى الأمر أيام سجنه وكان على وشك أن يأمر بقتله . وأما الأسباب العامة فهى أن الخطة التى جرت عليها فرنسا وجدت مطابقة للمرام من حيث صداقتها التاريخية للباب العالى ومناظرتها لإنكلترا فى وادى النيل واهتمامها بمصالحه »(2).

وقد طالعت الأهرام فى السنوات الأولى بعد الاحتلال ، فإذا المسطور فيها يؤكد ما ذهب إليه طرازى وما أكدته جريدة الشعب مع تعديل طفيف فى رأى صحيفة الحزب

---

(1) جريدة الشعب فى ٨ مايو ١٩١٢

(2) تاريخ الصحافة العربية ج ٣ ص ٥١

الوطنى ، فإن الأهرام التى احتمت بالقنصلية الفرنسية فى سنة ١٨٧٩ خشية الرجوع بصاحبها إلى السجن والتشريد ، لم تبرز قط فضلا للفرنسيين إلا إذا كان هذا الفضل متصلا بخير لمصر والمصريين ، وقد كانت سياستها الداخلية سياسة مصرية عثمانية إن صح التعبير ، فقد كانت تنادى منذ وضع الاحتلال قدمه فى وادى النيل بأن مصر يجب أن تكون للمصريين وأن هذا المبدأ لا يتعارض مطلقاً وسيادة السلطنة العثمانية ، وأن الاعتراف بهذه السيادة سياج أملته حكمة سياسية ونظر بعيد ، فإن مصر لا تستطيع وحدها ومن غير تأييد تركيا المادى والأدبى أن تدافع مطامع الاستعمار عنها ، فهى — أى الأهرام — من أشد المتمسكين بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠—١٨٤١ على شرط أن لا يؤثر ذلك فى استقلال مصر والعمل على تقويتها وإبراز شخصيتها المعنوية ، فإن مصر القوية الحرة خير ضمان لمركز الدولة الأدبى لأن مصر تجاور الحرمين وتحميهما إن دعا السلطان إلى ذلك كما حدث من قبل فى صدر القرن التاسع عشر على عهد محمد على الكبير .

وقد شغلت جريدة الأهرام كثيراً من صفحاتها لتأييد وجهة النظر هذه . وكثيراً ما عاتبت خليفة المسلمين حين تهاون فى كفاح الاحتلال أو قصر فى إرسال جنده للقضاء على الفتنة السودانية ، ولم يعجبها منه موقف التذبذب فى أكثر من حالة ، وإن كانت تتقاضى له حقه من الاحترام والتوقير .

أما الحماية التى أضفتها فرنسا على الأهرام فلم تكن بدعاً بالنسبة إلى المصريين ، فقد كان يعقوب بن صنوع صاحب مجلة (أبو نظارة) قاسياً فى نقده للخديو إسماعيل ، وكان يعلم أن بطانة الخديو لن تسمح لصحيفته بالبقاء وهى تنقدها وتسخر منها وتعدد مساوئ الحكم فى سنة ١٨٧٧ ، فتحايل على أداء رسالته بأن احتمى بدولة إيطاليا ، فلما ضاق به الخديو ذرعاً وكفت إيطاليا يدها عن حماية صحيفته أغلقها إسماعيل ، ثم عالج مع هذه الدولة أمر بقائه فى مصر واستطاع أن ينفيه عن وادى النيل[١] . ومضى ينشر صحيفته فى باريس منددا بإسماعيل وخلفائه والاحتلال زهاء خمس وثلاثين سنة . ثم تحايل بعض المصريين فى إصدار صحفهم بوساطة بعض الأجانب ، كما حدث أن نشر السيد محمد وفا فى سنة ١٨٧٩ جريدة (الكوكب المصرى) باسم انزلوكاستلى ، وكما نشر بعض المصريين جريدة (البلاغ المصرى) ومديرها أسبانى حالت رعويته دون تعطيلها

---

(١) راجع : (ا) تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية للمؤلف ص ٢٣٦ و (ب) Sabry, M. La Genèse de L'Esprit National Egyptien. Paris 1934 هامش ص ١٢٧ و ١٢٨ و (ج) Baignières P. L'Egypte Satirique ص ٦ و (د) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ٢ ص ٢٨٥

فترة من الزمان إبّان الاحتلال ، ثم نقلت إدارتها إلى فرنسى لولا انسحابه منها لما استطاع الاحتلال أن يقضى عليها[1]. ومن الصحفيين المصريين من عزّت عليه رعوية أجنبية فهاجر إلى فرنسا أو إنجلترا ونشر صحفه هناك ، كما صنع أديب إسحق قبيل الاحتلال والشيخ محمد عبده بعده بسنوات[2].

الأهرام مهدت ليقظة مصر والحزب الوطنى

ومجمل القول فى هذا كله أن حماية فرنسا للأهرام أو إعجاب صاحبيها بها لم يحل قط دون أداء رسالتها الوطنية ، بل عاونها ذلك معاونة صادقة حتى استطاعت بالرغم من المتاعب والأخطار التى سنلم بأطرافها أن تبقى فى تاريخ مصر الحديث عشر سنوات تحمل لواء المعارضة وحدها وتحيى ميت الرجاء فى نفوس المصريين ، وهى التى نقلتهم من الذهول الذى أصاب مصر فى أعقاب الهزيمة العسكرية إلى يقظة مهدت للحزب الوطنى وجوده . وليس يعيبها بحال أن تعجب بفرنسا أو تعمل لها ما دامت « لا تهمل المصلحة الوطنية » ولا يضيرها هذا فى التاريخ ، وبعض الأمم تعجب ببعضها وتعمل لها وتؤمن بمبادئها . وتاريخ الأهرام — كما سنرى فى الأعوام التى تلت الاحتلال — أفضل من تاريخ مجالس مصر النيابية ، وأعظم من تاريخ معظم الصحف المعاصرة وأعز عند المؤرخ منها ، وأن مصر نفسها لم تختلف عن الأهرام فى إيمانها بفرنسا وأملها فيها ، وعند ذلك تلتقى الأهرام ومصطفى كامل .

جهاد الأهرام فى سبيل السودان

وإذا كان حظ الأهرام عند المصريين والعثمانيين حظاً موسوماً بالتقدير والإعجاب فإن خصومة الإنجليز لها ستبدو واضحة حين تضيق مصر بهول المصاب ، وحين يتبين لصحيفتنا عجز المسؤولين المصريين ، وكانت أخطر النكبات على مصر بعد الاحتلال نكبة إخلاء السودان ، فهى فكرة سيطرت منذ نزل الإنجليز مصر على عقول المسؤولين منهم ، وهنا تناولت الأهرام علم الجهاد بنقد الفكرة ، فقال بشارة تقلا مهوناً خطر الثورة « لا نعلم ما هى حقيقة أخبار السودان ولكن نعرف أن المسألة غير مرتبكة كما يشيع بعض المرجفين مع إقرارنا بأن للمهدى عمالا كثيرين ولكن وصول العساكر الجديدة والذخائر يوصد الآمال بتشتيت شمله قريباً على أنه لا ينبغى أن تطلب الإسراع فإن وسائط

(١) Lord Lloyd: Egypt Since Cromer, 1933. p. 102-104

(٢) راجع فى ذلك أعلام الصحافة العربية للمؤلف طبعة ثانية ص ١١٦ وما بعدها و ص ٦٨ وما بعدها

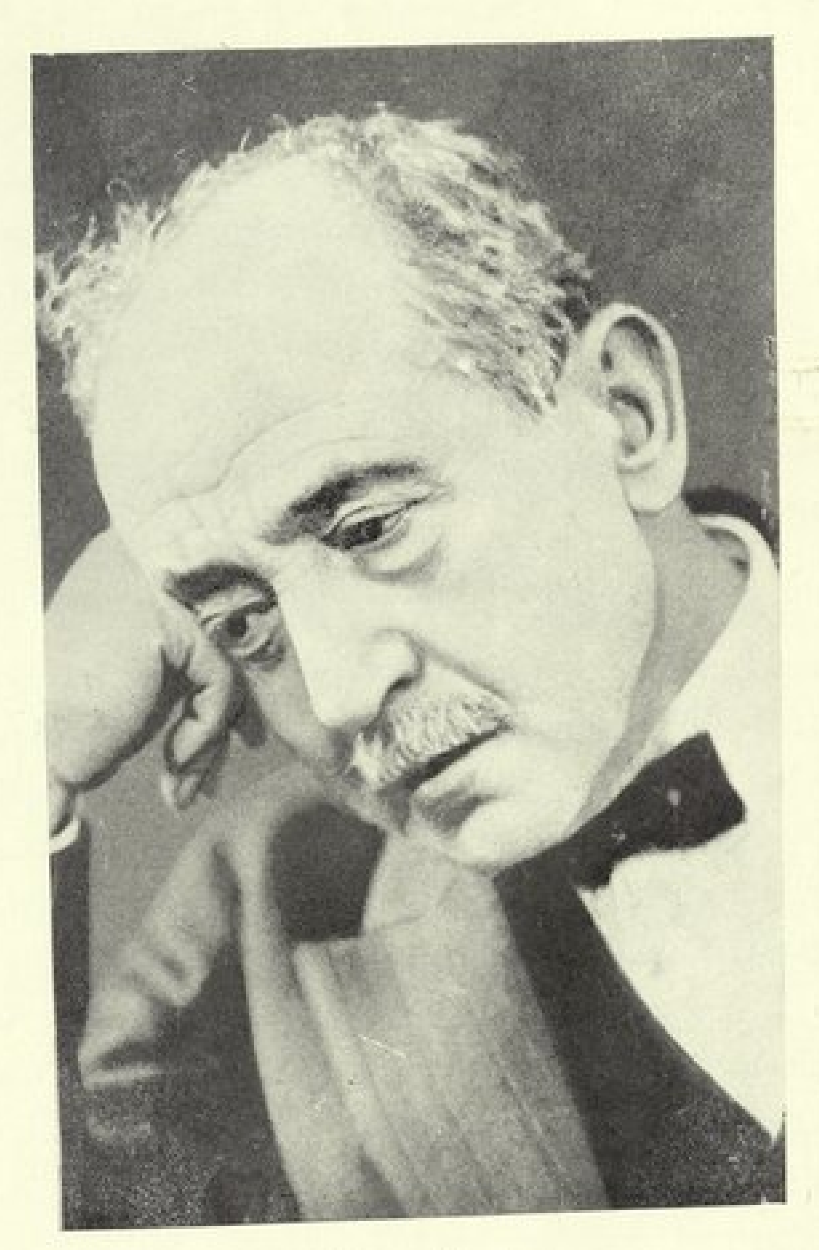
النقل هنالك صعبة جداً وهـذه المصاعب هى الحائلة وحدها دون الوصول إلى المرام بسرعة »[1].

وهكذا أحست الأهرام خطر الفكرة القائلة بإخلاء السودان وكان ذلك قبل تنفيذها بعام كامل ، فحملت على إشاعات بعض المرجفين وهم بالطبع من الإنجليز الذين صوروا خطورة الموقف فى صحفهم المختلفة تصويراً لا يلائم الحق فإن ثورة المهدى إلى ذلك التاريخ ، أى بعد الاحتلال بثلاثة أشهر لم تكن قد بلغت أوجها ، وكان فى المقدور علاج الأمر وتلافى النكبة لو حسنت النيات ، فإذا جاء الأهرام خبر يؤيد وجهة نظرها أبرزته فذكرت فى عدد منها « ورد اليوم من السودان أخبار سارة تعلن عن انهزام العصاة وتشتيت شمل الجميع فى أرجاء متعددة وقد تأثرتهم العساكر تعمل فى أقفيتهم العوامل »[2]. فإذا سقطت كردفان فى أيدى الثائرين طمأنت المواطنين بقولها « أى نعم إن حالة تلك البلاد تسوءنا ولكنا واثقون بوشك العمل السريع القاضى بقطع شأفة العصيان »[3]. فإذا انتصر حكمدار السودان عبد القادر باشا على جنود المهدى حلت أنباء ذلك الانتصار مهللة مكبرة فى عددين متتاليين[4]. ثم تمضى خصيمة للدور الذى يقوم به المهدى فى القضاء على وحدة الوادى ، فتنشر فى صدرها « إفتاء علماء الأزهر الأعيان فى إبطال دعوى مهدى السودان »[5].

وهكذا تمضى جريدة الأهرام ، أو يمضى مديرها بشارة تقلا فى التقرير الصحيح ، حاملا على فكرة إخلاء السودان ذاكراً المتاعب التى يمكن القضاء عليها ، مبرزاً النصر الذى يناله جنود الدولة على المتمردين ، معلناً أحكام الدين فى المهدى وأنصاره ، وكانت كلما أمعنت صحف الإنجليز فى الدعوة إلى ترك السودان تألم تقلا وذهب هو وصحيفته إلى وجوب العض عليه بالنواجذ ، وحتى فى أثناء سياحته فى الآستانة لم يترك رسالته دون تأييد وجهة نظر مصر فى الإبقاء على السودان إلى أن عاد إلى القاهرة من رحلته وبدأ حملته من جديد[6] ، فذكر فى مقال له أن « لا مشاحة أن مسألة السودان قد أزعجت إشاعاتها الخواطر وبلبلت الأفكار واستغرقت الوقت الطويل من أوقات الرجال العاملين

---

(١) الأهرام فى ٢ يناير ١٨٨٣
(٢) الأهرام فى ٨ فبراير ١٨٨٣
(٣) الأهرام فى ٢٣ فبراير ١٨٨٣
(٤) الأهرام فى ٥ و٦ مارس ١٨٨٣
(٥) الأهرام فى ٦ أكتوبر ١٨٨٣
(٦) الأهرام فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٣



أمير الشعراء أحمد شوقي بك

ولا غرو فإنها بقعة شاسعة كلفت حكومتنا المصرية من أيام المغفور له محمد على باشا رجل الجيل التاسع عشر إلى الآن المبالغ الوافرة فهى إذن عضو مهم من أعضاء بلادنا يسرنا ما يسره وبالعكس ولا سبيل لسلواه وما برحنا ننتظر من الخرطوم الأخبار الصادقة فإن ما شاع إلى الآن لم يؤيد بخبر حقيقى »[1]. فهو يذكّر المصريين كلما تأزمت الحالة فى الجنوب بأنه قطعة منا وعنصر يكمل بقية الأعضاء ، ثم تذكر الأهرام بعد ذلك أخباراً عن الهزائم المتكررة فى حسرة المواطن الوفى ، « كنا على أمل شديد من معرفة أخبار السودان الحقيقية وما تم فى الموقعة المهولة التى شاعت أخبار السوء عنها إلى حد هذا التاريخ فما تحقق الأمل ولا صدقت الظنون وما زلنا محرومين من رواية الواقعة كما جرت ولكن نتيجتها صارت معلومة تقريباً . . . . » ، ثم تعقب قائلة بأن المسألة السودانية « أصبحت موضوع النظر والاهتمام فى دوائر الحكومة السنية وشاغلا لنبهاء الوطن وذوى التبصر منهم الذين لا يغضون أجفانهم من واجباتهم نحو البلاد وحقوقها عليهم ويدركون دخائل الأمور »[2].

إحذروا الإنجليز فى السودان

وقد فصلت الأهرام أخبار الهزائم[3] ونقدت وسائل العلاج وبينت تلميحاً أن التهاون كان مقصوداً ، وناقشت آراء الصحف الغربية فى فكرة إرسال جند من الإنجليز لإخضاع الثائرين وحملت عليها ، وطالبت الدولة العثمانية أن تؤدى التزاماتها وتبعث بجنودها البواسل إلى ربوع السودان[4] قائلة « إن العثمانية والفرنساوية والإنكليزية والروسية مشتركة المصلحة بإطفاء شعلة ثورة السودان لأنها مجاهرة بالعصيان بدعوى الدين فمن الواجب على الدول الثلاث أن تساعد العثمانية فى العمل وتعترف لها بحقوق التداخل دون غيرها لتقدم عليه من غير ضرر بل على أوروبا عموماً أن تبذل المساعدة من غير جنوح إلى المطامع فإن المسألة ليست إلا ثورة داخلية لا تستلزم مزيد العناء وليس من العدل أن تحوم عليها نفوس الدول ، وتقوى ساعد البربرية على هدم مبانى المدنية والنظام وبودنا لو تحقق أملنا وتم التداخل العثمانى الذى لا تحصل بغيره على فوائد سياسية ومالية »[5]. وتعود فى

(١) الأهرام فى ٣٠ نوفمبر ١٨٨٣
(٢) الأهرام فى ١٠ ديسمبر ١٨٨٣
(٣) الأهرام فى ١١و١٢ ديسمبر ١٨٨٣
(٤) الأهرام فى ١٣ ديسمبر ١٨٨٣
(٥) الأهرام فى ١٩ ديسمبر ١٨٨٣

كل يوم تقريباً تحث الأتراك والمصريين على تدارك الأمر ، وتحمل على موقف الإنجليز وأصحاب القراطيس الذين يحاربون فكرة تجنيد قوى مصر وتركيا لدرء غائلة الثورة المهدية « إن ألد أعداء التداخل العثماني هم الماليون الحائزون لأكثر القراطيس المصرية والعثمانية أولئك الذين لا يرون غير قضاء مصلحتهم وحصول نفعهم مهما آل إليه الأمر لمتحملى أضرارهم » . ويعالج بشارة تقلا أمر الصحف الإنجليزية التي صرحت في أكثر من مناسبة بأن واجب انجلترا أن تنصح المصريين بإخلاء السودان « وإننا نسأل تلك الجرائد على اهتمام حكومة بريطانيا بنصح مصر أن تترك قسماً من السودان وهو المشتمل على الخرطوم وسواكن وبربر . هل تطلب مصر غير هذا القسم في هذه الحال وهل تسعى في غير الحصول عليه . وكيف يمكن حفظ بربر وطرقاتها غير مأمونة وهل القوة الموجودة الآن في سواكن يقصد منها غير إخضاع العصاة في أنحائها وكل استعدادات الحكومة واهتمامها وتأهباتها هل كانت لغير هاته الغاية »[1].

وداع الأهرام لعام ١٨٨٣

وقد ودعت الأهرام عام ١٨٨٣ هذا الوداع المؤثر « وداعاً لا يمازجه أسف ولا يقابله كدر بل هو واقف إزاءه وقوف ضعيف سلبه خصمه متاعه يستعطفه فلا يحنو ويستصرخه فلا يعي »[2] . وهي في الحق كانت خير لسان لخاصة ذلك العهد وفي مقدمتهم شريف باشا ناظر النظار ، فإن الإنجليز حاولوا عبثاً في مشكلة السودان أن ينالوا ترخيصاً منه بإخلاء السودان في أواخر ١٨٨٣ غير أنه أبى فلما نكبت حمله هكس التي دبرها الإنجليز حتى تواتيهم الفرصة للتدخل اتخذوا من ذلك وسيلة لنصح المصريين بترك السودان فذهب السير افلن بارنج Evelyn Baring (اللورد كرومر فيما بعد) إلى الخديو توفيق وعرض عليه نصيحة الحكومة الإنجليزية بإخلاء السودان ، ونال موافقته ، ثم قابل شريف باشا وعرض عليه سحب الجيش المصري من هناك وبين له وجهة نظر الحكومة البريطانية في ذلك ، فأكد له ناظر النظار أن الحكومة المصرية جادة في الإبقاء على السودان وأنها قد شرعت في إعداد حملة تعتقد أنها على كفاية ومقدرة من شأنهما أن يقضيا على الثورة المهدية ، وأن حكومة الخديو لا تستطيع أن تودى بمصالح مصر السياسية والاقتصادية وخاصة أن لها من القوات في السودان

---

(١) الأهرام في ٢٤ ديسمبر ١٨٨٣

(٢) الأهرام في ٢٠ يناير ١٨٨٤

ما يحمى المدن الرئيسية التى لا تزال بعيدة عن الثورة »[1].

وقد كتب المعتمد البريطانى إلى حكومته يشرح لها موقف التصلب الذى يقفه رئيس الحكومة المصرية فتلقى البرقية الآتية « ذكرتم فى برقيتكم المؤرخة فى ٢٢ من الشهر الماضى أنه فى حالة إصرار حكومة صاحبة الجلالة الملكة على طلب إخلاء السودان لا تقبل حكومة الخديو حسب رأيكم تنفيذ هذه السياسة ، ولا أرى حاجة إلى أن أبين لكم أنه من الواجب — ما دام الاحتلال البريطانى المؤقت قائماً فى مصر — أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها للخطر ، ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن التبعات الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى الإصرار على اتباع السياسة التى تراها ، ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقاً لهذه السياسة، وأن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه إذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة منهم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها إليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة »[2].

إستقالة شريف باشا وموقفه المأثور

وقد لقى شريف باشا الخديو توفيق ، فلما تبين له أن الخديو يرى رأى الإنجليز عقد مجلس النظار وكتب استقالة النظارة التاريخية التى جاء فيها « إن الأسباب التى حملت النظارة على الاستعفاء هى أن حكومة مصر ترى أنه من الممكن المحافظة على أملاكها السودانية التى بيدها الآن بواسطة ١٠ آلاف جندى وأن التخلى عن السودان مضر بمصلحة مصر سياسياً وتجارياً ، وفى حال تخلى مصر عن السودان تقفل بيوت عديدة تجارية شهيرة بالقطر ، ولا ترى الحكومة لزوماً لترك الخرطوم وسواها الخاضعة والتى لم يحصل فيها هياج وحاميتها قادرة على حفظها وصونها ، وأن حكومة مصر لا تقبل مطلقاً تلغراف اللورد جرانفل القائل بوجوب قبول كل نصيحة انجليزية بدون تردد ما دام جيش الاحتلال موجوداً فى مصر وأن كل ناظر لا يكون مشربه انجليزياً لا يلزم وجوده فى النظارة — فهذا مناقض لنص الدكريتو الخديوى الصادر فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ القائل بأن النظارة

---

(١) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى بك طبعة ١٩٤٢ ص١٢٤

(٢) Blue Book 1884, v. I. p. 176

مسؤولة أمام الخديو ليس إلا ، وبناء عليه لا تستطيع النظارة الحالية قبول ما تطلبه انجلترا »[1] . وقد علقت الأهرام على الاستقالة بقولها « ولا ريب أن هذا الاعتذار — — تقصد اعتذار الوزراء عن البقاء فى الحكم — مملوء حكمة وصادر عن مبادىء وطنية حقيقية لا يرتاب بها » . ولو ان بشارة تقلا يستطرد من الثناء إلى عتاب الوزارة الشريفية لأنها تولت الأمر وحدها دون الرجوع إلى « أفكار مجلس شورى القوانين وشورى الحكومة » ثم تندد بهذين المجلسين « وإنى لأعجب والله لسكوت المجلسين عما تقتضيه واجباتهما وإبداء آرائهما فى مسائل هى أهم المسائل المصرية أو بالحرى هى عين حياة مصر السياسية »[2] .

أسف الأهرام لاستقالة شريف باشا

وقد عرضت النظارة على رياض باشا فى ٩ يناير ١٨٨٤ أى بعد استقالة النظارة الشريفية بيوم ، فأبى ، ولكن نوبار باشا قبلها فى الحدود التى رسمتها برقية اللورد جرانفل ، وقالت الأهرام معقبة على تأليف هذه الوزارة « أما مسألة التخلى عن السودان فقد تقررت وصار لا بد منها » ، ثم أبدت حزنها الشديد على « حالة التجار المتعاملين مع تلك البلاد » ، ودهشت للحملة الصحفية التى قامت بها جرائد انجلترا عقب موقف شريف باشا المشرف « لا بد من إظهار تعجبنا مما تنشره جرائد لندن . . . ولكنها بما تنشره تجرح حاسة الوطنيين وتهيج أفكارهم » ، ثم تحمل الدولة العثمانية نتيجة تهاونها وتهيب برجالها فقد « انحصر اللوم كله على سياسة الدولة العلية وعسى أن يتنبه رجال العثمانية إلى الأهمية ويطالبوا بحقوقهم حتى لا يكونوا هدفاً لسهام الملام على ممر الأيام »[3] .

دفاع الأهرام عن مجلس الشورى

ثم تمضى الأهرام فى نقدها لأمور مصر ذاكرة أن الحكومة الجديدة قد عزمت على إلغاء مجلس الشورى قائلة « وإنى لأعجب كل العجب لهذا العزم والمجلس حديث العهد وقد بدأ بأمور كثيرة ويؤمل أنها تكون ذات فوائد للبلاد » ويذكر بشارة فى نفس الرسالة أنه لما تبين « أن مسائلنا المهمة عديدة وأن أهمية واجباتنا الوطنية تستلزم الوقوف على حقائق هذه المسائل وتمييز خلها من خمرها رأيت أن أقصد اليوم من هو كبير ذوات

(١) مذكراتى فى نصف قرن للحاج أحمد شفيق باشا طبعة ١٩٣٤ ص ٢٦٦
(٢) الأهرام فى ٩ يناير ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ١٠ يناير ١٨٨٤

الإنكليز الجامع إلى معرفة الاقتصاد المالى الدور السياسى المهم » ، ويسجل الأسئلة التى وجهها إلى الإنجليزى الكبير والإجابات التى تلقاها منه ، وهى فى مجموعها تتصل بشئون السودان ، وفيها كان بشارة مواطناً عظيماً قبل أن يكون صحفياً مجتهداً[1].

دفاعها عن شريف باشا

ثم تبدأ الصحافة الإنجليزية حملة عنيفة على شريف باشا وعلى رأسها صحيفة الأجبشيان جازيت التى تصدر فى مصر ، والتى دأبت على تسوىء سمعة الأحرار من رجال الحكم ولفتت نظر الحكومة إلى معارضة الأهرام السافرة وتأييدها للوطنيين هذا التأييد الملحوظ فى صفحاتها الكثار ، وفى هذا كتب بشارة تقلا مقالا ممتعاً يعالج أمورنا فى ذلك الوقت جاء فيه « أذكرتنى حوادث عاصمتنا فى المدة المتأخرة بمخاطبة عبد الله بن الزبير إلى عثمان بن عفان الخليفة الثالث حيث قال وهو جالس على كرسى الخلافة « اعتدل أو فاعتزل » ولعمرى إنه مقال وجيز يتضمن حكماً ونصائح كثيرة من حقوق كل رعية أن ترجع إليه إذا ساءت إدارتها وفسدت حالتها » .

« على أنه لا يقال فى مثل الحالة الراهنة بالشرق . فإن الرعية صامتة وقد قامت مقامها قوة أجنبية تخاطب حكومات الشرق بمقال آخر ألا وهو « أطيعى أو فاعتزلى » وهذا معنى الواقع للنظارة السابقة وفى الصدر كلام لا أرى بدأ من كتمانه الآن حيث كنت بعيدا عن الغرض، فى معزل عن أولئك الذين دأبهم التنديد والتقريف فى الرجال بعد سقوطهم من منزلتهم أو التزلف إليهم فى أوان توسدهم سدرة المناصب السامية على أنى أذكر السيئة أو المحمدة فى حينها وأجهد النفس فى نفع الوطن لا أبالى بسقوط زيد أو ترفع مرتبة عمرو ولا أتحاشى فى الحق لوم اللائمين » .

ثم يخاطب الجازيت « مهلا أيتها الغازت فقد أتيت أمراً فرياً بما كتبته ضد دولتلو شريف باشا وإخوانه النظار إذ سلقتهم بألسنة حداد كعادتك فى مثل هذه الأحوال . . . » .
ثم تناقشها فى سخف نقدها للباشا الذى يقضى ساعة من أوقات فراغه لاعباً (البلياردو) . . .
« ثم لو كان ما تقولينه واقعياً من أن دولته ما كان يهمه من أمر منصبه سوى الحصول على مرتبه البالغ ثلاثة آلاف جنيه سنوياً فما كان الموجب لرفضه اقتراحات انكلترا وثبوته فى منصبه الرفيع لولا صدق وطنيته وسلامة مبادئه . فما نراك فى مقالك إلا مخطئة ضد الرأى العام بما نسبته من البهتان إلى شخص الشريف خصوصاً، وزملائه النظار عموماً . وكان

---

(١) الأهرام فى ١١ يناير ١٨٨٤

الأولى بك ومن الحكمة لو قلت إن الحزم الذى أظهرته وزارة الشريف مؤخراً كان يجب إجراؤه من قبل سنة بدلا من المسالمة والملاطفة فكان عضدك الرأى العام واستصوب مقالك » .

فهو يدافع عن « الشريف » كما سماه وعن حكومته وإن لم يعفه من خطأ « المسالمة والملاطفة » للإنجليز دون السلطان ، وإنه كان يرجو أن تكون وقفته الخالدة أقدم عهداً من يوم حدوثها ، ثم يتوجه بالكلام إلى الجازيت مرة أخرى قائلا « أما استلفاتك النظارة الجديدة إلى ما يقول الأهرام فهو وإن كان صادراً عن سوء قصد فقد يسرنا لأن الأهرام لا تخاف وعيداً أو تهديداً وقد ثبتت القدم فى خدمة البلاد وآلت على نفسها ألا تعرج عن مبادئها المخلصة مهما تعاقبت عليها الأيام وتوالت الحوادث وإنى أعيد ما قرفت (لعله يقصد درجت) الأهرام عليه وهو « إننا عرفنا أعضاء النظارة الجديدة رجالا أذكياء أولى وطنية وحزم ونشاط ولكننا لا نبتدرهم بالمدح إلا بعد أن تقضى علينا أعمالهم بذلك وعسى أن تتحقق الآمال... وليس الأهرام كالغازت يمدح اليوم ما يذمه غداً بل يروى بعد التروى ويمدح أو يذم بعد عرض الواقع قياماً بالواجب »(١) .

وظلت الأهرام تدافع عن شريف باشا وموقفه من المسألة السودانية فكتبت منددة بجريدة التيمس التى « أخذت الآن تندد بوزارة شريف مع أنها فى كل مدة الوزارة السابقة لم تفتح بابا للوم عليها بل كانت مظهرة استحسانها لأعمال الوزارة وقد كنا فى ذاك الحين وقبله نشير إلى ملحوظات التيمس وغيرها مشفوعة بما لدينا من المعلومات والإفادات وإن كنا على اختلاف وإياها فى القصد من المحررات فإنها كانت تؤيد مصالح دولتها وكنا ولا نزال عامدين إلى تأييد مصلحة البلاد والمحافظة على حقوقها ، وازداد عجبنا من قول التيمس إن النظارة المستعفية من يوم استقالتها وهى آخذة بدس الدسائس . فياله من اختلاق وافتراء على نزاهة رجال النظارة السابقة . . . »(٢)

دفاعها عن قواد الجيش المصرى

ثم يعود بشارة تقلا إلى مسألة السودان منددا باختيار الإنجليز فى قيادة المعارك وإدارتها وتقديمهم على المصريين الأكفاء « ويسوءنى والله أن أقول إنا لم تتخذ أسباب الحيطة فى جميع أدوار المسألة السودانية أو بالحرى من يوم تقلد هيكس قيادة الجيش واستبدلنا سعادة عبد القادر باشا . وقد يفوتنى الحصر والعد لو جئت على بيان الخلل

(١) الأهرام فى ١٢ يناير ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٢١ يناير ١٨٨٤

الذى تخلل إهمالنا مما يوجب اللوم ويستلزم التعنيف . . . »[1] . ويضغط بشارة فى العرض عن خيبة هكس وحملته ، ويرتب لذلك حديثاً أجراه مع تاجر عربى عاد من السودان ، وينشر هذا الحديث فى صدر الأهرام « وسأله عن حيثية سعادة عبد القادر باشا عند ما كان حكمداراً للسودان فقال — انه يلقب هنالك « بالشاهين » وله مكانة وحيثية يعز على سواه منالها وهو ذو الفضل بما أجراه مدة ولايته وقد كان معززاً محبوباً من الجميع فإنه أنقذ سنار بقليل من العساكر وذلل الثائرين ممن كانوا فى جوار الخرطوم وسنار ولو لم يترك وظيفته لتمكن من دون ريب من تدويخ القبائل الثائرة » . ثم ينشر على لسان التاجر أخطاء هكس الحربية ، وفى ذلك كله معنى التشفى والتحقير للإنجليز أصحاب السلطان فى مصر[2].

نصرتها لتجار السودان

وقد لاحظت الأهرام أن الحكومة قد أهملت مصالح تجار السودان وأن بعض الصحف اعتذر عن الحكومة بظروفها القاسية فلم يعجبها الإهمال ولا الاعتذار وكتبت فى ذلك فصلا جاء فيه « أعجب والله للمستخفين بأعمال معتمدى تجار السودان على زعم منهم أنها لن تنجح فى سؤلها ولن توفق إلى قصدها ونحن لا نضمن تحقيق الأمل ولا نتحدث بعدمه ولكننا نستصوب عملهم على كلا الحالين إذ لا يعاب المطالب بحقوقه أدركها أو لم يدركها . . . . ومن لا يصادق معنا أن الرجل الذى لا يوالى الطلب بحقوقه الضائعة مخافة عدم استدراكها يعد ساقط الشأن خامل الرأى مائت الأمل . . . »[3]، ويعنى هذا أن الأهرام إذا عرضت لأمر التجار ومتاعبهم فإنها تعقب لتقوى الروح المعنوية فى صدور المصريين حتى لا يكفوا عن مطالبهم الكبرى .

حملتها على القيادة الإنجليزية

ثم جاءت الأنباء بهزيمة جيش يقوده (باكر باشا) وهى هزيمة منكرة فكتبت الأهرام مقالا طويلا خطه بشارة بعنوان « موقف باكر باشا » جاء فى مقدمته أنين وشكوى من سوء الفعلة واضطراب التقدير « صببت يا سماء المصائب ضرباتك علينا أشكالا وألواناً وشققت أيتها الأرض فوهاتك تبتلعين عساكرنا ونخبة شبابنا . وأسقطت يا سحب هتن

(١) الأهرام فى ٢٢ يناير ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٢٤ يناير ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ٢٦ يناير ١٨٨٤

المصائب ووابل الإحن فأجريت من آماقنا العبرات وأذهبت أنفسنا حسرات ، نستغيث ولامغيث فبتنا حيارى سكارى لا نعرف كيف ندرأ المصاب وماذا عسى يكون المصير فلا حول ولا » .

« وكل سياسة لم يعول ولاتها على دره مصائب المستقبل بها فهى علة للنوائب والمصائب وهذه أمور واقعية مرت بنا وتوالت على قطرنا مراراً وما زالت جارية نصب أعيننا فليس ثمت من لزوم لإثباتها بالأدلة والبراهين . وقد استفحل أمر الثورة السودانية واشتد عزم العصاة وقوى جأشهم من يوم نودى بتركهم وشأنهم الذى لم يكن فى حسبان أحد، ولذلك أجمع رجال سياسة أوربا والشرق طرا على استهجانه واتفقت الجرائد على اختلاف مشاربها ونحلها وتباين غايتها معهم ما خلا تلك التى ختم الله على أبصار أربابها وبصائرهم فاستحسنت الترك وصدقت عليه وكتبت ما لم يخطر على قلب بشر فلندعها وشأنها وسيان عندنا وجودها وعدمه » .

ثم يمضى المقال منددا ببيكر باشا الذى زعموا أنه قائد عظيم الشأن ، ويقدر ما قدمته له الدولة « فصرفنا له المؤونات وكامل المعدات ووضعنا تحت أمره قدراً وافرا من المال وجندنا له العساكر ، فكانت نحو سته الآف مقاتل بل أكثر من ذلك » . وتفند الجريدة قول القائلين بأن القائد العام كان قد سافر قبل قرار إخلاء السودان ولكن « فاتهم أن معظم القوات بعثنا بها إليه بعد قرار الترك . . . وقد نشرنا فى حينه الأمر العالى الخديوى إلى باكر باشا المحذر عليه الإتيان بحركة قبل استكمال القوة العسكرية وبعد إجراء الاستكشافات اللازمة وبعد أن يتيقن أن قوته كافية وافية للتغلب على الأعداء » ولكنه لم يع ما طلب إليه أن يعيه وأثارها موقعة هزم فيها شر هزيمة مع أنه ضابط ماهر ومع أنه محاط بأركان حرب أجانب ومعظمهم من الإنجليز »[1] .

وقد حدثت الموقعة التى انهزم فيها باكر باشا يوم افتتاح البرلمان الإنجليزى وأثناء تلاوة خطاب العرش ، وقد خشى بشارة تقلا من سوء العاقبة حين تنزل أخبار الواقعة على الإنجليز نزول الصاعقة وكتب يتساءل « . . . هل نكون آمنين على حقوقنا السياسية المقررة بالفرمانات الشاهانية السلطانية أولا . . . وإذا سقطت هذه الوزارة — وزارة الأحرار فى انجلترا — وتولى المحافظون أزمة الأمور مكانها فهل يتوقفون عن تحقيق أمانيهم مما نعهد فيهم من حب الفتوحات والتملك — هذا ما نخافه وقد أصبح حديثنا وموضوع بحث العقلاء »[2] .

(١) الأهرام فى ٧ فبراير ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٨ فبراير ١٨٨٤

ألم الأهرام لإخلاء السودان

وقد كان إخلاء السودان قذى فى عين بشارة تقلا كما كان قذى فى عين كل حر فى ذلك الزمان ، لذلك كانت مقالات بشارة لا تخلو فى معظمهامن إشارة إلى السودان والفكرة السخيفة التى أملت إخلاءه . انظر إليه وهو يتمثل بقول شريف باشا المأثور « ولئن تركناها (أى بلاد السودان) فهى لا تتركنا » ، ثم يمضى قائلا « ألمعت بل صرحت مراراً عندما صدر القرار من أرباب المشورة أو ذوى الأمر بإخلاء السودان أن الرأى ليس من الصواب فى شىء بل هو فاسد من عين أصله . وما أتيت بذلك تحاملا أو افتتاناً بل كان بعد التروى والعلم بالارتباط المحكم من سنين طوال بين مصر والسودان وبعد الوقوف التام على دقائق أحوال القطرين فإن السودان كلفت مصر قدراً كبيراً من المال فضلا عن الرجال ومعاناة الأهوال ، وكانت فى جميع أكلافها منفردة ثم قضت عليها سياسة التردد بالوصول إلى الارتباك والعسر المشاهدين فى أيامنا هذه وكانت سبباً بتعرض غيرها إلى أمور نفسها فخضعت لحكم القضاء صاغرة مكرهة لا مختارة وقبلت النصح بترك السودان ولكن هل حصل فى الإمكان تنفيذ منطوق ما نعده نصحاً أو هل يؤمل قيامنا به بخير وسلام — وأبيك إنا لا نجد باباً للأمل ولا تعلة للنفس فقد دلت الأوائل على الأواخر وأسفرت المقدمات بما فى طى النتائج »(١).

دعوتها لنجدة أهل بربر

ثم تنتهز الأهرام فرصة الضيق الذى أثر فى « علماء بربر ومشائخها وأعيانها الوطنيين والأجانب » وتنشر لهم برقيتهم التى أرسلوها للحكومة مقدمة لها بأن عباراتها « تفتت الأكباد وتحرك الحمية والغيرة الوطنية والشهامة الإنسانية » ثم تنشر البرقية التى جاء فيها « . . . أين منا جرائد لوندرة وجمعياتها المنددة بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها للهلاك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الأرقاء ، فإنهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال . . . » ثم تقول الأهرام تعقيباً على هذه البرقية « هذا ملخص ما جاء فى العريضة التلغرافية وقد أضربنا عن إثبات بعض عبارات عنيفة منها واكتفينا بما ذكر بياناً لحالة الضنك الحالّة بهؤلاء الناس فى تلك الجهة » . ثم تذكر الرأى الفاسد الذى أوحى بترك السودان قائلة « وهى حالة طالما تخوفنا من الوصول إليها وحذرنا من الوقوع

---

(١) الأهرام فى أول أبريل ١٨٨٤

فيها ورسائلنا المتوالية شاهدة على القول وما خفنا (كما هو دأبنا فى بسط الحقائق) كبيراً بل نددنا فى حينه بالسياسة القاضية بترك السودان » ثم تعلن أن « فساد الرأى من التخلى عن السودان . . . فظهر للعيان وصار فى علم كل إنسان من هو المسئول بحياة آلاف من عباد الله غير أولئك المتسببين بهذه السياسة »[١]، ثم تكشف عن المسببين لهذه السياسة من إنجليز ومصريين وتحمل الحكومة نتيجة هذه السياسة التى أودت بطمأنينة المواطنين فى السودان وساعدت على « هتك وسبى وقتل » الناس الآمنين هناك[٢] .



السيد محمد أحمد المهدى زعيم الثورة فى السودان

حملتها على السياسة الإنجليزية

ويعز على بشارة تقلا أن يتهاون الإنجليز فى أمر المواطنين الذين تركوهم بسوء سياستهم وهوان قيادتهم فريسة للثوار فى السودان ، فينشر نبأ أكبر الظن أنه من اختراع الكاتب ، وإنما هو يسنده إلى خبر جاءه من بربر حتى يتحايل على تخفيف وقعه على المسئولين فيزعم أن النبأ يقول « عار على انجلترا أن تدعنا وشأننا فى مثل هذه الحال فقد ساقت ألوفاً من الخلق إلى الذبح جزاء الإخلاص لها والاعتماد على تدبيرها وسياستها المتناقضة فإن مؤرخى القرن التاسع عشر سيدونون خطأها الفظيع »[٣]. وما نحسب فى أهل بربر من يقدر التاريخ ويخشاه هذه الخشية التى لا يعرفها إلا من يؤمن به ويخاف حكمه ، وهى لفتة لا تصدر إلا عن دارس واع لما يقول ، ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن نبأ بربر من عنديات بشارة تقلا أنه استعد لهذه الحملة التى يشنها على الإنجليز ويكشف مستورهم دون معظم الصحف العربية المعاصرة ، وأنه قد دأب على إذاعة أخبار لا تنشر إلا فى الصحف الإنجليزية فكتب يفند هذا الرأى بقوله « . . . ألا يدرى هؤلاء أن خواطر

---

(١) الأهرام فى ١٧ أبريل ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى أول مايو ١٨٨٤

المصريين متنبهة وأنهم يطالعون الجرائد الإنكليزية بتأن . أما جريدتنا فلم تسلك فى ما كتبت الا الطريقة المثلى العادلة فشعارها الوطنية ومبادئها الصدق ولم تتعود على إنكار الجميل مهما كان مبلغ الوعيد » ، ثم يستطرد قائلا « هذا وإننا قد أوضحنا عن أفكارنا بإعلان ماهية واجبات الحكومة والأهلين ، وقد عضد الرأى العام ما قلناه فوجب علينا الآن أن نعلن بأننا أتممنا واجباتنا فلا يلومنا التاريخ ». وإذن فهو العارف بقدر التاريخ المردد لخطورته ، وهو يعتمد على هذا المعنى فيطالب كل امرئ « عنده أريحية وطنية وحمية عربية ودم حى يجرى فى شرايينه أن يقوم بواجباته ويحقق آمال البلاد به حفظاً لمصلحتنا العزيزة فقط »[1] وإذا ضايقه أن أحداً لم يلب نداءه وأن المواطنين فى مدن السودان وربوعه لم يعن بهم إنسان ، وأن الإنجليز لم يفكروا إلا فى إنقاذ غوردون وحده فلا يسعه الصمت « فى مثل هذه الأحوال بل لو كان للحجارة فم لنطقت واشتكت جور السياسة الحالية العاملة على إنقاذ غوردون دون سائر عباد الله فى أرض السودان . فإن تصريحاتها لم تبق لنا أقل ريب بأن الحكومة الإنكليزية سيان عندها سلامة المخلصين العديدين هنالك من عدمها وقد صمت الآذان عن استغاثتهم ولم ترق لمصابهم العظيم ولن يستقدمها مهم إلى السودان ما دامت مطمئنة على سلامة رجلها غوردون »[2] .

(١) الأهرام فى ٩ مايو ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ١٤ مايو ١٨٨٤

الأهرام والجيش المصرى

بجيش ترجف الـرايات فيــه وتخفق دون مقدمــه البنــود

« صفى الدين الحلى »

تكاد الأهرام لا تفرغ من نقد سياستنا الداخلية والخارجية خلال سنة ١٨٨٤ ، وقد بدأت خطة النقد هذه منذ نزل الإنجليز مصر ، بدأتها لينة تتحسس مواضع الخطأ فى العهد الجديد ، فإذا قطع الاحتلال عدة شهور فى أرض الوادى واتضح لها أن الإنجليز يراوغون فى أمر الجلاء وترك « مصر للمصريين » كتبت أكثر من مرة تؤكد واجب إخلاء مصر وتركها لأصحابها وعرضت فى فصول طوال لهذا الأمر ، متحدثة عن موقف تركيا الطيب فى هذا الموضوع[1]. ثم أخذت تغمز الإنجليز غمزاً صريحاً فيما تلا ذلك من شهور[2]. وهى إنما تعتمد فى كشف المستور من سياستهم التى زادها وجودهم سوءاً على سوء ، على صحف الإنجليز أنفسهم ، فتنشر لها وفى أهم صفحاتها نبذاً تعرض مساوئ حكمهم فإنه ـ كما تقول الستاندارد ـ يبدو « أن حالة مصر فى الحاضر أسوأ منها يوم تولى الإنكليز إدارة السياسة المصرية عقب موقعة التل الكبير وولوج العساكر الإنكليزية عاصمة القطر »[3].

ثم تتعقد مسألة السودان ويستفحل أمرها على الصورة التى عرضنا لها وتبدأ الأهرام حملتها التى أوجزناها ، وتتصل المشاكل فيشكو بشارة تقلا « إنا نرى جعجعة ولا نسمع طحنا » فى حل مشاكلنا[4] ولا يعنيه تعنيف المسئولين له « فإنى لست ممن يسيرون على الأثر قصد الوقيعة أو الادعاء تقليداً منتحلا على غير جدوى بل أنا إخبارى وطنى أرسم على الصحف

---

(١) الأهرام فى ١٥ مارس ١٨٨٣

(٢) الأهرام فى ١٣ يونيو ١٨٨٣

(٣) الأهرام فى ٣ يناير ١٨٨٤

(٤) الأهرام فى ٢٨ يناير ١٨٨٤

ما ارتسم على ألواح الصدور أثر الحوادث الطارئة ملتزماً رعاية ظروف الزمان والمكان فى جميع الأحوال »[1] ومن واجباته الصحفية التى أشار إليها تلك الشائعات التى يجب أن يسجلها ، فإذا كانت مشكلة السودان قد طرقت فى وضوح وقطع فيها الإنجليز برأى أسقط حكومة وأقام أخرى ، فإن رأى الإنجليز فى الجيوش المصرية والجندى المصرى رأى لا يسر مواطناً ، وخاصة ذلك المواطن الذى يعلم أن وراء الرأى خبيثاً ، وأن الغرض منه حل الجيش المصرى والاستغناء عن خدماته .

دفاعها عن الجيش المصرى

وتبدأ الأهرام كفاحها فى الدفاع عن الجيش المصرى بالتهوين من قدر العساكر الإنجليزية ، فإذا غلبت قيادة هكس باشا وباكر باشا فى السودان ذكرت الأهرام أننا إذا أردنا القضاء على الفتنة السودانية « استلزمت الحال إلى قوة من ٤٠ ألفاً من العساكر المنظمة الإنكليزية أو ٢٠ ألفاً من العثمانية »[2] . والعثمانية هنا كما تفهمها الأهرام ويقرها الجيل ، جنود السلطان من ترك وعرب ومصريين ، وقد أثار هذا التقدير ثائرة الإجبشيان جازيت ودعا إلى مناقشة حامية بين الصحيفتين [3].

وإذا رأت الأهرام صحف الإنجليز موغلة فى تصوير الجنود المصريين تصويراً سيئاً فى معارك السودان ، قارنت بين رجالهم ورجالنا وفصلت فى بطولة جنودنا وقوادنا فتذكر عن واقعة سنكات « . . . بخصوص حامية سنكات تحت قيادة البطل توفيق بك فإنها بعد فراغ مؤونتها خرجت من الاستحكامات خروج الأسد من عرينه . . . وبعد قتال عنيف قتل القائد توفيق بك وقضى على الحامية فلم ينج منهم أحد ويؤكدون أن الواحد من الحامية قتل أربعة رجال من العصاة قبل وفاته فبمثل هؤلاء الشجعان نفاخر وبمثلهم يعتز شأن البلاد رحمة الله عليهم . وأى أتخذ هذه الواقعة برهاناً أثبت به ما ذكرته مراراً من أن العساكر المصرية إذا تدربت على التعليمات فإنها تحسن الدفاع عن الوطن بل تتميز بشجاعتها وبسالتها . . . وهذه الواقعة تنقض دعوى الزاعمين عدم الأهلية بالعساكر المصرية »[4].

لقد اتخذ بشارة تقلا مشكلة السودان وسيلة يدحض بها خصوم الجيش المصرى ، وهو يحمل على صحافة انجلترا حملة شعواء « أعجب للتيمس وغيرها من جرائد

(١) الأهرام فى ٣١ يناير ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٧ فبراير ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ١١ فبراير ١٨٨٤
(٤) الأهرام فى ١٣ فبراير ١٨٨٤

لوندرة الواسعة الشهرة كيف بلغت مبلغها من الأهمية وهى تتلون كالحرباء فى مباحثها وتتظاهر بالمبادئ ما سولت لها النفس فتنقض اليوم ما أثبتته فى الأمس وتؤيد فى الغد ما أنكرته اليوم . . . اتضح جلياً من محررات التيمس أن أخص مبادئها ومنتهى غايتها هضم حقوق الغير والتوسع فى مال الضعيف » . وهى تحمل على جريدة التيمس لأن هذه الجريدة لم تكتف « بالتقريف والتعنيف والتحامل على الشرقيين عموماً والمصريين منهم خصوصاً حتى جاءنا نبأ البرق فى هذا اليوم يسفر عن إرادتها الموضوعة فى قالب النصيحة » ، ثم يذكر هذه النصيحة التى جاءت بها التيمس وهى التخلص من الجيش وتكاليفه المالية سواء فى مصر أو فى السودان ، وذلك بحله وصرف جنوده زاعمة أن ما تعرضه « مما يجوز قبولا ويوجب سروراً من العموم » ويعلق بشارة على هذه النصيحة الماكرة « فيالله من هذه النصيحة المشفوعة بالتحبب فإن مفرغها فى أعمدة التيمس يعلم علم اليقين أنها أشبه بضربة أليمة على مصر والمصريين . . . إلا أن محاولتها تعد محالا ولا تنطلى على عامة المصريين فضلا عن خاصتهم ولتعلم التيمس ونظائرها أن انحلال الجيش المصرى ضربة لا تستطيع مصر احتمالها ولا تدرأها إصلاحات انكلتره »(١).

ولم تسلم جريدة التيمس ومثيلاتها من حملة بشارة تقلا خلال شهر مارس ١٨٨٤ فإذا أذيع أن قوة مصرية سترسل إلى سواكن إنقاذاً لحاميتها الإنجليزية انتهز الكاتب الفرصة وكتب يعيّر جريدة التيمس بموقفها السابق من جيش مصر « أين جريدة التيمس القائلة بضرورة حل الجيش المصرى حملا على عدم الفائدة منه فها قد تقرر أيتها الجريدة إرسال طابور من العساكر المصرية إلى سواكن تخفيفاً للأثقال عن عاتق عساكر بلادك فى أيام الشدة فهل من العدل فى شرعك أن تعانى عساكر مصر المشاق وتستخدم فى رفع الأخطار والمضار وتعامل من ثم بالطرد وحرمان المزايا وقطع المعايش فى أيام الرخاء »(٢) .

معارضة الأهرام فى حل الجيش

ولا يخفى على دارس هذه الحقبة من التاريخ أن الإنجليز حين احتلوا البلاد كان دأبهم الأول تنظيم الجيش من جديد ، وتنظيم الجيش فى اعتبارهم التخلص من قيادته القديمة وضباطه الوطنيين والرجوع به القهقرى والحد من عدده حداً يجعله صورة لقوة

---

(١) الأهرام فى ٢٢ مارس ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى أول أبريل ١٨٨٤

بوليسية لا بجيش يدافع عن وطنه فسيح الأرجاء مترامى الحدود، وقد تم للإنجليز ما أرادوا وسيطر ضباطهم على الجيش الصغير، ودار فى خلد بعض ساستهم التخلص من هذا الجيش نهائياً مراعاة للأزمة المالية التى تردت فيها البلاد، واعتماداً على وجود جيش الاحتلال فى مصر، وفى ذلك كتب بشارة ساخراً «يلوح أن حجة انكلترا بحل الجيش المصرى محصورة فى انتفاء لزومه ما دام جيش الاحتلال فى القطر. ولكن إذا قابلنا فائدة حله بفائدة عدمه قضينا بعدم الحل لأن القصد الأول إنما هو الإصلاح وكيف يتأتى هذا للبلاد وليس لها عسكر منظم يكفل إجراء الإصلاح فيها فضلا عما ستئول إليه حالة مئين من الضباط لا خدمة لهم ولا لديهم ما يتعيشون به وماذا يكون تأثير توزيع ألوف من العسكر فى جهات الأرياف بعد أن خدموا فى الجندية وعرفوا واجباتها وتوقعوا التقدم فى سلكها بل ماذا يكون تأثير ذلك على عقول الأهلين عموماً إلا تأكدهم بأن انكلترا ستتدرج بسياستها هذه إلى الاستيلاء على البلاد، وكيف يطيب قلب المصرى فى هذه الحالة وهو يرى أن المبلغ القليل الذى يأخذه أخوه الجندى من إيرادات البلاد تحول إلى أبواب ثانية غير مصرية ولعله يقول إنه لم يبق لتتمة الإصلاح إلا فصل بقية الموظفين الوطنيين لتزداد ثروة البلاد»[1].

ثم تحمل الأهرام على مواقف السير بارنج الذى أحسنت الظن به فإذا هى تكف عن حسن الظن هذا بعد أن «اختلفت المقاصد وتباينت الغايات وانعكست النتيجة وانكشفت مكنونات الصدور واتضح للجمهور أن الظواهر غير البواطن» وخاصة فى مسألة السودان التى نفر من أجلها «المصريون والأجانب». ثم تعود فترجو من الإنجليزى الكبير أن يشرح لكبار مواطنيه أمانى المصريين حتى يسترجع – أى بارنج – ما فقده «من ميل القوم إليه» وخاصة بأن «يعارض الفكر القائل بفض الجيش المصرى»، ثم تتوجه إلى قرائها «وإذا قال قائل أين رجال مصر أجبناه أن الإدارة عموما والمالية خصوصاً لم تسؤ حالتهما مثل ما ساءت فى الأيام الأخيرة على حين نرى رجال الإنكليز قابضين على أزمة الأمور ولا معارضة لما يقولون ولا مرد لما يأمرون وجيش الاحتلال يعضدهم»[2].

فإذا ذكر بشارة تقلا رجال مصر الذين لا يعارضون للإنجليز قولا ولا يردون لهم أمراً ولم يجد لحملته عليهم أثراً، ورأى الإنجليز ذاهبين إلى حل الجيش والاستغناء عنه، نشر شائعات الناس التى تؤكد أن فى نية انجلترا «حل الجيش المصرى»،

(١) الأهرام فى ١٦ أبريل ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٢٢ أبريل ١٨٨٤

ثم يعقب بأنه يعتبر «حل الجيش المصرى تصديقاً على الحماية لا يلم به ريب، والشعب الذى لا يتألف عسكره منه لا شأن له، ولا تقوم قائمة للأمة إن لم يؤخذ منها جندية تحمى الديار، وعندى أن من يصدق على هذا الطلب يحسب خائناً وطنه لا يخامر فؤاده حب الوطنيه وهذا أمر من غرائب الحوادث لم تسمع بمثله من قبل، ولا يجهل أولياء الأمر أن حل الجيش يسقط مزيتهم ويجرد عنهم أهميتهم فلا يقطعون مسافة أيام معدودة إلا ويصبحون بصفة كتاب مأمورين لا رأى لهم ولا كلمة ولا لا . . . وعليه فيكون تصديقهم على حل الجيش ذا عواقب وخيمة عليهم وعلى وطنهم، ومن تراه يقدم على عمل بعد العلم بمضاره»[١].

إضعاف الجيش المصرى

وإذا كانت انجلترا لم تنفذ نواياها تنفيذاً صريحاً فيما يختص بالجيش المصرى، فإنها عملت من ناحيتها على الإقلال من مظاهر الجندية وتقليم أظافر معاونات الجيش، كالنزول بمستوى الضباط، فكانت تسمح لمن يتعلم فى المدرسة الحربية بأن يجوز امتحاناً تافهاً دون مستوى الشهادة الابتدائية[٢] ثم قررت تعيين ضباط الجيش من المصريين دون أن يتلقوا فنون الحرب، وإنما أذنت لهم بهذه الصفة العسكرية إذا أدوا امتحاناً فى بعض المواد التى لا علاقة لها بمواد التدريس الحربى ونجحوا فيها[٣]. وقد ترتب على هذا أن أصبح بعض الضباط فى مناصبهم من غير تلقين عسكرى، وفى هذا من الهوان بالجندية ما هو أقسى من إلغاء الجيش أو تقليل عدده، فإنه بجانب جهل الضباط بفنون العسكرية أفسح الاختيار بهذه الطريقة مجالا للزلفى وطريقاً للغرض.

القضاء على البحرية المصرية

ثم أعلن الاحتلال حرباً شعواء على البحرية المصرية وصمم فى وضوح على القضاء عليها، فبدأت المنشآت البحرية تضمحل اضمحلالاً ملحوظاً، فقرر الإنجليز قصر البحرية المصرية على ثلاث سفن للبحر الأبيض، وثلاث أخرى مماثلة للبحر الأحمر، أما السفن الحربية الكبيرة فقد بيع بعضها بثمن بخس، وحطم البعض الآخر وبيعت أجزاؤها وآلاتها، وقد تم بيع ما تبقى على مر الأيام حتى لم يبق من الأسطول المصرى إلا (المحروسة) التى جعلتها الحكومة يختاً للخديو، ثم ألغيت المدرسة البحرية فى الإسكندرية

(١) الأهرام فى ٢٣ أبريل ١٨٨٤
(٢) الوقائع المصرية فى ٢٠ يناير ١٨٨٤
(٣) الوقائع المصرية فى ٢٧ فبراير ١٨٨٤



شاعر النيل حافظ إبراهيم بك



شاعر القطرين خليل مطران

وعطل حوض إصلاح السفن وبيعت آلاته سواء كان حوض الإسكندرية أو حوض السويس[1] ومن ثم فقدت الموانئ المصرية مكانتها التاريخية .

حملة الأهرام على المسئولين

وكان ذلك كله توطئة لإلغاء الجيش البرى الأصيل دون أن يثير ذلك ثائرة المسئولين المصريين ، حتى بدا التفكير فى حل الجيش عملا طبيعياً لولا حملة الصحف المصرية ، وعلى رأسها الأهرام ، فقد عادت تقول صحيفتنا فى هذا الموضوع قولا عنيفاً ، فكتب بشارة « وإننا طالما برهنا على فساد السياسة القائلة بحل الجيش إذ لا يكون من وراء ذلك إلا نتيجة واحدة هى وضع الحماية لا محالة » . ثم يسخر من موقف الحكومة المصرية « أى نعم إن جرنال الحكومة الرسمى كذب هذا الخبر ولكن ذلك لا يمنعنا من تصديقه لأن انكلترا هى التى تطلبه ونحن نثق بأن حكومة مصر لا تود ذلك فتكذيبها الخبر والحالة هذه صادر عن إرادتها من يوم احتل الجيش الإنكليزى هذه البلاد فى ما خلا التصور أو الوهم المتولدين عن الضعف والثقة العمياء » . ثم يسخر من الإنجليز الذين يهونون من أمر إلغاء الجيش المصرى « . . . وهى فيما تزعم الضامنة الكافلة المدافعة عن القطر السعيد والذى عن موانى البحر الأحمر ؟ أتعهدت أن لا تقوم بالمدافعة إلا فى فصل الشتاء تاركة للثائرين حرية العمل فى فصل الحر إن فى ذلك لعجباً » ؟ ثم يحمل على رجال مصر الذين سمحوا للمحتل أن يستخفى وراءهم « فيستخدم اسمهم وحقوقهم لإنفاذ أغراضه وهم مهملون هذه الحقوق غافلون عن المحافظة عليها . . . »[2] .

---

(١) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى بك ص ١٩

(٢) الأهرام فى ١٦ مايو ١٨٨٤

الأهرام وكليفورد لويد

إذا نزل الحجاج أرضاً خصيبةً توالى عليها المحلُ وانحبس القطرُ

« شاعر عربي قديم »

كانت الحوادث التي مرت على مصر خلال سنة ١٨٨٤ كفيلة بإثارة أهدأ العواصف وإشاعة الضيق في نفوس المصريين ، وكان لا بد وقد أخذت الأهرام على عاتقها مخاصمة الاحتلال وأعوانه أن تلقى حتفها بعد حين ، وقد توالت المصائب على البلاد كبيرة وصغيرة ، بيد أنها جميعاً فضحت على صفحات جريدتنا الواحدة تلو الأخرى ، ومن أبرزها قصة كليفورد لويد وكيل وزارة الداخلية الإنجليزي الذي اختاره الاحتلال عيناً له في شئوننا الداخلية، ولم يكن للإنجليز نصيب في هذه النظارة لأن أمورها لا تحل إلا بفهم نفسية الشعب ورعاية نظمه وتقاليده ، فلم يفكر فيها الاحتلال حين فرض على نظارة الأشغال ونظارة المالية اثنين من رجاله بحجة انتشال البلاد من وهدتها المالية وإجراء الإصلاح في إدارات نظارة الأشغال حتى يعين ذلك على تحسين الحال في شتى فروعها بمقتضى المثل العلمية والإدارية الحديثة .

وقد تحين الإنجليز الفرص لتعيين وكيلهم الجديد في الداخلية فإن شريف باشا صلب العود ولن يستطيعوا معه حلا لذلك ما لم يقنعوه بمنطق أو دليل ، وليس لديهم في المطالبة بوكالة الداخلية أي منطق أو دليل ، فإذا استعفى الرجل في أزمة السودان وجاء مكانه نوبار باشا ، وكان رخواً حيال الاحتلال ، استطاعوا إقناعه بتعيين وكيل إنجليزي لنظارة الداخلية حتى يسير الإصلاح في هذه الناحية مع كل إصلاح يشرفون عليه ! وقيل إن الخديو توفيق تردد أكثر من مرة في قبول هذا الطلب ثم أذن به وصدر أمره في ١٥ يناير ١٨٨٤ بتعيين من يرشحه الإنجليز لهذا المنصب الخطير[1] ، وكان

(١) مذكراتي في نصف قرن لأحمد شفيق باشا ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

مرشحهم كليفورد لويد صاحب هذه القصة التى نعرض لها بالشرح والتفصيل .

إستقالة ناظر الداخلية

وكان كليفورد لويد من غلاة المستعمرين وله عند خاصة الحكام المصريين سمعة جعلت تعيينه إساءة لعواطف المصريين ، ودليلا مادياً على نوايا الاستعمار الإنجليزى نحو التمكين للاحتلال والتغلغل فى الشؤون المصرية الداخلية ، وكان كليفورد لويد مثالا للموظف الذى لا يعترف برئيس ، ويتصرف فى كثير من الأحيان تصرفات من بعقله دخل حتى برم به ناظر الداخلية محمد ثابت باشا وفضل الاستعفاء من النظارة كلها ورفع استقالته إلى الخديو ، وكتب بشارة تقلا يروى قصة الاستقالة وذكر أن « سعادته قدم كتابا إلى دولتلو نوبار باشا مفاده (إنى قبلت الانتظام فى هيئة الحكومة تحت رئاسة دولتكم على أمل أن أقوم بخدمة وطنى العزيز الذى نشأت فيه وربيت ولكن بالنظر للأسباب التى أوضحتها شفاها لدولتكم رأيت أن آمالى قد حبطت وأن ليس فى الإمكان تحقيقها لا فى الحال ولا فى الاستقبال وفضلا عن ذلك علمت من قرائن الأحوال ان ليس فى وسعى المحافظة على شرف المصلحة فيما بعد) . . . » ويذكر مدير الجريدة أن الباشا قد عرضت عليه نظارة المالية ولكن « سعادته فضل الإقالة على معاناة الصعوبات الحالية » ثم أبى « إلا الإقالة من جميع المناصب » . ويتجه المحرر إلى قرائه فيقول عن استقالة الوزير « وفيما أظن أن البواعث غير خافية على القراء »[١].

تولى نوبار باشا نظارة الداخلية[٢]عقب استقالة ناظرها الأصيل محمد ثابت باشا ، ولم يتأثر كليفورد لويد بتغيير الوزير بل استمرأ الحماقات التى اعتادها ومضى قدماً لا يلوى على شىء ، فكان يصدر الأوامر لمرءوسيه دون الرجوع فيها إلى الوزير المختص ، وانتزع البوليس من سلطة المديرين[٣]، مما جعل الأهرام تنقد فى مقال طويل سوء الإدارة التى بعدت « عن عوائد البلاد وطباع أهلها » وتشكو « الخلل المحدث فى بعض الأماكن الداخلية بسبب كثرة اللصوص والباعث الوحيد على ذلك إنما هو توزيع سلطة الداخلية غير المصيب » وأن اللصوص عاثوا فى الأرض فساداً إذ « علموا بعد الترتيب الجديد أن سلطة المدير انتزعت منه »[٤]. ثم توجه نقدها صريحاً لسوء تصرف كليفورد لويد

---

(١) الأهرام فى ١٠ مارس ١٨٨٤
(٢) الوقائع المصرية فى ١٠ مارس ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ٤ أبريل ١٨٨٤
(٤) الأهرام فى ١٢ مارس ١٨٨٤

والإنجليز من ورائه فقد « استفحل أمر اللصوص فى كثير من الجهات بسبب تغيير السلطة التى ما زلنا نرى الصواب فى إرجاعها إلى المديرين كما كانت قبلا فإن الأهالى لا يرهبون سواهم . وهم « أى المديرون » أدرى من غيرهم بأحوال البلاد وطباع الأهالى ولذلك لم تغن القوانين والنظامات الموضوعة للبوليس والجندرمة أو النيابة بعد رفع السلطة عن المديرين شيئاً بل ساءت نتيجة العمل . . . »[1]. وقد كثرت اجتماعات المديرين لدى رئيس الحكومة وتلقى منهم الشكوى تلو الشكوى من الشلل الذى أصاب أعمالهم نتيجة السياسة المرتجلة التى اتبعها كليفورد لويد، وقد أبرزت الأهرام أخبار الاجتماعات ومجمل الشكايات[2]

وقد عمت الفوضى أقاليم مصر مثال ذلك أن البوليس كان يقبض على المجرمين ويودعهم السجون رهن المحاكمة أو القضاء ، فإذا بكليفورد لويد يصدر يوماً أمره بالإفراج عن أربعمائة سجين فى مختلف سجون المديريات ، ومن بينهم أشقياء هزت جرائمهم مشاعر الرأى العام ، فعاد هؤلاء المجرمون إلى سابق إجرامهم ساخرين بجميع السلطات حتى خشى الناس على أرواحهم ، وذهب مشايخ العرب فى ضواحى القاهرة يعلنون رئيس الحكومة بأنهم غير مسئولين عن الأمن فى الجهات المكلفين حمايتها أو رقابتها .

نصير اللصوص والمجرمين

ومن الحوادث التى تدعو إلى الدهشة فى معاملة كليفورد لويد للمجرمين أنه بينما كان يطلق سراح أربعمائة مجرم من غير إنذار وبدون وجه حق ، ضارباً بالقانون وأحكام القضاء عرض الحائط ، نراه يأمر بتعذيب بعض المجرمين تعذيباً ينطوى على الوحشية فيضربهم بالكرباج ويعلقهم من أصابعهم ، ثم يأمر بمنع السير بنسون مكسويل النائب العام بالمحاكم الأهلية من الدخول إلى هذه السجون ليتحقق من التعذيب الجارى بين جدرانها[3]. ومن أطرف ما ارتكبه كليفورد لويد أمره بمنح خمسة جنيهات لكل من يبلغ عن موت « ثور أو كلب أو هرة أو أية بهيمة كانت » على أن يعزل المدير شيخ الناحية التى مات فيها الحيوان ! وتعلق الأهرام على أمر وكيل الداخلية قائلة إنه « من الغرابة بمكان وأغرب من ذلك هو أن الوكيل فعل فعله هذا بدون علم رئيس النظار . . . فلا عجب بعد وقوفنا على مثل هذه الإجراءات أن نجد الخلل سائداً فى البلاد ولا غرابة فى استعفاء

---

(١) الأهرام فى ٢١ مارس ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ١١و١٣و١٤ مارس ١٨٨٤
(٣) مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا ج ١ ص ٢٥٨

نوبار باشا بل الغرابة فى ملازمته الوظيفة والحالة على ما تقدم »[1].

لويد يثير أزمة وزارية

وقد قامت أزمة وزارية عنيفة نتيجة فعال كليفورد لويد ، وحدثت اتصالات بين نوبار باشا والخديو والسير بارنج ، وأعلنت الأهرام رضاء الناس بموقف الحزم الذى بدا عليه رئيس الحكومة « أما الرأى العام فى العاصمة فيصدق على مسلك دولتلو نوبار باشا ويستصوبه ويمتدح حزمه »[2]. ثم تشجع رئيس الحكومة وتؤيده فى استعفائه من الوزارة حرصاً على كرامة بلاده إلا إذا رجع الإنجليز عن تأييد رجلهم كليفورد لويد « ولا شك أن مطالب نوبار باشا حقة عائدة لمصلحة القطر يصدق عليها كل وطنى وأوربى إلا أننا نخاف أن وزارة لندن تأبى التصديق وتعول على الرفض من قبيل المحافظة على مبادئها وعدم رغبتها بتغيير خطتها . . ولذلك فنحن واثقون باستمرار نوبار باشا على عزمه فيستقيل من منصبه وينال رضاء الرأى العام عن إجراءاته الوطنيه »[3].


السير بارنج « اللورد كرومر » فيما بعد

وقد جاوز كليفورد لويد كل حد حين خيل إليه وأزمته على أشدها أنه سيد الموقف فذهب إلى مشاهدة إحدى الروايات التمثيلية فى مسرح « زيزينيا » وأبى إلا أن يحتل مقصورة الخديو الخاصة مما أدى إلى إثارة الرأى العام ووقوف الصحف إلى جانب رئيس الحكومة بالرغم من تخاذله أمام الإنجليز فى مواقف سابقة ، وتأييده فى استقالته واحتجاجه حتى لبت الحكومة الإنجليزية رغبة مصر ومالت إلى تحقيق المطالب التى تقدم بها نوبار باشا ، وقد سعى نوبار فى تحقيق مطالبه بشتى الوسائل واستخدم الصحف

(١) الأهرام فى ٨ أبريل ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٩ أبريل ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ١٠ أبريل ١٨٨٤

الإنجليزية نفسها فأفضى بحديث لمكاتب التيمس جاء فيه « يتفق الوزراء والأعيان والمشايخ على صورة وضع البوليس تحت إمرة المديرين أما أنتم فترغبون حصر القاهرة لتكون تحت طائلة رجل إنكليزى . . . ولكن أرى ذلك خطأ قطيعاً يؤول إلى فقد الأمن وإبطال النظام والإدارة ثم إن المبدأ الذى اشتغلت بصدده كل حياتى هو أن يكون الإنكليز بمثابة الرأس والمصريون بمثابة الذراع وأن يكون الإنكليز مراقبين لا منفذين ومصلحين لا مكونين . . . فإن بقائى جلب علىّ العار . . . فإذا بقيت فى الوظيفة ازداد العار علىّ . . . »[1] .

ثم تمضى الأهرام ناشرة أحاديث نوبار وتبرز حديثاً له آخر مع مكاتب التيمس ، وهى بذلك تصور نوبار باشا بالصورة التى يحفظها له التاريخ ، فإنه حسب حديثه المنشور إنما يعمل « طبقا لآراء الإنكليز ولكنى أقول أولا إن الأصلاح يجب تكييفه بكيفية تناسب أحوال البلاد الراهنة وثانياً يجب إجراؤه بملاحظة حاسات الوطنيين » ، ثم يقول « لست آلة فإذا كنتم تبتغون الضم أو الحماية فدعونى لأستقيل » ثم قال للمكاتب إنه لا يوافق البته على أن يكون للإنجليز فى نظارة الداخلية نصيب[2].

وقد ناقش بشارة تقلا فى إحدى مقالاته أعذار الإنجليز فى عدم جلاء جنودهم عن مصر ، وهى أعذار رتبوها على اضطراب الأمن وخلله ، وأيد الرجل وجهة نظره بأنهم أول من يسعى إلى هذا الخلل فى حياة مصر الداخلية ، وفى ذلك يقول : « أما إذا اعتذروا عن الانجلاء حالا بالخلل المستحوذ على البلاد وقلة الأمن فى ربوعها فذلك عذر غير مقبول بل هو فى حد نفسه موجب لتعجل الانجلاء لأن الحالة الراهنة تأتت عن جهل رجالهم لحالة البلاد إذ وضعوا لها نظامات جديدة أفسدت الحسنة القديمة وتسبب عنها الخلل وأقسم بالله جهد إيمانى أن الأمن مرهون على انقباض أيدى الإنكليز عن التداخل الإدارى فإذا امتنعوا منه فلا يمر بنا شهر واحد إلا وتعود السكينة ويعتز جانب الأمن فتنعم البلاد بهما كما كانت منعمة قبل الاحتلال » . فهم إذن فى رأيه خلقوا كليفورد لويد ليكون مطيتهم فى تحقيق بقائهم فى وادى النيل[3] .

ولم يترك بشارة تقلا وسيلة من الوسائل إلا لجأ إليها للتدليل على فساد السياسة التى اتبعها كليفورد لويد ، فكتب إلى إحدى الصحف الإنجليزية (بال جازيت) يندد

(١) نقلا عن الأهرام فى ١٨ أبريل ١٨٨٤
(٢) نقلا عن الأهرام فى ٣ مايو ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ٧ مايو ١٨٨٤

بهذه السياسة ويعدد أخطاء وكيل الداخلية الإنجليزى ، وأثار مقاله هذا ثائرة كليفورد لويد فرد عليه فى جريدة التيمس رداً حشاه كذباً وأسف فيه إسفافاً منقطع النظير ، حتى أن السير مكسويل النائب العمومى وهو إنجليزى من مواطنيه أراد أن يبرئ ذمته فانبرى لكليفورد لويد يفند مقاله فقرة فقرة ويروى قصص الوكيل وهو يسوس أمور الداخلية[1].

ثم رد عليه بشارة بك تقلا بمقال نشرته له جريدة الدبا Journal des Débats فى ٩ يوليو ١٨٨٤ بعد أن رفضت جريدتا البال مال جازيت والتيمس أن تنشرا له رده على كليفورد لويد بحجة أنه عدو لإنجلترا ، وقد كان رده بديعاً قاطعاً للتصرفات السيئة التى اتبعها المستر كليفورد ومن كان على شاكلته من أبناء جلدته[2].

وأكبر الظن أن المؤرخ المصرى لن يجد فى الموظفين الإنجليز الذين شغلوا الوظائف المصرية واحداً يماثل المستر كليفورد لويد من حيث كراهية المصريين له ، وإجماعهم على هذه الكراهية إجماعاً بان أثره فى الموظفين والوزراء والصحفيين وزملائه من الإنجليز المحليين .

٢ وأخيراً أحس كليفورد لويد أن سلطته التى جاوزت سلطة رئيس الحكومة قد انتهت بفضل حملات الصحف عليه ولا سيما حملة الأهرام، فاستقال من منصبه، وكان أصدق تمثيل للأثر الذى تركه هذا الرجل البغيض فى مصر ما زعمته جريدة البوسفور أجيبسيان فى تعليقها على سفره من أن : «اللصوص قد اجتمعوا فى طره وقرروا إقامة وليمة شائقة لجنابه لأنه كان لهم نعم السند ونعم النصير»[3].

(١) مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
(٢) تاريخ بشارة تقلا ص ٢٧٦ وما بعدها
(٣) جريدة البوسفور إجبسيان فى ٢٧ مايو ١٨٨٤

الأهرام ومجلس شورى القوانين

كل ما ترتجيه سهل ولكن   عثرات الآمال ليست بسهله

« شاعر قديم »

ألغي النظام النيابي عقب الاحتلال مباشرة ، وقام اللورد (دوفرين) بإنشاء نظام جديد ليحل محل النظام القديم ، قوامه مجلسان نيابيان ، أحدهما « مجلس شورى القوانين » ويتألف من ثلاثين عضواً ، أربعة عشر منهم تعينهم الحكومة ومن بينهم الرئيس وأحد الوكيلين ، والباقون وعددهم ستة عشر عضواً منتخبون ومن بينهم يكون الوكيل الثانى ، وليس لهذا المجلس رأى قاطع فى أمور مصر وإن كان قانون إنشائه قد فرض على الحكومة أن تستشيره فى الأمور الداخلية استشارة لا تلزمها بتلبية رغباته ، ولم يكن لمجلس شورى القوانين أن يبدى رأياً أو ملاحظة فى الجزية التركية أو فى الدين العمومى أو ما شاكل ذلك من الأشياء الدولية ، وقد كان انتخاب الأعضاء فيما خلا نواب القاهرة والثغر يتم بواسطة مجالس المديريات ، أى أن عضو مجلس الشورى ينتخب من بين أعضاء مجالس المديريات ، وعضويته مرهونة ببقائه فى عضوية مجلس المديرية(١).

أما المجلس الثانى ، أى الجمعية العمومية ، فكان عدد أعضائها اثنين وثمانين من بينهم الوزراء وأعضاء مجلس شورى القوانين . وكان لهذه الجمعية سلطة قاطعة فى تقرير الضرائب الجديدة ، وفيما عدا ذلك كان رأيها استشارياً وتخضع للظروف التى يخضع لها مجلس شورى القوانين ، وكانت الجمعية العمومية تنعقد مرة كل سنتين ، أما مجلس شورى القوانين فكان ينعقد مرة كل شهرين .

موقف الأهرام من المجلس الجديد

هذه هي الصورة النيابية التى أقرها الاحتلال لمصر ، صورة ممسوخة لأتفه حياة

(١) راجع القانون النظامى الصادر فى أول مايو ١٨٨٣

نيابية عرفها القرن التاسع عشر ، وكان الغرض منها إخضاع هذه الصورة المهلهلة لسلطان الحكومة وغل يدها عن أى عمل أو توجيه صحيح . غير أن جريدتنا (الأهرام) لا تريد أن تعترف بهذه الصورة الضعيفة ، ولا تحب أن يبدأ المجلس عمله وهو ضعيف الثقة بنفسه ، فأخذت على عاتقها أن تستقبله استقبالا يرد له اعتباره بالرغم عن القانون الذى شل يده ، فكتب بشارة تقلا فى ذلك مقالا جاء فيه : « غداً يلتئم مجلس شورى القوانين طبقاً للأمر العالى الصادر بهذا الشأن للنظر فى حقوق البلاد نيابة عن أهلها الذين تخيروهم وكلفوهم النظر فى أمورهم » .

وإذن فالمجلس عند (الأهرام) مجلس خطير الشأن ، أمور البلاد وديعة عنده ، وإليه ترفع « جميع اللوائح والقوانين التى قررها مجلس شورى الحكومة والتى ما زالت تحت البحث والمداولة — فإليكم أيها الأعضاء الكرام ذوات البلاد عهد حل الأمور وإبرامها وبكم وحدكم تعلقت الآمال فأنتم والحالة هذه مطمح أنظار القوم الذين خولوكم ثقتهم دون غيركم وأنتم عضد الحكومة التى صدقت على تعيينكم ، فعلى مبلغ حسن تدبيركم وصوابية رأيكم يكون مبلغ تقدم البلاد ونشاطها من عقال المشاكل الحالية والنوازل السياسية » . وبشارة حين يفرغ من الثناء على أعضاء المجلس وتقدير مكانتهم فى نفوس الناس يلفت نظر الأعضاء إلى « أن الرأى العام محوقل حول دائرة مجلسكم الموقر يرقب أقوالكم وأعمالكم التى سيخلد ذكرها إلى ما شاء الله » . ثم يطالبهم بتحقيق الأمل فيهم وأداء الواجب على أحسن صورة « فبرهنوا على صدق وطنيتكم وعظيم أهليتكم بالمحاماة عن حقوق البلاد وحفظ مستقبلها من غوائل ما هو محدق بها من الخطوب التى لا تنصرف عنها إلا بسديد الأعمال والأفكار التى تكون محمودة الأواخر والأوائل » .

ثم يعتذر عن مطالبته إياهم بأشياء يؤمن هو بأنهم عارفون لها « وما أتيت بهذه التفكرة جهلا بصحة وطنيتكم أو ارتياباً بصدق طويتكم وسلامة خدمتكم من شوائب الأغراض ونزاهتها عن المقاصد إلا قصد انجاح الوطن وإسعاد أهله ولكنى أتيت بها من قبيل زيادة الحرص على الحقوق السياسية تنبيهاً وتفكيراً فإن الحكومة ستعتبر آراءكم وتسير على منوال ما تقرون عليه إجماعاً فى الرأى » . ثم يذكرهم بأنه وأقرانه بالمرصاد يسجلون لهم حسناتهم « وجرائد القطر وغيرها ستثبت نص المداولات وتعلق عليها الملحوظات إن حسنة أو سيئة حقق الله آمالنا بكم وأنقذ القطر مما حل به بحسن سعيكم إن شاء الله »[1] .

(١) الأهرام فى ٢٤ يناير ١٨٨٤

وهكذا استقبلت (الأهرام) مجلسنا النيابي الجديد ، فلم توهن من شأنه ، بل شجعته وصورته في غير صورته الصحيحة حتى يلتئم وفي نفس أعضائه من الثقة ما يعاون على رد الإيمان إلى نفوس المصريين ، وهي لا تريد أن تناقش قانونه المحدود « ولست أبحث هنا في خصائص هذا المجلس ولا فيما يدعيه البعض من أن ليس كل ما يقرره مرعى الإجراء ولكن أقول إن الحكومة إذا تبينت أمراً سديداً منه فلا تتأخر عن قبوله إلا إذا حال دون ذلك أسباب مجهولة لدينا » . ثم تقول ضرباً على النغم وتأييداً لمكانة المجلس في حياة البلاد « فأى رأى والحالة هذه أدنى إلى الاعتبار والاحترام من آراء هذا المجلس لأنه هو النائب عن الأمة ولسان حالها كما يشير إلى ذلك قانونه » .

وقد حمل بشاره تقلا قانون المجلس ما هو فوق طاقته حين جعله صاحب حق في كل شيء وأن آراءه ينبغي أن تكون موضع التقدير والاعتبار لأنه لسان الأمة وحاميها ، ثم يذكر للمجلس حسناته على قرب العهد به « وإنه ليسرنا ما نراه من اهتمام هذا المجلس بالمحاماة عن حقوقه وحقوق مستنيبيه وقد علمت أنه سأل نظارة المالية عن علة تأخير إصدار الميزانية عن الزمن الذى حددته الأوامر العالية . . . ثم بلغنى أنه كتب للداخلية يسألها بسط الأسباب التى سوغت إلغاء الضبطيات واعتبار قانون البوليس دون استشارته حالة كون قانونه الذى قررته الحكومة يقضى له النظر في كل قانون ولائحة » . ومعنى ذلك الخبر أن مجلس شورى القوانين بدأ يخاصم كليفورد لويد فيما ذهب إليه من تغيير في نظم البوليس ، ثم يمضى مدير الجريدة متحدثاً عن موقف مجلس شورى القوانين من قانون مجلس الصحة ، وهو موقف عادل لأنه أبى أن يقر رأى الحكومة في إعطاء مدير الصحة حق فصل الموظفين ، وتعلق الأهرام بقولها : « إنا لنوافق على آراء المجلس بهذه المسألة فإنها عائدة بفوائد جليلة على البلاد وضامنة للإصلاح الفعلى »[1].

وإذا أعجب الأهرام موقف مجلس شورى القوانين في النظر إلى المسائل العامة طالب الحكومة بأن تنشر محاضر جلساته « ولأجل تعميم الفائدة نلاحظ بوجوب التعجل بنشر محاضر المجلس لتقف الناس على أعماله وأقواله في أوان صدورها » وهي لا تكتفى بأن تنشر محاضر الجلسات في اللغة العربية فإن ذلك لا يفى وحده بالغرض المطلوب من المجلس وبحوثه ، وقد كان العهد أن تنشر هذه المحاضر باللغة الفرنسية أيضاً مع « أنها كانت قبلا تنشر باللغتين العربية والفرنساوية ، وبودنا العود إلى هذه الخطة المحمودة » .

(١) الأهرام في ٢ فبراير ١٨٨٤

وليس من غرض للجريدة فى نشر المحاضر بتلك اللغة إلا « إيقافاً للأجانب على أعمال مجالسنا الجديرة بالشكر الطيبة النشر » . ثم أنها ترى فى نشر هذه الوثائق بلغة أجنبية « تفنيداً لزعم القائلين بعدم أهليه المصريين للوظائف »[1] .

الأهرام بين المجلس ووكيل الداخلية

لم تتأثر الحكومة بإجلال الأهرام للمجلس فانصرفت عن تأييده ، وقد أرادت صحيفتنا لهذا المجلس مكانة ليست فى قانونه ، ورأت الحكومة معاملته بروح هذا القانون الذى لم يأذن له برأى أصيل فى المسائل العامة ، وقد برم بذلك بشارة تقلا ، فكتب مقالا ممتعاً يحيى فيه موقف المجلس من وكيل الداخلية المستر كليفورد لويد ، وكان فى ذلك الوقت ديكتاتوراً لا يعنيه رئيس من المصريين ولا يهتم لقانون موضوع ، وقد بدأ مدير الجريدة مقاله بقوله : « اطلعت على محضر المداولة فى جلسة أول مارس لمجلس شورى القوانين مثبتاً بالوقائع المصرية فى ٢٧ الماضى فرأيته يشتمل على الجدال فى بلدية إسكندرية مع حضرة وكيل الداخلية ولم يزدنى بياناً ما جاء فيه من الأفكار الصائبة فى أقوال حضرات الأعضاء الكرام فإنى شديد الاعتقاد بعظيم غيرتهم على مصالح البلاد وحسن قيامهم بما انتدبتهم إليه وقد أتيت على بيان ذلك فى رسائل سابقة » .

حملته على الحكومة لإهمالها المجلس

ثم يحمل على الحكومة التى لا تلتفت إلى المجلس وآرائه الصائبة « أذكرنى بحثهم المفيد بما شكونا منه قبل الآن ألا وهو عدم إصغاء الحكومة إلى ما يشيرون به فى حال كونه جزيل الفائدة كبير العائدة على البلاد ويسوءنا أن نرى الحكومة بعيدة عن الأخذ بتنفيذ ما يقررونه مع عدم إظهار الباعث لها على ذلك وكان بودنا لو تعرضه الحكومة على المجلس إذا صح ما قيل من وجود مانع جوهرى وإلا » أى إذا لم يكن ثمت مانع « فلماذا لا تلتى آراء نواب البلاد بالقبول وتتبع السير بموجبها إذا كان فى النية الاصلاح» وهذا حق ووضع للأمور فى نصابها ، فإن القانون الذى أنشىء بمقتضاه مجلس شورى القوانين وروح هذا القانون قد نصا على أن تبدى الحكومة الأسباب التى من أجلها ترفض رأياً له أو اقتراحاً .

---

(١) الأهرام فى ٢٢ فبراير ١٨٨٤

تكذيبه لما يدعيه الإنجليز

ثم يحمل بشارة على ادعاءات الإنجليز وخطبهم فى برلمانهم وحفلاتهم بأنهم يمنحون المصريين الفرصة للإصلاح بشتى الطرق « وإذا كنا لا نسمع للمجلس رأياً فى أى مشروع كان فما هى الفائدة من تشكيله ولم الادعاء بالعزم على وضع الإصلاحات والوعد بالخطابة فى المجالس أننا خولنا المصريين بعض الحقوق على أننا لا نراهم منعمين بشىء مما يوعدون » . ثم يختم الكاتب مقاله البديع « وقد طالما سمعنا ذوات البلاد يرددون الشكر على المجلس مشفوعاً بالتأسف من نبذ الحكومة لمشوراته خلافاً للقصد المعلن على رؤوس الإشهاد قبل تشكيله، وغاية ما نرجوه الآن إصغاء الحكومة لأقوال أعضاء المجلس فإن لها به عضداً قويا وبواسطته تتحصل على رضى الرأى العام الذى لا بد من إعلاء شأنه والخضوع لأحكامه فى نهاية الأمر مهما كانت البواعث »[1]. كما تقول فى موضع آخر متحسرة على ما وصلت إليه الحال : « والمرجو من الحكومة أن تعضد هذا المجلس وتصغى إلى مشوراته الحكيمة وليعلم المصلحون أن لم يبق من تقرير اللورد دوفرن غير هذا المجلس »[2]. أى أنه لم يبق خير مما زعمه الإنجليز لمصر إلا مجلس شورى القوانين .

إنحاؤه باللائمة على الأعضاء المقصرين

وإذا كانت الأهرام تدافع عن مجلس شورى القوانين وتزكى أعضاءه وتطالب بحقوقهم فليس معنى هذا أنها تهاون فى حقوق البلاد إذا تهاون أعضاء المجلس ، فقد شغل المصريون فى فترة من فترات سنة ١٨٨٤ بانعقاد مؤتمر يبحث شئون مصر ، فإذا هى تجرى حديثاً مع شخصية مصرية بارزة فى هذا الصدد ، ثم تنشر رأى هذه الشخصية فى موقف المجلس « ولا بد لى من توجيه الملام إلى مجلس الشورى المؤلف من أعضاء وطنيين انتخبهم الشعب نواباً عنه لمثل هذه الشدة ، فمن الواجب عليهم أن يبرهنوا على حسن قيامهم بما عهد إليهم فليس منهم من يخاف وظيفته أن تؤخذ منه ويحرم معاشه . . . » .

وقد كان بشارة تقلا حريصاً أشد الحرص فى جميع رسائله التى يرسلها من العاصمة إلى شقيقه فى الإسكندرية على ذكر مجلس شورى القوانين بالخير ، إلا أنه لم يتردد فى الحملة على أعضائه حين انفرط عقدهم دون أن يطالبوا الحكومة بإيفاد مواطن كبير

---

(١) الأهرام فى أول أبريل ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ١٢ أبريل ١٨٨٤

يدافع عن وجهة نظر مصر فى مؤتمر لندن المزمع عقده فى تلك الأيام ، فكتب قطعة بديعة فى هذا المعنى طالب فيها الشعب « أن يهب للمطالبة ولوم مجلس الشورى إن أهمل الواجب ولزم العزلة فى هذه المهمة ولعل الأعضاء الكرام يحققون آمال الشعب ويخلدون لهم ذكراً جميلا » . ثم يبكت ضمائرهم ويكشف مستورهم بقوله : « فإنا نذكر حضراتهم يوم لبوا الاكتتاب بتقديم الهدايا والنفائس إلى قواد جيش الاحتلال » وهو يذكرهم أن موقفهم هذا لم يكن مفهوماً، ولم تكن حماستهم لهذا الموقف مقبولة. فإن هداياهم كانت للقواد الإنجليز « مكافأة لهم على فتوح البلاد » وإنه لموقف مزر فى نظر المحرر يستحقون عليه العتاب العنيف « فلتقابلوا صنيعهم المذكور — أى هداياهم لقواد الاحتلال — بقصورهم هذا فقد أخذتنا الدهشة بهم فإننا بينما ننتظر منهم تحقيق الآمال والتكاتف على عمل جليل إذ بهم قد انفصلوا عن بعضهم وسافر كل منهم إلى بلدته أو أبعديته غير مبالين المسئولية وعظم الأهمية » ثم يسخر منهم ويرثى لمصر آخر الأمر حين يقول : « فلم يبق لنا إلا أن ندعو لهم بسلامة العودة قريباً على رجاء أن يستدركوا الأمر قبل فوات الفرصة وإلا فإنا لله وإنا إليه راجعون »[1].

خيبة أملها فى مجلس الشورى

لم يعد (للأهرام) أمل كبير فى مجلس الشورى ، فقد خيب آمالها فيه ، حتى إنها أغفلت أخباره ، واعتبرته فى تلك السنة مجلساً (غير ذى موضوع) كما يقال فى لغتنا الحديثة، وقد رأينا بشارة تقلا يخلى مسئوليته من تنبيه المواطنين بقوله « شهد الله أنى لم أخلف وعداً ولا أهملت واجباً مما تقتضيه حقوق المصلحة الوطنية فقد علم الخاص والعام وسمع الصم والبكم صوت ندانا تدعو قومنا إلى القيام بالواجب قبل انقضاء فرصة الآمال . وفى جميع كتاباتنا لم نحاذر معنفاً ولم نخش فى قول الحق ملاما فليس لأحد أن يرمينا بالقصور أو ينعتنا بالإهمال بل صارت المسئولية وكل اللوم على أولئك الذين بح صوتنا ونحن ننبههم من رقادهم »[2]. وحقاً فعل فى جميع المآسى التى شهدتها مصر فى سنة ١٨٨٤ .

---

(١) الأهرام فى ١٢ مايو ١٨٨٤

(٢) الأهرام فى ١٤ مايو ١٨٨٤

الأهرام ومؤتمر لندن

أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

« الحارث اليشكرى »

كان مؤتمر لندن محكاً جديداً لكفاية جريدة الأهرام الصحفية ، ولمديرها بشارة تقلا بك الذى أثبت فى جميع أدواره الصحفية أنه علم من أعلام صحافتنا وواحد ممن أرسى قواعدها ، ومؤتمر لندن هذا لم يكن مؤتمراً سياسياً ، بل كان مؤتمراً مالياً الغاية منه معالجة الحالة السيئة التى وصلت إليها الخزانة المصرية .

وقد زادت مشاكل مصر الاقتصادية ، لأن الثورة وما ترتب عليها من اضطرابات وخراب وحريق فى الإسكندرية ، أوجب على الحكومة أن تعوض المنكوبين من أجانب ووطنيين وأن تؤدى فوق ذلك نفقات جيش الاحتلال وأن تمنح الموظفين الإنجليز فى عهد الاحتلال الجديد المرتبات الضخمة ، وأن تواجه نفقات ثورة السودان وما ترتب عليها من نتائج .

كل ذلك جعل الحكومة المصرية عاجزة عن أداء المطالب الكثيرة المتباينة ، وخاصة أن قانون التصفية الصادر فى سنة ١٨٨٠ جعل أكثر من نصف الميزانية مخصصاً لتسديد الدين العام[١] وبذلك وجد الإنجليز أنفسهم أمام ميزانية لا يتمتعون إلا بأقل من نصفها ، فأرادوا أن تطلق يدهم فى شئون مصر المالية ، كما أطلقت بفعل الاحتلال فى شؤونها السياسية والداخلية ، فقررت إنجلترا أن تعود إلى الدول لتعديل قيود قانون التصفية والترخيص بعقد قرض لمصر لسد العجز الطارئ فى ميزانيتها ، فبعث وزير الخارجية الإنجليزية إلى فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا والروسيا وتركيا يطلب إليها عقد مؤتمر فى لندن للتفاوض فى شئون مصر المالية .

(١) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى لعبد الرحمن الرافعى بك . القاهرة ١٩٣٧ ص ٥٢

وكانت رسالة وزير خارجية انجلترا تعنى الحماية على مصر ، فقد أصبح للإنجليز وحدهم حق مخاطبة الدول فى شؤون البلاد المصرية مما أثار قلقها ولاسيما فرنسا التى طالبت ألا يقتصر أمر النظر فى مؤتمر لندن على الحالة المالية وحدها بل يتعداها إلى « المفاوضة فى مسائل أخرى تتصل بهذه الدعوة » ، أى يجب أن توضع القضية المصرية كلها على بساط البحث والتخلص من الاحتلال الإنجليزى ، والنظر فى موقف مصر الدولى من جميع الوجوه[1].

أما موقف الرأى العام من هذه الأحداث الجسيمة فصداه فى جريدة « الأهرام » ، فهى منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٨٤ ساهرة يقظة تتابع الاهتمام بالمسألة المصرية والعناية بشؤونها المالية وتلح بأن تربط الدول بين القضيتين المالية والسياسية وتشيد بالمواقف الكريمة العادلة التى تقفها الدولتان العثمانية والفرنسية فى جانب مصر وفى سبيل تحقيق رغباتها[2] .

الأهرام تدعو إلى العمل

وإذا بشارة تقلا ينشر مقالا يندد فيه بموقف الإنجليز واستئثارهم بالأمر ، وموقف المصريين وتغافلهم عن حقوقهم ، فإن أمورهم تبحث وهم نيام كأن الأمر لا يعنيهم ، وكأن القضية ليست قضيتهم ، ثم يثير حماستهم فيقول : « . . . فعليكم يا من لا نسميكم لشهرتكم أن تهبوا للمطالبة ، فقد أزف الوقت ودنت الساعة فلا تغفلوا عن حقوقكم ، ولا تتهاملوا فى طلبها ، انهضوا واعملوا ولبوا داعى الواجبات ولا جناح عليكم مهما بذلتم من المجاهرة فى سبيل نوالها فما أنتم بأهل ثورة ولا شأنكم العصيان بل أنتم رجال غيورون على أوطانكم ، رأيتم المكاره محدقة بها فسعيتم بإبادتها وإنكم لا تعدمون من الدول نعمة الإنصاف . . . فاقصدوا إلى أوربا واعلموا أن هذا الرأى صادر عن عموم الأهالى فهم يحفظون لكم إذا لبيتم جميلا أبديا ويدون لكم التاريخ ذكراً طيباً محفوظاً إلى ما شاء الله »

ثم يبين للمصريين أن هناك فى لندن اضطراباً فكرياً بشأن مصر وماليتها ، وأن قادة الإنجليز وحكومتهم على غير علم بمجريات الحوادث « وإليكم دليلا على اضطراب الخواطر فى لندرة وعدم معرفتهم دخيلة المسائل المصرية هو أن الوزارة لم تكتف بالمعلومات والاستفهامات من المستشار المالى والسير بارنج بل طلبت سعادة بلوم باشا وسيذهب معه حضرة هرارى بك للقصد عينه فلا بأس بتمثلنا بطلبها سعادته حالة كونه غير وطنى كما أنه ليس بإنكليزى فلماذا لا ترسل مصرياً بتقرير شافع بالبيان موقع من كبار البلاد

(١) الكتاب الأصفر ١٨٨٤ وثيقة رقم ٤ ص ٢١
(٢) الأهرام فى ٣ مايو ١٨٨٤

وذواتها الأعيان ونظهر حزماً وإقداماً معتبرين . . . فتشافهوا وتفاوضوا واهتموا فالفرصة ثمينة والوقت قصير والعاقل من تدارك الأمر واختلس الفرصة . . . ولكن يسوءنا أن نرى الطبيعة مستعدة لخدمتكم وأنتم غافلون » .

ويقصد مدير الجريدة فى مقاله أن يستعد المصريون للمؤتمر لندن هذا ، فيعينون من وجهة النظر الشعبية ممثلا لهم ، وهو يدعو هذه الدعوة الحارة فى حماس ملحوظ ، ويلح فيها على مواطنيه أن يرتبوا أمورهم حتى لا تضيع فرصة تمثيلهم فى المؤتمر . أما موقفه من الحكومة فيلخصه قوله « يتساءل قومنا بياض نهارهم وسواد ليلهم فيما إذا كانت الحكومة طلبت أن يكون لها مندوب فى المؤتمر أولا وفيما إذا كانت قد طلبت وأجيب سؤلها فمن هو الوطنى الأهل لهذه المأمورية المستحوذ رضا الرأى العام وإذا لم يقبل طلبها فما هى الواجبات المفروضة على رجال البلاد فى ظروف كهذه . . . » ثم يصور تقصير الحكومة فى المطالبة بأن يكون لها مندوب فى المؤتمر ويعد تأخرها فى المطالبة بذلك « ضربا من القصور ونوعاً من الإهمال » .

ويحمل بشارة تقلا حملة شعواء على الإنجليز وحكومتهم « . . . وقد تحققنا أن إنكلترا لم تسلك مسلكاً لائقاً بشرفها فى جميع إجراءاتها بالقطر كما أنها لم تحترم حقوقنا ولم تعاملنا معاملة شعب ملم بحقوقه وواجباته وها هى عرضت على الدول عقد مؤتمر بشأن مصر ولم تفاتح مصر بشىء على غير المعهود والمأمول فسلوكها هنا يعد ازدراء ويستفزنا للمطالبة بحقوقنا مطالبة الرجل العارف بها الحريص عليها ، ومهما كان مبلغ القوة المستبدة فلا توقف صاحب الغيرة الوطنية عن موالاة المطالبة والمدافعة فى سبيل المزية والحيثية . . . » .

دعوتها إلى إيفاد ممثل لمصر

وتعود الأهرام إلى مناقشة الحكومة المصرية وموقفها وتطالبها بأن تلح على الإنجليز ان يكون لمصر صاحبة الشأن ممثل لها « موصوف بحسن السلوك واستقامة الأحوال ممن خدموا البلاد خدمة طيبة وعرفوا خل الأمور وخمرها وطار صيتهم فى المشارق والمغارب » ومن ذا يكون هذا المندوب غير واحد من ثلاثة رياض أو شريف أو نوبار ، ولما كان نوبار — فى رأى الأهرام — مشغولا فهى ترشح أحد العلمين الآخرين ، فإذا تعذر على الحكومة أن تنال الموافقة على أحدهما لمثل مصر فى المؤتمر فيجب أن يجتمع الذوات « وينتخبوا لجنة تكلف منهم تنظيم تقرير بحالة البلاد تفصيلا » ثم يوقع عليه فى جلسة علنية ويقوم بحمله شريف ورياض ويذهبا به إلى رجال المؤتمر « يدافعان عن حقوق



الخديو عباس حلمي الثاني

بلادهما بلسان الشعب » ، فإذا تأخر عيون مصر عن أداء هذا الواجب « فإنهم مسئولون من البلاد والأمة ويعد إهمالهم سببا كبيراً فى المصاب » ، ثم تطمئن مواطنيها على أثر هذه الفعلة فى نفوس الغربيين « وليس لأوربا أن تتصور فيه غير كونه عملا صادراً عن حاسة وطنية ملتهبة غيرة على حقوقها . . .»[1].

وإذن فقد جعلت الأهرام مؤتمر لندن موضوعاً وطنياً إهماله جريمة لا تغتفر من الوطن وأبنائه ، وهى بذلك تفوت على الإنجليز فكرة التصرف فى شؤون مصر برضاء أهلها وسكوتهم ، وتعلن لهم وللعالم أن الرأى العام لا يقر بحث قضيته دون أن يكون حاضراً فيها ، وهو طرف من أهم أطرافها ، وأن أى قرار يتخذ فى هذه القضية الوطنية دون تمثيل مصر يعتبر قراراً باطلا لا يلزم صاحب القضية الأصيل .

وقد نشرت الأهرام مهللة لأثر مقالها الطويل ذاكرة أن أفكار الوطنيين « انشغلت بمسألة المؤتمر وحقوق مصر » وأنهم « أخذوا بالمداولة والمخابرة . . . . . . واعتبروا المسألة اعتبارها من الأهمية فصرت على أمل كبير من إجابتهم الطلب وتحقيق ما عرضته بهذا الشأن قبل فوات الزمن الثمين إذ لا يصح الصمت عن أمر مختص بالبلاد على حين نرى الدول عموماً مشتغلة به تدافع عن حقوقنا . . . . » ثم يشجعهم على المضى فيما انعقدت عليه الخناصر « فيا أيها الأعيان وذوات البلاد لا نسألكم ما تنحط عنه طاقتكم ولا نكلفكم غير الاقتداء بغيركم من أمم المشرق » ويضرب الكاتب لهم الأمثلة من مواقف رجال بلغاريا وصربيا واليونان وحرصهم على حقوقهم ونزول الباب العالى عند طلبهم لما توحدت كلمتهم ، ثم يقول « أو ما تعلمون أن للرأى العام تأثيراً عظيماً وما يعد عملكم هذا خروجاً عن الواجبات الوطنية فلا يداخلكم الظن أنه يحسب معاكسة لانكلترا أو قلة ركون إليها بل هو محض حق خصوصى بكم فتأثروه وكونوا واثقين من عضد أوربا لكم وتحصلكم على الرأى العام فى الشرق والغرب لتحفظوا لأنفسكم وبلادكم ذكراً طيباً »[2] .

ولا يفوت بشارة تقلا يوماً دون أن يعرض لمسألة المؤتمر وانعقاده ، وهو ينتهز هذه الفرصة فيصور المآسى التى تتلظى فى نارها مصر نتيجة سياسة الإنجليز فى وادى النيل وقد جاء فى بعض مقال له أن الخطباء وكتاب السياسة قد أجمعوا الرأى « على فساد سياسة انكلترا وسوء تدبيرها فى مصر واعترف بذلك فريق من رجالها وأشارت إليه جرائدها متأسفة معنفة إجراءات رجالها من كبيرهم دفرين إلى آخر منحط الرتبة منهم فى مصر ، وقد

(١) الأهرام فى ٥ مايو ١٨٨٤

(٢) الأهرام فى ٦ مايو ١٨٨٤

وافقنا على صحيح القول أن أوضاعهم جميعاً كانت سيئة النتائج فاسدة المبادئ وأن الحالة الراهنة تستلزم دقة التأمل وإعجال المسألة بالحل بكيفية لا تمس شرف بريطانيا على حين تحفظ حقوق المصريين وتصان مصالح الدول بما فيهن انكلترا » . وهو لذلك يطالب بأن يكون المؤتمرون على بينة من الحال وعن كثب من شؤون مصر ، وذلك بأن يتحتم انعقاد المؤتمر فيها « ليرى أعضاؤه بالعين ما حل بالبلاد من المصائب والإحن بسبب السياسة الفاسدة »[1] .

جرأتها فى الحق

وقد شكا الإنجليز النازلون بمصر مقال الأهرام الذى نددت فيه بسوء تدبيرهم وخطل سياستهم ، وأعلنت الأهرام ذلك ، وبيّن مديرها أن تنديد الأهرام مهما تبلغ قسوته لا يعادل حملة الإنجليز وصحافتهم على مصر ، ويتحدث عن ألوان التهديد الذى يهددون به الأهرام ويرد على ذلك بقوله « أما جريدتنا فلم تسلك فيما كتبت إلا الطريقة المثلى العادلة فشعارها الوطنية ومبادئها الصدق ولم تتعود على إنكار الجميل مهما كان مبلغ الوعيد » . ثم ينتقل من هذا إلى ترجيح موافقة انجلترا على اختيار ممثل مصرى فى مؤتمر لندن. ويطلب ملحاً بأن يكون هذا المندوب المصرى واحداً من اثنين ، شريف أو رياض باشا « وحبذا لو تم ذهابهما كلاهما »[2] .

وقد رحب المصريون بما كتبته الأهرام عن مندوب مصر فى مؤتمر لندن ، وتلقى صاحباها كثيراً من الرسائل ، جاء فى إحداها : « أيها الوطنى الحر إننى رأيت الجميع مستحسنين رأيك المختص بالمؤتمر وما يلزمنا إجراؤه بمناسبة ذلك وأؤكد لك أن أذكياء البلاد ووجهاءها وعمدها وأغنياءها عموماً مستعدون للتوقيع على العريضة التى أشرت برفعها إلى أوربا وهم لا يأسفون على النقود وبذل الجهد دون القصد . ولا مأرب لهم بنعاية انكلترا بل إن مأربهم الوحيد عضد هذه الدولة على إصلاح البلاد لأنهم يعتبرون أن غايتها الإصلاح وليس سواه وإنما ساءت الحال لفساد المبدأ وتضارب الظنون والآراء فإذا فعل المصريون ما أشرت إليه ففعلهم هذا يعد خدمة طيبة لبلادهم ولانكلترا أيضاً ، وإنا لنعجب والله من تأخر الذوات وذوى الشأن ممن يشار إليهم بالبنان عن تحقيق هذا القصد الذى لا يتجاوز حد الواجب المفروض عليهم ولا يخرج عن دائرة السلام »[3] .

---

(١) الأهرام فى ٧ مايو ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٩ مايو ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ١٣ مايو ١٨٨٤

ويطلع بشارة على قرائه بخبر مفاده أن انجلترا أجابت على طلب نوبار بحضور مؤتمر لندن بأنها ترى « أن تغيب المستر بارنغ عن مصر لا يسمح بتغيب نوبار باشا عنها أيضاً » . ولا ترى الأهرام بأساً فى هذه الإجابة ، فإن رئيس الحكومة تنتظره فى مصر تكاليف العمل التى تفرض بقاءه فى البلاد لتصريف الأمور ، ولعلها – أى الأهرام – قد رحبت بهذه الإجابة لأنها قليلة الثقة بنوبار فهو عندها أضعف من أن يمثل البلاد فى شأن خطير كهذا الشأن . غير أنها تقعب على إجابة الإنجليز بشأن سفر نوبار قائلة : « ولكن لا نعلم هل يفهم منه رفضها أى مندوب مصرى كان أو لا فإن كان الثانى فنعمت وإن كان الأول عجبنا وفى الوجهين لا نرى هنالك ما يقعدنا عن القيام بما تتطلبه منا واجباتنا الوطنية »[1].

غيرة الأهرام

وتمضى الأهرام متحدثة عن مؤتمر لندن وما يجب أن ينظر فيه ، وترحب بما رأته الصحف الإنجليزية من أن الواجب أن ينظر المؤتمر فى المسألة المصرية كلها ، مالية كانت أم سياسية[2] . ثم تجد « صحيفتنا » أن كفاحها فى مصر غير كاف وحده ، لذلك فاجأنا بشارة تقلا مديرها بنبأ سفره إلى أوربا ليربط بين كفاح الأهرام فى مصر والخارج ، فنشر النبأ فى قطعة أدبية وطنية جاء فيها : « أى مصر السعيدة بل أيها الوطن العزيز الذى أتيح لى فيه نعمة الفضل فقابلته بمعرفة الجميل ليس فى ساعة الرخاء فقط بل فى آونة الشدة والضيق ، فى تلك الأيام التى يجب على أمين الخدمة أن لا يتأخر عن الذود عن حوض وطنه والدفاع عن حقوقه المقدسة . . . أى نعم إننى وفيت بالمرغوب ولكن الحمية أبت إلا استقراء الخدمة لهذا القطر السعيد مقابل شرف النعمة دأب كل ذى شهامة وحرية فرأيت بعد الاتكال على الله تعالى أن أقصد أوربا أثناء التئام المؤتمر فأتجه إلى باريز ولندن وأكاتب الأهرام عن أعمال المؤتمر متخيراً الله فى سفرى هذه وغير آسف على النفقات الخصوصية والعمومية التى يقتضيها سفرى وخدمتى للجريدة والوطن من دراهمى ، بل لست بآسف من كونى لا أكتفى بأن أواصل الأهرام بالرسائل الضافية الذيول عن أعمال المؤتمر فقط بل أعد القراء الكرام بأنى سأوالى التلغرافات اليومية عما يتعلق بمسألتنا المصرية وسواها من المسائل المهمة أيضاً »[3].

---

(١) الأهرام فى ١٤ مايو ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ١٦ مايو ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ١٧ مايو ١٨٨٤

بشارة فى خدمة القضية المصرية

وسافر بشارة تقلا إلى باريس ليوافى صحيفته بالأنباء، ولم يخل عدد من الأهرام منذ تلقت أول رسائله من حديث له أو برقية عاجلة . وكانت جميع الرسائل متصلة بمصر سواء كانت حديثاً مع كبير من حكام البلاد الأوربية أو سفرائها أو رجال الأحزاب فيها أو كانت بيانات عما يجرى وراء الكواليس كما يقول أهل الصحف اليوم . أما برقياته فكانت فى معظمها تتصل بأحداث مصر وإن كان فيها قليل عن أحداث أوربية تعنى أى صحفى يفهم واجبه ويعلم قدر الأنباء عن حوادث الخارج .

وقد بدأ بشاره أحاديثه فى باريس مع سفراء الدول ، ونشرت له الأهرام حديثاً مقتضباً مع سفير روسيا ذكر له فيه « أن مصر لم تر أياماً أشد مرارة وصعوبة من أيامها هذه من حيث السياسة والإدارة والمالية ، وبينت له موجبات الخلل فى المسائل الثلاث التى أفسدتها سياسة الإنكليز فى مصر » . ثم يعرض لرأى السفير فى المشكلة المالية وهو رأى لا يرضى الإنجليز ويسوءهم أن ينشر على الملأ فى وادى النيل ولكن الأهرام نشرته وأبرزته فى غير تحرج[1].

حديث تقلا مع رئيس الحكومة الفرنسية

ثم تنشر الأهرام حديثاً ممتعاً لبشارة تقلا مع رئيس الحكومة الفرنسية ، ذكر فى مقدمته أنه ينشر منه « ما يحلو نشره ويسوغ ذكره » . وقد ذكر بشارة للفرنسى الكبير « كيف أن الفوضى عمت البلاد مالياً وإدارياً وسياسياً » ، فلما سأله رئيس الحكومة عن أسباب ذلك « قلت سوء الإدارة وأيدت ذلك بالأدلة وذكرت له أعمال رجال الإنكليز فى مصر فرداً فرداً وأطلت الشرح فى إجراءات كليفورد لويد . وقلت إذا كان قصد الإنكليز أن لا يخلو القطر إلا بعد استتباب الراحة فيه فهم لن يبرحوه فإنهم ما داموا مقيمين فيه متداخلين بأموره فلا يمكن استتباب الراحة وإصلاح الأحوال » ، فلما سأله جول فرى رئيس الوزارة عن رجال مصر الذين فى مقدورهم أن ينقذوا الموقف حدثه عنهم وأكد له أنهم قادرون على إنقاذ الموقف « على شرط أن يكون رجال مصر أحراراً فى الإدارة وإلا فلا نجاح وليس من عقلاء المصريين من يقبل وظيفة مهمة فى الحكومة إذا بقى الإنكليز متداخلين فى إدارات الأشغال »[2].

---

(١) الأهرام فى ٢٦ يونيو ١٨٨٤

(٢) دار الحدث فى ١٢ يونيو ١٨٨٤

حديثه مع المركيز سلسبورى

ويمضى بشارة إلى المعارضين للحكومة الإنجليزية من الأحزاب الأخرى ، فيقصد المركيز سلسبورى ويجرى معه حديثاً ممتعاً طويلا استغرق جزءاً كبيراً من سطور الأهرام ، وقد تعرض فيه بشارة لكل صغيرة وكبيرة وحمل فيه بشدة على تصرفات الإنجليز فى مصر ودافع عن الأمانى الوطنية دفاعاً حاراً ؛ كما تعرض بعنف لحزب المحافظين مع أن محدثه من كبار الرجال فيه. وذلك لأن رجال الحزب كما قال له « يودون تملك العالم ويتوقون لهضم حقوقنا » وقد أمضى فى ذلك الحديث ساعة ونصف ساعة مع المحافظ الكبير[1].

أحاديثه مع سفراء الدول

وهكذا دأبت الأهرام على نشر رسائل مديرها فى الخارج وهى رسائل قوية أقضت مضاجع الإنجليز فى مصر خاصة ، ولم يترك بشارة كبيراً إلا وتحدث إليه فى صراحة ملحوظة ، فكان له حديث مع سفير الدولة العلية وآخر مع سفير فرنسا[2] ، ومن أطرف الرسائل التى بعث بها صحفينا الموهوب الرسالة التى وصف فيها تناوله العشاء عند « الخاتون كارتر » التى « تفتح أبواب منزلها مرة واحدة فى كل شهر من شهور الشتاء لعلماء قومها وأدبائهم فيجتمعون هناك للخطابة ومطارحة الأفكار فى أى موضوع كان » . وكان الحفل الذى وصفه فأبدع فى وصفه ، ختاماً لهذه الاجتماعات الشهرية ، وقد انتهز بشارة فرصة التحدث فى المسائل السياسية وذكر فلسطين بينها . ثم استأذن الحاضرين ووقف يخطبهم فى قضية مصر ، وقد بدأ خطبته بمدح السيدات المهذبات العالمات أمثال ربة الدار ، ثم عطف على الإنجليز — وجميع الحاضرين من الإنجليز — يصف شعبهم بما يستحقه من التقريظ ، ثم عرض لموقفهم المخزى فى مصر « وحينما كنا نطالع خطب زعماء الأحرار والمحافظين المشيرة إلى عدم رغبتهم فى تلك البلاد أو حمايتها كنا نرى عمالهم بيننا يستبدون فى أمورنا ولا استبداد المماليك ، فخربوا البلاد وجرحوا قلوب العباد والحاصل أن حالة مصر لم تبق خافية إجمالا على أحد من الناس . . . وها هم الآن رؤساء الأحزاب يطلبون هضم حقوقنا وضميمة بلادنا وقد داسوا قولهم الأول (مصر للمصريين) وتمسكوا بأهداب المطامع خلافا للوعد ونقضاً للعهد » . ثم يذكر الخطيب ما دار بينه وبين الآخرين من

---

(١) الأهرام فى ٣ يوليو ١٨٨٤

(٢) الأهرام فى ٣ يونيه ١٨٨٤

مناقشات فند فيها أخطاءهم وبين مواضع الصدق فيما قال[1] .

أحاديثه مع عظماء الإنجليز

وقد حبس بشارة تقلا بعض الأحاديث فهماً منه للأصول الصحفية وذكر ذلك فى بعض رسائله حيث كان من المتعذر حرصاً على المصلحة العامة أن يذيع هذه الأحاديث ، ولكنه كان جريئاً فى أحاديثه مع الإنجليز عامة ومن لهم بمصر صلة خاصة ، مثال ذلك أنه التقى بالسير ريفرز ولسن ، والسير ريفرز ولسن على صلة بمصر منذ عهد الخديو إسماعيل ، فإذا سأله عن حالة مصر أجابه بشارة بأنها سيئة بفعال أبناء جلدته، ورد على سؤال خاص بالموانع التى تمنع الخديو من أن يجمع رجال مصر « رياض وشريف ونوبار » فى وزارة واحدة ، مبيناً لمحدثه أن ذلك لا يتم إلا إذا كان القصد خدمة مصر لا خدمة الإنجليز[2] .

حاجة مصر إلى وفد يمثلها

وفى وسط ميدان السياسة الدولية بلندن ، شعر بشارة أن انفراده بالدفاع عن القضية الوطنية لا يستقيم ومنطق الحوادث ، ففزع إلى مواطنيه من جديد ، يستعطفهم فى إرسال وفد يمثل البلاد بمقال جعل عنوانه « واجبات المصريين نحو الوطن » قدم له بأن كل من سار على الدرب وصل ، وأن هذه الحكمة قد خفيت على مواطنيه « ولقد بح صوتى وأفرغت المحابر فى دعوتكم أيها المصريون الكرام إلى الواجب المسئول منكم ورسمت لكم رسومات متعددة الأشكال والألوان فى كيفية التوصل إلى الرغائب بقليل من الجد قياماً بالواجب المفروض على ذممكم نحو وطنكم المحبوب الذى أغناكم من خيراته وأفاض عليكم مناهل السعادة والهناء فلأم التهاون والتواكل وما معنى إخلادكم إلى السكون » .

أول من فكر فى وفد لمصر

وكان بشارة أول من فكر فى تأليف وفد مصرى إذ كان أول من قصد « عمد البلاد وأعيانها ووجوهها وأغنياءها » ليرجوهم أن يعنوا بوجودهم كأمة حتى يدفعوا عن بلادهم « غوائل الضميمة واستبداد الأجانب » بشئونهم ، ثم يقول « دعوتكم مراراً وما زلت أدعوكم بإلحاح أن تؤلفوا قلوبكم وتفوضوا أمركم إلى عمدة تنوب عنكم بالمحاماة عن حقوق الوطن

(١) الأهرام فى ١١ يوليه ١٨٨٤

(٢) الأهرام فى ١٠ يوليه ١٨٨٤

فتجيء لندن وغيرها من عواصم الممالك المهمة وترفع إلى حكوماتها التقارير الشارحة بما هو جار فى البلاد وتسألهن العضد ولا تعدم منهن نصرة تتكفل بتحقيق الأمانى » . ثم يخفف عليهم الأمر إذا نهضوا ، ويطلب إليهم ألا يخشوا الحكومة المقيدة « أى لوم أيها الناس على من يدافع عن حقوقه وأى جناح على القائم بواجباته الوطنية فإن لم تسعفكم الحكومة بعطفة من لدنها وتمد إليكم يد المساعدة فاعلموا أنها مقيدة بإجراءاتها فلا تلوموها بل انهضوا من وهدة الخمول » . ثم يبين لهم أن المطالبة بحق مصر ستلقى معاونة من الإنجليز أنفسهم « . . . إنكم تجدون فى الأمة الإنكليزية رجالا كباراً يساعدونكم جهد الطاقة على كبح جماح الطامعين منهم إلى هضم حقوقكم . يساعدكم الرأى العام الإنكليزى الذى هو قوة الحكومة وسلاحها الوحيد » . ويؤكد لهم أن هذا سيكون موقف جلادستون وصحف انجلترا وسفراء الدول منهم إذا هم اهتموا بأمورهم ، وليس بدعاً أن يبعث المصريون بوفد غير حكومى فإن « لسعى العمدة المفوضة من قبل الشعب فى مسألة خطيرة كهذه أثراً حسناً مفضلاً على الأثر الناشىء عن سعى عمدة من قبل الحكومة . بل إن الحكومة لا يتأتى لها ولا يصح منها أن تتداخل فى عمل كهذا » .

وقد ذكر بشارة فى مقاله أنه دأب على مطالبة المصريين بإرسال ممثل للمدافعة عن حقوق البلاد فى انجلترا ، غير أنه حين لمس الحال بنفسه « وضح له وجه الصواب من هذا الخاطر وضوح الشمس فى رابعة النهار » ، ثم يذكر لمواطنيه أن زعيما من زعماء الاستعمار البريطانى أدهشه ألا تفكر مصر فى إرسال وفد يمثلها فى هذا المؤتمر الخطير ، ولم يعجبه اعتذار بشارة بأن الإنجليز فى مصر حالوا دون الحكومة المصرية وتأليف الوفد ، فذكر الإنجليزى الاستعمارى « . . . فلتكن العمدة من لدن الشعب المصرى تجىء للمحاماة عن حقوق البلاد بلسان الشعب عموماً ولا شك أننا نساعدها إذا برهنت على حزم المصريين وثباتهم . . . » ويعقب بشارة على حديث الاستعمارى قائلا لمواطنيه : « فإذا كان هذا كلام كبير الجانحين إلى تملك مصر فما ظنك بالمنصفين من حزبى الليبرال والراديكال »[1]. ويمضى مؤكداً أن كيان مصر السياسى لن يأخذ مكانه فى البيئآت الدولية إلا إذا كونت مصر هيئة وبعثت بها لتدافع عن أمورها فى المؤتمر وعواصم الدول التى لها فى القضية المصرية نصيب .

---

(١) الأهرام فى ٤ يوليو ١٨٨٤

مهاجمته الإنجليز فى صحفهم

لم يقف نشاط مبعوث الأهرام فى مؤتمر لندن عند أخذ الأحاديث من وزارة خارجية إيطاليا وفرنسا وسفراء الدول فى باريس ولندن ، وإلقاء الخطب فى المناسبات وكتابة الرسائل فى شتى الموضوعات التى تهم مصر ، وإرسال البرقيات ليقف المواطنون على حوادث العالم الخارجى ، لم يقف النشاط عند حد مد الأهرام بما يفيد سمعتها الصحفية وقراءها الكثيرين بل إن بشارة تقلا مضى يحرر المقالات فى صحف الإنجليز والفرنسيين . يفند بها أخطاءهم ويعدد مساوئهم ، حتى هاجمهم الأمر ، وهاجمه كليفورد لويد قائلا بأنه سورى من رعايا الفرنسيين ، فانبرى له بشارة يكذب تشويه الحقائق الذى عمد إليه الوكيل الإنجليزى وناقش فكرة السورية والمصرية مناقشة بديعة « ولكنى وإن ولدت فى سوريا . . . فأنا عثمانى ومصر قسم من بلاد السلطنة العثمانية وإقامتى فيها لم تحول جنسيتى لأن الجنسية واحدة . . . » أما الحماية الفرنسية التى عيره بها كليفورد لويد فإنه قد نالها « يوم كانت فرنسا وانكلترا متحدتين على المناضلة عن حرية القطر المصرى وقد أقفلت جريدتى لمغالاتها فى الوطنية المصرية وألقيت فى السجن وأوشكت أن أنفى إلى النيل الأبيض (فيزوغلى) . وكل الذين يعرفون الشرق – والمستر كليفورد لويد ليس ممن يعرفونه – يدركون أن الحماية الأوربية لا تعدم الشرقى جنسيته . ومثلى فى مصر كثير من الباشوات وليس ما يمنع من أن يعتبروا مصريين حقيقيين ويخولوا الخطط السامية والمناصب العليا »[1] . ثم يمضى فى مقاله ومقالاته الأخرى مفسراً سبب كراهية الإنجليز له ، وهو سبب واضح أصله كشف مساوئهم على صفحات الأهرام .

سخط الإنجليز على بشارة تقلا

أحنقت الأهرام الإنجليز المحليين الذين فزعوا إلى سادة لندن يعاتبونهم لأن أفسحوا صدورهم لبشارة تقلا يكتب فى صحفهم ويخطب فى محافلهم . ويبعث للأهرام بالأحاديث والمقالات التى من شأنها أن تسىء إلى سمعة انجلترا فى مصر والخارج ، وتسىء إلى سمعة انجليز القاهرة عند من بيدهم الأمر فى بلادهم . وخرجت الأجبشيان جازيت – فى أكثر من عدد – تعلن أن عندها ردوداً على رسائل مدير الأهرام . يزعم فيها أصحابها أنهم لم يكلفوا الرجل بما يصنع . وأنهم يبرءون مما ينشر . وأنه لا يعبر عن دواخل أنفسهم ، وأنهم

(١) لو جورنال دى ديا فى ٩ يوليو ١٨٨٤

عكس ما يقول وينشر ، راضون إلى الإنجليز وسياستهم . مطمئنون إلى سلامة طويتهم ، وأن بشارة يقحم نفسه فيما لا شأن له به ، وأنه ليس مصرياً حتى يأخذ على نفسه الدفاع عن مصر ، وأنه يتمتع بحماية الفرنسيين ليسىء إلى المصريين ، وأن ذوات البلاد وأعيانها لا يقرونه على شيء مما كتبه فى فرنسا أو انجلترا أو كتبه شقيقه سليم فى القاهرة.

مناصرة المصريين لصاحبي الأهرام

غير أن هذه الحملة التى قادتها الاجيبشيان جازيت وما دار فى فلكها من الصحف لم تغر الإنجليز فى انجلترا ليطردوا بشارة تقلا من بلادهم ، ولم تؤثر فى ثقة عامة المصريين وخاصتهم بالشقيقين ، من بقى فى القاهرة منهما أو نزح عنها سعياً وراء المطالبة بحقوق الوطن ، بل جاوز نخبة المواطنين حد المنتظر من تشجيعهم وتأييدهم ، فبعثوا برسالة إلى صاحبى الأهرام نشرتها لهم الصحيفة فى صدرها محلاة منمقة ، ننشرها لما احتوت عليه من تأييد وتقدير ، ولخطورة من وقعها من صفوة القوم ، وقد قدمت لها الأهرام بقولها « تشرفت إدارة جريدتنا فى صباح يوم الجمعة غرة أوغسطس (اب) بورود محرر مصحوب بهدية منقوش عليها إسم كل من محرر الجريدة ومديرها مع نص العبارة المعنونة هذه الحملة أى « أهرام — شعائر وطنية — سنة ١٣٠١ » ولما فضضنا ختم المحرر وجدناه مزيناً بتواقيع حضرات الأكارم من أفاضل علماء ثغرنا الإسكندرى وذواته ونوابه لدى مجلس شورى القوانين والمجالس الوطنية العمومية وأعيانه وتجاره فاخترنا أن نزين بعقده الثمين جيد جريدتنا نقله بنصه وإعلان تواقيعه وهو »(١).

المحرر الوارد من سادة الإسكندرية

« سعادة سليم بك تقلا صاحب امتياز جريدة الأهرام وبشارة بك مديرها المكرمين . خير الناس من ينفع الناس . وخير الشرف ما تولاه صاحبه عن إخلاص وحرية فى سبيل الذود عن الحقوق الوطنية والمصلحة العمومية . ذلك ما تبيناه كل التبين فى أسلوب جريدتكما الغراء — الأهرام — فقد سلكتما فيها مسلك الجد والثبات بدفاعكما عن الوطن وخدمتكما البلاد بالإخلاص والصدق وحسن الرأى مما انطبع على أفئدتنا حسن ذكره . فكانت بما أثبتته فى محاماتها عن الوطن ناطقة بلسان أبناء القطر وذويه الصادقين . وإذا لم يكن لهم بد من مقابلتهم إياكما بالشكر رأينا أن نرسل إليكما كتابنا هذا شاهداً عدلا على امتناننا

---

(١) الأهرام فى ٤ أغسطس ١٨٨٤

العدد ٣٠٠٩ — جريدة يومية سياسية تجارية أدبية



AL-AHRAM LES PYRAMIDES

الأهرام

شعار وطنية

سنة ١٣٠١

المحرر

الوارد من سادة الاسكندرية

(التواقيع)

المحرر الوارد من سادة الاقاليم

المصرية الداخلية

(التواقيع)

الشكر

صورة تبين المحرر الوارد من سادة الإسكندرية منشوراً فى صدر الأهرام

من جريدتكما مشفوعة بتذكار لا ينظر فيه إلى حقارة قيمته بل إلى حسن الغاية التى استدعت إليه حيث قد سطر عليه هذه العبارة (أهرام — شعائر وطنية — سنة ١٣٠١) فاقبلا أيها العزيزان ذلك وتأكدا أننا حافظون لكما الذكر الجميل الذى يخلد فى بطون التاريخ الجليل . وعلى المنتقد أن يراجع ما سطر بأهرامكم والله ولى التوفيق »[١].

شهادة بوطنية الأهرام

ثم نشرت الأهرام فى أعقاب هذه الرسالة رسالة أخرى بعنوان (محرر ثان) قالت إنها تلقته فى صبيحة الأحد ٣ أغسطس « موقع عليه من حضرات الأكارم ذوات الأقاليم المصرية الداخلية ونوابه فى مجلس شورى القوانين والمجالس الوطنية العمومية وأعيانها وعمدها فاخترنا أن نضيف إلى العقد الأول هذا العقد أيضاً تزييناً لجيد جريدتنا ننقله بنصه وهو »

المحرر الوارد من سادة الأقاليم المصرية الداخلية

« جناب الأكرمين الفاضلين صاحبى العزة سليم باك تقلا صاحب ومحرر جريدة الأهرام البهية وبشارة بك تقلا مديرها دام بقاؤهما »

« بعد التحية والإكرام إننا ما برحنا نطالع جريدتكما الوطنية عما يتعلق بالمسألة المصرية وتوابعها وأن الخطة التى سلكتماها فى سبيل المدافعة عن حقوق مصر والمصريين هى خطة حميدة تدعو كل وطنى إلى إبداء الثناء الجميل فإن جريدتكما أظهرت حقيقة حالة هذه الديار وأتت بجميل بيانها على إبداء وسائل الإصلاح بما يبقى لكما الذكر الطيب الذى لا يبرح مقروناً بالاعتبار لسعيكما المشكور ومحافظتكما على عهد الإخلاص والصداقة للوطن ألهمنا الله جميعاً إلى ما فيه التوفيق وحسن العافية والسلام »[٢].

(١) أسماء الموقعين من الإسكندرية هم : ميرسر تجار إسكندرية (أى رئيس التجار أو زعيمهم) إبراهيم الناضورى — سعيد القرياقى — عبد الرحمن علايلى — سليمان العانى — على على المصرى — محمد إدريس — سليمان القرقى — عمر المدينى — إبراهيم شعت — محمد عبد الله — متولى محمود — على فرغلى — إبراهيم سليمان باشا — سعد الله حلابه — أحمد رستم شريف على زاده — مصطفى حسن الطحان — الفقير خليل المشاوى الشافعى عفى عنه — محمد البحيرى — محمد خليل الديوانى — عبد الرحمن الجوريجى — مصطفى خليفه — الفقير إبراهيم سيد أحمد — الحاج سيد أحمد خليل — على حسن الديب

(٢) أسماء الموقعين من أقاليم مصر الداخلية وهم : حسن عبد الرازق (المنيا) أحمد عبد الغفار (منوفية) مصطفى أبو العز (غربية) حسين أبو حسين (منوفية) السيد سليمان (منوفية) منجود العطار (منوفية) عبد الوهاب عفيفى (شرقية) فرج ذكرى (منوفية) أحمد الصوفانى (بحيرة) عبد المجيد العبد (غربية) عبد الرحمن فايد (غربية) منصور السيد (شرقية) خليفه عوض (بحيرة) عبد المجيد المراسى (غربية) حسنين حزه (بحيرة) تونى محمد (أسيوط) حسين

أهمية الوثيقتين فى تاريخ الأهرام

ليس أبدع من هذين الخطابين توكيلا لصاحبى الأهرام فى الدفاع عن مصالح مصر فى مصر وخارجها ، فإن الذين وقعوهما من الصفوة المختارة ليس على مكانتهم بأس فى ميادين الأعمال الحرة ، وما كان يمكن أن يصدر توكيل من الشعب المصرى دون أن تكون عليه أسماء أولئك الذوات ، فهما رسالتان أو وثيقتان يعتد بهما حين يكتب تاريخ الأهرام ، لأنهما وثيقتان صدرتا ونشرتا بوحى من ضمائر أصحابهما وسيف الاحتلال مسلول على الرقاب ، وحكومة مصر على أسوأ ما تكون علاقة بالأهرام ، وهما وثيقتان قويتان صادقتان لم تصدرا عن أصحابهما بوعيد أو ترغيب ، وإنما صدرتا دليلا على أن الشعب المصرى كان فى أسود أيام الاحتلال قادراً على أداء وظيفته الوطنيه مهما يترتب عليها من آثار .

وقد رحبت الأهرام بالوثيقتين ، وأجاد فى هذا الترحيب سليم تقلا فعقب على نشر الكتابين بمقال عنوانه (التشكر) فيه من نثره المأثور قطع يعتز بها البيان العربى . « عفواً يا سادة تعطرت بثنائهم الأندية والمحافل . وعذراً يا كراما ازدانت بآدابهم مجامع الأدباء والأفاضل . فالبراعة ولو وشيت بالبراعة فى تنسيق درر الكلام لا تقوى على القيام بإعلان ما لكم من بيض الأيادى على جريدة الأهرام . تعطفتم فطوقتم جيدها بطوق الإحسان . وأكرمتم فزينتم زندها بسوار العرفان . وأحسنتم فشنفتم أذنها بقرط الفخر . وأنعمتم فكللتم هامها بإكليل النصر . وثقتم بصدق مبادئها لأنها لم تنطق عن الهوى . وصدقتم على ثبات سياستها لأنها لم تتلاعب مع الهواء . أى نعم إنها قد أحسنت لقيامها بواجبات الذمة فى سبيل الخدمة الوطنية . وانتهاجها خير المناهج فى ذودها عن حياض الحقوق الشعبية . اطردت الصدق دون الاكتراث بشقشقة من تمشى فى عروقهم سيال الحسد تمشى السم فى الجسد . » . ثم يختم الرجل شكره بتأكيد هذا الشكر « فالأهرام تعترف بما أتيتموها من الفخر . وتعتز بما وليتموها من حسن الالتفات وعظيم القدر . وتنشر بنود مديحكم فى كل صقع وناد . وتلازم منهجها القويم فى الذب عن حقوق البلاد .

أمين (بحيرة) أحمد الصباحى (غربية) على الهوارى (الفيوم) إبراهيم سعيد (غربية) محمد الشوارب (قليوبية) أحمد الشريف (غربية) على مهنا (بحيرة) محمود محمد أبو حسين (منوفية) محمد العرابى (غربية) إبراهيم حبيب (منوفية) محمد حوده (غربية) عثمان الهرميل (غربية) إبراهيم الجندى (منوفية) مبروك الديب (غربية) عبد اللطيف الشاذلى (غربية) محمد سعد (غربية) مصطفى الشيخ (غربية) إبراهيم دبوس (بحيرة) محمد صيرفى (بحيرة) على الناقورى (بحيرة) سيد أحمد زعزوع (بنى سويف) السيد الفقى (منوفية)

وحسبها من لدنكم أيها الأماثل حسن القبول . وكفاها من مكارمكم الرضى عنها فهو غاية المأمول » .

الأهرام وجريدة إجبشيان جازيت

وينتهز سليم تقلا فرصة الخطابين ودلالة ما فيهما من ثقة بالأهرام ، فيأخذهما حجة على جريدة الاجيبشيان جازيت ويذكر لها أنهما (البرهان القاطع) على إخلاص الأهرام وتفانيه فى سبيل البلاد ، وأن كل ما زعمته هذه الصحيفة بدافع الحسد قد رد إلى نحرها ، فإنها قد عيرته بأنه من لبنان ومولده فى كفر شيما، وهو يثبت لها بالخطابين أنه مهما يكن مولده ومدرجه فإنه مصرى يدافع عن حقوق وطنه. وآية ذلك شهادة الوطنيين أنفسهم ثم أن حماية فرنسا له إنما لم يستغلها « إلا فى سبيل دفاعى عن حقوق مصر » بينما تصدر الجريدة الإنجليزية فى الديار المصرية لتحارب الوطن وبنيه وتبقى فى عينه قذى ، ثم يسخر من قولها إنه مشترى من الآستانة « اعلمى أن درهمى لى ومنى ، أقول ذلك على رؤوس الأشهاد وأنفقه فى سبيل خدمة بلاد لها على حق أدبى ومادى لئلا أكون عقوقاً نظيرك » . وإنه ليذكرها بما حاولته عند الإنجليز فى انجلترا من تسوئ لسمعة صاحبى الجريدة وما بذلته بالكذب عند المصريين لينصرفوا عن صحيفتهم الأهرام .

« يا أيتها الوريقة لم يكن لك من حجة تستندين عليها فى افترائك إلا القول بأن ما تنطق به الأهرام لا يعبر عن حاسة أبناء الوطن ، وقد دفعتك القحة إلى الإعلان بأن لديك رسائل تضاد سياستها فسألتك إحدى الجرائد إظهار التواقيع فأحجمت إما لأن ما لديك لا يعول عليه وإما لأنه اختلاق ، أما الأهرام فيكفيها فى الجواب عليك أن تراجعى ما صدرت به هذا العدد ولكن بالتأنى دون الاندفاع إلى مطالب الحسد والطيش لكى لا تشطى وتلبئ غاشة أبناء جلدتك لكونك فى مصر وتجهلين حاسة أبناء مصر . فهل يكفيك يا ذات الوجهين هذا البرهان الساطع القاطع المانع الجامع . وهل تقبلين اقتراحنا عليك ذلك بترجمته ونشره كما ترجمت ونشرت غالبية رسائل مدير الجريدة بحجة تدوين ملاحظاتك الشاردة الباردة » .

وقد كانت الخصومة قائمة بين الأهرام وصحيفة الإنجليز التى أنشئت فى مصر قبيل الثورة العرابية ، منذ بلغ النفوذ الإنجليزى قمته . وكانت الاجبشيان جازيت خصيمة لكل فكرة وطنية بعد الاحتلال ، ولساناً قوياً للاستعمار البريطانى فى الشرق العربى كله . ولم يكن يضايقها من صحف العصر إلا صحيفتنا (الأهرام) فهى تزعم مرة أنها صنيعة السلطان ، وتزعم أخرى أنها لسان الفرنسيين فى مصر ، وتعيرها بأن صاحبها من الشآم ،

حتى إذا سفرت الأهرام فى خصومتها للإنجليز وحملت على سياستهم فى مصر والخارج ثارت ثائرة الاجبشيان جازيت وطالبت بمعاقبة مديرها وإغلاقها، وادعت فى غير تحرج أن عينا من أعيان المصريين لا يرضى عما تنشره الأهرام ، حتى نشرت الأهرام كتابى الأعيان والنواب ومن إليهم ، ثم رأت بعد أن حصلت على وثيقة « التشريف » أن تختم ما بينها وبين الجريدة الإنجليزية من خصومة ، فكل ما قالته تلك الصحيفة قد سقط قدره وهوى بعد تأييد المصريين الصريح واعترافهم بجميل أهل الجميل ، وهى (أى الأهرام) قلما خاصمت صحيفة أو نشرت جدلا يخصها إلا ما كان بينها وبين الاجبشيان جازيت فإن الصحيفة الإنجليزية قد أخرجتها عن دائرة سياستها المرسومة فى هذا الميدان .

وقد أنهى سليم تقلا مقاله بفقرة تستحق التسجيل تأريخاً لما كان بينها وبين لسان البريطانيين فى مصر « نعم يا أيتها الوريقة تفخر لكونها قامت بحقوق الذمة الوطنية المصرية وفازت برضى سادة البلاد لإخلاصها وصدقها كما تفخر لكونها لم تفز برضاك إذ لم تعاهدك على ذلك ولن تعاهدك . ولم يكن لها عقيب ذلك إلا أن يخاطبك لسان حالها بقوله « اشطحى وامرحى وذوبى بنار الحسد واكتبى ما شئت أن تكتبى وتطاولى بالقحة والطيش ، فأذن الأهرام عن الفحشاء صماء وأعمدتها لإفادة الجمهور بإثبات الروايات الصادقة لا للمهاترة والمشاتمة والوقيعة والافتراء والضغينة ، فتمتعى أنت ومن على شاكلتك بالتقلب على جمر الحسد حتى ترى من نفسك رادعاً » .

« يخاطبنى الحسود بكل قبح — وأكره أن أكون له مجيبا
يزيد ضغينة وأزيد حلماً — كعود زاده الإحراق طيبا »

إغلاق الأهرام

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى   فى حب مصر كثيرة العشاق

« حافظ ابراهيم »

فى تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٣ حديث عن الصحافة المصرية فى مدى عشرين عاماً ، أى من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٠٣ وهو يزعم فى تقريره هذا أن حوادث الصحافة لم تكن بذات بال وأن قضاياها الصحفية لم تتصل إلا بالصحف التافهة ، ويدعى أنه نصير لها وكفيل ، وأن دار الوكالة البريطانية لم تحارب الصحف فى كثير أو قليل.(١)

والحق إن اللورد كرومر أخفى على حكومته ما أصاب الصحافة المصرية على يديه وأيدى أعوانه الإنجليز الذين اختفوا وراء نوبار باشا بالذات، وأطلقوا عهد الإرهاب الصحفى ولما يستكمل الاحتلال ربيعه الثانى ، فقد شهدنا الصحف تقع صرعى الواحدة تلو الأخرى ، حتى الصحف الموالية لهم كجريدة (الوطن) لم تفلت من قسوتهم بل أغلقوها(٢) وإن عادوا إلى إصدارها بعد يومين(٣) ، وتعقبت الوزارة النوبارية الصحف المصرية فى الخارج فحرمت على صحيفة يعقوب بن صنوع (أبو نضاره) الدخول إلى مصر وكان الرجل يتحايل على إدخالها بتغيير اسمها حتى بلغت أسماؤها أكثر من عشرة(٤) . ثم أصدرت حكومة نوبار قرارا بمنع جريدة العروة الوثقى(٥) من الدخول إلى مصر « حفظاً للنظام

---

(١) Blue Books 1903, pp. 31-32

(٢) الوقائع المصرية فى ١٢ مارس ١٨٨٤

(٣) الوقائع المصرية فى ٣١ مارس ١٨٨٤

(٤) تطور الصحافة المصرية للمؤلف طبعة ١٩٤٥ ص ٢٣٨

(٥) أصدر جريدة العروة الوثقى بباريس السيد جمال الدين الأفغانى والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٤ وقد هاج لظهورها الإنجليز وحرموا دخولها فى الهند ومستعمراتهم وألزموا حكومة نوبار بحرمان المصريين من قراءتها، وكانت صحيفة تدافع عن الشرق عامة ومصر والسودان خاصة ، وقد بلغ فيها أدب الشيخ محمد عبده من حيث التحرير والإنشاء ذروته ، وهى آخر عهده بالكتابة فى الصحف (راجع أعلام الصحافة العربية للمؤلف ص ٧٧ وما بعدها)

العمومى » ، كما أغلقت نفس الحكومة جريدة Le Bosphore Egyptien[1] لسبب تافه ، لا يبرر هذا العدوان على جريدة الرأى[2] .

لم يمر على الصحافة المصرية عهد أسوأ من العهد الذى عاشت فيه أيام نظارة نوبار باشا ، فقد استطاع الإنجليز أن يقضوا على الحرية الصحفية لأخف الهفوات ، ولم تعوزهم الوسيلة ، ووسيلتهم رئيس الحكومة الذى ما كان يرد لهم طلباً يعنى بقاءه فى الحكم واستمتاعه بالسلطان ، فلا عجب أن لقيت الأهرام حتفها على يديه واحتجبت عن الظهور فترة من الزمان .

شهادة الإمام محمد عبده للأهرام

لا خفاء فى الأسباب التى دعت الحكومة إلى إغلاق الأهرام ، فقد عرضنا صوراً لهذه الأسباب . ومن أهمها كما يقول الشيخ محمد عبده فى العروة الوثقى « إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنيين » ، وبخاصة رياض باشا وشريف باشا اللذين وصفهما « بالوطنية وعلو الهمة » . ولعل من أخطر الأسباب أيضاً « نشر رسائل مدير الجريدة وهو فى لوندرا على ما فيها من بيان بعض مساوئ السياسة الإنكليزية على خلاف رغبة سعادة الباشا . وقيل إن السبب نشر التشكر الذى قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الجريدة (استقباح سياسة الإنكليز) »[3] .

لم يجاوز الشيخ محمد عبده موضع الحق فى مجموع ما ذهب إليه من أسباب إغلاق الأهرام ، فقد رأينا فى سنة ١٨٨٤ كفاحاً عريضاً فى سبيل الوطن وسخرية لاذعة بسياسة الإنجليز وما زعموه لأنفسهم من تقدير المصريين لهم[4] . ولم تختلف الحكومة فى روايتها لأسباب الخصومة التى بينها وبين الجريدة[5] مع رواية الأهرام نفسها إلا فى طريقة العرض ، فالحكومة تروى قصة الإغلاق فى وثائق جافة بينما ترويها الأهرام فى ريشة الأديب الكاتب متضمنة أوامر الحكومة ومعلقة عليها .

(١) الوقائع المصرية فى ١٥ مايو ١٨٨٤

(٢) كانت لو بوسفور إجبسيان تصدر باللغتين العربية والفرنسية خصماً للانجليز وسياستهم فى مصر ، وكانت تتعقب أخطاءهم وتبرزها لقرائها ، فإذا أغلقتها الحكومة المصرية احتجت الحكومة الفرنسية ولكن الإنجليز ظاهروا نوبار باشا فى أول الأمر ، حتى إذا هدد الفرنسيون بقطع علاقاتهم بمصر تخلى الإنجليز عن المصريين واضطر نوبار إلى أن يقدم اعتذاره لمعتمد فرنسا بملابسه الرسمية فى ٣ مايو ١٨٨٥ وفتحت المطبعة وعادت الجريدة إلى الظهور (راجع فى ذلك مجلة الشباب العدد السادس سنة ١٩٣٦ وجريدة لو بوسفور إجبسيان فى ٢١ مايو ١٨٨٥)

(٣) جريدة العروة الوثقى ص ١٤٥ — ١٤٦

(٤) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٨٨٤

(٥) راجع محفوظات المطبوعات بوزارة الداخلية ملف ١١ — ٢ — ٩٤٦ جزء أول رقم ٢٩٩٦



الأمير حسين كامل
(سلطان مصر فيما بعد)

رواية الأهرام لقصة التعطيل

تحدثنا الأهرام عن أسباب غلقها فى اثنى عشر صفحة ، وهى ثلاثة أضعاف ما تصدر فيه الأهرام من صفحات عادة ، وتبدأ حديثها بعنوان طريف (يا فتاح) يعقبه بيت من الشعر

اتقوا المؤذن مــن ديــاركم   إن كان ينبى كل من صدقا

ثم يتجه المحرر إلى قرائه قائلا : « إليكم ثبات جريدة كسميتها لا تزعزعها عناصر الاستبداد تقص عليكم تاريخ حادثتها التى جرت لها فى ٢٠ أغسطس الماضى تذكاراً محفوظاً فى سجل تاريخ هذه البلاد التى هى بلاد الغرائب والعجائب ، أنقل ذلك بالضبط المدقق وأترك الحكم لمن يبع شرف الوطنية بالدنية فأقول والله شاهد على ما أقول » . ويضع الكاتب عنواناً لما سيقول (اغتيال الاستبداد للأهرام فى ٢٠ أوغسطس سنة ١٨٤) . ثم ذكر أنه « عنوان رواية تاريخية صادقة تشتمل على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة » .

الموت فى حب الوطن حياة

وتروى المقدمة أن « حب الأوطان . من الإيمان . الموت فى حب الوطن حيوة (يقصد حياة) . والحيوة فى خيانة الوطن موت . السعيد من مات فى حب الوطن شهيداً . والتعيس من حيي فى خيانة الوطن سعيدا . تلك هى جريدتنا الأهرام نزعت من النشأة إلى القيام بواجبات اقتضتها الذمة والشرف فانتهجت خير المناهج وكان لها من ثبات سميتها نصيب فطالما قاومها عامل الظلم والاستبداد وطالما رامت تقويض أسسها دوافع الأغراض فكانت كحبة الحنطة تحيا بالموت الشريف فدى عن صدق الخدمة الوطنية ولبثت مطردة مناهجها لا تلوى العنان خوف تيار الظلم إذ تعودت مثل هذا الكفاح .

إذا اعتاد الفتى خوض المنــايا   فأهــون ما يمر به الوحول

وما يرحت بحول العزيز الحكيم وطوله تراعى شرف خدمتها وتحافظ على القيام بواجباتها لتأكدها أن ضياء الشمس لا يحجبه عن الأبصار طويلا كثيف الضباب . وأن الظمآن لا يرويه السراب ونور الصواب لا بد وأن ينجلى . والحقيقة لا بد وأن تعتلى والحيوة الشريفة لاتستحسن وتعز إلا بالاضطهاد .

إن المعالى فى الزمــان عرائس   لا تنجلى حتى تخضب بالدما »

ويمضى (سليم تقلا) شارحاً ما حدث فى شكل روائى فيذكر فى (الفصل الأول) أنه « اتصل بنا بعد وقوع حادثتنا الفجائية الاستبدادية أن بعض رجال الحكومة المصرية

دفع إلى دولتلو نوبار باشا رئيس الوزارة ترجمة فقرة من ضمن رسالة لمدير الجريدة منشورة فى العدد ٢٠١٥ من الأهرام بتاريخ ١١ أغسطس . . . زعم أن فيها ما يمس حاسة النظارة الشريفة فدولتلو نوبار باشا أرتأى بوجوب تعطيل الأهرام شهراً وما نعلم ما كان من المداولة فى هذا الشأن إلا إصدار قرار مجلس النظار بتثبيت ذلك كما أشار إليه الأمر المنوه عنه » .

شهادة الحكومة للأهرام

وقد جاء فى قرار مجلس النظار المنشور فى الوقائع المصرية « نظراً للمادة الثالثة عشرة من قانون المطبوعات الصادر بتاريخ ٢٦ نوفبر ١٨٨١ ونظراً لأن جريدة الأهرام نشرت جملة مواد سياسية من شأنها خدش سلطة واعتبار الحكومة الخديوية . ونظراً لأن العدد الصادر من هذه الجريدة بتاريخ ١١ أغسطس سنة ٨٤ نشر فيه مراسلة من لوندره من هذا القبيل أشد طعناً مما سبق نشره فيها. ونظراً لأن نشر مثل هذه الجمل مع ما عليه حالة القطر الحاضرة وحالة الأفكار يعد مخلا للنظام العمومى ، تقرر أن يصير تعطيل جريدة الأهرام مدة شهر من تاريخ إعلان صاحبها بهذا القرار » الذى كلفت بتنفيذه نظارة الداخلية[1] .

وثيقة تاريخية

ونعود إلى الأهرام الصادرة فى ١١ أغسطس ١٨٨٤ لندرس هذا المقال الذى خدش سلطة واعتبار الحكومة وجعل الأمن العام فى خلل. فنذكر أن عدد الأهرام هذا احتوى على مقالين أحدهما المشار إليه فى قرار مجلس النظارة ، والثانى نشرته الجريدة بمناسبة الحملة التى قامت بها صحيفة الاجبشيان جازيت زاعمة أن ليس للأهرام سياسة وطنية ، وقد تضمن هذا المقال — وعنوانه (سياسة جريدة الأهرام) — مقدمة فى أن الصحافة لسان الأمم « هذه هى جريدتنا « الأهرام » نشأت منذ تسع سنين فى هذا القطر العزيز تقوم بواجباتها نحوه ولم يلو عنانها عن اطرادها جادة الاستقامة هول الاستبداد ولا جانحة الظلم بل حسبت ما تحملته فى سبيل الخدمة الوطنية كرامة وشرفا » . ثم تحدد سياستها فى بنود أربعة : « أولا . الذود عن استقلال القطر المصرى العزيز . ثانياً . الذبّ عن حقوقه ومطالبه الشريفة . ثالثاً . المحافظة على امتيازاته الممنوحة له من لدن الخلافة

(١) الوقائع المصرية فى ٢١ أغسطس ١٨٨٤

العظمى والمضمونة من دول أوربا أجمع . رابعاً . احترام تلك الحقوق المقدسة لمقر الخلافة العظمى فالسلطان إنما هو سيد البلاد وخضوع المصريين له مبنى على حقوق دينية لأنه أمير المؤمنين ومدنية لأنه سلطان العثمانيين » . ثم تذكر أن تنديدها بالسياسة الإنجليزية أمر طبيعى وأن لها زميلات إنجليزيات يزاملنها فى هذا التنديد ، وهو واجب محتوم لمن تعرض للسياسة العامة وأخذ على عاتقه حق المدافعة عن الوطن وأهله .

ولا شك عندى أن هذا المقال كان له نصيب فى إغلاقها وإن لم يشر قرار النظار إليه ، ففيه أيضاً معان لا يرتاح إليها الإنجليز ولا يطمئن إليها السادة الحكام من المصريين ، أما المقال الثانى ، أى رسالة مدير الجريدة التى بعث بها إلى صحيفته من لندن ، فلم يتضمن فى الأسلوب والألفاظ والمعانى أشياء زادت عما سبق لقراء الأهرام أن لاحظوها فى رسائل بشارة من إيطاليا وباريس ولندن ، وهو يحدثنا هنا — فى المقال الذى أخذت الأهرام بجريرته — عما دار فى جلسة البرلمان الإنجليزى خاصاً بمواقف كليفورد لويد ، مبيناً أن ممثل الحكومة الإنجليزية نفى كل شر عن الوكيل الإنجليزى السابق فى مصر ، وأن كل خطأ فى ذلك — وتلك معنى إجابته — مرده إلى المسئولين من المصريين . وهنا يتجه بشارة تقلا إلى مواطنيه قائلا فى رسالته : « فيا أيها المصريون هل من يرى صحة فى هذا الجواب بل يا أيها النظار وخدمة الحكومة أما حان لكم أن تعلموا ماهية واجبات الوطن لأنكم إذا أتيتم بأمر حسن فالفضل به عائد إلى الإنكليز وإن بأمر سىء وهم أمروكم به أو عملوه فالمسئولون أنتم . فهل تظنون أن الوطنية قائمة بنقد الراتب وسمو مرتبة الوزارة . كلا بل هى قائمة بالمحاماة عن حقوق البلاد بشرف وعزة نفس . . . . »

السير بارنج أصل البلاء

ثم ماذا ؟ لقد تضمنت الرسالة كل ما جرى خاصاً بموقف الوفد المصرى فى لندن وعلى رأسه بارنج . ويحدثنا بشارة فى أسلوب بسيط وعرض صريح بما جرى بينه وبين مصريين وإنجليز فيقول « ضمنا مساء أمس مجلس وفى أثناء الحديث قال لى عضو من مندوبى حكومة مصر إنه يجب على المصريين أن لا ينسوا جميل السير بارنج لأنه دافع عن حقوقهم كمدافعته عن حقوق بلاده أما أنا ورفيقى فلا فضل لنا لأننا أجرينا ما تقتضيه وظيفتنا » . ثم يذكر أن بعض أعضاء المؤتمر الذين حضروا هذا الحديث سأل المتحدث « أفدنى كم كلمة لفظها السير بارنغ يا أيها العضو المصرى فى جلسة اليوم . فصمت العضو المذكور . ثم أردف الثانى قائلا . لولا السير بارنغ لأمكن

اتفاق المؤتمر على ما يناسب مصلحة مصر والدائنين ولم تصل مصر إلى حالتها المعلومة إلا بسوء سياسة من يمتدحه لأنه أضل حكومته » .ويعقب بشارة « ولما أفحم العضو المصرى عن الجواب سألته بحضرة الموجودين ألم يسبب السير بارنغ بإيجاد وظائف جديدة لأبناء جلدته مما لا تنقص رواتبها السنوية عن مائة ألف جنيه فإذا كانت إدارته حملت خزينتنا هذا المبلغ فى سنة فماذا تكون النتيجة إذا طوينا على ذلك سنين . فلم يجاوبنى على هذا السؤال بل سألنى قائلا : أفلا تود تخفيف الضرائب . أجبته إننى أود ذلك على شريطة أن يستفيد منه المصريون لا الإنكليز فإن صاحب الأطيان لا يسأل عن اقتصاد ألف غرش فى السنة عندما يرى أخاه المصرى مرفوتا من الوظائف والإنكليزى يأخذ الرواتب الباهظة . أى نعم إن المصريين ينتفعون من تخفيف الضرائب متى ترك الإنكليز الإدارة لهم . ثم اعلم يا أيها الباشا المندوب عن مصر أن عدم نجاحك فى مسألة تخفيف الضرائب لم يسببه إلا كونك آلة فى يد السير بارنغ أو لأنك ذو مبادىء إنكليزية . وكان الأولى لمصر أن تنتدب عمدة مصرية تأتى بزيها المعلوم فلو أنها أجرت ذلك لأكسبت بلادها جزيل الفائدة ولكن ما العمل فإن أسيادك الإنكليز ورجال مصر الذين هم آلة فى أيديهم عارضوا الخواطر الوطنية فكانت النتيجة ما تعلم » .

هذه بعض الفقرات التى تضمنها مقال ١١ أغسطس الذى أشار إليه قرار مجلس النظار ، وهى فيما يبدو لى أشد الفقرات فى الرسالة جميعاً ، بيد أنها ليست أشد مما كتب فى رسائل أخرى أو فى مقالات وأخبار علقت فيها الأهرام على مجريات الأمور ، فإن صحيفتنا زاخرة بالمعانى التى من شأنها حقاً خدش سلطة الحكومة الخديوية واعتبارها ، وهى أكثر من أن تعد ، وقد أومأنا إلى بعضها فى صحف مضت . غير أن الإنجليز كانوا قد برموا بالأهرام وصاحبيها ، وفشلت حملات الاجبشيان جازيت التى رتبت ترتيباً ، وأخذت الأهرام توقظ المشاعر وترهف الإحساس بموضوعاتها المختلفة ، وبدأ الناس ينظرون إلى الاحتلال نظرة ملؤها الحقد الشديد ، ففزع رجاله إلى نوبار ، ومن ثم انعقد مجلس النظار وأغلق الأهرام شهراً من الزمان .

ثورة الرأى العام وإجراءات التعطيل

وقد أثار إغلاق الأهرام أحداثاً جساماً فى الرأى العام الذى شهد معركة رائعة بين نوبار باشا والإنجليز من ورائه ، وجريدة الأهرام والقنصلية الفرنسية من خلفها ، ولولا هذه المعركة لما كان تعطيل الأهرام يستحق أكثر من أن يسجل كسقطة تضاف إلى سقطات

الوزارة النوبارية نحو الصحافة المصرية ، وتروى الأهرام قصة الإغلاق بقولها « وبعد إصدار هذا القرار بلوح أنه تراءى لدولتلو نوبار باشا أحد أمرين إما أنه ظن بكون صاحب الأهرام لا يقبل الأمر لأنه ظالم من جهة وعلى غير مجراه القانونى من جهة أخرى . وإما إنه ظن بكون الذنب من خوارق العادة فرام أن يقابله بأمر خارق العادة . وبناء على ذلك استدعى إليه حضرة يوسف بك دويرى مفتش بوليس مصر وسلمه أمر مجلس النظار بتعطيل الأهرام شهراً وألقى إليه أمراً شفاهياً بوجوب إقفال المطبعة بالقوة الجبرية مدة شهر أيضاً وزوده بالتعليمات الشفاهية وبعث به إلى الإسكندرية باكسبريس يوم الثلثاء ١٩ الشهر الماضى فسافر حضرته بهذه المأمورية الشريفة . . . »(١)

ونستكمل الوصف ، وصف إغلاق المطبعة ، بإحدى وثائق المطبوعات بوزارة الداخلية ، فهى إلى جانب ما تصور من لب المعركة تبين لنا ما كانت عليه حال المطبعة واستعدادها ، فقد نص محضر الإغلاق على ما يأتى : « فى سنة ١٨٨٤ وفى العشرين من شهر أغسطس الساعة السابعة صباحاً باسكندرية مصر . نحن نقولا مارك كبير مفتشى بوليس الإسكندرية ويوسف دوبريه كبير مفتشى بوليس القاهرة مكلفان من الحكومة وبمساعدة حضرة عبد الله صفير مدير سكرتارية محافظة الإسكندرية ومنصور سوكا الموظف بالمحافظة والمندوبين من سعادة محافظ الإسكندرية لإعلان حضرة صاحب جريدة « الأهرام » سليم بك تقلا بالأمر الوزارى بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٤ والذى يقضى بتعطيل هذه الجريدة لمدة شهر ابتداء من تاريخ إعلان القرار وتنفيذه . فقد ذهبنا إلى مطبعة الجريدة المذكورة والكائنة بحى المصلى فى منزل المسيو لمبرو حيث تحدثنا إلى حضرة سليم الخورى المستخدم بالمطبعة وأسلمناه نسخة من القرار الوزارى المذكور ليأخذ علماً به .

« وقد صرح السيد الخورى أن ليس لديه توكيل بقبول مثل هذا الإعلان وأن المنزل ملك لأحد الأجانب ثم وضع الأمر على عتبة الباب وطلب إلينا الخروج .

« ولما كانت طريقة إعلان القرار الوزارى سلبيا ولكى ندعم هذا الإعلان بالعمل الإيجابى فقد قمنا بجرد محتويات المكان وقد ظهر لنا أنه مكون من أربع غرف عدا البهو والمطبخ . وهو يحتوى على آلتين للطباعة ودولابين وثلاث فورمات مطبعة وآلة واحدة لضغط الورق وعشرة صناديق حروف وثلاثة طرود وستين رزمة ورق وغيرها من أدوات المطبعة .

(١) يروى الأهرام قصة الإغلاق فى يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٨٤

« وقد جاء أثناء هذا الإجراء سليم بك تقلا واحتج على دخولنا محله وعلى إغلاق المطبعة ذلك لأنه يحتمى بجنسية أجنبية . واضطر سليم بك إلى ترك المحل نزولا على الأمر الذى وجه إليه . أما مستخدمه سليم الخورى فقد استعملت معه القوة لإخراجه وقد قال إن صاحب العمل هو الذى أمره بذلك .

« وقد بوشر أمامنا بعد ذلك تسمير الباب وختمه بالشمع الأحمر . وكان عدد الأختام ثمانية تحمل اسم محافظة الأسكندرية[١] »

وقد تبين لنا أن الخلاف الشديد الذى قام بين حكومة نوبار باشا وبين القنصلية الفرنسية[٢] لم يكن فى الواقع إلا خلافاً على إغلاق المطبعة ، وفى ذلك تقول الأهرام « . . . وليس من يجهل أن حكومتنا المصرية من خيرة الحكومات فى هذا الشأن فإن لها مجالس ومحاكم وقوانين ولكن ليس فى قوانينها ما يؤذن بأن يصدر حكم من رئيس نظارها أو أحد أفرادهم بمجرد الإرادة الشخصية والقول الشفاهى وبناء على ذلك كان لحكم مجلس النظار بتعطيل الأهرام مزية قانونية بالنسبة إلى الحكومة المصرية لأنه صادر عن هيئة قانونية ولو أنه غير عادل إذ جل من لا يخطئ وأما الحكم الإفرادى الشفاهى الاستبدادى الصادر بإقفال المطبعة فهو مخالف لكل قانون وعدالة . . . » . وتبين الأهرام خطر الأوامر الشفوية تطبيقاً على ما حدث لها بإغلاق مطبعتها بأمر شفوى ، موجهة كلامها إلى محافظ الإسكندرية . « . . . وإلا أمكن أن يقدم إليه غداً مفتش آخر أو أحد موظفى الحكومة ويسأله إقفال أحد المحلات التجارية .أو إمساك أحد بدعوى أنه مأمور شفاهاً من الناظر الفلانى لإجراء هذا الأمر » .

ثم تمضى الأهرام ناقدة الأمر الشفوى الظالم القاضى بغلق المطبعة ، وهو عمل يضر بالحكومة نفسها . وفى ذكر شىء من نقدها هذا ، تقدم لنا صورة عن نشاط المطبعة فى ذلك الزمان وفيه أيضاً تسجيل تاريخى لما نكتب من هذه الفصول ، فقد قالت « وإذا أغضينا عن كل ما ذكر فلا مندوحة لنا من القول بأن الذنب كدعواهم إنما هو واقع على الجريدة كما يشير إلى ذلك أمر مجلس النظار وهى غير المطبعة فلماذا وقع القصاص على المطبعة أيضاً على حين يعلم كل إنسان أن المطبعة بيت تجارى ولا سيما مطبعة الأهرام

(١) محفوظات المطبوعات بوزارة الداخلية ملف ١١ — ٢ — ٩٤٦ جزء أول رقم ٢٩٩٦

(٢) أثارت القنصلية الفرنسية ضجتها وبعث برجالها يحتجون على ما حدث وأنذر الموقف بسوء المصير بين الحكومتين الفرنسية والمصرية وذلك لأنها منحت آل تقلا حمايتها فى ٤ سبتمبر ١٨٧٩ بعد أن أغلقت جريدتهما إذ ذاك وكاد أحدهما يقتل وينفى الثانى أيام الخديو إسماعيل

فهى معدة لطبع الكتب والجرائد والأوراق والتقارير والوصولات والكمبيالات وما شاكل ذلك من المطبوعات عربية وإفرنجية حتى إن بعض إدارات الحكومة لها فيها مع وقوع هذه الحادثة أعمال مهمة بين تقارير وكشوفات وكلها تتطلب الإسراع فى الإتمام وقد وصل إليها أمر ذلك ولعلها بلغته للوزارة ولديها جرائد أخر عربية وإفرنجية تطبع فيها بالأجر بموجب كنتراتات ثابتة فإقفال المطبعة قد أوقف جميع هذه الأشغال وعطل أصحابها وخسرها الخسارة الجسيمة » .

أما إغلاق الجريدة وإن يكن عند الأهرام عملا ظالماً إلا أن الشكوى انصبت على الطريقة التى اتخذتها الحكومة لتنفيذ قرار مجلس النظار ، فإذا لم يكن فى وسع نوبار باشا ناظر النظار أن يتصل بالقنصل الفرنسى ليبلغه بقرار المجلس الخاص بغلق الجريدة فما كان أحراه بأن يمضى على ما جرت به العادة « إذ كان من عوائدها — يقصد الحكومة — متى عطلت جريدة لمدة ما أن تبعث الأمر إما بواسطة المحافظة وإما بواسطة المطبوعات وتنبه على صاحب الجرنال بنشره فى العدد الأخير الذى يصدر من جرناله ليعلم القراء بذلك . . . » .

وتترك الأهرام مناقشة المسائل القانونية الخاصة بإغلاق الأهرام أو المطبعة وإهمال العرف المتبع فى إغلاق الصحف ومنح أصحابها فرصة نشر قرار الغلق قبل أن تنفذه ، تترك هذا كله وتناقش الحكومة قائلة إن سياستها تقوم على أركان أربعة وهى الذود عن استقلال مصر والذبّ عن حقوقها ومطالبها والمحافظة على امتيازاتها واحترام حقوق السلطان المقدسة «وإنا لنعلم بل يعلم كل من تظله سماء مصر » إلا من ختم الله على قلوبهم « أن هذه السياسة تؤيد سلطة الحكومة ولاتخدشها ولا يخيل لنا أن يكون لوزارتها غير هذا المجرى لأن سياستها ينبغى أن تكون بالنسبة إلى الظروف الحاضرة مطابقة إما لمشرب أهالى البلاد وإما لمشرب عظمة السلطان أمير المؤمنين لأنه سيد البلاد . وإما لمشرب وزارة انكلترا (إذا شاءوا ذلك) . . . وإذا قيل إن للوزارة غير هذه السياسة أجبنا أننا أوضحنا سياستنا مرارا بذكرنا أركانها الأربعة فكان من الواجب عليها أن تعلن لنا ما الذى تتركه من هذه الأركان وما الذى تحافظ عليه ، على أننا لم نر أثراً لذلك فى جريدتها الرسميتين . ولعلها تريد أن تتمشى جريدتنا على نمط وريقة الغازيت الساقطة التى لا تبرح مشيرة بوجوب ابتلاع البلاد فهى بما لديها عزيزة وجريدتنا بسياستها لديها مقاصة . ذلك ما لا نتصوره فى رئيس نظارتنا وزملائه ولو أن ليس لدينا جواب لمن يقول سائلا ولماذا إذن تلك تتكلم ولا تسأل وهذه تسأل وتعامل بالظلم » .

وقد أبدت الأهرام غاية أسفها لأن الأزمة انتهت باعتذار المسئولين للقنصلية الفرنسية على إهانة مستشارها المسيو حجار و « هذا ما كسبته حكومتنا من جراء هذا العمل الاستبدادى الفجائى » ثم نشرت أكثر من ثلاثين مقالة كتبت فى إغلاق الأهرام فى صحف عربية وفرنجية ، فى مصر والشرق العربى وأوربا ، بجانب ما أذاعته وكالات الأنباء عن هذا الحادث ، وقد استغرقت هذه المقالات أكثر من أربع صفحات كاملات ، وتضمنت أقوال خصومها من الصحف بجانب صديقاتها الكثيرات .

ذخائر الأهرام

ثم نشرت فى أكثر من صفحة ونصف ، مجملا للموضوعات التى جادلت فيها وكان رأيها هو الصائب ، بعنوان « ذخائر الأهرام » وعددتها منذ أزمة السودان إلى التفكير فى عقد مؤتمر لندره وهى الموضوعات التى عالجناها فى هذه الفصول ، ثم يناقش الأهرام من يعيب عليه وضع أنفه فى مسائل دقيقة « يقول بعض الذين يعلمون من السياسة لفظها دون معناها ماالجرنال الأهرام وهذه السياسة فهل يقوى على أن يغير مبادىء إنكلترا . فنجيب أن اتباع هذا الرأى يقضى على الوجود بسقوط الشرف منه وعلى الحقوق بزوال أحكامها وعلى الشهامة بدفنها ، أفلا يعلم الجاهل قبل العالم أن على الإنسان واجبات مقدسة لا بد من القيام بحقوقها فإذا فاز فيها ونعمت وإلا فليس عليه أن يعاند القدر . فالأهرام لا يدافع بالسلاح بل بعدالة الحقوق كما تقتضيه الذمة ولابد له من اتباع خطته إلى النهاية وله إذا حسن الظن شرف الغلبة وإذا ساء شرف حسن الدفاع » .

ختام الفصول

وتذكر الأهرام فى ختام المأساة أنه لا يعنيها إلا المواطنون متمثلة بقول الشاعر :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى　　فلا زال غضبانا علىّ لئامها

ثم تختم حديثها بشكر نوبار باشا وحكومته التى « جعلت للمسألة شأناً كبيراً فتناقل خبر الجرنال جميع الألسنة العربية والأعجمية وجميع الجرائد العربية والإفرنجية الشرقية ثم الإفرنجية الغربية ، فكان له من الشهرة فى تعطيله ما كان له من ذلك فى أوقات نشره . . .

علو فى الحيـاة وفى الممـات　　لحق تلك إحدى المعجزات »

الكتاب الثالث

١٨٨٤ - ١٨٩٩

لسان أمة

وحدثني يا سعد عنهم فزدتني شجوناً فزدني من حديثك يا سعد

« الحطيئة »

استفتح بشارة تقلا عودته بقوله :

« هي مصر موضوع خدمتي ومصلحتها مصلحتي والذب عن حقوقها قاعدة عملي والدفاع عنها غرضي ، وأنا كما أنا ثابت العزم راسخ القدم محافظ على عهد القدم لا حول لى عنه ولا عائق يؤخرني عن النهوض بواجبات رسمها لى فاتخذتها مبادئ لا بد من بلوغ الأماني باطراد السير على مناهجها إذ لا يموت حق وله مطالب ولا يعدم المستقيم عدالة تنصفه فى المخاصمة فقد أبي الحق إلا أن يعتلي والنور إلا أن ينجلي .

« والحياة لا تحلو إلا إذا تخللتها الحوادث وعرف المرء أن يستخدمها لمصلحته فهي إنما وجدت لترافقه وهو إنما وجد ليعانيها ، وذو الحزم والثبات ينجح إذا أحكم أمره ولو حالت دون ذلك حواجز وموانع . ونحن فى زمن غير الزمن السالف فقد تنبهت فيه الخواطر وحامت الأفكار حول الحوادث تراقب مليا فلا تدع شاردة أو بادرة إلا وتذهب فيها مذاهب وضروباً حتى أمسى لديها مستطاعاً ما كان فى الأمس مستحيلا ، وما زاد إلا دور الحياة السلسل لا بد وأن يتمشى حتى يصل إلى نقطته النهائية .

« ورجعت إلى القطر بعد تغيبي عنه أربعة أشهر وأربعة أيام صرفتها لدى وجهة واحدة هي القيام بفرض الذمة والشرف من واجب خدمته . وما سبيلي أن أذكر القراء الكرام بحوادث الماضي فإن الأهرام لم يبخل عليهم بذلك ، ولعلهم لا يجهلون أن الأيام قد صدقت كل ما بسطناه وذلك ما أيد ثقتهم بما نسطره وإننا مطردون المنهج بالتدقيق فليس أمامنا إذن إلا زيادة ثقتهم بما نأتيه . . . »[1]

(١) الأهرام فى ٧ أكتوبر ١٨٨٤

بهذه الفاتحة الطيبة بدأ (بشارة تقلا) حديثه لقراء الأهرام ، وفى هذا الأسلوب الذى يزخر بالحرارة والصدق عادت الأهرام إلى وصل ما انقطع من كفاح مرير بوأها مكانها المقدور فى تاريخ الصحافة المصرية وندبها أبداً إلى أن تكون « لسان أمة » حاول المحتلون ومن دار فى فلكهم أن يحرموها الألسنة . ولكنها عادت من المحنة قوية مدوية ، لم تفتأ تحاسب الإنجليز على اضطراب الأمن وكثرة اللصوص ، وتحملهم متاعب مصر الاقتصادية وتكشف الغرض الذى انطوت عليه نفوسهم فى مسألة السودان(١) ، ثم تذكر أنه « كثيراً ما بدت المسألة المصرية بأشكال مختلفة على أنها لم تخرج عن نقطتها الجامعة ، خلل الإدارة وفساد السياسة وفوضى المالية . . . »(٢) . ولم يخل عدد من أعداد الشهور التالية لمحنتها إلا ولها فيه حملة على الإنجليز(٣) وسياستهم التى أصبحت « مدرسة كلية لمن تدبر الأمور ونظر فى أفق أحكامها بمجرد الحكمة فأدرك بالبصيرة والبصر ما يوافيه به المستقبل ، وعرف بالفعل ماهية تلك السياسة الإنكليزية التى لزمت التردد والتسويف فمنت مصرنا بكوارث ومصائب كسرت الظهر ودقت العظم »(٤).

وقد هالها ذلك الهمس الذى بدأ فى الأوساط المصرية عن فكرة وضع مصر تحت الحماية الإنجليزية ، وزعمت — لتهدئ روعها — أنها إشاعة ، ولو ان الهمس يؤكد أن رئيس النظار دعا أعضاء مجلس شورى القوانين ليقروا ما يهمس به الناس « ولكن فات أولى الوهم والتخيل أن الأمر بعيد الحدوث وأن ليس من رجل مصرى يقر عليه وفى عروقه دم وفى قلبه ذرة شرف وذمة ودين ، فإن الرجل الذى يوقع على مثل هذا القرار إنما هو يقضى على بلاده بفقد حقوقها التى بها وحدها وجودها السياسى وحياتها الأمية »(٥).

وقد أقبلت سنة ١٨٨٥ فأغذ بشارة تقلا السير إلى أوروبا ونزل باريس ، وأخذ من هنالك يضع فى رسائله تصويرا بديعاً للتيارات السياسية الخاصة بمصر أو بغيرها من بلدان الشرق(٦) ، بينما بقى سليم تقلا فى الأهرام ينافح عن شؤون مصر فى السودان ، هذه البلاد التى أصبحت نهباً لأمثال إيطاليا والتى يقر توزيعها انجلترا « الخليلة الصفية

---

(١) الأهرام أعداد أكتوبر ١٨٨٤
(٢) الأهرام فى ٨ أكتوبر ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى ١٧ أكتوبر و ١٢ نوفمبر ١٨٨٤
(٤) الأهرام فى ١٧ ديسمبر ١٨٨٤
(٥) الأهرام فى ٢٩ ديسمبر ١٨٨٤
(٦) راجع الأهرام فى سنة ١٨٨٥

للعثمانية والحامية عن حقوقها »[1] كما أخذت تحمل على اتفاقية لندن الخاصة بمصر فى أكثر من عدد[2].

ولم تفوت الأهرام أمراً إلا وكان لها فيه رأى ، أو كان لها عليه تعليق ، فهى تبحث شؤون القضاء المصرى ، ويذكر بشارة فى هذا الموضوع « أن الحوادث الدولية الخارجية ما كانت تذهله عن النظر فى السياسة الداخلية » وخاصة لائحة ترتيب المحاكم الأهلية التى تتطلب مزيدا من عناية وتقوية لها واستقلالا فى رجالها ، ولو انهم على كفاية وخلق « إذ برهنوا بإجراءاتهم العادلة على حرية ضمير واستقلال فكر وحكموا فى أكثر من قضية واحدة على الحكومة نفسها مراعاة للإنصاف والاستقامة »[3].

دفاع الأهرام عن زميلاتها

وتؤرخ (الأهرام) لهذه الموجة من اضطهاد الصحافة فى البلاد العربية وفى مصر نفسها ، فتذيع والأسى يملأ جوانحها ما أصاب زميلتها (لسان الحال) الغراء المطبوعة فى بيروت « من ضربة العطلة لمدة ثلاثة أشهر » ، ثم تذكر « لأبهتلو دولتلو ملجأ الولاية الأفخم» أن مثل هذا العمل الذى نزل (بلسان الحال) يدعو إلى اضطراب الأمن » لأن احتجابها عن الأبصار مضل للأفكار وخصوصاً فى وقتنا الحاضر حينما تتواتر الإشاعات والأراجيف الكاذبة ويحتاج الجمهور إلى نور يهديه سواء السبيل »[4].

وإذا كانت الأهرام تدافع عن صحف بيروت ، فأولى بالدفاع عندها صحف مصر ؛ فإن ما يصيب واحدة منها بسوء ، يجعل غيرها فى خطر ، وقد ذاقت الأهرام هذه المحنة وأحستها وعاشت فيها .

إغلاق جريدة البوسفور

وكان لقصة جريدة البوسفور وإغلاقها شبه ونسب بقصة إغلاق الأهرام ، ومع ذلك فإن الأهرام لم تذهب فى حملتها على تصرف الحكومة مذهب المتحامل أو تعرض للأمر عرض المحنق المغيظ ، بل كانت أشد الصحف المعاصرة هدوءاً فى نقاش الموضوع وعلاجه فتبدأ بذكر خبر إغلاق البوسفور[5] وموقف المسيو فريسينيه رئيس الحكومة الفرنسية

(١) الأهرام فى ٦ فبراير ١٨٨٥
(٢) راجع الأهرام فى مارس وما تلاه من أيام
(٣) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٨٨٥
(٤) الأهرام فى ١١ أبريل ١٨٨٥
(٥) الأهرام فى ٩ أبريل ١٨٨٥

إذ ذاك والسعى الذى قام به قنصل فرنسا عند الخديو ونوبار باشا[1] . ولم يذهب المحرر فى تصوير الموقف إلا بعد أن ألم بجميع أطرافه من مصادر الثقة ومن مختلف الجهات المتخاصمة ، ولم يعجب الأهرام موقف نوبار الذى أراد أن يزيد الأزمة بين مصر وحكومتها فزعم أنه سيخاطب الدولة العلية فى الأمر ، وهو أمر – عند الأهرام – داخلى ومسألة صغيرة ، والدولة « لا علم لها ولا إلمام بمسائل عديدة جسيمة الأهمية أو هى إن أخبرت عنها فذلك بعد قضائها وإمضائها »[2] . ثم تنقد الوزارة التى أدخلت تركيا وانجلترا وفرنسا نفسها فى مسألة داخلية محض « ولقد كان يجدر بنا أن لا نطيل التردد والماطلة ونزيد الحالة وبالاً فإن مسائلنا الحاضرة ومشاكلنا الراهنة تقتضى منا استمالة الدول إلينا لا العمل على تقوية نفورهن منا كما دلت على ذلك أقوال صحف باريز وسائر العواصم الأوروبية »[3] وتذكر الأهرام أن حماسة الفرنسيين لجريدة البوسفور ، ومن ورائهم سائر الدول الأوربية ليس القصد منه هو إعانة صحيفة على أمة أو تشجيع صحف على حكومة مصر ، وإنما موقف الفرنسيين ومن يؤآزرهم ضد الإنجليز لا ضد المصريين فى شىء ، لأن البوسفور تكافحهم وتكشف مساوئهم وتفضح أنصارهم[4].

الأهرام وحرية الصحافة

وتأخذ صحيفتنا فى رواية الأزمة يوماً بعد يوم[5] ويزعجها تهديد الوزير الفرنسى بقطع العلاقات السياسية واتخاذ إجراءات أخرى مشابهة[6] وتقول إن قناصل الدول وأحرار الفكر لم يرضهم قط ذلك القانون الذى سنته الحكومة للمطبوعات – وهى تقصد قانون ١٨٨١ – ، وتعقب على ذلك بأنه « إذا كان الأمر كذلك فلم لا تعرض – تقصد الحكومة – لوكلاء الدول لائحة قانون جديد يوضع على مبادئ حرة عادلة تحفظ حقوق الجميع وتصون من الخطأ والخطل ، وأليس ذلك أحكم من أن تبادر إلى إقفال مطبعة أو إلغاء جريدة لهفوة ما أو لكون هذه الجريدة لم تناد بمدح زيد وعمرو أو لكونها تندت

(١) الأهرام فى ١٣ أبريل ١٨٨٥
(٢) الأهرام فى ٢١ أبريل ١٨٨٥
(٣) الأهرام فى ٢٢ أبريل ١٨٨٥
(٤) الأهرام فى ٢٣ أبريل ١٨٨٥
(٥) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٨٨٥
(٦) الأهرام فى ٢٠ أبريل ١٨٨٥

بإجراءات بكر وسواه فتقفل بذلك بيوت أشخاص عديدين يتعيشون من عملهم فيها[1]». ثم تطالب صيانة لحرية الصحافة بأن تكون أوامر إغلاق المطابع ومصادرة الصحف مرجعها « للمجالس القانونية دون سواها »[2] حتى لا يساء موقف مصر أو يهان وزيرها الذى اضطر إلى الاعتذار عما فعل[3].

هذا هو موقف الأهرام من حرية الصحافة فى مصر والبلاد العربية ، وهو موقف تغبط عليه ، كما أن مساهمتها فيما يمس الشئون الصحفية أرخ لنا جانباً من النشاط الصحفى وسجل هذا الدور الخطير الذى مرت فيه الصحافة المصرية فى أوائل عهد الاحتلال وأثناء حكومة نوبار باشا صفيهم فى تلك الأيام .

إهتمامها بشئون مصر وملحقاتها

وهكذا راعت (الأهرام) وظيفتها الصحفية فلم تترك شاردة أو واردة من شؤون مصر الداخلية والخارجية إلا ألمت بها يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة ، وقد روعتها أحداث السودان فكان النصيب الأوفر من مجهودها منصباً على الدفاع عن مصريته ، وكان خصمها فيه عدا الإنجليز الإيطاليين الذين حملت عليهم حملات متصلة بمناسبة « إنزالهم الراية المصرية من مصوع وإجبار حاميتها على الجلاء »[4] . . ثم تمتدح موقف « دولتلو المختار باشا[5] » وهو أحمد مختار باشا (الغازى) المندوب السامى التركى الذى بعث به السلطان لبحث الحالة بمصر[6] بمعاونة السيرد دراموند ولف (Sir Drummond Wolff) وكان مبعوثاً فوق العادة ووزيراً مفوضاً لمهمة تتعلق بالشئون المصرية »[7] . ثم تتعقب نشاط المندوب التركى وتنشر ملخصاً لتقريره الذى سيرفعه إلى السلطان بحسم « النازلة السودانية ووجوب تنظيم جيش من ١٧ ألف رجل يستخدم لمصر وتخومها . . . ثم فصل دولته كيف يجب أن يكون نظام البوليس فى الداخلية . . . »[8] أما عن موقف ولف فإنها علقت عليه بقولها « . . . ولكن خير الأقوال ما أيدته الأفعال وهو ما

(١) الأهرام فى ٢٧ أبريل ١٨٨٥
(٢) الأهرام فى ٢٥ أبريل وأول مايو ١٨٨٥
(٣) الأهرام فى ٤ مايو ١٨٨٥
(٤) الأهرام فى ٨ ديسمبر ١٨٨٥
(٥) الأهرام فى ٨ يناير ١٨٨٦
(٦) الوقائع المصرية فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥
(٧) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال للرافعى ص ٧٨
(٨) الأهرام فى ١٥ فبراير ١٨٨٦

نطلب تحقيقه من الإنكليز ولا سيما الوزارة الحرة التى فضلا عن أنها قالت كثيراً لم تفعل شيئاً أو فعلت عكس ما قالت ، ولذلك نرى من أكبر واجباتها أن تسرع فى فى تفحص تقرير دولة المختار وقبول مشورات مندوبها فإن الإنكليز لا يجهلون أن أوربا واقفة لهم بالمرصاد . . . »[1].

وتكاد الأهرام فترة من الفترات تقدم الشئون الداخلية صغيرها وكبيرها على النواحى السياسية الكبرى التى لم تغفلها قط ، ويلاحظ المطلع أنه كلما سافر بشارة تقلا إلى الخارج وترك وظيفته فى القاهرة كمراسل لصحيفته قلت البحوث المتصلة بالسودان أو الإنجليز أو القضية الوطنية ، ومع ذلك فإن صحفينا بشارة لم يتوان عن مراسلة الأهرام من أوربا أو من دار الخلافة فى جميع الأصياف التى غابها عن مصر ، وكانت مقالاته جلها عن مصر وشئونها السياسية وأخبارها فى أوربا ومكانة قضيتها هنالك ، بجانب بعض الرسائل الخاصة بالحياة الغربية التى تفيد القارئ وتضرب له المثل وتحسن له الأسوة[2] .

* * *

الأهرام فى سنتها الثانية عشرة

ثم تدخل الأهرام فى سنتها الثانية عشرة واعداً صاحبها بأن « نتابع فيه خطتنا على وتيرتها ونلاحق خدمتنا على ماضى سيرتنا . من توخى جانب الحق فى الإيراد والتزام طريق الصدق فى الحكاية وتنزيه القلم عما يعقب الوصمة ويخالف الخطة المثلى ويميل من الهوى وينزع إلى الأغراض كما كان شأننا بحمد الله تعالى فى بادئ الأمر . ومفتتح الصدر . من أداء صادق الأخبار على علاتها وإيراد صحيح الحكاية على حالاتها . لا نقصد بذلك إلا خدمة الوطن ونفع الأمة وتقدم البلاد وأهلها بما نورده من حقيق حالها وواقع أمرها فى دفع ما يضر واستجلاب ما يسر على قدر ما تحتمله الطاقة ويبلغ إليه الجهد »[3].

ولم يكن فى إعلان هذه الخطة شىء جديد بالنسبة للسنن التى اتبعتها جريدة الأهرام ، فتاريخها فى السنوات الماضية ينطق بصدق هذه التذكرة التى جاءت فى مستهل سنتها الثانية عشرة ، وقد دأبت على تحقيق معانيها فلم تغفل شيئاً جل خطره أو هان إلا وسجلته وعلقت عليه . فأرخت لحياة مصر الحديثة أجمل تأريخ ، فأنت تعيش فى كل جانب من جوانب الحياة المصرية إذا راجعت سطور الأهرام ، وتحيا مع الناس

---

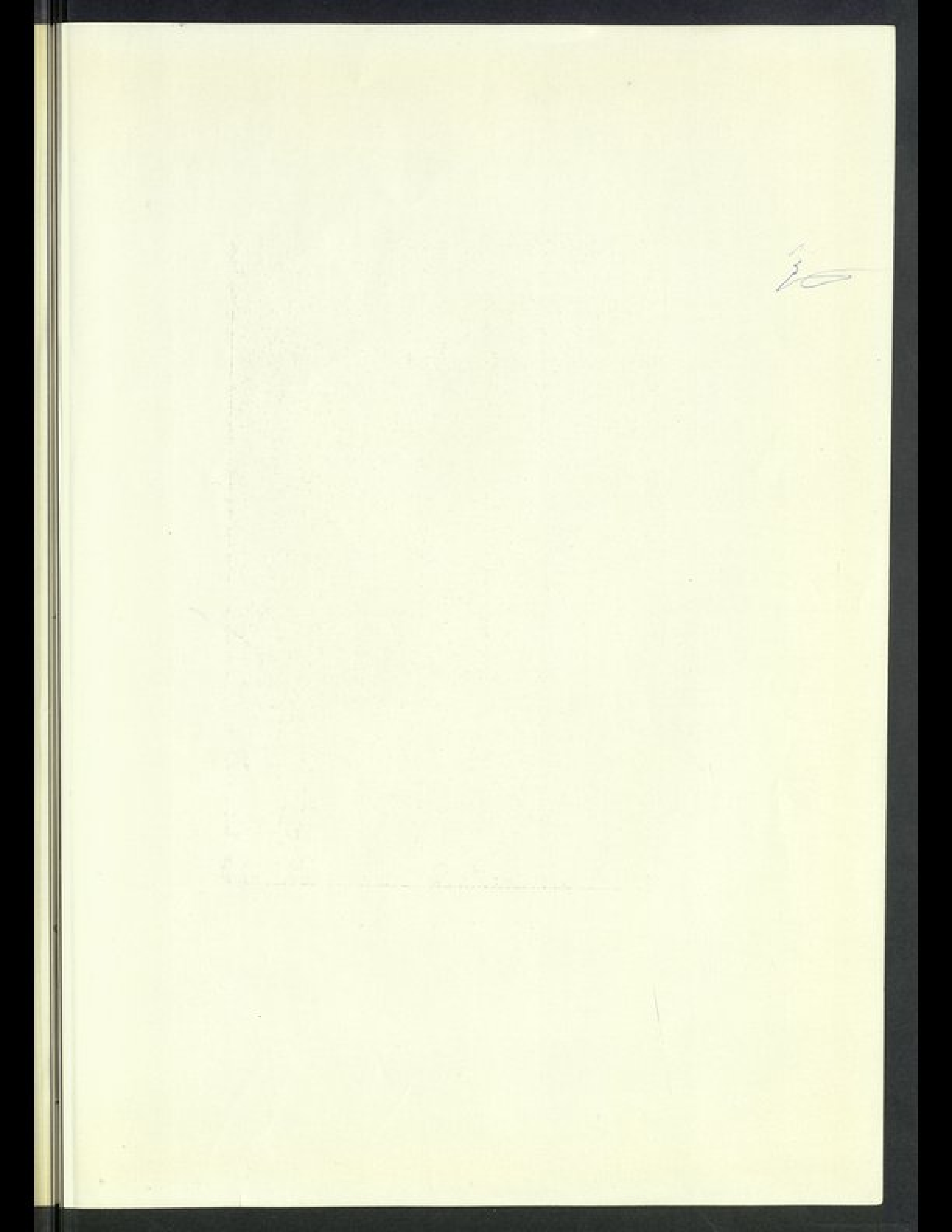
(١) الأهرام فى ٢٦ مارس ١٨٨٦

(٢) راجع مقالات بشارة تقلا فى صيف ١٨٨٧

(٣) الأهرام فى أول أغسطس ١٨٨٧



المغفور له صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول



فى معاشهم وتصاحبهم فى هناءتهم أو بأسائهم ، وتعرف ساستهم وأدباءهم وتجارهم ، وتفهم ظروفهم السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية فى شىء من التفصيل ، ولم يقتصر أمر الناس ومعاشهم على مصر وحدها ، بل أنت تصاحبهم فى كل مكان مما قدمته لك الأهرام من فصول ممتعة حقاً هنا وهناك .

تهيئة الأفكار لفتح السودان

ثم ذهبت الأهرام إلى تأييد فكرة فتح السودان من جديد ، وقد أخذت تهيئ الأفكار لذلك المجهود الحربى الذى تتطلبه حملة الجنوب ، وتدعو لذلك بعنوان بديع « ولئن تركنا السودان فإنها لا تتركنا » . وقد أمضى سليم تقلا هذا المقال[1] وقد عودنا أنه مقل فى الإمضاءات ، وقد كان لمقاله صدى بديع فى نفوس القراء ، ثم شرحت هذا الصدى جريدتنا بنشر ما جاءها من ألوان التأييد والإعجاب[2] . ولم يكن بالطبع هناك اتفاق تام بين المصريين على وجهة النظر تلك ، فخاصمتها صحف شتى ، واختلف الناس فيما بينهم ، وذهب أعداؤها فى أغراضهم كل مذهب ، وتأدبت الأهرام كطبعها فلم تنزل إلى ما نزل إليه خصومها فى الرأى ، ولم تدافع إلا عن وجهة نظرها ولم تتهرب من سياستها التى رسمتها ، وجاء ردها رصينا هادئاً بمناسبة دخولها فى السنة الرابعة عشرة ، فكتب سليم تقلا مقالا لعله من أطول المقالات التى شهدتها الأهرام فى تاريخها العريض ، إذ استغرق الصفحة الأولى جميعاً ونهرا من الصفحة الثانية ، أيد فيه الكاتب صلته بالسلطان والخديو ولم ينكر هذه الصلة بل فخر بها ، ثم أبدع فى وصف مصر ونيلها وواديها ، وعدد مواقف الأهرام فى سيرتها التى تهدف إلى جعل مصر قلب الدولة العثمانية والآستانة رأسها ولها السلطان السياسى والدينى فى وادى النيل ، وليس يعنى هذا أن مصر لاتتمسك بامتيازاتها الخاصة التى كفلتها لها حيويتها وتاريخها العظيم ، وإنها لم تحمل قط على أى إنسان أو أية دولة ، بل اعترفت بجميل من آزر مصر فى محنتها ، ولاتطالب إلا بأن ينجز خصوم البلاد وعودهم ، وإن سياستها الأصيلة هى تصوير سوء حالة الفلاح الذى ثقلت متاعبه حتى باع أطيانه. وليس من سبيل إلى إصلاح الحال إلا بتوحيد الدين العام وتخفيض معدله والتخفيف عن الفلاح والمزارع بتنزيل الضرائب، وقد أخذت على عاتقها أن تحارب تداخل سبع عشرة دولة فى شئون مصر ، وتؤيد تقوية الجيش المصرى وإعداده للمهام

(١) الأهرام فى ١٧ يوليو ١٨٨٩
(٢) الأهرام فى ٣٠ يوليو ١٨٨٩

الحسام الجديد بها وفى مقدمتها فتح السودان من جديد ونشر الأمن والطمأنينة فى ربوعه ، وكثيراً ما حاولت إقناع خصوم مصر بأن ماليتها وانتظامها لا يهمانها بقدر ما يهمها مكانتها من الاستقلال السياسى ، وإنه لا أمل بإصلاح الحالة المالية إلا إذا عرفت مصر حقها ونالت استقلالها التام ، ثم تذكر أنها لم تنافق أحداً فى سبيل المصلحة العامة وأنها لم توظف الدولة فى جمع الاشتراكات لها كأنها مصلحة أميرية[1].

منافسة الأهرام للمؤيد

وقد نافست الأهرام صحف العصر وفى مقدمتها (المؤيد) وهى صحيفة الشيخ على يوسف يسندها رياض باشا ويؤيدها اتجاه إسلامى جعلها فى مقدمة الجرائد التى لقيت قبولا عند كافة المسلمين ، نافستها الأهرام فى النظر إلى الشئون العامة ولم تستطع المؤيد أن تحجب مكانتها عند قرائها من المصريين الذين وجد بينهم من فكر فى إصدار صحيفة تحمل اسم الأهرام زلفى إلى هذا الاسم القوى فى الميدان الصحفى ، وجزع لذلك سليم تقلا فكتب إلى «إدارة قلم المطبوعات المصرية البهية» يحذرها من أن بعضهم سيحاول إصدار جريدة باسم صدى الأهرام أو الأهرام الصغيرة أو الأهرام الكبيرة ويطلب إليها أن تحول دون تلك السرقة لأن ذلك يؤدى إلى الإضرار به .[2]

ولاء الأهرام للبيت المالك

وقد بقيت الأهرام أمينة على الوفاء لأسرة محمد على وكان إخلاص سليم تقلا بالذات للخديو توفيق مماثلا تماماً لإعجاب بشارة تقلا بالخديو عباس الثانى فيما بعد ، حتى إذا قضى الخديو توفيق صدرت الأهرام وصفحاتها الثلاث الأولى مجلله بالسواد ناعية الخديو نعياً صادقاً[3] ، مستقبلة خليفته عباسا الثانى استقبالا منقطع النظير ، هو فى باب الأدب قطعة تحفظ لمنشئها سليم تقلا ، وتروى مثالاً لأدبه الرفيع[4].

وفاة سليم تقلا

وقد نزلت بالأهرام نازلة خطيرة حين استكملت عامها السادس عشر ، فقد مات مؤسسها سليم تقلا فى أغسطس ١٨٩٢ ، ونعته صحيفته وأرخت له تأريخاً بديعاً ، وألحقت

(١) الأهرام فى أول أغسطس ١٨٨٩
(٢) الأهرام فى ١٩ ديسمبر ١٨٩١
(٣) الأهرام فى ٨ يناير ١٨٩٢
(٤) الأهرام فى ١٦ يناير ١٨٩٢

بالعدد الذى صدر وفيه النعى بعض صفحات أخرى جللتها جميعاً بالسواد ، وأبرزت صورة سليم فى وسط الصفحة الأولى فى إطار أسود ومعه بيتان من الشعر[1] ، ثم حرصت صحيفتنا على أن تصدر فى الأيام التالية والسواد يجللها حزناً على منشئها[2] الأديب الكاتب الذى وهب حياته للصحافة المصرية مجوداً فيها واضعاً لها الأسس ، مقيماً لها التقاليد التى أثرت عن الأهرام من قبله ومن بعده ، ضارباً المثل على الوفاء لفنه ، مضحياً بماله وصحته فى سبيل الهدف الذى جاء من أجله إلى مصر وجعلها مقراً له واتخذها وطناً يسعى من أجله وفى سبيله يموت . ومن يعد إلى تاريخ سليم تقلا فى الصحافة المصرية يقرأ تاريخاً فيه من الروعة والجدة ما يجعل صحفينا فى مقدمة رجال الفكر الذين صاحبوا النهضة السياسية والأدبية حتى بلغت ذروتها حين مات فى أواخر القرن الماضى وخلفها قوية مواتية فى مطالع القرن العشرين .

التركة فى يد بشارة تقلا

قضى سليم تقلا وأصبح العبء كله على شقيقه بشارة تقلا ، فهو الوارث للتركة المساهم فيها منذ كانت أملا أو حقيقة متعثرة ، وكان بشارة جديراً بالإرث قادراً على التبعات التى ألقيت إليه وحده ، وهو وإن لم يكن فى أدب أخيه إذا كتب ، فإنه كان صحفياً بطبعه ، إذ أعلن بعد أن وارى أخاه التراب أنه قد خفض اشتراك الجريدة وخفض أجر الإعلان بمقدار النصف ، ووعد — وكان عند وعده — أنه سيقدم فى صحيفته مرتين فى الأسبوع مراجعة تجارية وعلمية وهى مباحث تجارية ومالية واكتشافات واختراعات علمية[3]. ثم طلع علينا بإعلان « من إدارة الجريدة » موجه إلى معاونيه فى المدن والأقاليم يرجو فيه « أن يراعوا فى أخبارهم التحريات الصادقة وألا يكتبوا إلا ما يهم المصلحة العامة وأن يبتعدوا عن الشخصيات ويكتبوا للقراء عموماً وليس لمشتركى بلدتهم أو لأنفسهم حتى لا يضطرونا إلى عدم نشر كتاباتهم ، فإذا كانت رسائلهم أخباراً فلتكن مختصرة مبينة ، وإذا كانت بمواضيع وهو نادر فالاختصار أفيد وأولى ، وعليهم أن يروا فيما تثبت من رسائلهم قاعدة لكتاباتهم فى المستقبل فنقوم وإياهم بواجب الخدمة الوطنية خير قيام . . . »[4]. وقد ذهب مكاتبو الأهرام إلى تحقيق رغبة صاحبها

(١) الأهرام فى ١٣ أغسطس ١٨٩٢
(٢) الأهرام فى ١٥و١٦و١٧ أغسطس ١٨٩٢
(٣) الأهرام فى ١٨ أغسطس ١٨٩٢
(٤) الأهرام فى ١٩ أغسطس ١٨٩٢

فدأبوا على نشر ملخصات بديعة لأخبار بلادهم ومدنهم وأقاليمهم بحيث يمكن الرجوع إلى ما نشروه والاعتماد عليه فى تصوير النشاط الاجتماعى والسياسى فى تلك البلاد منذ ولى بشارة أمر الأهرام وحده حتى ختام القرن التاسع عشر .

وقد كانت الأهرام منذ نشأتها تعتمد على صاحبيها فى شئون التحرير ، وكان من يكتب لها من الخاصة إنما يكتب هواية ، وتبرعاً ، وكان معاونو صاحبى الأهرام غير معروفين على وجه الدقة حتى ولى شئون الجريدة صحفينا بشارة ، فقد كانت الأهرام تعتمد فى أخبارها قبيل وفاة سليم تقلا على بشارة ثم على « خليل زينيه » ، وكان خليل زينيه يعتمد فى الحصول على أخباره على البارون مالورتى مدير قلم المطبوعات الذى يعدها له ويقدمها فى اليوم السابق على صدور الجريدة ، وفى ذلك حدثتنا وثائق المطبوعات فى وزارة الداخلية[1]، وشهدت أن فى الأهرام محرراً غير صاحبيها حتى طلعت الصحيفة بنبأ تعيين « عزتلو رشيد بك الشميل » محرراً فيها[2] .

إستفادتها بنخبة من المحررين

ثم أعلن بشارة تقلا بعد عودته من الخارج شكره على انتظام العمل فى الجريدة ، ورتب النجاح الملحوظ الذى صادفها فى غيبته على وجود رشيد الشميل فيها وتوليته إدارتها بالنيابة ، وإنه لذلك قد أقامه«مديراً مطلقاً للجريدة وإدارة المطبعة فى كل ما يختص بها»[3] ونشرت الأهرام فى رأسها اسم رشيد الشميل كمدير لها بعد أيام من هذا النبأ [4]، ثم جاء فى نبأ آخر أن نجيب الحداد قد انتظم فى هيئة تحرير الأهرام[5] . ولم يمض إلا قليل حتى ازدحمت الأهرام بمحرريها وأعلنت عنهم إعلان الفخور بهم ، ذاكرة أسماءهم وهم : « سليم حداد ورشيد سعادة وعبده بدران وأمين بدران ومسيحة الياس ونعوم الرياشى وقسطاكى توتنجى »[6]. ثم انضم إليهم وتصدر صفوفهم الأديب الشاعر خليل بك مطران وكانوا يكتبون اسمه (خليل المطران)[7]، وكانت وظيفته مكاتباً للأهرام فى

---

(١) محفوظات الداخلية — إدارة المطبوعات — دوسييه رقم ٢ الخاص بالأهرام
(٢) الأهرام فى ٢ أكتوبر ١٨٩٣
(٣) الأهرام فى ٣١ أكتوبر ١٨٩٣
(٤) الأهرام إبتداء من نوفبر ١٨٩٣
(٥) الأهرام فى ٢ نوفبر ١٨٩٣
(٦) الأهرام فى أول ديسمبر ١٨٩٣
(٧) الأهرام فى ٢٢ أبريل ١٨٩٣

القاهرة [1] . وتدل أخباره التى بعث بها إلى صحيفته وهى ذات أسلوب عال وعبارات مشرقة ، على شخصيته التى استخفت على القراء ردحاً من الزمن .

حملتها على أعوان الاحتلال

وإذا أعد بشارة تقلا عدته هذه وهيأ لجريدته محرريها وكتابها عاودت الأهرام وظيفتها الأولى لساناً للأمة ، وصدى لمشاعر الوطنيين ، فهى تهاجم فى مقالاتها الافتتاحية أعوان الاحتلال من المصريين ، ثم تحمل على حضور المستشار المالى ووكيل الأشغال الإنجليزيين مجلس النظار[2] وتعلن مبتهجة إقالة الخديو عباس لحكومة مصطفى فهمى[3] ، وتعقب على تعيين رياض بمدح الخديو ، وتذكر مأثرته الوطنية باختيار حكومة شعبية يرضى عنها الناس[4] ، وتترصد فى كل عدد أخطاء الإنجليز وتصرفاتهم ، ويقوم محرروها ومخبروها بنشر المقالات العنيفة وتصيد الأخبار السياسية الخطيرة ، حاملة على الاستعمار الأجنبى ، ناشرة فضائحه ومراميه[5] ، وتناقش تقارير اللورد كرومر وما جاء فيها من موضوعات وما صدر عنها من آراء[6] .

وقد هال الأهرام هذا الإيثار الذى يظهر به الإنجليز نحو أعوانهم ، وهالها ان يكيل للصحافة بكيلين ، فيقفوا دون الصحافة الوطنية ، ويفسحوا المدى لصحافتهم الإنجليزية فى مصر ، فنشرت خبراً قالت فيه ساخرة « صدرت جريدة أوربية فى مصر هى لسان حال المستشار المالى وأشياعه الذين مع حضرته أرادوا أن يكونوا مثالا فى احترام القانون وتأييد النهضة المصرية الوطنية بأن صدرت الجريدة بدون رخصة قانونية وجعلت دأبها قتل الحياة الوطنية والتنديد فى المبادىء العثمانية . . . »[7] . فإذا كان دأب الإنجليز توحيد صفوفهم فى مصر وتآزرهم فى السياسة العامة فإن من آلم الأشياء على نفس الأهرام أن « يتداول الناس كثيراً فى المحافل الرسمية عن نفار حادث بين البعض من وزرائنا الفخام ويأولون ذلك تأويلات كثيرة أخصها الغايات الشخصية وذلك ما لا نرجو أن تحققه الأيام » . فإن الأهرام لا يرضيها هذا الخلاف ولا تقر هذه الفرقة « فإننا فى ظروف

(١) الأهرام فى أول مايو ١٨٩٣
(٢) الأهرام فى ١٢ يناير ١٨٩٣
(٣) الأهرام فى ١٨ يناير ١٨٩٣
(٤) الأهرام فى ٢٣ يناير ١٨٩٣
(٥) الأهرام فى ٩ مارس ١٨٩٣
(٦) الأهرام فى ١٤و١٥و١٧ أبريل ١٨٩٣
(٧) الأهرام فى ١٧ مايو ١٨٩٣

توجب على كبار الحكومة كصغارها أن يكونوا قلباً واحداً فى خدمة القطر العزيز لترقيته وأن لا يكون بينهم جدال إلا على ما ينشأ منه نور خير للبلاد »[1] .

حملتها على اللورد كرومر

ثم تحمل الإنجليز ، وعلى رأسهم كرومر ، مسئولية هذه الفرقة التى شاع أمرها بين الناس ، فتذكر ذلك بقولها « ... وقد علمنا اليوم من أرفع مصدر موثوق به أن الهياج كان تحت سكينة اللورد فما برح منذ حين يلقى على الحكومة مسائل فيها شرار للفتنة حتى كاد يتمكن فى هذين اليومين من التفريق بين حضرات نظارنا لإسقاط هذه الوزارة الرياضية التى أغضبت الإنكليز لأنها لم يمنعها نفار شخصى ولا ظرف عدائى عن إتمام ما تعهدت به للأمة المصرية ولأميرها العزيز وهو المعارضة الإجماعية لكل ما تأباه الوطنية الحقة والمصرية الصادقة[2] » . وترتب على هذا كله أن عادت الخصومة بين الأهرام وبين الاجبشيان جازيت ، وقد روتها الأهرام فى كثير من حملات الجازيت المغرضة على الخديو وكبار الوطنيين[3] ، وتفصل الأهرام فى ذلك بقولها « . . . وينبذون مطالب شورانا وكثيراً ما عملوا على إقفاله وعدم اجتماعه تخلصاً من جدالة الوطنى المصرى فى خدمة البلاد بينا نرى العباس محترماً لرغائب الأمة معضداً لقرارات الحكومة ، فهو بما يأتيه يومياً من أعظم الأمراء دستورية وأحبهم لاعتبار رأى الأمة ومطالب نوابها »[4] .

فإذا أخل مواطن بواجبه وانحرف زلفى للإنجليز أو أنصارهم انبرت الأهرام مسفهة له مشرحة لموقفه ، فقد طالع تحريرها فى جريدة التيمس حديثاً لمصرى رفضت أن تذكر اسمه احتقاراً لشأنه ولأن مقاله « من سقط المتاع الذى لا يشرى ولا يباع . . . وأنه من أجراء الإنكليز وأحد أفراد تلك الطغمة الخائنة التى باع كل واحد من أعضائها دينه ووطنيته بدرهم صفقة المغبون » ثم تلتفت إلى جريدة التيمس « تظن أن مثل هذه الرسالة من رجل لا مقام له ولا ذمة لا يحط من قدرها فى أعين المصريين فقد أخطأت ووهمت فإن مصر أصبحت بعد الآن لا تركن إلى كلام التيمس ولا تحله محل الاعتبار . . . »[5]

---

(١) الأهرام فى ٢٦ أغسطس ١٨٩٣

(٢) الأهرام فى ٧ نوفبر ١٨٩٣

(٣) الأهرام فى ١٣ نوفبر ١٨٩٣

(٤) الأهرام فى ١٧ نوفبر ١٨٩٣

(٥) الأهرام فى ٢٩ سبتمبر ١٨٩٣

مناصرتها المعارضين للإنجليز

والأهرام لا تدخر وسعاً فى تأييد كل معارض للإنجليز سواء كان فردا أو جماعة من الجماعات ، ولم يكن هناك حتى سنة ١٨٩٣ هيئة يمكن أن تنطق باسم مصر غير مجلس شورى القوانين ، وقلما كانت لهذا المجلس معارضة تشبه معارضة الصحف الوطنية وفى مقدمتها صحيفتنا الأهرام ، فإذا لمست الجريدة موقفاً من المجلس مواتياً لسياستها رحبت به وأعلنته فى أبرز مكان ، وقد راقها أن يرفض مجلس شورى القوانين تلك الميزانية المثقلة بتكاليف جيش الاحتلال ، فسجلت له موقفه ذلك فى شىء كثير من الرضا والاغتباط ، بل دعت المصريين إلى أن يضعوا آمالهم وأمانيهم فى مجلسهم الذى استطاع أن يرفض ميزانية الاحتلال[١]. ويتصل ثناؤها للمجلس وأعضائه الذين لا يرفضون ميزانية الاحتلال فقط بل تصدر عنهم دراسات موضوعية ويسنون لمصر قوانين تؤيد اعتدال المجلس وتثبت وطنية أعضائه[٢].

حملتها على نفقات جيش الاحتلال

هى تمدح مجلس شورى القوانين « لما قاله فى رفضه التصديق على مصاريف جيش الاحتلال وفى وجوب تنزيل مصاريف الجيش المصرى » . وهى وإن وافقته على اقتصاد بعض الأبواب فى مصاريف جيشنا فهى حريصة على أن تعاتب المجلس الذى « كان يجب أن يقول بزيادة جيشنا الوطنى »[٣] ، فإن موقفه كان كريماً حقاً فى النظر بجد إلى الضرائب ووجوب تخفيضها ، والتعليم ووجوب تعميمه ، وأنه موقف عظيم من المجلس أن يعرض لهذا كله ، وهو موقف يعتبر « ترضية كبرى للأمة المصرية وتعزية عظيمة لها » وإنه لجدير بالتسجيل مادام « قد حقق النواب أمانى الشعب »[٤]. وليس معنى الثناء على المجلس ومدح أعضائه أن تتهاون الأهرام فى تقصيره أو تنكر عليه أخطاءه وتسكت عليها ، فإن المجلس وفق عندها فى النظر إلى المصروفات ولكنه أهمل « البحث فى الإيرادات » وهى تناقشه فى ذلك مناقشة الخبير العارف الواقف على بواطن الأمور[٥] قائلة « لا يمنعنا

(١) الأهرام فى ٢ ديسمبر ١٨٩٣
(٢) الأهرام فى ٧ ديسمبر ١٨٩٣
(٣) الأهرام فى ١٦ ديسمبر ١٨٩٣
(٤) الأهرام فى ١٣ ديسمبر ١٨٩٣
(٥) الأهرام فى ١٥ ديسمبر ١٨٩٣

امتداح شورانا واستحساننا ما عرفنا من ملحوظاته العادلة عن إبداء رأينا فى أبحاثه وقراراته » ، كما أنها إذا ناقشت المجلس وأعضاءه فإنها تأبى على أبواق الاستعمار أن تنال من مجلسنا وخاصة جريدة الاجبشيان جازيت التى وقفت لها الأهرام بالمرصاد فى هذا الموضوع(١). ثم أفسحت الأهرام صفحاتها لنشر قرارات المجلس(٢) ، بل جاوزت فى تأييدها وتشجيعها له فنافست الوقائع المصرية فى نشر محاضر مجلس شورى القوانين بحذافيرها(٣).

زيارة أعضاء المجلس للورد كرومر

ثم تعلن الأهرام فى محلياتها نبأ زيارة بعض أعضاء مجلس شورى القوانين للورد كرومر حين احتدم النقاش حول تكاليف جيش الاحتلال ، وحاول عميد الإنجليز أن يحول بين الأعضاء ورفض الميزانية المطلوبة لهذا الجيش ، أو يحول بين الإجماع الذى جاء فى رفض هذه الميزانية ، ونشرت الأهرام نبأ الزيارة ، وأثار خبرها ثائرة المواطنين عامتهم وخاصتهم ، وأنكر من أنكر نبأ الزيارة ، وعلقت الأهرام على هذا الإنكار الصادر من جميع أعضاء المجلس مؤنبة ساخرة من اللورد كرمر « الذى رأى رأى العين أنه بعد سياسة العشر سنوات فأكثر قد عد الرأى العام المصرى الزيارة له خيانة من الزائر » . وتعتدل الأهرام كطبعها وهى تخاطب الرأى العام من منبرها فتذكر أن الزيارة فى حد ذاتها لا شر فيها ، بل قد يكون فيها الخير كل الخير إذا اقتصرت « على مبادلة الصلات الحبية أو على المدافعة عن حقوق الوطن العزيز بل تعد عمل المصرى الذى يقول رأيه الوطنى فى المدافعة عن مصلحة بلاده أمام كل إنكليزى من اللورد إلى السير أمجد عمل وأشرفه »(٤) وهكذا لا تحابى الأهرام إذا رأت رأياً فهى تعجب بالمجلس ونوابه ثم تعاتب إذا قصر المجلس أو قصر بعض أعضائه ، وهى تنشر زيارة بعض الأعضاء للورد كرومر عملاً بواجبها فى إذاعة الأخبار ونشرها ، فإذا ثار الناس لهذه الزيارة أخذت من هذه الثورة قرينة على نضوج الرأى العام وإن كانت لا ترى بأساً فى الزيارة نفسها وتعتبرها — إذا حققت الغرض — عملا مجيداً وشريفاً .

* * *

(١) الأهرام فى ١٦ ديسمبر ١٨٩٣
(٢) الأهرام فى ١٨ و ٢٠ و ٢٣ و ٢٤ ديسمبر ١٨٩٣
(٣) الأهرام فى ٢٤ ديسمبر وما بعده ١٨٩٣
(٤) الأهرام فى ١١ ديسمبر ١٨٩٣

جعلنا لهذا الفصل عنوانا هو أصدق ما توصف به جريدة الأهرام فى تلك الفترة « لسان أمة » . . . وهو عنوان جدير بالصورة التى شرحناها .

صفة لها منذ نزل الإنجليز بلادنا ، بيد أنها صفة أكدتها الحوادث ، وأيدتها سياسة الأهرام فى أواخر القرن التاسع عشر ، حين جعلت أبواب التحرير لأقلام كثيرة ، بعضها من محرريها القائمين بوظائفهم فيها ، وبعضها لمحررين قصدوها على اعتبار أنها حصن النخبة الوطنية التى تريد أن تجأر بالشكوى وليس لها سند إلا الأهرام ، تفسح صدرها لهؤلاء المواطنين الأحرار الذين ظهروا فى مصر يوم كان السلطان كله للإنجليز ولا أمان لهم فى حاضرهم أو مستقبلهم ، يستوى فى ذلك رجال الفكر ورجال العلم والصحفيون والموظفون بل الفلاحون فى كل مكان .

عرين الأسد

ومن تكن الأسدُ الضوارى جدوده يكن ليله صبحاً ومطعمه غصبا
« المتنبى »

لم تكن الأهرام وحدها فى ميدان خصومة الإنجليز بل كان لها نظير فى أواخر القرن التاسع عشر ، تلك هى المؤيد لصاحبها الشيخ على يوسف ، ومع ذلك فإن الأهرام خاصمت الاحتلال فى عنف لم يشهد له نظيراً فى صحيفة أخرى ، وقد اختارها الوطنيون ميداناً خصبا لأقلامهم الملتهبة ، وفى مقدمتهم فتى هز عواطف المصريين ودك قوائم الاحتلال ، وجعل لمصر اسماً فى مغارب الأرض ومشارقها ، وتولى وحده رسالة الإحياء والإيقاظ سنوات متصلة ، ولم يطل العمر به حتى يستكمل رسالته ويحقق آماله الوطنية الرائعة ، ذلك هو مصطفى كامل المواطن الخطيب الكاتب ، الذى اتخذ صحيفة الأهرام لساناً له يعبر به عن أمة وادى النيل .

المجاهد الأول مصطفى كامل

ومصطفى كامل الذى اصطفى جريدة الأهرام ، صحفى بطبعه ، له فى الصحافة المصرية تاريخ يضعه فى مقدمة الصفوف ، فهو منذ كان تلميذا وهو يؤمن بخطر الصحافة فى حياة الشعوب ، فأنشأ مجلة سماها (المدرسة) وكان شعارها « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك »[1]. وكانت له مقالات فى الأهرام سنعرض لها هنا، ثم كانت له مقالات أخرى فى صحف مصر وأوربا ، كما أنشأ فى مطلع القرن العشرين صحيفة من كبريات الصحف العربية سماها اللواء ، وآخاها بصحيفتين فرنجيتين تعبران عن أهدافه الوطنية وتعلنان رسالته عند الأجانب فى مصر وأوربا[2].

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية لعبد الرحمن الرافعى بك ص ٢٨ طبعة ١٩٣٩
(٢) أعلام الصحافة العربية — إبراهيم عبده — ص ١٣٨ وما بعدها

سيرته الصحفية فى جريدة الأهرام

وقد بدأ مصطفى كامل حملته الصحفية فى جريدة الأهرام بعمل صحفى ممتاز ، ذلك هو حديثه إلى الأميرالاى بارنج (شقيق اللورد كرومر) عن المسألة المصرية بعنوان (حديث ذو شأن) وقد وقعه باسم «مصرى أمين» وفيه يعرض مصطفى كامل للنقاش البديع الذى دار بينهما عن القومية التركية والقومية المصرية، ويشرح مفاسد الإنجليز فى مصر ويكشف المستور من نوايا المصريين الموتورين وعلى رأسهم نوبار باشا ، وموقف أوربا من القضية المصرية ، وأخيراً يؤكد الزعيم الشاب للإنجليزى الكبير «أن فى مصر رجالا ينصرونها ما دام فى حياتهم دماء . . . ولربما أحيي فرد واحد أمة بأسرها . . . ومصر غنية فى رجالها مباركة فى أبنائها»[1].

شهادة مصطفى كامل للأهرام

كان نشر هذا الحديث مثار الضيق والتبرم عند الاحتلال وأذنابه ، فقامت صحفه تحمل على صاحبه وتحمل على الأهرام ورئيس تحريرها ، وزعمت بعضها أن الحديث مختلق ، فكتب مصطفى كامل يرد كيد خصوم الأهرام فقال «وأعجب شيء من هاتيك الردود أنهم حملوا على صاحب الأهرام الجليل حملة اللئيم على الكريم ، ولم يعلموا أنه صدق فى خدمة الوطن العزيز فاجتمع حوله المخلصون الصادقون ، وعساهم يكتبون ويرددون والحديث لايزال حديثاً وشقيق اللورد كرومر أرفع وأعظم من أن ينكر اليوم قولا قاله بالأمس» ثم يختم كلمته فى الرد على الاحتلال وأنصاره بأنه مستعد لتذكير «جنابه – يقصد بارنج – بالمكان الذى جمعنا واليوم الذى دار فيه الحديث مذيلين كل ذلك باسمنا غير خائفين تبعة الصدق فى القول والإخلاص فى الوطنية شأن كل مصرى أمين»[2]

صواعق الاحتلال

ثم يمضى مصطفى كامل يتعقب الإنجليز فى أخطائهم ، ولعل أخطر ما ذهبوا إليه من فعال غير إنسانية، إنشاؤهم المحكمة المخصوصة لمحاكمة الأهالى الذين يتعدون على جنود الاحتلال، وكان لهذه المحكمة أثر فى حادثة دنشواى المشهورة ، وكان معظم أعضاء المحكمة من الإنجليز الذين لا يتقيدون بأحكام قانون العقوبات ، الأمر الذى من شأنه

(١) الأهرام فى ٢٨ يناير ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ٤ فبراير ١٨٩٥

أن يهدم ركناً هاماً من أركان القضاء المصرى[1] ، وقد أثار إنشاء هذه المحكمة ثائرة مصطفى كامل الذى كان أول من احتج عليها من أصحاب الأقلام فى مقال عنوانه (صواعق الاحتلال) ، نشرته له الأهرام فى صدرها ، شرح فيه خطورة المحكمة التى لا ترتبط بقانون ولا تستند إلى عدالة ، ووجه كلامه إلى الإنجليز « أنتم تريدون بهذه المحكمة وضع الأساس الصالح لهدم المحاكم الأهلية وإبدالها بمحاكم استبدادية تحكم بنفس القانون الذى تحكم به محكمتكم الجديدة ، . . . نعم نعم أنتم تريدون ذلك وتبذلون الجهد الجهيد فى سبيل الوصول إليه . . . » . ثم يختم مقاله بقوله : « لاخلاف فى أنكم ترغبون قتل العواطف الشريفة الحية وتودون من صميم الفؤاد إخماد أنفاس كل كاتب وكل معارض، ولنا فى إلغاء مدرسة دار العلوم دليل آخر على ذلك . فلقد أردتم أن يكون هذا الشهر شهر النصر لكم والخذلان لنا فأرسلتم علينا من سماء عدالتكم الصواعق تباعا حتى عسر علينا إحصاؤها . . . »[2] .

جهاد مصطفى فى سبيل مصر

ويذهب مصطفى كامل إلى باريس بعد إنشاء المحكمة المخصوصة بشهور ، ويلتقى هناك بكثير « من رجال السياسة والأدب الذين لهم فى باريس المكانة الأولى فى التحبير والتحرير » ، وينشر الزعيم الشاب ملخص ما دار من أحاديث هناك بعنوان (من أين يأتى الخطر) ، ويوقع مقاله باسمه واضحاً ، ويذكر مواطنيه أن علة مصر فى ثلاث فئآت، فئة « الضعفاء منا والدخلاء علينا » الذين ينسون « أن من أشرف الخصال وأجل الشمائل الاعتراف بالجميل ومعاملة هذه الديار بالنظير » وفئة « الضعفاء من رجال حكومتنا » الذين ينسون « أن الوطن فوق كل شيء وأن الشفقة عليه والإخلاص له يجب أن يكونا فوق الشفقة على الأم والأب » وفئة البائسين الذين ينسون « أن كثيراً من الأمم كانت أتعس منا حظاً وأنكد طالعا فعملت وجدت حتى بلغت السعادة والعلاء » . ثم يضرب الأمثال من حياة الأمم والشعوب كالولايات المتحدة وإيطاليا واليونان ويتجه إلى مواطنيه بقوله « فليس على المصرى الأمين واجب آخر غير نشر الحقائق عن أمته ووطنه فى أوربا والاستعانة بها كما استعان بها غيرنا من قبل . ألا فاجمعوا كلمتكم أبناء الوطن العزيز وأخلصوا النية فى خدمة مصر والقوا وراء ظهوركم الشقاق والنفاق واختاروا سبيل

(١) مصطفى كامل للرافعى ص ٤١
(٢) الأهرام فى ٤ مارس ١٨٩٥

الخلاص سبيلكم حتى يشهد لكم العالمون بالكفاءة والاستعداد وحب الوطن وترون بعين البهجة والرضاء بعد زمن يسير (مصر للمصريين) »[1].

دفاع الأهرام عن كاتبها

أثارت كلمات مصطفى كامل وخاصة كلمته الأخيرة فى الأهرام ثائرة الاحتلال وشق على عميد الإنجليز أن يذهب مصطفى كامل إلى فرنسا فيوضح إساءات المحتلين لمصر ، ثم تنشر له الأهرام مجمل سعيه مؤيدة مشجعة ، فأطلق كرومر ألسنته تنهش فى مصطفى كامل وفى صحيفته الأهرام ، وقد كان العميد البريطانى يحارب النشاط الصحفى الوطنى بنشاط مماثل ، وكانت له مع الأسف الشديد صحافة عربية تكافح صحافتنا الوطنية ، فهبت صحفه تزعم أن مصطفى كامل إنما يمثل نفسه وأنه إنما يدفعه إلى ما صنع نزق الشباب وطيشه ، وأنه فى سن لا يحسن بمثله أن يركب الأخطار فيها ، ويرد عليهم مصطفى كامل من باريس موجهاً كلامه إلى (المدلسين) مبتدئا مقاله بقول الشاعر :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا على لئامها

ثم يقول عن شبابه الذى يعيبونه عليه « فإنى وإن أكن فى أزهر سن الشباب لست ممن يميلون مع الأهواء ويقضون الساعات والأيام فى الملاهى والللذات بل أنا ممن لا تحلو الحياة فى عيونهم ما دام الوطن على خطر والأمة على شفير هار . أفاخركم حقاً أيها الطاعنون بى أمام العالم أجمع بأنى وهبت حياتى لأمتى وبلادى . . . أفاخركم ساخراً من طعنكم وقد حكم بأنى أقتفى أثر رجال شرفهم التاريخ لما شرفوا بلادهم، وأعزتهم مواطنهم لما أعزوها وأعلوا شأنها » . ويبين فى مقاله لخصومه أن الاتجاه إلى فرنسا عمل مرض وفيه خير ، وهى أمة أثر عنها مساعدة الضعيف على استرداد حقه . ولنا فى الولايات المتحدة أسوة حين قصد فرنسا فرانكلين فلبت « إذ ذاك نداءه ورقت رحمة لأنين أمته ونصرتها فى مطالبها الحقة وساعدتها على نيل الحرية والاستقلال . ثم يختم مقاله بقول الشاعر :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى (كامل)[2]

وبينما كان مصطفى كامل فى باريس يراسل الأهرام ويتحفها بمقالاته الممتعة ، كان خصومه يحملون عليه فى صحف الاحتلال الإنجليزية والعربية ، وقد تولت الأهرام

---

(١) الأهرام فى أول يونيه ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ٥ يوليو ١٨٩٥

الدفاع عنه كما أفسحت صدرها لأصدقائه أو المعجبين به ليدافعوا عن وجهة نظره ، وفى ذلك قرأنا لكاتب بإمضاء « الوطنى الصادق » مقالا رائعاً عنوانه « لو ذات سوار لطمتنى » نحا فيه باللائمة على من أساء لمصطفى كامل وناقش خصوم فكرته الوطنية ، وفى المقال من العنف والشدة ما يناسب الذين خاصموا الأهـرام وصديقها الزعيم الشاب « الذى حمله جده واجتهاده إلى باريز ، ودفعته غيرته الوطنية للالتجاء إلى ذى غيرة ومروءة يساعده فى الذود عن استقلال بلاده وشرف مواطنيه ، فى بلاد الحرية وأمام حكومة فرنسا القوية المشهود لها بفضل الدفاع عن المظلوم وتحرير الأمم الناشطة من عقال الظلم » . وهو عند الوطنى الصادق « من أحسن المصريين أسرة وأكملهم أدباً قد حاز باجتهاده وسعيه شهادة الليسانسيه وتعلم كغيره من المصريين المتقلدين اليوم وظائف القضاء والنيابه »[١]

ويمضى مصطفى كامل يسطر فى الأهرام مآثره الوطنية الأولى وأبواب صحيفتنا مفتوحة له على مصاريعها سواء كان ذلك عن طريق المقالات تنشر له أو تنشر دفاعاً عن رسالته ، أو تعقيباً على كلماته المختلفة أو عن طريق أخباره فى مصر والخارج ، مفصلة لها ذاكرة حتى المآدب التى أقامها هو أو أقيمت له[٢] . ويطول بنا الحديث لو تعقبنا مصطفى كامل وآثاره فى الأهرام فهى أكثر من أن تحصى ، سواء مهرها باسمه واضحاً أو نشرها تحت حجاب اسم مستعار . ولم يقصر كاتبنا مقالاته فى الأهرام على النظر فى القضية المصرية من زاويتها المحددة بالعلاقات الإنجليزية بل كثيراً ما كتب « لمحة سياسية » عرض فيها لقضيتنا الوطنية عرضاً دولياً[٣] كما جعل من دأبه الحملة على انجلترا وكشف مستور غاياتها لا نحو مصر وحدها بل نحو الإسلام والمسلمين أيضاً[٤] .

مناصرة الفرنسيين لمصطفى كامل

وقد كان مصطفى كامل يعتمد فى كفاحه السياسى على بعض رجال السياسة الفرنسيين ، ومن بينهم رئيس الوزارة الفرنسية الذى هللت جرائد الاحتلال فى مصر لسقوط وزارته ، واعتبرت ذلك نصراً للسياسة الإنجليزية فى مصر ، وكثيراً ما زعمت صحف الأجانب الضالعة مع الإنجليز والصحف العربية التى اشتراها الاحتلال أن نجاح مصطفى كامل فى دعوته فى الخارج مرجعها إلى تأييد رئيس الحكومة الفرنسية الذى

(١) الأهرام فى ١١ يوليو ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ١٩ يوليو ١٨٩٥
(٣) الأهرام فى ٤ سبتمبر ١٨٩٥
(٤) الأهرام فى ٢٥ أكتوبر ١٨٩٥

اشترى لمواطنتنا أقلام الصحفيين والخطباء فى العالم ، لذلك كانت فرحتها واضحة لسقوط الوزارة الفرنسية ، وفى ذلك كتب مصطفى كامل معقباً على موجة الفرح الذى غمر خصوم الوطنية المصرية يقول : « ولسنا فى حاجة لأن نجيبها – يقصد صحف الاحتلال – على هذه الأقوال الساقطة ، إذ كل عاقل يعلم أن المسيو دلونكل هو نائب من النواب الذين تهمهم مسألة مصر ، وأن المصريين إذا كانوا احترموه وأكرموه فلم يقوموا إلا بواجب تفرضه عليهم الوطنية الحقة » ثم يسخر المواطن الكبير من تفكير صحافة الاحتلال ويتحداها بأن خطباء العالم وكتابه سيقفون إلى جانب مصر بالرغم من سقوط رئيس الحكومة الفرنسية ، لأن القضية المصرية قضية عادلة وأنصار العدل فى الدنيا كثيرون ، ولن يحول الاستعمار بين كلمة الحق وبين صداها الذى يدوى عاليا فى جميع الظروف[1].

ولم يكن مصطفى كامل وحده من المواطنين الأحرار الذى قصد الأهرام وجعلها لسانه وفيها مبتغاه إذا أراد التنفيس عن ضيق أو نشر فكرة أو معارضة رأى الاحتلال ، فإن كثيرين غيره جعلوا من الأهرام صحيفة لهم حتى أصبحت بين صحافة العصر ملتقى الأحرار ومجمع الوطنيين الذين أطلق عليهم الاحتلال لفظ المتطرفين ، وبذلك أصبحت السياسة العامة مشاعاً بين كل قادر يعالجها على طريقته ، ويجد فى صحيفتنا مجاله متسعاً ورأيه مقدوراً ، وإن جاءت مقالات الكتاب تحت أسماء محجبة ، ولم تعد الأهرام وقفاً على قلم صاحبها بشارة تقلا باشا أو معاونيه من المحررين ، بل كانت صحيفة رأى وفكرة لجميع المواطنين بلا استثناء .

سنة صحفية جديدة

وقد طالعتنا الأهرام – وخاصة فى سنة ١٨٩٥ – بمجموعة من الكتاب الذين أخفوا أسماءهم واستعاروا لها أسماء أخرى ، ومما يلاحظ أن أسماءهم المستعارة قد اشتقت من المعانى والأحاسيس التى كان يحيا فيها الشعب ، فهنا نقرأ مقالا رائعاً يحمل فيه « الوطنى محمد » على كرومر ونوبار[2] ، ولا يزال « الوطنى محمد » ملحاً فى خصومته لعميد الاحتلال وصاحبه نوبار باشا ، يتعقب كليهما فى كثير من المقالات[3] . كما ساهمت الأهرام من ناحيتها فى مهاجمة نوبار بترجمة ما ينشر فى الصحف الأجنبية ومن شأنه

(١) الأهرام فى ١٣ نوفبر ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ٢ فبراير ١٨٩٥
(٣) الأهرام فى ٩و١٣ فبراير ١٨٩٥

أن يكشف سوءاته لمواطنيه[1]. ومن الأسماء التي طالعتنا أيضاً وكان لها أثر فى نفوس القراء، ولا تزال معانيها التي نشرتها حية عند كل من يقرؤها إلى الآن، اسم مستعار هو « مصرى خبير صادق »، وقد تكفل هذا المصرى الخبير الصادق بالدفاع عن الخديو عباس الثانى والرد على خصومه بعنف وشدة لم نجد لها نظيراً فى كثير من صحف العصر[2].

المأمون والوطنى الصادق

ومن الأسماء التي جاء ذكرها (المأمون)، وقد تخصص فى شكوى الاحتلال إلى نواب فرنسا[3]، ولكنه لم يبلغ مكانة صاحبنا الذى اختار اسم (الوطنى الصادق) فهذا الاسم كاد يحتل فى الأهرام مكانة تعادل مكانة مصطفى كامل، وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض مقالاته التي ينبغى أن يعود إليها من يريد التعرف إلى أدبه الرائع وتفكيره الناضج، ويرى معنا كيف كان المواطنون يكتبون أدباً وعلماً فى أشد ساعات المحنة والضيق، يفوق كثيراً مما نقرأ اليوم من أساليب السياسة الناعمة أو الأفكار السطحية التي تعين على النوم مهما يكن الزمن قاسياً وعصيباً! (فالوطنى الصادق) يكتب لمواطنيه يحذرهم من اللين فإن « من لان عوده كشفت أغصانه »[4]، ثم يتحدث عن « البدل العسكرى » وآثاره فينا[5]، ثم يناقش الضرائب وفداحتها ويبين بالدرس أن كثرة الضرائب لن تغنى شعباً يتضور جوعاً فإنه « قليل تحفظ به غيرك أفضل من كثير يذهب بما عندك »[6]. ثم يعود إلى الضرائب ويعالج بالعلم شئونها ويطالب بتخفيفها متخذاً لمقاله هذا العنوان « من ظن بك خيراً يصدق ظنه »[7]. ويعالج السياسة الخارجية علاج الخبير العارف بمناسبة انتصار اليابان، وينتهز انتصار هذا البلد الشرقى فرصة يدعو فيها إلى وحدة الشرق ليتخلص من الاستعمار بعنوان « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار »[8]. ثم يذهب إلى مواطنيه يطلب إليهم العناية بالعلم والتعليم، وأن يجعل الشعب هذا غاية غاياته حتى يسلح الجيل بما يمكنه من كفاح المستعمر بعنوان « من جد وجد »، ويعاود

(١) الأهرام فى ١٢ مارس ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ١٤ مارس ١٨٩٥
(٣) الأهرام فى ٢٦ مارس ١٨٩٥
(٤) الأهرام فى ٢٢ أبريل ١٨٩٥
(٥) الأهرام فى ٢٦ أبريل ١٨٩٥
(٦) الأهرام فى ٣ مايو ١٨٩٥
(٧) الأهرام فى ٦ مايو ١٨٩٥
(٨) الأهرام فى ١٠ مايو ١٨٩٥



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير محمد على
ولى عهد المملكة المصرية

أخيراً حملته على الاحتلال الإنجليزى فيسلقه بمقال رائع ويفند دعاواه فى البقاء بعنوان « كلمة حق فى رد باطل » [1] ، فإذا فرغ من الاحتلال ساءه موقف الأجانب منا وكيف يحاربون الوطنية المصرية ويعالجون أمورنا علاج العدو لعدوه ، أولئك الذين أكرمناهم فردوا على الكرم بالإساءة إلينا والدس لنا عند حكوماتهم وشعوبهم ، والتمسك بالاحتلال البغيض كى يحمى نهمهم ويزيد مطامعهم . وقد جاء مقاله بعنوان هو بيتان من الشعر :

« احـــذر عـــدوك مـــرة واحـــذر صديقك ألف مـــرة
فلـــربمـــا انقلب الصـــديق فـــكان أعـــلم بالمضرة »[2].

ومن الذين استعاروا الأسماء وكتبوا فى عنف (عثمانى مخلص) ، وقد نشر عدة مقالات من أهمها مقال عنوانه « أين دلائل الإصلاح التى بها تفاخرون »[3]، وهى نقد لمزاعم المحتلين ومن جرى فى فلكهم ، ثم يحمل فى مقالة بديعة حقاً على الحكومة « السنية » التى تسعى السعى الحثيث لشراء الصحف الصفراء التى تعيش على نهش الأعراض وسب الخديو . والسلطان ، ويعيب على الحكومة سعيها هذا عند الصحف المأجورة من الإنجليز . ويطلب إليها أن تسقط من حسابها تلك الفئة الرخيصة « . . . فإن الأسرة الواحدة والعترة القاردة وهى معدودة محدودة لا تخلو من أعضاء تباين أخلاقهم أخلاقها وتدابر أطوارهم أطوارها ، وينصبون أنفسهم للإزراء بأصلهم وعائلتهم ، ويفرغون قوة مخيلتهم فى الافتراء على ذوى قرابتهم فما ظنك بالقبيلة ، فما ظنك بالشعب الكبير ، فما قولك فى الأمة العظيمة التى تعد جزءاً من الثقلين ويؤهل بها جانب من الخافقين ، هل يتصور أن يعرو جسم تلك الأمة من أعضاء وأشلاء كهؤلاء المرجفين يركضون فيما يفعلون وراء مآرب معاشية لا تخرج عن الكرش ولا تبعد عن الشدق . . . »[4] .

مصر للمصريين

وكثير غير هؤلاء اختلف إلى الأهرام ينشر نفثة أو يذيع فكرة أو يعقب على رأى ، كما شاهدنا ذلك فى مقالات (مصرى) وهى فى أكثرها تعقيب وتأييد لمقالات

---

(١) الأهرام فى ١٧ مايو ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ٢٩ مايو ١٨٩٥
(٣) الأهرام فى ١٧ يونيه ١٨٩٥
(٤) الأهرام فى ١٨ يونيه ١٨٩٥

مصطفى كامل تحت عنوان « مصر للمصريين »[1] . هذا إلى جانب ما قامت به الأهرام نفسها من الواجب الصحفى الذى أملته عليها وظيفتها ، فهى تكتب موضوعات علمية صادرة عن قلم تحريرها كحديثها عن (الاشتراكية) فى أوربا [2] ، أو كحملتها على الحكم القاضى بسجن بعض المواطنين سنتين من بينهم صبية صغار لأنهم أساءوا إلى بعض الإنجليز بالضرب الخفيف ، وتقارن هذا الحكم القاسى لجريمة تافهة بأحكام صدرت ضد الإنجليز بقولها « فيا أيها السادة المحتلون الذين يمنون علينا فى جملة منّهم بإصلاح القضاء ورفع شأنه . أين العدل الذى تدعون أنكم أول أنصاره أهو الذى قضى عليكم سابقاً بتبرئة الإنكليزى القاتل وهو مصبوغ اليدين بالدم الوطنى أهو الذى حملكم على تبرئة مهندس الرى وإعادته إلى الهند مع مكافأة مالية على حين أطلق النار على رجل مصرى فقير . . . . »

ثم تنقد الجرم والحكم معاً بقولها « لاشك أن الجمهرة تكبر الجرم ولكنها لا تبلغه إلى حد الجناية الكبرى ولاتقتضى تحقيقاً أول يتم بيوم واحد ثم تحقيقاً آخر على إثره ثم حكماً بلا درس للقضية ولا ترو »[3] . ثم تعقب على تأييد الحكم فى الاستئناف بأن مجلس النظار قد أقر تعديلا للقانون يرفع السجن من سنتين إلى ثلاث سنوات لمن يضرب متعمداً ويقضى الطبيب الشرعى ببقاء المضروب عشرين يوماً فى العلاج . وقد بعث مجلس النظار هذا التعديل إلى مجلس الشورى ثم تقول ، « ولئن نفذ هذا المشروع فيا له فوزاً للقوة على الضعف والاستبداد على الدستور . . . »[4] .

مناهضة الأهرام للاحتلال

رأينا كيف عالجت الأهرام من جانبها مشاكلنا ونافست أصدقاءها الذين اتخذوها لسانا لهم ، وينبغى أن نذكر هنا أن بشارة تقلا لم يغفل رسالته التى أخذها على عاتقه منذ صدرت الأهرام فى سنة ١٨٧٦ ، فهو يكتب فى السياسة الخارجية ، ويبعث برسائله إلى الأهرام من أوربا كلما حل صيف ونزح إليها ، ثم هو يأخذ مكان شقيقه فى مناقشة المسائل السياسية ، فنقرأ له مقالا ممتعاً عن حقوق المصرى الضائعة نجمله فى قوله « كثيراً ما بحثنا فى أسباب الاحتلال الإنكليزى ودرسنا أطواره ونتائجه وأتينا بالفصول

(١) الأهرام فى ٧ يونيو ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ١٣ مايو ١٨٩٥
(٣) الأهرام فى ١٤ فبراير ١٨٩٥
(٤) الأهرام فى ١٩ فبراير ١٨٩٥

الضافية الذيول مبرهنين بأرقام لا تقبل النقض ولا التأويل على أن الفلاح المصرى والمحترف النيلى وأخاهما الموظف لم يستفيدوا من حسنات الاحتلال ولم يعسر علينا أن نأتى بالبرهان على أن الفائدة المادية محصورة فى حاملى السندات والموظفين الإنكليز . . . »[1]. ثم يمضى مدللا على صدق قوله بالحجج والأسانيد .

إن تركنا السودان فهو لا يتركنا

ويعالج بشارة تقلا قضية السودان تحت عنوان « إن تركنا السودان فهو لا يتركنا » وفى مقاله يحمل أشد الحملات على الإنجليز ويترحم على شريف باشا الزعيم الوطنى الذى أبى أن يسلخ السودان عن مصر ، ويذكر أن قضية السودان منذ إخلائه أو المشورة بإخلائه وهى شغل صحيفته الشاغل « كانت قاعدة سياسة الأهرام وجوب المحافظة على السودان لأن به حياة مصر المادية والسياسية وطالما أثبتت لمحات السليم فقيدنا – يقصد شقيقه سليم تقلا – هذه القاعدة الرئيسية مما لا يزال يرن صداه فى آذان القراء رضى المحتلون أو غضبوا[2] . . » ويطلب بشارة فى صدر الأهرام جلاء الإنجليز لأن « الجلاء ضالة المصرى » فقد أغراه المحتلون بكثرة الوعود ، بيد أنهم مزجوا أعمالهم فى مصر « بالسياسة واستخدموا الإدارية والاقتصادية منها فى سبيل ابتلاع مصر وسودانها كما جاهر بهذه السياسة خطباؤهم وكتابهم فرأينا أن نقتدى بهم ونتأثرهم خدمة لمصر والشرق لأنه إذا وجب أن يقال إن آسيا للأسيويين بفضل اليابان وظفرها وجب أن نهتم نحن ليقال إن أفريقيا للإفريقيين والشرق للشرقيين بفضل القائمين بمهام أحكامه المؤيدين بوطنية تلك الشعوب العاملة على استقلالها لأنه كما أن لا جيش بلا مال ولا مال بلا إدارة فلا حياة بغير الاستقلال وليس للاستقلال وجود مع الاحتلال فلذلك وجب أن تكون ضالة المصرى جلاء الإنكليز عن مصر وسودانه »[3].

معالجتها للأمور الاجتماعية

أكانت الأهرام « لسان أمة » إذا عرضت للشئون السياسية وحدها ؟ أم هى تصور أيضاً مظاهر النشاط الفكرى والشعبى فى جوانبه الأخرى ؟ فى الحق هى هذا كله ، ولئن أطلنا فى شرح موقفها السياسى فإن ذلك لا يعفينا من ذكر نشاطها الآخر ، ورعايتها

(١) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى ٢٠ أبريل ١٨٩٥
(٣) الأهرام فى أول مايو ١٨٩٥

للحياة الاجتماعية والأدبية والفكرية جميعاً ، فأنت تقرأ منذ عودتها إلى الحياة فى أغسطس ١٨٨٤ إلى نهاية القرن التاسع عشر صحفاً فى الأدب والاجتماع ، وفى الاقتصاد والتجارة وفى الشعر والقصة، وفى الزراعة والعلوم ، وهى صحف حية قوية لم تستطع الحياة السياسية ولم يستطع كتابها المحترفون ولا كتابها المصاحفون أن يحجبوا هذه الحياة العقلية التى مثلتها الأهرام خير تمثيل .

الأهرام وحقوق المرأة

إقرأ فى الأهرام فصولا ممتعة عن حقوق المرأة من أقلام مصاحفيها أو محرريها ، ولن تجد فى هذه الفصول توجيهاً إلى طفرة ، بل إن كاتبنا — وهو هنا نجيب حداد — يشرح حقوق المرأة فى أوروبا ، ثم إذا فرغ من الشرح اتجه إلى مواطنينا محدثاً قراءه بأن « . . . تلك حالة النساء فى بلاد الغرب نوردها لمن عندنا عسى أن يكون فيها بعض التنبيه على الحمية والحض على الاقتداء والغيرة ، فإن القدوة يجب أن تكون فى كل تقدم وارتقاء لا أن تكتفى نساؤنا فقط بقدوة اللسان فى الألفاظ ومحاكاة القدود فى الأزياء وعسى أن تدخل هذه الغيرة بيننا فقد عهدنا مقر الغيرة ومقامها فى قلوب النساء »(١).


نجيب حداد أول من عنى بمشاكل المرأة

ويزيدنا خليل المطران بيانا عن (المرأة) الفرنسية فى مقال ممتع خصب مفيد(٢). ولا يكف المحررون بين حين وآخر عن معالجة هذه الشئون التى تهم المرأة والتى لو أعيد نشرها اليوم لكانت جديدة كل الجدة ، فإنى أعلم أن مطالب المرأة والتزاماتها لا تزال موضع النظر ، ولا يزال لها أصدقاء وخصوم كما كان عهدنا بالماضى البعيد .

وقد دأبت الأهرام على تأييد كل ما هو وطنى ، واختص بذلك صاحبها بشارة

---

(١) الأهرام فى ٢٨ أبريل ١٨٩٣
(٢) الأهرام فى ٨ سبتمبر ١٨٩٣

تقلا ، فإنه يكتب يوماً يدعو بحماس إلى تأييد الصناعات الوطنية مبيناً قدر تلك الصناعات لو كتب لها النجاح فى حياة الشعب ورفاهيته[1] . ثم يحدثنا فى مقال آخر عن عاصمة الديار المصرية وكيف لا تلقى من المسئولين العناية الجديرة بمكانها الموموق فى التاريخ ، ويطلب إليهم أن يحملوها بما هى أهل له ويبعدوا عن مداخلها ما يسىء إلى سمعتها ويحط من قدرها وهى كعبة القصاد من مغارب الأرض ومشارقها[2] .. ثم يدعو فى رسالة له إلى إنشاء المدارس وتشجيع القائمين بها وفى مقدمتهم دولة رياض باشا ، ويعتبر أن نجاح الشعب فى كفاحه يقتضى من الوطنيين أن يعدوا له جيلا مثقفاً ، وأن المصريين جديرون برعاية هذه الناحية ولا ينبغى أن يعتمدوا على الدولة فى ذلك كل الاعتماد[3] .

الدعاية لمصر وتشجيع السياحة

وإذا فكرت الحكومة فى رسم الدخول الخاص بمتحف الآثار لشدة الإقبال عليه من الأجانب الذين يختلفون إلى مصر لم ترحب الأهرام بهذه الزيادة لأن القصد من فتح أبواب المتحف للناس كما ترى صحيفتنا غاية وطنية لما ستتركه الزيارة فى نفوس المشاهدين من إكبار لمصر وتاريخها التالد ، وصحيفتنا ترى أن زيادة الرسوم بمناسبة موسم السياحة عمل لا يليق بشعب يرجو إعلان سيرته ولا يحب أن يشعر زواره أنه نهاز للفرص ، كما أن هذه الزيادة التى قررتها الحكومة إن أفادت دخلها من الأجنبيين فإنها ستكون عقبة أمام المواطنين ، تحول بينهم وبين زيارة متحفهم العظيم[4] . وهذه نظرة تحليلية لخبر عبر على غيرها من الزميلات دون تعليق أو تعقيب .

وهكذا أخذت الأهرام تعالج الشئون العامة الأخرى بنظرة فاحصة عالية إن صح التعبير ، وقد جعلت للمسائل التجارية والزراعية نصيباً فى صفحاتها وقررت لها يوماً أو يومين فى الأسبوع ناقشت فيها تلك الموضوعات تحت عنوان (خلاصة تجارية زراعية)[5] وبحثت أيضاً فى الموضوعات الطبية ، وعرضت لها فى غير موضع ، كما أخذت على عاتقها الدعوة إلى تشييد المستشفيات طالبة إلى المصريين أن يعينوا القائمين بأمرها ، راجية أن

---

(١) الأهرام فى ١٨ نوفبر ١٨٩٣
(٢) الأهرام فى ٢١ نوفبر ١٨٩٣
(٣) الأهرام فى ٢٧ نوفبر ١٨٩٣
(٤) الأهرام فى ٣ نوفبر ١٨٩٣
(٥) راجع الأهرام فى سنة ١٨٩٥

« يستنزلوا الرزق بالصدقة »[1] . وفى ذلك الموضوع كتبت المقالات الطويلة والنبذ القصيرة وفيها تبين الأثر الذى يفيده المواطنون من إنشاء المشاق لعلاج ما بهم والتخلص من أدوائهم

النشاط الأدبى (القصة)

وإذا فرغنا من مئآت المقالات الاجتماعية التى كتبها محرر الأهرام وشقيقه قبل وفاته ، وشغلابها صحيفتهما خلال تلك الفترة التى ختمت الأهرام تاريخها السكندرى فيها ، رأينا النشاط الأدبى الملحوظ لا يزال على نضرته وقوته فى صحيفتنا ، فهى تنشر القصص المسلسلة لأدباء العصر المعروفين من أمثال « الأديب الفاضل سعيد أفندى البستانى » الذى ألف لها خاصة رواية (ذات الخدر)[2] ، وكذلك عرب لها « الأديب داود أفندى مرعب » رواية (زعفرانة) التى نشرتها على عشرات الأعداد[3] . ثم قدم لها « الأديب الفاضل ميخائيل أفندى جورج عورا » رواية (البنون فى حب مانون)[4] ، وهكذا ساهمت الأهرام فى بناء تاريخ القصة فى مصر سواء كان ذلك تأليفا أو تعريباً ، وأيدت مساهمتها الأدبية بعمل مادى كان له أبعد الأثر فى إرساء القواعد لهذا الفن الحديث وذلك بطبع هذه القصص وبيعها للجمهور القارئ بأرخص الأثمان .[5]

نشاط الأدب والأدباء

ولا تقف الأهرام عند نشر القصص فى إذاعة الآداب العربية ، فهى تذكر أخبار المحافل الأدبية ونشاط الأدباء العرب فى مصر والشرق الأدنى ، وتروى تلك الأخبار مفصلة ، وتسجل آراء العظماء من أمثال شريف باشا ورياض باشا فى المجلات الأدبية والعلمية[6] ، وتذيع النبذ الأدبية ويتسابق أهل البيان فى نشرها سواء اتصل ذلك بهناءة أو عزاء ، وفى ذلك يساهم بشارة تقلا – والعهد به منصرف عن الأدب مقبل على السياسة ، وخاصة السياسة الخارجية – فنجد له مع الكتاب بعض القطع الأدبية لعل من أجملها وأرقها رثاءه لصديقه جبرائيل شارم محرر صحيفة ديديبا Journal des Débats وإن كانت عندى أجمل ما كتب فى هذا الباب ، فقد قال : « شلت يداك يا بين فماذا

(١) الأهرام ١٨ أبريل ١٨٩٥
(٢) الأهرام فى أواخر سنة ١٨٨٤
(٣) الأهرام فى سنة ١٨٨٦
(٤) الأهرام فى أواخر سنة ١٨٨٦
(٥) الأهرام فى ٨ و٩ أبريل ١٨٨٥
(٦) الأهرام فى ٢٣ و٢٤ مارس ١٨٨٥

اقترفت . وسحقاً لك يا موت فمن خطفت . خطفت من جسم الإنسانية فؤادها ولم ترحم . ومن عين المروءة إنسانها ولم تسأم ، ومن حلبة الآداب بطلها المغوار . ومن مضمار السياسة فارسها الكرار . ومن بلغاء الكتاب رئيسهم ومديرهم . ومن رؤساء محررى الجرائد أستاذهم وأميرهم . . . نندبه آناء الليل وأطراف النهار ذاكرين له بعض ما امتاز به من كل معنى حسن . من يوم أميطت عنه التمائم إلى يوم أدرج فى الكفن . . . »[1].

شكيب أرسلان وخليل مطران

ثم رأينا إلى جانب الأسماء الضخمة التى ساهمت فى السياسة وبرزت فى مناقشة المسائل العامة أسماء جديدة كتبت فى الأدب ؛ فى مقدمتها شكيب أرسلان[2] وخليل مطران الذى كانت له جولات بديعة فى « مظاهر الآداب »[3] وفى غيرها[4] ، كما كانت له قصائد ممتعة فى المدح[5] أو العزاء[6] ، وهى من عيون شعره الباكر الذى نشره فى الأهرام فعرف الناس عليه وقربه إليهم ، ووضعه فى مصاف كبار الشعراء

شوقى شاعر مصر

وإذا كان للسياسة نصيب ملحوظ فى رسالة الأهرام ، وإذا كان للنثر حظه الموموق ، فإن للشعر مكانه المقدور فى صحيفتنا الغراء . ولست أعنى بالشعر أى شعر ، بل أعنى أجمل ما قال المصريون من شعر فى العصر الحديث ، وإذا كان خليل مطران محرراً فى الأهرام ، وعلى صفحاتها أذاع قصائده ، فإن أهل الذوق فى صحيفتنا رحبوا أجمل الترحيب بشاعرنا شوقى ، فأفردوا له أهم صفحات الجريدة ليرثى فيها إسماعيل حين قضى فى سنة ١٨٩٥[7] أو يمدح فيها الخديو فى بعض الأحيان ، وهى تؤمن بشاعر مصر إيماناً لا حد له وترى فيه حين تقدمه لقرائها « الشاعر الألمعى والكاتب الأديب اللوذعى أحمد بك شوقى »[8] ثم يختارها شوقى ولا يختار غيرها من صحف العصر لنشر قصائده فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ولعل أجمل ما نشر شوقى فى الأهرام قصيدة « علموه كيف

(١) الأهرام فى ٢٠ أبريل ١٨٨٦
(٢) الأهرام فى شهر أكتوبر ١٨٩٣
(٣) الأهرام فى ٢٣ ديسمبر ١٨٩٣
(٤) الأهرام فى أول مايو ١٨٩١
(٥) الأهرام فى ١٨ نوفمبر ١٨٩١
(٦) الأهرام فى ١٧ أكتوبر ١٨٩١
(٧) الأهرام فى ١٢ مارس ١٨٩١
(٨) الأهرام فى ٢٢ أبريل ١٨٩٣

يخفو فجفا » . ولست أقصد بالجمال معانى القصيدة الفنية، فإن لشوقى غيرها قد يفوقها مبنى ومعنى ، إنما أقصد هذا الجمال فى الإخراج ، إخراج الصحيفة للقصيدة فى ذلك الإطار البديع الذى لا يغنى وصفه عن رسمه[1] .

دفاعها عن اللغة العربية

ولاتساهم الأهرام فى تزكية اللغة العربية وآدابها بنشر القصص أو المقالات الأدبية أو بالشعر ترويه لأمرائه فقط بل هى تدافع عن هذه اللغة وتهاجم المدارس الأجنبية مهاجمة عنيفة متصلة لإهمالها لغة البلاد وتاريخها وجغرافيتها ، ويقوم بذلك محرروها بين حين وآخر ، وفى مقدمة المدارس التى هاجمتها، المدارس الفرنسية التى تتعمد هذا الإهمال من غير مبرر مفهوم[2] ، كما أنها تهاجم الحكومة نفسها المقصرة فى حق لغتها الأصيلة إذ أن فى منشوراتها « من أساليب التعبير الفرنسوية والإنكليزية العربية ومن توعر التراكيب ومن تقلقل الكلم فى مواضعها ومن طويل الجمل المتشعبة المتفرعة ما يتعثر غير المتعود عليه دون فهم المقصود منه وما يقف عنده الهنيهات الطويلة يحل رموزه بكل حوامض الرموز وأملاح الإشارات التى يضطر إلى استخراجها من فكره كأنه معمل كيماوى »[3]

تنظيم الأخبار

فإذا فرغنا من دراسة المقال فى الأهرام سواء كان فى السياسة أو الأدب أو الاجتماع أو غيره من الأبواب ، فإن هناك شيئاً قد لفت نظرنا ، ذلك هو تنظيم الأخبار وكثرتها وتنوعها وانتظام المكان الذى اعتادوا نشرها فيه ، وهى أخبار بعث بها مراسلها فى القاهرة خليل مطران الأديب الشاعر ، أو بعث بها غيره ممن سبقوه أو جاءوا بعده ، أو بعث بها مكاتبوها فى العواصم والأقاليم والقرى أيضاً ، عن طريق البريد العادى أو بالبرق أحياناً ، وإن امتازت أخبار القاهرة بأهميتها وبأسلوبها الصحيح العالى فى بعض الأحيان. والاستطراد فى روايتها والتعقيب عليها ، ويبدو أن العناية بالأخبار أو بقسم الأخبار الداخلية قد انتظم واستوى منذ ألقيت شئون الصحيفة إلى بشارة تقلا ، وآل إليه أمرها بعد وفاة شقيقه ، كما أنها كانت تزدحم أحياناً بتلك الأخبار من هنا وهناك فتصدر فى ست صفحات على غير العادة[4] .

---

(١) الأهرام فى ٢٤ يوليو ١٨٩١
(٢) الأهرام فى ٧ سبتمبر ١٨٩٣
(٣) الأهرام فى ٢٧ أكتوبر ١٨٩٣
(٤) راجع ذلك فى أهرام ١٥ يوليو ١٨٩٥

RAM PYRAMIDES



خاندان آل عثمان

قصيدة «علوه كيف يجفو...» لا يفي وصفها عن رسمها

فضلها على فن الطباعة

ولسنا نعلم ما أصاب مطابع الأهرام من تقدم فى تلك الفترة من أواخر القرن التاسع عشر ، بيد أنه فى مقدرونا أن نزعم أن المطبعة العربية قد استكملت أهبتها ، وآية ذلك هذه الأناقة فى الطبع ، وهذا الوضوح فى الحرف وهذا البروز والجمال فى الرسوم والصور والأشكال الجديدة والإطارات البديعة ، أضف إلى ذلك أن الأهرام كانت يومية ، وكانت تصدر أحياناً فى ست صفحات ، وكانت المطبعة قادرة على أداء التزاماتها حيال هذا النشاط الملحوظ فى طبع الصحيفة وطبع الكتب والروايات والقصص ، كما كانت قادرة على الطبع باللغات الأجنبية ، وفى ذلك أذاع المسئولون فيها أنه « قد زدنا على أحرفنا الإفرنجية أحرفاً جديدة من أنواع مختلفة غاية فى الإتقان والزخرفة » حتى يمكن طبع الكتب والصحف « والكرت فزيت والكمبيالات والسيركولاريات . . . »[1].

جودة ورقها

وكذلك تميزت الأهرام فى ورقها فكان من الصنف الجيد ومن القطع الكبير ، وكانت صفحاتها الأربع تكاد تكون فى ضعف حجم صفحاتها الأربع يوم صدرت فى سنة ١٨٧٦ ، ويكاد يكون تبويب الصحيفة هو هو لم يمسسه إلا تغيير طفيف ، فالصفحة الأولى للسياسة الدولية وفيها بعض المقالات السياسية الداخلية أحياناً ، كما رأينا فيها دائماً إعلاناً أو إعلانين ، كما احتفظت الصفحتان الثانية والثالثة بالمقالات والأخبار الداخلية والبرقيات وأخبار البورصة وبعض الإعلانات الصغيرة ، أما الصفحة الرابعة فهى فى أكثر الحالات صفحة إعلانات مصورة .

ومنذ سنة ١٨٨٦ أخذت الإعلانات فى الأهرام تصبح مورداً ودخلا ، فهى كثيرة كثرة ملحوظة لم نجد لها نظيرا فى الصحف المعاصرة ، سواء كانت صحفاً معارضة تلقى تأييد عامة الناس أو صحفاً موالية للاحتلال يخدمها بالخبر يقدمه لها قبل غيرها أو بالإعلان يتوسط لها فيه، والمشاهد فى هذا التطور الملحوظ فى كثرة الإعلان أن معظم الإعلانات كانت رسوماً وصوراً ، وكانت من قبل مقلة فى هذه الإعلانات .

تجديدها فى طرق الإعلان

وقد تفننت إدارة الأهرام فى عرض الإعلانات ، فأبرزت للمعلن إعلانه بشتى

(١) الأهرام فى ٢٩ يناير ١٨٩١

الطرق ، ولم تقصر هذا التفنن على المكان وحده بل جعلت للإعلانات مواضع تثير فى القارئ رغبة النظر إن لم تكن المطالعة ، فإن الإعلان المرسوم أو المصور من شأنه أن يجذب النظر ، بيد أن صحيفتنا لا تكتفى بهذا فقد ينشر الإعلان ويفقد جدته وروعته مهما يحسنوا إلى رسمه أو يبرزوا فى صورته ، لذلك نجدها تنشره مرة معتدلا ، ثم تراها مرة أخرى تقلب وضعه فتحتفظ له بنهر كامل وتنشر حوله إطاراً وتميل به ميلا يضطر الناظر إليه إلى قلب الصحيفة وتحوير وضعها حتى يرى هذا الإعلان ويشاهد محتوياته وهى مكتوبة باللغتين العربية والفرنجية ، ولا شك أن فى مثل هذا الإعلان من الجذب ما يدفع القارئ إلى النظر فيه وقراءته مهما تتعدد أيام نشره (١).

ويبدو أن التجديد فى الإعلان لم يلحق الشكل والإخراج وحدهما ، بل كانت الإعلانات تعنى شيئاً ، أى تتفق والشيء المعلن عنه ، فهى ليست كلاماً مرسلا أو رسوماً وصوراً فى غير معنى ، فمثلا (يوسف وأحمد الجمال) تاجران من كبار تجار العاصمة ولهما تجارة واسعة فى الأقاليم ، أرادا أن يعلنا عن نوع من القماش ، فلم يظهر إعلانهما كلاماً بل كان عبارة عن جمل يركبه فرد ويقوده آخر وتحته ما شاء المعلنان من كلام(٢). وهكذا يتفق منظر الصورة مع اسم صاحبى القماش ، وهى صورة غاية فى الوضوح ملفتة للنظر مع دقتها وظهورها فى جزء صغير من أنهر الصحيفة الكثار .

ثم يطلب إلى الأهرام أن تعلن عن سماد فلا تترك الأهرام التاجر يتخير وحده أسلوب الإعلان ، بل تساهم هى من غير شك فى الطريقة التى يعلن بها عن هذا السماد ، فما نظن أن تجارنا منذ ستين عاماً كانوا يؤمنون بالإعلان حتى نزعم أنهم يفتنون فيه ، إنها تعلن عن السماد فتصور آثاره ، أى تقدم للإعلان « بأصيص » فيها أقطان مزهرة متفتح ثمرها وتقول إنه من أثر هذا السماد(٣). وإذا كان الإعلان عن الإنارة بالكهرباء رسمت له صورة مصباح كهربائى ونشرت ما حلا لها بعد ذلك من بيان(٤) . وكثيراً ما رأينا الأهرام تنشر صفحة كاملة مصورة لحساب شركة تجارية تقدم آلات تفيد فى حياتنا العامة هنا وهناك(٥) . وقد كان للخاصة الخديوية إعلاناتها الكثيرة المتباينة ولكنها

---

(١) الأهرام فى ٢٦ سبتمبر ١٨٩٣ (النهر الأول فى الصفحة الرابعة)
(٢) الأهرام فى ٦ فبراير ١٨٩٥
(٣) الأهرام فى ٢ مارس ١٨٩٥
(٤) الأهرام فى أول أبريل ١٨٩٥
(٥) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٨٩٥



إعلان عن محلات الجمال وفيه التفنن واضح



إعلان مصور طريف عن فوائد تسميد الأرض

كانت تبرز من حيث لفت النظر ومن حيث أهمية المكان الذى تنشر فيه(١) .

ومع ذلك كله فإن الأهرام لم تكن مستغلة معلنها أو مسرفة فى أجر الإعلان مع ذيوعها وانتشارها ، فقد كان رأسها يحمل بياناً لأجور الإعلان فيها ، فكانت « أجرة سطر الإعلان فى الصحيفة الأولى ثمانية قروش وفى الثانية والثالثة أربعة وفى الرابعة قرشان » وكانت الإدارة « تتساهل فى أجرة الإعلانات التى يتكرر نشرها من سنوية وغيرها » .

وقد ذكرنا أجر الإعلان فى سنة ١٨٩٥ وهى سنة كانت فيها الأهرام فى ذروتها من حيث طبعها وتحريرها ، وبالطبع كانت الأهرام تزيد الأجر أو تخفضه فى بعض السنوات الأخرى على حسب الأحوال ، وكان المشرف على هذا كله رشيد شميل بك ، فإليه كانت إدارة المطبعة وطرق الإعلان وتنظيم الصحيفة المالى ، وغير ذلك من الشئون التى وكل بشارة تقلا أمورها إلى شميل بك ، ولم يبخل المسئولون عن الإعلان ونظامه فى

---

(١) الأهرام فى ١٤ مايو ١٨٩٥

الجريدة فى اختيار أفضل مكان فى الصحيفة لنشر تلك الإعلانات فى جميع الصفحات ، وكثيراً ما كنا نجد إعلاناً مصوراً أو مرسوماً على رأس النهر الأول من الأهرام متقدماً على أخطر مقال لأخطر كاتب من المحررين أو المصاحفين .

انتقال الأهرام إلى القاهرة

لم يعد مجال الأهرام فى الإسكندرية ، حيث درجت على راحتى منشئها سليم بك تقلا فقد نشأت صحيفتنا فيها يوم كان الثغر مركز النشاط السياسى والتجارى والصناعى ، وفى نهاية القرن التاسع عشر كان النشاط السياسى كله والحركة الوطنية جميعاً قد استقرت فى القاهرة ، كما نافست العاصمة ثغرنا الكبير فى جميع أوجه النشاط الأخرى ، ولم يعد فى مقدور الأهرام ، وهى من أمهات الصحف المصرية ، أن تبقى فى مدينة الإسكندرية والقوى الصحفية والسياسية والتجارية والنشاط الفكرى فى القاهرة ، فإذا بصاحبها يحس هذا كله ويقرر فى سنة ١٨٩٩ الانتقال إلى عاصمة البلاد .

وقد طلعت علينا الأهرام معلنة هذا النبأ بقولها : « تصدر الأهرام منذ أول نوفمبر القادم فى طبعتين مختلفتين إحداهما فى القاهرة وهى الطبعة الأصلية بحجمها الكبير والأخرى فى الإسكندرية وهى طبعة جديدة بحجم أصغر من طبعة القاهرة ، وكلتا الطبعتين مستوفية شروط الصحافة من حيث الأخبار والسياسة والتجارة . وقيمة الاشتراك فى طبعة القاهرة الكبيرة ١٥٠ غرشاً صاغاً فى السنة وقيمة الاشتراك فى طبعة الإسكندرية ١٠٠ غرش صاغ ولكنها تخفض إلى ٥٠ غرشاً للمشتركين بطبعة القاهرة »[١] .

الأهرام تودع الإسكندرية

ثم تنبئنا الأهرام بالنظام الذى تم الاتفاق عليه فى طبع وإدارة الصحيفتين القاهرية والسكندرية فتقول : « بعد غد (الأربعاء) تصدر جريدتنا الأهرام بحجمها الكبير فى القاهرة حيث نقلنا إدارة الجريدة وأعددنا لها مطبعة متقنة ، وتصدر الأهرام أيضاً منذ ذلك التاريخ فى الإسكندرية حيث أبقينا لها مطبعة كاملة وإدارة خاصة ، وجعلنا القسم الكبير منها مخصصاً للتجارة إجابة للخاصة والعامة . . . هذا وقد عينا حضرة اللوذعى خليل أفندى الجاويش أحد محررى طبعة الإسكندرية مكاتباً فى الإسكندرية للأهرام التى تصدر فى القاهرة »[٢] .

(١) الأهرام فى ٢٥ أكتوبر ١٨٩٩
(٢) الأهرام فى ٣٠ أكتوبر ١٨٩٩

وأخيراً تختم الأهرام يومها الأخير فى مدينة الإسكندرية وتختم فصلا من فصول كفاحها بكلمة نشرتها فى أبرز مكان منها تحية للمدينة التى استقبلتها وتكريماً لمواطنيها فيها قائلة « تودع الأهرام اليوم ثغر الإسكندرية بعد أن قضت فى ظله ٢٥ عاماً متقلبة فى نعمته متمتعة بحمايته ، فهى تبرحه إلى عاصمة القطر مرتلة على أهله الكرام آيات الثناء داعية له ولهم بدوام التقدم فى مدارج العمران ومراتب العلاء .

وستصدر « الأهرام » غداً بحجمها الكبير فى القاهرة مخلفة للثغر طبعة الإسكندرية التى تصدر منذ الغد يومية أيضاً بحيث .

لا تستتم عناقه لوداعه حتى تعيد عناقه للقائه

« فوعد القطر غداً « بأهراميه » (إذا صح هذا الجمع) الأهرام طبعة القاهرة فى عاصمة البلاد السياسية والأهرام طبعة الإسكندرية فى عاصمة البلاد التجارية وإن غداً لناظره قريب »[1] .

(١) الأهرام فى ٣١ أكتوبر ١٨٩٩

الكتاب الرابع
١٩٠٠ - ١٩١٤

خصومة متصلة مع الاحتلال

الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نعاتبكم إن لم تحبونا

« لشاعر عربي »

طلعت الأهرام على المصريين فى مستفتح القرن العشرين من مدينة القاهرة فى ثوب قشيب إذا روعيت المظاهر والأشكال ، وفى نفس الطابع والروح إذا ذكرنا الأغراض والأهداف ، لم تنحرف عن رأى أذاعته من قبل فى مدينة الإسكندرية ، بل زادتها الأحداث تمسكاً برأيها وسعياً وراء الحقوق المغتصبة ، لم تخاصم إلا فى الحق ، ولم تجامل على حساب المصلحة العامة .

وفى مدينة القاهرة لم تفرش طريق صحيفتنا بالورود والرياحين بل هى تنزل إلى الميدان فى سنة ١٩٠٠ م وما تلاها من سنين منافسة فى ميادين الصحافة لجرائد رأى بعيدة الصيت موفورة المال قوية الجاه ، فى مقدمتها (المؤيد) لصاحبها الشيخ على يوسف و (اللواء) لصاحبها الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، و (الجريدة) لمحررها الأديب العالم لطفى السيد ، وغيرها من الصحف التى تجرى فى فلك تلك الصحف الثلاث ، إلى جانب صحف أخرى هى فى الحق مطايا الرأى الإنجليزى ولسانه عند الناس ، وهى صحف قوية قادرة تنجدها الحكومة ومن ورائها الاحتلال إذا أعوزها مال أو خبر ، وقد خرجت هذه الصحف خصماً عنيداً للأهرام وغيرها من صحف الرأى التى يحدثنا عنها تاريخ الصحافة المصرية منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن وقعت الحرب العظمى الأولى فى سنة ١٩١٤ .

رسائل بشارة تقلا من باريس

وصاحب الأهرام بشارة تقلا باشا هو هو لم يلفته جلال الرتبة عن أداء واجبه الصحفى الذى أخذه على نفسه منذ أنشأ وشقيقه صحيفة الأهرام . فهو يسعى إلى أوربا فى سنة ١٩٠٠

العدد ٦٥٨٩

الأهرام

طبعة مصر القاهرة

الاشتراك

AL-AHRAM

فهرست

الحرب

الاسكندرية

رسائل داخلية

عدد من أعداد الأهرام الأول حين صدرت فى القاهرة

ويبعث برسائله الممتعة في السياسة والأدب ، ما كان متصلا منها بمصر وغير مصر من بلدان العالم وفي مقدمتها أحاديثه الرائعة مع الأديب الفرنسي هانوتو ، وهي أحاديث في السياسة الدولية وأساليب الدولة العثمانية وألاعيب الاحتلال في مصر[١] .

والأهرام في وعيها المكتمل تنقد النقائص الملحوظة في حياة المصريين والعرب في الشرق الأدنى ، سواء اتصلت هذه النقائص بالشعوب أو بالحكومات ، غير أنها لا تعذر الحكومة المقصرة في ذاتها وفيمن تحكم من الناس . «لأن هذه كما قلنا بمثابة قيمة على الأمة ووصية على شئونها ومربية لأبنائها ، وهي أرقى بكثير من الأمة التي تحكمها بخلاف سائر الأمم المتمدينة التي تسير حكوماتها على رغائبها ومشيئاتها فلا يجوز لها أن تظل مقيمة على إهمالها إصلاح رعيتها في زمن لا يعيش فيه إلا المجتهد الجسور المزود بالعلم والمعرفة ، كما لا يجوز لسراتها ومتنوريها أن يتقاعدوا عن إيجاد كل وسيلة قوية تهدى مواطنيهم إلى الصراط المستقيم وحسبنا ما رأينا إلى الآن من العبر والحوادث زاجرا لنا ومنبها إلى سلوك مناهج الهدى والصواب ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[٢].

لومها الحكومة لاستسلامها إلى الإنجليز

وإنما هي تخاطب في ذلك الحكومة المصرية التي نسيت التزاماتها نحو الشعب وولى الأمر ولم تستمع إلا إلى الإنجليز الذين «عادوا إلى الوزارة فأشاروا إليها بأن تفعل فلا تحجم وتنفذ مآربهم دون تردد ولا قعود لأن روحهم تسرى في جسدها وزمامها بأيديهم . . . حكومة ليست مصرية ، وإدارة ليست شرعية تضرب سجوفاً دون السلطة الحقة . . . »[٣].

وهي تدلل على هذا السلطان المطلق للوكالة البريطانية في كل فرصة تواتيها ، فتراها وهي تدرس ميزانية الدولة بدقة وإمعان وتراجعها مراجعة الناقد الخبير بأصول المال، تهاجم الإنجليز وتبين إصبعهم في توجيه الميزانية التوجيه الذي يلائم أغراضهم[٤]، كما تحمل على عبارات وردت في خطاب ألقاه كرومر جامل فيه السودانيين ،ساخرة من الأقوال الناعمة التي لا يصاحبها فعل ، وإنما هي سياسة الحرباء ليس الغرض منها إلا إذلال

---

(١) آخر مقال نشر في الأهرام في هذا الموضوع في ١٩ يوليه ١٩٠٠
(٢) الأهرام في ١٨ يناير ١٩٠٠
(٣) الأهرام في ١٤ فبراير ١٩٠٠
(٤) الأهرام في شهرى نوفبر وديسمبر ١٩٠٠

مصر والسودان وافقارهما معاً[1] ، وتؤيد رأيها للمواطنين فى أوقات متفاوتة ، فهى تحمل على الاحتلال وأصحابه عندما تلقت نبأ وفاة اللورد دوفرين صانع الاحتلال وراسم أصوله قائلة إنها إنما تذكر « المصريين بما فعله الإنكليز لاحتلال بلادهم وبما وعدوا أوربا ومصر به ولم يأتوا منه شيئاً[2]... » بل إن وظيفة الإنجليز أن يمتطوا بعض المواطنين ليفرضوا على مواطنيهم الضرائب الثقيلة تحقيقاً لغايات الإنجليز ، فإذا فكر بعض المصريين فى إحياء صناعة الغزل لعلها تغنيهم عن وارد المحتلين حاربوها فى المهد وهاجمت الأهرام موقفهم ذاكرة للمصريين أن الاحتلال يعتبر مصر « بقرة حلوبا يجب أن يدر درها فى وطابه فإذا ذهبت قطرة من ذاك الدر إلى فم أبنائها عد ذلك حراماً عليهم[3] ».

استغلال الاحتلال لحادثة المنشاوى باشا

وطبعى أن يتسقط الاحتلال وتتسقط صحفه أخطاء المصريين ، فقد قيل إن المنشاوى باشا ومدير الغربية ، طغى كل منهما وأساء إلى الفلاحين بالقسوة والغلظة ، فقامت الصحف الموالية للاحتلال تهاجم المصريين بتلك المناسبة سواء كانت صحفاً عربية أو فرنجية فبرزت لها الأهرام فى مقال ممتع بعنوان « سياسة الاحتلال وطنبوره » ترد على مفترياتها قائلة « تعيرنا صحف الإنكليز التى تظهر بيننا بفعل أحمد منشاوى باشا وهو شخص واحد منا لا ميزة له على سواه إلا بكثرة ماله واتساع أطيانه ولو التفتت تلك الصحف إلى بلادها التى تعدها مهبط الحرية والعدل والإنصاف والمدنية والحضارة لرأت آلافاً كواحدنا هذا إذا صح أنه مجرم . . . » ثم تعدد ما فعله رؤساء مهمات الحربية الإنجليزية من جرائم وما يجرى فى بلاد الإنجليز من مآس ، ثم تقول « ولسنا نقول هذا عتباً على الصحف التى تتوخى منفعتها وتضرب على أوتارها وتخدم سياستها بل نقول ذلك دفعاً لمفترياتها وتنبيهاً لرجالنا . . . » ،ثم تختم مقالها بقولها : « فإذا لم تكن حادثة المنشاوى فى نفسها شيئاً يستحق أن يذكر إلا رواية ككل حادث بسيط إنما يكبر هذا كبر ثروة المنشاوى واتساع أطيانه فإن لكل مصرى من أمير رفيع وخادم وضيع وكاتب صحافى وعالم دينى عظة وتنبيهاً وذكرى تنفع وتفيد لمن يتعظ بالحوادث أكبر واعظ ومستفيد[4] »

(١) الأهرام فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٠
(٢) الأهرام فى ١٣ فبراير ١٩٠٢
(٣) الأهرام فى ٢٤ فبراير ١٩٠٢
(٤) الأهرام فى ٣ أبريل ١٩٠٢

فالأهرام لا تفوت حملة مغرضة على المصريين إذا أخطأ واحد منهم ، وتضرب المثل على الجرائم التى يرتكبها الإنجليز فى بلادهم مسئولين وغير مسئولين ، لتبين أن مجموعة الشعب لا ينبغى أن تؤخذ بجريرة فرد ، وأن خطأ المنشاوى أو غير المنشاوى ليس مبررا لزعم أنصار الاحتلال بوجوب الإبقاء على هذا الاحتلال ، وكتبت فى ذلك مقالا تعرض فيه ساخرة من إصلاحات الاحتلال بعنوان « تغنّيهم بالإصلاح وقعودهم عنه »(١)

موقف الأهرام من الاتفاق الودى

وهكذا ندبت الأهرام نفسها — كالعهد بها — لمهاجمة الاحتلال وانصاره ، مدافعة عن سمعة الشعب كبرت أخطاء أفراده أو صغرت ، فإذا حلت سنة ١٩٠٤ ، طير البرق وأذاعت الصحف نبأ اتفاق يتحدثون عن قرب وقوعه بين انجلترا وفرنسا ، وهو الاتفاق الذى يسمونه (الاتفاق الودى) ، وهو اتفاق خطير بالنسبة إلى المصريين لأن فرنسا حتى سنة ١٩٠٤ كانت عنصراً هاماً فى السياسة الوطنية المصرية ، وكان المصريون يرجون تأييدها كلما تحزب الأمر بينهم وبين الإنجليز ، ويجدون فى صحافتها ومجالسها النيابية وكتابها وأدبائها خير ناصر ومعين فى كثير من الظروف والمناسبات ، فإذا ترامى إلى الأهرام نبأ هذا الاتفاق المزعوم عقدت فصلا بعنوان (فرنسا وانكلترا ومصر) تناولت فيه السياسة الدولية بالبحث والتحليل وعرضت لنبأ رويتر عن هذا الاتفاق الذى يدور الحديث فيه بين انجلترا وفرنسا عن « الغرب الأقصى وسيام ومصر والترنوف» والأهرام لا تثق برواية رويتر ولا تفرق منها ذلك لأن « الاتفاق على مصر كلا اتفاق . وحسبنا أن قولنا ذاك لم يبرح الأذهان . والمسألة المصرية دولية وعلاقتها بجميع الدول لا بدولة واحدة »(٢).

دعوتها المصريين إلى الحذر

والأهرام وإن كانت تتشكك فى قيمة الاتفاق بين الإنجليز وفرنسا فإنها تعلم خطره على القضية المصرية ، لذلك أخذت على عاتقها فى الأيام التالية أن تنبه المصريين المتفرقين أيدى سبأ إلى خطورة موقفهم فى مقال بعنوان (ازعاج) نقدت فيه المواطنين نقداً بديعاً ، فعابت عليهم أنهم فى الوقت الذى تجرى فيه مباحثات بين انجلترا وفرنسا تقرر مصير مصر ينصرف المواطنون إلى تافه المناقشات .

---

(١) الأهرام فى ١٧ يوليو ١٩٠٢

(٢) الأهرام فى ٢٢ مارس ١٩٠٤

وتضرب المثل على مداهمة الاتفاق الودى لنا ونحن نتجادل فى فارغ القول بحديثها حديثاً طويلا عن الرومان ولهم موقف مشابه نقتطف منه قولها « وما مثلنا إلا كمثل أولئك الرومان منذ نيف و ٥٠٠ عام إذ فاجأهم السلطان محمد الفاتح فى قلب القسطنطينية فكانت معاوله تحفر فى سور مدينتهم وسيوفه تلعب برقاب رجالهم ورماحه مسرعة إلى صدور أبنائهم وهم من وراء ذلك السور فى قلق واضطراب وتنابذ وخلاف وجدال وقتال لا اهتماماً بأمر الغازى المفاجىء بل بالبحث عن أمر آخر وهو توحيد الكنيستين الرومانية واللاتينية » !

وهى حين تسخر هذه السخرية اللاذعة وتربط بين قديم لا يعرفه عامة المصريين وحديث يحسونه ولا يلقون إليه بالا ، إنما تضرب المثل وتنبه الغافلين فتقول « لا نريد به قوماً دون آخرين بل إن فى صدر هذه الأهرام التى شاركت الأمة فى أطوار نشأتها الجديدة منذ ٣٠ عاماً حتى اليوم غيرة تتقد وإشفاقاً يتردد بين الضلوع . فهى إذا سكتت عن التنبيه والتحذير والإرشاد والتفكير عدت نفسها مقصرة فى مهمتها خائنة لعهدها وميثاقها فى صدق الخدمة للأمة وصدق النصيحة لأبنائها »[١]. ثم أخذت تنقل أقوال الصحف الفرنسية والإنجليزية الهامة عن هذا الاتفاق المرتقب تنفيذه بعد قليل[٢].

المسألة المصرية

ولا تعنى أحاديث الأهرام فى الاتفاق الودى وخطره تثبيط الهمم ، فإن الصحافة المصرية الوطنية أخذت تهاجم هذا الاتفاق فى غير تحفظ أو تمهل ؛ تماماً كما كانت تصنع الأهرام ، إلا أن صحيفتنا جابهت مواطنيها بالموقف واضحاً فى غير مواربة فى مقال بعنوان (المسألة المصرية) فتساءلت فيه عن الاتفاق المزعوم وموقف البلاد منه قائلة « سؤال أجبنا عليه مرارا ونحن موقنون معتقدون كل الاعتقاد بصحة ما نقول . وهو أن هذا الاتفاق لا يدفن المسألة المصرية فى قرار بعيد ولا يزيل حجراً واحداً من أساسها ولا يبدل شيئاً من حالتها بل هى مسألة تظل حية بكل قواها لأنه ليس لفرنسا أن تعطى مصر لانكلترا وليس لانكلترا أن تطلب مصر من فرنسا . فمصر ملك لسلطان العثمانيين ومربوطة شئونها بمعاهدات دولية فلا يحل ما ربطته الدول غير الدول . ولا تنوب دولة عن أخرى فى هذا العمل ... » ، ثم تلتفت إلى المصريين وتطلب منهم ألا يجعلوا لليأس سبيلا إلى قلوبهم العامرة بعدالة قضيتهم « ... والأمة التى يتولاها اليأس لا يسمع لها

(١) الأهرام فى ٢٤ مارس ١٩٠٤
(٢) الأهرام فى ٥ أبريل ١٩٠٤

صوت ولا يحترم جانب فلتحتفظ الأمة المصرية برأيها وأمانيها ولتضع نصب عينها استقلالها وامتيازاتها فإن ذلك محفوظ لها . . . »[1]

الغاية والمصير

ونزلت الملمة ووقع الإنجليز والفرنسيون الاتفاق، ونشرت الأهرام مقالا بعنوان (الغاية والمصير) ذكرت فيه أن الاتفاق أطلق يد الإنجليز فى الشؤون المالية وطالبت أن يكف الانجليز عن إسرافهم المعهود والنظر الى مصر نظرة البقرة الحلوب « ومصر كانت لهم حتى الآن كالمدرسة تتمرن فيها أيدى الناشئة الإنكليزية على الأعمال ، فاستعاضوا عن شيوخنا بفتيانهم وعن العارفين منا بالجاهلين منهم ومنا . فكل ذلك فعلوه خدمة لتأييد الاحتلال وأسقطوا عالينا ورفعوا وضيعنا خدمة للاحتلال . لزعمهم أن المصرى الحر الفكر واليد واللسان يجب أن يعقل لسانه وتغل يده ويقتل فكره فى صدره لأن الاحتلال أراد آلات تعمل بإرادته لا عقولا تدبر الأعمال بحكمتها . . . »

وهى تطالب بأن يعمل الإنجليز على كسب صداقتنا فإن فى ذلك خيراً لهم قبل أن يكون فيه خير لنا . ولن يتم ذلك إلا بتوسيع اختصاصات مجلس الشورى حتى يصبح مجلساً حراً لنواب أحرار . ثم إذا فرغت من الإنجليز ، عرضت للفرنسيين الذين كسبوا طائل المكاسب من هذا الاتفاق وبينت أن معاتبتهم وتقريعهم باللوم لاتجدى ولا تفيد ، وأن الجدير باللوم والتقريع « رجالنا العثمانيون » ثم يجب أن نلوم المصريين الذين لم يؤلفوا لجنة تحضر مؤتمر لندرا فى سنة ٨٤ للمطالبة بحقوقهم والسعى فى خلاصهم . . . « نلوم رجالنا العثمانيين لأنهم فى سنة ١٨٨٥ وافقوا على لائحة السيروولف إذ اعترفوا لإنكلترا بالاحتلال باعترافهم لها بحق تنظيم البلاد وإدارتها ونلومهم أيضاً لأنهم أبوا إرسال ألفى جندى عثمانى فى تلك السنة مع ضباطهم لإصلاح الجندية المصرية . نلوم رجالنا العثمانيين لأنهم أبوا الموافقة على لائحة السيرولف سنة ٨٦ وخلاصتها أن يحتل البلاد جيش عثمانى وأنه كلما وصلت فرقة عثمانية تسافر فرقة إنكليزية . ونلومهم على كل ما فعلوه بعد ذلك حتى أضاعوا مصر والسودان . . . ولم يحفظوا لهم من خيرها إلا الجزية التى تدفع لروتشلد ثم نلوم المصريين الذين تفرقوا شراذم وتمزقوا أفرادا ولم تجتمع لهم كلمة على المطالبة بحق والاحتفاظ بأمر حتى رأينا ما حدث الآن . ولكن هناك بقية باقية فهل فى صدر رجالنا العثمانيين همة تحفظها وفى نفس رجالنا المصريين غيرة تحييها ؟ إننا نأمل ذلك لأننا لا نريد الاستسلام للقنوط واليأس »[2]

(١) الأهرام فى ٨ أبريل ١٩٠٤
(٢) الأهرام فى ١٣ أبريل ١٩٠٤

كسرت اليراع فلا تعتبي

ويمضي الأهرام ناشرة وثائق الاتفاق الودى حاملة على الانجليز والفرنسيين حملة قاسية رائعة[1] ، مفسحة صدرها لخاصة المصريين يذيعون رأيهم فى الاتفاق ويعاتبون مواطنيهم على تقصيرهم ، ومن أمتع ما نشرته ، قصيدة لحافظ إبراهيم بعنوان (إلى مصر لأشعر شعراء مصر) وجاء فيها بيتان عن الاتفاق الودى فيهما لوم وتثريب :

أيعجبنى منك يوم الوفـاق سكوت الجماد ولعب الصبى
وكم غضب النـاس من قبلنا لسلب الحقوق ولم تغضبى

وكان ختامها أشد تقريعا

على الشرق منى سلام الـودود وإن طأطأ الشرق للمغـرب
لقد كان خصباً بجـدب الزمان فأجدب فى الزمن المخصب[2]

حملتها على الحكومة الفرنسية

ولم يؤثر عن الأهرام تقدير لفرنسا أو تأييد لها بعد موقفها منا وموقفها من الدولة العثمانية عامة ، ومن البلاد الإسلامية خاصة ، بل إنها كثيراً ما نشرت المقالات تكشف فيها عن السياسة الكرومرية فى المغرب ، وكيف أن الفرنسيين كانوا تلامذة مجتهدين للاحتلال الإنجليزى فى مصر[3] . وأخذت تحمل على السياسة الفرنسية فى أكثر من ظرف ومناسبة[4] ، كما كتبت بعنوان « أصغرنات » تحمل على الصحف الفرنسية فى مصر التى أرادت أن توهم المصريين بأن استقلالهم أمر غير ميسور ، وأن الاعتماد على فرنسا مثلا ليس له محل فى حساب الفرنسيين أنفسهم ، وقالت فى معرض الرد إنها دأبت على إقناع المصريين المصريين بألا يعتمدوا إلا على أنفسهم فى تحقيق أهدافهم الوطنية « فما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك » ، ثم تقول : « وإذا كان الكلام فى الجلاء وقربه وبعده « صغرنات » فما كان أكبر « صغرنات » الفرنساويين وأقطاب السياسة منهم من سنة ٨٢ إلى سنة ١٩٠٤ . . . »[5] وفقدت بذلك فرنسا صحيفة كانت تكبرها وتقدرها كما أكبرها وقدرها زعماء المصريين من قبل

(١) الأهرام فى ٢٠و٢١و٢٣ أبريل ١٩٠٤
(٢) الأهرام فى ١٤ سبتمبر ١٩٠٥
(٣) الأهرام فى ٢٠ أكتوبر ١٩٠٦.
(٤) الأهرام فى ١٧ سبتمبر ١٩١٠
(٥) الأهرام فى ٢١ يناير ١٩٠٩

حملتها على اللورد كرومر

وما أن فرغت جريدة الأهرام من المؤامرة التى انتهت بالاتفاق الودى حتى استقبلت تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٤ وفيه أهان وكيل الإنجليز جميع طبقات الأمة ، وثارت لذلك ثائرة الخاصة والعامة ، وناقشت الصحف الوطنية العميد الإنجليزى فى عنف على ما جاء فى تقريره ، وكتبت الأهرام فى الموضوع بأسلوب يخالف أساليب الصحف جميعاً ، وتضمنت كلمتها معانى لم نر لها مثيلا فى زميلاتها الأخريات ، فقد راحت تقول « إن كلام اللورد لا يؤلمنا لا لأنه آلم الأمة ونحن لا نشاركها فى شعورها وإحساسها بل لأنا نذكر فى هذه الحالة كلمة لجان جاك روسو قالها وهو يصف أمته وما حل بها من استبداد الأمراء والحكام وكلمته تلك هى : أفرحونا أيها الحكام بإجاعة الشعب وتعذيبه وبالتضييق عليه وإعساره فإنا ننتظر من وراء مؤلمته وإفراغ بطنه أن يهب للمطالبة برزقه ليشبع وحقه لينعم ونحن على مبدأ جان جاك روسو نقول لجناب اللورد كرومر زدنا من هذا الوخز والتجريح فإن سياسة « الإبساس » والتمليق والمداهنة والمجاملة تميت الشعور وتدفن العواطف . . . » ، ثم تنصرف الأهرام إلى مواطنيها من جميع طبقات الأمة طالبة إليهم تكذيب أقوال اللورد بالأعمال الحسنة والأفعال الحميدة والخلق الكريم[1] .

قلقها على مصير السودان

وصحيفتنا فى الميدان قائمة للاحتلال تترصد خطاه ، كتب أو خطب أو عمل أو أوعز بذلك لعيونه وأعوانه من صحف ومسئولين ، فقد أحست أن شيئاً يتصل بأمور السودان فى جو الاحتلال ، وذلك من هذا الثناء الذى لا طعم له المنشور فى إحدى صحفه فى مصر ، فكتبت مقالا بعنوان (تبخير الاحتلال فى سياسة السودان) وهو حملة على إحدى الصحف التى أخذت « تحمل المباخر » للإنجليز ونسيت فى طبلها أن ما صرفته مصر من أموال على جنوب الوادى إنما صرفته كى يعود عليها وعليه بالخير لا أن يفيد منه الإنجليز دون مصر ودونه[2] .

ثم تعقب فى ظرف آخر على شئون السودان بعنوان (النذير المهدد فى ضياع السودان) والمقال حملة شديدة على السياسة الإنجليزية فى السودان ، وتألم شديد لما آل إليه أمرنا فى

---

(١) الأهرام فى ٢٨ أبريل ١٩٠٤
(٢) الأهرام فى أول فبراير ١٩٠٤

« لا يتألم من البتر جسد هامد وعضو ميت ، فإذا نحن لم نتألم ولم نشك من بتر السودان من جسد مصر كنا أمواتاً . فحياتنا فى السودان . ومن ذا الذى تهدد حياته فلا يرتعد ويذعر ، وآمالنا معلقة فى السودان فمن ذا الذى يرى آماله ضائعة فلا ينفطر كمدا »[1]

وقصة السودان فى تاريخ جريدة الأهرام قصة متصلة الحلقات فما من صحيفة رعت أخباره وحوادثه ، وعالجت علاقاتنا به وأطماع الإنجليز فيه مثلما رعتها وعالجتها الأهرام منذ نشأتها إلى اليوم ، فهى من الصحف الأولى التى أخذت فى شتى الظروف تضرب على وتر السودان وتبين للمصريين « أن الإنجليز لم يروه قط هو ومصر إلا مزرعة ينالون حرثها وبقرة حلوبا يستدرون ضرعها »[2] .

(١) الأهرام فى ٣٠ يناير ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ١٥ أكتوبر ١٩١٠

دنشواى

وإذا أعوزتكم ذات طوق　　بين تلك الربى فصيدوا العبادا

(حافظ إبراهيم)

يجب علينا ونحن نصور الأرق الذى خلقته جريدة الأهرام للاحتلال أن نعرض لحادثة مشهورة فى مطلع نهضتنا الحديثة كانت عنواناً حسنا لخصومة الأهرام للمحتلين من ناحية ، وللحكومة التى تأتمر بأمرهم من ناحية أخرى ، إلى جانب العبر التى نكسبها من تفصيل هذه الحادثة بأسلوب الأهرام وعن طريق حكايتها .

وقد بدأت الأهرام حديثها عن قصة دنشواى بعنوان (حادثة دنشواى بين الضباط الإنكليز والأهالى) ، وقد عرضت صحيفتنا لتفاصيل ما حدث وروت كيف اعتدى الإنجليز على « النساء والرجال » أثناء صيدهم لحمام الأهالى ، وكيف ذاد أصحاب الحمام عنه رصاص صائديه « والذى نأسف له أنه نجم عن هذه المشاجرات قتل ضابط من ضباط جيش الاحتلال » ، وردت فى لباقة على صحافة الاحتلال العربية والفرنجية حين اتهمت الفلاحين بقتل ضابط من الجيش المحتل، وكان الاعتداء على جندى من جيش الاحتلال فى ذلك الوقت تهمة لا تغتفر ، فذكرت مقتل الضابط « ولكن الذين قتلوه لم يقتلوه لأنه ضابط بل لأنه صياد أصاب رصاص بندقيته أشخاصاً هاجهم منظر ذويهم وهم جرحى »[1].

ثم قالت فى يوم آخر ملقية المسئولية على القضاء والقدر : « أسف جميع عقلاء الوطنيين لحادثة دنشواى وقتل ضابط إنكليزى وجرح رفاقه ، وليس للعاصمة من حديث إلا بهذه الحادثة المشؤومة التى حكم بها على أصح تعبير القضاء والقدر » ، ثم هالها أن تخلق صحافة الاحتلال من الحبة قبة فاستطردت قائلة : « والكل يأملون ألا تتخذ الحادثة وسيلة للقيل

(١) الأهرام فى ١٢ يونيه ١٩٠٦

والقال وأن تحصر فى دائرتها » . وتعقب بعد ذلك على نشاط نظارة الحقانية التى شمرت عن ساعد الجد فى « إجراء اللازم لجمع المحكمة المخصوصة التى يحاكم أمامها المعتدون على جيش الاحتلال » ، وروعها هذا التفكير فى دعوة المحكمة المخصوصة فقالت فى ختام كلمتها : « ولكنا لا نعرف كيف يصح محاكمة أناس اعتدوا على الجنود الإنكليز وهم لا يعرفون أنهم جنود[1] » .

مثال للتحقيقات الصحفية

وقد بعث الأهرام بمخبريها ومراسليها إلى مكان الحادثة حيث قاموا بتحقيق صحفى بديع وافوها به بالبرق والبريد ، وكان هذا التحقيق الصحفى مثلا يحتذى فى العرض وسلامة التصوير والبعد عن الهوى وتحرى الحق والعدل فيما كان وفيما ينتظر أن يكون ، وتضمن التحقيق الصحفى كل صغيرة وكبيرة متصلة بالموضوع ، وأذاع أسماء أعضاء المحكمة المخصوصة ، ثم ذكرت اهتمام كرومر بالقضية ورغبته فى أن تتم إجراءات المحاكمة فى أيام معدودات[2] .

دعوة الأهرام إلى الحلم

ثم شعرت الأهرام أن حملة تديرها صحافة الاحتلال ليأتى الحكم مضرب المثل فى القسوة حتى أن صحيفة عربية تنطق باسم الاحتلال صرحت بأن الأوامر قد صدرت بإعداد المشانق[3] فطلعت الأهرام تناقش الموضوع وتوصى بالرأفة والعدل فى مقال افتتاحى بعنوان (حول دنشواى) قالت فيه : « أمران يؤلمان الإنسانية ويجرحان فؤادها، الظلم من الحكام والاعتداء من الأفراد ، ولا يضمد الأول غير العدل ولا يخمد جذوة الثانى غير الموادة والحلم من الجمهور والإنصاف من الحاكم الوازع » .

ثم تناقش الأهرام الدعوة إلى القسوة والتحريض على الكيد وتبين خطرهما فى سياسة الأمم والشعوب ، وهى ترجو خفة الحكم والرأفة بالمجرمين ، وتذكّر بالعدل الذى هو أساس الملك « ونحن الآن أمام حادثة دنشواى قد آلم منها اعتداء الأفراد على الأفراد ، كل نفس وجرح كل فؤاد ، فلم يبق إلا العدل من الحاكم يمحو أثر السيئة ثم الموادة والتؤدة فى حكمه حتى لا يتعدى طور العبرة إلى الانتقام فينقلب مراده إلى عكسه وعدله

(١) الأهرام فى ١١ يونيه ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ١٦ يونيه ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ٢٠ يونيه ١٩٠٦

إلى ضده » . ثم تطلب الأهرام من الصحف الموالية للاحتلال أن تتريث فى حكمها وتقلل من غلوائها « وليس للصحافة أن تقيم من أقلامها معيارا لتبعة المعتدين والمعتدى عليهم إذ الأمر فى مكان عظيم من الدقة لا يتسع معه المجال للسير فى جانب فريق دون فريق ولأننا أمام جثث هامدة وجراح فاغرة يرد عنها الطرف وهو دامع ، وأمام قرية تقول إنها هددت برزقها واعتدى عليها فى أرضها ، فلا تكاد تسمع حجتها حتى يبدو بعض عذرها وتخف فى نظر السامع جريمتها ، ويؤيد خفة جرم المجرم طبيعة حاله وموقفه الخاص وأخلاقه الممتازة . . . »[1]

مجابهة أعوان الاحتلال

وإذن فصحيفتنا تجابه أعوان الاحتلال من الصحفيين فى صراحة تغبط عليها ، فإن الشجاعة التى عالجت بها الموقف فى هذا المقال لأبين من أن تحتاج إلى تعليق ، فقد كان سيف الإرهاب مصلتا على الرقاب جميعاً والاحتلال فى ثورة جامحة ، ومع ذلك فإن الأهرام طالبت بالعدل والرأفة واعتذرت عن المعتدين بقوتهم الذى اعتدى عليه ، وجعلت امتياز نفوسهم إحدى صفاتهم . لذلك كان هجوم صحافة الاحتلال عليها له ما يبرره من ناحيتهم ، ولم تقف الأهرام عند حد التماس الرأفة والعدل بل أعلنت على الناس أن بعض صغار النفوس فى دنشواى وجدوا فى الحادثة فرصة للنميمة يكيد بها بعضهم لبعض ولفتت فى قوة ، نظر القضاة إلى ذلك حتى لا يتخذوا من الوقعة الصغيرة حجة للقسوة والعنف »[2]

حملتها على الحكومة لقسوتها

وأسرفت الحكومة المصرية فى رعاية خاطر الإنجليز ، فجردت قوات لا حصر لها نزلت إلى قرية دنشواى ، وعاثت فيها فسادا وملأت قلوب سكانها رعبا وخوفاً ، فهاجمت الأهرام تصرف الحكومة وإسرافها فى تخويف الأهالى وإرهابهم بجنودها وخفرائها ، وعجبت كيف تعمد الحكومة إلى هذا الأسلوب المزرى فى معاملة المواطنين فى دنشواى « ... مع أنها بلدة صغيرة ضعيفة يكفى لحفظ الأمن فيها ثلاثة عساكر ، وأهلها الآن فى خوف ووجل من سطوة القانون ، فأى داع يدعو لإحاطتها بالقوة بعد ما تم التحقيق وأخذ المجرمون »[3]

(١) الأهرام فى ١٨ يونيه ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ١٩ يونيه ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ٢١ يونيه ١٩٠٦

وأخذت الأهرام ترقب التحقيق الأول عن كثب حتى إذا أعلن عن موعد انعقاد المحكمة المخصوصة كتبت تستجدى المحكمة قائلة : « فى صباح الأحد تنعقد المحكمة المخصوصة فى مديرية شبين الكوم لمحاكمة المتهمين . . . فهذه المحكمة التى لم يقيدها ولى الأمر بنص قانونى سيكون حكمها بما ينصه ضميرها ووجدانها وهى فى شكل محكمة مختلطة (من انكليز ووطنيين) فالوطنيون يقضى عليهم ضميرهم ووجدانهم بمراعاة المألوف من أخلاق الفلاحين وتقدير تبعتهم على قدر فهمهم ليدلوا الإنكليز ذاتهم على أن فى رجالنا من يحكم بما ينص ضميره ووجدانه فلا تؤثر بالعدل السياسة » .

ثم ترجو القضاة الإنجليز أن يجعلوا للشفقة مكاناً فى نفوسهم باعتبارهم أمة كريمة حرة واعية تقدر ظروف الفلاحين الجهلاء وقد أثير غضبهم من أجل حمامة ، وإن فعلتهم نفسها لخير شفيع لهم إذ لو علموا خطر ما ارتكبوه لما فعلوا فعلتهم ، وإن الحلم من الإنجليز لفضيلة منهم ، فإنهم قادرون على نسف دنشواى بمن فيها ، وإن الرأفة والعدل واجبان من القوى نحو الضعيف ، فإذا أظهروا الحلم عند المقدرة عظم شأنهم ومحوا بعدلهم بل بحلمهم ما كادت أضاليل الصحف التى تنتسب إليهم أن تسود به أمام الجمهور صحيفتهم ، إذ ظهرت بمظهر « الغاضب الحاقد الفاجر النازع إلى الانتقام والجبار الذى يريد التنكيل بالآثام . . . . »(١)

الأمة المصرية أمام المحكمة المخصوصة

واستمرأت صحف الإنجليز عربية وفرنجية قصة دنشواى فقست فى حملتها على الفلاحين ، وألقت مسئولية الحادثة على بعض المصريين الذين — فى رأيها — هيأوا الأفكار للاعتداء على الإنجليز كلما جاءتهم الفرص أو واتتهم المناسبة كما حدث فى دنشواى ، فكتبت الأهرام مقالا ممتعاً بعنوان (القطر المصرى فى دنشواى والأمة المصرية أمام المحكمة المخصوصة) تحدثت فيه عما جاء فى تلك الصحف من اتهامات للمصريين حتى جردتهم من إنسانيتهم ، وحتى أصبحت الأمة المصرية كلها متهمة اتهام فلاحى دنشواى ، ثم ردت على أقوال تلك الصحف المأجورة مبينة أن الجريمة يحمل وزرها الإنجليز لأنهم حطموا الرءوس الكبيرة من المصريين ، فلم يجد الشعب هيئة أخرى يحترمها ، ثم إن الاحتلال عمل على جهل الناس وتنفيرهم من العلم ودوره ، وحرموه بذلك من أن يدرك من نفسه تبعته ومسئوليته فبات الناس فى فوضى وصدق فينا الشاعر القائل :

(١) الأهرام فى ٢٢ يونيه ١٩٠٦

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا »

ثم تلوم الإنجليز الذين جعلوا البوليس مطية لأغراضهم ، فانصرف الجند عن واجباتهم الأصلية وهى حماية الأمن والقضاء على الفوضى حتى إن « الخفراء الذين إذا شكت البلاد السرقة عرفنا أنهم فى مقدمة اللصوص وإذا شكت القتل والسطو عدوا من القتلة والساطين ، وإذا شكت إهمال الضبط كانوا فى مقدمة المهملين ، فإذا كان العيب فى الأهالى لجهلهم فإن العيب الأكبر فى نظام الإدارة لضعفه واختلاله »(١) .

أنفوساً أصبتم أم جمادا

فإذا صدر الحكم ، وهو حكم لا يقبل الطعن ، كما أنه معزز بالنفاذ المعجل ، ويشمل إعدام أربعة ، وبالأشغال الشاقة على نحو ثلاثة عشر فلاحاً وجلد آخرين ، كتبت الأهرام تنقد هذا الحكم وتحمل على المحامى المصرى الذى تطوع لإساءة مواطنيه ، وتهون من خطيئة الفلاحين قائلة : « فإذا لم يكن لأحد أن ينازع القاضى فى عدالة حكمه لأنه وحى من ضميره ومن ظروف وأحوال متباينة قد تبدو له دون غيره فإنه لم يختلف اثنان من الجماهير الموجودة فى شبين الكوم عند سماع الحكم — كما أفادنا مكاتبنا هناك — فى شدة هذا الحكم . ولم يختلف اثنان هنا بعد إذاعة الخبر فى ملحقات أصدرت به فى أن العدل لم يمزج بالرأفة » .

ثم تستخلص من المحاكمة والحكم « حقائق نود أن يفهمها كل إنسان بإمعان وألا تضيع من الأذهان بين لغطة صخب وصيحة شنآن » ، وهذه الحقائق فى ضمير جريدة الأهرام « تقرر أن الاعتداء لم يكن على الإنكليز لأنهم إنكليز بل على الصيادين لأنهم اصطادوا الحمام . . . ويمحو أثر اعتداء جهلاء الفلاحين على الضباط الإنكليز بل يزيد على محوه الحكم الشديد من القضاة المصريين وتجسيم التهمة وطلب العقوبة بصرامة ليس بعدها صرامة بضم محام مصرى متطوع فى ذلك . . . » .

ثم تمضى فى تقرير هذه الحقائق ومنها « أن لهذه البلاد خصوماً بالمرصاد يعزون إلى عمل فلاح من مجاهل الأقاليم مغزى بعيداً يقولون إنه دليل على روح الأمة كلها لينالوا من عرضها واسمها وآدابها وأمانيها فوق ما تناله المشنقة من عنق القاتل والكرباج من جلد المعتدى . فيجب على كل مصرى عاقل تلقاء هذا أن يكافح هؤلاء الخصوم بالرزانة وإقامة الدلائل الناصعة على افترائهم لأن مصر ليست ممثلة فى سكير بالأسكندرية

(١) الأهرام فى ٢٢ يونيه ١٩٠٦

ومجرم فى المنوفية وقاتل فى الغربية فهى تريد أن تعامل معاملة أمة يكون عنوانها عقلاءها وأدباءها لا أشرارها وجهالها ، وإذا كان الأشرار فى أمة هم عنوانها فإن مصر بلا جدال أقل بلاد الله أشراراً ، وأى بلاد لا يحدث فيها ما قد حدث فى دنشواى ، وأى بلاد تخلو من فلاحين جهلة لا يعرفون مغبة ما يفعلون ومن صياد يعتدى عليه أو يعتدى ، بل من حمامة وراءها كأس الحمام »[1] .

عطفها على الضحايا

وبعد أيام نشرت الأهرام حملة على الحكومة التى كانت حادثة دنشواى نتيجة لإهمالها الأمن وانصرافها عن واجبها ثم أخذت الجريدة تعزى أهل المحكوم عليهم « بين قتيل ومشنوق ومجروح » وما أصابهم وأصاب أسرهم من « عيال وأطفال وأرامل ويتامى وشبان وكهول وشيوخ وعجائز وفتيان » وتتساءل آخر الأمر : « فهل يكون للبلاد من وراء تلك الدماء المراقة والجلود الممزقة والبيوت المهدمة والنفوس المزهقة والعيال الميتمة نفع ... »[2] ثم مضت تنشر المقالات فى أعقاب الحكم وفيها دراسة نفسية وعلمية وتاريخية ، قالت فى مقدمة إحداها « إذا خلا القضاء من الشفقة صار خصماً للمجرم لا مؤدبا ، وإذا أنزل القاضى نفسه منزلة الخصم التوت عليه طريقة العدالة وخرج حكمه إلى حد الانتقام » .

عتبها على المصريين المسئولين

ولم تنته قصة دنشواى بوقوع الحادثة وصدور هذا الحكم القاسى المروع ، فإن البرلمان الإنجليزى أثار القصة من جديد وحمل على المصريين حملة شعواء ، وأيد النواب الثائرون حملتهم بوثائق هى ما قالته صحف الإنجليز فى مصر ، حيث وصفت المصريين بالوحشية والهمجية والتعصب ، وضايق الأهرام أن تلقى هذه الأقوال من فوق منبر البرلمان الإنجليزى وكبار المصريين سكوت لا يردون تهمة من هذه التهم بمقال هنا وهناك ، وخاصة هؤلاء الكبار الذين لكلامهم وزن فى دوائر الإنجليز ، فنشرت مقالا حملت عليهم قالت فيه « بل ما هذا السكوت وما هذا الإهمال وفى مصر كتاب عقلاء وباحثون فضلاء وعلماء وجهاء إذا قالوا احترم قولهم وإذا نطقوا سمعت كلمتهم فما لنا لا نرى لواحد منهم مبحثاً فى أمر خطير ولا نقرأ لوجيه منهم كلمة فى دفع فرية أو تقرير حقيقة

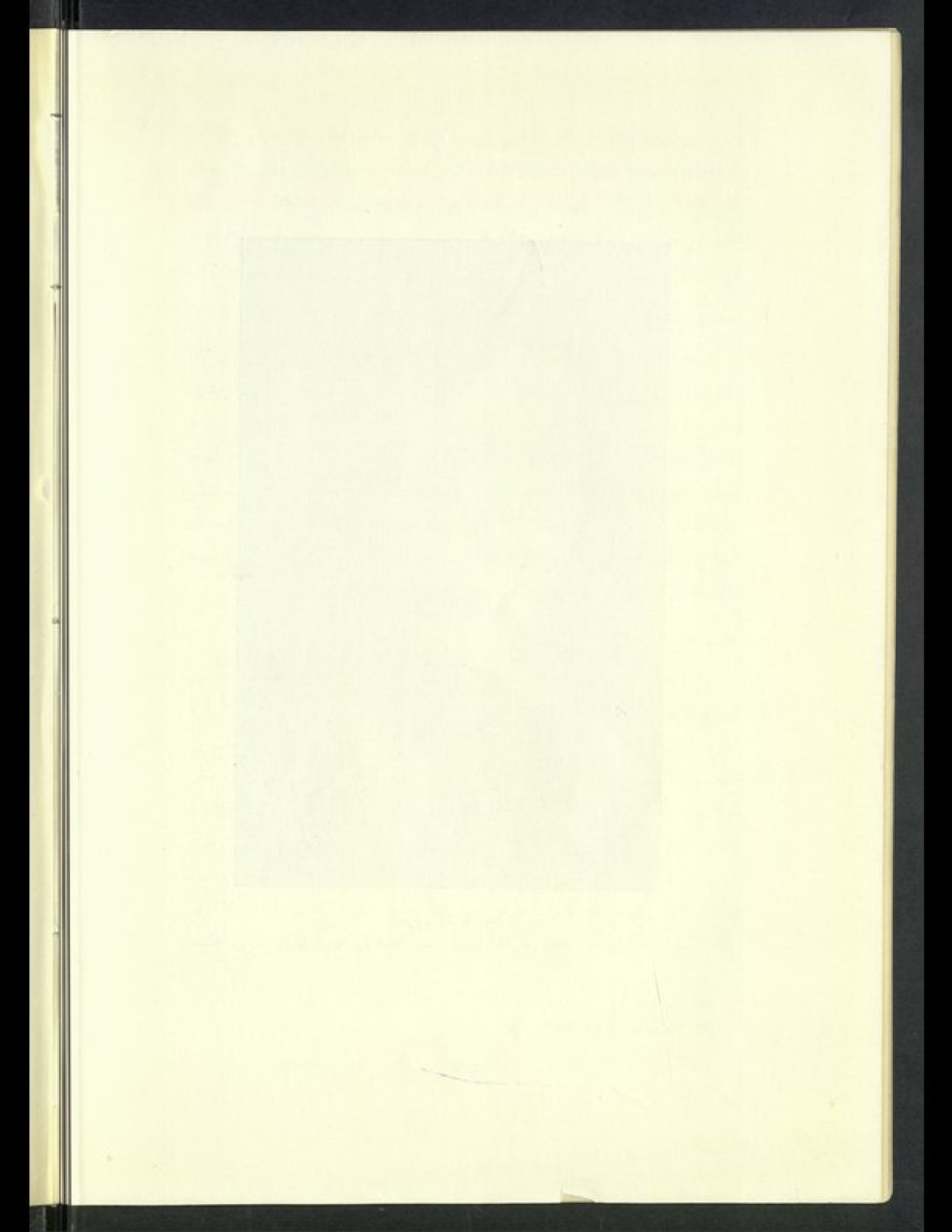
(١) الأهرام فى ٢٧ يونيه ١٩٠٦

(٢) الأهرام فى ٢٩ يونيه ١٩٠٦

(٣) الأهرام فى ٣٠ يونيه ١٩٠٦



حرم بشارة تقلا باشا



وتتى تهمة أو وعظ وإرشاد . فإذا هم ترفعوا عن الصحافة ألا يرون أن الصحافة هى مرآة الأمة كلها وهى دليل عليهم هم ذاتهم . أما قرأوا فى محاضر جلسات البرلمان الإنكليزى أن بعض النواب قرأ الجرائد العربية استشهاداً بها على حالة مصر وحادثة دنشواى ؟ بل كيف يترفعون عن الصحافة وهى وحدها الصوت العالى الذى يعتد به فى هذه البلاد ؟ تسقط وتعلى وتنفع إذا عقلت وتضر إذا جهلت وتعلم إذا وعظت وتروع إذا زجرت » « ألا إنا نقلب الطرف فى سكوتهم وإهمالهم فلا نجد لهم عذراً ولا نعد سكوتهم إلا ذنباً إلى أمتهم وأنفسهم ... » (١) ثم أخذت فى مواقف أخرى ترد اتهامات الصحف الإنجليزية والإيطالية وغيرها من الصحف الأوربية وتدفع عن مصر تهم التعصب ، وتؤكد أن كلمة (مصر للمصريين) لا تعنى تعصباً من أحد بل تعنى أن البلاد المصرية يجب أن تكون لأصحابها من المواطنين المصريين ، ولم تقصر شرف الدفاع على نفسها وحدها بل أفسحت صدرها لكثير من الكتاب والقراء لينافسوا فى هذا الميدان(٢) .

استغلال الإنجليز لحادثة دنشواى

وترتب على حادثة دنشواى أن أطلق الإنجليز دعاتهم فى كل مكان من المعمورة يزعمون أن تلك الحادثة مصدرها التعصب من المسلمين ضد المسيحيين ، حتى إن الوزير إدوارد جراى أعلن مستنداً على تقارير سرية من كرومر أن هذا التعصب حقيقة فى مصر، فكتبت الأهرام ساخرة « وكيف تكون — تقصد أن تقارير كرومر كاذبة — عن أمة عددها عشرة ملايين بينها نحو مليونين من الناس يؤاكلونها ويعاشرونها ويمتزجون بها امتزاجاً تاماً لا فرق معه بين امتزاج المسلم بالمسلم بل قد يبوح المسلم لأخيه المسيحى بأكثر مما يبوح به لأخيه المسلم ذاته كما يعرف كل واحد منا . . . . »(٣) .

مطالبتها بالعفو عن المسجونين

وبعد سنة من صدور حكم المحكمة المخصوصة بدأت الأهرام والصحف الوطنية المعاصرة تطالب بالعفو عن (سجناء دنشواى) وقصدت الأهرام فى حديثها المعتمد البريطانى الجديد السير جورست . فذكرت هؤلاء المساجين الذين قضى عليهم الحكم الفادح بما قضى ، مبينة ما انطوى عليه الحكم من الظلم البغيض ، معلنة أن « الأمة كلها قد سجلت

(١) الأهرام فى ١٨ يوليه ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ١٩ يوليه ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ٢٠ يوليه ١٩٠٦

على الإنكليز القسوة أفلا يجدر بالإنكليز أن يمحوا تلك القسوة بالمرحمة ؟ وللإنكليز فى البلاد المقدرة أفلا يجدر بهم أن يتجملوا بالعفو؟ ورأينا فى عملهم مخاشنة أفلا يجب عليهم أن يعمدوا إلى المجاملة[1] ثم أخذت تنشر بعد ذلك مطالب الوطنيين برقاً وبريداً وكلها ترجو العفو عن ضحايا دنشواى[2] .

ومضت الأهرام – مع صحف الحزب الوطنى – تطالب بالإفراج يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر حتى تقرر العفو ، فنشرت الخبر فى مقال افتتاحى على نهرين بعنوان « العفو الخديوى عن سجناء حادثة دنشواى » ، هللت فى المقال لهذا العفو الكريم ، وتحدثت بعد ذلك عن هذا الاتهام الدنىء ، اتهام المصريين بالتعصب ، ثم حملت على كرومر وسياسته العنيفة ، وسخرت سخرية لاذعة من السياسة الجديدة التى جاء بها جورست ، وناقشت واجب المسئولين فى إصلاح المجالس الدستورية ، وهاجمت الإنجليز فى مصر الذين لا يريدون كلمة إلى جانب كلمتهم وهم العاملون فى كل فرصة على محو « السلطة الشرعية ليقيموا سلطة لا تستطيع أن تسير بالبلاد خطوة واحدة إلى الأمام »[3].

العفو الحلو المر

وازدحمت محليات الأهرام بأخبار العفو وشعور عامة الناس وتقديرهم لهذا العمل ، وبما أثاره فى نفوسهم من ذكريات ، غير أنه فى زحمة الفرح والابتهاج رأت الأهرام أن العفو قد شابه العلقم فكتبت مقالا بديعاً حقاً بعنوان « العفو الحلو المر » ذلك أن العفو الذى صدر خاصاً بسجناء دنشواى جاءت فيه عبارة « وبناء على قبول الحكومة الإنكليزية » فهذه العبارة هى التى أوحت بذلك المقال البديع الممتع حيث قالت الأهرام « وبعد مرور هذه الحلاوة . حلاوة العفو فى حلق الأمة ، جاءت المرارة ، مرارة السياسة التى ما دخلت أمراً إلا لإفساده ، وما امتزجت بعمل إلا لإمراره ، وكأنما الاحتلال عاهد هذه البلاد على أنه لا يفعل فعلا نقياً من التزييف ولا يأتى أمراً – ولو كان العدل والإنصاف – سليما من المآرب ، فهو سمح بالعفو لا رحمة بل ليتخلص من مسألة علقت بعنقه . . . »

ثم تقول تعقيباً على أن الإنجليز شرطوا الموافقة على العفو بأن يعلن ذلك على الملأ

---

(١) الأهرام فى ٢٩ يونيه ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى أول يوليه ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ٣ يناير ١٩٠٨

« فخالفوا بذلك القانون الأساسى للقطر المصرى ، وخالفوا الركن الأول من أركان حقوق الإمارة المحفوظ لها حق العفو والإنعام . . . » . فإذا فرغت من مناقشتها الموضوعية لتشبث الإنجليز بذكر موافقتهم على العفو الخديوى ، وجهت اللوم إلى الوزارة « إلا أننا نتخطى الآن هذه الاعتبارات لنوجه نظرنا إلى موقف الوزارة تجاه أميرها وتجاه القانون الأساسى للبلاد . فقد عهدنا كل وزارة تحافظ على أحكام القانون الأساسى تجاه الملك وتجاه سواه من الدول والحكام وأفراد الأمة ، فهى الوازعة فى الرغبة وهى القيمة على ذلك القانون فهل فعلت وزارتنا ذلك فى كل تاريخها ولو مرة واحدة » ثم تستبعد منها هذا الموقف الكريم أو تلك المواقف المشرفة قائلة : « أليست هى الوزارة التى تتناسى أن للبلاد قانوناً أساسياً وعهودا ومواثيق دولية فلا تذكر إلا أنها وضعت فى مناصبها لتوافق الإنكليز على كل ما يطلبون منها ؟ » .

وتبكت صحيفتنا الوزارة التى هاجت وماجت حين عفا الخديو عن أحد السودانيين دون علم ناظر الحقانية ، محتجة فى هياجها بأن عمل الخديو فيه افتئات على المسئولية الوزارية ، فأين المسئولية الوزارية التى احتجبت حين اعتدى الإنجليز على القانون الأساسى وجعلوا العفو عن مسجونى دنشواى مشروطاً بموافقتهم ؟

ثم تذكر الجريدة أنه لن يكون هناك وزن لشكواها ما لم تحس الحكومة أو النظارة المصرية أنها المسئولة أمام مجلس نيابى صحيح ، ولو أن مجلس الشورى قادر بحاله الناقص على أن يشعر الحكومة بوجود رأى عام نابه يحسب حسابه لما وقف الإنجليز هذا الموقف قائلة « إن كل من حبس هذا المجلس عن التقدم مجرم إلى أمته مذنب إلى وطنه وحكومته »(١).

أثر مقالات الأهرام

وكان لمقالة الأهرام تلك التى نقلنا هنا بعض فقراتها ، ولغيرها من مقالات الحزب الوطنى أثر فى نفسية رجال الاحتلال والناطقين باسمهم ، حتى دار الهمس بأن الإنجليز إنما أصروا على موافقتهم حتى يشعروا المصريين بأنهم نادمون على قسوة الحكم .

وختمت الأهرام كفاحها فى هذه القضية التى بسطنا حوادثها وتفاصيلها كدليل على ظلم الإنجليز المادى وكفاية صحيفتنا فى كفاحها للاحتلال وقسوته ، ختمت هذا الكفاح بملحق خاص من الورق الأبيض نشرت فيه قصائد أئمة الشعر فى موضوع دنشواى بمناسبة الإفراج عن مسجونيها ، وهم شعراء الجيل إسماعيل صبرى باشا وأحمد شوقى بك وحافظ

(١) الأهرام فى ١٠ يناير ١٩٠٨

إبراهيم بك[1] . فكانت صفحة للأهرام فى أحدى حوادثنا الوطنية حسبت لها فى قائمة الشرف والجهاد .

المسالمة فى الحق استسلام

ثم تختلف الأهرام حتى مع أصدقائها الذين أفسحت لهم صدرها منذ نشأتها إذا سالموا الاحتلال أو ظنوا فيه الخير . فكانت تعتبر المسالمة « استسلاما » . وقد انتهزت فرصة صدور كتاب عن (مصر الحديثة) وفيه فصل للأستاذ الإمام تحدث فيه عن سياسة الاحتلال فى مصر ، وكله نقد لاذع لتلك السياسة . وقد ختمت الأهرام هذا الفصل الذى نشرته بقولها « ذلك رأى الرجل الذى يلقبه كتاب المسلمين بحكيم الأمة فلينعم قراء الأهرام النظر فى كلامه ليعرفوا أنهم يطالعون مقالة من مقالات الأهرام فى قتل الاحتلال للتعليم وفى حفره هاوية بينه وبين الأمة المصرية ، بل فليقرأ المحتلون هذا الكلام ليعرفوا أن كل العقلاء على رأى واحد فى سياستهم »[2] .

دعوتها المصريين إلى الاتحاد

وفى مطالع القرن العشرين رأت الأهرام الخلاف قد دب بين المصريين وتوزعوا أحزاباً وشيعاً ، وآلمها أن تتفرق القوى الوطنية فى وقت تهيأت فيه العقول والمدارك ليكون زفيرها خطراً يهز كيان الاحتلال[3] ، وفى ذلك كتبت المقالات المختلفة من أقلام كتابها أو من قرائها ، فيها العبرة والمثل ، وكانت تأخذ العبرة من الإنجليز أنفسهم فنشرت بعنوان (مثال الاتحاد) فصلا بمناسبة الاستقبال الكبير الذى استقبل فيه الإنجليز عميدهم كرومر على محطة مصر قالت فيه : « تعلموا أيها الناس كيف يكون الاتحاد والوئام والتساند والتعاضد والتآزر فى المنافع والمرافق. تعلموا كيف يلتف المرءوس على رئيسه وكيف يسند الصغير الكبير وكيف يستند الكبير إلى الصغير . تعلموا أن التنافر والخلاف والخصام جائز فى كل الأمور إلا فيما يكون من ورائه خدمة الأمة والمرافق العامة » . ثم تبين للمصريين المغزى من استقبال الإنجليز لعميدهم موضحة السياسة الإنجليزية خارج إنكلترا ، تلك السياسة التى جعلت « الإنكليز أولئك الأقوام الذين تعرفهم بجاههم ومجدهم وبسطة ملكهم وعظمتهم . . . فصار الاثنان والأربعون مليوناً كأنهم

(١) الأهرام فى ٧ فبراير ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى أوائل عام ١٩٠٦ وشهر مايو ١٩٠٦ خاصة
(٣) الأهرام فى ٢٢ سبتمبر ١٩٠٧ و ٢ أكتوبر ١٩٠٧

رجل واحد جبار لا ترد له كلمة ولا تقوى على الوقوف فى وجهه قوة . . . »[1]

وتدعو المصريين ليتعاونوا على ملاقاة « كرومر » ممثل الاحتلال والعدو المشترك ، وتطلب إليهم أن يكتبوا ويخطبوا ولا يفوتوا فرصة يهاجمون فيها الاحتلال وعميده ، وقد بلغت عداوة الخديو والحزب الوطنى والأهرام للورد كرومر ذروتها فى سنة ١٩٠٧ ، فلم يكن هناك تعاون بين الولى الشرعى وبين كرومر ذى السلطة الفعلية ، وكان مصطفى كامل من ناحيته يقوض فى كل يوم جانباً من سلطان الرجل بما كتب وخطب فى مصر وانجلترا وفرنسا مستغلا حادثة دنشواى وغيرها من الحوادث ، والأهرام من ناحيتها تحرج فى كل عدد سياسة الإنجليز وتحمل فى عنف على أساليب كرومر . وتهاجم الصحافة الإنجليزية وتنشر احتجاجات المواطنين فى كثير من المواقف والأحداث[2] وكانت الأهرام فى مقالاتها تسند مصطفى كامل فى كفاحه ضد كرومر ، ولها فى ذلك المقالات الطويلة والقصيرة.

سقوط اللورد كرومر

وتحرج موقف اللورد كرومر ، وقامت قيامة دعاته فى صحف مصر وانجلترا تدافع عنه وتهاجم المصريين وتعدد مساوئهم وأفضال الرجل عليهم ، وقالت الأهرام قولا بديعاً فى الرد عليها مرة بعد مرة ، ومن أجمل مقالاتها التى جاءت فى هذا الباب مقال لها بعنوان (رمتنى بدائها وانسلت)[3]. وهو مقال دقيق استغرق جزءاً ملحوظاً من أنهر الصحيفة ، وشغل جانباً من اهتمام الكاتب الذى عالج الموضوع بعنف وشدة .

وما كاد الأسبوع يطوى على مقال (رمتنى بدائها وانسلت) حتى سقط كرومر وقبل استعفاؤه ، وتلقفته الأهرام مشيعة الرجل التشييع اللائق به ، ذاكرة مساوئه فى مقال افتتاحى ذى اكليشيه بعنوان (استعفاء اللورد كرومر) ، قالت فى بعض فقراته : « فإذا اعتبرنا اللورد كرومر فى سياسة ماليتنا بناء بارعاً وجريئاً مقداماً فإنا نعتبره فى سياسة إدارتنا المصرية هداماً بطاشاً أو جباراً دكاكاً . هدم السودان المصرى فبناه سوداناً إنكليزياً وهدم الوزارة المصرية فبناها استشارة إنكليزية ، ودك أسس عابدين ليبنى قصر الدوبارة ، ومحا صندوق الدين ليشيد على أركانه البنك الأهلى . وفرق أسطول مصر ليكون لمصر الأسطول الإنكليزى أو بالأحرى لتكون مصر لذلك الأسطول »[4].

---

(١) الأهرام فى ١٨ أكتوبر ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ٢٨ مارس ١٩٠٧
(٣) الأهرام فى ٣ أبريل ١٩٠٧
(٤) الأهرام فى ١٢ أبريل ١٩٠٧

ولم تترك الأهرام صغيرة أو كبيرة من سوءات العميد الإنجليزى إلا وأحصتها عليه فى ذلك المقال ، وأبت فى أعداد أخرى إلا أن تنقد هذه الطريقة السخيفة التى يتبعونها فى تكريم اللورد كرومر ، ويكلفون فيها الناس فوق طاقتهم ومقدورهم[١]. فإذا اجتمع المعجبون بكرومر من علية القوم ورجال الحكم وأصدقائه مصريين وأجانب لتكريمه فى دار الأوبرا ، لم تبخل بنشر وصف الحفلة مطولا وما قيل فيها من خطب ، ثم أخذت تنقد فى يومين متتاليين الخطب التى ألقيت[٢] ، وتبين أثر خطبة كرومر فى نفوس السكان سواء منهم الأجانب أو المسلمون أو الطوائف الأخرى[٣].

واجب المصريين إزاء العهد الجديد

فإذا فرغت من كرومر ومصرعه ، توجهت إلى (عقلاء مصر) بكلمة دعت فيها إلى توحيد الصفوف بمناسبة العهد الإنجليزى الجديد ، فإن الاحتلال سوأ سمعة مصر مرة بالتعصب أو بكراهة أصحاب الأموال ، ومرة بالتحفز للثورة والقضاء على الحضارة فى مصر « فمثل هذه الحال لا يطيق عليها العقلاء صبرا فهم إذا كانوا يكرهون الاحتلال ككل أمة يحتل أرضها أجنبى فهم يريدون موالاة الإنكليز بالأعمال حباً بنفع بلادهم وجر الخير عليها على شرط ألا تكون الموالاة فى نظر الإنكليز أن يستميتوا فلا ينطقون بطلب إصلاح ولا يشارك واحد منهم الرؤساء الإنكليز فى الأعمال وأن يكونوا غرباء فى أرضهم وبلادهم . ذلك هو الأساس الأول فى مطالب المصريين لا يمتزج بالتمرد ولا يخالطه الهياج والعصيان والتعصب كما يزعم خصومهم . وعن هذا الأساس يتفرع طلبهم للتوسيع فى سلطة الشورى والجمعية العمومية ، فإذا لم يكن هذا التوسيع بالغا حد الدستور التام فلا أقل من أن يخطو خطوة فى هذا السبيل »[٤].

عميد الاحتلال الجديد

وهى تحذر المصريين من أن يذهب بهم التفاؤل شتى المذاهب ، وتذكر لهم أن للإنجليز سياسة واحدة وإن اختلفت أشكال منفذيها وصورهم ، وأن الفروق لن تتعدى

---

(١) الأهرام فى ٢٣ أبريل ١٩٠٧
(٢) الأهرام فى ٧ مايو ١٩٠٧
(٣) الأهرام فى ٨ مايو ١٩٠٧
(٤) الأهرام فى ١١ مايو ١٩٠٧

المظاهر والأساليب « فقد يكون السير غورست ألين ملمساً وأنعم يداً ولكنه لا يكون أقل إنكليزية من سلفه » وأن جورست هذا قد يلهينا ببعض التوافه ويشغلنا بالعرض « فلا نخدعن أنفسنا بالأباطيل ولنفهم الحقيقة ولنغير مما بأنفسنا حتى يغير الله ما نحن فيه . فإذا توصل مصريو الغد إلى أن يكونوا غير مصريي اليوم فإن إنكليز الغد يكونون غير إنكليز اليوم »(١)

خير خلف لخير سلف

وأيدت الحوادث حدس الأهرام فإذا العميد الإنجليزى الجديد لا يختلف عن سلفه من بعيد أو قريب ، فقد اختط خطة أكثر عنفاً من كرومر فى القضاء على غير ما هو إنجليزى وإن اتصل ذلك بدور العلم وحرماته ، فأوعز بعزل ناظر مدرسة الحقوق ، وهو فرنسى له فى قلوب تلاميذه مكانة ملحوظة ، وهبت الأهرام تكشف عن إصبع الإنجليز ، وانتهزتها فرصة وحملت على (الاتفاق الودى) الذى خسرت به مصر وخسرت به فرنسا مكانتها العظيمة فى مصر ، وبينت صحيفتنا أن كراهية الإنجليز لناظر الحقوق الفرنسى مصدرها أن الرجل يشرب تلاميذه على يديه « روحاً وطنية غير إنكليزية ومبادئ غير احتلالية ، وليس ذلك مراد الإنكليز من تعلم المصريين بل إن المراد من تعليمهم أن يصاغوا خدمة للدواوين وأن يكون قائماً فى ذهنهم أن فى مصر أسياداً هم الإنكليز لا راد لما يقولون ولا ناقض لما يبرمون ، وذلك سر العنت الذى لقيه الموسيو لمبير الذى نسى إلا أنه عالم يريد أن يتعلم المصريون على يديه »(٢) .

جورست هو كرومر

وبالرغم من أن مظاهر الاحتلال فى عهد جورست كانت أقل وضوحاً من عهد كرومر إلا أن الأهرام لم تعتقد يوماً أن السياسة الاحتلالية أو السياسة الإنجليزية قد أصابها شىء من التغيير . وهى دائبة على نشر الروايات والأخبار التى تؤكد اعتقادها هذا . فهى تكتب ناقدة فضائح الاحتلال ونكباته التى صبها على مصر فى عهد العميد الجديد ، فتراها تربط بين (عهد الربا وعهد الاحتلال) وتدلل على الفوضى المالية فى البلاد التى كان من نتيجتها عودة الربا بشكل ملحوظ ، وتأثير ذلك الربا فى حياة الفلاح المصرى « وعادت تلك الأيام التى يلقبونها بأيام النهب والسلب وهم لا يحركون للافاة شرها يدا ولدفع غائلتها

(١) الأهرام فى ١٦ مايو ١٩٠٧
(٢) الأهرام فى ٢٨ يونيه ١٩٠٧

قلنا »[1] وتؤكد أنها سياسة مرسومة من الاحتلال القصد منها صرف المصريين عن مثلهم العليا بالكفاح فى سبيل العيش الرخيص .

والذين يطالعون الأهرام منذ صدرت فى القاهرة فى أواخر سنة ١٨٩٩ إلى قيام الحرب العظمى الأولى يلحظون أن يوماً واحداً من أيامها لم يخل من حملة رائعة مروعة على الإنجليز أو أذنابهم أو أصدقائهم هنا وهناك . حتى إن المؤرخ إذا أراد أن يسجل سوءات الاحتلال فى اتزان لا يشوبه ظلم أو مبالغة . يستطيع أن ينقل عن الأهرام فى اطمئنان إلى سلامة تاريخه من النقد أو التجريح . انظر إليها وهى تسجل سوءات كرومر حين نشر كتابه عن مصر . إنها تنقد الكتاب فتعرض فى خلال شهر نقداً لكل ما صنعه كرومر فى مصر من متاعب لحياة المصريين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .[2] .

وهى تؤرخ بتسجيلها للحوادث والأحداث تلك الفترة من حياة المصريين ، فنجدها تكتب عن الخديو والدستور[3] فى زاوية ، وفى زاوية أخرى تنشر مقالا بديعاً تحلل فيه سلطة المستشارين الإنجليز وسلطة النظار المصريين الذين يبصمون على ما يراه المستشارون[4] أو تتحدث فى موضع آخر عن سلطة هؤلاء المستشارين التى يجب أن تزول لترى الحياة المصرية السياسية طريقها نحو النور[5] . ثم إذا اشتدت الأزمة المالية ألقت أسباب الأزمة كلها على الإنجليز فهم « اليد الخفية فى إفقار البلاد[6] » وإن من أغراضهم أن يصيبها الإملاق ويقضى على سمعتها المالية حتى يستطيع الاحتلال أن يمرح فى هدوء واستقرار .

التاريخ والمنطق سندا الأهرام

والجميل الذى يحمده مؤرخ الصحافة المصرية للأهرام أنها لم تعالج موضوعاً سياسياً أو تناقش عمداء الإنجليز ووزراءهم إلا والعلم والتاريخ والمنطق سندها ، فإذا تحدث كرومر إلى الصحف بأن المصريين « ليسوا أمة ذات كيان ووجود قائم بنفسه حتى تعاملهم إنكلترا معاملة أمة »[7] ناقشت هذا الرأى الفطير مستمدة فكرتها وحجتها من سلامة الدين الإسلامى الذى هاجمه كرومر ، مبينة فى غير موضع مكانة مصر الدولية منذ القدم ،

(١) الأهرام فى ١٨ يناير ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى شهر مارس ١٩٠٨
(٣) الأهرام فى ٤ أبريل ١٩٠٨
(٤) الأهرام فى ٦ أبريل ١٩٠٨
(٥) الأهرام فى ٨ أبريل ١٩٠٨
(٦) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٩٠٨
(٧) الأهرام فى ٢٥ أبريل ١٩٠٨

مشيرة إلى حضارتها الحديثة وكيانها المدعم وتقدمها على كثير من دول أوربا المستقلة التي لا يحتلها محتل ، إلى آخر ما عندها من حقائق ومستندات . ثم تحمل على « النجاح الباهر في سياسة غورست » الذي يزعمونه له نتيجة أدبه الجم وتأدبه في لقاء المصريين « فللأمة مطالب إذا اقترن بإجابتها اللين والتأدب كان ذلك اللين وذلك التأدب محموداً ، أما إذا كان كل ما يمنح للمصريين مقابلتهم باللين فقد وهم السير غورست مع الواهمين وأخطأ مع المخطئين . فالمصريون أمة تشعر وتريد لا آلة تحرك للشكوى »(١) نعم إنها منذ حديث كرومر وهي تعيد في صفحاتها وتكرر أن المصريين أمة لها حقوق الأمم الحرة الجديرة بأن يكون لها في الحياة نصيب .

زيارة الخديو للندن

كان من سياسة الوفاق التي بنى دعامتها غورست أن يحدث تقارب بين القصرين ، قصر عابدين حيث ينزل الخديو ، وقصر الدوبارة حيث يربض العميد البريطاني ، ومن آيات هذا التقارب في وجهات النظر أن يزور الخديو عباس الثاني عاصمة الإنجليز ، وقد تم هذا في صيف سنة ١٩٠٨ واستقبلت الصحف الإنجليزية خديو مصر استقبالاً حسناً ، إلا أنها ذكرت في معرض الحفاوة به أنه صديق لإنجلترا وقد استطاع أن يصرف الشعور الوطني عن مكافحة الاحتلال بالثورة والهياج .

وقد روعت هذه الأحاديث الصحفية جريدة الأهرام ، ومن سياسة الأهرام منذ نشأتها إلى اليوم تقدير البيت المالك وتأييده في سعيه إلى سعادة الشعب المصري ، فعزت عليها روايات الصحف الإنجليزية عن الخديو وموقفه من شعبه ، بيد أنها لم تأخذ بالنقد أحداً غير الإنجليز ، فهبت تدافع عن النهضة المصرية التي قالت صحف إنجلترا إنها ثورة « . . . وليسموها ثورة ونحن لا نسفك دماء ولا نخرب بيتاً . وليسموها هياجاً ونحن لا نهين أحداً ولا نناهض أحداً ، وليسموها بما شاءوا من الأسماء . وليقاوموها بما شاءوا من القوات ، فإن الشرق سائر إلى التقدم ، سائر إلى الحضارة ، سائر إلى العمران ، سائر إلى الاستقلال رغم كل معارض ورغم كل قيل وقال »(٢) . ثم أخذت تفند أقوال تلك الصحف وتهلهل رأيها في الخديو الذي زعمته صديقاً للاحتلال .

---

(١) الأهرام في ٧ مايو ١٩٠٨

(٢) الأهرام في ٢٤ يونيه ١٩٠٨

علمان فوق قصر

ثم ينزل بعد شهور « الدوق دى كنوت » قصر عابدين ضيفاً ليستعرض قوات الاحتلال ، وينشر كاتب الأهرام تحت اسم « هيّ بن بيّ » وهو اسم مستعار . ينقد العلم الإنجليزى إلى جانب العلم المصرى فوق عابدين بمقال افتتاحى بعنوان (علمان فوق قصر هل سمعت بقلبين ينبضان فى صدر ؟) ، يذكر فيه مكانة قصر عابدين فى قلوب المصريين ، ثم يقول : « فيقتسم العلمان أنظارنا ويتنازع الهلال والأسد مرأى أبصارنا . ويقرع المنظر العين فيهبط الأثر إلى القلب فتعرف أن هناك فى عابدين، مقر الإمارة ومرقد الأريكة ، غريباً تأبى الطباع أن تألفه . وأجنبياً يدفعنا دافع من نبض العرق وجرى الدم ولحظ العين واختلاج الصدر أن ننكره ». ثم يمضى (هى بن بى) فى مقاله الممتع : « فليقولوا فى الاحتلال ما شاءوا وليعزوا إليه من الحسنات ما أرادوا . فإنه لا يخرج عن أنه اغتصاب لحكم البلاد من أيدى أبناء البلاد . . . » [1]

الاحتلال والفلاح المصرى

ثم تحمل على الحكومة والاحتلال اللذين سمحا بأن يبيع الفلاح أرضه « فيصير مسخراً فى حرث أرضه وزرع طينه لغيره من أصحاب الأموال . . . فإن الخطر داهم والأمر عصيب . ولكن أشد ما فى هذا الخطر — كما قال لنا أمس أحد الأساتذة الاقتصاديين — أن مجموع الشعب المصرى غافل عن هذه الحال كأنه لا يشعر بالخطر . ومجموع صحفه منصرف عن درس الحالة الاقتصادية إلى ما لا يجدى نفعاً من سياسة الصين وأميال القفقاس » ! ثم تنتهى إلى أن حالة « مصر الآن محفوفة بالخطر ولا يرى هذا الخطر لسوء الحظ مجموع الشعب المصرى . والواجب أن يعجل بإنشاء النقابات علها تكون مدارس للأمة وإلا فكل دواء لا ينفع وكل كلام لا يسمع . وإذا أخر البنك الزراعى مطالبه الآن فهل هو يعدل عن تحصيل أمواله غداً » [2]. والأهرام تلقى التبعة فى هذا كله على الاحتلال « فإن بنيان المصالح والدوائر واللوائح والنظامات التى اشتغل بها الاحتلال ٢٨ سنة كاملة متداع للسقوط أو ساقط على نفسه . فكل ما هو موجود غير صالح للبقاء وكل مصالح البلاد وشؤونها تطلب بناء نظامات جديدة ولوائح حديثة [3] » . وإذا

(١) الأهرام فى ١٥ يناير ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ١٩ فبراير ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ٧ أبريل ١٩١٠

هى هاجمت الاحتلال فإنها لا تعفى الوزارة من المسئولية فى مثل هذه الشئون ، ونحن لسنا ممن يذهبون مذهب القائلين بذهاب كل نفوذ وكل كلمة للوزارة وحصر كل سلطة بين المستشارين . فإن وزراءنا على ما نوقن لا يكونون بل لن يكونوا آلات بيد المحتلين ، وإذا هم سالموا فإنهم لا يستسلمون . . . »[1]. ثم ذهبت ترحب بزيارة النظار للأقاليم ، وتعتبر هذه الزيارات سياسة محمودة لأن « الأمة عرفت أن لها وزارة منها تهتم بأمرها »[2] ومن قبل كانت الزيارات وقفاً على العميد الإنجليزى وعيونه من المستشارين ، ولا يعنى هذا أن الأهرام ذهبت إلى تأييد الوزارة المصرية فى تصرفاتها وإن حمدت لها أحياناً مواقفها الطيبة ، غير أنها كثيراً ما عنفتها فى نقدها بأقسى مما كانت تقوله فى الاحتلال[3]

الذكرى الأليمة

وتنتهز الأهرام يوم ١٤ سبتمبر فرصة ، وهو يوم وقوع احتلال الإنجليز لمصر فتؤرخ للمصائب التى نزلت بمصر منذ وقع هذا الاحتلال فى سنة ١٨٨٢ وتطلب إلى كل مصرى أن يذكر اليوم أنه « لا يحتل بلده احتلال واحد بل احتلالات متعددة . من أموال وحرف وصنائع وفنون حتى أفران الخبازين وطبخ الطهاة والطباخين[4] » . ويضرب على هذا الوتر (هى بن بى) فى مقالات متتابعة يشير فيها إلى أنف الاحتلال فى كل مكان ويكشف عن أدواته هنا وهناك[5] .

وإذا تخلف (هىّ بن بىّ) عن مقالاته بعنوان (ماذا رأيت) قرأنا مقالات فى صدر الأهرام وفى محلياتها ، فيها النقد المر المتصل لسياسة الإنجليز وخاصة سياسة جورست معتمدهم فى مصر ، وقد دأبت على مهاجمته وكشف دخائل سياسته وإعلان نواياه السيئة نحو مصر فى أكثر من عدد ، وكأنها رسمت سياسة لتقويض سلطانه حتى أعلن البرق استقالته من منصبه ، فكتبت عنه مقالا بعنوان (خلف غورست) سجلت فيه تحليلا بديعاً لسياسة العميد المستقيل ، وهى تقارن بينه وبين كرومر قائلة : « أما الشعب المصرى — وهو غير الحاكمين — فرأيه فى الاثنين واحد . وسخطه على سياسة غورست كان أكبر وأشد منه على سياسة كرومر . لأن كرومر عطل قانون المطبوعات

(١) الأهرام فى ٢٠ يوليو ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ٢٩ أغسطس ١٩١٠
(٣) الأهرام فى سنة ١٩١١
(٤) الأهرام فى ١٤ سبتمبر ١٩١٠
(٥) الأهرام فى ١٩ نوفمبر ١٩١١

وغورست أعاده . وكرومر ترك الشعب وشأنه يفعل ما يريد . وغورست فرق بين الطوائف وأثار كوامن الأحقاد . وكرومر حصر همه فى استمالة الشعب وغورست حصر همه باستمالة الحاكمين . وكرومر كان يرى من مفاخره حفر مصرف جديد وترعة نافعة وغورست كان يرى من مفاخره أن يكم أفواه الخطباء والكتاب وأن يقتل الحركة الوطنية فى أفحوصها . وكلاهما كان يعمل لتأييد الاحتلال والاستزادة من السلطة . إلا أن عصر كرومر كان عصر عمل واستبداد وعصر غورست كان عصر تعطيل مقرون بالدسائس »[1] .

ومن يطالع هذا الرأى فى التاريخ للعميدين الإنجليزيين ير الصدق سمته الواضحة ، فإن صحيفتنا رسمت صورة لكل منهما لا يستطيع التاريخ أن يأتى بأجمل منها ، ولم تغمط لكرومر حقاً . ولم تحمل جورست وزرا من عندها فوق أوزاره المأثورة عن أيامه فى مصر .

وبمثل ما نصحت يوم إقالة كرومر وتعيين جورست أخذت تنصح المصريين بمناسبة تعيين كتشنر ، وتدعوهم إلى التآلف والوحدة فإن الخرق بين المواطنين قد اتسع ومصر هى الخاسرة وحدها ، فإن حالتها « لو شرحت لأى سياسى من أبناء الأمم الدستورية النيابية حيث تكثر الأحزاب لدهش واستغرب وجود عدة أحزاب فى مصر تتفانى فى محاربة بعضها بعضاً فى حين أن فى البلاد خصماً واحداً يضربها كلها معاً الضربة إثر الضربة ولا فرق عنده ما هى مبادئ هذا الحزب أو مآرب ذلك بل يحسب حقوقها كلها غنيمة له » .

دعوتها إلى اتحاد الأحزاب

« فإذا لم تتوحد غايات أحزاب الأمة » أمام الإنجليز فإن الاحتلال سينال منا كل ما يطمع فيه ولن « نستغرب توسع السيطرة الإنكليزية فى مصر مع وجود النهضة الوطنية فيها واشتدادها » . ثم أخذت الأهرام تبين أن الهدف يجب أن ينحصر فى رفع السيطرة الأجنبية وتحقيق الاستقلال المنشود « فإذا كنا نريد أن نغير السياسة الوطنية كما تنوى إنكلترا أن تغير سياستها الاحتلالية وجب أن نبطل هذه الأحزاب كلها ولا نعرف لنا فى مصر إلا حزباً واحداً هو حزب الاستقلال فى مقابل حزب الاحتلال ثم نتفق فى البحث عن الطريقة المثلى لمنازلة الأمة التى تنازعنا حريتنا وحقوقنا وثروتنا » . ثم تختم مقالها بقولها « بذلك نضطر اللورد كتشنر أن يجلس فى مصر جلسة المفكر لا الضاحك ونضطر إنكلترا أن تفتح دفتر الحساب وتعده لحين يحين موعده ، وبذلك وحده لا بالتهويل

(١) الأهرام فى ٧ يوليو ١٩١١

فى الصحف والمجالس والمنابر تضطر كتشنر أن يتروى قبل أن يصر وأن يفكر قبل أن يجزم »[1] . فلا تمضى مصر فى عرف الاحتلال وعمدائه ضيعة يملكونها ولا يقدمون عن سوءاتهم فيها حساباً ، أو يصبح ناسها فى اعتقاد الإنجليز عبيداً فى عصر قضى فيه على الرق والاستعباد. ويثبت المصريون آخر الأمر وجودهم مهما تكن الظروف والأحوال .

جاء تميم عارضاً رمحه

وأخذت الصحف الإنجليزية وصحف الاحتلال العربية تهول بتعيين كتشنر وتعلن عن قوة شكيمته وتذكر بحادث الحدود الذى أرغم فيه الخديو على الاعتذار . وتقول للمواطنين إنه جندى خشن لا يعرف السياسة وإنما له سيف بتار ، والعنف طبيعة العسكريين . فلتحذر الحركة الوطنية من هذا العميد الجديد فإنه لن يأخذها بالهوادة بل سيعصف وعصفه شديد .

وردت الأهرام على ذلك كله بمقال سافر غاية فى الإقناع ، كان ينبغى نشره كله لولا ضيق المقام ، وقد نشرته فى صدرها ، وأخذ الكاتب يصور الموقف بمصرى وطنى ، من الفلاحين القرويين لم يترك قريته قط . وقد حدثوه عن زيارة المدير لقريته وصوروه له عملاقاً « حتى تخيل الباشا بالقوة أسداً . وبالصوت رعداً . وباللألأة برقاً . وبالجسم جبلاً . وبالحلم نعمة . وبالغضب نقمة . وبالقول حكمة . إذا قال للنيل غض غاض . وللجبل انخسف ساخ . وللقمر قف انحبس . وللشمس غيبى أظلمت . وللأرض سيرى أزمعت ثم رحلت » . فإذا رأى الباشا المدير وقد أقبل عليه « محدودب الظهر أصفر اللون معصفر الجلد قصير القامة ضئيلا حسيرا . . . استحلف مأذون الكفر بالطلاق ليصدقه الخبر » فإذ أكد المأذون له أن ما رأته عيناه هو الباشا المدير بلحمه ودمه قال : « كنا نظن الباشا باشا فإذا بالباشا رجل مثل الرجال أو أقل من الرجال » ؟!

ثم يعقب الكاتب على ذلك « قالوا لنا : اللورد كتشنر قادم فارتعدت أقلام وطربت أقلام . واصطكت ركب وارتجفت أيد . فهذا يذكر سيفه البتار . وذاك يذكره البطل المغوار » ، إلى أن يقول ساخراً قوى القلب عزيز النفس « بل هبه كتشنر العسكرى الفتاك فقد تقدمه فينا سيمور يدك حصون الإسكندرية ودورها ومنازلها دكاً . وولسلى يهدم معاقل التل الكبير هدماً ويمحو سطر الجيش العرابى محواً . ولكنهما بما أتياه من بطش وفتك ، لم يتجاوزوا بالجيش الجرار ، والأسطول المغطى البحار ، والمدافع المرعدة

(١) الأهرام فى ١٨ يوليو ١٩١١

الجبال فصد الأمة بطرف من أطرافها ، وظفر من أظافرها . فليقل من شاء فى كتشنر ما شاء ، وليجعلوا لهذه الكاف والتاء والشين والنون والراء من ضخامة النبرات ورجة الأصوات ما شاءوا ، فإنى لا أزيد على قولى مذ الآن بأقصر عبارة وأخف الأصوات « إن كتشنر عين قنصلا ، وإذا ما حل فى أرضنا فى آخر سبتمبر لا أزيد على قولى : وصل القنصل وهو ككل القناصل . . . الإنكليز . . . فى مصر »[1] .

فإذا جاء كتشنر إلى مصر أخذ عيون الإنجليز يرتبون له زيارات الأقاليم ، كما يصنع الخديو تماماً ، وزعم الرجل أنه إنما يقوم للزيارات حتى يتعرف حاجات الشعب ويدرس طلباته عن كثب . وكان فى استقباله رجال الحكومة فى كل إقليم . فلبثت الأهرام تنقد (زيارات اللورد كتشنر) تلك . محذرة العميد الإنجليزى بأن زياراته لا قيمة لها إذا لم يتحسس طلبات الفلاحين شخصياً ، وتطلب إليه ألا ينصت إلى ما تذيعه صحفه المأجورة من ألوان الرضاء والاطمئنان الزائفين[2] .

الجمعية التشريعية وشعور المصريين

وقبيل وقوع الحرب العظمى بشهور قليلة ، أخذ المصريون يشعرون بعض الشيء بكيانهم السياسى بعد أن أنشئت الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ – ولها حديث آخر – فقل نقد الاحتلال وحده وأشركت الأهرام فى النقد الوزارة المصرية ، فهى أيضاً قد تكونت لها شخصية معنوية تختلف عن شخصيتها منذ احتل الإنجليز مصر إلى سنة ١٩١٤ وبذلك أصبح الوزراء أكثر حرية فى تناول حياتهم الوزارية ، وكانوا أكثر مسئولية أيضاً ، وأصبحوا هدفاً للصحف الوطنية تقرعهم بالنقد إذا أخطأوا ، لذلك لقيت الوزارة السعيدية وهى وزارة محمد سعيد باشا من الأهرام حسيباً ورقيباً فى شتى الظروف والمناسبات ، حتى تحدثوا فى سقوط الوزارة فكتبت الأهرام لأول مرة تعلن للناس أن الوزارة تقليد وليست تخليداً كما صورها الاحتلال للمواطنين[3] فإذا سقطت الوزارة السعيدية فعلاً نشرت فصلا افتتاحياً تحدثت فيه عن حسنات الحكومة الساقطة وسوءاتها عبرة لمن سيقع عليه الاختيار فى تأليف الحكومة الجديدة ، وقد بينت الأهرام فى معرض الحديث أن الصحافة للحكومة بالمرصاد ، تحاسبها على أخطائها طال حكمها أو قصر[4] .

(١) الأهرام فى ٢٢ يوليو ١٩١١
(٢) الأهرام فى ٢٠ يونيو ١٩١٢
(٣) الأهرام فى ٣١ مارس ١٩١٤
(٤) الأهرام فى ٦ أبريل ١٩١٤

ثم تبين الأهرام أن تأليف الوزارة وطريقة التأليف لا يزالان على العهد بهما منذ احتل الإنجليز مصر ، فهم يتدخلون تدخلاً سافراً فى اختيار الرئيس ، ولا يزالون يتمسكون باختيار الوزراء دون النظر إلى رأى الرئيس فيهم أو موافقته على العمل معهم ، فكتبت مقالا بعنوان (حتى متى) وتقصد متى يقف الإنجليز محايدين ليختار المصريون حكامهم راضين ، وقد أعجبها موقف مصطفى فهمى باشا فى رفضه الوزارة حين طلب إليه الإنجليز تعيين وزراء بالذات ، وهى تذكر هذا الموقف بالفضل والرجل خصم لها ولقى من أقلام كتابها أقسى وألذع ما لقيه رئيس حكومة فى تاريخ مصر الحديث . (١)

وبينما الشد والجذب قائم فى تأليف الحكومة الجديدة نشرت الأهرام مقالا من النثر والشعر بعث به إليها الشيخ على الغاياتى من جنيف جعل عنوانه (الوحدة الوطنية المصرية)(٢) يطالب فيه بقيام حزب واحد يستطيع أن يهز بوحدته كيان الاحتلال ، ورحبت الأهرام بالفكرة فى تعليقها على هذا الموضوع وأطالت الحديث فيها ، وتمنت هذه الوحدة التى بغيرها يعجز المصريون عن وقف تدخل الإنجليز فى كل صغيرة وكبيرة بله إخراجهم من البلاد .

(١) الأهرام فى ٧ أبريل ١٩١٤
(٢) الأهرام فى ٨ أبريل ١٩١٤

امتياز القنال

فباويل (القنــاة) إذا احتواها بنو التــاميز وانحسر اللثام
« حافظ إبراهيم »

لم تقف خصومة الأهرام عند الاحتلال بل تجاوزتها إلى مناوأة جميع ألوان الاحتلالات الأخرى ، وفى مقدمتها الامتيازات الأجنبية التى حدت من سيادة مصر وغلت يدها فى التشريع والاقتصاد فأخرت مرافق البلاد وأساءت إلى الأمن .

فكانت الأهرام – كلما سنحت لها فرصة – تحمل على هذه الامتيازات التى « جعلت الأجانب دولة فى قلب دولة » وتولت حماية الأشرار والعابثين بالأمن من الأجانب[1].

وقد دأبت الأهرام على معالجة شؤون هذه الامتيازات حتى إذا كانت سنة ١٩١٢ بدأت بحملة تطالب فيها بإلغاء المحاكم المختلطة والاكتفاء بالقضاء الوطنى المشهود له بالنزاهة والكفاءة . ولكن موقف الأهرام من هذه الامتيازات يتجلى فى حملتها الصادقة الخاصة بمسألة «مد امتياز قناة السويس » ويلخص لنا هذه المسألة أحمد شفيق باشا فى مذكراته[2] فيقول : « إن شركة القناة أحست حاجة الحكومة المصرية إلى المال ، فانتهزت الفرصة وعرضت على الحكومة أن تصرح لها بمد امتيازها أربعين سنة جديدة مقابل أربعة ملايين جنيه » .

وكان المستشار المالى والعميد الإنجليزى جورست ورئيس مجلس النظار بطرس غالى باشا موافقين على هذه الفكرة محبذين لها . فأعلنوا ترحيبهم بها وأخذت أبواقهم تمهد لتنفيذها . فهاج الرأى العام لهذا الاقتراح وعارضه من النظار سعد زغلول باشا ورشدى باشا ومحمد سعيد باشا ، كما عارضه النخبة المنتقاة من أعضاء الجمعية العمومية كمحمود سليمان باشا وعلى شعراوى باشا وأحمد يحيى باشا ، وانهالت البرقيات على الخديو بعرض الأمر

(١) الأهرام فى ١٩ مارس ١٩٠٨

(٢) مذكراتى فى نصف قرن — الجزء الثانى طبعة ١٩٣٦ ص١٨٦ وما يليها .



الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام (١٨٩٩ — ١٩٣٣)

على الجمعية العمومية ، وقامت المظاهرات تطوف الشوارع صاخبة هاتفة بسقوط الاتفاق المنشود ، ويذكر شفيق باشا أن الخديو طلب إلى رئيس النظار أن يعرض الأمر على الجمعية العمومية ووافق على ذلك بطرس باشا غالى والسر جورست ولو انه اشترط موافقة سعد زغلول أمام الجمعية على مد ذلك الامتياز .

وكان أول ما نشرته الأهرام عن هذا الموضوع نبأ هز أعصاب الناس وشغلهم بما جاء فيه « إن المباحثة بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس كادت تفضى إلى الاتفاق التام . . ولقد كانت مصر تسرّ بهذا الاتفاق لو أخذ مليون من هذه الملايين وأنفق على إنشاء المدارس حتى يستطيع أبناء مصر تلقى العلم . . . وكم نعجب لأمة تؤخذ أموالها ويتصرف الغير بشؤونها . فأنا موقن أن نظارنا لا يعرفون حتى الساعة شيئاً من أمر الاتفاق والمباحثة فيه . . . وإنا لنأمل من النظار المصريين أن يطلقوا مناصبهم إذا رءوا أن السياسة الغورستيه قد عادت إلى طرح أملاك مصر بالمزاد دون أن ينتفع المصريون بشيء من الأثمان كما كان فى قديم الزمان بل فى كل وقت وأوان » .(١)

فهل يمكن أن يزعم زاعم أن فى هذا الكلام ترويجاً للاتفاقية كما ذهب إلى ذلك خطأ المرحوم أحمد شفيق باشا فى مذكراته ؟ ولاسيما أن هذا الزعم يفنده ما تلا هذا المقال من المقالات الرائعة التى حملت بها الأهرام حملة شعواء على مشروع الاتفاق وتولت بيان ما يصيب مصر من الخسارة ، وكيف أنها تصبح ملكاً للقناة بعد أن كانت هذه ملكاً لها .

قالت فى عددها الصادر فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٠٩ « ولم نر جريدة من جرائد أوربا توخت البحث فى هذا الاتفاق من الوجهة السياسية فكلها بحث ودقق ونقب فى الوجوه المالية فقط . كأن تلك القناة التى امتلكت مصر وهى شطر من ملكها لا تهم الآن السياسيين بل الماليين . وما أصدق ما قال إسمعيل باشا يوم اختلف مع دى لسبس على القناة : إنى أخشى أن تصير مصر للقناة لا أن تظل القناة ملكاً لمصر » .

ثم تبين الأهرام الخسارة الفادحة التى تصيب مصر إذا وقعت هذا الاتفاق بقولها: « وإذا وقفنا مع صحف أوربا عند الحد المالى دون السياسى فإنا نرى الشركة رابحة والحكومة المصرية خاسرة لأنها تبيع اليوم بثلاثة ملايين جنيه القناة التى تكون ملك مصر الحلال بكل معداتها وآلاتها بعد ٥٥ سنة . وإذا كانت الحكومات تعد المشاريع للربح والغنى بعد المئات من السنين ، فإن حكومة مصر بمثل هذا البيع تخسر ما يمكن أن يكون ذات يوم مصدر ثروة ومنبع خير لها ولأبنائها »

(١) الأهرام فى ٦ أكتوبر ١٩٠٩

ثم تهاجم السير الدون جورست والإنجليز فى ختام مقالها « . . . وقد عرفنا سياسة السير الدون غورست هو ومستشار المالية على هذا النحو من الأعمال أى بيع ما يمكن بيعه والانتفاع به الآن دون النظر إلى مستقبل الأيام . هذا إذا نحن لم نقل : إنهم يتوخون من هذا البيع خدمة الإنكليز بثلاثة ملايين جنيه تنفق على السودان ويمد أجل الامتياز لأبناء التاميز الحاصلين مع حكومتهم على ٦٥ بالمئة من سهم تلك القناة »(١).

وإذا ناقشت الأهرام الخسارة التى تصيبنا من توقيع هذا الاتفاق بالأرقام والبيانات، فإن الرأى العام يريد أسلوباً آخر يتفق وإحساساته ويناشد عواطفه ، لذلك كانت الأهرام إذا خاطبت أهل العلم فى قضية القنال يوماً نشرت فى يوم آخر وفى صدرها رسالة هى أقرب إلى الأدب والشعر ، فقد كتب هىّ بن بىّ مقالا بعنوان (لو كنت بطرس باشا) يبين فيه أن لا خير فى عقد الاتفاق ولا رجاء منه ، وأنه لو كان رئيس النظار لقال للإنجليز « قفوا إنكم لن تنالوا مثل هذا معى وباسمى فليس لى بعد رئاسة النظار من مطمح أصبو إليه ومن منصب سام أطمع به ، ومن ثروة واسعة أبتغى جمعها ومن عزة رفيعة يتطاول عنق إليها . فإن كان الفخر والمجد أن يجلس الرجل الكبير العظيم على هذا الكرسى الكبير العظيم . فإن قاعدة ذلك الفخر أن ينفع ، وخلة تلك العظمة أن يفيد ، وإلا فأكبر من مجد الكرسى مجد طلاقه ، وأعظم من فخر الرئاسة فخر هجرها »

سخرية الكاتب برئيس الحكومة

ثم يستطرد الكاتب مصوراً رئيس الحكومة المصرية مواطنا عظيما يستطيع أن يقول للإنجليز « وإذا كانت القناة قد أكلت مصر ، فحقيق بمصر أن تأكل بعض دخل القناة ! إلى أن ينبت لمصر والقناة غول جديد فى السودان وبيدائه ، وأفريقيا وصحرائها ، يأكل الاثنين ويكون الإطعام بيد المصريين والحلب والدر للإنكليز دون الطاعمين . وإذا ما ألحوا بالطلب والسؤال تصامم وأنشد :

إن الثمانين وقد بلغتها   قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ذلك ما كنت أفعله لو كنت فى مسلاخ بطرس باشا ، ولعلى لو كنت على كرسيه فعلت فعله الآن ، وللكراسى نزوات ، ونزوة كرسى الصحافة غير نزوة كرسى الرئاسة بل لعل له عذراً وأنت تلوم »(٢).

---

(١) الأهرام فى ١٨ أكتوبر ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٢٧ أكتوبر ١٩٠٩

أيستطيع أن يزعم المؤرخ أن هذا الكلام الصريح يعنى الدعاية لمشروع القناة ؟ فإن الكاتب قد ذهب فى الرأى والملاحظة كما ذهب رجال الحزب الوطنى فى الرأى والتوجيه ، وإن لم يعنف عنفهم فى اللفظ والعبارة ، فقد شغل افتتاحية الأهرام بأسلوبه الأدبى الرفيع حاملاً حملة شعواء فى أول المقال على الاتفاق والموحين به ، مبيناً بالأرقام أيضاً الخسائر التى أصابت مصر فى أسهم القناة حين بيعت وفى فوائدها بعد ذلك .

وأفسحت الأهرام صدرها للمواطنين يحملون على الامتياز الجديد ، وكانت كتابات القراء غاية فى العنف والشدة ، كما أخذت تنشر أخبار اجتماعات الأعيان وأعضاء مجلس الشورى للمذاكرة فى الموضوع ، وتذكر ردود الوزراء على أسئلتهم بما وصلت إليه أخبار الاتفاق ، وتعلق عليها فى محلياتها فى شىء من السخرية [1]، ثم تنقل فى صدرها عن (اللواء) مقالات بديعة بقلم زعيم الحزب الوطنى محمد فريد بك [2].

ولم يمض يوم من الأيام التى شغل فيها مد امتياز القنال الرأى العام دون أن يكون للأهرام نصيب كبير فى الموضوع ، فأنت تفتح قلبها فإذا أنباء اجتماعات النظار وأعضاء مجلس الشورى وبرقيات الاحتجاج تستغرق صفحات الوسط ، وفى صدرها مقالات علمية ممتعة فى الموضوع ، كان من أعمقها وأدقها مقال (بيع امتياز القناة . كلمة فى أذن الوزراء وعلى مسمع من الأمة) وهو بحث بديع فى خطر هذا المد الذى يسعى إليه الإنجليز ، تحدث فيه الكاتب عن بيع المنشئات العامة بضغط الإنجليز والخسائر الفادحة التى أصابت اقتصادنا نتيجة ذلك « فلا يشك أحد إذن ولايرتاب بأن هذا البيع بخس مضر بمصلحة مصر وخزانتها أضراراً عظيمة جداً . لا يعادله إلا بيع البواخر والحياض التى استعادت منها الحكومة حوضاً واحداً فى الإسكندرية بما كانت قد أخذته من الشركة ثمناً عن الحياض كلها » ، وتعدد الافتتاحية ألوان التبديد التى ارتكبتها الحكومة بإيعاز من الإنجليز ، وهى فى نظر الأهرام حكومة جاهلة بالمبادئ الاقتصادية فهى « كالغلام المبذر الذى يقوم عليه القوام والأوصياء » ، ثم تتجه كلمة الأهرام إلى التحدث عن ظلم الأمم لنا « وما أظلم أمماً ترى حقوق أمة تؤكل فتمدح الآكل ثم تهتز غضباً باسم الإنسانية لرجل فوضوى يقتل ، إنما صدق أديب إسحق بوصفهم[3]

---

(١) الأهرام فى ٢٨ أكتوبر ١٩٠٩

(٢) الأهرام فى ٢٩ أكتوبر ١٩٠٩

(٣) أديب إسحق كاتب ألمعى عرفه عصر إسماعيل وتوفيق، وهو لبنانى ساهم فى تطور الصحافة المصرية .

قتـل امـرء فى غابـة خطيئـة لا تغتفـر
وقتـل شعب كامـل مسألـة فيهـا نظر [1]

وهكذا كان للأهرام فى كل يوم مقال ، ولم تقصر قط فى رواية أخبار مشروع مد امتياز القنال سواء كانت الأخبار لصالح المصريين أو مقلقة للرأى العام ، كما نشرت برقيات الاحتجاج ومذكرة مستشار المالية الإنجليزى التى استغرق نشرها صفحة ونهرين [2] وعرضت أيضاً للباب العالى وأخبار موقفه من هذا الموضوع ، ورحبت بانحيازه إلى وجهة النظر المصرية وإن لم يفصح عنها إفصاحاً صريحاً [3]، وطالبت الأهرام الحكومة التركية ألا تتراخى فى التدخل بما لها من امتياز حتى لا تخسر مصر نتيجة تهاونها كما خسرت فى ظروف سابقة مماثلة [4].

نشر آراء العظماء والمفكرين

ثم تأخذ الأهرام فى نشر آراء كبار الرجال ، وفى مقدمتهم الخديو ، فقد نشرت قوله بأنه رأى عرض المشروع على الجمعية العمومية لأن هذا الموضوع من الأمور المهمة ، وعندها أن هذا يعنى أنه أول خطوة فى سبيل الدستور ، وينبغى مقابل ذلك أن تتفق الأحزاب على ما فيه صالح الشعب والقيام ببحث المسائل بالتدقيق دون هوى ، فإن عرض مشروع مد امتياز القنال على ممثلى الشعب اختبار للأمة وكفاية رجالها ، ثم تتجه صحيفتنا مشجعة لأعضاء الجمعية العمومية مبصرة بواجبهم : «ولانكتم أعضاء جمعيتنا العمومية أن هناك يدا تشتغل لخلع قلوبهم بالتهديد والوعيد . فالواجب عليهم أن يعرضوا عن ذلك الكلام ، وأن يعرفوا أولا أن الملك ملكهم ، وأنه يطلب منهم الآن إبرام عقد بهذا الشأن مقابل مبلغ من المال فهل ذلك يوافق مصالحهم فإذا وجد من يعتقد بأن ذلك موافق وجب عليه أن تحدد له طرق إنفاق الأموال» [5] .

وانتقلت الأهرام من نشر حديث الخديو إلى نشر أحاديث أخرى بعضها لكبار الإنجليز الموظفين فى الحكومة المصرية [6]، ثم تنت بحديث آخر أجرته مع البرنس

(١) الأهرام فى ٣٠ أكتوبر ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٣١ أكتوبر ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٢ نوفبر ١٩٠٩
(٤) الأهرام فى ٣٠ نوفبر ١٩٠٩
(٥) الأهرام فى ٤ نوفبر ١٩٠٩
(٦) الأهرام فى ١١ نوفبر ١٩٠٩

حسين باشا[١]، كما تحدثت مع آخرين من علية القوم ، ونشرت قصيدة بديعة لحافظ إبراهيم موجهة إلى رئيس الجمعية العمومية « دولة أبي الفلاح خير الأمراء الجليل البرنس حسين باشا كامل » جاء فيها عن قناة السويس ومد امتيازها أبيات ممتعة :

حمونا ورد مـاء النيل عذبـا　　وقالـوا إنه مـوت زؤام
وما الموت الزؤام إذا عقلنـا　　سوى الشركات حل لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنـا فراحت　　بثروتنـا وأولها (الـترام)
فيا ويل (القنـاة) إذا احتواها　　بنو التاميز وانحسر اللثام
لقد بقيت من الدنيـا حطاما　　بأيدينـا وقد عز الحطـام
وقد كنـا جعلناهـا زماما　　فوالهفى إذا قطـع الزمـام[٢]

وقد استمرت الأهرام ناشرة لشتى المقالات فى كل يوم تقريباً ، واحتفظت بصدرها لهذه المقالات[٣] ، ثم أخذت منذ شهر فبراير ١٩١٠ تنشر مقالات مسلسلة بعنوان (قناة السويس) [٤] حتى ليمكن الزعم بأن تاريخ جريدة الأهرام فى ذلك الشهر ، يكاد يكون وقفاً على مسألة القنال ، ولم يمنع خبر أو حادث دون أن تعطى صحيفتنا معظم كفايتها فى بحث القضية التى شغلت الرأى العام الدولى والمصرى ، حتى مقتل بطرس باشا غالى ، أى لم يمنعها شىء من محاربة مد الامتياز [٥].

الكلمة الأخيرة للجمعية العمومية

وإذا فرغت الأهرام من الأحاديث عن قنال السويس ، وفصلت ما دار بشأنها فى مجلس نواب الإنجليز[٦] أخذت تفسح قلبها لاجتماع الجمعية العمومية وما دار فيها من حوار ومناقشات ، بين أعضائها وبين الوزراء[٧] . وقد راقها إعلان رئيس الحكومة بأن الكلمة الأخيرة للجمعية فقالت « طربت الجمعية العمومية ومن ورائها البلاد كلها لكلمة رئيس الوزارة فى أن « رأى الجمعية العمومية قطعى ، لأن الأمة تعتبر هذه الكلمة ثمرة جهاد طويل ونتيجة إلحاف فى المطالبة لم تسكن شقاشقها . ولم يبرد وقدانها منذ سنين عديدة » .

(١) الأهرام فى ٢٧ يناير ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ١٠ نوفمبر ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٨ و ٩ نوفمبر ١٩٠٩
(٤) الأهرام فى ٣ فبراير ١٩١٠
(٥) الأهرام فى ٤ مارس ١٩١٠
(٦) الأهرام فى ٣ ديسمبر ١٩٠٩
(٧) الأهرام فى ٥ أبريل ١٩١٠

ثم تعرض فى هذه الافتتاحية لموقف الجمعية العمومية والحكومة معاً « فإذا سرنا أن تظهر الجمعية العمومية بمظهر الباحث القادر فإنه يسرنا أيضاً أن تظهر الوزارة بمظهر الوزارة العالية الشأن ، وأن يكون مبدأها الجليل أن من يخالفك بالرأى لا يجوز لك أن تتهمه بسوء القصد . وتلك الخلابة بالخطابة وتلك الصرامة فى بسط المنافع لم تثبط الحزب المعارض فى الجمعية فتلقف الحجج والبراهين تلقفاً وجارى أبرع نواب العالم بالرد والبحث والمجادلة والمقارعة . فالفاتحة فاتحة خير وصلاح برز فيها المجلس والوزارة على أحسن منوال وأحزم رأى ، وإذا كان ذلك هو البداءة فكيف بهما إذا طال التمرين وتمحصت الأفكار وأخذت الآراء تيارات تيارات ، وصار أمر الأمة بيدها تهتم بأمورها وتتصرف بشئونها . . . »(١)

ولم تترك الأهرام تصريح رئيس الحكومة بأن رأى الجمعية العمومية سيكون فاصلاً فى قضية مد امتياز القنال يذهب من غير تعليق ، فكتبت مقالا فى محلياتها تطلب فيه تغيير النظام الأساسى وجعله نظاماً دستورياً بعد ما أصبح من حق المجلس النيابى القائم أن يقطع فى الأمور الكبرى ، ويعنى ذلك أنه جدير بأن يقطع فى الأمور الأقل أهمية(٢) ثم ترحب ترحيباً صادقاً برفض الجمعية العمومية لمشروع الاتفاق ، وتمدح كفايتها وتقتطف من رفضها نبذاً تؤيد بها أن المصلحة العامة هى وحدها التى كانت سبب الرفض(٣).

وبعد ، فهذه هى قصة مد امتياز قناة السويس ، وهى جديرة بأن تسجل فى تاريخ الأهرام ، وتحسب لها لا عليها كما زعم بعض الزاعمين ، وهى حسنة من حسناتها تضاف إلى سجلها ، فإن موقفها من القضية بحثاً وتنقيباً ، ورعايتها للعواطف الشعبية كان أمراً ظاهراً فى جميع الأخبار والمقالات والأحاديث التى أجرتها مع المصريين والأجانب ، ولم تغفل قط المصلحة الوطنية فى ذلك كله ، والذين يعودون إلى صيغة الرفض التى صدرت عن الجمعية العمومية يجدون فى روحها وألفاظها الكثير مما تحدثت به الأهرام فى هذا الموضوع فى افتتاحياتها ، وكان حديثاً عميقاً مدروساً يمتاز بخلوه من الهجو وبعده عن المهاترات وترفعه عن النظر إلى الشخصيات

(١) الأهرام فى ٦ أبريل ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ٧ أبريل ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ٩ أبريل ١٩١٠

في سبيل الدستور

وللحرية الحمراء باب بكل يد مخضبة يُدق

« شوقي »

أعادت الأهرام في القاهرة منذ صدورها فيها سنة ١٨٩٩ سيرتها التي كانت عليها في مدينة الإسكندرية ، فهي دائبة السعي وراء مطالب الأمة ، وفي مقدمة المطالب التي شغلت الرأي العام منذ مطلع القرن العشرين إلى قيام الحرب العظمى الأولى ، مطلب الدستور وتمتع البلاد بحياة نيابية حرة ، وقد كافح المصريون في سبيل ذلك المطلب كفاحاً يذكر للجيل الماضي بالحمد والثناء ، وقد عاشت الأهرام مؤازرة له ومؤيدة ، وهي أول من نادى في مصر منذ عهد العرابيين بحق المصريين بأن يحيوا حياة الأمم الحرة ، مستمتعين بنعمة الدستور ، مسؤولين بأنفسهم عن أنفسهم حتى أن دعوتها غاظت الاحتلال في مدرجه فكاد لها على الصورة التي ذكرناها في فصول سابقة .

الجمعية العمومية

وكانت الحياة السياسية المصرية في مطلع القرن العشرين تتمثل في تلك الجمعية العمومية وذلك المجلس الشورى ، وهما مجلسان من صنع الاحتلال ، وقد عرضنا لكيانهما وبينا مكانهما من الحياة الدستورية ، وفي أوائل هذا الجيل أجريت انتخابات مجلس شورى القوانين ، فكتب خليل مطران ، وكان من كبار محرري الأهرام مقالا بمناسبة هذه الانتخابات فيه من الصراحة المرة الشيء الكثير ، وكان الكاتب في مقاله عنيفاً شديداً ، ذهب في النقد والتصوير مذهباً ما نظن الحريات العامة في أيامنا تحتمله بحال من الأحوال ، ولكنها حرية الصحافة في أيامهم التي كانت خلواً من القيود بالرغم من وجود قانون المطبوعات .

اتجه خليل مطران كبير المحررين متحدثاً إلى النواب الجدد بأن « النيابة في القطر

تكاد تكون إسمية » ، ويبين لهم أن واضعى أصولها من الإنجليز إنما قصدوا من هذه النيابة أن تكون « خدعة للأوربيين » ثم يحدثنا الكاتب الشاعر الناثر عن القيمة الروحية لهذا المجلس الذى أجروا له انتخابات جديدة « وكان من توفيق المحتلين على ذلك أن هذا المجلس بصورته التى هو عليها جاء مثلا للأمة كأنها تتناظر فيه بمرآة ، فهو يشكو ويتألم كما تفعل ، ثم هو ضعيف العزيمة قعود عن استئناف الطلب راضخ لدى المجترئ عليه . . » وهو وإن أعطى هذه الصورة القاتمة للنواب المحدثين فإنه يذكر بالخير المجلس القديم الذى أدى واجبه عامة وإن عاب على بعض نوابه أنهم « لم يلازمهم الجلد فى جميع المواقف وخارت عزائمهم أحياناً إما ضجرا من التكرار أو مجاراة لتيار بعض الحكام أو مراعاة لبعض المصالح الذاتية التى خافوا عليها . . . » ثم يعود إلى النواب الجدد فيقول : « إن الأمر الذى عهد فيه إليكم صعب المراس محبوك الأطراف يقتضى دهاء وصبراً وبأساً » ضاربا الأمثال على حيوية المواطنين إذا شاءوا الجلد والكفاح متمثلا بأقوال بشارة تقلا وأحمد بك الصوفانى وكيل مجلس الشورى فى هذا الميدان [1].

ونحن حين نرى هذا الأسلوب القوى فى معنى النيابة ، وهذا التوجيه العنيف للنواب ، يجب أن نذكر أن مصر كانت تنشد فى ذلك الوقت دستوراً صحيحاً ، وكانت تغلى بهذا المطلب الذى كان ركنا من أركان الكفاح عند مصطفى كامل وأترابه من المواطنين

فإذا تهيأ نواب مجلس شورى القوانين فى كراسيهم كتبت الأهرام مقالا بعنوان (هم نواب الأمة فليرضوا الأمة) ، تريد منهم أن يتجردوا من هذا الإطار التافه الذى وضعتهم فيه الحكومة « إنكم فى عرف الحكومة مستشاروها تفعل برأيكم أو تطرحه ولكنكم نواب الأمة تطلب منكم حق النيابة والدفاع ، فلم تجلسوا على كراسى الشورى لأمرين : إرضاء الحكومة والأمة بل إنكم جلستم على تلك الكراسى لأمر واحد وهو الإنابة عن الأمة »

واجب النائب

وتشرح الأهرام وظيفة النائب ، وتبين المسئولية الملقاة عليه أمام المصريين والأجانب ، فإن أحسن النواب فقد شرفوا بلدهم حيال ما يذاع عن مجلسهم من ألوان السخرية ، فإن كتاب الفرنجة زعموا فى كتبهم وصحفهم ومجالسهم أنهم خلفاء أولئك النواب الذين خشوا سطوة الدولة وسلطان الأمير حين دعتهم الحكومة فى عصر إسماعيل إلى أن ينقسموا إلى نواب يمين يؤيدون الحكومة ونواب يسار يعارضونها « فلم يكن من النواب

(١) الأهرام فى ١٨ يناير ١٩٠٢

المصريين إلا أن نهضوا جملة وتراكضوا إلى الجهة اليمنى »! وبعد هذه السخرية اللاذعة سواء صحت فى التاريخ أو دست عليه، قالت لهم الأهرام « فكذبوا أنتم قولهم بفعلكم واذكروا للحكومة الحسنة ولكن لا تنسوا لها السيئة. فإن الحق وإن طمست معالمه أقوى من القوة وإن ظهرت ببطشها »[1] .

وفى الوقت الذى كانت الأهرام إلى جانب صحافة الحزب الوطنى تؤازر المطالب الوطنية فى الحصول على الدستور ، كانت هناك صحف تعيب النظم الدستورية وتذكر مساوئها حتى فى بلاد الإنجليز التى تشترى فيها أصوات الناخبين ، والأهرام تفسر قصة الأصوات المشتراة وتعقب بأن هذه العيوب لا قيمة لها لأن الزمن كفيل بإصلاحها . فإنه « إذا أنكر امرؤ فضل الدستور وما ينطوى تحته من الحرية المستحبة وإعطاء الأمة حقوقها فى السيطرة على أرزاقها وأعناقها فهو كمن ينكر أشعة الشمس فى كبد السماء وإذا ذم أحد الدستور لبعض عيوب تلازمه فهو كمن يذم البدر لكلف فى محياه »[2].

مطالب المصريين الدستورية

وقد أفسحت الأهرام صدرها للمواطنين ليدلوا برأيهم فى مطالبهم الدستورية ، وقد طالعتنا فى يوم من الأيام بكتاب مفتوح هو أول كتاب من نوعه تنشره الأهرام على نهرين وقد مهره بعض المصريين ، والخطاب موجه إلى الجمعية العمومية لتعمل بما جاء فيه ، وقد ذكر أصحابه أنهم اختاروا الأهرام لنشره لصفات لا تتوافر فى غيرها من الصحف ، وعلقت الأهرام على الكتاب بقولها « يسرنا أن نرى من الأمة من يهتم بالشؤون ويعرض المقترحات على الجمعية العمومية ونحن ننشر هذه المقترحات ونؤدى فرضاً واجباً فأملنا أن يهب أصحاب الأقلام لبسط آرائهم فيها ويذكّروا الجمعية العمومية بما قد تنساه » .

ثم نشرت الأهرام المطالب التى جاءت فى العريضة أو الخطاب المفتوح كما سموه ، ونحن ننشر هنا ملخصاً للمطالب ، فبعضها يتصل بالدستور من قريب أو بعيد ، والبعض الآخر ، وإن لم يدخل فى حساب هذا الفصل فإنه يعطى صورة لمطالب الأمة الأخرى ، ويرسم فى صراحة متاعبها ويبين ألواناً من الحياة لا يعرفها جيلنا . فمن هذه المطالب ، الاحتجاج على وجود المحكمة المخصوصة وعمل الحكومة فى حادثة دنشواى ورجاء الخديو بالعفو عن المسجونين ، ثم يأتى مطلب الأمة وهو أن يمنح الخديو البلاد مجلساً نيابيا حرا على أحدث ما عرفت المجالس النيابية ، ثم الشكوى من الغلاء والإلحاح فى إنشاء

(١) الأهرام فى ١١ فبراير ١٩٠٢

(٢) الأهرام فى ٦ يناير ١٩٠٦

الغرف التجارية وضبط أثمان الأشياء ومراقبة الموازين والمكاييل ، ومن المطالب قصر الوظائف الكبرى على أبناء الوطن دون سواهم وإنشاء مجلس بلدى وطنى فى العاصمة وتخفيض أجور التعليم حتى لا يحرم مواطن من العلم ، وجعل اللغة العربية فى مكانها اللائق وتدريس العلوم بها ، وعدم الضغط على الحجاج بألا يركبوا إلا بواخر الشركة الخديوية الإنجليزية ، وإصلاح المحاكم الشرعية ، ثم الاحتجاج على ترويج الحكومة للعملة الذهبية الإنجليزية وإهمال نظيرتها المصرية ، وإعطاء امتياز الشركات للفرنجة دون غيرهم[1]

والأهرام التى تنشر مطالب الوطنيين فى كتب مفتوحة ، وتذيع تعليق الكتاب عليها[2] ليست شديدة الإيمان بتلك الجمعية العمومية التى يفزع إليها الناس ، فهى عندها أقبح الصور البرلمانية فى العالم كله ، فإن هذه الجمعية تجتمع وتنفض دون أن تطالب حتى بتوسيع اختصاصها بله الدستور الكامل » . . . فإذا كنا فى كل يوم نعذل الإنكليز ونلومهم لأنهم لا يعطونا من تلقاء أنفسهم الحقوق التى ندعيها فإنا اليوم نعذل كبراء هذه الأمة المصرية ونلومهم أشد اللوم لأنهم لم يطالبوا بهذه الحقوق الفائقة .

ومن رعى غنماً فى أرض مسبعة وونام عنها تولى رعيها الذئب »

رأيها فى الجمعية العمومية

وهى تصور هوان هذه الجمعية بقولها : « فاليوم تجتمع الجمعية العمومية ، وغداً تنفض ، واليوم ترى مصر فى قاعة الشورى الهيئة النيابية مارة أمام أبصارها مرور الطيف فى مخيلة الحالم أو الحلم فى ذاكرة النائم ، فما هى إلا مطالب تقرأ وأقوال أو آراء تتلى حتى يصدر الأمر بالانصراف ، بل إن هذا الأمر يوضع فى جيب رئيس الجمعية من ساعة فتح الجلسة الأولى » ، ثم تعذل النواب الذين لا يجتمعون اجتماعات خاصة تمهيدية لدراسة المسائل قبل انعقاد جلسات الجمعية ، وترد ذلك إلى خشيتهم الحكومة وتعلق قائلة : « أفلا يرون مدافع الحكومات وقواتها وجيوشها وجنودها تحارب طلاب الحرية فى كل بلد ولا يرعوى أولئك الأبطال ، أبطال الحرية عن مطالبهم ولا يخشون أن يعقدوا اجتماعاتهم ويرفعوا أصواتهم ويقدموا أمانيهم ومطالبهم »[3] وليس يعنى هذا أنها تتنكر على الأعضاء مواقفهم الطيبة وتعلن عنها أحسن إعلان[4] .

---

(١) الأهرام فى ٤ فبراير ١٩٠٧

(٢) الأهرام فى ٥ فبراير ١٩٠٨

(٣) الأهرام فى ٢٨ فبراير ١٩٠٧

(٤) الأهرام فى ٢٥ يونيو ١٩٠٧

مطالبتها بعلنية الجلسات

وكان من أهم ما تسعى إليه الأهرام وصحف الرأى الأخرى أن تصبح جلسات المجلسين النيابيين علنية ، فإن ذلك يتيح لها أن تصور مواقف الأعضاء وتكشف المستور منها ليعرف الناس أى النواب جدير بالعطف والتأييد وأيهم قمين بالزراية والسقوط ، وفى ذلك من التربية السياسية ما حالت دونها سرية الجلسات ، ولم يمانع الإنجليز فى ذلك ، وكان مجلس الشورى على غير الرأى القائل بعلانية الجلسات ، فكتبت الأهرام مقالا لكاتبها (هى بن بى) بعنوان (أجبن أم عجز يا رجال الشورى) قالت فيه « طلب من رجال الشورى أن يطلبوا تعديل المادة التى تجعل جلساتهم سرية فأجلوا النظر فى هذا الطلب لا إلى جلسة معينة بل إلى جلسة لم تعين أى إلى ما شاء الله . وأخذنا نسأل الأعضاء الذين توصلنا إليهم عن سبب هذا التأجيل الذى يعد فى الحقيقة رفضاً فلم يستطع واحد منهم أن يرد لنا عذرا مقبولا . . . » ويعلق الكاتب على هذا الموقف الغريب بقوله : « ألا قاتل الله الجمود فإنه أفتك بالأمم من الهمجية وأقتل للنفوس من كل سم قاتل. أيريد كرومر وغراى أن تكون جلسات الشورى علنية ويرفض الباشوات والبكوات ذلك . إن هذا لعجب عجاب بل إن هذا فوق كل كبيرة من مندوب عن أمة ضد أمانى أمته وآمالها . . . »[1] وفى مثل هذا كتبت الأهرام مرات .

أعاليل وأباطيل

وتحركت الجمعية العمومية آخر الأمر ولبت نداء المواطنين والصحف الوطنية وطالبت الحكومة بإصلاح الحال فى كثير من الميادين التى تستوجب الإصلاح ، وفى مقدمتها الإصلاح النيابى ، وتقدمت الجمعية بمطالبها كتابة ، فردت الحكومة عليها رداً فيه (أعاليل بأباطيل) كما قالت الأهرام ، وعلقت صحيفتنا على ذلك بقولها : « لو أراد أمهر المصورين أن يصور اليوم للعاقلين العادلين والمدركين المنصفين جمال الحكم الدستورى لو كان موجوداً فى هذه البلاد . ودمامة الحكم المطلق النافذ الكلمة فينا لما استطاع أن يصورها بشكل أتم مما صورتها أقلام النظارات فى جوابها على مطالب الجمعية العمومية » وضربت الأهرام مثلا قصة رد الحكومة على الإصلاح النيابى « . . . خذ مسألة المجلس النيابى تسمع من جواب الحكومة أنه لم يحن الوقت لتأليف مجلس يرجى منه النفع ولكن الحكومة تشتغل الآن بتوسيع اختصاصات مجالس المديريات »[2] ، وتمضى الأهرام ساخرة من هذا الرد

---

(١) الأهرام فى ١٣ ديسمبر ١٩٠٧
(٢) الأهرام فى ٢٦ فبراير ١٩٠٨

السخيف الذى لا علاقة له بموضوع النظام النيابى الذى طالب به الشعب ممثلا فى جمعيته العمومية ، ثم تحمل على الحكومة فى غير موضع من صفحاتها الكثيرة[1] .

ويصبح الرأى العام ويمسى وفكرة الإصلاح النيابى تملك عليه قلبه وحسه ، والصحف الوطنية جميعاً تؤيد الرأى وتبارك سعى أعضاء مجلس شورى القوانين فى هذا السبيل ، وفى صدرها الأهرام التى طربت أشد الطرب لما أشيع عن نجاح سعى الأعضاء فى جعل جلسات المجلس علنية ، وتذكر لقرائها أن هذا هو ما كانت تدعو إليه وتكافح فى سبيله منذ عشرات السنين[2]، ثم تكتب عن (المجلس النيابى وهبوب الأمة لطلبه من أميرها) افتتاحية بديعة تحدثت فيها عن رغبات الشعب فى تحقيق حياته الدستورية المرموقة ، وإنه لن يسعد أو يهدأ له بال حتى يفوز بمجلس نيابى صحيح يعبر عن رأى الأمة تمام التعبير [3] ، وتؤيد مقالها فى أعداد تالية بنشر أقوال القراء وكتابات المواطنين فى هذا الموضوع [4] .

صلاحية المصريين للحكم النيابى

وأرقت هذه اليقظة جانب الإنجليز ، فإن مطالب الشعب من أجل الدستور أصبحت شيئاً خطيراً يهز أركان الحكومة ، وخاصة بعد أن تحمس لهذه المطالب كثير من رجال المجلسين النيابيين ، وكان لتحمسهم صدى قوى فى نفوس عامة الناس ، فطلع عميد الاحتلال برأى ينكر فيه صلاحية المصريين للحكم النيابى وقصورهم عن فهم الأوضاع الدستورية ، وزاد رأى جورست حماسة الجماهير التى نشرت لها الأهرام أنهراً من الاحتجاج العنيف على هذا القول الخطير .[5] .

وأخيراً أذن للصحفيين بأن يشهدوا اجتماعات مجلس شورى القوانين ، وطلب إليهم إسماعيل باشا أباظة وهو من المتصدرين أعضاء المجلس أن يراعوا الحقائق فى سرد الروايات ونقل المناقشات « حتى تكون صفحات جرائدكم التى هى قطع متسلسلة من تاريخ مصر العام مشتملة على حقائق فى هذا الباب »[6] . ونشرت الأهرام رجاء الباشا كاملا فى أبرز مكان .

(١) الأهرام فى ١١ فبراير ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٢٨ فبراير ١٩٠٨
(٣) الأهرام فى ٢ مارس ١٩٠٨
(٤) الأهرام فى ١٠ مارس ١٩٠٨
(٥) الأهرام فى ١١ أبريل ١٩٠٩
(٦) الأهرام فى ٢٧ أبريل ١٩٠٩

النقد البرلمانى الأول

كانت علنية الجلسات الخاصة بمجلس الشورى رغبة للأهرام أفصحت عنها منذ ربع قرن مضى ، وليست بالطبع غاية الغايات إذا راعينا هذا الرأى العام الذى كان يطالب بالدستور فى أوسع معانيه ، فإن هذه العلانية من شأنها أن تحمس الوزراء على الاهتمام بالمسائل العامة وتشجع النواب على المنافسة فى استرضاء الرأى العام ، وتلفت نظر عامة الناس وخاصتهم إلى ما يدور بشأنهم بين جدران هذا المجلس ، لذلك احتفلت أيما احتفال بتقرير هذه العلانية[1] . ثم تأخذ على عاتقها نقد ما يدور فى المجلس وتفصيله بعنوان (رأيت وسمعت) ، ولعله النقد البرلمانى الأول فى صحافتنا المعاصرة [2]. ثم تذهب إلى نشر كل ما يقال أو يصدر عن الأعضاء والوزراء فى أشهر كثيرة ، وقد تستغرق الرواية صفحة وبضعة أنهر[3] ، وقد تبلغ ثلاث صفحات كاملة [4].

والأهرام لا تقصد من عتابها لأعضاء المجلس ، أحياناً ، تثبيط الهمم بل هى تدافع عن مجلسهم إذا أسىء إليه ، ولها فى ذلك مقال ترد به على الصحف الفرنجية التى قالت إن أقلية المجلس قادرة وأغلبيته لا وزن لها ، وتبدى عن هذا المجلس المعاذير ، فهو غير مسئول عن قلة الكفايات فيه « لأن ٣٠ عضواً تعين نصفهم الحكومة لا يصلح عددهم أن يكون دليلا على مقدرة الأمة كلها . . . ومع ذلك فإن هذه الهيئة الصغيرة تظهر فى كل المواطن والأعمال والمشاريع والنقد والمناقشة مقدرة جليلة لا نظن أن المنصفين يزدرونها كما ترى وتطالع فى رصيفاتنا الإفرنجيات » وتتهم الأهرام الصحف الفرنجية فى نقدها مجلس الشورى ، ومصدر ذلك فى رأيها « التعصب الأعمى للحكومة بل للاحتلال . فكل نقد لمشاريع الاحتلال مر طعمه فى ذوقها فهى تلوم المجلس عليه » [5] . ومع ذلك كله فإن جريدتنا لا تعفى المجلس من النقد إذا قصر فى أداء الواجب وتحقيق الرسالة[6].

ويتصل كفاح الأهرام فى سبيل الدستور ، وتطالعنا افتتاحياتها بين آن وآخر بمقالات فى هذا الموضوع ، حتى ثارت صحف انجلترا وهاجت لهذا المطلب الذى انعقد

---

(١) الأهرام فى أول يونيو ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٤ يونيو ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ١٠ يونيو ١٩٠٩
(٤) الأهرام فى ١٩ ديسمبر ١٩٠٩
(٥) الأهرام فى ٢٦ نوفمبر ١٩٠٩
(٦) الأهرام فى ٢٠ ديسمبر ١٩٠٩

عليه إجماع الأمة ، فكتبت الأهرام تتساءل « أما ذكر الإنكليز أنهم قالوا بل يقولون دائماً إنهم هنا ليعلموا المصرى حكم نفسه . فهل إذا طلب المصريون الدستور وهو ما يعد به الإنكليز يطلبون غير إنجاز الوعد »(١) .

هذا إلى المقالات الممتعة التى نشرتها عن كفاح الشعب الإيرانى فى سبيل نيل حرياته ، وما تضمنت هذه المقالات من شديد القول الموجه إلى الشاه ، وهى تفصل كيف نال الإيرانيون دستورهم قسراً ، وتتحدث عن جهل هذا الشاه الذى نسى أن عرشه لا دعائم له من غير حب أمته وإكبارها (٢) بينما تنقل إلى الخديو على صفحاتها صوت المصريين فى الخارج يطالبونه بالدستور ، وبرقيات الحزب الوطنى التى تفيض حماسة وقوة وهى موجهة إلى السير إدوارد جراى والصدر الأعظم(٣) .

وإذا كان مجلس شورى القوانين لايحقق أمانى الشعب ، الأمر الذى دعا الأهرام إلى أن تنقد تصرفات هذا المجلس ومن فيه ، فإنها مع ذلك ترجو أن يكون أعضاؤه على كفاية ودربة تخرس ألسنة الصحف الفرنجية ، وأن يكون التمثيل فيه سواء صدر عن الشعب أو الحكومة تمثيلا يشرف الأمة ويساعد على تطورها فى حياتها الدستورية .

مجلس الشورى ليس « تكية »

لذلك هالها أن يختار الجهلاء أو أهل الملق كلما خلا مكان فى مجلس الشورى ، وقد ذكرت فى أحد أعدادها الجهود التى تبذل لملء أحد الكراسى الشاغرة تحت عنوان (مجلس الشورى ليس تكية) ، قالت « كلما خلت وظيفة عضو دائم فى مجلس الشورى أخذ أولو الأغراض والمآرب يلعبون حتى يرشحوا لها أناسا يريدون خدمتهم لا خدمة أمتهم بهم . فيوردون للمقامات الإنكليزية فضائل زيد وكلها الإخلاص للاحتلال أو الاستعداد لخدمة مشروعات المستشارين ، ويوردون للمقامات الوطنية فضائل عمرو وكلها الإقبال على التشريفات أو التبرع للحفلات أو المجاهرة بمقاومة تلك الجريدة وذلك الحزب . »

والأهرام تنقد سوء الاختيار ثقة منها بأن كفاية الأعضاء ستخلق من هذا المجلس المهلهل قوة وقدرة ، لذلك يسوءها أن ينصرف الاختيار إلى أصحاب الرذائل من المتملقين

---

(١) الأهرام فى ٦ مايو ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ٥ مايو ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ١٥ ديسمبر ١٩١٠

« أما الفضائل الصحيحة التى يجب أن يتحلى بها العضو الدائم من المعرفة والنباهة والقدرة على العمل فإنها لا تخطر على بال الذى يرشحونه إلا عرضاً . وولاة الأمور قد يصيبون وقد يخطئون فى التعيين . فلم يبق للصحافة من أن تكون ساهرة يقظة ترفع صوتها باستهجان الخطة القديمة البالية »(١).

ما شئتُ لا ما شاءت الأهرام

ولكن اللورد كتشنر لم يهتم لحملة الأهرام، واختار عيناً من البكوات ، وقد شهد له أحد مفتشى الرى بكفايته الزراعية ، ورأت صحف الاحتلال أنه اختيار موفق لأن مجلس شورى القوانين ينبغى أن تكون غالبيته من أصحاب الأطيان والقائمين بشئون الزرع والحرث ، ولم تتذوق الأهرام هذا التعبير وحملت على كتشنر فى سوء اختياره وقالت « إن الشورى لا تشتغل بالزراعة بل بتمحيص القوانين لأنه مجلس تشريعى لا جمعية زراعية » فقط ثم حملت على الاحتلال الذى لا يريد أن يفهم أن خصومتنا معه فى أكثرها « منحصرة فى مسألة الشورى وتحقير شأنه وتصغير سلطته متناسياً أن كفاح الأمة مدى سبع وستين سنة انصب على المطالبة بالحياة الدستورية » التى كان من ثمرتها هذا المجلس وهو مجلس قاصر عن أداء المثل الأعلى للمصريين ، وكان الأمل كبيراً فى أن يكبر شأنه ويعلو قدره ويتطور قانونه حين تولى رئاسته الأمير حسين كامل ، ولكن الإنجليز خصوم لحياتنا الدستورية مهما يكن مبناها أو معناها (٢).

وإذا اختلفت الحكومة مع مجلس الشورى ، فالأهرام تقف إلى جانب المجلس، وتهاجم الحكومة التى اعتبرت حق سؤال الأعضاء لها منحة تستحق الشكر منهم ، وطالبت أن يكون الوزراء مسؤولين وللمجلس سلطة فعلية عليهم ، حتى لا تصبح حياتنا السياسية فوضى فيلقى عظماؤنا كرئيس الحزب الوطنى وزميليه العقوبة تلو العقوبة ولا ضابط لاستبداد الحكومة معهم(٣) .

وتناقش الأهرام المسؤولين من الإنجليز والمصريين بمناسبة المؤامرة التى زعموا أنها موجهة إلى رئيس الحكومة ، تناقشهم فى أسلوب الحكم الذى يتبعونه ، وطرائق النظر فى سياسة الناس مبينة لهم أن الجمهور لا لوم عليه إذا لم يحسن الظن بحكامه الذين لا يتركون « بخار

(١) الأهرام فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ٧ ديسمبر ١٩١١
(٣) الأهرام فى ٦ مايو ١٩١٢

الشكوى والتذمر والنقد يتصاعد من الصدور . . . حتى يصير بركاناً فى صدور ضيقة ضعيفة لا تقوى على حصره فينفجر » ذاكرة أن الحكم الدستورى وحده هو القادر على تهدئة النفوس وانصراف الناس إلى خير البلد[1] .

دعوتها إلى عقد مؤتمر لوضع الدستور

وترى الأهرام فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٢ أن الأمة موزعة أحزاباً وفرقاً ، وأن جميع أمانيها وآمالها ضائعة نتيجة هذا التشيع للأحزاب ، وأنه قد آن الأوان ليجتمع المصريون فى مؤتمر عام يقررون فيه قراراً فى الجلاء والدستور ، حتى يشعر المحتلون بقوة الأمة وخطرها إذا توحدت ، ذلك لأننا إذا « بقينا مقتصرين على الكلام فى الصحف والصياح من فوق المنابر والمظاهرات فى الشوارع منادين « الاستقلال الاستقلال ، الدستور الدستور ، الجلاء الجلاء » لا ننال استقلالا ولا دستوراً ولا جلاء بل تبقى الأمة واقفة عند مفرق الطرق حائرة لا تدرى فى أى طريق تسير . . . لقد انقضى دور الكتابة فى الصحف والخطابة فى المجتمعات وجاء دور العمل » . ثم تناشد الأهرام مواطنيها أن يتراصوا صفاً واحداً لأداء الواجب الوطنى الأداء المطلوب[2] . وتنشر برقيات المواطنين وكتبهم ومقترحاتهم على دعوة صحيفتنا إلى توحيد الصفوف[3] .

أثر حملة الأهرام فى الرأى العام

وشعرت الحكومة والإنجليز من خلفها أن الرأى العام المصرى قد نضج ولم يعد يلائمه مجلس الشورى بأسسه القديمة ، وإنه لمن الخير أن يتفادى الاحتلال هذه الدعوة التى دعت إليها الأهرام وهى ضم الصفوف وتوحيدها ، بأن يعلن على الملأ أن مجلس الشورى الذى ينعقد فى أواخر سنة ١٩١٣ إن هو إلا آخر مجلس تشهده البلاد حيث تستقبل فى العام التالى مجلساً أوسع اختصاصاً وأقدر على احتمال التبعات ، وتذكر الأهرام « أن توسيع الشورى الذى يتم قريباً فى هذا الفصل يتناول الزيادة فى عدد أعضائه حتى يصير عدد هؤلاء الأعضاء معادلا لعدد أعضاء الجمعية العمومية وأن يكون انتدابهم مباشرة من الشعب لا من أعضاء مجلس المديرية » .

ولا يعنى الأهرام زيادة عدد الأعضاء ، بل إن ما يسر الأمة « فوق كل شىء

(١) الأهرام فى ٩ يوليو ١٩١٢
(٢) الأهرام فى ١٦ سبتمبر ١٩١٢
(٣) الأهرام فى ١٨ سبتمبر ١٩١٢



أنطون الجميل باشا
رئيس تحرير الأهرام (١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٢ — ١٣ يناير سنة ١٩٤٨)

أن يكون رأى هذا المجلس « قطعياً » فى المسائل الإدارية البحتة التى تتعلق بالوطنيين مباشرة » وإلا فإنه يكون مجلساً « ضعيفاً أبتر . . . لأن العبرة فى حكم الأمم وتدبير شئونها فى سلطة المجالس أكثر منها فى عدد أعضاء تلك المجالس . لأن الإكثار من عدد الأعضاء مع تخفيف شروط الانتخاب يقصد منه تمثيل جميع طبقات الأمة فى الهيأة المنتدبة منها للتشريع ، ومنح السلطة لتلك المجالس يراد منه إشراف الأمة على شئونها وحكمها فى تلك الشئون، والحكم النيابى نظام قام فى العالم كله مقام الحكم المطلق. والأمم القديمة كالأمم الحديثة تستزيد منه ولا ترضى الوقوف عند حد لا يكون فيه لأقل وطنى كلمة فى شئون وطنه »[1]

دواء استبداد الحكام

وقبل أن تشغل الأهرام جل صفحاتها عن المجلس المرتقب ، هذا المجلس الذى سموه الجمعية التشريعية ، أخذت تحدثنا عن (استبداد الحكام المصريين) وتقارن بين النيابة فى مصر والنيابة فى البلاد الديموقراطية المتحضرة . وتبين أنه لا أمل فى إصلاح يرجى من مأمور أو مدير ما لم يشعر هؤلاء أن الأمة مصدر السلطات . فإذا كنا نطالب نوابنا بأن يفعلوا مثل نواب الفرنجة الأحرار فى حدود النظم الدستورية المصرية القائمة فإنما نطالبهم بما هو فوق طاقتهم حتى لقد صح فيهم قول الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء[2]

وتمضى الأهرام متحدثة عن عجز السلطات الدستورية فى حماية الشعب من حكامه بين مدير وعمدة وخفير « لأن العمدة يظلم ولا يخاف . والمأمور يجور ولا يخشى والمدير يستبد ولا يهاب . وفى فم كل واحد منهم هذه الكلمة : من هم الأهالى ومن هى الأمة . وأين قوتها وأين مجال الخوف منها » . ثم تطلب فى العهد الجديد أن يقف كل امرئ عند حده[3] .

اهتمام الأهرام بالجمعية التشريعية

ومنذ شهر يوليه سنة ١٩١٣ والجمعية التشريعية شغل الأهرام الشاغل ، فقد ذكرت لقرائها أن قانونها الأساسى سيوقعه الخديو بمجرد عودته من الخارج[4]، ونشرت فى تفصيل

(١) الأهرام فى ١٨ نوفبر ١٩١٢
(٢) الأهرام فى ٢٤ مايو ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٢٦ مايو ١٩١٣
(٤) الأهرام فى ٣ يوليو ١٩١٣

جميع المناقشات التى دارت فى البرلمان الإنجليزى خاصة بهذه الجمعية المرتقبة ، وبينت أن كثيراً من أحرار النواب الإنجليز طالبوا بأن يكون قانون الجمعية التشريعية قانوناً رحباً يفسح المجال للتمثيل الشعبى تمثيلا صادقاً ، وأن تكون الحرية سمته بحيث تصبح الحياة الدستورية فى مصر حقيقة واقعة (١). ثم نشرت القانون النظامى الجديد والمذكرة التفسيرية الخاصة به ، وقد استغرق هذا النشر جزءاً كبيراً من صفحات جريدتنا (٢).

توجيهها للشعب

وتتحدث الأهرام فى مقال افتتاحى عن (الانتخابات القادمة والمجلس التشريعى) حديثاً مستفيضاً خاصاً بالجمعية التشريعية ، معتبرة إياها مقدمة للحياة الدستورية الصحيحة ، ذاكرة أن وسائل الانتخاب وطرقها والترشيح للنيابة ، هذه كلها مسائل جديدة على الناس ستترتب عليها مشاكل مختلفة ، وخاصة أن الجمهور سيجابه بها وليس فى أحزابنا تنظيم دقيق يجعل لها فروعاً فى المدن والأقاليم كما هو المتبع فى الأحزاب الأوربية (٣) .

ثم تعتب الأهرام على المواطنين الذين قابلوا النظام الجديد بفتور ملحوظ « كأنه لم يعلن فى هذه البلاد نظام جديد ولا قانون حديث ، وكأنه لم يحدث تبديل ولا تغيير وكل ما حدث أنه كانت فى هذا النظام مادة لبعض الكتاب فتناولها بالبحث والدرس والتمحيص . لا بإعمال الفكرة ولا بكد الذهن . ولا بما يستحقه قانون جديد هو أساس الحكم فى البلاد بل تناولته أقلامهم بالتهاون والخمول والسكون متابعة لرأى الجمهور . وبعض الصحف لم يزد على نشر النص ووقف أقلامه وأخباره وآراءه على حرب البلقان وثورة الصين . . . »

وتطالب الأهرام مواطنيها ألا يستقبلوا هذا التغيير بنفس غير راضية ، فليست العبرة عندها بالدستور الفضفاض بل العبرة بروح الدستور والقائمين على تنفيذه « لأن القوانين مهما كانت قاصرة ضيقة . إذا استلمتها أيد عاملة قوية . ورؤوس عاقلة حازمة رصينة . تتوسع بها توسعاً كبيراً يفيد الأمة فى الإدارة والتشريع والبحث والتدقيق . أما إذا أهمل القانون الواسع فإنه يضيق ويقصر وينكمش حتى يصير كأضيق القوانين » فهذا التهاون فى لقاء الجمعية التشريعية لا يعاون الأمة على فهم الأصول الدستورية فهماً طيباً ، لذلك كانت الأهرام تغرى المواطنين بتغيير موقفهم « فأذا كنا اليوم لا نظهر الحماسة

(١) الأهرام فى ٤ يوليو ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ٢١ يوليو ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٢٥ يوليو ١٩١٣

والاندفاع للعمل بما أعطينا فمن يضمن لنا غداً أنّا نكون أكثر حماسة إذا أعطينا الدستور التام الكامل »[1] .

وليس يعنى طلب الأهرام ذاك أن الجمعية التشريعية غاية المنى أو آخر المطاف ، بل هى تعلم أن النقص فيها أبرز ما فيها ، لذلك أفسحت صدرها لنقد قانونها ، فإذا بنا تطالع نقداً بديعاً عميقاً رائعاً بقلم (ك) ، استغرق الصفحة الأولى كلها ونصف الصفحة الثانية ختمه بقوله « استسمح الحكومة بعد كل ما تقدم أن أقول فى أذنها هذه الكلمة الصغيرة . لم يكن يدور فى خلد إنسان من الأمة المصرية أنها بعد ثلاثين عاماً من تاريخ مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية تقدمت فى أثنائها مرافق الحياة فى الأمة من زراعة وتجارة وصناعة وارتقت الأفكار العمومية وتنورت أذهان الناس وتشعبت المصالح وتعددت المنافع ، وأظهرت كل طبقات الأمة فى مواقف كثيرة عطشها وتشوقها لأن تحكم نفسها بنفسها وأن تمتع بما يمتع به من هم أقل منها علماً ومعرفة ومدنية ، وبعد أن تفضل الجناب العالى الخديو المعظم فصرح بميله إلى الدستور وأخبر رعيته بلسان الحال والمقال بهذه الرغبة الشريفة وبعد أن مدح المعتمد البريطانى فى تقريره هذا العام خطة مجلس الشورى — بعد هذا كله — إذا بنا لا نظفر إلا بجمعية أقل اختصاصاً من الهيئتين السابقتين وأضيق حرية وأضعف استقلالا »[2] . ثم يعقب الكاتب فى يوم آخر ناقداً النقص فى روح الجمعية التشريعية فى أسلوب أدبى رفيع[3] .

الأهرام منبر عام

وأخذت الأهرام تقدم من صفحاتها للناقدين ما يشاءون ، فإذا بنا نقرأ تعقيباً لقارئ على مقالات الكاتب (ك) وهو تعقيب ممتلىء نقداً وتجريحاً لقانون الجمعية التشريعية بعنوان (مجلس استشارة لا دستور ولا نيابة ولا سلطة أمة)[4] . وفى صفحة أخرى طالعتنا الأهرام بمجموعة من موضوعات الساعة (الجمعية العمومية . آراء إنكليزية — رأى اللورد كتشنر — رأى التيمس والصحف — رأى روبرتسون وسواه) ثم شغلت قراءها مرات متصلة بمقالات (ك) الممتعة الذى حدثنا مرة عن (القانون النظامى الجديد « العيب

---

(١) الأهرام فى ٢٦ يوليه ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ٢٨ يوليه ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٣٠ يوليه ١٩١٣
(٤) الأهرام فى ٣١ يوليه ١٩١٣

فى النظام لا فى الرجال »)[1] كما حدثتنا ثلاث مرات فى شهر سبتمبر فى نفس الموضوع .[2]

وشغلت المقالات التى كتبتها الأهرام أو نشرتها لمحرريها وكتابها أو المصاحفين من هنا وهناك الرأى العام حتى إذا بدأت المعركة الانتخابية كانت فى الحق معركة خلفت آثارها من القضايا التى نظرها القضاء وحكم فيها ، وكتبت فى الأحكام ونزاهة الانتخابات افتتاحية ذكرت فيها أن من واجب الحكومة « أن تتخذ من هذه القضايا عظات وعبراً » وأن تصلح فى القانون ما يجب إصلاحه لإزالة مثل هذه العقبات من وجوه الذين يرشحون أنفسهم للانتخابات ويتقدمون لخدمة وطنهم بمعارفهم وقواهم العقلية والأدبية ولمزاحمة نظرائهم حتى يختار الشعب الأفضل والأقدر[3] .

الدعاية لاختيار النواب الصالحين

فإذا وجدت صحيفتنا نكوصاً من بعض رجال الأمة المعروفين ، وانصرافاً عن الترشيح أو الدعاية لأنفسهم فى بلادهم وقراهم ، حملت عليهم حملة شعواء ضاربة المثل بسعد زغلول الذى « يفهم القانون أكثر من سواه . قد خطب فى الناس مرشحاً نفسه طالباً منهم أن ينتخبوه » . واعتبرته قدوة جديرة بالاحتذاء « لأن ترشيح الإنسان نفسه واجب . وبسط خطته لأهل وطنه واجب . ولكن الذى لا يجوز هو مشترى الأصوات بالمال أو إكراه الناس على انتخاب زيد دون عمرو » ثم بينت لهؤلاء المحجمين الفارين من الميدان أن الدعاية عن أنفسهم لا تنزل بمكانتهم ولا تقلل من هيبتهم « فالأنبياء أنفسهم تقدموا للناس بالدعوة والرسالة ، ولم ينتظروا الناس ليأتوا إليهم لتلقى تلك الرسالة . ولا يكون الإنسان كبيراً بادعائه الكبر بل بعمله الكبير فى أمته ، فقبل اليوم كان يقال « أرنى بيتك وغيطك لأعرف قدرك ، واليوم يقال أرنى عملك لأعرف منزلتك »[4] وتعقب فى افتتاحية يوم آخر عن كيف يكون المصرى (كبيراً) قائلة « إنما الكبير العظيم فى الأمة هو الذى يذلل الصعاب بعزيمته . . . إنما الكبير العظيم فى الأمة من يضحى راحته فى سبيل خدمتها ، فإذا سأل سائل منا كيف أكون كبيراً وجب علينا أن نقول له اليوم جميعاً بصوت واحد . تكون كبيراً بخدمة الأمة »[5] .

---

(١) الأهرام فى ٢٨ أغسطس ١٩١٣
(٢) الأهرام فى أول سبتمبر و ٤ و ٨ سبتمبر ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٢١ أكتوبر ١٩١٣
(٤) الأهرام فى ٢٨ أكتوبر ١٩١٣
(٥) الأهرام فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٣

وتصور لنا صحيفتنا الظروف التى مرت بها انتخابات الجمعية التشريعية وهى ظروف استدعت ثورة الأهرام عليها . وحملت الحكومة كثيراً من المسئولية التى تجعلها جديرة باللوم والتأنيب ، فإن الإشاعات ملأت نفوس الناس ضيقاً وتبرماً بهذه الجمعية المرتقبة ، فقد فهم العامة أنها ستأتى لتزيد الضرائب أو تبارك حماية الإنجليز على مصر ، وتركت الحكومة الشائعات تفعل فعلها حتى انصرف الكثيرون من العامة عن التصويت . فجاء الانتخاب الابتدائى فاتراً لا يمثل الشعب تمام التمثيل ، والحكومة مسئولة عن هذا لأنها سنت قانون الجمعية بليل ، وفاجأت الناس به من غير مقدمات ، ثم طالبتهم بالتصويت قبل أن يهضموا الفكرة أو يعالجوها العلاج الصحيح[1] .

دفاعها عن الفلاح المصرى

فإذا قرب موعد الانتخاب النهائى لممثلى الأمة فى الجمعية التشريعية كتبت الأهرام « سمعنا الكثيرين يقولون — وقولهم قول هراء — إن المندوبين هم الفلاحون والواطئون فى طبقة الأمة فهم لا ينقادون لغير أصحاب النفوذ عليهم ؟ » وهى تكذب هذا الرأى وتحمل عليه « فالفلاح الساذج بفطرته لأشرف والله وأعف وأنبل قصداً وأسلس قياداً من المتعلم المنقاد لأهوائه وأغراضه فإن كان هذا الفلاح جاهلا فاقصدوه وعلموه . وإن كان غير مدرك مهمته وحقه فزوروه فى عشته وكوخه وارشدوه واقنعوه » ثم تقول لهؤلاء المتعجرفين : « انزلوا انزلوا أيها الآلهة عن عروشكم إليه . انزلوا انزلوا عظمتكم إلى مجاورة حقارته ولو بضعة أيام . فإذا كان الفلاح مصدر نعمتكم بالمال والعقار والخدمة والقوة . فهل يجوز لكم أن تظلوا منفصلين عنه بعيدين منه وهو الآن مصدر الحكم فى مستقبل الأمة بمن يختارهم للنيابة » . ثم تقول فى اعتزاز : « مضى زمن السيادة وحسبان الأفندى والبك والباشا آلهة فى الشعب وجاء زمن سيادة الشعب . فإن كنتم تريدون أن تظلوا أسياد بلادكم فاطلبوا هذه السيادة من الشعب ، أطلبوها منه وحده أو قولوا له على الأقل أن يسود فيكم الأكفاء لا جهال الأغنياء الذين عدوا أعياناً لأنهم أغنياء

أيدوا كل حازم ونزيه   قاطعوا كل جاهل وسفيه »[2]

وإذا فرغت الأهرام من الدفاع عن الفلاح ونقد الأغنياء المتغطرسين كتبت فى افتتاحية عنوانها (بعد ستة أيام) وهى الأيام الباقية على اختيار ممثلى الشعب ، تطلب من

---

(١) الأهرام فى ٣١ أكتوبر ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٣

الناخبين أن يحسنوا الاختيار ولا يقيموا وزناً إلا للكفاية والاقتدار « فتشوا أيها المندوبون عن الكفء . وابحثوا عنه اليوم بكل جد وجهد علكم تجدونه . فإذا وجدتموه فتمسكوا به ولا تفلتوه . ولا يمنعكم عن انتخابه تهديد ولا وعيد ولا صداقة ولا قرابة ولا منفعة ولا ربح ولا نار ولا عذاب ، لأن وطنكم بحاجة إليه كحاجة العليل إلى الدواء الشافى . بل كل واحد منكم فى حاجة إليه كحاجة الظمآن الذى أشرف على الهلاك إلى قطرة ماء تبل غليله وتبرد حرقته » .

ثم تبين لهؤلاء المندوبين أن ثلاثين سنة قد انصرمت ولم تخط مصر إلا خطوة ضيقة نحو الحكم الدستورى الذى « لا حياة لأمة إلا به » مقررة، أن الذين نابوا عن الشعب فى مجلس الشورى وفى الجمعية العمومية لم يكونوا الأكفاء، لذلك هى تحذر المندوبين بقولها « فحرام عليكم أيها المندوبون وأى حرام . حرام عليكم أن تختاروا غير الكفء فتقوم حجة الطاعنين على كفاءة هذه الأمة وتموت حجة القائلين بكفاءتها ولا يبقى مجال لأن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام . . ويسجل عليكم إلى الأبد أنكم لستم أهلا للحكم الذاتى »[1] وتعقب فى اليوم التالى بقصيدة لخليل مطران نشرتها فى افتتاحيتها وعنوانها (انتخبوا الأكفاء) جاء فيها رجاء من الشاعر أن يختار الناخبون أهل الفضل والعلم

بايعـــوا العلم والفضيلة فيـــه راقبوا الله فى الحمى وبنيـــه
أيـــدوا كل حازم وتربـــه قاطعوا كل جاهـــل وسفيه

ثم يقول :

ثبتـــوا أن فى الديار رجـــالا حققـــوا فى الكنانـــة الآمالا
رجحوا العقل واستخفوا المـــالا أفسحوا للأكفـــاء منكم مجالا[2]

وهكذا ضربت الأهرام على وتيرة الكفاية والأكفاء ، وواجب اختيارهم فى تمثيل البلاد ، واستمرت الأيام السابقة على يوم الانتخاب تكتب فى هذا الباب فصولا من الشعر والنثر فى الافتتاحيات أو المحليات[3] فإذا تم الانتخاب واختير الأعضاء أخذت تنشر المقالات الطويلة تبصر فيها النواب بواجبهم وتشرح لهم وظيفتهم وتدعوهم إلى القيام بالتزاماتهم سواء صدرت هذه المقالات عنها أو عن كبار الكتاب من قرائها[4]. ثم فصلت أخبار

---

(١) الأهرام فى ٨ ديسمبر ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ٩ ديسمبر ١٩١٣
(٣) راجع الأهرام من ٢ ديسمبر إلى ١١ ديسمبر ١٩١٣
(٤) راجع الأهرام فى شهر ديسمبر ١٩١٣

الأعضاء وحفلات الأمير لهم[1] واستعداد المسئولين لحفلة الافتتاح وما ينبغى عمله لتسجيل أقوال النواب فى جلساتهم. ودعت إلى استعمال الاختزال فى ذلك ، فإن من شأنه أن يفيد لا فى الجمعية التشريعية وحدها بل فى دور القضاء والجامعة والمحافل العلمية[2] .

سياسة بديعة تلك التى رسمتها الأهرام للمطالبة بالدستور فقد أمضت ثلاثين عاماً تطالب بتغيير النظام الأساسى وإفساح الطريق أمام الشعب وإنشاء مجلس نيابى أوسع اختصاصاً وأجدر بالرعاية وأحق بالتقدير ، حتى أحس الإنجليز أن الرأى العام نضج سياسياً وقد يخشى أن يفلت زمامه ، فأنشأوا له الجمعية التشريعية .

داود بركات والجمعية التشريعية

فإذا استقرت الأمور وجرت الانتخابات وظهر بين الأعضاء الأكفاء القادرون ، وتهيأت الجمعية للنشاط والعمل حذفت الأهرام من حسابها أن هذه الجمعية شيء يغنى المصريين عن المطالبة بالدستور والكفاح من أجله ، ومثّل هذه السياسة البديعة رئيس تحرير الأهرام « داود بركات » ، فنشر عقب الانتخابات مقالا بعنوان (هل تطلب الجمعية التشريعية الدستور) ذكر فيه رأى الأهرام عن هذه الجمعية بقوله « إن الأهرام لم تدع فى القانون الجديد خفياً ولم تبق منه مستوراً بل هى عربته عرباً ونقته تنقية ، وبينت غوامضه وأظهرت للشعب المصرى أنه ليس دستوراً ولا رائحة فيه للحكم الدستورى الذى تنشده الأمة المصرية بملء جوارحها وتتغنى به فى أنديتها بل توصلت الأمهات للمغنى به فوق مضاجع أطفالها » .

ثم يذكر داود بركات أن « الأمة المصرية طلبت الدستور والأمة المسيطرة عليها أعطت النظام الجديد وهى تقول إنه خطوة إلى الدستور ، فردت الأمة المصرية بأن النظام الجديد أخذ مما كان للأمة من السلطة » . وإذن فهو يتزعم المطالبة بالدستور ويطلب إلى الأعضاء أن يكون سعيهم الأول فى عملهم التشريعى الحصول على الدستور « لأن الجمعية التى تضمهم لا تمثل رغبة المصريين وأمانيهم ، وخاصة إذا ثبت لهم بإهمال الحكومة لمقترحاتهم أنهم لا يفضلون فى جمعيتهم مجلس الشورى أو الجمعية العمومية » وفى تلك الحالة « تضطر الجمعية التشريعية بل يجب عليها أن تعود إلى طلب الدستور وتكون الفرصة سانحة

---

(١) الأهرام فى ٢٩ ديسمبر ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ١١ يناير ١٩١٤

ويكون سنوحها مقروناً باللمحة الرامقة التى لا ترد »[1] .

واحتفلت الأهرام بيوم افتتاح الجمعية التشريعية وذكرت أن « عيون الأمة كلها تتطلع إلى النواب يتبوؤن مقاعدهم ويتربعون فى كراسيهم . وآمال الأمة وأمانيها تطوف بتلك الكراسى وترفرف فوقها . وألسنتها تعوذ النواب من الشطط كما تعوذ الحكومة من شره الأثرة والأنانية . وأقلام الصحف تشحذ إما لتحبيذ وإما لنقد . وإما لإعلان المسرة والارتياح . وإما لسد ثلمة تبدو أو لإتمام نقص يظهر » . ثم يبين أن الفرحة بهذا اليوم لا تعود إلى الجمعية التشريعية وقانونها القاصر « وضيق نصوصه » بل إن الفرحة من أن الأمة « اختارت من رجالها أفضل المرشحين » فابتهجت لذلك الأهرام وحيت اليوم بالنثر والشعر معاً [2] .

وتذكر الأهرام فى يوم آخر نصاً لما قاله بشارة تقلا بمناسبة افتتاح مجلس شورى القوانين فى ٢٣ يناير ١٨٨٣ ، وما قاله بشارة من ثلاثين عاماً عن ذلك المجلس هو رأى الأهرام فى الجمعية التشريعية التى حلت محل مجلس الشورى ، وهو نقد للقانون وضيقه وأمل معلق على النواب وحدهم ، ورجاء فى المستقبل بنقل المجلس النيابى من هذا العجز فى قانونه إلى الانطلاق فى ظل دستور حر كريم ، وقد ختمت الأهرام رأى بشارة القديم بقولها « هذه هى كلمة مؤسس الأهرام منذ ثلاثين سنة بالضبط والدقة ، هذه هى روح الأهرام من يوم وجد إلى اليوم . وإذا كانت للذين خلفوا ذلك القلم الحكيم مفخرة فكل هذه المفخرة هى أنهم نسجوا على منواله فى الخدمة الوطنية الصادقة واستوحوا روحه فى كل بحث ودرس ومراد وأمنية . فحسب الأهرام اليوم وقد فتحت الجمعية التشريعية أن تقتصر على كلمة مؤسس الأهرام إلى مجلس الشورى منذ ٣٠ سنة فليس أصدق من عظته ولا أحكم من رأيه ولا أكبر من غيرته »[3] .

إغتباط الأهرام بانتخاب سعد زغلول

ثم تنشط صحيفتنا فتؤرخ لنا نشاط الجمعية التشريعية أجمل تأريخ ، فتنشر خطاب الخديو فى يوم الافتتاح ، وتتحدث عن الانتخابات التكميلية ، وتذكر بالسرور والابتهاج اختيار سعد زغلول باشا عضواً فى الجمعية ، وقد استغرق منها هذا الحديث الطويل صفحتين كاملتين فى المحليات [4] . هذا إلى المقالات المتصلة فى افتتاحياتها عن

---

(١) الأهرام فى ١٧ يناير ١٩١٤
(٢) الأهرام فى ٢٢ يناير ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٢٣ يناير ١٩١٣
(٤) الأهرام فى ٢٣ يناير ١٩١٣

الجمعيه والموضوعات التى تدرسها شهراً بعد شهر[1] .

وليس يعنى إعجابها بأن يكون أمثال سعد باشا زغلول فى الجمعية التشريعية — ولها فى سعد زغلول رأى ليس هنا مكان بسطه — أن تهمل نقدها إذا قصرت ، فقد بدأت الجمعية عملها فإذا الخلاف يدب فى صفها وخاصة حين أخذوا يتباحثون فيمن يقدم على الآخر ، وكيل الجمعية المعين أم المنتخب ؟ فكتبت مقالا افتتاحياً بأربعة عناوين تقول فيه « إلى العمل يا نوابنا للتعاضد لا للتحاسد — للتآزر لا للتنافر — للمناقشة لا للمنافسة — لمصلحة الجمهور لا لمصلحة الأفراد — للنظام لا للأثرة والفوضى — لخير مصر ولسلطة أمتها لا للمنابذة »[2] ومضى المقال فى هذه المعانى التى جعلها عنواناً له .

وهى تشكو للرأى العام نوابه فى افتتاحية بديعة. وذلك لإهمال الأعضاء حضور الجلسات وسكوت المواظبين عن تبكيت المتخلفين ، وإن كان سكوتهم « لا يقفل باب اللوم فإن للأمة عيوناً ترقبهم وآذاناً تسمعهم وألسناً تعنفهم على التقصير وتطالبهم بالجد والجهد والعمل بلا كلل ولا وناء » . وهى تحمل على هؤلاء المقصرين الذين لا يعرفون واجباتهم ولا يحسون وخز الضمير إذا قصروا فى أداء الرسالة التى ندبوا لها ، فإن النواب الذين يعتبرون أنفسهم زينة فى الجمعية أو يعتبرون كرسى الجمعية زينة لهم . ولا يضعون فوق كل شىء وقبل كل شىء العمل يجب علينا أن نسألهم ما هى النيابة ؟؟ ولماذا هم نواب . ولماذا انتدبوا ولماذا انتدبتهم الأمه وأنابتهم عنها ؟ »

ثم يمضى مقال الأهرام فى هذا الأسلوب القوى ينقد الأعضاء ويبين للشعب تهاونهم ، وهى لا تقصد تبكيتهم لمجرد التبكيت ، فإنها لم تتخذ ذلك دستوراً فى حياتها الطويلة ، بل هى تنتقد حين ينبغى النقد ، وتمدح حين يحسن المدح . إستمع إليها تقول « إذا نحن امتدحنا النواب فى همتهم ونشاطهم فالواجب علينا أن نبحث عن النقص فى أعمالهم لأن الإصلاح لا يكون من النظر إلى الحسنات وإبرازها للشعب . بل يكون من النظر إلى العيوب وإبرازها للعاملين حتى يصلحوا الخطأ ويمحوا العيب وإلا كان وقوفنا موقف المادحين مفضياً إلى اعتقاد نوابنا بأنهم خلوا من كل وصمة وخلت أعمالهم من كل عيب فتتراخى هممهم وتخور عزيمتهم وتذهب حسناتهم »[3] .

---

(١) الأهرام من أواخر يناير إلى شهر فبراير ١٩١٤
(٢) الأهرام فى ١٣ فبراير ١٩١٤
(٣) الأهرام فى ٨ مايو ١٩١٤

وقد ذهبت الجريدة فى مقالها هذا إلى أن نواب الأمة ينبغى ألا يطمئنوا إلى حصاناتهم الدستورية ، فإن الصحافة رقيب خطير الشأن فى مقدوره أن يهز كراسيهم إذا أغفلوا مصالح الشعب أو تهاونوا فى أداء الواجب وتحقيق الرسالة الموكولة إلى ضمائرهم . وأثبتت صحيفتنا أنها بحق رقيب يخشى بأسه ، فقد عرف الناس عنها أنها صاحبت الحياة النيابية منذ حاولها المصريون بعد تقرير المسئولية الوزارية فى عهد الخديو اسماعيل ، وعرفت حلوها وبلت مر الصورة الممسوخة التى أرادها الإنجليز لمصر منذ احتلالهم البلاد سنة ١٩١٤ ، فكانت ملاحظاتها وتوجيهاتها ملاحظات الخبير العارف الدارس الذى عاش عن قرب من هذا النشاط الدستورى ، وصاحبه جيلاً بعد جيل .

وهكذا أخذت الأهرام على عاتقها هذا الكفاح فى سبيل الدستور منذ طلعت فى القاهرة سنة ١٩٠٠ إلى أن قامت الحرب العظمى فى صيف سنة ١٩١٤ ، فوقف النشاط الدستورى بقيامها ، واتخذت السلطات البريطانية والمصرية إجراءات مع الصحف حجبت نشاطها فترة الحرب ، فوقف هذا الاندفاع الذى صورناه من خلال دراستنا لتاريخ الأهرام فى تلك الفترة ، وبدأت صفحة جديدة سوف نعرض لها فى فصول تالية.

كفاح العنصرية

قــد ضمنا ألم الحيــاة وكلنا بشكو، فنحن على السواء وأنتمُ

«حافظ إبراهيم»

لم يفكر الإنجليز يوم احتلوا مصر فى التفريق بين عناصر الوطن من مسلمين وأقباط ، فإن حاجتهم إلى التفريق بين العنصرين لم تكن ملحة فى أوائل عهد الاحتلال حتى انصرم القرن التاسع عشر ، وتهيأ المصريون فى مستفتح القرن العشرين إلى استقبال يقظة وطنية لم تعرف من قبل ، وكاد اتحاد المصريين أن يعصف بالاحتلال وأصحابه ، فالتمس الإنجليز وسيلة يحاربون بها هذا الاتحاد الوطنى ويفصمون عراه القوية فلم يجدوا غير هذا النغم البغيض إلى النفس، نغم «أقباط ومسلمين» . . . ويشاء الجهل والتخلف عن موكب الحضارة وسوء التربية السياسية ، يشاء هذا كله أن يعاون الإنجليز فيما رسموا من خطط ، فتدب الوقيعة بين المواطنين فترة من الزمن يشغلهم فيها التحزب للدين عن أداء الواجبات الوطنية وفى مقدمتها المطالبة بالجلاء والدستور .

تحزب الصحف للدين

وقد تحزبت الصحف للفريقين ، وانصرفت عن البحوث النافعة ، ونزلت إلى هذا الميدان الجديد ، بكل ما تملك من جماح وتهور ، وما تستطيع من شعر ونثر ، وإذا الناس يصبحون فيقرأون صحف (مصر والوطن) وفيها من الإقذاع فى دين المسلمين ما يجل القلم عن ذكره ، ويمسون فيقرأون (اللواء والمؤيد) وفيهما من الزراية بدين المسيح ما يسمو البيان عن ترداده[1]. واختفت القضية الوطنية أو نحيت جانباً حتى يفرغ المتخاصمان من أبناء الوطن من معاركهما ، والاحتلال واقف يتفرج ، يبارك هذه الخصومة بين الصحافة القبطية والصحافة الإسلامية ، فى تلك الخصومة نعيم له وراحة ، وخسارة واضحة للقضية

(١) راجع تلك الصحف التى ورد ذكرها سنة ١٩٠٧ وما بعدها من سنوات

الكبرى التى نسيها المواطنون فى غمرة المقارعة وزحمة النقاش حول خلاف لا يليق إلا بالجهلاء والمتأخرين . ولا يحسن إلا بقوم فقدوا أهليتهم فاستحقوا الولاية وهى غاية المحتلين

موقف الأهرام من المحنة

إلى أى الجانبين وقفت جريدة الأهرام الرزينة ؟ لم تقف إلى جانب منهما بل كانت خصماً للفريقين معاً ، إستمع إلى كاتبها داود بركات وهو يحدثنا عن (مضاعفة الداء وجهل الطبيب) بهذا الأسلوب الذى يفيض ولاء للوطن وحسرة على بنيه : قال متحسراً ، « وليت المصيبة عند الداءين ، داء الاحتلال وداء الإهمال بل هى ضوعفت بما هو أشد وأنكى . ضوعفت بالتفريق بين العناصر بسياسة اللورد كرومر الذى فرق بين المسلم والمسيحى فى المناصب ، حتى امتدت روح هذا التفريق إلى قلوب كتاب الطوائف وصحافييهم ، فنقروا على هذا الطنبور الإنكليزى وأوجدوا فى البلاد شيئاً من روح التحاسد والتباعد وهم يظنون — سامحهم الله — أنهم يغارون على أبناء ملتهم ودينهم ويحسنون بذلك صنعاً ، ولم يدركوا السر العجيب فى هذه السياسة ، سياسة حكم ٣٠٠ مليون فى الهند بهذه الروح التى جعلت الهنود بعضهم لبعض عدواً » .

ثم يذكر الكاتب الأديب أن « مصابنا الأول الاحتلال ، وهو لا يداوى بالكلام بل بالقوة والعقل وحسن التدبير والترقى الصحيح حتى يصير المصرى كالإنكليزى بصدق الوطنية والغيرة على بلاده وحب الحرية والنجاح والعدالة وتوخى ما ينفع البلاد وتجنب ما يضر بها . فتربية الأمة هى الأساس إذن لنيل كل أمانيها » . ثم يحذر المصريين من مغبة الانقسام « إن كل وطن ينقسم على نفسه يخرب — وتلك آية فى سفر حكمة سليمان الحكيم — فإذا قسمنا الوطنيين المصريين إلى مسلمين ومسيحيين ضعف الوطن ، فالحكمة تقتضى بجمع كل عنصر فى قوه مصر حتى تقوى » . ثم يأخذ داود بركات فى ضرب الأمثال على صدق ما يقول وتأكيد حكمة سليمان قائلا : « . فاليابان أحسن أنموذج فإنها ضمت كل عناصرها — المؤلفة من أديان مختلفة — تحت اسم الوطنية فنجحت . فإذا اتخذنا عظة من ذلك صرنا قوة رهيبة . »[1]

وأوغر دعاة التفرقة صدور الأقباط ، وأوهموهم أن الإنجليز يفكرون فى منح الدستور لمصر ، وأن حقوقهم كأقلية ستهمل فى العهد الجديد ، ففزع بعضهم إلى الوكالة البريطانية

---

(١) الأهرام فى ٢٧ يوليه ١٩٠٧

معلناً احتجاجه أو تخوفه ، وقامت فى الصحف ضجة زادت أوار المعركة بين العنصرين ، فعز على الأهرام موقف تلك « الأقلية » من الأقباط التى جعلت وجهتها الاحتلال تقصده واهمة أو شبه واهمة ، وحملت على الإنجليز صانعى هذه الفرقة ومغذيها ، فإنهم فى رأيها أصحاب الوحى بذلك كله حتى يصيدوا فى ماء عكر ، ودعت الأقباط إلى الانصراف عن هذا الخوف الذى لا مبرر له ، وطلبت إليهم أن يأخذوا من وحدة اليابان مختلفة الأديان مثلا وقدوة ، ورجت جميع المصريين أن ينكروا كل ما من شأنه أن يفرق وحدتهم ويتشبثوا بجنسيتهم المصرية وحدها[1].

المؤتمر العام

كان لمقال الأهرام صدى عند عقلاء الفريقين ، وكانت الحزازات الدينية لم تبلغ بعد أوجها على الصورة التى شرحناها فى صدر هذا الفصل ، فاجتمعت نخبة من الأقباط والمسلمين فى مؤتمر عام ، وأشاد الخطباء فى ألفة العنصرين ، ومكانة هذه الألفة فى التاريخ المصرى قديمه وحديثه ، وقرر المؤتمرون أنهم براء من فعلة تلك الفئة من الأقباط الذين ذهبوا يستعدون الاحتلال على البلاد ، وقد نشرت الأهرام ذلك كله فى حماسة وإعجاب بالمؤتمر والمؤتمرين[2].

دين السماحة

ولو أن الخصومة كانت بين العنصرين وحدهما لهان الخطب ، ولكان فى مقدور الصحف المعتدلة أن تعالج الأمر بالحكمة ، بيد أن غلاة الأقباط أثاروها حرباً فى مصر والخارج حتى خيل للفرنجة أن الإسلام والمسيحية يتطاحنان ، وأن الدين المسيحى فى أرض وادى النيل يلقى إرهاباً وعنتاً ، ونشرت الأهرام تفاصيل السعى الذى سعى إليه المسلمون لتكذيب ذلك[3]. ونشرت الافتتاحيات المفصلة تتحدث فيها عن الدين الإسلامى ، وأنه دين السماحة والفضائل ، وأن كل ما يقال فيه ويشاع عنه لا يتفق مطلقاً مع تعاليمه الصحيحة ، وأن المسيحية تلق من هذا الدين مكانها المقدور وتحيتها الرائعة ، وأن القائمين على أمر هذا الدين فى مصر ينفذون تعاليمه الطيبة تنفيذاً لا يستدعى هذا الاضطراب الذى يسود مسيحيى مصر وأوربا .[4]

(١) الأهرام فى ١٩ مارس ١٩٠٧
(٢) الأهرام فى ٢٢ مارس ١٩٠٧
(٣) الأهرام فى ١٥ نوفمبر ١٩٠٧
(٤) الأهرام فى ١٦ نوفمبر ١٩٠٧

وعي قومي لا تعصب ديني

غير أن الصحف الأوربية فى الخارج والصحف الفرنجية فى مصر وصمت المصريين المسلمين بأقبح النعوت ، فزعموا أن فكرتهم الدينية تملك عليهم قلوبهم وعواطفهم ، وأنهم أقرب إلى الهمج منهم إلى المتحضرين ، وأن مطالب المسلمين الخاصة باستقلالهم وحريتهم مصدرها الوازع الدينى لا الوعى السياسى . فردت الأهرام فى افتتاحية عنوانها (الإسلام يهتاج) ذكرت فيها أن « الفرنج يغفلون عن تقدير شعور الإنسان حق قدره فيتوهمون أنه لولا الإثارة الدينية ما وقفت مراكش فى وجه فرنسا . ولا مصر ولا الأفغان فى وجه إنكلترا . ولا القفقاس وإيران فى وجه الروس . كبر والله ضلالاً ما يتوهمون ، فكل نفس حية نزوعة إلى استقلالها فى مسكنها حتى الحيوان الأعجم يثور فى وجهك إذا دخلت مربضه ، فإذا سمع الإفرنج كلمة الدين من شعوب الشرق فليعتقدوا أن هذه الكلمة فى الحقيقة تعادل كلمة الوطنية عندهم الآن حرفاً بحرف بل هى تعادل كلمة الدين عندهم على عهد شارل مارتل . . . . »[1].

المسألة القبطية

ومن أقبح ما يذكر للاحتلال وقدرته ، ورجال الاحتلال وكفايتهم ، أنهم استطاعوا أن يفرقوا بين الأخوين لا شهراً ولا سنة بل سنوات متصلة خسرت فيها القضية المصرية خسارة فادحة نتيجة تفرق المصريين شيعاً وأحزاباً ، والتفاتهم إلى المسائل الدينية وحدها ، وإدخال هذه المسائل فى شؤون الحكومة التى طالبها الأقباط بوظائف لم يكن الجيل يحتمل أو يهضم وجودهم فيها . فكتبت الأهرام افتتاحية بعنوان (المسلمون والأقباط) ناقشت فيها أقوال الطرفين فى هدوء ، ودعتهما إلى التريث وخفض هذه النعرة التى كادت تعصف بكل ما كسبته الحركة الوطنية . وقالت عن « المسألة القبطية » التى خلقها الطرفان بسوء التدبير فى الوسط المصرى « إنها مسألة كبيرة الإسم حقيرة الجسم » ، ولفتت نظر المسيحيين عامة إلى أن بعض الوظائف فى الدول التى تسبقنا فى المدنية تراعى العامل الدينى فى شاغلها « وهذه روسيا تعين المسلمين فى أرقى المناصب ولكنها لا تعين حاكماً إدارياً مسلماً فى مقاطعة نصرانية أو مقاطعة تكون غالبية أهلها من النصارى » . ثم تذكر أن مطالب الأقباط جاءت فى عنف لا يستقيم مع طبائع الأشياء « وليس من حسن سياسة الأقلية فى أمة أن تغتصب المساواة والحرية والإخاء اغتصاباً من الأكثرية بقوة الحكومة .

(١) الأهرام فى ١٥ مايو ١٩٠٨

بل إن حسن السياسة يقضى عليها أن تبذل كل ما بوسعها لبث روح الإخاء والمساواة حتى تنال ما تتمناه برضى مجموع الشعب أو طلبه »[١].

الدين لله والوطن للجميع

ويسوء الأهرام – وصاحبها مسيحى – أن تذهب صحف المسيحيين هذا المذهب العنيف فى معالجة الأمر ، فكتب افتتاحية بعنوان (حسبكم وكفى) تعاتب فيها تلك الصحف وتأخذ عليها مغامرتها « فى هذه المسألة حتى ذهب منها الحق وكاد الباطل يقوم مقامه . وذهب منها جوهر الإخاء والعدالة والمساواة بين الوطنيين حتى كاد عامل التفريق والانقسام يحل محله . . . . » . وأنها لتحذر فى لباقة من هذا الإسراف الملحوظ فى مناقشة الأمور الدنيوية وربطها بالعامل الدينى ، فإن الوطن عندها للجميع والدين لله وحده . وما ينبغى أن يكون فى الوطن تفكير غير هذا التفكير [٢]

ويشاء سوء الحظ أن تستمر الخلافات الدينية سنوات متصلة ، وأن يربط الخصوم بين السياسة والدين ، ويشاء القدر أن يزيد فى هذه الفرقة ويعمل لها ، فإذا برئيس الحكومة بطرس غالى باشا يصرع بيد مسلم ، ولم تكن الأهرام حفية بالرجل فى حياته ولا مقرة لسياسته ، ولكنها تنعاه أجمل النعى[٣]. وتحمل على وسيلة العنف فى خلافات الرأى وتنشر ما قيل فى بطرس غالى وما ذكرته الصحف عنه بمناسبة مصرعه[٤] وتفصل أخبار محاكمة الجانى الذى حاد عن الطريق القويمة وارتكب جرماً أجمع المسلمون على استنكاره ، ثم عددت مظاهر هذا الاستنكار التى بدت واضحة فى الصحف وبرقيات العزاء[٥].

وترك مقتل بطرس غالى فى نفوس الناس أثره ، وتزاحموا على انتهاز تلك الفرصة فزادت السخائم بين العنصرين واشتدت المعركة بين الصحف العربية إسلامية وقبطية، وبكتتها الأهرام فى افتتاحية تمتاز بأسلوبها وحرارتها : « أكلما طار فى جو مصر طائر . واهتز فى حدائقها غصن مائل . ورشق فى فضائها سهم خائب أو صائب . ونطق من خطبائها خاطب . وكتب من كتابها كاتب . وخطب فى غاباتها خاطب . وانقض من سمائها نيزك أو شهاب .

---

(١) الأهرام فى ٣ يونيه ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ١٠ يونيه ١٩٠٨
(٣) الأهرام فى ٢١ فبراير ١٩١٠
(٤) الأهرام فى ٢٢ فبراير ١٩١٠
(٥) الأهرام فى شهر مايو ١٩١٠

وساخ من أرضها فتر أو شبر . وجن من أبنائها مهتلس أو مفتون . . وجمع من جيادها شموس أو حرون . تثور فى الصــدور مراجل الأحقاد . ويتراشق الناس بالمذهب والاعتقاد ؟ ؟ ؟ » .

عتبها على الصحافة

وإن الأهرام ليؤرقها أن يتفق المتعلمون والجهلاء فى النظر إلى المسائل العامة هذه النظرة الضيقة من خلال التطاحن الدينى ، وإنها لتعيب على الصحافة الوطنية موقفها الذى لا خير فيه وهى المسؤولة عن إرشاد الأمة وهديها « أهى مدركة شاعرة بثقل الحمل وبهظه ؟ أهى ناظرة مبصرة ضرر التفريق وإثارة النفوس ؟؟ ألا إن أمامها أمرين خطيرين ، الأول هداية الأمة وإرشادها ، والثانى إضلالها وإركابها أخشن مركب . وإذا كانت الحكومة قادرة على حفظ الأمن بالقوة ، فهى عاجزة عن الإرشاد والتهذيب القادرة عليهما الصحافة وإذا ما اتبعت صحافتنا الأهواء ونزوات الرؤوس كانت جريمتها فظيعة وشرها عظيماً . وإذا حكمت العقل وكبحت جماح النفس كانت خدمتها جليلة ونفعها جزيلا . وبكلمة واحدة يتسع الخرق على الراقع ، وبكلام حكيم كثير يدفع الشر ويغرس الخير فالوئام الوئام ، فإن فيه وحده خير هذه البلاد ولا أدرى من يربح من التفريق بل يقينى أنه لا يربح منه أحد غير الإنكليز »[1].

وهذا القول الحكيم الذى تنشره الأهرام ، وهذه الآراء التى تستوحيها من الضمير النقى والنفس الصافية ، لم يلق بالطبع رضاء من غلاة الفريقين ، فإنها تكاد تكون وحدها بين الصحف المعاصرة التى تدعو إلى تصفية الخصومة فى مقالاتها الافتتاحية وفى أخبارها وبين سطورها ، وتنشر فى ذلك كلمات لعقلاء المواطنين مسلمين وأقباطاً ، سواء جاءت كلماتهم فى نثر أو طلعت بها على الناس شعراً[2] . كما نقدت بعنف موقف ناظر المدرسة الخديوية الذى يعاون على اتساع الخرق بنقل خطأ صدر عن طالب مسلم بعد مقتل بطرس غالى باشا[3] .

وأحس المصريون أن الخلاف الدينى جريمة فى حق الوطن ، فتألفت من بينهم لجنة ضمت شخصيات من المسلمين والأقباط أخذت على عاتقها أن تزور الصحف

---

(١) الأهرام فى ٢٥ فبراير ١٩١٠
(٢) الأهرام فى أول مارس ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ٤ مارس ١٩١٠



أول صورة ليلية تنشر فى مصر على صفحات الأهرام

الإسلامية والمسيحية فى مصر وتدعوها إلى وقف التناحر باسم الدين ، وزارت اللجنة فيما زارت جريدة الأهرام ، ورحبت الأهرام بالغرض النبيل الذى دعا أعضاء اللجنة إلى ذلك ، وإن ذكرت فى آخر تلك الأخبار أن ما تسعى إليه اللجنة الآن إن هو إلا صدى لنهج الأهرام على مدى الأيام[1] وهى وإن لم تجعل نقاش زميلاتها أصلا من أصولها الصحفية فقد روعها فى الوقت الذى يسعى إليه المخلصون للقضاء على الخلافات المذهبية أن تذهب جريدتا (الوطن ومصر) مذهباً يسد على لجنة التوفيق طريقها ، فأذنت بنشر كلمة لمسلم هو إسماعيل لبيب يحمل فيها على الجريدتين حملة غاية فى العنف والشدة[2].

تنكبوا عصر الجاهلية

وقد كان المسلمون يجدون مكاناً فسيحاً لهم لمناقشة جريدة مصر والرد عليها ، وإن كانت المقالات يغلب عليها الاعتدال ، فلم تصدر فيها عن كتابها كلمة نابية أو خروج عن أدب النقاش ، ودأبت الأهرام على أن تعلق على كلمات الكتاب المسلمين راجية فى آخر كل مقال الابتعاد عن حشر الدين بين المتجادلين « فلهذا نستقبح (فلتغفر لنا شدة التعبير) طريقة الصحف السياسية فى تحولها إلى دينية حتى أعادتنا إلى عصر الظلام والجاهلية . كأننا هنا أديان تتطاحن . لا أحزاب فى السياسة تتنازع وتتجاذب وتتشادد على ما هو أصلح للحكم والإدارة » . ثم تبين لجميع المواطنين أن الدين لا ينبغى أن يدخل فى حساب الحكم ونظرياته « وإنا نفضل أن يحكمنا وثنى عادل مصلح على أن يحكمنا ربانى ظالم مفسد ، لأن المفسد يفسد الدنيا والدين والمصلح يمكن الناس من الصلاحين صلاح الدنيا والآخرة »[3].

ولا تتوانى الأهرام فى كل يوم عن نشر مقالات من عندياتها تدعو إلى الوئام والوحدة بين النصارى والمسلمين[4]، مناقشة فى كثير من الأوقات أقوال الفرنجة الظالمة فى « الإسلام ونهضته »[5]. ثم تطلع علينا بقصيدة من شعر حافظ إبراهيم ، حمل فيها الشاعر على الخصومة الدينية بين المواطنين أقباطاً ومسلمين

فهموا من الأديان ما لا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم

---

(١) الأهرام فى ١٤ مارس ١٩١٠

(٢) الأهرام فى ١٥ مارس ١٩١٠

(٣) الأهرام فى ٢٨ سبتمبر ١٩١٠

(٤) الأهرام فى أول أغسطس ١٩١٠

(٥) الأهرام فى ٢ سبتمبر ١٩١٠

ماذا دهى قبطى مصر فصده عن ود مسلمها وماذا ينقم
وعلى م يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكائد نُوَّم
قد ضمنا ألم الحياة وكلنا يشكو فنحن على السواء وأنتم[1]

وتطلع الأهرام علينا فى شهر يناير من سنة ١٩١١ بمقال ممتع هو قطعة من الأدب المنطق ، تتحدث فيه عن تلك الخرافة التى يسمونها أقباطاً ومسلمين ، فإن تهويل المهولين هو الذى خلع على البيئة المصرية هذا العنوان القبيح الذى يعنى التفرقة بين المسلمين والأقباط وأن الشعب بمنجاة من هذه السوءة « والدليل على صحة قولنا أن الصاخبين والضاجين والصائحين والخاطبين . والمنادين ،، والمشرين . والمنقرين . والمزمرين . والمطبلين والراقصين . والمنشدين والمرتلين والعازفين والزاعقين . والقائلين والمرددين : « أقباط ومسلمون . ومسلمون وأقباط » . قد صرفوا ثلاث سنين أو أكثر من ذلك فى صياحهم وضجيجهم وأجيجهم وعجيجهم حتى أنهم استنفدوا قاموس اللغة وعبارات الإنشاء . وجمل التهويل . وحوادث التاريخ . ونبشوا كل القبور من آدم إلى موسى ومن موسى إلى عيسى . ومن عيسى إلى محمد . ومن محمد إلى اليوم . ولم يظفروا بنائل ولم يعودوا بطائل . ولم يحركوا من هذا الشعب ظفراً . ولم يهزوا عصباً . وكل ما حركوه أو ظنوا أنه حركة كبيرة . أقلامهم فى أيديهم وخواطر فى رؤوسهم وبغائم فى صدورهم . وبعض محررين فى جرائدهم . وبعض صغار الكتاب فى صغار الدواوين . وصغار الأحلام فى صغار البيئات . كما تحرك الحصاة الصغيرة تلقيها فى اليم الكبير القطرة التى تلقى عليها . أما الخضم فساكن هادئ . وتلك القطرة لا تلبث تعود إلى سكونها » . .

صوت الحقيقة

ثم تذكر الأهرام أن حديثها هذا ستتلقفه القلة من الطرفين ساخطة عليها « ولكنا نسمع صوت الحقيقة يقرع آذاننا وآذانهم وقلوبنا وقلوبهم بأنا أرضيناها وبأنا قلنا الذى لا يقبل النزاع » . ثم تتحدث عن مصر ، وأن ما صنعته الطبيعة من آيات الوحدة فيها جعلت المصريين « كتلة واحدة متضامنون متساندون متآزرون متماسكون » وإن شطر هذه الكتلة مستحيل مهما يبذل خصومها ، وأن ما يصيب المسلم من خير سيشعر به المسيحى « وهل يظن عاقل بل مجنون أن الضرر إذا حل بزيد المسلم لا يتناول عمراً النصرانى . وإذا ما خسر بكر النصرانى لا تتناول الخسارة حسيناً المسلم . بل هل يمكن ونحن فى القرن العشرين أن

(١) الأهرام فى ٢٢ أكتوبر ١٩١٠

ننصر ديناً على دين أو أن نفنى لغة العرب — مثلا — لنحيى لغة الأقباط . . . » .

ثم تختم الأهرام هذا المقال الرائع الذى سيكون له وقعه فى جميع الدوائر كما سنبين فيما بعد ، تختمه بقولها « هذه حقائق لا تقبل الجدل والمماراة لا نسردها لنبين للذين يقولون « مسلمون وأقباط ومسلمون » أنهم مخطئون فقط بل لنبين لهم أن الشعب الذى يزعمون أنهم ينطقون باسمه لا يعرف نفسه فى مرافق الحياة إلا أنه شعب مصرى لا يجزأ ولايقسم ، فهو يمر بأقوالهم مروره باللغو . . . »[1]. وهكذا كتب الكاتب مقاله مستوحياً فيه وطنيته ، مغفلا دينه ، معتبراً أن للوطن حقاً على المصريين سواء كانوا أقباطاً أو مسلمين.

ويظهر أن مقال الأهرام كان له أثره ، الأمر الذى دعاها إلى أن تبشر المصريين « بتصافح الأخوين » ذاكرة ما كان لمقالها من تأثير فى كلا الطرفين فقد « أبنا بالبرهان المحسوس والحجة الدامغة أنه لا يوجد سبب للشقاق والخلاف والخصام بين العناصر المصرية . وقد ظهر لنا اليوم أنا رمينا عن قوس عقيدة الجميع وأن كلا منا أصاب هوى من أفئدة الجميع . فظهر الوطن وبرزت مصر مرحبتين بالدعوة حاملتين كلام (العلم والأهالى) على محمل حسن سررنا له وفرحنا به . وإن لم يسر ويفرح دعاة التفريق ورسل التمزيق »[2].

فضل الأهرام فى إزالة الشحناء

ثم تنشر الأهرام خطاباً موجهاً إليها من واصف بك غالى يشكر لها فى أوله مواقفها المتصلة للقضاء على الخلاف الدينى ، ويحمد لها سعيها فى سبيل التوفيق بين النصارى والمسلمين ويشكر واصف بك غالى الظروف التى أثبتت أن الانقسام بين عنصرى الأمة « لم يستند ولم يكن مستنداً إلا إلى سوء التفاهم الذى زال الآن . ولا يجب على الجرائد بعد الآن أن تدعو إلى التوفيق والاتفاق . بل يجب عليها أن تعلن وجود ذلك الاتفاق وأن المصريين جميعاً ذوو دين واحد وهو دين الواجب وأنهم جميعاً متساوون فى الغيرة على عبادة الوطن المقدسة . فلننس الماضى إذن إذا كان الماضى قد مضى بذكر الشبهات والريب والحقد والضغينة والاحتقار أو الازدراء . . . » ثم يختم كتابه للأهرام بقوله : « فلنتحد اتحاداً لا يبقى مجالا لوجود فرق بين مصرى ومصرى ولنشتغل معاً لغرض واحد فقط وهو خير وطننا وعظمته »[3].

---

(١) الأهرام فى ٧ يناير ١٩١١
(٢) الأهرام فى ١١ يناير ١٩١١
(٣) الأهرام فى ٢١ يناير ١٩١١

" وهكذا مضت الأهرام تضرب على هذا النغم، نغم الاتحاد فى سبيل الوطن وسعادته، وكاد الجرح يندمل بما كتبت ، وبما كان لكتابتها من صدى عند كتاب الصحف المسيحية الأخرى كجريدتى الوطن ومصر والصحف الإسلامية كجريدتى العلم والأهالى، وهى الصحف التى تمثل فريقى المتخاصمين ، وجاء كتاب واصف بك غالى بلسماً يرطب ويطب للعواطف المهتاجة ، وجاءت بعد ذلك ذكرى مقتل بطرس باشا غالى ، فإذا خمسة آلاف من المواطنين يقدمون لضريحه تحيتهم وهم من « النصارى والمسلمين واليهود »[1]. وفى ذلك من معانى الاتحاد ما لا يخفى على بصير ، وعلامة طيبة يرجى كما تقول الأهرام أن يستغلها المواطنون للقضاء على الفرقة التى دبت فى صفوفهم "

" بيد أن فريقاً من الأقباط دعا إلى عقد مؤتمر فى أسيوط يبحث فيه المؤتمرون الأقباط قضاياهم ويحددون فيه مطالبهم ، ورفضت الحكومة أن يجتمع المؤتمر إلا فى القاهرة ، فضاقت الأهرام بتفكير الحكومة وتفريقها بين المدن وحرمان بلاد من القطر من الحرية التى تستمتع بها بلاد أخرى كالعاصمة ، غير أنها لم ترحب بفكرة المؤتمر إذا كانت للمؤتمرين مطالب تدعو إلى التفرقة التى تغنت منذ أسابيع بالقضاء عليها [2] "

المؤتمر القبطى

" ثم تمضى الأهرام فى مقال افتتاحى حاملة حملة رائعة على المؤتمر القبطى ، مبينة خطره، وما ينجم عنه من توزيع الجهود والتفريق مرة أخرى وبصورة أوضح بين المصريين ، وأخذت إلى جانب الحملة على المؤتمر القبطى تنقد فكرة التسمية فى المؤتمر الإسلامى — وهو رد على المؤتمر القبطى — وكانت ترجو أن يسمى المؤتمر المصرى وأن يفسح فيه المجال للمصريين دون النظر إلى دين أو مذهب. غير أنها قطعت الأمل من المشرفين على المؤتمرين معاً وأخذت تتجه بسياستها إلى « ناشئة هذه البلاد وزهرة شبان أهل الشرق عامة وهم الذين يقيمون البراهين منذ بضع سنين على سمو أفكارهم وصدق وطنيتهم وإخائهم وهوادتهم ، وكلمتنا إلى الناشئة ألا تتأثر بالعتيق البالى مما يبسط أمامها الآن من كلمة التفريق بالمذاهب والأديان ، فإن كل هذا القديم الذى نراه إذا نزى بين حين وآخر فإنه بائد زائل فى القريب العاجل . والباقى الدائم الذى تعيش به مصر وتعيش له وتبنى عليه مستقبلها الزاهر — بإذن

(١) الأهرام فى ٢٢ فبراير ١٩١١
(٢) الأهرام فى ٧ مارس ١٩١١

الله – هو ما يكونونه هم أنفسهم لأنفسهم من صادق المدنية وواسع الحرية وصحيح الوطنية . . . » .

المؤتمر المصرى

ثم ينقل إلينا محرروها أن الذين يشرفون على المؤتمر الإسلامى قد رأوا بعد دراسة أن يطلقوا عليه اسم (المؤتمر المصرى) وتذكر لهم الأهرام هذه اليد[1] ثم تنشر فى محلياتها على نهرين بعنوان (حول المؤتمر المصرى) كلمة تتنبأ فيها بخير كثير من ذلك المؤتمر إذ « أنه سيكون مؤتمراً ملؤه الموادة ونسيجه الحكمة والتؤدة وغايته الالتحام لا التفريق ومقصده ما يتمناه كل محب لمصر والمصريين وأول هذه الدلائل المد للجنة بالوقت حتى تخمد جذوة الانفعال ثم تغيير الإسم وقبول من يريد الاندماج فيه من غير المسلمين »[2] .

حقاً إن المؤتمر الإسلامى ، أو المؤتمر المصرى كما سمى فيما بعد ، لم يدفع إليه إلا انعقاد الأقباط فى مؤتمر أسيوط ، وكان الموحى به الفكرة الدينية فى أول الأمر لكن رئيسه رياض باشا يؤازره بعض الصحف المعتدلة كالأهرام ، رد المؤتمر إلى الهدوء والنظر إلى الأمور المصرية نظرة الفاحص الخبير لا نظرة المتعصب فطير الرأى ، لذلك كانت أخبار المؤتمر وأحاديثه تشغل صحيفتنا ، وكانت تلك الأخبار تستغرق منها أكثر من ثلاث صفحات .

وقد اختلفت النظرة إلى هذا المؤتمر ، فرأته الصحف الوطنية المعتدلة فرصة ليضع الأمور فى نصابها ، ويبعد الوطن عن الشقاق الذى استحكم بين أبنائه ، لذلك رحبت جريدة كالأهرام بعقده وجوّه ، بينما نظر إليه الاحتلال نظرة المتفائل الذى يرجو أن يكون هذا المؤتمر صفحة جديدة للضغائن والأحقاد ، ووسيلة من وسائل التفرقة بين المسلمين والأقباط ، فرحب المحتلون بعقده ، وخاصة حين كان يسمىّ « المؤتمر الإسلامى » ، فى ذلك معنى يزيد النار لهيباً والمعركة أواراً ، فإذا تغير اسمه ، واعتدلت فيه طرائق النظر إلى المسائل العامة ، كان صدمة للاحتلال وأنصاره .

وأخذت الأهرام تتحدث عن المؤتمرين فى مقالات افتتاحية بعد أن ختم كلاهما أعماله ، وقد كانت ترجو أن يكون المؤتمران خاليين من الفكرة الدينية ، وأن ينصرف كل منهما إلى النظر فى المسائل العامة دون قيام وزن للعنصرية الدينية وإن بينت أن المؤتمر المصرى ناقش – إلى جانب مناقشته لمطالب الأقباط – أموراً عامة يحسن أن يدرسها

(١) الأهرام فى ١٣ مارس ١٩١١
(٢) الأهرام فى ١٥ مارس ١٩١١

المصريون ليحققوا الخير لبلادهم عن طريق تنفيذها ، ثم ختمت آخر المقالات متمنية أن يكون المؤتمر المصرى « فاتحة لمؤتمرات أخرى . . . فتضم مصر فى حضنها كل أبنائها وكل مستوطنيها وهم مترابطون برابطة الإخاء الوطنى الصحيح ، فيصح قول المؤتمر الأول : مصريون قبل كل شىء »[1] .

نهاية الخصومة

وقد ختم المؤتمران قصة الكفاح البغيض الذى نشأ بين المواطنين من أجل الدين والمذهب ، واستطاع العقلاء أن يضموا الصفوف ويوحدوا الجبهات ويقضوا على الفتنة قضاء مبرماً . وكان للأهرام كما بينا فى هذا الفصل القصير دور تفردت به بين صحف الرأى ، فإن صحافتنا فى ذلك الخصام كانت شيعتين ، إحداهما للأقباط والثانية للمسلمين إلا الأهرام فقد كانت للوطن قبل الدين ، وعالجت الأمر بدقتها المعهودة وأسلوبها الحكيم حتى قضت على الخصومة بمعاونة العقلاء من المصريين ، وكان لها فى ذلك تاريخ مجيد . . . وصفحة بيضاء جديدة .

(1) الأهرام فى ٢٩ أبريل ١٩١١

الأهرام بين أحزاب الجيل

هواى مع الركب اليمانين مصعد　　جنيب وجثمانى بمكة موثق

« جعفر بن علبة »

تعددت الأحزاب فى مصر منذ سنة ١٩٠٠ إلى قيام الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ، فكان هناك « الحزب الوطنى » وهو أكبر الأحزاب وأكثرها خطراً ، أنشأه الزعيم الوطنى مصطفى كامل سنة ١٩٠٦ ورسم له مبادئ بقيت إلى اليوم هدى للمصريين فى كثير من المناسبات والظروف ، ثم حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ويرأسه الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، وقد أنشىء فى سنة ١٩٠٧ وهو أقل حماسة من الحزب الوطنى ، ثم أنشىء « حزب الأمة » فى نفس السنة وهو أكثر الأحزاب الثلاثة اعتدالا .

وكانت للحزب الوطنى الصدارة من تلك الأحزاب ، وكانت الكتلة الشعبية تؤازره ، ولا سيما فى سنيه الأولى ، وكانت (اللواء) هى لسان حاله كما كانت له صحيفتان فرنجيتان ، إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية ، وكانت سياسة الحزب الوطنى تستهدف قبل كل شىء الجلاء والدستور ، ولا تراعى فى ذلك الخديو أو الإنجليز ، أما الحزب الثانى ، أى حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، فكان حزباً شديد الصلة بالخديو يساير سياسة السراى ويرى رأيها فى المسائل العامة ، وكانت له صحيفة من خيرة صحف العصر هى صحيفة (المؤيد) تجرى فى فلكها صحيفة « المنبر » وبعض الصحف الصغيرة الأخرى .

وكان الحزب الثالث ، أى حزب الأمة ، يختلف اختلافاً بيناً عن الحزبين السابقين ، فرباط مصر وتركيا ليس له وزن فى سياسة هذا الحزب الذى امتاز بنخبة منتقاة من الأعضاء أصحاب الذهن الصافى والتفكير المعتدل ، وكان الانجليز يرونه حزباً معتدلا جديراً بالاحترام والتقدير ، وكانت للحزب صحيفة قوية هى « الجريدة » .

الأهرام بين الأحزاب

ولم تخل مصر بالطبع من أحزاب أخرى أقل أهمية من الأحزاب الثلاثة المذكورة وإن لم تكن لها صحف مماثلة فى القوة والانتشار كصحف الأحزاب الثلاثة الأولى، وكانت الأهرام فى مقدمة صحف مصر تحريراً وانتشاراً . فإلى أى جانب كانت صحيفتنا تميل ؟ وأى حزب من الأحزاب الثلاثة كانت الأهرام تناصر ؟ .

فأما حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية فكانت علاقة الأهرام به علاقة سطحية ، فهى لا تؤيده ولا تناهضه وإن لم تخل صفحاتها من نقده فى كثير من الأحيان ، وأما حزب الأمة فإن الأهرام على ما قرأته فى أعدادها تعتبر خصماً له ولصحيفته فى كثير من الآراء والأفكار[1] ولم تتفق معه يوماً فى اتجاه أو توجيه لأن للأهرام صفات وأهدافاً ليست فيه ، فهى مصرية عثمانية ، وهو لا يؤمن كثيراً بعثمانية المصريين . وبقى من الأحزاب الثلاثة حزب الزعيم الشاب ، فإلى أى مدى وصلت العلاقة بين الأهرام وبين الحزب الوطنى على مر الأيام ؟ .

ولم يكن رئيس الحزب الوطنى غريباً على الأهرام ، فهو واحد من محرريها المصاحفين ، وعلى صفحاتها قرأ المصريون أول ما كتب زعيمهم فى السياسة والوطنية ، ومضى المصريون أعواماً لا يرون مصطفى كامل إلا على منبر الأهرام ، ولم يكن بين الصديقين من خلاف فى السياسة العليا ، فهما يناصران فكرة أن مصر للمصريين ، ويريان أنه لا بأس أن تحكم الصلة بين القاهرة والآستانة ، ففى ذلك ضمان لكيان مصر التى لولا هذا الرباط لأصبحت قطعة من انجلترا أو مستعمرة لها ، وهما أيضاً متفقان تمام الاتفاق على أن الحياة السياسية الداخلية لن تستقر إلا إذا عاشت مصر فى ظل دستور حر وحياة برلمانية صحيحة .

الأهرام ومصطفى كامل

لذلك بقى مصطفى كامل موضع حفاوة الأهرام إذا أراد الكتابة أو التحرير ، وموضع حفاوتها وتكريمها إذا ذكرت خبره فى برقية أو رسالة أو مقال ، تدافع عنه وتنصره إذا هوجم وتؤيد سياسته فى غير تحفظ ، حتى إذا أراد مصطفى كامل أن ينشر صحيفة رحبت بها ، وتلقتها لقاء حسناً وذكرت فى أبرز محلياتها أنه قد « ظهر العدد الأول من اللواء لسعادة صاحبه الخطيب الفاضل والوطنى الغيور مصطفى بك كامل ، وهو مصدر

---

(١) الأهرام فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٠٦

بمقدمة بقلم حضرته ، فيها بعد حمد الله بيان منهج الجريدة وطرق خدمة الأمة وغير ذلك مما عرفناه من حضرته خطيباً على المنابر وكاتباً على صدور الصحف فنرحب برصيفتنا الجديدة الساعية إلى غاية جعلتها نصب العيون ووقف الأعمال ، وندعو لها بالتوفيق والنجاح وكل انتشار وفلاح »[1] ولم تبخل الأهرام على زميلتها الجديدة بالتنويه الكريم ، وهو تنويه صدر عن حب صادق لصاحب اللواء وتقدير لمكانته وكفايته

استقبلت الأهرام جريدة اللواء هذا الاستقبال الجميل ، مع أن اللواء صحيفة منافسة ولصاحبها قلم قلما تقف إلى جانبه الأقلام ، ولم نشهد فى الصحف المعاصرة استقبالا لصحيفة مصطفى كامل مثل استقبال جريدة الأهرام ، مع أنه كان صديقاً للشيخ على يوسف وكان المفروض، وقد حرر فى صحيفته فترة من الزمن، أن تستقبله المؤيد مثل استقبال جريدة الأهرام .

مهاجمتها خصوم مصطفى

فإذا فكر الكاتب الخطيب « والوطنى الغيور » فى إنشاء صحف فرنجية تدافع عن وجهة النظر المصرية لدى الأجانب فى مصر والخارج ، هاجت صحف الاحتلال وصحف الإنجليز فى بلادهم لهذه الفكرة ، وطلبت بعضها من الاحتلال أن يقف هذا الفتى عند حده ، فإنه يوغر بحماسته الصدور ويدعو إلى الثورة ، وزعم بعضها أن الخديو هو الذى الذى أمده بالمال لتحقيق هذا الهدف ، فكتبت الأهرام أربعة أنهر كاملة تهاجم خصوم مصطفى كامل وتدافع عنه وعن وطنية أغنياء المصريين بعنوان (رمتنى بدائها وانسلت) قائلة إن الضيق الذى أصاب الاحتلاليين وأقض مضاجعهم هو أن الصحيفة الإنجليزية ستفضح أعمال اللورد كرومر وتوضح مساوئه فى سياسة الأمور فى مصر ، ثم بينت فى المقال أن مصطفى كامل لم يخرج عن القانون فى جميع كتاباته حتى يخشى على الأمن من صحيفته الانجليزية الجديدة « وقد قال مصطفى باشا كامل ما عن له ولم يخالف فيه القانون فلم يستطع أحد أن يمسه » . ثم تعنى الخديو من اتهامه بمد مصطفى كامل بالمال « وكأنهم يجهلون أن فى البلاد أغنياء وأصحاب ثروات طائلة يستطيعون أن ينشئوا الجرائد المتطرفة كما استطاع بعض أعضاء الشورى إنشاء تلك الجريدة التى ترضى قبل ظهورها الإنكليز وهم يلقبونها بالمعتدلة »[2].

---

(١) الأهرام فى ٣ يناير ١٩٠٠
(٢) الأهرام فى ٥ ديسمبر ١٩٠٦

صحيفة للحزب الوطنى

وهكذا فالأهرام بعد مضى ست سنوات على إنشاء اللواء لا تزال كالعهد بها موالية للزعيم الكبير تؤيده وتدافع عنه . وإنك لتقرأ كثيراً من الفصول والأخبار دفاعاً عن مصطفى كامل ونشاطه السياسى والصحفى ، وتقرأ معها فصولا أخرى تهاجم فيها خصومه من الصحف العربية التى تمالىء المحتل ، ومثلها تهاجم فيها صحف الفرنجة التى تحمل على الباشا سواء أصدرت فى مصر أم صدرت فى أوربا (١) . كما نشرت فى أكثر من عدد أخبار الحزب الوطنى وأفسحت صدرها لخطب زعمائه وبرقيات احتجاجه ومقالات أنصاره (٢)، بل أنها نقلت فى كثير من الأحيان مقالات مصطفى كامل أو أحاديث اللواء أو المقالات الهامة التى يكتبها فرنجة أو مصريون (٣) بجانب مقالات الأهرام التى اعتمدت فى إنشائها على ما فى جريدة اللواء من بيانات أو تفاصيل تتصل (بفضائح الحكم) كما كانت تسميها صحيفتنا (٤).

والأهرام تدافع عن مصطفى كامل قبيل وفاته بأيام وتسند إليه كل فكرة حسنة أذاعها فى أوساط المصريين ، وتبارك كفاحه للاحتلال وفضحه لمساوئ حكمه ، وتذكر بالخير أن الفكرة التى استهدفها الزعيم الشاب قد وجدت مكاناً خصباً فى عقول المواطنين (٥) وتبدو فرحتها واضحة بالعلاقات الحسنة التى كانت بين السراى وبين زعيم الحزب الوطنى ، وتطرب لتلك العلاقات وتنشر أنباءها كلما اتصلت تلك الأنباء بكتابات مصطفى كامل الخاصة بالخديو ، سواء كانت مقالات أو برقيات تهنئة فى المناسبات المعروفة . (٦). ولا غرو فى موقف الأهرام فإنها لم تفكر إلا فى الصالح العام الذى كان يقتضى تآزر المواطنين ، فرحبت أجمل ترحيب بزعيم النهضة وموقفه من سيد البلاد .

وآية ما نذهب إلية لتأكيد هذه الصلات القوية بين الأهرام وبين الحزب الوطنى فى عهد مصطفى كامل، ذلك النعى الذى يفيض صدقاً حين بلغها نبأ وفاة الزعيم الشاب ، فقد طلعت على قرا ئها فى محلياتها بقولها « بعد صدور الأهرام أمس بوغتنا باشتداد الداء

---

(١) الأهرام فى ٢٠ ديسمبر ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ١٩ سبتمبر ١٩٠٧
(٣) الأهرام فى ١٠ أكتوبر ١٩٠٧
(٤) الأهرام فى ١١ أكتوبر ١٩٠٧
(٥) الأهرام فى ١٠ يناير ١٩٠٨
(٦) الأهرام فى ١١ يناير ١٩٠٨

على رصيفنا وحبيبنا المأسوف عليه والمبكى على شبابه بكل عين مصطفى باشا كامل . . . وذهبت إلى ربها روح ذلك الشاب المجاهد فى خدمة وطنه بعد داء انتابه منذ ٣ أشهر » . ثم تستطرد مؤبنة للفقيد الذى « تطايرت مناعيه إلى أنحاء العاصمة وأنحاء البلاد كأنما الحشرجة الأخيرة فى صدره كانت كالكهرباء هزت أرجاء البلاد فاضطربت أعصابها وذهل الجمهور . . . ولم يبق للناس من حديث غير وفاة فقيد مصر حتى كان له فى كل ناد وفى كل بيت مأتم . . . » ، إلى أن تقول « فنحن لا نبكيه اليوم رصيفاً وكاتباً وأديبا وخطيباً تستسلم النفوس لعذب كلامه فقط بل نبكيه فوق ذلك صديقاً حبيباً ظلت يده فى يدنا دهراً طويلا بل ظل ولاؤه لنا وولاؤنا له حتى النفس الأخير ، بل نبكى فيه فوق ذلك كله غصناً رطيباً وشباباً غضاً . . . بل نبكى فيه مقداماً جمع من شتات القوات قوة ومن متفرق الأصوات صوتاً عالياً »[1].

ويجدر بمن يؤرخ للأهرام فى تلك الفترة (١٩٠٠ – ١٩١٤) أن يذكر حقيقة قد تغيب عن الأذهان ، فإن الأهرام من طبعها أن تسخو فى رثاء من يستحق الرثاء ، ولكنها نعت من قبل ومن بعد كثيرين من الوزراء والعلماء وأصحاب الفكر والرأى ، فلم تكتب فيهم عُشر ما كتبته فى رثاء مصطفى كامل باشا ، ولم يفض أسلوبها بهذا الصدق فى الحزن والألم ، ومرجع ذلك فيما نعتقد ، وفيما تؤيده الأحداث التى مرت بمصر ذلك الاتفاق بين الأهرام ومصطفى كامل فى المبدأ والاتجاه .

بلاغة داود بركات فى رثائه

وقد وقفت الأهرام صفحاتها فى الأيام التالية على الفجيعة فى مصاب المصريين ، وكتب داود بركات افتتاحية بديعة يتحدث فيها عن وفاة (مصطفى باشا كامل) ، لعلها من أحسن ما أنشأه داود بركات فى حياته الصحفية والأدبية التى شهدها له المصريون قبل الحرب العظمى وبعدها بسنوات ، قال فيها « ذهب « فتى مصر » فكل قلم « مصرى » ككل لسان مصرى وقف اليوم على تأبينه ورثائه . ومات مصطفى كامل . فالأمة التى كانت أقواله وسياسته وأفكاره شغلها الشاغل هى الآن رهن الفجيعة به . والمصاب بفقده . بل إن أقلام خصومه الحادة التى كانت تتناوله كل حين بالغمز . وكل آونة بالتجريح واللمز . هى اليوم أمام نعشه خاشعة تقطر بالرثاء . بعد أن اتأدت – والداء يفت من جسمه – لا تقلق مضجعه ولا تشوك سريره . بل هى اليوم مثلها بالأمس تعرف أنها

(١) الأهرام فى ١١ فبراير ١٩٠٨

كانت تنازل فى منازلته فكراً يؤلف به الأفكار لا شخصاً فى عقر الدار . ومذهباً فى السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة لا مذهباً فى العمل ينحصر فى دائرة ضيقة ، فلو لم يكن فتى مصر قوة ما جرت عليه قوات .

« فلنقف قليلا أمام ذلك الفكر أو المذهب مفكرين ، وليس أحق من الأهرام وقرائها بهذه الوقفة لأن ذلك الفكر وذلك المذهب هما منذ ثلاث وثلاثين فكرها ومذهبها . جاهدت فيهما بتوفيق الله حق الجهاد ، وكانت أول من شهد بروز مصطفى كامل فى ميدان السياسة . بل كان مبدأ ظهور قلمه فى معترك الأقلام على صفحات الأهرام ، فهى إذا رثته رصيفاً لا تنسى أن ترثيه حليفاً وأخاً فى الجهاد وربيباً فى شجار الأفكار والأنداد .

« دام جهاد الأهرام والناس بين معرض تخيفه السياسة ومستنكر تستهويه القوة، وموال لما إذا ظهر فى صفها أثره اختفى تحت طى الكتمان اسمه . إلى أن ترعرع فتانا الذى فقدناه اليوم فلقى من الأهرام صدراً رحباً ومن مؤسسها عضداً فرداً ومن أقلامها إخواناً أخداناً . وكانت تعد تنشيطه فى ترشيحه مما حتمته الخدمة الصادقة وقضت عليها به الخطة المثلى فإذا ما قال « مصر للمصريين » صفقت له طرباً وذلك القول كان قولها من يوم وجدت . . . مصر للمصريين كلمة قد نما اليوم غرسها فى الصدور وأزهرت فى النفوس . إذا نودى بها ردد صداها كل عامر من هذه الأرض وغامر ، لأن الأمة التى شعرت بقوتها وأدركت حقوقها تفتح صدرها لمن يرمى عن قوس عقيدتها ويردد أمانيها وآمالها » .

ويستطرد الكاتب الأديب يؤرخ لجهاد مصطفى كامل « فإن الطريقة التى كانت عنوان عمل مصطفى كامل . الحرية فى القول والمجاهرة بما يضمر والتذرع بالشجاعة فى العمل لأنه لا يميت الحقوق فى الأمم مثل الجبن عن المطالبة بها أو التطوح إلى ما وراء الغاية من الشجاعة ، فحسبه مجداً أن يسجل له فى تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية بل حسبه أن يكون مثالا للناشئة فهو أكبر معلم بما عمل » .

ثم يبين للمواطنين أن من يستحق تقدير الوطن هو ذلك الذى ينهج نهج مصطفى كامل مع الإنجليز « فالإنكليز فى مصر يحكمون بلاداً يريد أهلها أن يكون حكم بلادهم بأيديهم . والمصريون يعرفون أن بلادهم عثمانية مستقلة الإدارة فيعدون عمل الإنكليز سلباً لحقوقهم واعتداء عليهم ، وتأبى عصبيتهم أن ينسوا تلك الحقوق ، وتأبى حقوقهم أن يسكتوا عن المطالبة ، فمن رفع الصوت بالطلب كان معبراً عن هوى نفوسهم يحلونها منها المحل الأول . ويحترمه خصومهم ذاتهم . لأنك لا تجد فى الأرض منصفاً يلوم

صاحب الحق على المطالبة بحقه ولو أن مطمح ذلك الخصم كان كبيراً يريد منه ألا يسمع مطالباً ولا يرى مدافعاً . لذلك كان مصطفى كامل محبوباً من أمته محترماً من خصومه عزيزاً على كل متمدن يدرك حقوق الأمم ويكره استعباد الشعوب ، فهو قد ذهب إلى ربه عزيزاً فى قومه محترماً من خصومه »[1].

وهكذا أثبتت الأهرام وكاتبها الأول أنها كانت على هوى الفقيد ومبدئه . وقد نشرت فى رثاء الزعيم الشاب كل ما جاءها من نثر وشعر[2]، مبينة العبرة فى وفاة مصطفى كامل ، فقد ظهرت فجيعة الأمة فيه ، وبدت عواطفها سخية فى وداعها له الوداع الأخير هذا الوداع الذى « رآه الإنجليز وسمعوا به » والذى يعتبر تنفيساً عما فى الصدور من غيظ مكبوت ، وإنها لتضرب باجتماع الحشود خلف نعش المواطن الكبير المثل على إدراك الناس والمتعلمين خاصة « قيمة الحياة » وأن هؤلاء الشبان المتعلمين قد « درسوا تواريخ الأمم وسنن ارتقائها ونعيم استقلالها فزاد ذلك النزوع إلى الاستقلال وأطربهم كل قلم وكل ريشة تضرب على وتر أمانيهم فتتجاوب أصداء صدورهم ، وكان مصطفى باشا كامل من أبدع الضاربين على ذلك الوتر والمنشدين على تلك القيثارة ، فهيج كل يوم أشواقاً وأطرب كل يوم النفوس ، ورمى كل ساعة عن قوس المعتقد ، فلما مات جزع الجميع لأنه كان ترجمان الجميع » .

ترجمان مصر

ثم تخاطب الأهرام الإنجليز فقد « رأى الإنكليز وسمعوا ما قالته مصر فى موت فقيدها الذى « كان ترجمان تلك النفوس المصرية فصاحت مصر كلها يوم موته بأعلى صوتها ؟ إنى عليك جازعة » فهل سمع الإنكليز اليوم صوتها وهل رأوا تألمها وأدركوا سرها ؟ وهل ذهبت عن عيونهم الغشاوة التى غشاها بها ساستها وصحافيوها وأبواقها ؟ ؟ لقد طالما خدع الإنكليز بروح هذه البلاد حتى اعتقد أكثرهم بأن الأمة المصرية تحب حكمهم وتفضل على أبنائها أبناءهم . فهل بعد اليوم من اغترار أو انخداع » وهى تطالب بإخراج الإنجليز من مصر وتحقيق الجلاء ومنح البلاد المجلس النيابى الصحيح وهى المطالب التى كانت هدف الزعيم المصرى محرر اللواء[3].

(١) الأهرام فى ١١ فبراير ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ١٢ فبراير ١٩٠٨
(٣) الأهرام فى ١٧ فبراير ١٩٠٨

وإن الأهرام التى تقرر فضل مصطفى كامل وهى تنعاه وتؤبنه وتتمثل به لا تنكر أنها خالفته فى الرأى بعض الأحيان وإن اتفقت مع سياسته فى أكثرها . بيد أنها أحست من رثاء الصحف خصيمته أنها تذهب مذهب الفقيد فى طرائق النظر إلى الحياة ، فتكتب مطالبة إياها أن تفصح عن موقفها وتشرح سيرتها الجديدة . فإنها قد دأبت فى حياته – أى تلك الصحف – على مناوأته والتقليل من شأنه ونقد كل فكرة يقولها وتسخيف كل رأى يذيعه ، فإذا هى اليوم تودعه باكية نادبة ذاكرة فضله مقرة ببعد نظره مباركة مثله الرفيعة فى الحياة . لذلك أعلنت الأهرام دهشتها وودت لو أن سياسة تلك الصحف قد تغيرت وأصبحت تهدف إلى ما كان يهدف إليه زعيم الحزب الوطنى الراحل ، فإنه أمضى عمره ليستكمل لمصر حياتها الدستورية ، وكافح من أجل الجلاء كفاحاً قوياً ، وكثيراً ما خاصمته تلك الصحف التى جاءت اليوم تتمسح فى ذكراه [1].

ونقلت الأهرام مقالا نشره أحد أمراء البيت المالك فى جريدة (الجرنال دكير) وعنوانه (بعد الموت الحياة) تحدث فيه بمناسبة وفاة مصطفى كامل عن نهضة الشعور المصرى العام وحب المصريين لبلادهم وأهليتهم للحياة الحرة [2]. وعقبت الجريدة بعد أيام على هذا المقال الذى لم يلم بأطراف القضية المصرية الإلمام المطلوب ، وعالجت ما فيه من نقص بنقد رقيق لا يؤذى [3].

وفاء الأهرام للفقيد

ولم تتغير سياسة الأهرام إزاء اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ، ولم تخاصم الحزب الوطنى وإن اختلفت مع ساسته فى بعض المسائل العامة ، غير أنها كانت أقرب الصحف المستقلة إليه ، فهى تحيى رئيسه الجديد ، ملخصة خطابه الأول الذى دعا إليه الحزب فى دار التمثيل العربى ، واضعة بالصدق – وهو سمتها – ما رأت فى المكان الذى غص « بالهارعين لسماع خطبة سعادة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى وتكون الناس بعضهم فوق بعض حتى أن الذين كانوا خارج الملعب أكثر من الذين كانوا فى الداخل والذين عادوا لأنهم لم يجدوا مكاناً أكثر من الذين حضروا . . . . » [4]. وليس يعنى هذا

---

(١) الأهرام فى ١٧ فبراير ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ١٨ مارس ١٩٠٨ .
(٣) الأهرام فى ٢٠ مارس ١٩٠٨
(٤) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٩٠٨

أنها لا تنقد هذه الخلافات التى قامت بين (المؤيد واللواء) على من له الحق فى منح الدستور ، أهم الإنجليز أم الخديو ؟ تلك الخلافات التى شغلت الناس حتى « ضاعت بين سطور الردود الطويلة العريضة الضالة المنشودة والغاية المقصودة . وبتنا نشهد الصراع بين شخصين لا الجدل بين مذهبين أو تعليمين »[١].

الشيخ عبد العزيز جاويش

وقد استقبلت صحف المسيحيين تعيين الشيخ عبد العزيز جاويش رئيساً لتحرير اللواء استقبالا سيئاً ، لأنه اختير لهذا العمل فى وقت توترت فيه أعصاب المسلمين والأقباط ، ولكن الأهرام ترى أنه من الخير ألا يساء به الظن وهو يدعو فى أول كلمة له إلى توحيد الصفوف دون النظر إلى الملل والنحل أو تباين المشارب واللهجات ، وتدعو الله ألا يخلف ظن من أحسن الظن به[٢]. ثم تنشر مقالات لبعض كبار المواطنين يدافعون بها عن محمد فريد بك ويحملون فيها على جريدة المؤيد حملة غاية فى العنف ، لم تؤثر عن الأهرام واستقلالها من قبل[٣]. ثم تنشر أحاديث رئيس الحزب الوطنى الجديد مع الصحف الفرنجية وغير ذلك من أخبار تتصل بنشاطه[٤]. وتحمل فى غير تحفظ على الحكومة وسوء سياستها حين فكرت فى إغلاق جريدة اللواء[٥].

ترحيبها بعقد مؤتمر وطنى

وإذا دعا الحزب الوطنى إلى مؤتمر يعقده المصريون فى جنيف وقامت الدنيا وقعدت فى مصر لهذا المؤتمر ، وخرجت صحف الاحتلال عربية وفرنجية تحمل على الذين دعوا إليه وآزرتها صحف فرنسا واعتبرته دعوة صريحة إلى الثورة ، كتبت الأهرام فى افتتاحيتها تبارك هذا المؤتمر وتبين أن الحملة على الاحتلال فى كل زمان ومكان واجب وطنى مقدس ، فإن المؤتمر عندها « كان واجباً وما تلى فيه كان نافعاً وحسب المصريين أن يرضوا أنفسهم بأنهم قاموا بخدمة وطنهم ، وإن يقتلعوا فى وسط أوربا ما غرسه الإنكليز فى صدر العالم المتمدن ، عن تهاون مصر وضعف وطنيتها وتعصبها وهمجيتها : وكفى »[٦] وتتعقب محمد

(١) الأهرام فى أول مايو ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ٤ مايو ١٩٠٨
(٣) الأهرام فى ٩ مايو ١٩٠٨
(٤) الأهرام فى ١٥ يونيو ١٩٠٨
(٥) الأهرام فى ١٢ يونيو ١٩٠٩
(٦) الأهرام فى ٢٠ سبتمبر ١٩٠٩

فريد بك فى رحلاته وتنشر أنباء زيارته لإنجلترا وما يقوم به من دعاية لبلاده ، وتفسح صدرها لخطبه التى ألقاها على أحرار الإنجليز فى بلادهم (١)، فإذا عاد إلى بلاده وصفت فى محلياتها استقباله الرائع فى محطة مصر وألوان الهتافات التى تلقاها من المواطنين (٢).

سجنوا فريداً فى القلوب

* وكانت لمحمد فريد بك قدرة على الكفاح ومغالبة الاحتلال وأدواته ، فاتهم فى عدة قضايا وأصبح محلا للانتقام ، فأخذ بمقدمة كتبها لكتاب أنشأه الشيخ الغاياتى ، وكانت لهذا الكتاب قضية فصلت حوادثها الأهرام فى سنة ١٩١٠ (٣) فإذا قضى القانون بسجنه سته أشهر ، كتبت معلقة على الحكم وشدته قائله : « أما رأوا أن ترك محاكمة محمد فريد بك يعد عند الجمهور حلماً من قدير وحلم القادر ذو ثمن عظيم فى نظر الأفراد والشعب ؟ ؟ ألا إنا كنا قد وصلنا فى هذا العام إلى السكون التام . فاعتدلت الأقلام وسكتت الألسن وعادت ثقة الشعب بالحكومة وقلنا فى أنفسنا — ونحن نحمد الله — إنه قد تمر بضعة أيام حتى يزول كل شىء ولا يبقى من حديث غير حديث المصالح العمومية . فلماذا لم تغالب الحكومة نفسها فتكرهها على مجاراة الأمة بالسكون ؟ ؟ وهل ظنت أو تظن أن المسألة مسألة محمد بك فريد والحكومة والواجب أن تكون الغلبة لها عليه ؟؟ إنها إذا كانت قد ظنت ذلك فلتسمح لنا أن نقول بصراحة إنها قد اخطأت لأن كل حركة من هذا النوع — نوع محاكمة فريد بك — يكون محضأة يحرك الجمر الذى غطاه الرماد — رماد السكون والهدوء — »(٤) .

فإذا أتم محمد فريد بك مدة السجن ، وخرج إلى كفاحه القديم ، استقبلته الأهرام استقبالا حسناً جداً ، واحتفلت بخطابه الذى ألقاه بمناسبة ذكرى الاحتلال الإنجليزى ، وهو خطاب عنيف قوى تخاطر الصحف إذا نشرته ، ومع ذلك فإن صحيفتنا نشرت معظم ما جاء فى ذلك الخطاب ، واستغرق النقل ثلاثة أنهر ، ثم أذاعت نص البرقيات التى بعث بها المجتمعون إلى وزير الخارجية الإنجليزية والصدر الأعظم يحتجون على الاحتلال وبقائه ويطالبون بالجلاء الناجز حتى تستمتع البلاد بحريتها واستقلالها(٥).

---

(١) الأهرام فى ٩ يوليو ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ٢٩ ديسمبر ١٩١٠
(٣) الأهرام فى شهر أغسطس ١٩١٠
(٤) الأهرام فى ٢٤ يناير ١٩١١
(٥) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩١١



طلعت حرب باشا



أحمد حسنين باشا

وبعد فتلك سيرة الأهرام بين أحزاب الجيل ، يتضح لنا من عرض هذه السيرة أنها لم تكن قط إلى جانب حزب الأمة ، بل كانت خصماً له فى اتجاهه وتوجيهه ، وهى صحيفة وسط لا خصماً ولا مؤيداً لحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ذلك لأن حزب الإصلاح وإن يكن موالياً للخديو ، فقد كان موالياً أيضاً للاحتلال ، لا يخاصمه إلا إذا خاصمه الخديو ، وتاريخ الخديو بعد إنشاء هذا الحزب سار فى أعطاف الوفاق الذى خلقه جورست ، فكانت العلاقات بين عابدين والوكالة البريطانية علاقات موصوفة بالود واللين ، أما سياسة الأهرام فكانت تفرق دائماً بين بيت محمد على وبين الاحتلال ، للبيت العلوى عندها مكانة مرموقة ، أما الاحتلال فإن خف ضغطه أو اشتد فهو خصم لها ، تؤرق عليه حياته وتعلن مساوئه فى كل حين .

ونرى الأهرام منذ لقائها بمصطفى كامل وهى إلى جانبه بكلياتها ، وهى تؤازره حتى بعد أن انفرد بلسان خاص له ، ثم هى تعاونه وتؤيده بعد أن اشتد ساعده بحزب أنشأه فكان أكبر الأحزاب التى تتمتع برضاء المجموعة الشعبية وإعجابها ، وكان للعلاقات الشخصية كما يبدو لنا أثر كبير فى هذه الصداقة الملحوظة بين الأهرام وحزب الوطنيين ، فإذا قضى زعيم الحزب لم تذهب الأهرام فى تأييد خلفائه والإعجاب بهم مثلما ذهبت فى تأييد مصطفى كامل والإعجاب به ، بيد أنها اتفقت فى معظم الآراء مع الحزب الوطنى ، وإن احتفظت باستقلالها ولم تقبل أن تكون لساناً لحزب دون حزب . تلك كانت سيرتها فى نشأة الأحزاب المصرية ، وذلك كان موقفها بين التيارات الحزبية حتى قامت الحرب العظمى الأولى ووقف كل نشاط سياسى فى مصر .

الأهرام وحرية الصحافة

نفسى — برغم الحادثات — فتية   عودى — على رغم الكوارث — مورق
« حافظ ابراهيم »

منذ عُين كرومر عميداً للاحتلال إلى أن أقيل من منصبه لم يفكر فى الحد من حرية الصحافة ، وحتى فى الظروف التى نالت فيها الحكومة المصرية صحافتها بالاضطهاد ، تستر ذلك العميد وراء النظار وأنكر أن له يداً فى ذلك الاضطهاد ، لأن اللورد كرومر كان يرى أن الصحافة لا تحارب إلا بالصحافة ، لا بالضغط والإرهاب . لذلك أنشأ العميد صحفاً عربية وفرنجية وأيدها تأييداً أدبياً ومادياً حتى يضمن لها التوسع والانتشار فكانت صحفه غنية بالمال وغنية بالخبر الذى حبسه عن الصحف الوطنية ليلزم المواطنين بقراءة ألسنته ، والتأثر بما يرد فيها من الثناء على الاحتلال وبيان حسناته .

وكاد الناس ينسون أن فى مصر قانوناً للمطبوعات ، فكانت الصحف تصدر من غير رقيب ، وتقذف من غير حساب . وما ضر الاحتلال أن يصيبه قذف المصريين وفى ذلك تنفيس عن المتطرفين منهم ، والحملة على الاحتلال من طبائع الأشياء ؟ ما دامت للإنجليز صحف تقذف خصومهم بالمثل وتجرحهم وتنال من صغيرهم وكبيرهم حتى من الخديو نفسه ، ولو وزنا الكسب والخسارة فى هذا الميدان لكان الإنجليز الكاسبين ، وكان غيرهم وفى مقدمتهم الخديو وأنصاره هم الخاسرون .

اقتراح سن قانون للمطبوعات

وأحس أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية أن الكيل قد طفح ، وأن الناس يشكون من هذه الحرية التى جعلت من الصحف رقيباً قد يركب متن الشطط أحياناً ولكنه يصيب حين يكشف المستور من النوايا ويعلن ما خفى من سيىء التصرفات ،

ولكن بعض الصحف تمادت فى النيل من خصومها والخروج عن جادة الوقار حتى دعا ذلك عضواً من أعضاء الجمعية العمومية إلى أن يقول : « إن أسافل الناس يقدمون على إنشاء الجرائد وقد ملأوا الدنيا سفاهة وتعدياً على الأعراض ، على أن الجرائد هى مرشد الأمة والحكومة ، والمطبوعات هى ركن من أركان العمران » . ثم اقترح ذلك العضو على الجمعية « أن تطلب من الحكومة الاتفاق مع وكلاء الدول على سن قانون عمومى للمطبوعات يقى الناس من هذه الفوضى »[1].

دفاعها عن حرية الصحافة

فانبرت الأهرام فى نفس اليوم الذى جرى فيه هذا اللغو تدافع عن الصحافة المصرية كالعهد بها منذ عرفها المصريون فتكتب مقالا بعنوان « حرية المطبوعات والتخبط بأمرها » تحمل فيه على المصريين الذين يريدون الحد من حرية الصحافة ، وهى الحرية الباقية من أنوار الحياة منذ وقع الاحتلال وأنشب أظافره فى جميع الحريات ، وهى تذكر عضو الجمعية بأنه « إذا كان الاحتلال قد منح مصر شيئاً بعد سلبه منها حكم نفسها وإدارة شؤونها وبعد تكبيلها بإرادته وقوله وأحكامه وسياسته بجميع ما ترمى إليه لتجر له تلك السياسة كل مغنم ولو وقع علينا كل مغرم . فإنما ذاك الشىء هو حرية الصحافة وحرية الاجتماع »[2]. ثم تدهش الأهرام كيف يقبل مواطن حر أن يحارب تلك الحرية ويطالب الحكومة أن تحدها بقوة القانون ، وهو يعلم أنه إنما يريد أن ينقل مصر من النور إلى الظلمات ، وصحيفتنا تعتبر مثل هذا الطلب مهما يكن قدر صاحبه ، خيانة لا تليق ولا ينبغى أن تصدر من خاصة الناس الذين يفهمون قدر الصحافة فى حياة الأمم والشعوب[3].

وتمضى الأهرام فى أثناء تلك المحنة سنة ١٩٠٢ تدافع عن حرية الصحافة والمطبوعات ، وتهاجم أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية ومن يرى رأيهم القائل بالحد من حرية الصحف والضغط على الأقلام ، وتضرب الأمثلة من هنا وهناك ، وتبين لأولئك الخصوم أن حرية الصحافة فى الشعوب المتحضرة شىء يرتبط بسلامة الدولة والشعب ويتصل بوجودهما ويرتبط أشد الارتباط بكرامتهما »[4].

(١) محضر الجمعية العمومية فى ٢٦ مارس ١٩٠٢
(٢) الأهرام فى ٢٦ مارس ١٩٠٢
(٣) الأهرام فى أول أبريل ١٩٠٢
(٤) الأهرام فى ١٧ أبريل ١٩٠٢

وقد استطاعت الصحافة المصرية أن تجوز المحنة لعدة سنوات حتى ذاع فى سنة ١٩٠٦ أن الحكومة بدأت تفكر من جديد فى سن تشريع يكم أفواه الصحف ، فحملت الأهرام بشدة على الفكرة ومبتدعيها [١] ، وعاودت فى أكثر من مقال مناقشة أولئك الذين لا يريدون أن يكفوا عن التفكير فى القضاء على الحرية الباقية للبلاد ، بينما أصحاب الصحف يبذلون فى مصر فوق طاقتهم ليقدموا للوطن صحافة عظيمة . وتضرب الأمثال بالشيخ على يوسف بمناسبة الاحتفال بمطبعة الروتاتيف الجديدة التى اشتراها ، ويذكر كاتبها أن فى فرنسا سبعة آلاف جريدة ، وعلى هذا القياس لا تعتبر مصر أمة غنية بالصحافة التى يحاربونها يوماً بعد يوم[٢] ويهملون شأنها فلا يدعونها إلى معارض الدولة وحفلاتها ، الأمر الذى أوجب احتجاج الصحفيين المصريين[٣] ودفع الأهرام إلى الحملة على الحكومة حملة رائعة فى إحدى افتتاحياتها[٤] .

القيود على الصحافة

وقد بدأ الاحتلال يؤازر الحكومة المصرية علانية فى فرض القيود على الصحافة الوطنية ، فنشطت تلك فى تقديم الصحف إلى المحاكم لتحاسبها على كل هفوة أو بادرة ولا سيما بعد حادث دنشواى ، حتى أن جلسة واحدة أصدر القاضى حكمه على ثلاث صحف وعشرة صحفيين ، وعلقت الأهرام فى مقال افتتاحى رائع على أقوال النائب العام ساخرة من مطالبه ، فإنه يريد صحفياً من الملائكة لا يمكن أن تتوافر فيه الشروط التى يطلبها النائب العام « ولو ضمت نفسه روح وعقلية سليمان الحكيم وأفلاطون وأرسطاليس وجميع الحكماء » معقبة بهزء على ما تضمنه قوله عن « حسن القصد وسوء القصد فى فى الكتابة »[٥] ثم أفسحت صدرها للمواطنين يعلقون على الحكم[٦] ويتحدثون عن حرية الصحافة[٧]. ثم تعقب هى على كلماتهم ومقالاتهم وتعليقاتهم بظرف وأدب وحماس فى إحدى افتتاحياتها[٨].

(١) الأهرام فى ٣١ يوليو ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ٢ أكتوبر ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ٣ ديسمبر ١٩٠٦
(٤) الأهرام فى ٥ ديسمبر ١٩٠٦
(٥) الأهرام فى ١٦ أغسطس ١٩٠٧
(٦) الأهرام فى ٢٠ أغسطس ١٩٠٧
(٧) الأهرام فى ٢١ أغسطس ١٩٠٧
(٨) الأهرام فى ٢٢ أغسطس ١٩٠٧

وتطلع على الأهرام سنة ١٩٠٩ والحكومة تبيت للصحف بليل ، فتهمل شأنها أولا فى أكبر احتفال شهدته مصر منذ مطلع القرن العشرين إلى قيام الحرب العظمى ، وهو الاحتفال بتسليم قناطر إسنا برياسة الخديو ، وتعتبر صحيفتنا أن « الاحتقار والازدراء ليسا للصحافة العربية بل للأمة التى تنبئها الصحافة عن أعمال حكومتها ، فما دامت الحكومة تحتقر الأمة ولا ترى أن تطلعها على أعمالها فهى بالطبع تحتقر الصحافة ولا تدعوها لنشر تلك الأعمال »[1].

غير أن الصحف التى أهملتها الحكومة، ورأى أعضاء الشورى فى يوم الحد من حرياتها وحملوا عليها حملة شعواء، تريد أن تقتحم الأسد فى عرينة ، فاجتمع ممثلوها وكتبوا (عريضة إلى دولتلو البرنس حسين باشا) ونشروا كتاباً مفتوحاً « إلى كل فرد من أعضاء الشورى الكرام » يطلبون فى العريضة والكتاب بأن يباح للصحف حق مشاهدة الجلسات ونقل ما يدور فيها ، وقد كانت هذه أول مرة تبدو فيها الوحدة الصحفية بالرغم من خلافاتها وتباين لغاتها وتعدد جنسيات أصحابها إذ أمضى الطلبين جميع ممثلى تلك الصحافة من مصريين وأجانب[2]، كما أعقب هذا الاتحاد تأليف أول نقابة لكتاب الصحف العربية[3].

عود على بدء

لكن هذا الائتلاف بين الصحف لم يمنع بعضها من الترحيب بالعودة إلى العمل بقانون المطبوعات الذى صدر فى سنة ١٨٨١ وإن أساء ذلك إلى الأهرام ، فاعتبر العمل بهذا القانون جناية « على الأمة لأن كل حرية تؤخذ من الصحافة تعد جناية على البلاد وأهلها ، وعلى الإصلاح ومريديه » ، ثم تستطرد قائلة « يعودون إلى قانون ٨١ وهو قانون لا يخلو من الاستبداد . ويفرح بعض الصحف بذلك . إن هذا لعجب عجاب » وتقرر الأهرام أن بعض الصحف قد تجاوز حده وزل وارتكب الهفوات « ولكن فى المحاكم قانون قوى رادع قادر على كبح كل جماح والأمة تدرك الصالح فتتبعه وتعرف الطالح فتطرحه ، فلماذا تحتقر الأمة إلى حد اعتبارها جاهلة لا بد لها من قيم يبقى فيها ما يصلح ويقطع منها ما يفسد ؟ ؟ » وتختم الأهرام حملتها على الحد من حرية الصحافة بقولها « ألا

(١) الأهرام فى ٢١ يناير ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ١٩ مارس ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ١٥ مارس ١٩٠٩

والله إنا لا نعرف للحرية الصحافية حداً غير الحد القانونى وهو الحد الفاصل وكفى به حداً ، فنحن نحتج على عمل الوزارة كل الاحتجاج ، وما كنا نأمل أن نرى منها مثل هذا ضد الحرية بل نحن نتساءل قائلين : أما كان خيراً لها أن تترك مناصبها ولا ترتكب هذه الهفوة ضد أمتها ؟ ؟ »[1].

واختلف الوزراء فى أول الأمر فى العودة إلى العمل بالقانون القديم ، وطربت الأهرام لذلك ، واستبعدت أن « تطيع النظار أيديهم فى ذبح صحافة بلادهم وإهانة القضاء فى هذه البلاد ، وأخذ سلطة القانون وتسليمها لرجال الإدارة ليكون الحكم عرفياً » ثم تبين لقرائها أن الحياة السياسية فى مصر لا قيمة لها من غير صحافة حرة « . . . ومتى قتلت روح الحرية فى الصحافة ماذا يبقى فى هذه البلاد ؟ ؟ نحن لا نعرف أحداً مسؤولا عن ذلك سوى النظار . فهم إذا وافقوا على لجم الصحافة هدموا الركن الوحيد للإصلاح وضبط الأمور . . . ونحن نعوذ بحكمتهم من أن يقال إن الاستبداد طرد من الآستانة فوجد له ملجأ فى مصر »[2].

جورست وحرية الصحافة

وتحمل الأهرام على سياسة السير الدن جورست بقولها : « أراد الانكليز لجم الصحافة فأرانا عهد السير الدن غورست ما كنا نخافه ونخشاه ، فأمرت إنكلترا حكومة مصر بأن تفاوض الدول بشأن ذلك القانون حتى ينفذ على الوطنيين والأجانب معاً » . ثم تقول إن « الاحتلال أشار بعقد مجلس النظار وطلب من الوزراء أن يوقعوا على « حكم الإعدام » « إعدام حرية الصحافة » . وتروى بعد ذلك الخلاف الذى نشأ بين الوزراء حتى قدم بعضهم استعفاءه ، لأن الرأى العام كان شديد الاستياء من هذا الاتجاه الإنجليزى الجديد نحو تقييد الحريات ، وتبين الأهرام خطأ سياسة جورست بالنسبة لسياسة كرومر ، فقد كان العميد السابق « يدع المرجل مفتوحاً حتى لا يجتمع البخار فينفجر . كانت قاعدته أن يدع الناس يقولون ويشكون حتى لا تنحصر الشكوى والتزمر طى صدورهم فتجتمع قوة يكون لها انفجار شديد »[3].

(١) الأهرام فى ٢٢ مارس ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٢٣ مارس ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٢٤ مارس ١٩٠٩

صدى الرأى العام

وتؤرخ صحيفتنا لشعور الناس نحو هذا القانون ، وهى تفصل لمواده وما انطوت عليه من الشدة والعنف ، فلا تدرى كيف تصور الاستياء والدهشة التى استحوذت على البلاد عند ظهور شبح هذا القانون المبعوث من قبر ضمه سنوات ولم يأسف عليه أحد « فإنك لا تطالع جريدة ولا تحادث صديقاً ولا تجالس جليساً إلا وكان موضوع الكلام واحداً . قتل الحرية . حرية الكتابة . حرية القول . حرية القراءة . وبالتالى حرية الفكر » وإن المصريين ليحزنون فقد روعهم القانون الجديد القديم الذى ملأ قلوبهم حزناً ، فبالأمس « بسمنا وهللنا لولادة الحرية فى البلاد العثمانية واليوم نبكى وننوح على احتضارها فى الديار المصرية »[١].

والحق إن العودة إلى العمل بقانون المطبوعات الصادر فى نوفبر ١٨٨١ كان حدثاً جسمت الأهرام خطورته ، وبينت مواضع الشر فيه على حياه المصريين وحرياتهم ، حتى اجتمع الصحفيون فى شبه مؤتمر لبحث الموقف ، وقام الطلبة بمظاهرة ضخمة ذكرتها الأهرام فى محلياتها بجانب تلك الأنهر التى خصصتها للبرقيات التى وصلت إليها والبريد الذى تلقته ، وعرائض الاحتجاج للخديو على ما يفعله النظار من التضييق على حرية الرأى[٢]. واستمرت تنشر ألوان الاحتجاج الصادرة من طبقات الأمة المختلفة[٣].

الاحتجاج على قانون المطبوعات

وتصور لنا الأهرام مدى اهتمام الشعب بالحريات العامة من تلك (المظاهرة الأولى ضد قانون الصحافة) التى اجتمعت فيها بيئآت الأمة من فعلة وعمال وطلبة وتجار واتجهت إلى حديقة الجزيرة وتهيأت للقائها قوات من البوليس المصرى والجيش البريطانى ، وذكرت أنواع الهتافات ، وكيف التقت المظاهرة — بعد استماع المجتمعين لخطب الخطباء الذين حملوا فيها على تصرفات الوزارة عامة وعلى موقفها من الصحافة خاصة — بدولة البرنس حسين باشا رئيس الشورى ، ومضت الأهرام تصف هذا كله وتروى قصة القبض على

(١) الأهرام فى ٢٦ مارس ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٢٧ مارس ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٢٩ مارس ١٩٠٩

بعض المتظاهرين ، وتعلن عن موعد مظاهرة أخرى سيقوم بها الطلبة بعد ظهر ذلك اليوم بعد أن استعدوا لها استعداداً منقطع النظير (١) .

ثم تحدثنا الأهرام حديثاً ممتعاً عن (المظاهرة الكبرى لتأييد الحرية) مقدمة للمظاهرة بحملة على خصوم الشعب المصرى الذى « يستنكر منه المتخرصون إعلان شعوره وعواطفه » ثم تستطرد قائلة « وما رأينا شعباً يظلم بكل حكم عليه عند كل حركة مثل هذا الشعب الوديع الساكن الهادئ كأن الذين يتولون أمره والذين ينفخون من ورائهم بأبواقهم . والذين لا يهمهم غير امتصاص الرزق واستدرار أخلاف الخير فى مصر — حتى بعض المصريين ذاتهم من الجبناء القدماء الذين ربوا على الذل والمسكنة والرق والاستعباد — يريدون أن يكون هذا الشعب الوديع نعجة يصر ضرعها لتنحل ويتغذى بلبنها غيرها . ويجز صوفها لتبرد ويدفأ به سواها ، هكذا يريدون أن تكون مصر ، وهكذا يريدون أن يكون أبناؤها فما أكبر هذا الضلال وما أظلم هذا الحكم » .

ثم تخاطب أولئك الظلمة الذين صورت عواطفهم نحو الشعب المصرى سواء كانوا إنجليزاً أو مصريين « فإذا كانوا يريدون أن نكون نعاجاً للحلب والصوف ، وأنعاماً لحرث الأرض وإعطاء رزقها وخيرها لأصحاب المال والجاه والمستعمرين ، فقل لهم إن الحرية التى بسطت أجنحتها على الأكوان ، والعلم الذى أشرق نوره على البسيطة . لا يستثنى مصر من سائر الأقطار لتكون كما تريدون ميتة لا حراك بها لغير حرث الأرض كما يشتهون ؟ ؟ ؟ » .

قسوة الجند على المتظاهرين

وأخيراً تصورقسوة الجند مع المتظاهرين وتؤرخ لذلك فى صراحة بقولها « شهدنا مساء أمس فى ساحة الأوبرا منظراً يفتت الأكباد ويلين له قلب الجماد ويستعبر الشؤون ويقرح العيون . شهدنا جماهير تهدد بسنابك الخيول وتفرق بالعصى وتهان وتضرب وتطارد فى الشوارع مطاردة الصيد لا لأنها اعتدت على أحد ولا لأنها سبت أحداً ولا لأنها هزت عصاً فى وجه أحد بل لأن عشرة آلاف شاب من شبان الأمة نادوا بسقوط الاستبداد وبسقوط قانون المطبوعات لأنه لا يرضيهم ، ولكل أمة أن تعلن رضاها أو سخطها على شرط ألا تخل بالنظام »(٢) .

---

(١) الأهرام فى أول أبريل ١٩٠٩

(٢) الأهرام فى ٢ أبريل ١٩٠٩

ثم تمضى الأهرام مفصلة للمظاهرة وما أصاب المتظاهرين فيها من سوء المصير حتى أحفظ ذلك لا المصريين وحدهم بل أحفظ معهم كثيرين من الأوربيين الذين كانوا قعوداً على القهوات ، وفزعوا إلى المواطنين تحت سنابك الخيل ينقذونهم من براثن موت محقق ، وتلقت الأهرام فى اليوم التالى سيلا من كلمات الشكر وعبارات الثناء على وصفها للمظاهرة وما أصاب الناس فيها من شر ، ونشرت بعض ذلك تحت عنوان (شكر لا نستحقه) ، وأهم ما يعنينا فى ذلك تقرير حقيقة هى أن الأهرام كانت أصدق الصحف وصفاً وتحليلا حتى قال بعضهم « بعد الاطلاع على جرائد اليوم والوقوف على ما كتبته الأهرام فيها عن هذا الصدد ومقارنة كل ذلك بما شاهدناه أمس بأعيننا لا نرى بدأ من إظهار ما تكنه أفئدتنا من الإعجاب بالأهرام الغراء وتكرير الشكر لها على ما تقوم به من النضال المبرور فى سبيل مصر . . . »[1].

عام بأى جديد جئت ياعام

وكانت سنة ١٩٠٩ سنة سوء على أصحاب الأقلام من الصحفيين وغيرهم ، فإن الحكومة أنفذت قانون المطبوعات القديم وكبلت به حرية القلم ، ونعاها أنطون الجميل فى افتتاحية بديعة تتميز بأسلوبها الأدبى ودراسة الموضوع دراسة مستفيضة ، قال مؤبناً « أول أمس كان مصرع الحرية قضت مطعونة بخناجر محددة أغمدت فى صدرها . واليوم يوم تشييع جنازتها مبكياً عليها من كل رجل حر ، مأسوفاً على عهدها من كل إنسان عرف حقوق الإنسان . يقف حول نعشها المجلل بالسواد كل محبر ومحرر وصحافى وروائى وكاتب ، وكلهم مكسرو الأقلام شاقو الطروس ، ويحف بقبرها كل قارئ مطلع تعود الخوض فى مضمار الأفكار والجول فى ميادين المبادئ والمذاهب . . . » .

ثم يتمثل الكاتب الأديب بكلمة لنائب فرنسى هاجم فيها حكومته حينما أرادت أن تسن قانوناً للصحافة يحد من حريتها سنة ١٨٩٢ ، حين قال النائب « إن قانونكم على الصحافة هو قشة صغيرة تلقى أمام القطار المندفع بقوة البخار . . . وأنتم تعلمون علم اليقين أنه لا يمكن نسخ الأفكار . يمكن سترها وإزالة عوارضها ولكنها هى تسير دائماً . ولا يوجد إلا طريقة واحدة لإيقاف الأفكار هى . . . تغييرها » . ثم يختم مقاله مطمئناً إلى حسن المآل بالرغم من سيف الحكومة الذى سلته على الصحافة بقانونها البغيض « نعم إن قانون الصحافة هو قشة تلقى أمام القطار السائر أو حبة رمل تطرح أمام المياه

(١) الأهرام فى ٣ أبريل ١٩٠٩

المتدفقة لردها ، وهيهات أن يكون ذلك ، فإذا فنت الحرية اليوم فهى تنشر غداً وما على الله من أمر عسير »[1]

لاجزع ولا خوف

ويثنى على هذا المقال الذى أنشأه أنطون الجميل – كاتب الأهرام – هى بن بى بمقال رائع حقاً ، ومن الخير أن نزيد فى تاريخ الأهرام تفصيلاً ، ونزيد المتطلعين إلى ذلك التاريخ علماً بقصة الصحافة ورجالها فى مستفتح القرن العشرين بأن نقتطف من مقاله الكثير فإن فى ذلك المقال أسوة ومثلا ، وقد أراد هىّ بن بىّ من افتتاحيته أن يعطينا « صورة بديعة لمصر » فحدثنا عن تلك الصيحة التى علت « ملتفة القوى مشتبكة الأصوات . فباك يندب القلم والقرطاس . وشاك يودع الحرية بين الناس . وهاج يهجو من نشر القانون . وشامت يقول . ولماذا كنتم تتورطون ؟ وجبان جاثم يقول : دعهم فى طغيانهم يعمهون . وحاكم ينتفخ عظمة حتى يكاد رأسه يناطح السحاب ثم يرمى نظره على القوم من ذلك المعتلى الرفيع وهو يقول فى نفسه : أيها الأعزة بالأمس إلبسوا اليوم اليأس والذلة . أيها الأسود قبل اليوم إنا ضربنا عليكم سوراً من الذلة والمسكنة . كنتم بالأمس جبابرة وكل حاكم بين أقلامكم كرة تتقاذفونه حتى تحكموا به رأى الأمة بعد رأيكم – فأين أنتم اليوم مما كنتم عليه بالأمس » .

ثم يتحدى هى بن بى الحكومة وقانونها « وقفة أيها الناس فلا جزع ولا خوف ولا جبن ولا ذل . ولا رفعة ولا انخفاض فنحن بعد هذا القانون مثلنا قبله » . يقول هذا متحدياً وهو يصور القانون بأنه أمر عسكرى وليس قانوناً يصلح لشعب متحضر .

ويؤكد كاتبنا الأديب أن المعركة من أجل حرية الصحافة ستكون رائعة مروعة بينها وبين الحكومة التى ستحاول بكبت الصحف أن تعيث فى الأرض ظلماً وفساداً ، فإن تلك الحكومة لم تكن فى وسعها الظلم من قبل لأن الصحافة كانت لسوءاتها بالمرصاد ، مؤيداً رأيه بقول كرومر فى إحدى تقاريره لحكومته « إن حكومة مصر لا تجرؤ على الظلم لأن عليها من الصحافة الحرة رقيباً ساهراً » . ويمضى صحفينا فى مقاله حتى يستوفى غايته ، وهو يؤكد فى معانى وعبارات لا تحتمل الشك بأن جريدة الأهرام ستسقط من حسابها أن هناك قانوناً للمطبوعات ، لأن وظيفتها أن تقول الحق ولو آلم ذوى السلطان وأودى بها وقضى عليها[2] .

---

(١) الأهرام فى ٢٧ مارس ١٩٠٩

(٢) الأهرام فى ٢٩ مارس ١٩٠٩

حملة الأهرام على النظار

ولا يقف دفاع صحيفتنا عن حرية الصحافة عند المقالات يدبجها محرروها يوماً بعد يوم فى الحملة على قانون المطبوعات، بل يذهب صحفيوها إلى الحملة على الوزراء المصريين الذين يفسحون صدورهم للأجانب فيجرون الأحاديث مع صحفهم ، ويحملون فى الوقت نفسه على صحافة بلادهم العربية ويرمونها بأقبح التهم ، بينما هؤلاء الوزراء المصريون «طرق بابهم بعض الصحافيين الوطنيين فعادوا خائبين» . وإن الأهرام لتأسف لهذا الإعراض من الوزراء ، «وليس لنا ذنب إلا أننا وطنيون فقط»[1] .

وكما شهدت سنة ١٩٠٩ مصرع الحرية بالعودة إلى العمل بقانون المطبوعات القديم ، كذلك شهدت تلك السنة أجمل ما كتب فى الأهرام فى تلك الفترة عن الحرية[2]. وإذا كانت حرية الصحافة قد حدت فى مصر فإن الحديث عن تلك الحرية فى البلاد الأوروبية كان دأب الأهرام فى كثير من الأحيان ،[3]مقارنة لها فى عاصمة الدولة العثمانية حيث تلقى الصحافة هناك شداً وجذباً بين أنصارها وأعدائها ، مبينة أن الشعب لخصومها بالمرصاد ، وأن المناقشة فى أمرها ، ومناقشة المسئولين خاصة كادت أن تؤدى إلى الملاكمة ، ثم أخذت الأهرام تحمل على قوانين المطبوعات التركية القديمة وتبين إلى أى مدى هى عنوان للعصور الوسطى وأثر من آثار الظلم والعدوان[4].

الاستنجاد بمجلس الشورى

وإذا أقرت الحكومة قانون المطبوعات وبعثته من رمسه وقررت العمل به ، نقلت الأهرام المعركة مع الوزراء وصحفهم الناطقة باسمهم وباسم الاحتلال إلى مجلس الشورى ، وذكرت فى محلياتها أنها سئلت «ماذا يفعل الشورى فى جلسة يوم الثلاثاء فى قانون المطبوعات الذى عزى نشره إلى طلب الشورى والجمعية العمومية ؟ هل يقبل رجال الشورى أن يكونوا هم سبب لجم الأقلام وتقييد المطبوعات مع قلة حركتها فزيدت موتاً على موت ؟ هل يرضى نواب الأمة المصرية أن يقال عنهم إنهم سبب اضطهاد الحرية فى مصر ؟ ؟ وجوابنا على ذلك . . . لا ندرى ، نعم لا ندرى ماذا يفعلون ولا ندرى ماذا يقولون ولا ندرى كيف

---

(١) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٩٠٩
(٢) الأهرام ابتداء من ١٣ أبريل ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٦ أبريل ١٩٠٩
(٤) الأهرام فى ٧ أبريل ١٩٠٩

يتخلصون من تبعة هذا القانون »[1] .

وقد عرف الناس أنه منذ سنة ١٩٠٢ وبعض أعضاء الشورى والجمعية العمومية يريدون العودة إلى العمل بقانون المطبوعات ، فلما عزمت الحكومة على إحيائه استندت إلى مطلب المجلسين فى تلك السنة وفى سنة ١٩٠٤ ، فانتظرت الأهرام موقف أعضاء الشورى من إحياء ذلك القانون ، وأبت أن تعتمد فى تعثر الأعضاء على رواية مخبريها الذين ينقلون إليها ما يدور فى المجلس عادة،وانتظرت الجريدة الرسمية حتى لا تنقاد « لمأرب ذى غاية أو لغاية ذى مأرب » وأخذت عنها أقوال الأعضاء ، وقد احتذت بأقوال على باشا شعراوى ومقار باشا عبد الشهيد ، والأول نصير للصحافة والثانى خصم لها عنيد ، وتعرض الأهرام أولا لجهل الحكومة المصرية ومن ورائها الاحتلال ، فهم لا يعرفون شيئاً عن حرية المطبوعات وفى دائرة المعارف الفرنجية أقوال « يصل فى مطالعتها الحكيم الخريت ويتيه فى بيداء تاريخها الرشيد العريف » .

شعراوى باشا نصير الصحافة

ثم تورد الأهرام أقوال على باشا شعراوى الذى « ارتأى أن هذا القانون الموضوع للثورة العرابية لا يجوز أن ينفذ لأنه ليس فى البلد فتنة ، وطلب من مجلس الشورى أن يطلب من الحكومة وضع مشروع قانون لإلغاء قانون المطبوعات الصادر فى ٨١ والاكتفاء بقانون العقوبات وجعل قضايا المطبوعات تنظر أمام المحاكم الكلية ابتدائياً والمحاكم الاستئنافية استئنافياً » وتفصل فى رد زميله وخصم الصحافة مقار باشا الذى اعتبرت الأهرام أقواله ساخرة كبيضة الديك ، ثم تنقل لقرائها جميع الأقوال التى صدرت عن الأعضاء فى هذا الموضوع سواء كانت من مؤيدى الصحافة وحريتها أو المعارضين لها [2] ولم تعلق على أقوال أعضاء المجلس الكارهين الصحافة بلفظ ناب أو عبارة خارجة ، وإنما هى تعرض آراءهم وتجادلهم بالحسنى .

وفى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٩ أنذرت إحدى الصحف بمقتضى ذلك القانون ، وهى صحيفة خصم للأهرام ، وكانت من أشد الصحف تحمساً للعودة إلى قانون المطبوعات القديم ، غير أن خصومتها لصحيفتنا وموقفها الطروب للعمل بالقانون الرجعى لم يحولا بين الأهرام وبين أداء واجبها العام ، فكتبت مقالا تعلق به على إنذار

---

(١) الأهرام فى ١٠ أبريل ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٣ مايو ١٩٠٩

تلك الجريدة بأن القوانين القاسية التي تسنها الحكومة الظالمة إنما تقصد منها المحافظة على كيانها الظالم وستر عيوبها الواضحة ، وأن قانون المطبوعات الذى تعامل به الآن الصحف المصرية خير عنوان لذلك ، ولا يقدم على سن مثل هذا القانون « إلا كل حكومة تشعر من نفسها الضعف ، أو تميل من طبيعة تأليفها إلى إكراه الأمة على قبول شكلها وقوانينها التي تكون فى أكثر الأحيان غير قائمة على أساس العدل والإنصاف ، بل أساس حب الذات والأثرة والأنانية » ثم تتمثل الأهرام بروح الشرائع قائلة « إذا كانت الحكومة صورة مصغرة من صور الشعب وإرادته ، وعبارة مجردة من روحه ، فإنها لا تتعرض فى سن القوانين لحماية نفسها . بل لضرب الحدود بين الأفراد حتى لا يتجاوز أحدهم حد حريته إلى حرية الآخر ، ولا تناط الإدارة ذات الأهواء الذاتية بإنفاذ ذلك القانون بل المحاكم التي تكون حكماً بين الإدارة والهيأة الاجتماعية المحكومة » .

ثم تحمل الأهرام على تلك الصحف التي ما فكرت إلا فى نفسها يوم صدور قانون المطبوعات ، فقد ظنت لعلاقتها الحسنة بالحكومة أو بالاحتلال أنها بمنجاة من قسوته ، فجميع « الصحف التي وجدت مسوغاً لوجوده كانت تتكلم بلسان المآرب والغايات » حتى تلك الجريدة التي أنذرت بمقتضى مواده « أصابها اليوم ذلك القانون وكانت بالأمس تمتدحه ، لظنها أنه موجه ضد خصم سياسى لها لا ضد حرية الصحافة كلها . بل ضد الأقلام وعصارة العقول »[1] ، فالفكرة التي تسيطر على الأهرام فكرة عامة لا خاصة ، ودفاعها عن تلك الصحيفة خير دليل على براءة سريرتها ، فإن المصلحة العامة هى التي دفعتها إلى ذلك المقال ، تكتبه عن حرية الصحافة ، وتحاول فيه أن تدافع عن الرأى أيا كان مصدره ، وإن كان رأى خصم لها ، ذلك لأن الحرية الصحفية كانت مطلبها لها أو لخصومها .

الإمعان فى اضطهاد الصحافة

وأمعنت الحكومة فى اضطهاد الصحافة فقررت تحويل قضايا الصحف إلى محكمة الجنايات ، وكانت تجرى محاكمتها من قبل أمام محكمة الجنح[2] ، وعلقت الأهرام على هذا القانون الجديد بقولها « كل عيب التشريع فى هذا القطر أنه تشريع ظروف وحوادث . لا تشريع إصلاح مرسومة خطته مقرر منهاجه . متتابعة متلاحقة متوالية أطواره من حسن إلى أحسن حتى تبلغ الأمة درجة الكمال فى قانونها » وأخذت تعيب على الحكومة أن ما من

(١) الأهرام فى ١٨ ديسمبر ١٩٠٩
(٢) صدر بذلك قانون رقم ٢٨ فى ١٦ يونيه ١٩٠٩

تشريع يسن إلا ويحاط بالريبة والشبهات ويعتبر بدعة « تقابلها الأمة بالاستياء لأنا لم نر نظاماً ناجحاً عن رأى الشعب وحاجته بل رأينا كل نظام ناتجاً عن إرادة الحكومة وأغراضها » وضربت لذلك عدة أمثلة من بينها قانون المحكمة المخصوصة الذى دعا إليه جيش الاحتلال « لا لأن فى ذلك دعامة للعدل والإصلاح بل لأن بعض العساكر الإنكليزية تشاجروا مع بعض الرعاع من المصريين فأخذت الاحتلال وقتئذ شرة الغضب فألف محكمة مخصوصة لم تدع إليها الحالة ولم يتطلبها الإصلاح ، بل دعا إليها غضب صاحب النفوذ السياسى ، غضبة إنكليزية ولدت قانوناً مخصوصاً هو انتهاك لحرمة كل قانون والعمل بما يراه الحاكمون »[1].

إحتماء الصحف بالدول الأجنبية

واضطر أخيراً كثير من الصحف — للتخلص من قسوة القوانين ضد الصحافة — أن تحتمى بالقنصليات أو تبيع امتيازها لأجنبى يحول قانون المطبوعات دون الاعتداء عليه ، حتى تضمن لنفسها الحرية والبقاء ، لذلك نشطت الحكومة بتأييد الاحتلال إلى مفاوضة الدول الأجنبية لتوافق على تطبيق قانون سنة ١٨٨١ على الصحف التى يصدرها أجانب فى مصر أسوة بما هو حادث مع الصحف المصرية العربية ، وأخذت هذه المفاوضات شهوراً انتهت بالفشل وأبت الدول أن توافق على تقييد حرية رعاياها الصحفيين[2].

نفى محرر جريدة البيراميد

بيد أن الحكومة استطاعت أن تنفى بين آن وآخر صحفيين أجانب بموافقة قنصلياتهم ، وهم فى أكثرهم خصوم للاحتلال الإنجليزى، وفى مقدمة من نفتهم صحفى عالم أديب هو المسيو ألبان دوبرجا محرر البيراميد شقيقة الأهرام ، وكان قد ترك تحريرها إلى صحيفة أخرى قبل أن يتقرر نفيه . وقد عز ذلك النفى على الأهرام الذى عرفته كاتباً « يقدح الشرر من قلمه إذا استشاط وغضب ، ويجرى سلسبيلا إذا رق وراق ، ويتلاعب بالألباب إذا وصف وصور ، وهو واسع الحرية فى فكره ومسلكه ومعتقده » ، لذلك هى تودعه « وداع من جاهدوا فى الصحافة رفاقاً وإخواناً وإن كان قد انفصل عنا وابتعد بعد انفصاله قليلا أو كثيراً عن خطتنا » . ثم نشرت مع ذلك الوداع الجميل نص احتجاج

---

(١) الأهرام فى أول يونيه ١٩١٠

(٢) راجع الأهرام فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩١٠

الصحفيين على نفيه ، وقراراتهم بتوديعه على محطة مصر(١) وتسأل الأهرام الصحفى المبعد عن «تصوره ويقينه فى إبعاده» فيتحدث مستبعداً أن قرار النفى صادر عن الحكام الوطنيين «وأنا موقن بأن سبب إبعادى هو الاحتلال لأنى موقن ورصفائى الأوروبيون جميعاً موقنون الآن بأن الاحتلال لا يريد فى مصر بعد اليوم صحافة أوربية على وجه عام غير الصحف الإنكليزية» . وتعقب الأهرام على حديث الصحفى بأن «الاحتلال وحده هو العامل» وأنه يجب أن يتآزر المصريون والأوربيون على مكافحته حتى لا ينظر إلى مصر كأنها مستعمرة إنجليزية(٢). ثم تنشر بعد ذلك نبأ نفى صحفى أسبانى كان مديراً للبلاغ المصرى، وهى صحيفة عربية فرنسية استطاع الاحتلال أن يقضى عليها بإبعاد مديرها من مصر(٣).

فإذا أدت الأهرام واجبها فى إعلان وجهة نظرها نحو تقييد حرية الصحافة ، بتلك المقالات التى نشرنا طرفاً منها أو نبذاً من بعضها ، وبتلك الأحاديث والأخبار وما إليها ، تعاتب الصحف الوطنية على سوء تصرفها بخلق الخصومات بينها ، حتى تذهب فى خصومتها إلى المحاكم فتعطى حجة لخصومها الذين ينكرون على الصحافة المصرية نضجها واستواءها ، فإن الأهرام يسوؤها «أن يسوق الصحافيون بأيديهم بعضهم بعضاً إلى موقف القضاء . وهم يقتضى عليهم أن يكونوا متضامنين لإبعاد أنفسهم عن السجون والغرامات التى جعلت للصوص والأشرار»(٤). وهى تعاتب زميلاتها المختلفات فيما بينها، وذلك لأن الجيل لم يكن يعطى الصحافة قدرها ، فإذا تخاصمت كانت فرصة مواتية لخصوم الحرية الصحفية فى مصر

حول حديث الخديو

وليست حرية الصحافة عند الأهرام أمراً يتصل بالتشريع أو التقنين لها ، فإن حرية الصحافة قبل كل شيء تقاليد ، يجب أن تراعى من ناحية الصحافة كمطالبتها السابقة للصحف بأن تصفى مشاكلها فيما بينها ولا تعالج خصوماتها أمام القضاء ، ويجب أن تراعى من ناحية السلطات جل قدرها أو هان ، فإن الخديو إذا تحدث فى أمر عام فينبغى ألا يقصر حديثه على صحيفة دون صحيفة ، فقد نشر المؤيد حديثاً للخديو فلم

---

(١) الأهرام فى ٨ ديسمبر ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ١٠ ديسمبر ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ١٦ ديسمبر ١٩١٠
(٤) الأهرام فى ١٤ سبتمبر ١٩١٠

تر الأهرام موجباً لمؤاخذته » بكلمة واحدة بل أنا نرى من الظلم البين مؤاخذة صحافى يتمكن بجده ونشاطه أو بحسن سياسته ولطف أساليبه أو بما شاء القارئ من الوسائل من الوصول إلى العظماء والأمراء وسواهم ليخدم حرفته وجريدته فهل تخالف حرية قلمنا وضميرنا لنذم صحافياً يخدم حرفته ؟ ؟ كلا إنا لا نقدم على ذلك . ولا يذكر أحد فى تاريخ الأهرام أنها فعلت مثل هذا إلا إذا كان من وراء خدمة الحرفة ضرر الأمة » .

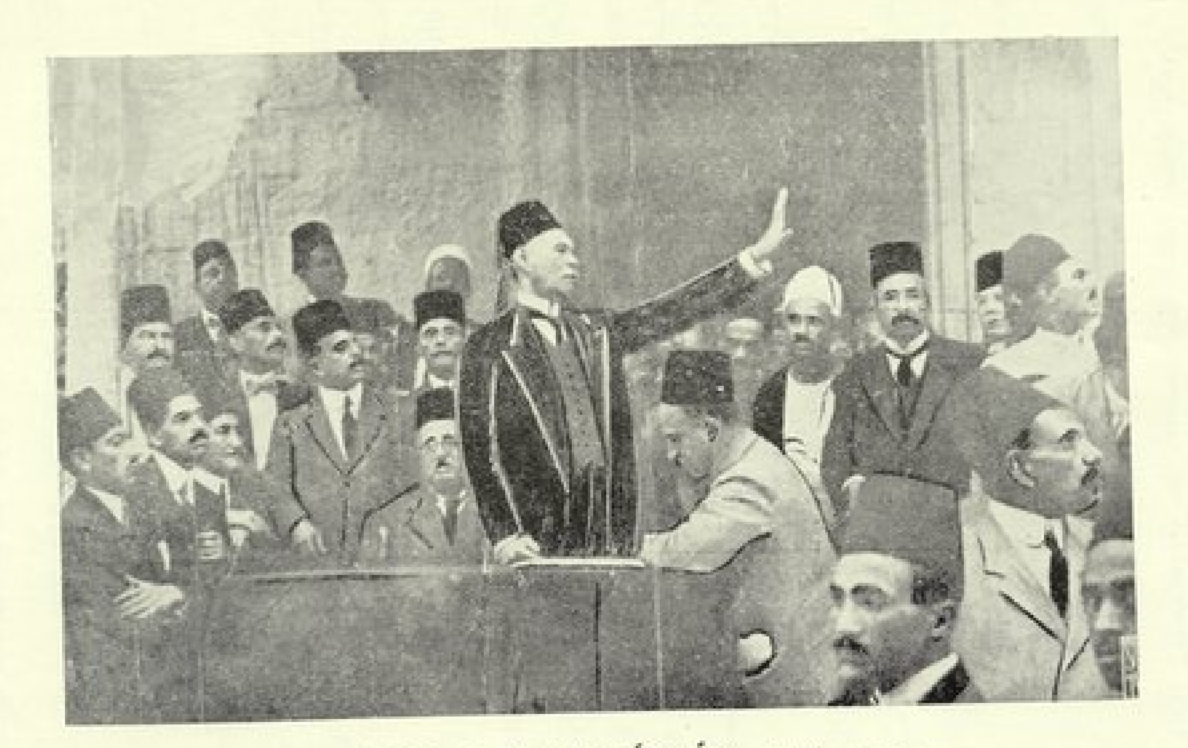
وإذن فهى تشكر للمؤيد سعيها واجتهادها ولا تعيب عليها نشاطها المحمود فى خدمة الحرفة وأداء الواجب ، ولكنها تعتقد – واعتقادها صحيح – أن أحاديث الملوك لا ينبغى أن تقصر على صحيفة وتهمل أخرى ، فإن العادة التى تعرفها فى مثل تلك الظروف أن الملوك يعدون « مع رئيس وزارتهم عبارة الحديث وينقحونها ويدعى الصحافيون مع من يدعون لسماعها حتى إذا ما ألقاها المليك يكون ذلك على مسمع من الصحفيين ولا يدعهم ديوان البلاط أو ديوان المعية ينشرون الحديث دون تصحيحه بل قد يسلمهم نسخاً منه خوفاً أن يخطئوا بالنقل أو بإيراد العبارات » ثم تشرح الغرض الذى تعامل من خلاله المعية مختلف الصحف. الأمر الذى من شأنه أن يقلل من مكانة الأخبار والموضوعات التى تنشر عنها ، وهى فى الأصل مفتوحة الأبواب لجميع الصحف على السواء[١].

ثم ترحب الأهرام بالحكم الذى أصدرته المحكمة فى قضية سكرتير بلدية الإسكندرية الذى أقام الدعوى على صاحب جريدة (وادى النيل) لأنه اتهمه بالرشوة ، وتبدى الأهرام إعجابها بالقدرة الصحفية التى أظهرها صاحب الجريدة بمقالاته وحججه فى إثبات الرشوة على سكرتير البلدية ، وقد اعتبرت القضية والحكم فيها نصراً صحفياً جديراً بالتسجيل[٢].

محافظة الأهرام على التقاليد الصحفية

وفى أحد الظروف نشرت الأهرام نقداً بقلم أحد المواطنين لتصرفات سعد زغلول باشا – وهى صديقة وفية لسعد كما سنبين فى فصل آخر – وأمضاه تحت اسم محجوب هو (عارف) ، واعتبر سعد ما جاء فى النقد قذفاً يعاقب عليه القانون ، فطالب الأهرام بأن تذكر له اسم صاحب المقال « ليطالبه بأقواله أمام القضاء » ، فذهبت الأهرام إلى صاحب المقال تستأذنه فى ذلك أو تعرض عليه طلب سعد زغلول ، فاشترط الرجل لإذاعة

(١) الأهرام فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ١٢ مارس ١٩١٢



سعد زغلول باشا يلقي خطاباً تاريخياً إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩

اسمه شروطاً ، فنشرت الأهرام أنها بناء « على هذا الشرط الذى اشترطه علينا « عارف » أجبنا سعادة سعد زغلول باشا عملا بالتقاليد الصحافية التى نصونها من كل عبث » ولم تعط سعداً مفتاح قضيته مع أنه كان محل تقديرها فى شتى الظروف ، وله مكانه المقدور عندها فى كثير من المناسبات ، ولكنها التقاليد الصحفية التى تعيش بها ولها هى التى أوحت إليها بحبس الإسم عن صديقها العظيم سعد زغلول .

رأيها فى الصحافة الرسمية

وتختم الأهرام سيرتها المتصلة بالصحافة وحريتها بحديث عن قيم الصحافة الرسمية فى حياة الشعوب الحرة ، وذلك بمناسبة ما يدور فى الأوساط الحكومية من التفكير فى إنشاء صحيفة فرنسية تكون لساناً لها بعد أن فقدت الألسنة المواتية نتيجة موقفها من الصحف والصحفيين . والأهرام تستقبل هذا الذى يدور فى أوساط الحكومة استقبالا خشناً ، « فالذين يظنون أن الصحف الرسمية تستطيع أن تستميل العقول والنفوس يخطئون جداً . لأن هذه الصحف خلقت للدفاع ، كما أن مهمة الصحف الحرة النقد وبيان الخطأ وطلب الإصلاح فالمدافع مسخر مأجور » . وتبين صحيفتنا الضرر من الصحف الرسمية ومهمتها « الجمود بالأمة وإقناعها بأن ما هو موجود حسن . وكل جمود فى هذا الكون مغاير لطبيعة الكون ، والصحافة الرسمية مغايرة لطبيعة الوجود الذى يصبو دائماً إلى الإصلاح والكمال » . ولا ينبغى أن ينتظر الحكوميون خيراً من وراء تلك الصحافة ، فإن الناس يعملون أن وظيفتها أن « تزوق الباطل وتطلى المحال » .

وترجو الأهرام أن تنصرف الحكومة عن هذا اللون من الدعاية المأجورة الرخيصة ، فإن الاحتلال اصطنعها فى أول عهده ، فثبت له على مدى الأيام أن شرها كان أكثر من خيرها . فانصرف عنها ، وإن الحكومة المصرية لن تكسب من وراء ذلك إلا « فصل الصحافة الوطنية » عنها وإبعاد القلوب وتنفيرها منها .

الصحافة حصن الحرية

وهكذا عالجت صحيفتنا قضية الصحافة المصرية خلال تلك الأيام ، لم تترك شاردة أو واردة من أمرها إلا قتلتها بحثاً وكشفت للرأى العام أهميتها أو خطرها ، وقد استطاعت الأهرام أن تخلق من قضايا الصحف ونوايا الحكومة أحداثاً نغصت على الحكام حياتهم ، ونفر الناس زرافات ووحداناً يؤيدون مطالب الصحافة ، لأنهم رأوا فيها الحصن الأخير

من حصون الحرية الذى يأبى الاستسلام ، وتعلق المصريون بحرية الصحافة ، كأن فيها استقلالهم وجميع حرياتهم ، وكان الأمل عظيماً فى أن تنجح الأهرام وزميلاتها الوطنيات فى تغيير قانون المطبوعات بمداومة السعى لدى الجمعية التشريعية وأحرارها .

ولا شك أن الجمعية التشريعية التى عاشت عدة أشهر فى سنة ١٩١٤ كانت أوسع اختصاصاً من المجلسين النيابيين السابقين ، ولا شك أيضاً فى أن اهتمامها بالحريات العامة كان ينبئ برعاية الصحافة وحريتها ، وفى الجمعية الواعون الممتازون الذين يعرفون قدر الصحافة الحرة فى حياة الأمم والشعوب ، ومن بينهم عظماء لم تعرفهم مصر إلا عن طريق صحافتها ، سواء كتبوا فيها أو وجدوا نصيراً وولياً منها .

كان يمكن للصحافة المصرية أن تستبشر بالجمعية التشريعية وتنتظر خيراً كثيراً منها ، فطبيعة تكوين تلك الجمعية وأقدار رجالها فى المجتمع كأهل سياسة وكياسة ، تفرض الرجوع عن العمل بقانون المطبوعات الصادر فى نوفبر ١٨٨١ ، والسعى للتقنين الصحفى فى أضواء الحريات التى تستمتع بها الشعوب المتحضرة ، لولا أن الحرب العظمى الأولى فاجأت كل حر ، فعقلت الألسنة ، ولجمت الأقلام ، ووقفت كل نشاط سياسى أو صحفى .

الأهرام في مقومات حضارتنا

ذات الجـلالة كالمرآة صافيـة تريك من كل ثقب أصدق الصور

« غانم »

الصحافة مرآة الشعب ، وعنوانه الصادق ، وكل مؤرخ يستطيع أن يرى صورة بديعة من كل شعب إذا عاد إلى صحافته ، مطمئناً إلى سلامة التصوير ، وهى — أى الصحافة — سجل بينت الأهرام قدره فى سياق ذلك التاريخ المتصل الحلقات الذى عرضناه عرضاً صادقاً فى الفصول السابقة ، وصحيفتنا تؤثر وتتأثر بالمحيط الذى تعيش فيه ، لذلك كان لها نصيب موفور فى مقومات حضارتنا .

ومقومات الحضارة المصرية منذ طلع القرن العشرون إلى أن قامت الحرب العظمى الأولى متعددة الجوانب ، متباينة المظاهر ، كثيرة الفوائد ، فيها أدب وفن ، وفيها علم واقتصاد ، أرخت الأهرام لهذا كله ، وساهمت الأهرام فى هذا كله ، عرضت لكل ما يمس حياتنا الفكرية والمادية وشغلت الناس بصفحات متصلة من البحوث والنقد والتوجيه لحياتنا الأدبية والعلمية والفنية ، حتى كانت فى الفترة التى سبقت الحرب العظمى حافلة بصنوف من الآراء الجديدة التى قدمت للثورة المصرية سنة ١٩١٩ أجمل تقدمة ، فى تلك الفترة نزلت إلى ميادين الأدب والشعر والاقتصاد والفن والعلم أسماء لم تكن معروفة من قبل ، وقد هيأت الأهرام الفرصة لها ولإنتاجها ، مشجعة مرة ، ناقدة أخرى ، مسجلة فى جميع الأحوال تلك المقومات التى أبرزت حضارتنا بين الشعوب والأمم .

والأهرام التى صاحبناها فى القرن التاسع عشر ، وشاهدنا كفاحها السياسى والاجتماعى ، هى هى صحيفتنا التى نصاحبها الآن فى مطلع القرن العشرين ، وقد زادت عنايتها بشؤون السياسة كما بينا ، وزاد اهتمامها برعاية ظروفنا الاجتماعية فى شتى ميادينها .

عنايتها بالقصة

فإن القصة ، وهى اليوم خير ما يقدم الإنتاج الفكرى من فنون ، كانت منذ خمسين عاماً محل العناية والرعاية من صحيفتنا ، فلا يخلو منها عدد ، وهى — طالت أو قصرت — تهدف إلى المثل الطيب أو العبرة والعظة ، منقولة عن التاريخ القديم أو الحديث ، من الواقع الملموس أو الخيال البديع ، موضوعة أو مترجمة ، فى أسلوب أدبى رفيع سما بالأدب وكتابه وأفاد قراء الأهرام خاصة وعامة[1]

وقد ارتفع أسلوب الأهرام فى تلك الفترة سواء أكتبت فى السياسة أم عالجت الخبر ، واختفت من صفحاتها تلك الألفاظ الأعجمية التى كانت مزدحمة بها فى القرن الماضى ، فإذا القامبلية والبللو أسرة ومرقص[2] ، وعلى هذا المثال فى تطور الأسلوب قس ألف مثال ومثال .

عنايتها بالمعارض

وتحدثنا الأهرام عن المعرض الزراعى فى سنة ١٩٠٠ فى رضاء واطمئنان إلى مستقبل الأيام ، فإن معرض مصر يفتح أبوابه فى الجزيرة « والمعروضات الزراعية والصناعية منسقة فى سرادقاته ، ولسان حالها يقول للرائين إن تربة مصر إذا جودت جادت ، وإذا زرعت باعتناء أثمرت بوفر بل إن هذا المعرض الزراعى مدرسة تعلم الزارع كيف تزكو تربته وكيف تعالج . ففيه تفتخر يد العمل تؤازرها يد العلم . . . » . ثم تسجل لنا ما فى المعرض من أشياء ، منتقدة إدارة المعرض التى جعلت اللغة الإنجليزية هى لغة التعبير والقراءة فإذا جميع « الأصناف والجوائز والعينات بالإنكليزية فقط » ، ونسيت لغتنا الوطنية وكان « الأجدر أن تكتب جميع الألفاظ بالعربية لغة الأهالى فيقرأون ويفهمون ولا يفوتهم شىء . . . »[3].

ودار الزمن دورته فإذا بيننا بعد خمسين سنة من يشير بوضع لغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية فى المعرض الصناعى الأخير حتى يزاوج الأجانب بين رؤيا النظر ومعنى التعبير . ثم تهاجم الأهرام هذا التقاعس من الوطنيين البادى فى إهمال منتجات بلادهم التى شاهدوها فى معرض تال بعد سنوات بعنوان افتتاحى (ساعتان فى المعرض . القوالون

(١) راجع الأهرام ابتداء من سنة ١٩٠٠
(٢) الأهرام فى ٢٧ يناير ١٩٠٠
(٣) الأهرام فى ٩ فبراير ١٩٠٠

كثيرون والفعالون قليلون) ، وهى تشكو ازدحام الناس بالمعرض ، وانصرافهم عما فيه ، مع إبداء إعجابهم بما رأوا وشاهدوا ، حتى أن مندوب الأهرام قام بتحقيق صحفى مع العارضين كانت نتيجته « أنى أضعت ما امتلأ به رأسى وصدرى من الفرح والسرور وخرجت من المعرض والشمس فى مغيبها كئيباً كآبة أولئك الصناع المصريين الذين يربحون من مواطنيهم الأغنياء الكلام – لو كان الكلام يشبع من جوع ويكسى من عرى ويغنى من فقر وينشط من خمول ويروج من كساد – خرجت من المعرض بعد أن عرفت من العارضين أن ما باعوه قليل وأن هذا القليل المبيع كان للإفرنج لا للوطنيين وثبت لى بعد ما سمعت ما هى آيات المدح وعبارات الإطراء . إن الشرق قوال لا فعال فهو يقول لك : علينا بتنشيط الصناعة الوطنية . علينا بتعليم أبنائنا . علينا بإنهاض قومنا . ويملأ الدنيا حثاً وتحريضاً فإذا جاء دور العمل انزوى فى داره وظن أنه أتم ما عليه »[1].

وقد عادت الأهرام إلى ذلك الموضوع أكثر من مرة ، ودعت المواطنين فى أكثر من معرض أن يؤيدوا بالفعل صناعتهم وتجارتهم ، فإن فى تأييد الصناعات الوطنية وتشجيعها التشجيع المثمر المفيد تخلصاً من لون من ألوان الاستعمار ، وهى لم تقف عند حد مقال أو خبر ، بل رأينا وشهدنا فى تاريخها الحديث الأعداد الخاصة تصدرها إذا افتتح معرض من المعارض .

فوضى الرتب والألقاب

وتعرض الأهرام لعيب فينا ، أكبر الظن أنه لا يزال يشغل بال الكثيرين منا ، ذلك هو قصة الرتب وأصحابها ، فإن كثرة الرتب قد هالت صحيفتنا فكتبت تعلق ساخرة على ذلك بقولها « . . . نحن رجال الأمة وصعاليكها لنا أيضاً من هذه الحقوق المتراكمة المتكدسة المتراصة حق نريد أن نناله وهو أن يدلونا على البك والباشا ، وأن يعلنوا لنا أسماء البكوات فلقد والله تشابه علينا الأمر واختلط الحابل بالنابل ، وأمسينا كحمارة الطريق إذا رأينا بزة ناعمة وعمامة مصفففة أو مكورة أو مدورة أو طربوشاً أحمر عالياً أو عصاً بقبضة من ذهب لقبنا صاحبها بالبك وأجللنا قدره وخاطبناه وكاتبناه بالبكوية أو البشوية إذا كان فيها من الطامعين » . وهى لا تشكو كثرة الرتب وحدها ، بل تشكو ما أصاب الصحافة منها ، فإن بعض صغار الصحفيين صغار النفوس يرتشون من هلافيت الناس فيمنحونهم « الألقاب على ما يشتهون ، والجريدة الرسمية غافلة وفى مقدورها

(١) الأهرام فى ١٥ مارس ١٩٠٩

أن تحسم الموقف بكشف مطبوع يسجل أصحاب الرتب بين الناس »[1].

وهى تسخر من الرتب سنة بعد سنة كلما أحست إسرافاً فى منحها لمن لا يستحقها ، وتقول هازئة عن الرتبة وصاحبها « يجب إجلالها وإكبارها وتهنئة الإنسانية بالإكثار منها بين النوع الإنسانى . لأنها شكيمة فى الفم تمنع أكثر ألسنة حامليها عن هجر القول — أحياناً — ومقود فى العنق تجر أكثر المربوطين بها إلى فعل الخير . وقيد فى الرجل تحبس أكثر المربوطين بها عن السعى فى الشر . ونار فى الصدر تتقد لجلب المحامد وابتياع الشكر والثناء من الناس . وسيف مسلول على الرأس يهدد سيدى البك وسيدى الباشا ببتر هذه الهنة الملصقة لصقاً شديداً إذا زاغ وطغى . وأفسد وجنى . وهى فوق ذلك تفعل بالأيدى المنقبضة فعل الزئبق الطيار بالأرض الصلبة فتفتح تلك الأيدى لتندى . وتبسط الأكف لتسخى . وتوسع الدور للضيافة . وتكثر فيها الأثاث النفيس والمأكل اللذيذ والمشرب الهنى . وتبنى المطابخ والطباخين . وتقتنى الخيول والعربات لاستخدام السواس والحوذيين . وقد تكثر « زبائن » الكتاب والصحافيين . فلماذا لا تكون مباركة ولا يكون حاملوها ومتحملوها من المباركين ؟ ؟ ؟ » .

أرأيت كيف تسخر الأهرام من الرتب وأصحابها ، وكيف تتخيل فعلها فى النفوس والأخلاق ، وهى تستطرد فى المقال على هذا الوضع وفى هذا الأسلوب الأدبى ، حامدة الله أن الرتبة فى مصر متصلة بصاحبها ولا تورث مع الأثاث والعقارات ، فابن الباشا لا يرث من والده « لا باء ولا ألف ولا شين ولا ألف ولا رائحة منها »[2].

الإسراف فى النعوت

وتبين الأهرام فى عدد منها ما تركته النعوت والأوصاف فى نفوس الناس ، ذاكرة أن المسؤول عن هذا الأثر فى تلك النفوس صحافتنا التى منحت بعض الناس من النعوت والألقاب ما لا يستحقونه ، وتذكر الأهرام أنها حذفت « الألقاب والكنى والنعوت ليألف القراء والجمهور طرق المتمدنين الراقين فى كتاباتهم فلا يكون نصف عباراتنا (الفاضل والوجيه والأمثل والحكيم والبارع والأديب والذات والعين) حتى تعدت هذه الألفاظ معناها الوضعى ومرماها ومغزاها وباتت بلا معنى . فلا تدل كلمة الفاضل على الفضل ولا الأديب على الأدب ولا الوجيه على الوجاهة وتساوى معها الأديب ومن

(١) الأهرام فى ٣٠ يناير ١٩٠٢

(٢) الأهرام فى ١٨ مايو ١٩١١

لا أدب له . والفاضل ومن يستنكرة الفضل . » وتذكر أن أحد وكلاء النيابة لم ترقه طريقة الأهرام تلك في إهمال النعوت والأوصاف وأنه يريدها أن تصنع مع أمثاله ما عابه الشاعر بقوله

« ألقاب مملكة فى غـــير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد »

فقد ساء وكيل النيابة أن تذكر اسمه خلواً من الفضل والنباهة والوجاهة ، فعاتبها عتاباً شديداً ، وخاصة أنها وضعت اسم الشيخ عبد العزيز جاويش إلى جانب اسمه ونعته « بالأستاذ الفاضل » وهو على حد قوله « مجرم حكم عليه ثلاث مرات والأهرام تعظمه » وتعلق الأهرام على تفكير وكيل النيابة « فليتأمل القراء العقلاء بفعل رجل وضع القانون فى يده كيف يحكم على الصحافة وعلى رجل سجن لدعوة سياسية »[1].

وإذن فالألقاب والرتب والنعوت تبذل فى مصر من غير حساب ، تبذل من الحكومة والصحافة والناس بغير ضابط ، وهى حالة جديرة بالنظر ، خليقة بالنقد فى الأهرام ، بين آن وآخر . وهى إلى جانب ذلك تتبرم من بعض طباعنا وتنقدها نقداً مراً ، فنشرت مقالا بعنوان (ما عليش — وأنا مالى) ، وبينت فى ذلك المقال خطر هذه الكلمات والجمل التى تجرى على كل لسان فى مصر ، وردت المتاعب التى تراها البلاد سواء فى السياسة أو الأدب أو التعليم إلى مثل تلك الكلمات التى تعنى التهاون فى الحق والانصراف عن الواجب[2]. وتعود إلى بحث الموضوع مرات أخرى ، كان من أجملها ما نشره رياض الجمل بعنوان (معلهش) وهى دراسة لنفسية الشعب من جرس هذا اللفظ البغيض[3].

ولاؤها للأسرة المالكة

وتمضى الأهرام تعالج شتى الموضوعات ، فتتحدث عن الملوك وأعياد تتويجهم ، وتذكر احتفالات الشعوب بها وإقبالها عليها ، لأن من الملوك من يستحق إعجاب شعبه وإكباره ، ثم تضرب المثل « بألفونس الثالث عشر » ، وهى تتحدث عنه وتعتبر حديثها « درساً لأمراء الشرق لو تعلموا »[4]. ثم تستقبل احتفال المصريين بذكرى تولية محمد على أريكة الملك فى مصر استقبالا منقطع النظير ، وقد تقدمت فى صدرها بتحية أدبية رائعة من قلم خليل مطران ، منوهة بخطاب مصطفى كامل فى جماهير الشعب التى وفدت

(١) الأهرام فى ١٦ فبراير ١٩١٢
(٢) الأهرام فى ٥ مايو ١٩٠٢
(٣) الأهرام فى ١٠ فبراير ١٩٠٩
(٤) الأهرام فى ١٧ مايو ١٩٠٢

على الاجتماع منصتة إلى حديث الزعيم الشاب وهو يتلو عليها من سجل التاريخ قدوة عظيمة ممثلة فى محمد على الذى خلق حكومة وأنشأ أمة ، واعتبرت فى حديث مصطفى كامل هذا الحديث الممتع « صوت مصر ولسان ضميرها المجاهر »[1] وهى ترى فى الذكرى الحسنة قدوة يحسن بالمصريين أن يقتدوا بها ، وخاصة فى عظيم كمحمد على الكبير .

وتنتقل الأهرام من موضوع إلى موضوع ، ومن فكرة إلى فكرة فتناقش تحت عنوان (عودوا إلى الحقول يا عشاق المدن) أولئك الذين ينزحون عن الريف وفيه مهدهم ومنه وبه درجوا أغنياء مترفين ، مبينة الاضطراب الاجتماعى والزراعى الذى سيصيب الريف بعد أن تركه أصحابه إلى مباهج المدن وسوءاتها ، ولا تكتب الأهرام هذا من غير اعتماد على حجة من أديب أو كاتب ، فهى تحدث قراءها أن دستور « شيخ الروس تولستوى » كان الدعوة إلى الريف والتمسك بالحقل والكفاح من أجل الأرض[2].

بدعة إضراب الطلبة

ثم تعرض الأهرام لأول إضراب قام به طلاب المدارس وهو إضراب مصدره برامج التعليم التى شكا منها الطلبة آناً بعد آن ، وبينوا فيها مواضع الإجحاف والظلم ، فلما عجزوا عن نيل مطالبهم العادلة ذكرت الأهرام « خلل الإدارة فى نظارة المعارف وتشرب تلك الإدارة روح التضييق على الطلبة بالنظامات والرواتب وبالامتحان وبكل وسيلة بيد الحكومة حتى لا يعلم فى المدارس إلا العدد اللازم لخدمة الدواوين » . وتناقش الأهرام قضية التعليم التى انتهت باعتصاب الطلبة فلو « كان للبلاد مجلس نيابى يدرس المسائل الحيوية ويمعن فيها نظره ، بل لو كان للبلاد حكومة تصغى وتسمع لتنصف وتعدل لما رأينا فى المدارس اعتصاباً ولما رأينا من الحكومة معاندة ولما رأينا فى طريقة التعليم هذا الخلل الفاضح »[3]. وهى تسجل المعارك الكلامية التى دارت حول هذا الموضوع ، وتنشر اجتماعات الطلاب ومواقف المفكرين من قضية التعليم[4] وانتشار الاضطرابات من مدرسة إلى مدرسة[5]، وتحمل على الحكومة فى افتتاحية لها وتنقد تصلبها فى موقفها من الإصلاحات التى يرجوها العقلاء والمفكرون قبل الطلبة المضربين ، فليس الغرض من التعليم تعجيز الطلاب ،

---

(١) الأهرام فى ٢٤ مايو ١٩٠٢

(٢) الأهرام فى ٢٧ فبراير ١٩٠٦

(٣) الأهرام فى أول مارس ١٩٠٦

(٤) الأهرام فى ٢ مارس ١٩٠٦

(٥) الأهرام فى ٣ مارس ١٩٠٦

بل إن الغاية إعدادهم مواطنين مثقفين يفيدون الوطن وبنيه[1].

الرابطة العلمية

ثم تتحدث فى مقال آخر عن العلاقات بين التلميذ والأستاذ وما يجب أن يسودها من ود واحترام ، « فالرابطة بين المعلم والتلميذ لا يجب أن تكون رابطة قوة واقتدار وسلطة وسيادة وخضوع واستماتة بل رابطة حب ووقار واحترام وولاء حتى ينزل المعلم نفسه منزلة الأب المربى بل الكفيل القيم الذى يفرغ كل قوته وجهده ليصوغ من ذلك الدماغ اللين والنفس النقية من كل شائبة رجلا عالماً كاملا مهذباً عاقلا » . وهى تحدثنا فى غضون المقال عن المعلم الذى يعتبر قدوة ومثالا ، بأنه المعلم الذى يعتقد تلاميذه أن الانتساب إليه شرف لا يعلوه شرف[2].

وإذا كان إضراب الطلبة الذى ذكرنا طرفاً منه تسجله الأهرام كأول حدث من نوعه فى مصر ، فإنها لا تروى فيه أخباراً فقط ، بل هى تعلق وتعالج برأى منها ، ثم تتدرج من حديث الإضراب إلى العلاقات التى يجب أن تكون بين التلميذ والأستاذ ، وتنتهز فرصة العلم والتعليم فتحمل حملة رائعة على نظم التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية التى جعلت جميع الدراسات ، حتى دراسة تاريخ مصر ، باللغة الإنجليزية ، وترحب فى موضع آخر بإنشاء ناد للطلبة وتدعو إليه وتكون وسيطاً بينه وبين المتبرعين له[3]، وتقف بعض افتتاحياتها على مناقشة رسوب التلاميذ فى الامتحانات رسوباً غير مفهوم ولعلة غير واضحة[4].

الفنون الجميلة

ولم تكن الأهرام تغفل دراسة هذه النواحى التعليمية فترة إلا لتعود إليها مرة ومرة ، بينما تعالج فى مقالات متصلة أخرى مسائل لها بالذوق والفن علاقات ، فهى تهاجم سياسة اللورد كرومر المتعمدة والخاصة بوقف الفن على الأجانب ، والأجانب وحدهم ، تحت عنوان (الأوبرا الإفرنجية للإفرنج تبنى بأموال أبناء العرب)[5]، فقد صرف كرومر

(١) الأهرام فى ٥ مارس ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ٨ مارس ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ٢٠ أبريل ١٩٠٦
(٤) الأهرام فى ١٩ فبراير ١٩٠٧
(٥) الأهرام فى ٢٧ مايو ١٩١١

أربعمائة ألف جنيه على بناء « تياترو حديقة الأزبكية » ليتمتع به الفرنجة دون إثنى عشر مليوناً من المصريين الفلاحين العرب الذين دفعوا أجر البناء من عرق الجبين وبسوط من الذل والاستعباد ، وتتطرق إلى أن وظيفة المصريين جميعاً قد أصبحت فى خدمة الأجانب الذين يلتهمون أموالنا حتى إنك « تدخل الملعب – تقصد دار التمثيل – فتجد الخادم مصرياً والبواب مصرياً والحارس مصرياً والبوليس مصرياً ولكنك تجد هناك شخصاً واحداً غير مصرى وهو الذى يتناول الأموال »(١).

التمثيل والممثلون

فإذا استطاع المصريون أن تكون لهم تمثيليات ودار تقام فيها حفلاتهم ، اختارت الأهرام الأديب الكاتب أنطون الجميل لنقد تلك الروايات ، وأفسحت صدرها لذلك النقد مهما يطل ، وذلك من باب التشجيع للتمثيل وأهله(٢). ولم تكن تضن على « الجوقات » بالتحية الطيبة وخاصة « جوق أبيض » أى فرقة جورج أبيض بك الممثل المعروف ، فإنها كانت تستقبل رواياته استقبالا رائعاً وتنشر أنباء فرقته إلى جانب أخبار السراى ورؤساء الحكومة والأنباء الهامة ، وتروى أحياناً تلك الأخبار المتصلة بذلك الجوق فى ثلاثة أنهر ، واصفة المكان ، متحدثة عن اشتراك الخديو فى الفرجة ، مبينة للقارئ موضوع الرواية ، ذاكرة الممثلين وما قاموا به من أدوار(٣). هذا إلى جانب مقالاتها التى تتصدر صفحاتها وفيها من لوم الحكومة الشىء الكثير نظراً لإهمالها إعانة التمثيل العربى ، وتعتبر ذلك إهمالا للآداب العربية بينما « ينفق على الأوبرا ثمانية آلاف جنيه ويضن على التمثيل العربى بقرش واحد »(٤). وهى تستقبل الجوقات المصرية استقبالا طيباً كما ذكرنا ، وتعتقد أن إقبال الجمهور سيكون كبيراً ، بل إنها ترى ذلك الإقبال واجباً محتوماً على كل مصرى نابه « ليدل الحكومة – تقصد الجمهور – على اهتمامه به – أى بالتمثيل – فتضطر إلى مساعدة فن مضت السنون والأمة تطلب من الحكومة مساعدته ولا يصغى أحد لصوتها »(٥).

العدل أساس الملك

ولن نفرغ مما عرضت له الأهرام ، فإن شيئاً فى حياتنا لم تغفله من حسابها . فسوف

(١) الأهرام فى ١٠ مارس ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ٦ فبراير ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٢٢ مارس ١٩١٢
(٤) الأهرام فى ١٦ مارس ١٩١٤
(٥) الأهرام فى ٢١ مارس ١٩١٤

تصاحبها وحديث القضاء والقضاة متصل الحلقات ، فهى تدافع عن قضائنا بحرارة منقطعة النظير ، وتطلب للقضاء الأعلى استقلالا جديراً بكفاية رجاله وسيرتهم الحسنة[1]، كما تشغل صفحاتها بكثير من المقالات الخاصة « بالمحاكم الشرعية ومشاريع إصلاحها »[2]، وهو موضوع وقفت عليه أقلام كتابها غير ما جاءت به من أحاديث ومقالات خارجية على مر الأيام ، وفى كل ظرف دقيق تحمى بكتاباتها القضاء المصرى كلما هوجم من هنا أو من هناك ، فقد اعتقدت عن يقين أن الضمان الوحيد الباقى بعد الاحتلال يتمثل فى قضاء عادل لايخشى صولة الحاكمين .

ولم تقف الأهرام افتتاحياتها الهامة على الشئون السياسية وحدها ، ولا على المسائل الداخلية الخطيرة دون غيرها ، بل عرضت فى بعضها لحوادث تعرض لها الصحف الأخرى فى سطور أولا تعرض لها أبداً ، فقد اهتمت الأهرام بخبر عن زواج بنت مأمور إحدى السجون من عين محكوم عليه بالسجن المؤبد ، وحملت على فعلة المأمور الذى استغل مركزه فامتهن المجتمع سعياً وراء المال الحرام ، ثم تطرقت من قصة الزواج إلى نصح الآباء بألا يجعلوا المال هدفهم حين يفكرون لأولادهم وبناتهم فى الحياة الزوجية ، فإن تلك الحياة قد يفسدها المال متمثلة بقول الشاعر

أحب إلى من لبس الشفوف　　ولبس عباءة وتقر عينى
أحب إلى من أكل الحروف　　وأكل كسيرة فى كسر بيتى

والأهرام تناقش فى ظروف أخرى حياة السجون المصرية ، وتنقدها نقداً اجتماعياً بديعاً ، ولها فى ذلك عناوين تثير رغبة القارئ كقولها « السجون المصرية . اللى ميعرفش يقول عدس »[3].

رعاية الأطفال

وإذا نحن مضينا مع صحيفتنا نجوس خلال صفحاتها ، وجدنا صوراً ممتعة لحياتنا ونشاطنا ، فهى تؤرخ لهذا الوعى السليم والنضج فى التفكير الذى بلغه المصريون فى سنة ١٩٠٨ حين بدءوا يفكرون فى رعاية أطفالهم ويسعون لسعادتهم ، وذلك بإنشاء الجمعيات لهم ، وهى تذكر ذلك مفتخرة بنشاطنا الإنسانى والاجتماعى، مفاخرة بعض شعوب أوربا التى سبقناها فى هذا المضمار ، ثم تشجع القائمين على هذه النواحى الإنسانية بمدحهم

(١) الأهرام فى ٢٠ أكتوبر ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ٤ يوليه ١٩٠٧
(٣) الأهرام فى ٢٩ أبريل ١٩٠٩

والثناء عليهم وذكر أخبارهم وأسمائهم[1]. وتؤرخ كذلك لمبرة محمد على التى أحس المصريون فى السنوات الأخيرة فضلها المأثور ، فتحدثنا عن نشأتها فى سنة ١٩١٠[2].. وتنشر قانونها وتبين غايتها[3] وتستطرد فى كثير من الأعداد راوية نشاطها ، معددة نواحى البر التى تقوم عليها .

القومية واللغة العربية

وتساهم الأهرام فى خدمة آدابنا مساهمة الأصيل ، فتفسح صدرها — كعادتها — لأعلام الأدب وأساطين الفكر يحدثوننا عن النقص فى لغتنا أو آدابنا ، وما ينبغى أن نؤديه لها حتى نعيد للغة وآدابها إشراقها القديم ، وينقد أنطون الجميل فى افتتاحية ممتعة الشرقيين من العرب الذين يهملون دراساتهم العربية حتى تولاها المستشرقون الغربيون ونحن وقوف نتفرج ، أو نتلقى عنهم الأسماء وقد حرفوها بشكل يثير الضحك منهم أو الشفقة منا « . . . يأخذ الغربيون قطننا أو حريرنا فيصبغونه وينسجونه ويعيدونه إلينا فهل نستغرب إذا أخذوا كلماتنا فنحتوها وصقلوها وأعادوها إلينا مصبوغة بصبغة لهجاتهم ؟ على أن هؤلاء الكتبة لا يلامون دائماً على هذا التحريف . . . إنما اللوم علينا نحن معشر الشرقيين . فإننا لما نقرأ مثل هذه الأسماء الشرقية ونضطر إلى تعريبها نأخذها عن الإفرنجية ونكتبها بحروف تماثل حروف صورتها الغربية كأنها غريبة عنا فنجىء بجملة أجنبية كأنها الألفاظ الموضوعة فى أكاديمية اللغة فى باريس أو لندرا أو برلين ، ولا نذكر من هذا القبيل إلا الذين يعربون سلادن « صلاح الدين » بلفظة « سلادينوس » . . . رحم الله السلطان الأيوبى فى قبره وكفاه شر المعربين . . . »[4] .

وهكذا قرأنا بين آن وآخر افتتاحيات ممتعة ومقالات طيبة فى واجباتنا والتزاماتنا نحو لغتنا وأدبنا ، من أمتعها ما نشره أحمد زكى باشا عن « مضايق اللغة ومتاعب الترجمة » ، وذلك بمناسبة التفكير فى نقل « أسماء المخترعات والمستحدثات من اللغات الإفرنجية إلى اللغة العربية » ، وفيها بحث غاية فى العمق وبعد النظر[5]. كما أن الأهرام دأبت على تشجيع الحكومة كلما فكرت بطريقة أو أخرى فى إحياء آداب العرب ، واعتبرت ذلك

---

(١) الأهرام فى ٣ يناير ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ١٦ فبراير ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ١١ مارس ١٩١٠
(٤) الأهرام فى ٢٥ يناير ١٩٠٨
(٥) الأهرام فى ٢٤ يناير ١٩٠٨

فى تاريخ المسئولين « مأثرة للحكومة المصرية تذكر فتشكر »[1] وعلقت فى فصول على المجهودات التى تبذلها الدولة لإحياء آدابنا العربية ، مرشدة إلى ما ينبغى أن يعمل فى هذا السبيل[2]، مفسحة صدرها لكثير من العرب للتعليق على نوايا الحكومة التى استقبلوها بالحمد والثناء ، كمقال رفيق العظم[3]، أو كذلك المقال الذى تصدر افتتاحيتها بعنوان (نهضة اللغة العربية) فإن فيه ملاحظات وتوجيهاً أكبر الظن أننا فى منتصف القرن العشرين فى أحوج الظروف إلى قراءته من جديد كما قرأه آباؤنا فى أوائل القرن العشرين[4].

أدب اللغة ودور الكتب

وفى الوقت الذى تنشط فيه الأهرام وينشط معها أصدقاؤها فى الحض على العناية بآداب اللغة العربية وإحياء القديم منها ، وهى دعوة صريحة فى جانب اللغة من ناحية وضد الاحتلال من ناحية أخرى، الذى عمد إلى محاربتها فى دواوينه ومدارسه ، نقول فى ذلك الوقت ، دعت الأهرام إلى إصلاح المكتبة الخديوية ونقدت طريقتها ، على اعتبار أنها وسيلة من وسائل نشر الثقافة العامة والعربية فيها خاصة[5] ، فإذا تم تأليف مجلس أعلى لدار الكتب كان من اختصاصه العمل على إحياء آداب اللغة العربية ، وفى المجلس نخبة من رجال القلم إلا أن قلة عددهم — فى رأى الأهرام — قاصرة عن بلوغ الأمانى ، غير أنها تعتبر تكوين هذا المجلس « فاتحة » تهنأ عليها نفوس المصريين، مبينة أن الحكومة بإحيائها آداب اللغة العربية « ترضى العرب جميعاً فى كل صقع وتمتلك قلوبهم وتجتذب إليها نفوسهم وتنال حمدهم وشكرهم ، والحكومة المصرية هى الحكومة العربية التى يعتمد عليها العرب فى إحياء آداب لغتهم وبالتالى إنهاض أمتهم »[6] ثم تطالب الأهرام فى يوم آخر بإنشاء مكاتب عامة فى عواصم المديريات تفيد عامة الناس وخاصتهم، وهى تذكر بالثناء مدير الغربية الذى استن هذه السنة وضرب الأسوة الحسنة[7]. هذا إلى ما بذلته الأهرام فى الدعاية للكتب الأدبية المفيدة[8]، وما نشرته من مقالات فى الشعر والشعراء[9]

(١) الأهرام فى ٧ ديسمبر ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ٩ ديسمبر ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ١٥ ديسمبر ١٩١٠
(٤) الأهرام فى ٦ يوليو ١٩١٢
(٥) الأهرام فى ٢٥ مايو ١٩١١
(٦) الأهرام فى ١٤ يوليو ١٩١١
(٧) الأهرام فى ٤ أكتوبر ١٩١٣
(٨) الأهرام فى سنة ١٩١٢
(٩) الأهرام فى ٢٣ أغسطس ١٩١٣

محاربة الأوبئة

وإذا فرغت الأهرام من دور الكتب والدعوة لها وإحياء اللغة العربية وتجديد شبابها ، إذا فرغت من الكفاح من أجل غذائنا الروحى ، فكرت فى حياتنا المادية الأخرى ، فشكت فى افتتاحياتها من المعيشة وغلائها ، وعالجت تلك الحالة بدقة ، وطالبت من الحكومة أن تؤدى واجبها لتخفيض الأسعار والقضاء على الغلاء المصطنع ، وذلك بتعيين المراقبين والضرب على أيدى العابثين بحياة الشعب[1]. وكذلك عرضت الأهرام للأوبئة والأمراض التى تنتشر نتيجة إهمال الحكومة مراقبة الأغذية والأطعمة التى تباع فى الشوارع والمطابخ العامة ، بالرغم من وجود مراقبين لهذا الغرض ، حتى أنها قالت فى افتتاحية لها إنها لا تكاد تصدق أن الحكومة عينت مراقبين للطعام يجوسون خلال المطابخ والبارات والقهوات ومحلات الطعام لرقابة ما نأكل ونشرب ، ثم تطرقت إلى المكاييل والمعايير الفاسدة التى بمقتضاها تقاس أوتوزن أشياء البيع والشراء ،وتسخر من « الحكومة على حسن قصدها وحسن نيتها بالباعة النزهاء والتجار الملائكة الذين لا يحتاجون رقيباً أو حسيباً . ولا ترى الحكومة أن تقلق راحتهم فى بيعهم وشرائهم . . » ثم تقول إن الجمهور « يتمنى على الحكومة أن تقرر رقابتها على كل شيء . بل الأحرى أن تكون حكومة كسائر حكومات الأرض المتمدنة . »[2]

أمراضنا الاجتماعية

ولا يكاد عدد من أعداد الأهرام (١٩٠٠ — ١٩١٤) يخلو من نقد لحياتنا الاجتماعية ، فى مظاهرنا أو دخائلنا ، وقد كان فارس الحلبة فى هذا الميدان المغفور له شاعرنا خليل مطران[3]، كما كانت صفحاتها سجلا لكل ما عن لنا من تفكير سواء صدر هذا التفكير عن الحكومة أو عن أفراد الشعب ، وأقرب الأمثلة على ذلك موضوع إنشاء بلدية القاهرة ، وهو الموضوع الذى شغلنا منذ قريب ، فقد كانت للأهرام فيه جولات فى سنة ١٩٠٩ [4]، هذا إلى مقالاتها فى كل ما يمس آدابنا وأخلاقنا كبحوثها المستفيضة عن تجارة الرقيق

---

(١) الأهرام فى ٢٧ فبراير ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ٨ يوليو ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٣
(٤) الأهرام فى ٤ فبراير ١٩٠٩

الأبيض وما يجب علينا نحو القضاء على هذه السبة[1]، ومكافحة القمار والقائمين بأمره، ونقد الحكومة لتهاونها فى هذا الموضوع الذى لا يليق بعرفنا ولا يتمشى مع ديننا[2]، ثم التفاتها إلى التقلبات الزراعية وقدرها فى حياة الشعب المصرى، وقد أفسحت صدرها لمقالات ممتعة نشرها عن هذا الموضوع بوغوص باشا نوبار[3].

العمل والعمال

ولن تفرغ الأهرام من رواية كل ما يتصل بحياتنا وعلاج كل ما يجد فى تلك الحياة، فإن أحداً لا ينكر تلك المقالات العميقة التى كتبتها عن (حياة العمال فى القطر المصرى) وفيها دفاع جميل عن العمال، وذكر لمتاعبهم وتفصيل لأخبارهم، ومطالبة ملحة للتقنين لهم والتشريع بقصد حمايتهم ورعايتهم[4]، كما تطرقت من مثل هذه المقالات العمالية — إن صح التعبير — إلى التحدث فى الاشتراكية وموضوعها وتفصيل الأدوار التى مرت بها، وبيان ما عليه زعماؤها وما أدوه لها فى شتى البلاد الأوربيه وخاصة ألمانيا[5].

ثم تفسح الأهرام صدرها لمقالات أخذت تتلقاها من المواطنين فى الخارج، يعرضون فيها لما يمس حياتنا الفكرية أو يقتضى شيئاً من العناية بإحدى نواحيها، ومن الأمثلة على ذلك ما بعث به محمد تيمور من ليون يناقش ألوان الدراسة التى يدرسها المصريون فى أوربا، ويأخذ عليهم أن جميع الدراسات تقريباً من النوع النظرى، وهو وإن كان له نصيب فى مقومات حضارتنا إلا أن بلاداً كبلادنا فى أشد الحاجة إلى الدراسة العملية حتى تفيد حضارتنا فى زراعتها وصناعتها، وتتحرر مصر من أسار الأجانب، ويؤول خيرها الزراعى والصناعى إلى أبنائها، ولا أمل فى هذا كله إلا إذا وجهت البعثات الحكومية والبعثات الحرة إلى الدراسة العملية المفيدة[6].

الجديد فى الحضارة المصرية

وتنتثر فى صفحات الأهرام أخبار تؤرخ لنا كل جديد أصاب حضارتنا المصرية

---

(1) الأهرام فى ٧ يوليه ١٩٠٩
(2) الأهرام فى ٤ فبراير ١٩١١
(3) الأهرام فى شهر مارس ١٩١١
(4) الأهرام فى ١٢ أغسطس ١٩١٣
(5) الأهرام فى ٢٠ سبتمبر ١٩١٣
(6) الأهرام فى ٧ فبراير ١٩١٣

فى أوائل هذا القرن ، فهى تذكر التليفون اللاسلكى الذى عم استعماله فى قصور الخديو[1] ، ثم تعرض لنبأ أول طائرة حلقت فى سماء القاهرة ، وفى ذلك الحديث عن الطائرة متعة لبساطته ولما تركه تحليق الطائرة فى نفوس الناس الذين رأوها عجيبة من العجائب[2]. ونشرت الأهرام نص خطابين طريفين تبادلهما أحمد زكى باشا مع صديقه حسين حسيب باشا مدير الشرقية ، وقام بنقلهما الطيار من القاهرة إلى الزقازيق ومن الزقازيق إلى القاهرة ، وكان نبأ هذا البريد موضع الدهشة من القراء[3]. وقد استمرت عنايتها بأخبار الطيران فى مصر إلى قيام الحرب العظمى الأولى ، وهى أخبار كان الناس يتلقونها مدهوشين ، حتى أن بعضهم قد تجمع ليرى بعينه كيف طار بعض المصريين فى إحدى الطائرات التى دارت حول سماء القاهرة ، وكيف هزم الطرب حين نزلت من الطائرة كريمة محمد مجدى باشا المستشار فصفقوا لها معجبين[4].

الشرقيون فى أرضهم غرباء

وتعرض الأهرام بجانب ما ذكرنا من الموضوعات والأخبار لكثير من المقالات التى ترفع من معنوية الشعب ، فتحدثنا بمناسبة احتفال الأسبان بانقضاء مائة سنة على طرد الفرنسيين من بلادهم عن (مفاعيل الوطنية) قائلة « وما مات الشرق لصغر عقول أبنائه وقلة حصافتهم بل لأنهم اعتبروا فى أرضهم غرباء وتجاه حاكمهم وأميرهم عبيداً أرقاء ، فالعدل ما أراد والحكم ما شاء والحرية ما أباح والنعمة ما أسبغ والنقمة ما استنكر . فامحت إرادة الأمة إلا إرادة فرد واحد وبات كل فرد من أفراد الرعية عبداً رقيقاً » . ثم تستطرد قائلة « واستعان الحكام المستبدون على الشعب المستعبد برؤساء الأديان الذين صوروا للشعب أن الله لم يخلق الشعب إلا ليكون متاعاً للحاكم وعبداً للسيد . . . » ثم تختم كلامها راجية أن نتكاتف لنستفيد من عبرة كفاح الأسبان « فهل لنا نحن الذين تفرقنا طوائف وتمزقنا فرقاً وفئات أن نرسل نظرنا من وراء البحار ونذكر كيف تكون الوطنية الصحيحة وما تفعله تلك الوطنية فى النفوس .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح »[5]

---

(1) الأهرام فى ٨ أغسطس ١٩١٣
(2) الأهرام فى ١٨ ديسمبر ١٩١٣
(3) الأهرام فى ١٣ يناير ١٩١٤
(4) الأهرام فى ٣ يناير ١٩١٤
(5) الأهرام فى ١٦ مايو ١٩٠٨



محمد محمود باشا



على شعراوى باشا



عبد العزيز فهمى باشا

النهضة المعنوية

وتعالج صحيفتنا نهضتنا من الناحية المعنوية فتضرب على وتر حبيب إلى كل نفس ، فهى قد دأبت على مطالبة الأمة بالعمل ، داعية المواطنين إلى الكفاح فى سبيل النهضة عامة ولو أدى ذلك إلى الموت « فكم من مصلح قتل وكم من مصلح سجن وكم من مصلح عذب حتى تم الإصلاح على أساسه المتين » . وهى لا تقول اعتباطاً بل تروى كفاح الأبطال فى أوربا التى لم يتم إصلاح فيها « ولم يظهر اختراع ولم يطهر خلق ولم تغير عادة ولم يقتلع تقليد ولم تغرس فضيلة إلا وذهب فى سبيل كل أمر من تلك الأمور شهداء كرماء أو ضحايا عزيزة . . . »[1]

وهذه المعنويات التى تقوم بخدمتها الأهرام وتذيعها على قرائها ، إنما تدعو إليها متمثلة ولو بخصومها ، فإن ما فات من الفصول قد يبين لنا ما كان بين الأهرام وبين العرابيين من جفوة بلغت درجة العداء فترة من الزمان ، بيد أن صحيفتنا العادلة تأخذ من سيرتهم عبرة لترفع من معنوية الشعب ، فإن « طلب الدستور كان أهم مطالب العرابيين . وهذا الطلب ذاته هو مطلب المصريين وأحزابهم ، ولأن تولية أبناء البلاد مناصب بلادهم دون سواهم كان من أساس العرابية ، وهذا الطلب ذاته لا يزال مطلب المصريين وأحزابهم . والذى تغير هو انتقال السلطة الفعالة وانتقال القوة المنفذة من أيدى الوطنيين إلى أيدى الإنكليز . أفلا ترى أن الإنكليز لا يسلمون بالدستور ورقابة الميزانية كما كان المراقبان الماليان – الفرنساوى والإنكليزى – لا يسلمان بذلك لمجلس النواب ؟ ألا ترى أن المناصب العليا فى الجيش وسواه حرمت على المصرى على عهد الإنكليز كما كانت محرمة على الوطنى المصرى على عهد الجراكسة ؟ فإذا قلنا إن مطالبنا اليوم سليمة ، أفلم تكن كذلك على عهد العرابيين ؟ ؟ فإنهم لم يؤذوا أحداً ولم يعتدوا على أحد ولكن الشعب الساذج تحمس وهاج فثار . . . ومغزى ذلك كله أن أمة لا تحكم نفسها لا يمكن أن تصبر أو تسكت أو ترضى حكم الأجنبى فيها . ويكفى أن يدعوها داع إلى ذلك لتلبيه . ولا يمكن أن تحرم داعياً »[2]

وهكذا مضت الأهرام تأخذ العبرة حتى من خصومها ، فهى هنا فى مطالع القرن العشرين ليس لها من هدف إلا استثارة الهمم لإعفاء مصر من ركود الفكر والرأى ،

---

(١) الأهرام فى ٢١ مايو ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ٢٢ سبتمبر ١٩١١

وإعداد الشعب ليتبوأ مكانه بين الشعوب المتحضرة ، مساهمة فى ذلك بالمقال فى كل ناحية من نواحى حياتنا الثقافية والاجتماعية والزراعية والصناعية ، مفسحة صدرها لغير كتابها يدبجون الموضوعات الطويلة أو القصيرة ، كتلك المقالات التى تشبه فى جيلنا مقالات الصاوى وزكى عبد القادر، وقد بدأت فى نشرها منذ سنة ١٩١٣ تحت عنوان (ملاحظتى) وبإمضاء « ملاحظ »[1].

الجامعة المصرية

فنصيب الأهرام إذن فى مقومات الحضارة المصرية نصيب موفور ، وهى إلى جانب الصحف الوطنية المواتية كانت فى الطليعة بينها ترسى الأساس لكل فكرة صائبة ، وتحتضن كل مشروع مفيد ، وكان فى مقدمة المشروعات التى روجت لها الأهرام وكان لها فى حياتنا الفكرية أثر عميق ، مشروع إنشاء جامعة لمصر ، وقد شغلت صحيفتنا حيزاً منها لتأييد الجامعة المصرية ودأبت على هذا التأييد سنوات متصلة ، حتى لتجد تاريخ الجامعة المصرية — أى جامعة فؤاد الآن — تاريخاً موصولاً منذ اجتمع بعض كبار المصريين لهذا الغرض فى منزل سعد زغلول[2] سنة ١٩٠٦ ، وألفوا من بينهم لجنة للاكتتاب تكون وظيفتها جمع المال اللازم لتأييد الفكرة ونقلها من حيز القوة إلى الفعل[3].

وهزت فكرة الجامعة أعصاب الاحتلال وأذنابه. فقاموا يحاربونها بكل ما أوتوا من قوة وقدرة ، وكافحوا الاكتتابات التى أقبل عليها أغنياء المواطنين ، وذكروا فى معرض التهوين من قدر الجامعة المصرية المزمع إنشاؤها أن الحكومة ستكثر من الكتاتيب ، وكفى فخراً أن تكثر كتاتيبها ! وانبرت الأهرام لخصوم الجامعة وكتبت مقالا بعنوان « أيها المصريون لا تكتتبوا فى المدرسة الجامعة » ، قالت فيه « أجل لا تعطوا للمدرسة الجامعة قرشاً ولا تنفقوا فى سبيلها جنيهاً . ولا تبتاعوا لبنائها حجراً . ولا لسقفها خشبة . ولا لأرضها طوبة ولا لطلبتها مقعداً . ولا لمعلميها قلماً . ولا لمدرسيها ورقة . واخزنوا ما عندكم فى صناديقكم وادفنوا ما تمتلكون فى خزاناتكم . واحرصوا على المليم وتمسكوا به تمسك الجبان بمهجته . والبخيل برغيفه إذا أردتم أن تظلوا جهلاء » .

« أيها الناس افعلوا ذلك كله إذا أردتم أن تظلوا على الجهل ويظل أبناؤكم فى الغباوة والضلالة ، وأموالكم وخيركم مأكلا لغيركم . وأرضكم وعقاركم مزارع لسواكم . وحكامكم

(١) الأهرام فى شهر يوليو ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ١٠ أكتوبر ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ١٣ أكتوبر ١٩٠٦

وسواسكم من غير أبنائكم . وصناعكم وعلماؤكم من غير ذريتكم » . ثم تقول الأهرام بعد حديث طويل فى هذا الموضوع ذاكرة مجد مصر « وكل بلاد وكل أمة جاءت مدنيتها بعد مدنيتكم وحضارتها بعد حضارتكم وثروتها دون ثروتكم وغناها أقل من غناكم وعددها أقل من عددكم وأرضها أصغر من أرضكم ومركزها أحط من مركزكم وناشئتها أجهل من ناشئتكم تهتم الآن بالعلم وتتمسك بأهدابه وتأخذ بأسبابه لترقى وتسعد وتسمو وتعلو . فليس الكبير فيها صاحب الأطيان والعقار وواسع الثروة والدار وكثير النياشين والألقاب والخيول والمركبات والدور والقصور والخدم والأتباع والحشم بل من خدم بلاده بماله وعزز العلم بثروته ومسعاه ويده ولسانه »(١).

وإذا فرغت من الرد على دعاة الهزيمة والتردد ، وطالبت المواطنين بشدة أن يبسطوا يدهم كل البسط ، لما فى وجود الجامعة من خير لمصر والمصريين ، اصطحبت المشروع حتى أصبح حقيقة واقعة فى سنة ١٩٠٨ ونشرت تفاصيل الحفلات التى أقيمت لمساعدة مالية الجامعة المصرية ، ونشرت فى افتتاحيتها ما قيل من شعر فيها ، وبخاصة شعر حافظ إبراهيم الذى جاء فيه عن الجامعة :

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا ... إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
ولا حياة لكم إلا بجامعة ... تكون أماً لطلاب العلا وأبا
تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة ... من المعالى وتبنى العز والغلبا
ضعوا القلوب أساساً لا أقول لكم ... ضعوا النضار فإنى أصغر الذهبا(٢)

البعوث العلمية والأدبية

ثم لا تخلو الطريق للجامعة من الخصوم والأعداء ، فكلما اجتازت عقبة خلق المحنقون عقبات ، حتى أن الاحتلال بث فى نفوس البعض شيئاً من الحذر والتخوف ، إذ أن الجامعة استعانت بالعلماء الأجانب ، وأعدت بعوثاً من تلاميذها ليدرسوا فى أوربا فأشاع خصوم الجامعة أن دين المسلمين فى خطر من العلماء الأجانب أو من المبعوثين إذا اختلفوا إلى الغرب ، فردت الأهرام على ذلك كله بمقال ممتع بعنوان (عاشت الجامعة) جاء فيه « علموا المصريين فى انكلترا يكونوا بالعلم أصح مصرية . وعلموهم فى فرنسا يكونوا أتم عصبية ووطنية . بل علموهم فى الصين يعودوا إليكم وقد ارتضعوا من أفاويق العلم محبة مصر والمصريين ، فعلموا أبناءكم وكفى »

(١) الأهرام فى ١٥ أكتوبر ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ٩ مايو ١٩٠٨

وتمضى الأهرام فى افتتاحيتها متحدثة عن أولئك الذين يتمسحون فى الدين تأييداً للجهل « أرى قوماً يخشون من العلم على الدين فهاتوا لنا واحداً يدلنا على أن من تلقى العلم على قسيس صار قسيساً . أو على بوذى صار بوذياً . أو على وثنى صار وثنياً . فمتى طلب العلم لنفسه صير طالبه عالماً فقط . وأرى قوماً يقلقهم المقلقون بتأنكل أبنائهم على يد الإنكليز بالتعلم أو بتفرنسهم على يد الفرنساويين بالتعلم أو بتأمركهم على يد الأمريكيين . أو بتطليتهم على يد الطليان فهل عندهم دليل واحد على صحة ما يقولون ؟ » . ثم يستطرد الكاتب مؤيداً وجهة نظره بقوله « فهؤلاء دعاة الوطنية فى مصر من يوم كونت مصر إلى اليوم تلقى فريق منهم العلم على المرسلين الدينيين . وآخر على الفرنساويين وغيره على الإنكليز . فما كانوا إلا مصريين وطنيين بل ما كانوا بعد العلم إلا أشد مصرية وأصح عصبية وأوثق إسلاماً أو نصرانية » . ثم تتجه الصحيفة إلى رجال الجامعة الذين أخذت بعض الصحف تعدد أخطاءهم وتبين زلاتهم فى العمل الكبير الذى ندبوا أنفسهم له « فإن كان هذا العمل ناقصاً فالزمن كفيل بإتمامه ، وما سمعنا أن مسافراً طمح باجتياز الطريق كله قبل أن يخطو الخطوة الأولى من منزله ، فالعذر للبادىء مقدم على العدل . فحياكم الله يا رجال الجامعة . إعملوا إعملوا فحولكم تلتف القلوب وبكم مناط الآمال وإذا ما عبتم بنقص فللّه وحده الكمال »(1) .

الجامعة الوليدة

وتتحدث صحيفتنا عن الجامعة الوليدة بعنوان (فى سبيل الجامعة) ، وهى تقصد ذلك اليوم المشهود الذى اجتمعت فيه الصفوة للتبرعات فقد « كان أمس يوم الجامعة العظيم بل فاتحة عصر جديد لهذا المعهد العلمي الجليل الذى تتوق إليه الأمة بكل جوارحها » . ثم تذكر فى شىء من التفصيل الهبات التى قدمت للجامعة وحماسة « البرنس فؤاد باشا » رئيس الجامعة لهذا الإقبال من كبار المواطنين على تأييد المؤسسة العلمية مادياً . وزيارة أعضاء مجلس الإدارة وعيون المدعوين لحسن بك زايد الذى تبرع للجامعة بخمسين فداناً ووصف استقبال رب الدار لهم ، وموائد الطعام التى نصبت والخطب التى قيلت وخاصة خطبة « دولة الأمير فؤاد باشا وعلوى باشا وقاسم بك أمين » ، ثم نشرت قرارات لجنة الجامعة الخاصة بالبعثات وطريقة التدريس ، وقد استغرق وصف ذلك كله

(1) الأهرام فى ١٢ مايو ١٩٠٨

ستة أشهر من حجم الأهرام[1].

فضل الأمير على الجامعة

وكان شهر مايو من كل سنة يحظى بأخبار الجامعة المصرية[2] كما كانت شهور الخريف الأولى وهى فى مفتتح العام الدراسى تحظى بمثل هذا النصيب ، وكانت أخبار مدير الجامعة الأول الأمير فؤاد – الملك فؤاد فيما بعد – شغل الأهرام الشاغل ، وهى أخبار فى أكثرها خاصة بالجامعة ونشاط الأمير فيها وسعيه إلى خدمتها تارة فى مصر بالإشراف عليها ، وتارة فى الخارج لاستجلاب الأساتذة والتفتيش على البعثات[3]. كما كانت تنشر فى افتتاحياتها ملخصات للدروس بعض أساتذة الجامعة تشجيعاً وتكريماً[4]. أو تذيع بين آن وآخر أحاديث مدير الجامعة مع الصحفيين الأجانب[5]. وقد هللت بمناسبة وضع الحجر الأساسى لبنائها فى الأرض التى تبرعت بها الأميرة فاطمة إسماعيل فى عام ١٩١٤ ، ووصفت وصفاً بديعاً فى افتتاحيتها ما يجول فى شعور الأهرام من الغبطة والرضاء لنجاح المؤسسة التى حنت عليها ودافعت عنها وكفلت القائمين عليها بالمدح والثناء[6]. ثم نشرت فى اليوم التالى وصفاً بديعاً لذلك الاحتفال الذى تم فيه إرساء حجر الأساس وسجلت ما قيل فيه من خطب الخطباء وشعر الشعراء وخاصة شعر أحمد شوقى بك[7].

• • •

عنايتها بشئون المرأة

ولم تقصر الأهرام جهدها على ما رأينا فقط ، فإن نصيبها فى تأييد حضارتنا واسع النطاق بعيد المدى متعدد الجوانب ، يصعب على المؤرخ أن يلم به فى صفحات ، وحسبه أن يروى بعض هذه الجوانب من تاريخ صحيفتنا فى تلك الفترة ليدل على نصيبها فى تطور الأفكار فى مصر ، فقد رأينا ما لقيت الجامعة المصرية – وهى أجل ما كسبه المصريون فى حركتهم الوطنية – من تشجيع الأهرام ومؤازرتها ، الأمر الذى عبّد لها

---

(١) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ١٤ مايو ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ١٧ يونيه ١٩٠٩
(٤) الأهرام فى ١٠ ديسمبر ١٩١٠
(٥) الأهرام فى ٧ فبراير ١٩١١
(٦) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٩١٤
(٧) الأهرام فى ١١ مارس ١٩١٤

الطريق عند عامة الناس وخاصتهم ، ومثل ذلك العطف والتأييد وجدت الحركة النسائية عند جريدة الأهرام ، فكان تعليم البنت والنهضة بالمرأة ورعاية حقوقها شيئاً يعنى الأهرام منذ آخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .

وإنك لتجد الأهرام شاكية من إهمال الحكومة تعليم البنت وقصرها النشاط التعليمى النسوى على مدرسة واحدة تخرج فى كل سنة قلة لا تغنى شعباً متحضراً « فإذا عددهن لا يحقق الظن ولا يصدق الحدس إذا كان تعليمهن يحققه . فى مدينة كالقاهرة لا يكبر وجود خمس أو ست مدارس للبنات ، كما لا يكبر على حكومة كحكومة مصر أن تنشىء مثل هذه المدارس وهى تعلم أن الأمة بحاجة شديدة إلى تعليم المرأة ، ولكن هى السياسة تقتل حتى الوحيد ، وهى المآرب واللبانات لا تبقى ولا على الضنين العزيز » . وإن الأهرام لا تنقد هذه القلة فى مدارس البنات واقتصار الحكومة على واحدة فقط ، بل تنقد طريقة التعليم فى تلك المدرسة وهى مدرسة السنية « فبدلاً من أن تكون مدرسة تعلم البنات ليكن غداً نساء كل النساء ، فهى تعلمهن ليكن مترنحات بالإنكليزيات ، مع أن مصلحة الأمة تتطلب امرأة عالمة مهذبة لا فتاة إنكليزية تحسن ضغط المشد على وسطها ، والانحناء إلى الأرض عند سلامها ، وخفض الصوت ودغدغة اللفظ عند كلامها »[1] .

الأهرام وقاسم أمين

كان ذلك حديثها عن تعليم البنات فى آخر القرن الماضى ، نشرته وهى تتهيأ للانتقال من مدينة الإسكندرية والاستقرار فى عاصمة البلاد ، فإذا أقبل القرن العشرون شغل المواطن قاسم أمين الرأى العام فى السنوات الأولى من ذلك القرن بحق المرأة فى الوجود والحياة ، وقصر قاسم كفاحه على تعليم البنت ورفع الحجاب ، ولم يتجاوز فى الطلب شيئاً لا يستقيم مع منطق الأشياء ، بيد أن الجيل المتزمت لم يكن يقبل شيئاً من هذا ، وإن قبله فبشىء من الإلحاح وفى حدود ضيقة ومن غير إسراف ، وكان الاحتلال يبارك هذا التزمت ، فإن حفنة من المتعلمين أرقت عليه حياته فماذا يكون أمره إذا أصبحت نساء مصر الجاهلات وقد تعلمن ما تعلمه الرجال ؟؟ . وكان الجامدون يرون تعليم البنت ترفاً لا يليق بشعوب تكرم دينها ، فإن خير ما يصنعه رجال ذلك الزمن أن يبقى نساؤهم فى الحريم لا تكشف الدنيا لهن وإلا ساءت العاقبة وانهار كيان المجتمع ! وفى هذا الجو الخانق بدأ قاسم أمين يعلن رسالته وينافح عنها ويدعو إلى تعليم البنت ورفع الحجاب .

(١) الأهرام فى ١٧ يوليه ١٨٩٩

بنات اليوم نساء الغد

وساهمت الأهرام مع دعاة النهضة الحديثة فى تأييد الحركة والعمل على إنمائها وشد إزرها ، فكتبت فى إحدى الافتتاحيات بعنوان (بنات اليوم نساء الغد) تبين الخير الذى يصيب مصر إذا نحن أخذنا بتعليم البنت وتربيتها تربية حديثة « . . . فإذا ربينا النساء أكسبنا البلاد قوة وبالأحرى ضاعفنا القوة الموجودة فى البلاد ، بل نحن نريد هذه المضاعفة لأن المرأة المهذبة فى البيت هى قوة فيه كالرجل وهى فى الأمة قوة لا تقل عنه ، وهى فى هيئة الأمة قوة متفردة بعمل أكبر من عمل الرجل وأفضل لأنها تغذى ولدها من اللبن بالفضيلة والوطنية والآداب ، وتغرس فى صدور الأطفال غرساً يبقى حيناً مع حياتهم ولا يذبل إلا بذبول تلك الحياة . فإذا كان بعض الحكماء قد قال إن التى تهز السرير بيمينها تهز العالم بشمالها فإنه يحق لنا أن نقول إن المرأة تضع بيدها أساس مدنية الأمم . . . » ثم تنقد بعنف أولئك الذين يرون فى تعليم البنت شيئاً غير ضرورى ذلك « لأن المرأة المتعلمة تعلم الرجل حتى يصير رجلا والرجل المتعلم لا يستطيع أن يعلم المرأة حتى تكون امرأة . . . » [1].

سفور المرأة قوة للأمة

وبهذا المقال وبغيره من الأخبار والروايات التى نشرتها ، وقفت الأهرام إلى جانب قاسم أمين ، وفى الانحياز إلى رأيه – وهو رأى خطير فى نظر الجيل واعتباره – خطر على صحيفة أثر عنها الاتزان ، وعرفت بأصالة الرأى والاعتدال ، ويبدو أن الأهرام خلقت لها فى هذا الميدان خصوماً اختفوا وراء الدين يزعمون أنه لا يقر تعليم البنات ولا يجيز رفع الحجاب ، وانبرت صحيفتنا تسفه هذا الرأى متحدثة عن وجوب تعليم البنات ، فإن عدد الإناث فى مصر ثلاثة ملايين ، وترى الأهرام أن هذا العدد مفقود فى الأمة ، لأن الأمم لا ينبغى أن تعد بالأرقام والحساب ، وإنما ينبغى أن يحسب ناسها بقدر ثقافتهم ، وبذلك نحن نفتقد من المواطنين ثلاثة ملايين لا يقرأون ولا يكتبون ، وهذا أمر يتنافى مع جميع الأديان وتعاليمها السمحاء . ثم أخذت صحيفتنا تؤيد تعليم البنت مستمدة آراءها وأفكارها بأقوال من الكتب السماوية المختلفة وأحاديث الأنبياء والمرسلين[2].

---

(١) الأهرام فى ١١ يناير ١٩٠٦

(٢) الأهرام فى ١٦ مارس ١٩٠٧

الحركة النسائية

وأخذت الحركة النسائية مكانها في مصر وإن كانت في أضيق الحدود ، واستطاع فريق من النساء المتعلمات أن يمهرن مع الرجال عريضة رفعت إلى الخديو يطالب فيها الموقعون بالدستور[1] ، وأخذت الأهرام تنشر بين آن وآخر أخباراً عن الحركات النسائية في العالم سواء في أوربا أو أمريكا ، وهي تفصل في تلك الأخبار تفصيلا فيه من الإيحاء للعاملين من أجل النهضة النسائية في مصر الشيء الكثير[2]. ثم تساهم الأهرام مع المساهمين في تكريم ذكرى قاسم في حفلات التأبين التي أقيمت له ، وهي وإن لم تذهب إلى ما ذهب إليه فقيد الحركة النسائية في جميع التفاصيل إلا أنها تمدح شجاعته التي بوأته ذلك المكان المقدور في تاريخ مصر «لأن هذه الشجاعة التي استوصلت جذورها من صدور الشرقيين منذ مئات السنين هي من أسباب الانحطاط وموت الأفكار . . . »[3].

باحثة البادية

ولبت النساء دعوة «باحثة البادية» إلى شبه مؤتمر ، وهاجت الدنيا وقامت قيامة الرجعيين ، وكتبت صحف المحافظين تهاجم هذا الاجتماع الذي لا يتفق مع عرف أو دين ، وكان حسن بك جمجوم أقسى من هاجم النساء في ذلك الموضوع — وأفسحت الأهرام صدرها لنشر احتجاج السيدات على ما رمين به من تهتك واستهتار ، وجاء على قلم إحداهن «إلى وكل مسلمة عاقلة وكل سيدة فاضلة تنكر على حضرته — تقصد جمجوم بك — فتح باب المظنة بنا . فالمرأة المسلمة ساوى الدين بينها وبين الرجال في الحقوق والتأدب والعلم والدرس . فلماذا يريد حضرته مخالفة الدين بحبس عقلها وقلبها وقتل نفسها وحرمانها مما أباحه الله لها بكتابه العزيز وسنة نبيه الكريم ، فهو يحجنا بالدين ولا يقول لنا أين ينهانا الدين عن مثل ذلك الاجتماع الذي عقدناه لتأييد الفضيلة كما يأمرنا الدين القويم» .

تنشر الأهرام ذلك الكلام الذي اقتطفنا بعضه ، ولا تقف عند حد إفساح المجال للنساء كي يدافعن عن وجهة نظرهن ، بل تذهب إلى مؤازرتهن في وضوح لا يقبل الشك أو اللبس فتذكر أنها تلقت احتجاجاً آخر من إحدى السيدات الحوريات حضرت

(١) اللواء في ٢٦ فبراير ١٩٠٨
(٢) الأهرام في ٢٥ أبريل ١٩٠٨
(٣) الأهرام في ٥ يونيه ١٩٠٨

الاجتماع الذى دعت إليه باحثة البادية وسمعت ما قيل فيه ، ثم تعقب الأهرام بقولها « ولا شك عندنا بأن حسن بك أخطأ فى محاربة خصمه بذلك السلاح ، وإنا نؤدى للسيدات اللائى عقدن ذلك الاجتماع كل الاحترام ونطيب خاطرهن بأرق عبارات التأدب لآدابهن تعويضاً على كرامتهن من كلام حسن بك الذى جاء بلا شك تطرفاً بإقامة الحجة لا مراعاة للحقيقة » ثم تستطرد فى ذلك الأسلوب الرقيق « ولولا ضيق المقام عن النشر ورغبتنا فى عدم الخوض فى هذا الموضوع لقلنا ما يقنع حسن بك وأمثاله . إن ما قاله لا يجوز أن يقال وأنه جدير بالمرأة المسلمة أن تعرف الآن قدرها لتعلم ابنها وتقلع عن الخرافات والأوهام والضلالات »(١).

نادى الإبرة

وتسمع الأهرام بسعى بعض النساء العربيات إلى إنشاء ناد يسمى (نادى الإبرة) تتلقى فيه البنات ما يفيدهن ويحسن توجيههن ، وتذكر صحيفتنا بهذه المناسبة أن « الشرق بحاجة إلى أن تنهض نساؤه وترقى امرأته ، حتى تربى فيه الرجال لأن أساس تربية الأمة ، ليس فى المدرسة ولا فى المناصب ولا فى التعليم ، بل هو فى حجر الوالدة ، فما تغرسه الوالدة فى رأس ابنها وصدره ، لا يقتلعه علم . ولا يستأصله تهذيب ولا تربية ، وهذا القول مجمع عليه عند الحكماء والعلماء والمتقطعين لدرس الأخلاق . ومن قال غير ذلك فقد اتهم نفسه وخالف حسه . فإذا كان ذلك هو تأثير تربية الأم على الولد . فكما تكون الأمهات يكون الأبناء . وكما تكون النساء تكون الأمة ولا جدال ولا نزاع » ثم تختم تأييدها لمشروع (نادى الإبرة) بقولها « وإنا نكتب هذه السطور ونحن موقنون أن آلاف الآلاف من محبى نهوض الأمة يقابلون هذا المشروع بالارتياح فليقل الكتاب الباحثون عن نهوض الأمة رأيهم فيه ويشجعوا القائمات به ، إنه والله إذا تم – ولاشك أنه تام بإذن الله – لمن المشاريع العظيمة ذات المنافع الجليلة »(٢).

المرأة والحجاب

ولسنا نزعم أن الأهرام مضت إلى أقصى اليسار فى الكفاح من أجل حقوق المرأة ، فذلك مطلب لم يسع إليه قاسم أمين نفسه ، وهى فى أول الأمر آزرت فكرته الأصيلة

(١) الأهرام فى ٢١ مايو ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ١٩ يونيو ١٩٠٩

فى غير تحفظ أى فكرة تعليم البنات ، ولم تناقش فكرة الحجاب ورفعه ، وإن سمحت للنساء بكتابة المقالات فى هذا الموضوع ، موضوع النقاب والحبرة ، ومن المقالات الممتعة تلك الافتتاحية لإحدى سيدات الجيل عن (البرقع والمدرسة) وفيها نقد بديع لذلك النقاب الذى شغل أمره المصريين قبيل الحرب العظمى الأولى ، فقد حدثتنا الكاتبة التى أفسحت لها صحيفتنا أفضل مكان فى صدرها ، حدثتنا بأن « خير البراقع برقع الفضيلة ، وخير الفضائل فضيلة يثمرها العلم » . ثم بينت لنا هوان البرقع والحبرة فى البيئة المصرية . « وإذا سلمنا بأن ذلك البرقع الصفيق الكثيف غطى الوجه ، وتلك الحبرة الفضفاضة أخفت تقاطيع الجسم فكم من امرأة فى هذه الديار تستطيع لبس ذلك النقاب وتلك الحبرة ؟ فإذا قلنا إن أمتنا ١٢ مليوناً وأن نساءها ٦ ملايين . فإن الأغنياء منا الذين تلبس نساؤهم ذلك الوشاح والنقاب لا يزيد عددهم على مائة ألف فالباقى إذن ٥ ملايين و٩٠٠ ألف بلا براقع كثيفة وبلا حبرات واسعة ، ولا يمكن أن يكلف هذا العدد الحجاب والنقاب والحبرة ، ولا يصح أن ينتزع عنه وصف العفة والطهارة أو مخالفة الشرع »[١].

وإذن فالأهرام تناصر أخيراً قاسم أمين بك فى رفع النقاب وخلع البراقع ، لأنها أفسحت صدرها للنساء يؤيدن وجهة النظر التى دعا إليها زعيم الحركة النسائية فى مصر ولم تقرأ فى صحيفتنا رأياً لا يتفق مع هذا الرأى أو نحس فى تضاعيفها ميلا عنه على مدى الأيام ، بل رأينا افتتاحيات رائعة بأقلام كبار كتاب الجيل يبحثون فيها حقوق المرأة عامة ، وما يجب على المصريين نحو نسائهم من تربية وتعليم[٢]، ذلك إلى جانب نشرها فى محلياتها أخبار النشاط النسوى مؤيدة ذلك النشاط سواء اتصل بإنشاء المدارس والمشاغل أو بأعمال المبرات المختلفة[٣]، كما كانت تذيع على صفحاتها أخبار الحركات النسائية فى الخارج وخاصة فى أمريكا واصفة الدعوة الجديدة التى كان يطالب بها نساء أمريكا وهى الخاصة بمنح النساء حق التصويت فى الولايات المتحدة[٤] هذا إلى شعر الشعراء المصريين الذى طالعتنا به وكله تأييد لمطالب المرأة المصرية[٥] ، كما دأبت على نشر مقالات السيدة نبوية موسى عن « المحاضرات النسائية فى الجامعة المصرية »[٦]

(١) الأهرام فى ٢٩ أكتوبر ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ٣ سبتمبر ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ١٣ يناير ١٩١١
(٤) الأهرام فى ١٩ مايو ١٩١١
(٥) الأهرام فى ١٨ مارس ١٩١٢
(٦) الأهرام فى ١٦ أبريل ١٩١٢

النهضة النسائية فى الشرق

وتحدثنا الأهرام فى افتتاحية لها حين كان الناس مشغولين بالجمعية التشريعية وقانونها الأساسى، تحدثنا عن (النهضة النسائية فى الشرق) فتنوه محيية سعى النساء فى الآستانة الخاص بإنشاء صحيفة يومية نسائية، مؤيدة للفكرة، ذاكرة نصيب التريات فى بعثات الهلال الأحمر والصليب الأحمر، موازنة بين تلك النهضة القوية فى تركيا والنهضة الضعيفة فى مصر، مؤرخة لذلك بقولها «ظهرت النهضة النسائية الشرقية العربية فى مصر وسوريا منذ أعوام إلا أنها ما كادت تعلن عنها بما وضعه قاسم بك أمين من القواعد الخالدة فى كتابيه المشهورين حتى نهض بعض الجامدين لقتلها ضعيفة وهى تكاد تكون فى المهد، فخفت صوت المنادين بها ولكنه لم ينقطع. وكان كثيرون يعلقون الآمال على أن تكون الحياة التى دبت فى دار الجامعة بفضل محاضراتها النسائية أجزل نفعاً وأغزر فائدة إلا أنها وقفت عند حد ضيق لم تتجاوز إلى خارجه». ثم تختم الأهرام تحيتها للمرأة عامة ذاكرة بأن الله سبحانه وتعالى قد رفعها إلى منزلة قريبة منه، إذ نفخ فيها من روحه فكانت معاوناً كريماً فى إيجاد هذا الإنسان العاقل الكامل[1].

الأهرام منبر للدفاع عن المرأة

ثم تترك صحيفتنا صدرها للمنشئين والكتاب يناصرون المرأة فى حدود لم تناقشها الصحافة المصرية من قبل، فقد كان أنصار المرأة — وفى المقدمة جريدتنا — يدعون إلى تعليم البنات إذا توسطوا، ويطالبون برفع النقاب إذا أسرفوا، ولكن كاتب افتتاحية اليوم يذكر «قاسماً أميناً وما لقيه من مثالب الناس ومطاعن الجمهور»، ثم يقول «أذكره الآن وأنا عليم بأن الناس لا يزالون يكررون فيه بعض قولهم القديم متابعة للتقليد، ولكن هؤلاء الناس ذاتهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم لأن الطبيعة تقضى بأن يكون «المتعلمون للمتعلمات والمتعلمات للمتعلمين» ولا يعكس، وما دامت العائلة تؤلف أزواجاً — رجلا وامرأة — فمن المحال أن يظل الرجل راضياً عن قرين جاهل وزوج عمياء البصيرة. فالمصرى يتعلم الآن فلا مندوحة له عن تعلم المصرية. ومتى تعلم وتعلمت تكافأ الزوجان وصح الازدواج وصحت الهيئة الاجتماعية. وتوزع العمل فكان للمرأة حظها وما وافق خلقها وسجاياها وطبيعتها، وكان للرجل نصيبه وما وافق خلقه ومزاياه وطبيعته. هكذا تريد

(١) الأهرام فى ٦ مايو ١٩١٣

المدنية وبهذا يقضى العمران ، وهكذا يلقن العلم إلى أن تصير زوجاتنا نساء ولا يمكن رغم حكم المدنية أناثى فقط » .

العلم والرق لا يجتمعان

ويمضى الكاتب منوهاً بمكانة المرأة فى أوربا معلقاً بأننا « نأخذ عن أوربا علمها فلا يمكنا أن نهرب ونفلت من مدنيتها » فحضارة أوربا لا بد من التمثل بها فى حضارتنا ، وهى – أى أوربا – تتجه نحو منح المرأة حق المساواة المطلقة بالرجل « فأين لنا الفرار من هذه الأحكام ، أحكام المدنية الأوربية إن لم تعد أرضنا إلى همجيتها وشعبنا إلى جهله ، وإن لم نقطع صلتنا بالجديد الحديث من أمرهم » . ثم يبين لنا حالة المرأة الأوربية بقوله « قد تم التساوى بالتعليم ، وهم يتدرجون الآن للمساواة بين الرجل والمرأة فى الوظائف » ، ويضرب الأمثلة على ذلك « فمنذ خمسين سنة كانت فى خدمة حكومة فرنسا ١٠ آلاف امرأة والآن يوجد فى خدمة هذه الحكومة ١٥٥ ألف امرأة » ، ثم يطمئن أنصار المرأة للكفاح الذى يبذله النساء فى أوربا من أجل مساواتهن بالرجال « فإذا كان الرجال قد وقفوا فى أوربا فى وجه النساء وأرادوا منعهن عن التعليم ، فإنهم يقومون اليوم فى وجههن يمنعوهن عن الوصول إلى مساواتهم فى الحقوق والواجبات . وكما تغلب النساء فى أمر التعليم فستكون لهن الغلبة فى أمر العمل ومشاطرة الرجال الحقوق ، لأن العلم وحده كاف لأن يقضى بمساواة المتعلمين بالمتعلمات » . ثم يهاجم الكاتب فى آخر مقاله الفكرة القائلة بمنع المرأة المصرية من ممارسة حقوقها الشرعية إذا تعلمت وحجزها فى البيت كأى أنثى جاهلة لأن « العلم والرق لا يجتمعان »[(١)].

وتبين الأهرام فى مقالاتها عن النساء فى الخارج قدر المرأة فى حياة الشعوب إذا أحسن توجيهها وتم تعليمها ، فإن النساء الفرنسيات مثال طيب للمواطن الصالح ، فإنهن إلى جانب ما يقمن به من الأعمال المدنية ، وما يقدمنه من خير لبيوتهن وأزواجهن ، يشاطرن مواطنيهن تكاليف الوطنية فى أشد وأقسى صورها ، فيساهمن فى أعمال الجيش وراء الخطوط ليقوم الرجال بالقتال عند اللزوم[(٢)] . ثم تنقل فى برقياتها الخاصة أنباء الحركة النسائية فى انجلترا وكفاح مسز باركهرست زعيمة المطالبات بحقوق المرأة السياسية ،

(١) الأهرام فى ٢٤ يونيو ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ١٣ سبتمبر ١٩١٣

وما نالها من ضيم وتأهبها للسفر إلى أمريكا[1] . بيد أنها لا توافق مطلقاً على ما يصنعه نساء إنجلترا فى سبيل الحصول على حقوقهن السياسية فيعثن فى الأرض فساداً ويحرقن الدور ويهدمن الآثار فيتركن « كل عامر خراباً فى بلدهن ويستبحن ما حرم الله وشرائعه من الأذى والأضرار . . . »[2] .

جمعية تهذيب المرأة

وترحب الأهرام بتلك الجمعية التى أنشئت « فى سبيل تهذيب المرأة » وكل أعضائها من شبان ممتازين من خريجى جامعات أوربا ، وهم يقصدون تحرير المرأة من الحجاب وما يفرضه الحجاب من تقاليد تحرم النساء حق الوجود وحق الحياة ، وتعلق الأهرام فى نهر كامل على نبأ هذه الجمعية ، ذاكرة قاسماً أميناً وفكرته المبسوطة فى كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) محيية بهذه المناسبة زعيم تلك الفكرة المعتدلة فإنها « فكرة معتدلة ليس فيها طفرة بل تدرج ، وقد نبت غرسها وأزهر وأثمر والذين نقدوها قبل أن يمحصوها ، والذين رموا قاسماً بكل موبقة لأنهم لم يطالعوها ولم يقرأوها هم الآن العاملون بها قبل سواهم ، والشاعرون بأن تعليم المرأة واجب واعتبارها عضواً حياً واجب وإخراج فريق منهن من ظلمات السجون إلى عالم النور والهواء والحرية واجب » . ثم تمضى قائلة عن الجمعية الجديدة « فإذا صح أن جماعة اتفقوا على أن يروجوا فكرة الاجتماعى الجرىء قاسم أمين الذى برز وحده فى الشرق جريئاً يجاهد بفكره بلا ممالأة ولا محاباة فإنا نقابل هذه الجماعة بملء الارتياح لثقتنا أنها تجعل نصب عينيها خدمة الأمة وإنهاض نصفها وتهذيب ذلك النصف والانتفاع بما فيه من قوة وعقل وأيد ونور وحكمة »[3] .

وتكتب الأهرام رأيها فى ذلك كله صريحاً واضحاً فى مقال افتتاحى منها بعنوان (تعليم المرأة المصرية . واجب أدباء الأمة وواجب الحكومة) ، وهى تناقش آراء الذين يختلفون إلى صفحاتها مؤيدين فكرة النهوض بالمرأة المصرية ، وتعاتب الحكومة على قلة مدارس البنات ورفع أجور التعليم حتى عجز الآباء عن تعليم بناتهن ، واستمرت الأمة تشكو ضعفها فهى تلتمس سلامتها فى العلم والحكومة تحارب تعليم البنات « نصيح وننادى بأننا نريد أن تكون قوية سليمة ، والأمم تؤلف وتكون من أفرادها . فإذا كان نصف الأفراد

---

(١) الأهرام فى ١٥ أكتوبر ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ١٠ يونيه ١٩١٤
(٣) الأهرام فى أول أكتوبر ١٩١٣

– أى النساء – جاهلات لا يمكن أن يعد تأليف أمة منهم سليمة صحيحة ، أو تأليفاً كاملا صحيحاً لا فى الأخلاق ولا فى المنازع ولا فى المدارك ولا فى الأفهام ولا فى المعارف ولا فى الآداب . بل كيف يمكن الجمع بين شيخة الزار وشيخ الطب . وشيخ الاقتصاد ومن لا تعرف تدبير المطبخ ، والفلكى ومن تعد خسوف القمر حرباً وكسوف الشمس موتاً ، وبين المهندس ومن تجهل خيوط الدثار وقص الفسطان » . ثم تطلب من الحكومة تخفيف أجر تعليم البنات ، وتلفت نظر الآباء إلى واجبهم نحو تعليم بناتهم تماماً كما يفعلون نحو أبنائهم ، لأن الخير فى ذلك ، فالمرأة دولاب الحياة ، وأمثال العامة فى هذا الصدد جديرة بالنظر والاعتبار فهم يقولون « الرجل جلاب والمرأة دولاب » ، وإذا كان « الدولاب » جاهلاً فسدت مساعى الرجل مهما يبلغ من نجاح « فالألف فى يد الجاهلة عشرة أو أقل ، والعشرة فى يد المتعلمة ألف أو أكثر »[1].

وهكذا وقفت الأهرام صفحاتها على خدمة النشاط النسوى مرة بقلم من عندها ، ومرة بمقال من كاتب أو أديب معروف يتحدث فيه عن « تعليم المرأة » وإن بنات اليوم يعددن رجال المستقبل[2]. هذا إلى مقالات الثناء التى كانت تنشرها تأييداً « لجمعية تحرير المرأة برفع الحجاب »[3]. فإذا فكر أعضاء الجمعية التشريعية فى سن تشريع يمنع زواج البنت فى سن تقل عن السادسة عشرة ، نشرت ذلك كله مؤيدة ، ولكنها تختم افتتاحيتها بواجب الدولة والشعب نحو تعليم البنت « وتقول للناس اقصدوا من الزواج تأليف العائلة ، ولا يكون البناء صحيحاً متيناً إلا إذا كانت مواده صحيحة سليمة ، ولا تكون أمة بكثرة النسل بل تكون أمة بالنسل الصالح المهذب العارف المربى ، ولا تصل إلى هذا النسل إلا من الأم ، فنحن بحاجة إلى المرأة لا إلى الأنثى »[4].

وتهاجم الأهرام حكومة تركيا التى أغلقت إحدى الصحف فى الشام لأنها نقلت عن إحدى صحف الآستانة نبأ قرار لنسائها بخلع البرقع وجعل السفور قاعدة الحياة الاجتماعية فى العاصمة التركية[5]. ثم عاودت الحملة فى مقال افتتاحى آخر كان له وقعه وأثره فى نفوس القراء[6]. ثم علقت على كتاب تلقته من إحدى السيدات تنعى فيه على الصحفيين والأدباء سكوتهم على

(١) الأهرام فى ٢ أكتوبر ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ٦ أكتوبر ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٩ أكتوبر ١٩١٣
(٤) الأهرام فى ١٨ مارس ١٩١٤
(٥) الأهرام فى ٢٥ أبريل ١٩١٤
(٦) الأهرام فى ٢٨ أبريل ١٩١٤

ما يصنعه بعض الرجال فى النساء ، وهى ترد ذلك إلى التحيز للجنس ، وكان تعليق الأهرام بلسماً لشكوى الشاكية على ما تضمنه من المعانى الطيبة[1].

إمرأة تطلب أن تكون عمدة

وتختم الأهرام رعايتها للحركة النسائية قبيل الحرب العظمى الأولى بنبأ عن امرأة فى الريف « طلبت أن تعين عمدة لبلدها بعد وفاة العمدة لأنها أغنى أهل تلك الناحية ولها مقام محترم » فأبت لجنة تعيين المشايخ والعمد قبول طلبها ، وقد تناقلت الصحف الفرنجية هذا النبأ بالتعليق والسخرية من المرأة العربية عامة ، وردت الأهرام على ذلك كله مدعمة رأيها بالوثائق والأسانيد من تاريخ العرب ، مبينة أن المرأة العربية تولت ولا تزال تتولى فى البادية « وظائف » الرجال سواء اتصلت هذه الوظائف بالحرب أو بالسلم ، وضربت لذلك عشرات الأمثلة ، ثم ختمت كلامها بأنه لا محل للتعجب أو العجب « بل العجيب فى هذه الحال أن علماءنا وكتابنا وأدباءنا ذاتهم يودون أن يجهلوا أو يتجاهلوا تقاليد المرأة الشرقية وحالها المجيدة ، ويريدون أن تكون أنثى ، ويتذرعون لإرادة ذلك بالتفلسف والتأويل ، ووالله إنما أود أن يذهبوا إلى قبائل العرب فى صحراء الحجاز والعراق واليمن ليعرفوا مقام المرأة الصحيح ، فإنها هناك لا تزال كما كانت منذ العهد القديم لم تفسد عليها الحضارة أمرها . ولم تسلبها النعمة والترف والتسرى والتمتع بمثات الجوارى حريتها . ولم يتقول فى أمرها المتقولون ما صورت لهم المخيلة ولم ينزلها الذين يدعون العلم منزلة البهيمة »[2].

وهكذا صاحبت جريدة الأهرام معالم الحضارة المصرية الحديثة ، فلم تترك صغيرة أو كبيرة إلا وكان لها فيها نصيب من التوجيه أو الإرشاد ، وكما حفلت بالجامعة المصرية والنهضة النسائية وغيرها من مقومات حضارتنا فى مطالع القرن العشرين ، فإنها حفلت بموضوعات كانت فى الحق جديدة كل الجدة على مطالعى الصحف فى ذلك الزمان ، بيد أنها واجبة على كل صحيفة تعرف قدرها وتقدر رسالتها ، وحسبنا منها تلك المقالات الممتعة فى الرياضة البدنية[3] التى تخصص فى إذاعتها الدكتور توفيق صوصه وعالج أمرها كعلم من العلوم[4] ، وقد مضى هذا الكاتب العالم يعرض على قراء الأهرام كثيراً من الموضوعات الخليقة بالدرس والعناية الجديرة بالقراءة المفيدة حقاً . وقد نشر بعضها عن

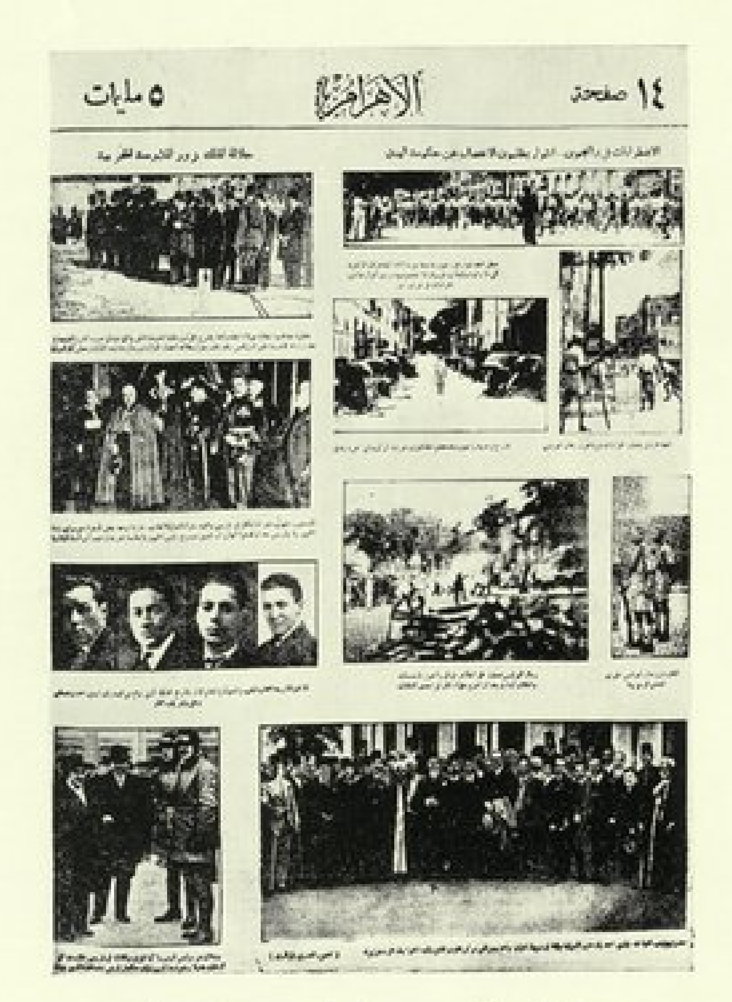
(١) الأهرام فى أول يونيو ١٩١٤
(٢) الأهرام فى ٢٤ يونيه ١٩١٤
(٣) الأهرام فى ٢٥ نوفمبر ١٩١٠
(٤) الأهرام فى ٢ ديسمبر ١٩١٠

(الملابس وخصائصها) فى افتتاحيات الأهرام[1] واختص البعض الآخر بشئون الصحة المختلفة وعلاقتها بالرياضة البدنية والغذاء[2] . ثم أخذت الأهرام منذ سنة ١٩١٣ تنشر مقالات علمية بديعة عن « العقاقير النباتية » وهى بحوث صدق كاتبها حين قال « إنه يجب على كل إنسان أن يعرفها »[3]

وبعد فإن صحيفة من الصحف المعاصرة لا تستطيع أن تزعم أنها عرضت لكل موضوع كما عرضت صحيفتنا الأهرام ، فإن حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت الأهرام فى خدمتها قسمة عادلة لم تغلب ناحية على أخرى ، ولم تكن الأهرام صحيفة تخصص ، وليس ذلك عيباً فى الصحف الأخرى ، بل كانت صحيفتنا للسياسة والأدب والاجتماع ومقومات الحضارة والأنباء ، تقرأ الفصول الماضية عن تلك الفترة (١٩٠٠ – ١٩١٤) والفصول المقبلة فتشعر مرة أن الأهرام صحيفة للسياسة فإذا انتقلت إلى موضع آخر قلت إنها صحيفة للأدب ، فإذا فرغت منه واختلفت إلى فصل ثالث نسيت فيه السياسة والأدب ، فإذا انتهيت من فصول الكتاب علمت صدق قولنا إنها صحيفة لخدمة المجتمع المصرى فى شتى نواحيه ، تلقى هذه النواحى العناية الجديرة قسمة عادلة فيما بينها ، وهى بذلك تؤرخ لمقومات الحضارة المصرية تأريخاً صادقاً بعيداً عن الغرض والهوى .

---

(١) الأهرام فى ٢٣ ديسمبر ١٩١٠
(٢) الأهرام فى ٦ يناير ١٩١١
(٣) الأهرام فى ٥ نوفمبر ١٩١٣



١٤ صفحة — الأهرام — ٥ مليات

صفحة الصور كما كانت تبدو فى الأهرام قبل الحرب الأخيرة

اختيار الرجال

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم　　　إذا جمعتنا يا جرير المجامع

« الفرزدق »

يقولون إن الملك الصالح أو الأمير القادر هو من يحسن اصطناع الرجال ، وهذا قول حق تؤيده الوثائق والأسانيد ، وخير شاهد على ذلك ما انطوى عليه التاريخ من أمثلة سواء كان تاريخاً قديماً أو حديثاً ، ونحسب أن صحيفتنا الأهرام قد وفقت إلى أبعد حدود التوفيق فى تحقيق هذا القول ، حين أخذت العبرة من هذه الحقيقة التاريخية فكان توفيقها ملحوظاً فى اختيار أصدقائها وانتقاء الرجال النافعين ، وهى فى جميع الأجيال التى قطعتها قدمت على صفحاتها خيرة رجالنا إما كتاباً وأدباء أو ساسة أو أهل اقتصاد ، وقد حدبت عليهم وعاونت على تقدمهم وعملت على إبرازهم وهم فى مطالع العمر ومستهل تاريخهم أيفاعاً لا يعرف طالعهم ، ولا يجزم إنسان ، أو لا يستطيع أن يجزم إنسان ، بأنهم سيكونون يوماً أهل الصدارة فى كل علم وفن .

الإمام محمد عبده

ولا ينسى قارئ هذا الكتاب أن الأهرام كشفت عن مواهب الشيخ محمد عبده وهو لا يزال مجاوراً يتلقى العلم فى الأزهر إلى جانب أصدقائه من تلاميذ الجيل ، ولو شئنا لذكرنا مرة أخرى تلك الأسماء اللامعة فى تاريخنا الحديث ، وهى الأسماء التى قدمت لها الأهرام وأسرفت فى الدعاية لمستقبلها حتى نجحت مساعيها ، وكان لتلك الأسماء أثر فى شئون مصر المتباينة ، وإذا بها تتصدر الحياة المصرية فى نواحى العلوم والآداب والاقتصاد والسياسة والاجتماع خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

مصطفى كامل

وقد تركنا الأهرام فى أواخر القرن الماضى حفية بزعيم الجيل مصطفى كامل ، ورأينا فى مطلع القرن الحالى مكانة ذلك الزعيم عند صحيفتنا بعد أن انفرد بصحيفة له ، وكان بذلك منافساً فى ذلك الميدان للصحيفة التى اختارها له منبراً شهوراً وسنوات ، وقد خرج من على صفحاتها مبشراً وهو شاب لا رتبة له ولا جاه ، وتركها يحمل أرفع الرتب ويملك جميع القلوب ، وقد اختارت الأهرام الرجل المناسب لجيله فاحتضنته وهو فى أول الدرج ، وصحبته حتى بلغ القمة ، وهو أبداً محل تكريمها وإجلالها وتأييدها على ما بينا فى فصول سابقة .

سعد زغلول

ثم ظهرت الأهرام فى القاهرة فى مطلع القرن العشرين ، وأمضت جيلا صحفياً نشطاً حتى قامت الحرب العظمى الأولى ، ووقع اختيارها فى تلك الفترة على نخبة من المصريين انتقتهم وقدمت لهم وعاونت على إبراز مكامن الخير فيهم ، وكان فى مقدمة من احتفلت بهم سعد زغلول ، « ذلك المحامى النابه والمستشار العادل » . فإذا عين سعد زغلول وزيراً للمعارف فى وزارة صهره مصطفى فهمى باشا[1] فرقت الأهرام بين الوزير وصهره ، وقالت رأيها فى الاثنين فى مقالة واحدة ، واختارت أحدهما فأكبرته ، ونظرت إلى الثانى فأصغرته ، أنظر إليها وهى تتحدث عن الوزارة والوزير فى افتتاحيتها حين اختير سعد وزيراً .

« الحديث اليوم فى كل مجتمع وناد فى النظارة المصرية وماهيتها وأعمالها . فعتقد الجمهور أن قول المحتلين لأحد كبار المصريين كن ناظراً هو بمثابة قولهم له ، كم فلك . واقصر يدك إلا عن ختم الأوراق التى تقدم لك وقبض الراتب الضخم الكبير الذى تنقده من الخزانة فى آخر كل شهر . . . » ثم أخذت تحمل على الوزارة التى أصبحت استشارة والاستشارة التى أصبحت وزارة منذ « تربع عطوفة مصطفى باشا فهمى فى دست الرياسة وأساس سياسة المسالمة التى كانت استسلاماً والتسليم الذى صار امحاء . . . . » وتلتفت إلى الوزير الجديد الذى عينوه للمعارف فتقول « واليوم انخرط فى سلك الوزارة رجل نشأ على الاستقلال ومعاركة الأفكار واستنباط الحقيقة من مجاذبة البرهان والبحث وذلك

---

(١) الأهرام فى ٢٩ أكتوبر ١٩٠٦

الرجل هو ناظر المعارف سعد زغلول باشا الذى كان محامياً لا يسيطر عليه أحد . . . ثم كان قاضياً فلا يسمع إلا كلمة ضميره وما يوحى إليه عمله واستقلاله، فهو لا يستطع بعد تلك التربية والنشوء على الحرية أن يقبل عملا بلا حجة وقولا بلا برهان ومشروعاً بلا تصويب ونظاماً بلا درس وقانوناً بلا تمحيص . . . فإذا صدق فيه ظننا وأملنا كان كالروح الجديدة فى جسد تلك النظارة الشائخة ، يبعث بها من مرقدها ويوقظها من منامها ويفهمها ببحثه ومحاجته ودرسه أن للعقل فى كل عمل مجالاً ، ويفهم المحتلين أنه خير لهم وللبلاد أن يشارك المصرى الإنكليزى فى الرأى والعمل . . . » .

سعد محط الأمل

ثم تعتبر الأهرام أن العبرة ليست فى تعيين سعد زغلول وزيراً وإنما العبرة فى أن تطلق يده حتى ينتج الرجل الإنتاج المأمول ، وهى تعتبر هذا الشرط محكاً لنية الانجليز « ولربما كان تنبؤنا عن الوزير الجديد متقدماً عمله ، ولكنا عرفنا الرجل قبل الوزارة أهلا « للوزارة » فإذا عز عليه أن ينتج كما تتمنى الأهرام « كانت العقبة المقامة أمامه كؤوداً وكان الاصلاح ومراعاة الرأى المصرى أمراً غير مرموق من رجال الاحتلال . فالذى ننتظر أن نعرفه غداً ليس كفاءة سعد باشا ونحن واثقون بها بل نية الانكليز فى إدارة البلاد ، وقد طالما نددنا بها فقيل لنا إن وزراءكم هم السبب . فهذا وزير منا مطبوع على العمل فأظهروا مقصداً حسناً منكم يسهل عليه عمله »[1]. بهذه التحية اختارت الأهرام الرجل، اختارته صديقاً وقدمته لمواطنيه ينبئ حاضره عن مستقبله ، ثم قفت فى اليوم التالى بمقال افتتاحى آخر فى نفس الموضوع[2].

ويبدو من حديث الأهرام وما نشرته الصحف الأخرى وما جاءت به برقيات الخارج عن تعيين سعد زغلول وزيراً، أنه كان حدثاً فى نظر المصريين والاحتلال أيضاً ، بل إن المسئولين الانجليز سواء كانوا فى مصر أو فى لندن أذاعوا بشتى الوسائل وبمختلف الصور أنهم لبوا رغبات الوطنيين باختيار هذا الرجل وزيراً ، واعتبروها منة يجب أن يسبح المصريون بحمدها ، وقد ساء الأهرام هذا المن المتصل فكتبت تبين حق البلد فى اختيار الوزراء الأكفاء ، وليس فى ذلك فضل لا فضل بعده ، فإن تعيين سعد باشا وزيراً هو بعض الإصلاح ولكنه ليس الاصلاح كله[3].

---

(١) الأهرام فى ٣٠ أكتوبر ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ٣١ أكتوبر ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ٦ ديسمبر ١٩٠٦

سعد ودنلوب

وراقبت الأهرام الوزير فى وزارته ، وأذاعت مع الصحف الوطنية الأخرى المتاعب التى يلقاها سعد زغلول من دنلوب مستشار المعارف الإنجليزى ، وفى ذلك نشرت تحية شعرية رائعة لحافظ إبراهيم جاء فيها :

نامت بمصر وأيقظت ... لحوادث الأيام سعدا
يا سعد إن بمصر أيتا ... ماً توسمُ فيك سعدا
قد قام بينهم وبيـ ... ـن العلم ضيق العيش سدا
ما زلت أرجو أن أراك ... أبا وأن ألقاك جدا
حتى غدوت أبا لـه ... أضحت عيال القطر ولدا
أنا لا ألوم المستشا ... ر إذا تعلل أو تصدى
فسبيلـه أن يستبد ... وشأننا أن نستعدا
هى سنة المحتل فى ... كل الفصول وما تعدى[1]

وطغى المستشار الإنجليزى وأخذ يروى لصحف الاحتلال ، عربية وفرنجية ، ولخصوم سعد زغلول روايات من شأنها أن تقطع على الوزير تحمسه لعمله أو تقفه عن أداء رسالته ، ومست روايات المستشار دنلوب كفاية المعلمين المصريين ، فما كان من سعد إلا أن أجرى حديثاً مع مندوب الأهرام يصحح فيه الأوضاع ويرد فيه على الاتهامات[2]. ثم ثنت الأهرام فى مقال افتتاحى معقبة على حديث الوزير تعقيبا يبدو فيه الإعجاب واضحاً والتأييد لا شك فيه ، فان الوزير « جاء اليوم يعيد بكلمته الأمور إلى نصابها ويثنى على المعلمين والمدرسين ثناء يجب علينا أن نذيعه بين الأمة إنصافاً لأولئك المعلمين الذين ظلموا بغطرسة دنلوب وهم آباء الأمة . . . »[3] . ثم أخذت تناقش فى عنف وشدة صحف الاحتلال العربية التى وقفت إلى جانب المستشار الإنجليزى تؤيده وتزكيه وتعلن أن المدارس تحسنت فى عهد دنلوب عن الجيل السابق ، واعتبرت الأهرام ذلك ذماً فى صيغة مدح « وهل يمدح اللورد كرومر إذا مدحت إدارته لأنها أفضل من إدارة المماليك ؟ ؟ »[4] .

(١) الأهرام فى ١٣ ديسمبر ١٩٠٦
(٢) الأهرام فى ١٤ ديسمبر ١٩٠٦
(٣) الأهرام فى ١٥ ديسمبر ١٩٠٦
(٤) الأهرام فى ١٩ ديسمبر ١٩٠٦

ثم يزعم الاحتلاليون كلما رقى صنيعة من صنائعهم إلى وظيفة كبيرة أنهم يعطون بذلك للمصريين فرصة الحياة والوجود، وهم يحشرون بجانب كل اسم جديد اسم سعد الفلاح الذى أصبح وزيراً، فهاجت الأهرام لذلك وأرادت أن تبين للرأى العام أن أولئك الذين يختارونهم للوظائف الكبرى ليسوا كسعد زغلول فى شىء، وليست ترقية سعد مثل ترقيتهم، لأن فائدتهم منها محققة، أما فائدة سعد فمشكوك فيها «فالإنجليز رقوا سعد باشا حتى يكفروا عن سيئة دنشواى وعما كان يشكو منه المصريون كما قال الإنكليز ذاتهم. فالاحتلال رقى رجلاً ما خطا خطوة إلى استنزال نعمته وما بسط يدا لاستدرار مكرمته. بل إنه كان مستشاراً فى الاستئناف راضياً بمنصبه. يقول الحق ولو كان الحق على نفسه ويكره الباطل ولو كان الباطل من أحبته، فصار سعد باشا وزيراً إرضاء للأمة التى ملت من وزارتها حالا طال عليها القدم. حتى وصفها الأكثر بقول شوقى: فوجودها عدم»[1].

وتمضى صحيفتنا مؤيدة سعد زغلول بمقال منها أو بحديث صادر عنها، كما دأبت على نشر كل ما من شأنه أن يعلى قدر الرجل فى عين مواطنيه ويقدمه لهم مثلاً من الأمثلة التى تحتذى، والتى يجب أن يحس بها الجيل الناشىء، فرأينا خطاباً مفتوحاً من عضو فى الحزب الوطنى يثنى فيه على سعد منذ كان محامياً وقاضياً ويشكر له موقفه العظيم من تصرفات «دنلوب»[2]. ثم تنشر (مأثرة تشكر لسعد باشا)، وذلك بمناسبة قراره الخاص بإرسال بعثة من الطلاب المصريين فى مدرسة الحقوق ليتلقوا العلم فى الخارج ويعودوا فيقوموا بالتدريس فى مدرستهم توطئة للتخلص من المدرسين الأجانب[3].

سعد رجاء الأمة

وهكذا بقيت صحيفتنا تسند وزير المعارف دون الوزراء جميعاً لأنها اختارته فأحسنت الاختيار، ورأت فيه غير ما رأته فى بقية زملائه، فاعتبرته أملاً يجب أن تحقق فيه الخير المرجو لمصر، فإذا نقل وزيراً للحقانية كان مكانه من نفسها هو المكان نفسه الذى كان له يوم كان وزيراً للمعارف، أخباره ومشروعاته تحتل من صفحاتها أبرز مكان فيها، فإذا برم سعد بالحكم والحكومة وتبين له أن أداء الواجب متعذر عليه فى مثل تلك الظروف فكر فى الاستقالة، وذكرت الأهرام الخبر، وبعد أن تحدثت عن الضيق

(١) الأهرام فى ١٢ فبراير ١٩٠٧
(٢) الأهرام فى ١٣ مارس ١٩٠٨
(٣) الأهرام فى ٤ يونيه ١٩٠٩

الذى أصاب خاصة الناس والقلق الذى عم البلاد من هذه الإشاعة قالت « ولو أنا سئلنا رأينا باستقلال فكر وحرية ضمير لتمنينا خروج سعد باشا من النظارة ولكن على شرط واحد وهو أن يعود إلى كرسى القضاء الذى شرف به سنين طويلة ، فإذا لم يكن سعد باشا السياسى المرن اللين فإن سعد باشا الصلب فى الحق بلا غاية ولا قصد ، الخشن فى اليقين والمعتقد بكل نزاهة واستقلال »[١].

وأساء هذا المدح والثناء بعض خصوم سعد ، فانبرى أحدهم يعدد أخطاء الوزير سواء فى وزارة المعارف أو وزارة الحقانية ، وهى سبع فى حسابه ، وكان المقال نقداً طيباً قل أن نجد نظيره فى أيامنا هذه التى نحياها ، ومع أن الناقد قسا بعض الشىء إلا أنه لم يستطع أن ينكر على سعد مزاياه « ولما كان الرجل عصامياً . وقد ابتسم له ثغر الدهر فى مواطن كثيرة ولاحظته العناية فى ظروف متعددة وأصبح من عظماء الأمة ومن رجال الحركة فى البلد بحيث لا يمر يوم إلا ويجرى اسمه على ألسنة الأقلام وألسنة الناس ، تارة بالشكوى وأخرى بالشكر والثناء ، فلا غرو إذا اتسعت ميادين الطروس لتسابق جياد الأقلام وتضارب الآراء والأفكار واستكشاف مكنونات الصدور والأفهام بالنسبة لهذا الرجل العظيم »[٢] . ومع أن الناقد ختم مقاله بتزكية سعد وتقدير مكانته من حياتنا العامة إلا أن الأهرام ساءها أن يوازن الكاتب بين سعد وبين غيره من الوزراء ، ورجت ألا يعود أحد إلى ذلك لأن مقارنة أى وزير بسعد « تفضى بنا وبحضرة الكاتب إلى ما لا نحب وما لا يحبه وزراؤنا »[٣].

استقالة سعد من الوزارة

وبالرغم من الحملات التى رتبت ضد سعد زغلول عقب استقالته من الوزارة ، وبالرغم من النقد الذى وجه إليه على صفحات الأهرام نفسها من أحد الكتاب ، فإن الأهرام كرمته فى مناسبة استقالته « فقد كان سعد باشا فى الوزارة عضواً « مستقلا » يقول ما يعتقد ويتصلب بما يوقن إلى أن يغلب على أمره فيتحول ، فطريقته كانت غير طريقة الوزراء الذين تقدموه أو عاصروه — إلا رياضاً — لأنا عرفنا وزراءنا جميعاً يجسون نبض السلطات العليا قبل أن يبدوا آراءهم ثم يبنون تلك الآراء على مراد تلك السلطات . أما هو

(١) الأهرام فى ٧ فبراير ١٩١٢
(٢) الأهرام فى ١٢ فبراير ١٩١٢
(٣) الأهرام فى ١٤ فبراير ١٩١٢

فإنه كان يتقدم سوءه بإبداء رأيه . ومن كان هذا شأنه فى وزارة مصرية كان مآله حتماً كمآل سعد باشا — أى اعتزال الوزارة — »[1] .

سعد زعيم الجيل

وهكذا اختارت الأهرام زعيم جيلنا ، فلا غرو أن جاءته الزعامة طيعة ، وهذا التاريخ العظيم تسجله له الأهرام وهو وزير ، ولم يلق وزير منذ تقررت المسئولية الوزارية فى مصر مثل ما لقيه سعد من تكريم صحيفتنا وإعجابها اللهم إلا شريف باشا ، وهو المواطن ذو السيرة النقية والتاريخ المجيد ، ولم تنفصم عرى المودة بين المواطن الكبير وبين جريدة الأهرام حين خلع الوزارة وتهيأ لمعركة الانتخابات بعد إنشاء الجمعية التشريعية ، فقد كانت له الأهرام سنداً وأى سند ، فهى داعيته ولسانه فتنشر له بياناته وشكره لمن انتدبوه ناخباً مندوباً عنهم فى الدرجة الانتخابية الأولى ، ثم تنشر له ما أجراه من أحاديث مع الصحف المختلفة[2] ولا يمضى يوم إلا ولسعد فى صفحاتها بيان أو دعوة للمندوبين[3] .

فوز سعد زغلول

وخاض سعد الانتخاب لعضوية الجمعية التشريعية فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٩١٣ ونجح فى دائرتين ، وتلقت الأهرام النبأ سعيدة به كل السعادة ، ونشرت افتتاحية باسم سعد زغلول ، تحدثت فيها عن فضائل ذلك الرجل الذى ناصرته على مر السنين ، واعتبرت فوزه قرينة على تطور الرأى العام الذى أصبح يزن الرجال بكفاياتهم لا بطينهم ووظائفهم ، ورأت فى نتيجة الانتخاب عظة وعبرة ، وتساءلت عن سبب فوزه وماذا أفضى به إلى الفوز ؟ ، فتقول « إن سعد باشا زغلول فاز فى دائرتين كثر فيهما مزاحموه الأقوياء . لا لأنه كفء فقط — والكفاءة كانت من عوامل فوزه ونجاحه — بل لأنه ذهب بكفاءته إلى صميم الشعب ، وعرض نفسه على خدمة الشعب ، وقال للشعب ، أنا خادمك الأمين أعاهدك على خدمتك وعلى حسبان نفسى كما أنا : سعد زغلول ابن هذه الأمة . لا سعد باشا زغلول المترفع عنها . ولا الوزير المحتجب الذى يعد النزول إلى مجموع الأمة نزولاً عن رفعة . وهبوطاً من علاء . فقابل الشعب المتعطش إلى مثل هذا الكلام . المتحرق إلى رؤية أبنائه الكبار فى صفوفه . عودة سعد باشا إليه وإلى مجتمعه من غرة المناصب -

(١) الأهرام فى ١٦ أبريل ١٩١٢
(٢) الأهرام فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ١١ ديسمبر ١٩١٣

والمناصب خداعة – بالبشر والارتياح . وأولاه ثقته نابذاً كل طعن فيه معرضاً عن كل مسعى ضده أصم عن سماع كلمة سوء بانتخابه » .

الشعب مصدر الجاه

ودللت الأهرام بانتخاب سعد على وجود الرأى العام « إن الرأى العام قوة لا تناهضها قوة وتيار إذا حيل ساعة دونه ودون اندفاعه يجتمع وراء السد الذى قام فى وجهه إلى أن يقوى ويشتد فيكسر ذلك السد ويهزم ذلك الحائل ويدك ذلك البناء الوطيد » وهى تهنئ صديقها سعداً أكبر كبراء المصريين موجهة كلامها إلى الرأى العام « قد يكون صاحب المال كبيراً بماله . وقد يكون صاحب السلطان كبيراً بسلطانه ، ولكن أكبر الكبراء من يتخذ من الشعب جاهه لأن الشعب هو مصدر الجاه ومن الأمة قوته لأن الأمة مصدر القوة » . وإذن فالأهرام تعتبر انتخاب سعد نصراً للأمة المصرية وعنواناً على وجودها وحيويتها ، ولم تحتفل صحيفتنا بنجاح أى عضو آخر احتفالها بنجاح سعد زغلول فى ذلك الانتخاب ، وقد هللت لذلك وقالت لقرائها مطمئنة إياهم بوجود سعد فى الجمعية التشريعية « سعد باشا ذاهب غداً إلى الجمعية التشريعية ببرنامج مقرر وخطة معينة ، وهذا البرنامج وتلك الخطة هى خلاصة كل ما عرضه المرشحون الآخرون »(١)

سعد وكيل الجمعية التشريعية

ولما فرغت الأهرام من انتخاب سعد عضواً فى الجمعية التشريعية تلقت نبأ ترشيحه لوكالة تلك الجمعية ، وذكرت اختلاف الأعضاء على ذلك ، وفى وجهتى النظر تكريم لسعد أيضاً ، فإن اتجاه الفريقين هو فى الحرص على أن يلعب الرجل الدور الأول فى الجمعية ، فالفريق الذى يريده وكيلا إنما يريده لكفايته ونزاهته ، والفريق الثانى يرى إبعاده عن الوكالة وتكاليفها حتى يتحرر من التزاماتها ويطمئن النواب إلى وجوده على رأسهم فى التوجيه والإرشاد ، وإن بينت الأهرام فريقاً قوياً ثالثاً يريد سعداً لسبب وجيه يشير إليه قوله « فإن الحكومة جعلت مقام وكيلها فى صف النظار . وأفردت له غرفة فى المجلس ، فنحن نود أن يعامل الوكيل الذى تختاره الهيئة معاملة الوكيل الذى اختارته الحكومة حتى تتكافأ الوكالتان فلا يكون مختار الحكومة ما ليس لمختار النواب أو بالأحرى مختار الأمة وخير من يصلح لذلك سعد باشا »(٢)

---

(١) الأهرام فى ١٥ ديسمبر ١٩١٣
(٢) الأهرام فى ٧ يناير ١٩١٤

وقد أوعزت إدارة الأهرام إلى محرر البيراميد – شقيقتها – أن يجرى مع سعد حديثاً عربته الأهرام ، وفيه تحدث سعد زغلول حديثاً ممتعاً عن المعارضة فى الجمعية التشريعية ، والمسئولية الوزارية والنقص البادى فى قانون الجمعية بإزاء هذا الموضوع ، كما استفاض حديثه فى حرية الصحافة ووجوب إطلاقها من غير حد أو قيد ، كما عرض لشئون التعليم وأفتى بآراء قيمة لها وزنها واعتبارها[1]

الوكيل المنتخب قبل الوكيل المعين

وشغل الرأى العام بقضية الوكيلين ، عدلى يكن باشا وسعد زغلول باشا ، الأول عينته الحكومة وأرادت أن تكون له الصدارة فى كثير من الظروف والملابسات ، غير أن الأهرام على ما اعتادته من تقدير لشخصية الوكيل المعين إلا أنها ذهبت فى الرأى على غير ذلك ، واعتبرت تقديم عدلى على سعد إساءة للعواطف الوطنية « أفما كان من حسن المجاملة ومراعاة العواطف إن لم تقل مراعاة الحقوق أن تخول الجمعية التشريعية حق تقديم منتخبيها ؟ لقد كنا نعرف أن الإنكليزى الموظف يقدم على الموظف الوطنى ، ولكن ما كنا نعرف حتى الآن أن الوطنى المعين يقدم على الوطنى المنتخب »[2]

ويشاع فى الدوائر النيابية أن حملة تدبر لإقصاء سعد عن التمتع بمزايا الوكالة بجانب الوكيل المعين ، وتطلع الأهرام علينا متحدثة عن « فريق من النواب يحرم على نفسه الرئاسة » متعجبة لموقف هذا الفريق قائلة « نعم ، نعم ، بلى . بلى . بل أجل . أجل . إن فريقاً من نوابنا الكرام يطوف على زملائه حاملاً عريضة يدرج فيها فى تعديل اللائحة الداخلية تعديلاً يخول الوكيل المعين دون الوكيل المنتخب حق رئاسة جلسات الجمعية التشريعية إذا غاب الرئيس . وقد عقدوا الاجتماعات واستحثوا الهمم وبشرتنا إحدى الصحف « المسيرة » بأن عدد الذين يطلبون هذا التعديل سيكون فوق العدد الذى تقضى به اللائحة ، فمن هو الوكيل المنتخب الذى يريد حضراتهم حرمانه من الرئاسة وتقديم الوكيل المعين عليه »

ثم تقول لهذا الفريق الذى يدعو إلى هذه الدعوة الخطيرة فى مستهل الحياة النيابية الجديدة ، مبصرة إياه بما يترتب على دعوته من خطر « إن الوكيل المنتخب هو نائب النواب جميعاً . كما أن الأعضاء المندوبين هم نواب الأمة كلها . فالنواب الذين اختاروا هذا الوكيل

---

(١) الأهرام فى ١٢ يناير ١٩١٤

(٢) الأهرام فى ٢٦ فبراير ١٩١٤

وانتخبوه إذا نالوا له التقديم فإنما هم ينالونه لأنفسهم لا لشخصه . وإذا حرموه هذا التقديم فإنما هم يحكمون على أنفسهم بالحرمان منه لا عليه . فعنى قيام بعض النواب لمثل هذا المطلب أنهم يقولون نحن لا نستحق أن يكون لنا التقديم بالرئاسة . فهل يوجد اعتراف أشد إيلاماً من هذا الاعتراف ؟ ؟ ؟ »(١).

ثم تنشر الأهرام نبأ الأثر الذى تركته عريضة النواب التى تحدثت عنها من قبل فى نفوس أهل الأقاليم ، ثم تذكر أنها تلقت رسائل مختلفة من شتى البلاد يعلق فيها كاتبوها على موقف أولئك النواب . بيد أن الأهرام تعلن أنه من الخير إهمال شأن تلك العريضة قائلة « لا نريد أن نجارى الذين يصغرون شأن الأمة فى عينيها ولا نريد أن نلتفت إلى أقوال الذين يريدون من الشعب أن يكون قطيعاً يساق إلى ما يريد منه الراعى ولا يحق له أن يبدى رأياً أو يقدم اعتراضاً . . . وكل ما يستحقه كلام الموهمين المنذرين المثبطين للهمم هو الإهمال والإعراض »(٢). وإن كانت صحيفتنا قد أفسحت صدرها لتأييد الوكيل المنتخب بمقالات نشرها رجال القانون(٣) وأبت أن تنشر رسالة واحدة ضد عدلى باشا تمس شخصه ، مهملة تلك الرسائل « حتى لا يتسع الخرق ويزيد الخلف وينفسح المجال للقيل والقال ، فالكلام فى المبادئ وإظهار الحقائق نريده ونتوخاه . أما المسائل الشخصية وإثارة زوابع المآرب والغايات فلا نشجعه ولا نرضاه . فمن أراد إقامة الحجة والبرهان قبلنا قوله ورأيه على الرأس والعين ولو كان مخالفاً لرأينا لأنا طلاب حقيقة والحقيقة بنت البحث . ومن تعمد غير ذلك لا يجد من الأهرام نصيراً »(٤).

صحيفة الرأى وزعيم الرأى

وهكذا التقت الأهرام مع سعد زغلول ، وحدث التجاوب الطبعى بين صحيفة الرأى وزعيم الرأى فى جيلنا ، وكان اختيارها لسعد صديقاً وحليفاً ومؤازرتها له فى الشئون السياسية مثلاً على حاضر بديهتها وبعد نظرها . ولم تقف هذه الصفات التى تميزت بها صحيفتنا فى اختيار الرجال عند سعد وحده ، فإنه كان عنواناً لغيره من كبار الرجال ، ولكن فى ميادين أخرى مختلفة ، فقد لقى الأمير حسين كامل تقدير الأهرام منذ عين فى رئاسة الجمعية العمومية ومجلس الشورى ، وكثيراً ما وصفته بأنه « أكبر الأمراء وأعظمهم بعد

(١) الأهرام فى ٢٨ فبراير ١٩١٤
(٢) الأهرام فى ٤ مارس ١٩١٤
(٣) الأهرام فى ٧ مارس ١٩١٤
(٤) الأهرام فى ١٠ مارس ١٩١٤

الخديو »[1]، ومجدته وفصلت نشاطه فى الشئون العامة الأخرى حين ترك رئاسة الشورى وانصرف إلى رياسة الجمعيات المختلفة ، وقد كان من نصيب هذا الأمير أن يحفظ للبيت المالك مكانته السامية حين قبل أن يكون سلطاناً على مصر فى أدق الظروف وأخطرها .

الأهرام وألقاب الشعراء

وقليلون الذين يعرفون أن ألقاب الشعراء فى مصر ، وهم فطاحل الشعر قبيل الحرب العظمى الأولى خلعت عليهم من صحيفة الأهرام ، وهى وإن كانت على صلة طيبة بأحمد شوقى بك فى أواخر القرن الماضى فإنها كانت أشد احتفالا به منذ طلع عليها القرن العشرون ، فقد أعلنت أنه أمير الشعر بمناسبة القصيدة التى قالها عن حج الخديو بعنوان « بهجة الماس فى حجة العباس . لأمير الشعر فى حج أمير النيل »[2]. وإمارة الشعر هذه وإن كان شاعرنا جديراً بها إلا أن هذا الوصف صدر عن الأهرام أول ما صدر، ثم سار فى النفوس والمشاعر ، وأصبح علماً على شاعرنا الكبير . ثم أوضحت الأهرام الصفة وحددت اللقب فذكرت عنه منذ أربعين عاماً أنه « شاعر الأمير وأمير الشعراء »[3]. وهكذا عاش ومات شاعرنا وهو أمير الشعراء . . .

وكانت الأهرام حين تنشر قصيدة أمير الشعراء لا تتركها من غير مقدمة تبين إلى أى مدى احتضنت الشاعر الموهوب ووعت فى الأعماق قوافيه ، فقد قدمت لقصيدته التى يتحدث فيها عن (آية العصر فى سماء مصر) ، وهى القصيدة الخاصة بالطيران ، وكان العهد به حديثاً، قدمت لها بقولها « إذا كان علم فرنسا قد أرانا الطيران فى كبد السماء فإن شاعر الأمير وأمير شعراء العرب يرقى بأنفسنا وأرواحنا إلى ما فوق الأجواء . فبونيه وفدرين[4] يريانا عجباً . وشوقى أمير الشعراء يسمعنا طرباً . وإذا عددنا ذلك الطيران آية العلم الزاهر فإنا نعد اليوم خريدة « شوقينا » آية الشعر والوصف الباهر ، فنحن من ذلك المنظر المبهج فى دهشة العجب ، ونحن من سماع هذا الشعر السماوى فى نشوة الطرب . فلير المصرى وليسمع »[5].

---

(١) الأهرام فى ٣٠ يناير ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ١١ ديسمبر ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٢١ يناير ١٩١٠
(٤) طياران ظهرا لأول مرة فى سماء مصر
(٥) الأهرام فى ٢٢ يناير ١٩١٤

شاعر النيل

ولم يلق شوقى وحده التكريم من صحيفتنا ، ولم يكن وحده مختارها إذا نشرت شعراً ، فإن حافظ إبراهيم وإسماعيل صبرى ومن إليهما كان له مكانه المقدور فى صدرها ، استمع إليها تقدم لحافظ فى إحدى قصائده « هذا نص تلك القصيدة العصماء التى ألقاها نابغة الشعراء حافظ أفندى إبراهيم فى الاحتفال الشائق الذى أقامه بعد ظهر أمس فى دار التمثيل العربى طلبة المدارس العالية . ويرى من تصفح أبياتها أن شاعرنا الكبير كان فيها مؤرخاً مدققاً»[1] . . . إلى آخر أوصاف المدح والثناء . والجدير هنا بالتعليق أن الأهرام نشرت شعراً لعشرات من الشعراء فلم تحتفل بشعر واحد منهم كما احتفلت بشعر أمير الشعراء وشاعر النيل ، وبقيت تحتفل بالشاعرين على مدى الأيام . ولم يقف تكريمها لحافظ عند التقديم والثناء ، بل إنها أقامت سوق عكاظ على نفقتها فى فندق الكونتننتال مساهمة مع سليم سركيس احتفالا برتبة البكوية التى منحها حافظ إبراهيم ، وكان ذلك عملا لا يصدر إلا من صحيفة تقدر الأدب وتعرف للشعراء حقهم فى الوجود[2].

شاعر القطرين

وكذلك نال تكريمها وودها « خليل مطران » ــ ولقد كان كما سبق أحد عمدها ــ فهى منذ أواخر القرن التاسع عشر حفية به على ما فصلنا فى أبواب سابقة ، بيد أنها أدخلته فى زمرة شعراء الجيل الجديرين بالعناية والتنويه حتى إذا منح وساماً أفردت له فصولا من المدح والثناء ، وفصلت حفلات التكريم التى أقيمت له فى الجامعة المصرية برئاسة الأمير محمد على ونشرت صورته فى الصدر منها ، وهو عمل نادر لم يلق نظيره إذا ذاك أحد من الناس[3]. وهى حفاوة أثرت عنها بشكل ما، إذا وقع اختيارها على صداقة أحد من كبار الناس

أدباء فى رحابها

وقد يطول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع الأهرام فى الأربعة عشر عاماً التى قطعتها

(١) الأهرام فى ٢٣ يناير ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى أول يونيه ١٩١٢
(٣) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٩١٣

أول هذا القرن فيمن اختارته من الرجال ، سياسيين أو أدباء أو علماء ، وإنما يكفى أن نذكر أن تحيتها للمنفلوطى ونشاطه الأدبى وتأييد أسلوبه والإعلان عنه(١) قد هيأ للمنفلوطى هذا المجد الأدبى الذى لقيه بعد الثورة المصرية ، وكذلك كان احتفالها بتكريم فتحى زغلول باشا معاوناً على تسجيل فضله وإبراز مؤلفاته ، وقد استغرق وصف حفلة تكريمه ستة أنهر من الأهرام(٢)، ثم سجلت فيها سجلت ذكرى نيل الدكتور طه حسين بك درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، وهو أول دكتور ينال تلك الدرجة من جامعتنا العتيدة، وقد تنبأت للرجل بهذا المجد الذى يعيش فيه ، وهى ترد على خصم للتعليم الجامعى أذاع رأياً يسىء للجامعة التى كانت الأهرام تعتبرها ثمرة كفاحنا الوطنى(٣) . ثم تنشر صفحة كاملة عن « تكريم أديب يرفع شأن الأدب العربى »(٤). وهى تحية لطيفة ممتعة فيها إشادة بذكر واصف بك غالى الذى يعمل على « استخراج جواهر الأدب من كنوز كتب العرب »(٥)، وتدافع عن الدكتور محجوب ثابت وتمدح علمه ووطنيته وتطلب له المزيد من الراتب ، فهو عنوان للمواطنين الذين توضع أمامهم العقبات لحرمانهم من وظائف الدولة ، مع أنه — فى رأيها — من خيرة مدرسى مدرسة الطب لأنه نهج منهج التدريس باللغة العربية فوقع تحت غضب الاحتلال وتبرمه (٦)

ولن نفرغ من ذكر الشخصيات التى أفسحت لها الأهرام صدرها لتكتب فيها أو تكتب هى عنها ، سواء كانت شخصيات عربية كرفيق العظم(٧) أو مصرية كأبى شادى كاتب الافتتاحيات الرائعة(٨) . وقد مضت دائبة على تكريم عظماء الرجال واختيار أصحهم عقلا وروحاً، ومنهم من تصدر حياتنا العلمية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، فكان لعلى الشمسى(٩) ومصطفى رياض باشا مكانة ملحوظة ، وخاصة ، الأخير منهما فقد كانت حفية به فى حياته ناعية له أجمل النعى عند وفاته (١٠)، ذاكرة أفضاله وأياديه على الأدب وأهله والصحافة ورجالها(١١)

---

(١) الأهرام فى ٢٨ مارس ١٩١٢
(٢) الأهرام فى ٢٨ يونيه ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٢٠ يونيه ١٩١٤
(٤) الأهرام فى ٢١ مايو ١٩١٤
(٥) الأهرام فى ٥ يونيه ١٩١٤
(٦) الأهرام فى ١٥ فبراير ١٩١٠
(٧) راجع شهر أكتوبر وما تلاه من أهرام سنة ١٩١٠
(٨) الأهرام فى ٢٠ أبريل ١٩١٠
(٩) الأهرام فى ١٩ نوفمبر ١٩١٣
(١٠) الأهرام فى ١٩ يونيو ١٩١١
(١١) الأهرام فى ٢٨ يونيه ١٩١١

عبد العزيز فهمى

ومن الذين أكبرت شهامتهم ورحبت بتكريمهم ، ومضت تأنس فيه الخير والفضل على مدى الأيام شيخ من شيوخ القضاء والسياسة فى زماننا ، كانت إلى جانبه وهو فى مطالع العمر عضو فى الجمعية التشريعية ، ذلك هو عبد العزيز فهمى باشا الذى فضل كرسيه فى الجمعية التشريعية على وظيفة مستشار فى الاستئناف ، فكان موقفه موضع التأييد والإكبار من صحيفتنا حتى أنها أفردت افتتاحية تحدثت فيها عن المعانى المنطوية على مثل ذلك الموقف « فإذا رأينا اليوم هذا النائب الكريم يرفض منصباً من أسمى المناصب وأرقاها ويؤدى إلى الراحة والاستقلال والمعاش ، إرضاء لمنتخبيه وللرأى العام خبرنا عمله وأعلنا فضله وفضيلته لأنا عطاشى إلى مثل هذه الفضيلة . ولأنا نتحرق إلى أن نسمع مصرياً يقول بملء فيه . تريد منى أمتى أفعل كذا وكذا فأنا قيد إرادتها وطوع مشيئتها »[1]. ثم نشرت فى اليوم التالى مضمون اقتراح أحد النواب بتقديم تذكار إلى عبد العزيز فهمى بك لموقفه هذا[2]. وبقيت على مر الزمن معنية بهذا النائب الوفى لناخبيه ، لم يرد ذكره فى صفحاتها إلا وهو موضع التقدير والعناية سواء كان فى مناصب السياسة أو القضاء .

عزيز المصرى

وتكاد الأهرام تكتب قبيل الحرب العظمى الأولى سيرة كل من نعرف من رجالنا فى جميع نواحى الحياة ، حتى لتستطيع أن تكتب جانباً من تاريخ عزيز المصرى باشا فى حياته الأولى وأنت مطمئن إلى سلامة الرواية حين تعود إليها وهى تروى حادث محاكمته فى الآستانة ، وهى قصة استغرقت من صفحات الأهرام شهوراً متصلة كانت فيها إلى جانب الرجل بما نشرت من مقالات وأخبار واحتجاجات للعرب هنا وهناك[3].

رجال الاقتصاد

وفى تلك الأيام تلتفت الأهرام إلى اقتصادنا وصناعتنا فتشكو من أن « البنوكة وهى دعامة المالية والتجارة والصناعة ليست لنا وأموالها ليست أموالنا ومديروها ليسوا منا ،

(١) الأهرام فى ١٦ أبريل ١٩١٤

(٢) الأهرام فى ١٧ أبريل ١٩١٤

(٣) راجع الأهرام فى ١٢ فبراير ١٩١٤ و ١٤ فبراير ١٩١٤ و ١٧ فبراير ١٩١٤ و ١٨ فبراير ١٩١٤ . و ٧ مارس ١٩١٤ و ١١ مارس ١٩١٤ . و ٢٤ مارس ١٩١٤ . و ٢٧ مارس ١٩١٤ . و ٣٠ مارس ١٩١٤ . و ١٨ أبريل ١٩١٤ و ٢١ أبريل ١٩١٤

فهى إذا أرادت حبست عنا الأموال ، وهى إذا أرادت أوقفت دم الحياة الاقتصادية عن أن يسرى فى شرايين البلاد » فإذا فرغت من بيان خطر وجود ماليتنا فى مصارف أجنبية تحدثت عن الصناعة فى مصر فقالت إنها « ليست صناعتنا حتى أن الصناع ليسوا منا فإذا أوقف الصناع الإفرنج العمل احتجنا فى شؤوننا إلى الإبرة التى تخيط بها الثوب وإلى القلم الذى نسطر به الكلام وإلى الورق الذى تطبع عليه الكتب والرسائل وإلى القطار الذى ينقل البضاعة وإلى الباخرة التى تسير فى الماء »[1].

وتذكر مرة أخرى أنه « إذا كان الاستقلال السياسى أن تتولى الأمة حكم نفسها ، فإن الاستقلال الأكبر والأنفع ، بل الأنفع هو الاستقلال الاقتصادى . وإذا كان الأول يؤدى حينا إلى الثانى فإن الثانى يؤدى دائماً أبداً إلى الأول » . وهى تبين للمواطنين قدر الاستقلال الاقتصادى وخطره « ومصر المنادية بالاستقلال بين أمرين ولا مندوحة لها عن الاستقلالين ، فإذا استقلت سياسياً ولم تستقل مالياً واقتصادياً ظلت فى قبضة الأجانب أو هى ظلت عرضة للسقوط فى قبضتهم »[2].

طلعت حرب

ونحن ننقل فقرات من اتجاهات الأهرام فى هذه النواحى لنربط بين ذلك وبين هذا الصدر المفتوح لطلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى فى القرن العشرين ، فإن طلعت حرب منشئ بنك مصر وشركاته ، لم يستطع إنشاء البنك وملحقاته بعد الثورة المصرية سنة ١٩١٩ إلا بعد كفاح طويل من الدعاية بذله قبيل الحرب العظمى ولقى سخرية العامة ، وقل فى الخاصة من آمن برأيه أو أيد مشروعه ، بل وجد خصوماً سفهوا الفكرة وخوفوا الناس منها ، فكتب طلعت حرب فى مشروعه رسالة ذكرتها الأهرام فى افتتاحيتها وقالت إنها من قلم « المحقق الإدارى الحازم العاقل محمد طلعت بك حرب » متحدثة عن جهاده فى سبيل « بنك الأمة » بأنه يدرس هذا المشروع « ولم ينزل نفسه منزلة المنتدب المأجور بل منزلة العامل لخدمة الأمة تطوعاً واختياراً » .

فهو عند الأهرام حرى بهذه الصفات الأربع التى أثبت الزمن أنه جدير بها ، لذلك ضايقها من البعض موقفهم السيئ من خادم الأمة « تطوعاً واختياراً » ، فذكرت أن الحق يقضى « بأن نشهد له قبل بسط الكلام فى مشروعه ، لأنه لا يفسد على عقلاء هذه الأمة

(١) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ٣١ يناير ١٩١١

أعمالهم الإصلاحية مثل إحاطة تلك الأعمال بالشبه والظنون ورمى أصحابها بما هم براء منه . بل تشويه الأعمال المجيدة الحسنة النافعة أحياناً لغرض تافه ومقصد حقير . ولقد ألفنا النظر إلى الأشخاص لا إلى أعمالهم » . ثم تحدثنا عن فكرة بنك مصر بأنها فكرة قديمة تظهر ثم تختفى ، وهى لا بد محققة على مدى الأيام إذا وجد أمثال طلعت حرب ، هذا ما تلقاه فكرة « بنك مصر » فى القطر المصرى إذا رزقها الله أناساً يروجونها ويجاهدون فى سبيلها » . ويمضى مطمئنة المواطنين إلى أن فكرة طلعت حرب لن تموت « بعد ما سجلت فى تاريخ الأمة وفى سجل حياتها بل يأخذها السلف عن الخلف ويحييها »[1].

وبقى صدر الأهرام مفتوحاً لطلعت حرب كما كان مفتوحاً لغيره من عظماء الرجال تؤازرهم جميعاً وتشد من إزرهم ، حتى بلغ من اختارتهم ، وكشفت عن مستقبلهم وكفايتهم ، مكانتهم من حياة هذه الأمة ، فكانوا فيها ساسة الجيل وأدباءه وأعلامه فى كل علم وفن ، ولولا الحرب الكبرى الأولى لصدق حدس الأهرام وبرزوا فوراً ، ولكنها الحرب ، وقفت كل نشاط وأجلت بروز المزايا التى اكتشفتها صحيفتنا فى كثير من رجالنا الأفذاذ .

(١) الأهرام فى ١٤ يونيو ١٩١٣

الاعلانات

المراسلات يجب ان تعنون باسم ادارة جريدة الاهرام لا باسم احد

AL-AHRAM

EGYPTIAN DAILY PAPER ESTABLISHED 1875

اول صور من نوعها تنشر في مصر



حفلة المفوضية المصرية في لندن

الدكتور محجوب ثابت في تريستا



أول صور من نوعها تنشر فى مصر

الأهرام فى سياسة الشرق الاسلامى

لمصـــر أم لبـــلاد الشرق تنتسب هنـــا العلى وهناك الفضل والحسب

« حافظ »

لم تكن الأهرام فى يوم من الأيام صحيفة محلية ، وحتى فى سنتها الأولى والمال يعوزها . كان صاحبها بشارة تقلا يستعين بالصحف الأجنبية وينقل عنها الأخبار والمقالات وينشرها فى الأهرام يوم كانت أسبوعية فى مدينة الإسكندرية ، فكان قارئها يطوف بالعالم فى صفحاتها الأربع كما يطوف به اليوم فى صفحاتها الكثيرة ، ولكن معظم ما نقلته الأهرام القديمة عن الصحف كان يتصل بأخبار تركيا وأخبار البلاد التى على صلة بها ، حسنة كانت تلك الصلة أم سيئة .

ثم تمضى الأيام والأهرام كما شاهدنا فى فصول سابقة تتجدد، باذلة أقصى ما تملك من جهد ومال لتبقى دائماً فى الطليعة وعلى رأس الصحف المعاصرة ، فرويتر وهافاس يقدمان لها كثيراً من الأخبار ، فإذا استقرت فى القاهرة كان لها مكاتبون يبعثون إليها بالرسائل من هنا وهناك ، وقد زاد نشاطهم أثناء الحرب الروسية اليابانية فى سنة ١٩٠٤[1] وكان مراسلها فى الآستانة أنشط المراسلين خاصة ، ذلك لأن الأهرام عنيت بأخبار تركيا وسياستها وأخبار ولاياتها العربية فى كل مكان عناية لم تحظ بها دولة من الدول ، ولا غرو فإن الأهرام منذ نشأتها حتى قبيل الحرب العظمى الأولى وهى لسان من ألسنة الدولة العثمانية ، ولهذه الدولة عند الأهرام مكانة تلى مكانة مصر مباشرة ، وإن لم تخل صفحاتها من نقد خفيف لبعض الحوادث التركية أو الأشخاص الأتراك .

الحرب التركية الإيطالية

وتستطيع أن تعود إلى الأهرام فى أواخر سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩٠٩ وتؤرخ عنها لمجلس

(١) راجع الأهرام فى شهرى مارس وأبريل ١٩٠٤

المبعوثان والنشاط الدستورى فى تركيا ، ونحن واثقون بصدق الرواية ودقة التفاصيل، وإن افتتاحيات صحيفتنا فى هذا الميدان لتعتبر بحق سجلاً له، لما انطوت عليه من أخبار وآراء ، ثم تشغل الأهرام صفحاتها شهوراً بالحرب التى قامت بين إيطاليا والباب العالى فى سبيل طرابلس[1] وهى تتحدث عن موضوع طرابلس ، مؤيدة موقف تركيا تأييداً لا قيود فيه ولا حدود ، وقد زخرت بعناوين ضخمة عن تلك الحرب ، فمرة تذكر « تهجم إيطاليا على طرابلس الغرب » ، ومرة تسمى حرب الإيطاليين « الحملة الشريرة الطليانية على طرابلس الغرب »[2]. ولم يمض يوم واحد فى مدى أربعة أشهر لم تخل الأهرام من مثل تلك العناوين وما جاء تحتها من قارص القول وقاسى التعبير .

وقد تأثر تحرير الأهرام تأثراً شديداً نتيجة العناية الفائقة التى وجهتها نحو الحرب الإيطالية التركية على صفحاتها ، فقد امتلأت تلك الصفحات بالبيانات والمقالات والتبرعات وأسماء المتبرعين، وطغت أخبار الحرب على كثير من الموضوعات التى عودتنا الأهرام أن تطالعنا بها فى كل يوم ، كما كان لها أثر أيضاً فى توزيع الأهرام وشكلها ، فإن إقبال الناس على صحيفتنا وتشوقهم إلى مطالعة الأخبار زاد عدد النسخ المطبوعة ثلاثة أضعاف[3] .

وتأثرت الأهرام أيضاً بحرب الإيطاليين ومعاركهم فى طرابلس الغرب ، فلم يقف نشاطها الإخبارى عند الرسائل البريدية أو برقيات رويتر وهافاس تروى أنباء الحرب ووقائعها وتفصل لقرائها ما يقع فيها من خلال تلك الرسائل والبرقيات بل ندبت لذلك مراسلاً خاصاً كان اسمه فى أول الأمر (جليل) بقى قريباً إلى الميادين يشهد مواقع النزال عن كثب ، ويتجسس الأخبار من مصادرها الأصيلة ، ويبعث بذلك كله برقيات خاصة لجريدة الأهرام التى أفردت لها مكاناً ظاهراً من صفحاتها[4]. ثم عينت ثانياً يكون معاوناً للأول اسمه (صالح) أخذ يبعث ببرقياته الخاصة من برقة وحدود طرابلس[5]. هذا إلى جانب الافتتاحيات الممتعة التى عالجت فيها الحرب ، وناقشت فيها بعنف سياسة الإيطاليين[6]. وكان ضرب الأسطول الايطالى للدردنيل مصدر حماس للجريدة فبقيت تتحدث فيه شهراً كاملا بلا ملل[7]. وبنفس العناية التى ظهرت منها فى حرب

(١) راجع الأهرام أواخر سنة ١٩١١
(٢) الأهرام فى ٣ أكتوبر ١٩١١
(٣) الأهرام فى ٢٢ أكتوبر ١٩١١
(٤) راجع الأهرام ابتداء من شهر أكتوبر ١٩١١
(٥) راجع الأهرام ابتداء من شهر ديسمبر ١٩١١
(٦) راجع الأهرام فى سنة ١٩١٢
(٧) راجع الأهرام فى شهر أبريل ١٩١٢

طرابلس الغرب ، بذلت الأهرام ما ينبغي عليها كصحيفة رأى وفكرة فى حرب البلقان ، فكانت فيها دراسات ممتعة عن هذا الموضوع تعتبر بحق مصدراً من مصادر التاريخ الحديث (١). ثم زادت فى فنونها الصحفية فرأينا لأول مرة وصفاً للحرب فى البلقان مدعماً بالرسوم التى تعين القارئ على فهم مواقع النضال(٢).

سياسة الباب العالى

ولم تمنع الحروب التى قامت بين تركيا وخصومها صحيفتنا من النظر فى حياة البلاد الإسلامية الأخرى كإيران ، وما كان فيها من نضال بين الشاه وشعبه المكافح من أجل الدستور ، أو كاليمن والجزيرة ، وما كان فى الشآم من متاعب يلقاها العرب من حكامهم الأتراك ، فتلك العناية بالشرق الإسلامى لا تحتاج إلى بيان ، فإنها كانت أصلا من أصول أعمال الأهرام ، والإشارة إليها هنا من باب التسجيل ليس غير .

وكانت تركيا وسياسة الباب العالى نحو الأتراك أو العرب أهم ما عنيت به الأهرام فى مطالع القرن الحالى ، وكانت الحركة الدستورية التركية شغل الصحيفة الشاغل ، فهى تحدثنا — على ما ذكرنا من قبل — فى الشؤون الدستورية وتروى أخبار اجتماعات مجلس المبعوثان ومواقف النواب وخلافاتهم وقلة المنازعات بين ممثلى ولايات السلطنة من كرد وأعراب ، وتدلى فى ذلك كله برأى ، وتميل إلى حزب دون حزب ، أى تميل إلى الحزب الدستورى هناك ، فإذا اضطربت الحالة السياسية فى تركيا وأذاعوا نبأ تأجيل مجلس المبعوثان (٣) خشيت أن تتأثر الحياة الدستورية التركية فيتأثر الكفاح من أجل الدستور فى مصر نتيجة لذلك ، ثم أخذت تروى نبأ الخلاف الدستورى ، فتحدثت عن اطمئنانها إلى عدم عودة الاستبداد لأن الأمة — والأمة هنا هى الأمة التركية التى يدين لها المصريون بالتبعية والولاء — تشربت روح الدستور ، وإنه ليس من قوة تستطيع أن تردها عن حبها للدستور وتعلقها به بعد أن تذوقت حلاوة العيش فى ظله ، وعقبت على ما قيل من أن السلطان سيحل المجلس ، فذكرت أنه حق من حقوقه ، وأنه لا بأس من استفتاء جديد بعد أن تغيرت الظروف التى كون فيها مجلس المبعوثان ، إذ أننا فى حرب مع الطليان ، ولا بد أن يؤخذ رأى الأمة فيما استجد من نكبات ، إلا أنها حرصاً على

(١) راجع الأهرام أواخر سنة ١٩١٢
(٢) الأهرام فى ٣١ أكتوبر ١٩١٢
(٣) الأهرام فى ١٩ يناير ١٩١٢

روح الدستور ومحافظة عـلى تعاليمه طالبت بحرية الانتخابات والبعد بها عن الوعيد والارهاب [1].

وكانت الأهرام فى سياستها منذ صدرت فى سنة ١٨٧٦ إلى ما قبل الحرب العظمى بسنوات قليلة شديدة الإعجاب بالمثل العثمانية ، مؤمنة إيماناً لا شك فيه بالدولة وسلطانها ، ولم تعلق قط بعنف إذا نقدت شخصاً تركياً أو فكرة عثمانية ، بيد أن العلاقات بين العرب والأتراك بدأت تسوء بفعل السياسة الخرقاء الصادرة عن قصر يلدز بالآستانة ، فإن بعض المسيطرين على شؤون السلطنة رأوا إهمال اللغة العربية والحضارة الإسلامية وأساءوا قاصدين متعمدين إلى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الولايات العثمانية ، هذا بجانب إهمال حكومات السلطان للقضية المصرية والانصراف عنها مما أساء إلى مركز تلك القضية فى المحيطين المحلى والدولى .

رأيها فى السياسة العثمانية

لذلك بدأت الأهرام قبيل الحرب العظمى بسنتين تغير رأيها فى « حكومتنا » العثمانية كما كان يعتبرها المصريون والعرب فى جميع الولايات الأخرى ، وأفسحت صحيفتنا صدرها للناقدين من أقرب الناس إليها ، فنشرت افتتاحية عميقة للدكتور شبلى شميل تحدث فيها عن « حكومتنا » وبين فعالها السيئة فى البلاد العربية « كسوريا والعراق وما بين النهرين » حاملا على تصرف الولاة الذين يسندهم ضيق العقل وفساد الحكم القائم فى الآستانة « فأين ذهب سكان هذه الجهات العامرة فى القديم ، وكيف تحولت سهولها الخصيبة إلى قفار قاحلة ، ومدنها العامرة إلى خرائب ينعق فيها البوم . وأين ذهبت مدينة بغداد نفسها التى كانت على عهد العباسيين باريس الشرق حتى لم يبق اليوم من آثار هذه المدينة العظمى شىء يدل عليها مع أن آثار العرب فى أسبانيا لا تزال محفوظة برونقها حتى اليوم ، وهذا من المعجزات فى تاريخ الآثار فى الأدهار » . وإن الكاتب ليعيب على تركيا أن تؤول ولاياتها إلى تلك الحال السيئة بسياستها الخرقاء قائلا « إن تقرير ذلك شىء محزن . والذى يحزن أكثر أنك تجد منا حتى اليوم أناساً ينكرون عليك أن تكتب مثل هذا التاريخ بمثل هذه اللهجة ولا يخجلون أن يتغنوا بعصر الخراب هذا ويصفونه بالأوصاف الحميدة كأنهم يتمنون دوامه » [2] .

---

(١) الأهرام فى ٢٢ يناير ١٩١٢

(٢) الأهرام فى ١٧ ديسمبر ١٩١٢

وإذن نحن فى عصر خراب لا ينبغى أن نتمنى دوامه ، ولم تكن هذه روح الأهرام من قبل ، بيد أنها لا تقر الظلم والاستبداد وما يترتب عليهما مهما تكن مؤمنة بالدولة والحرص على الصلة بها ، فتمضى ناشرة (رأى وطنى فى سياسة السلطنة) . هو محمود نصير بك من عيون المنصورة بدأها بالبيتين المشهورين :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

ثم يمضى ناقداً سياسة العثمانيين معدداً فى أسلوب مهذب فضائحهم فى سياسة البلاد العربية «يا أخى التركى لم تخرب بلادى وتنضب أنهارى ويحل الخراب بدل العمار بها ، وهذه بغداد وحلب وسوريا وجميع جزيرة العرب شاهدة على ما أقول ، لِمَ تحارب لغتى التى هى لغة القرآن الشريف . لِمَ لا تعمل على استتباب الأمن ببلادى حتى لا يظلم قوى ضعيفاً بل تتركنى أناطح أخى» . ثم يستطرد موجها كلامه إلى المواطن التركى «ولو أنك ساعدت على نشر لغتى لانتشر العلم فى أرجاء بلادى ، ولو أنك ساعدت على استتباب الأمن بها لما كان نقص عددى عشرات الملايين ، ولو أنك ساعدت على تعمير بلادى لما كانت نضبت أنهارها ولكانت جنة تجرى من تحتها الأنهار ولبلغت واردات دولتك منها أضعاف وارداتها الآن إن لم تكن أكثر ، وكانت كثرة تلك الواردات قد جعلتك تنشئ معامل المدافع والسلاح» . ويمضى الكاتب ينشر المقالات المتتابعة فى هذا الموضوع فى صراحة وقوة ودراسة ، مخاطباً دولتلو كامل باشا «كبير الأتراك وموجه سياستهم» «وهذه يا مولاى كلمات إن ذهبت اليوم مع الريح تذهب غداً بالأوتاد ، فتدارك أيها الشيخ الكريم بحكمتك هذه الأحوال . . . »(1).

وهكذا أفسحت الأهرام صدرها لنقد سياسة الدولة العثمانية فى هذه الأساليب الواضحة الصريحة ، ولم تقف عند هذا الحد من النقد الذى ينشره الكتاب من الخارج ، بل زخرت افتتاحياتها بمقالات صادرة عنها فى غضون سنة ١٩١٣ تطلب فيها احترام لغة العرب وعاداتهم وتقاليدهم منذرة بانهيار الإمبراطورية العثمانية فى الشرق العربى الذى لم يعد يحتمل غطرسة الترك وسوء تدبيرهم .

مغالطة وافتراء

ومن أمتع المقالات التى توضح سياسة الأهرام الجديدة فى معالجة العلاقات العربية

(1) الأهرام فى ٢٤ ديسمبر ١٩١٢

التركية مقال طويل تصدر صفحتها الأولى بعنوان (مغالطة وافتراء) هاجمت فيه صحافة الآستانة التي دأبت على التفريق بين رعايا الدولة والدولة نفسها ، مبينة أن تفكير العرب واجتماعهم في باريز لإعلان الدول الأجنبية بأنهم سيحاربون أي احتلال يقع على ولايات الدولة العثمانية التي « لاتستطيع الدفاع عنهم » ، هو في الواقع تفكير موال واتجاه مخلص يريد أن يبقى في دائرة الأتراك ودولتهم بشرط أن تعنى بأمرهم ، ثم تخاطب « رصفاءنا في الآستانة » الذين لا يدرون الهاوية التي يحفرونها بأقلامهم بين الحكومة ورعاياها « فهل هم يعطون الأجرة عن عملهم حتى ينفروا الرعية من الحكومة؟؟ وهل يمكن أن يكون للحكومة عدو أشد وألد ممن يكرهها بالرعية ويكره الرعية بها . وكيف تحب رعية حكومة يقول الكاتب باسمها . إن الحكومة ستسحقكم لأنكم تطلبون الاصلاح . إنا والله تأخذنا الحيرة ويتولانا الدهش كلما طالعنا كتابات رصفائنا في الآستانة وكلما سمعناهم يهددون ويتوعدون بالمدفع والبندقية والرصاص والنار ، الكرد والأرمن والعرب والترك الذين يطلبون الإصلاح »[1].

خطر الصهيونية ونبوءة الأهرام

وإذن فللأهرام رأى في سياسة الدولة العثمانية ، كما كان لها رأى في سياسة الشرق الإسلامي كله ، ولعل من أمتع الموضوعات التي عالجتها في حال الشرق الأدنى ، موضوع شديد الخطر ، بلغ من قدره وخطره في البلاد العربية أنه يشغل بالها ويؤرق حياتها منذ قريب ، ذلك هو موضوع الصهيونية والصهيونيين ، وعلى صفحات الأهرام قرأنا نبذاً عن الصهيونية في أواخر القرن الماضي لم نجد من المناسب ذكرها إذ ذاك ، لأنها في الواقع أخبار عن نشأتها ، فيها اقتضاب ملحوظ

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى

أما في القرن العشرين ، ومنذ سنة ١٩٠٠ والأهرام تعرض خطورة الصهيونية في فلسطين حتى كرهها بعض غلاة اليهود الذين كانوا يعملون للمذهب الجديد دون اعتبار للوطن الذي يظلهم ، وقيل إنهم هاجموا الأهرام في دارها وهتفوا بسقوطها في الشوارع والميادين ، مع أن الأهرام كرهت المذهب فقط ولم تسئ ليهودي في دولة العثمانيين فقد حدثتنا عن (الصهيونيين) حديثاً ممتعاً في سنة ١٩٠٠ ألمت فيه بنشأة الصهيونية وكفاحها من أجل فلسطين[2] ، وذكرت أنهم « يبحثون عن وطن لهم » مؤيدة أقوالها بالنقل عن الصحف

(١) الأهرام في ٢ مايو ١٩١٣
(٢) الأهرام في ١٩ ديسمبر ١٩٠٠

الأوربية وفيها كثير من أخبارهم ومؤتمرهم المزعوم ، قائلة فى ختام مقالها « هذا ملخص أعمال الصهيونيين وسواء مالوا إلى فلسطين أو إلى ما بين النهرين فإن أبصارهم متجهة إلى شطر من البلاد العثمانية . وهذا ما أردنا إلفات النظر إليه . وعلى أولياء الأمر أن يتعظوا ويتنبهوا لهذه الحركة »(١).

وترد على الأهرام « سكرتيرة جاك هرنستين » من غلاة الصهيونيين شارحة لقرائها عدالة القضية الصهيونية التى يعتبر تأييدها « دفاعاً عن الإنسانية » مؤكدة أنها حركة سلمية إنشائية(٢)، غير أن يهودياً مصرياً يعمل فى وظائف التدريس لا يعجبه كلام الصهيونية سكرتيرة جاك هرنستين ، فكتب إلى الأهرام يحبذ موقفها ويشد من إزرها فى مكافحة الصهيونيين « كيف لا والأهرام بعملها هذا قد أثارت الأفكار بقوة المعاضلة والمناضلة وتأثير الاحتكاك الفكرى ولولاها لثارت ثائرة الإسرائيليين عن بكرة أبيهم مطالبين بهذا الإرث الشرعى لأنهم شديدو الرغبة فى الحصول عليه بأى وسيلة كانت حتى ولو بطريقة الإيجار الزمنى (تمسكن حتى تتمكن) يقولون فى عرض كلامهم إنهم رجال جد ونشاط وزراعة وفلاحة ، وينكرون أنهم رجال دهاء وحيل وخداع ، ومن ينكر عليهم أنهم يبنون عملا بوصية الدكتور هرتيزل المطبوعة على ألواح قلوبهم بألا يؤلفوا قوماً شديدى البأس قوىِ الضلع ظاهراً ، بل يكون بكل تستر وحذر لكيلا يؤخذوا على غرة منهم من الممالك الأوروباوية وخصوصاً الدولة العثمانية التى برهنت كثيراً من المرات أن لها شديد الرغبة فى سكنهم أرضها إلا فلسطين لأنها رأت منهم ميلا كبيراً إلى إيجاد مستعمرة ضليعة المراس قوية الأساس يخشى منها على التوازن الدولى وما ذلك إلا من كثرة الإلحاح المتواصل باستعمار فلسطين دون غيرها »(٣).

هذا رأى يهودى مصرى فى الحركة الصهيونية التى أثبت الزمن أنها خطر على التوازن الدولى ، وبمثل هذه المقالات التى كتبها اليهود عن حركة المتطرفين منهم صورت الأهرام قصة الصهيونية فى فلسطين وخطرها على الدولة وولاياتها الكثار ، وذلك بمناسبة النشاط البادى من زعمائها فى أوربا وأمريكا ، ثم عرضت على مطالعيها رسالة إليها من فلسطين يتحدث فيها كاتبها عن الحيل التى اتبعها الصهيونيون فى الحصول على الأرض فى قضاءى صفد وطبريا « وذلك برشوة الحكام السابقين الذين كانوا يزجون الفلاح المسكين فى أعماق

(١) الأهرام فى ٩ يونيه ١٩٠٩

(٢) الأهرام فى ٩ يوليه ١٩٠٩

(٣) الأهرام فى ١٠ يوليه سنة ١٩٠٩

السجون ليجبروه على ختم صك التخلي ؟ » . أو يضطر هذا الفلاح إزاء الضرائب الثقيلة التي تقعده عن الحياة إلى بيع أراضيه أو جزء من أراضيه حتى يسد مطالب الحكومة الظالمة التي لا تفرغ لها مطالب .

بيع الأراضي للصهيونيين

ثم يحمل الكاتب على فكرة بيع أراضي عبد الحميد « أي الأراضي الواقعة في الغور من بحيرة طبريا إلى بحر لوط (البحر الميت) » إلى الصهيونيين بحجة أنها أراض اغتصبت أيام عبد الحميد قسراً وظلماً من أصحابها الفلاحين ، وأنه لا ينبغي أن تباع إلا للفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين لا « للأجنبي المتعثمن » . ويختم صاحب الرسالة رسالته بقوله « فبلسان العثمانيين عموماً والفلسطينيين خصوصاً نسأل أولياء الأمر أن يفكروا ملياً بهذا الأمر ويتخذوا الذرائع اللازمة ليصونوا مصلحة الفلاح المسكين ويدرأوا مطامع الطامعين في أرضه وأزراعه » فإن هؤلاء الطامعين « متى تملكوا الأراضي تصبح أزمة الأعمال بيدهم ومتى قبضوا على القوة تعود إليهم أحلامهم السابقة لإنشاء حكومة مستقلة ، ولسنا نطرح القول ونقول ذلك من باب الحدس والتخمين ، فإن لنا في الماضي أحسن عبرة للمستقبل » . إذ أنه ما كادت « ترسخ قدم الصهيونيين في البلاد ويأنسون من أنفسهم قوة حتى طردوا الأهالي وأصبحت المستعمرات أشبه بولايات مستقلة غير خاضعة لقوانين الدوله ولا لنظاماتها ، تارة بدعوى أنهم أجانب وتارة بمجرد الاستبداد حتى نفرت الحكومة والأهالي من غطرستهم وعجرفتهم وهضمهم لحقوق البلاد النازلين فيها »[1].

ما أشبه الليلة بالبارحة

ما أشبه الليلة بالبارحة ! لقد رأينا نحن أبناء الجيل الحاضر ما ذهب إليه الكاتب في تصوير الموقف منذ واحد وأربعين عاماً ، ولكن الأهرام التي شغلت الرأي العام في مصر وبلاد الدولة العثمانية بقضية الصهيونية تتلقى مقالا من يهودي مصري آخر هو جاك ليني طنطاوي يحمل فيه على اليهودي المدرس قائلا « وجاوزت على قلة آدابك لرميك الشعب الموسوي بالدهاء والحيل والخداع (ما عليش) » . ثم يمضي في حملته على المدرس صاحب المقال غير متورع عن نقد الأهرام بعنف ، حتى أنها علقت على كلامه الذي تأبى الصحف عادة نشره إلا عملا بحرية النشر « عجباً لهؤلاء القراء الذين لا يذكرون ما يقرأون ،

(١) الأهرام في ١٢ يوليه ١٩٠٩

فأين رأى حضرته عداوتنا للأمة الأسرائيلية الكريمة ؟ وأين رأى طعننا عليها ؟؟ ألأنا قلنا إن حشر ٦ ملايين نفس فى أرض يعدونها ملك أجدادهم وأنقاض ملكهم لا يوافق ؟ » . مع أن الأهرام رحبت بهم فى جميع أراضى الدولة العثمانية بشرط ألا يقصر إقبالهم على فلسطين ، وقد وعدت بالرجوع إلى بحث الموضوع « تاركين للكتاب الرد علينا ولو بالتحامل والطعن لأنا طلاب حقائق والسلام »(١).

ثم يكتب إسرائيلى مسفها حماسة جاك ليفى طنطاوى فى استعمار فلسطين ، فهى فى رأيه « بلاد عزيزة المأخذ منيعة المطلب لا ينالها إلا كل جبار عنيد كأنها من كبير المشاكل السياسية والآثار التاريخية لأنها محط رجال الأولياء والأنبياء » ، وهو يتحدث عن اليهود وقدرتهم التى تقصر عن الوصول إلى فلسطين بالقوة « ونحن كما تعلمون لا حول لنا ولا طول فى المدافعة إلا لساننا ودرهمنا وشغلنا . وهذا بخلاف ما يلزم لأخذ فلسطين . فالأصوب التروى قليلا وإعمال الفكرة جيداً فى البحث عن أى أرض نستعمرها ولم شعث أبناء الطائفة الإسرائيلية فيها ونحتمى بالراية العثمانية الشريفة الأصل والأقرب إلى التساهل وإلا فما لنا وهذه المكابرة والمغالطة ، فكم من بلاد خالية من السكان وفيها من الأراضى الواسعة ما يفوق الوصف » . ثم يختم الكاتب اليهودى مقاله بأنه إذا وجد لزوماً للكتابة عاد إليها « وما لنا إلا جريدة الأهرام التى هى أوسع صدراً وأقرب صوتاً وأسرع وعداً »(٢).

وضاق الصهاينة ذرعاً بما نشرت الأهرام من مقالات صادرة عنها أو بأقلام البعض ، وكتب أحدهم خطاباً مفتوحاً إلى صحيفتنا يدافع عن الصهيونية ويعاتب الأهرام فى شدة ويسخر حين يشكرها « والشكر واجب لأنكم أول من بوق فى الشرق بالتخوف والتحذير من نهضتنا هذه ومسعانا المعلوم ، وأجهد النفس وأتعب القلم فى حل عزائمنا وتحويل عواطف أولى النفوذ والصولة عن نجدة إخواننا وشركائنا فى الحيف والقطيعة » . ويناقش الأهرام « فى البحث الذى فتحتم مصراعيه وطرقتموه قبل سواكم » وإن كان الرجل قليل الثقة فى اقتناع صاحب الجريدة برأيه « فإنكم أعلنتم أن مبدأكم الأول لن تتحولوا عنه أبداً » . ويمضى الكاتب مستصرخاً عطف الأهرام راجيا مودتها(٣).

---

(١) الأهرام فى ١٣ يوليه ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ١٤ يوليه ١٩٠٩
(٣) الأهرام فى ٢٠ يوليه ١٩٠٩

متابعتها الحملة على الصهيونية

ولم تتحول الأهرام قط عن مبدئها الأول الذى أشار إليه الصهيونى فى كتابه المفتوح ، وإن سمحت – عملا بحرية النشر – لأنصار الصهيونية بإبداء ما يعن لهم من آراء[1]. غير أنها فى الوقت نفسه نشرت بحوث خصومهم الذين سفهوا رأى الداعين إلى إنشاء ناد وجريدة وجمعية للطائفة الإسرائيلية فى مصر[2]. أو عالجوا مؤتمرات الصهيونيين فى مقالات متتالية[3]، كما نشرت هى افتتاحية طيبة بمناسبة انعقاد « المؤتمر الصهيونى » فى ألمانيا ، مفصلة ماهية الحركة الصهيونية والغايات التى ترمى إليها وعلى رأسها استعمار البلاد الفلسطينية ، وتكوين دولة لهم ذات سيادة تمتد حدودها من دولة مصر إلى حدود الفرات ، وهى تبصر المسئولين بذلك كله لعلهم يتنبهون[4]. ثم تعنى بتطور الأفكار فى تركيا نحو الصهيونية وخطرها وتبرز قول الصدر الأعظم فى مجلس المبعوثان بأنهم « عصابة » خطيرة و « نصابون عالميون »[5] . وقد كان لمقالات الأهرام صدى فى صحف تركيا ، فشرح الصحفيون هناك لمواطنيهم الفكرة الصهيونية ، وقامت حملة على الاتحاديين لأنهم استوزروا صهيونيين[6]

ولم تتوان الأهرام عن التحدث فى خطر الصهيونية حديثاً متصلا حتى كادت توقظ المسئولين فى الآستانة وتقضى على ذلك الخطر فى مدرجه لولا قيام الحرب العظمى الأولى ، ولها فى ذلك بحوث نشرت فى مقالات متتالية من قلمها أو من قلم بعض الكتاب الآخرين[7] الذين جعلوا ديدنهم تتبع حركات الإسرائيليين فى فلسطين[8]، وفى ذلك نشر أحدهم مقالا بعنوان (فلسطين تستغيث بعقلائنا) حمل فيه الكاتب حملة شعواء على يهودى فلسطين ، مبيناً ومكرراً ما نشرته الأهرام من أن حركة اليهود تلك تعضد الاستقلال عن الدولة لا الاستسلام لرايتها ، متمثلا بقول الدكتور شبلى شميل الذى بين للملأ « أن الصهيونية ليست حركة غايتها إحياء الآداب اليهودية أو انتشال أهالى فلسطين من فقرهم أو حب اليهود للاستظلال بالعلم العثمانى إلى آخر ما هنالك من التمويهات التى لا تنطلى على عاقل ،

---

(١) الأهرام فى ٦ أغسطس ١٩٠٩

(٢) الأهرام فى ٢٢ يوليه ١٩٠٩

(٣) الأهرام فى ٣٠ يوليه ١٩٠٩

(٤) الأهرام فى ٧ يناير ١٩١٠

(٥) الأهرام فى ١١ مارس ١٩١١

(٦) راجع الأهرام فى شهر فبراير ١٩١٣

(٧) الأهرام فى ٩ أبريل ١٩١٤

(٨) الأهرام فى ١٠ أبريل ١٩١٤

إنما هى حركة اقتصادية بل حرب اجتماعية شهرها علينا الصهيونيون فاحتلوا فلسطين ليستثمروها وينتفعوا بخيراتها . احتلوا تلك البلاد بعد أن ضايقوا سكانها فيها » . ولكن الأهرام مع تقديرها لما كتب فى هذا الباب قد ملت الكلام وعلقت على مقال الكاتب مطالبة بالتفكير فى علاج عملى دون الاعتماد على الخيال والعاطفة[1].

ثم أخذت مقالات الأهرام وأصدقائها من كبار الكتاب تتجه اتجاهاً عملياً فى القضية الفلسطينية ، وأخذ المنادون يرجون البحث فى إجراء عملى ينقذ الأرض المقدسة من براثن الصهيونية التى تريد أن تحتفظ ليهود فلسطين بطابع خاص وجنسية مستقلة[2]. وفى ذلك كتب الدكتور شبلى شميل افتتاحية الأهرام بعنوان (الصهيونية وخصومها) مبيناً فيها أن الحديث عن فلسطين والصهيونيين فيها قد بقى كلاماً فى كلام ، فالعرب لا يصلحون أرضهم أو يقومون بخدمتها ، ولكنهم يستنجدون ويستصرخون إخوانهم ولا يعالجون موقفهم هم بالعمل من أجل بلادهم وأرضهم حتى هيأوا الفرصة لأهل الاجتهاد من اليهود المشردين « فبدلا من الصيحة فى وجه الصهيونيين والشكوى منهم » يطلب من مواطنيه العرب أن يعملوا « والعمل لا يحتاج إلى عويل كثير وصراخ مروع » . وهو يريد من الذين يغارون على « مصلحة أنفسهم ويعرفون أن يطلبوها من وراء المصلحة العامة أن يقوموا ويدعوا أبناء جلدتهم ومواطنيهم وغيرهم من الذين ينون الفوارق بين الناس على صفات خاصة إلى تأليف نقابات وجمعيات تعاون وما شاكل من المشروعات الموضوعة ذات الأسماء المتباينة والغايات المشتركة . ويناظروا الذين يخشون بأسهم على أنفسهم لا على الأرض الصالحة بهم بنفس السلاح الذى يخشونه منهم حتى تكون النتيجة الحسنة واحدة فى الحالين وهى إصلاح الأرض لتوطيد قدمهم فيها بالإحسان إليها لئلا تذهب صيحتهم كالصرخة فى واد »[3]

وهكذا مضت الأهرام تعالج قضية الصهيونية وهى من أخطر المشاكل التى عرضت للشرق الإسلامى ، ولعلها لاتزال أخطرها على ما رأى جيلنا وشاهد من الحوادث المؤلمة والأحداث الجسيمة ، ولو تنبه الرأى العام إلى خطرها يوم أنذرته الأهرام لقضى على هذه الحركة فى المهد ، ولكان الشرق اليوم فى مأمن من شرها .

---

(١) الأهرام فى ١٢ مايو ١٩١٤
(٢) الأهرام فى أول يونيو ١٩١٤
(٣) الأهرام فى ٣ يونيو ١٩١٤

بين الإدارة والتحرير

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

« لشاعر عربى »

فى مطلع القرن العشرين وفى الخامس عشر من شهر يونيو سنة ١٩٠١ مضى لسبيله المرحوم بشاره تقلا صاحب الأهرام بعد كفاح مجيد فى سبيل مصر والأهرام وما صدر عن دارها من صحف ومجلات ، مات صاحب الأهرام الذى ترجمنا له فى غير هذا الموضع وترك صحيفته الأولى كما تقول جريدة المؤيد ، « ثابتة بين زلازل الحوادث فى ربع قرن ثبات تلك الأهرام الشامخة أربعين قرناً »[1].

وترك بشارة الأهرام فى رعاية سيدة عرفت بسعة الفضل ورجاحة العقل هى زوجه ، وابن حدث تبدو عليه سيماء النجابة هو « جبرائيل تقلا » الذى ستحقق الأيام أمل والديه فيه ، فيصبح أقدر صحفيى الجيل ويشب بالأهرام إلى الذروة ، وترك تقلا إلى جانب الأم والحدث نخبة منتقاة من خيرة المحررين وصفوة الأدباء وفى مقدمتهم خليل مطران وداود بركات .

وقد كانت عقيلة بشارة تقلا محور الدائرة فى الأهرام ، تعهدتها بالعمل المتواصل فتقدمت على يديها إلى أن صارت فى طليعة صحف الشرق وعنواناً للنهضة العربية[2] وظلت ترعى ابنها الشاب وترشده إلى أن اشتد ساعده وظهر نبوغه .

وقد أرّخ لذلك داود بركات بمناسبة بدء السنة الثالثة والثلاثين من عمر الأهرام فقال « نفتتح عامنا الثالث والثلاثين والبشر ملء الفؤاد إذ نرى صاحب الأهرام « جبرائيل تقلا » خليفة مؤسس هذه الجريدة باسطاً يده للقبض على أزمة ذلك التراث الطيب ، وقد استغل لخدمته العلوم التى تلقاها على أفضل الأساتذة والتعاليم التى استقاها من السلف ورضعها مع اللبن وجعلها نصب عينيه يسترشد بها فى طريقه » . . .

(١) فيلب دى طرازى — تاريخ الصحافة العربية ج ٣ ص ٥٠
(٢) راجع الأهرام فى ٢٨ أغسطس ١٩٢٤

(ص ٤٠٥) ثم يتحدث داود عن فضل الوالدة ويتمنى من تلك السيدة النبيلة – التى تولت العمل منفردة عشر سنوات – « أن تظل على ذلك للإرشاد وتقويم الخطى »[١] وقد شهد رجال الرأى من المعاصرين أن تلك السيدة احتملت المسئولية فى أدق الظروف وأقساها ، وأنها قادت السفينة وسط أنواء من المنافسة المشروعة وغير المشروعة ، واستطاعت بحذقها ولباقتها أن تسلم الربان الجديد وهو ابنها جبرائيل تقلا عجلة القيادة متنحية عن كثير من المتاعب التى تجشمتها من قبل ، مستعدة لبذل النصح وإعطاء الرأى وإعمال الفكرة إذا دعت الحاجة ، ويقول المعاصرون أيضاً إنها كانت تقضى اليوم كله فى جريدة الأهرام بين مكاتب الإدارة والتحرير ، وبين إدارة المطبعة والعمال ، فإذا فرغت من أعمال الأهرام كان بهو دارها مهبط رجال السياسة والعلم والاقتصاد ، وكان جبرائيل تقلا يشهد دراية أمه واجتهادها ويأخذ عنها وعن مرتادى دارها كثيراً من الأسباب التى هيأت له النضج والاستواء.


نقولا رزق المحرر بالأهرام

وترك بشاره تقلا جريدة الأهرام فى أعطاف نخبة من المحررين والكتاب ، كان فى مقدمتهم الشاعر الأديب الكاتب خليل مطران الذى تولى رياسة التحرير فترة من الزمن[٢] محاطاً بشبان وكتاب ممتازين منهم يوسف البستانى[٣] ونقولا رزق[٤] ومن بعدهم خليل خورى[٥] وداود بركات بعد فترة من الزمن[٦]. والفرد شادى مخبر الأهرام الأول[٧]

(١) الأهرام فى ٢ يناير ١٩٠٨
(٢) راجع الأهرام فى سنتى ١٩٠١ و ١٩٠٢
(٣) تاريخ بشارة تقلا باشا ص ٢٤
(٤) الأهرام فى ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦
(٥) الأهرام فى ٢٣ أغسطس ١٩٠٧
(٦) الأهرام فى أول أبريل ١٩٠٩
(٧) وزارة الداخلية – قلم المحفوظات إدارة المطبوعات – دوسيه رقم ١١ – ٢/٩٤٦ ج ١

(ص ٤٠٦)

ونجيب صالحانى[1] ونقولا أفندى حداد ونجيب هاشم أفندى وصباغ أفندى[2]. هذا إلى بعض الهواة الذين صحبوا الأهرام منذ نشأتها يكتبون فيها حتى لتخالهم محررين محترفين، وفى صدر هؤلاء آل شميل ، وغيرهم من الأكفاء الذين اختصوا الأهرام بعلمهم دون غيرها من الصحف المعاصرة .

تقاليد الأهرام

وفى أقلام هؤلاء وفى تعاونهم الصادق مضت الأهرام قدماً فى أسلوبها الذى لاحظ قارئ هذه الفصول مدى تطوره وتحسنه سواء كان متصلا بالمقال أو الخبر ، ولاحظ القارئ أيضاً تقاليد الأهرام فى مناقشة المسائل العامة ، وهى تقاليد تشعر دارس تاريخ تلك الصحيفة أن رئيس تحريرها لم يمت منذ أنشئت فى سنة ١٨٧٦ إلى يوم صدور هذا الكتاب فى سنة ١٩٥٠ ، فكأنه باق مخلد ، والحق إنها تقاليد احترمها الخلف كما احترمها السلف ، ولا تزال قاعدة فى سياسة الأهرام ، وحسبنا أن الأهرام فى تاريخها الطويل لم تشب بكلمة أو لفظ إلا مرة أو مرتين[3]

جبرائيل تقلا

وكان صاحبها الشاب جبرائيل تقلا صورة بديعة من والده الكبير ، وإن كان أقدر على إنشاء المقالات حين كان فتى فى العشرين من عمره . وكان مقاله الأول عن « مؤتمر المستشرقين » فى أثينا[4] ورسائله التى بعث بها من أوربا قبيل الحرب العظمى الأولى[5] تنبئ بالكفاية الكامنة والقدرة الصادقة التى لم يحن بعد وقت الحديث عنها ، غير أن ما يجب أن يحسب له الآن فى باكورة العمر ومطلع الشباب حين ولى شؤون جريدته أنه حنا على تقاليد الأهرام التى « لا تخشى فى الحق لائماً ولا تخاف مضطهداً . ولا تهاب خصماً ولا تجامل قوياً . ولا تعادى نزيهاً . ولا تهاجم عادلا . ولا تضع نفسها فى عمل من الأعمال أو سياسة من السياسات موضع المزاد فى الخصومة أو الصداقة بل تنظر إلى النفع فى الخدمة فهو وحده مرمى العمل فتمحى شخصيتها فى شخصية الأمة التى تخدمها ،

(١) وزارة الداخلية ، قلم المحفوظات بإدارة المطبوعات ، دوسييه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ ج ١

(٢) الأهرام فى ٤ يوليو ١٩١٤ . وإدارة المطبوعات دوسييه رقم ١١ — ٩٤٦/٢ . الجزء الأول

(٣) الأهرام فى ٢٢ و ٢٥ سبتمبر ١٩٠٠

(٤) الأهرام فى ١٠ أبريل ١٩١٢

(٥) الأهرام فى ١٩ يوليو ١٩١٣

وظل ذلك الشعار شعارها بعدهما — أى بعد سليم وبشارة — وذلك المنهج منهجها حتى الساعة وستظل على ذلك إلى ما شاء الله . . . »[1].

وكان جبرائيل تقلا يؤكد هذه التقاليد التى ذكرنا طرفاً منها كلما دخلت الأهرام فى سنة جديدة ، فهو يذكر بمناسبة استفتاحها للسنة السادسة والثلاثين أن صحيفته « عاقدة العزيمة بعد الاتكال على الله وفضل قرائها ومراسليها وناصريها على أن تظل سائرة فى المنهج الذى انتهجته لنفسها من يوم وجدت إلى اليوم . وإلى ما شاء الله . وعلى أن تظل فى جانب الحق والعدل والخدمة الوطنية الصحيحة حيث توقن وتعتقد بوجود الحق والعدل والخدمة الوطنية . وعلى أن تظل على الباطل والمضر والفاسد إلى أن يقتلع اقتلاعاً ويغرس فى مكانه الإصلاح فينمو ويثمر . . . والأفراد فى نظرها يزولون وتظل الأمة وحدها حية فلا يعلو فى نظرها حق أحد على حق الأمة ولا تقدم عندها خدمة أحد على خدمة الشعب »[2].
وتلك كانت سياسته يحددها قبيل الحرب الأولى[3] . كما كان يرددها حتى النفس الأخير .

مراسلو الأهرام

وتعتبر تلك الفترة من تاريخ صحيفتنا (١٩٠٠ — ١٩١٤) فى رأى مؤرخى الصحافة من أهم الفترات التى مرت بالإدارة والتحرير ، فقد رأينا فى القرن التاسع عشر بعض المراسلين تعينهم الأهرام فى الخارج ، وكان أهمهم مراسل الأهرام فى باريس ، وزادت الأهرام فى مراسليها فى القرن العشرين ، فإذا هم فى كل مكان فى أوربا منذ أهلت علينا سنة ١٩٠٠ ؛ وكان أخطر المراسلين وأهمهم مراسلها فى الآستانة[4] ، وذلك للمشاكل التى كانت تلقاها عاصمة السلطنة فى مطلع هذا القرن ، وكان مراسلها فى الآستانة إبراهيم سليم نجار يوافيها برسائل غاية فى الأهمية ، وكانت رسائله تهز الناس هزاً لما انطوت عليه من صراحة ودقة فى الخبر ، وكانت الأهرام حفية بتلك الرسائل تنشرها أحياناً فى افتتاحياتها[5] .

واعتمدت الأهرام فى القرن التاسع عشر فى برقياتها على وكالتى رويتر وهافاس ، وقلما كنا نجد برقية تصل إليها خاصة دون الصحف الأخرى ، إلا تلك البرقيات التى كان

(١) الأهرام فى ٢ يناير ١٩٠٨
(٢) الأهرام فى ٣ يناير ١٩١١
(٣) راجع الأهرام فى ٢ يناير ١٩١٢ و ٢ يناير ١٩١٣ و ٢ يناير ١٩١٤
(٤) راجع الأهرام فى سنة ١٩٠٩
(٥) الأهرام فى ١٩ نوفبر ١٩١٢

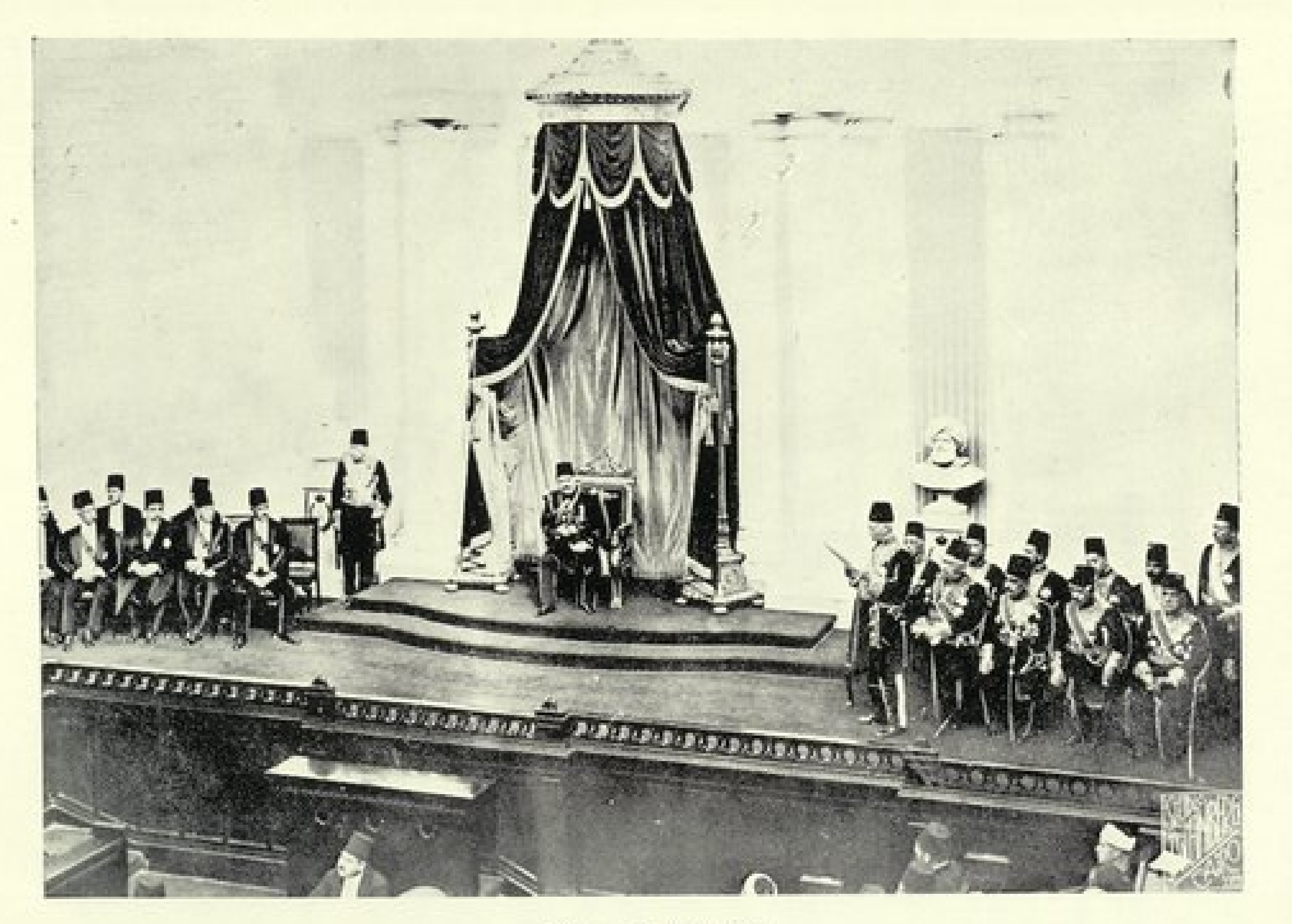
يبعث بها صاحبها بشارة تقلا وهو يتنقل أثناء الصيف فى بلاد أوربا ، حتى إذا تولى جبرائيل تقلا إدارة الجريدة بدأت البرقيات الخاصة تظهر فى أهرامنا الحديثة وإن كانت قليلة ، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٩(١). إلا أن هذه البرقيات التى تعيب عليها قلتها بدأت تحتل مكاناً من الصحيفة كان يصل أحياناً إلى نهرين كاملين ، وكان هذا الفيض من البرقيات الخاصة يبعث به مراسلاها فى حرب طرابلس الغرب أو حرب البلقان ، ومع ذلك التفرد بالنشاط الصحفى فإن المؤرخ يعتبر ذلك تاريخاً لبدء البرقيات الخاصة فى الأهرام ، ولكن فى أضيق الحدود .

تاريخ البرقيات الخاصة

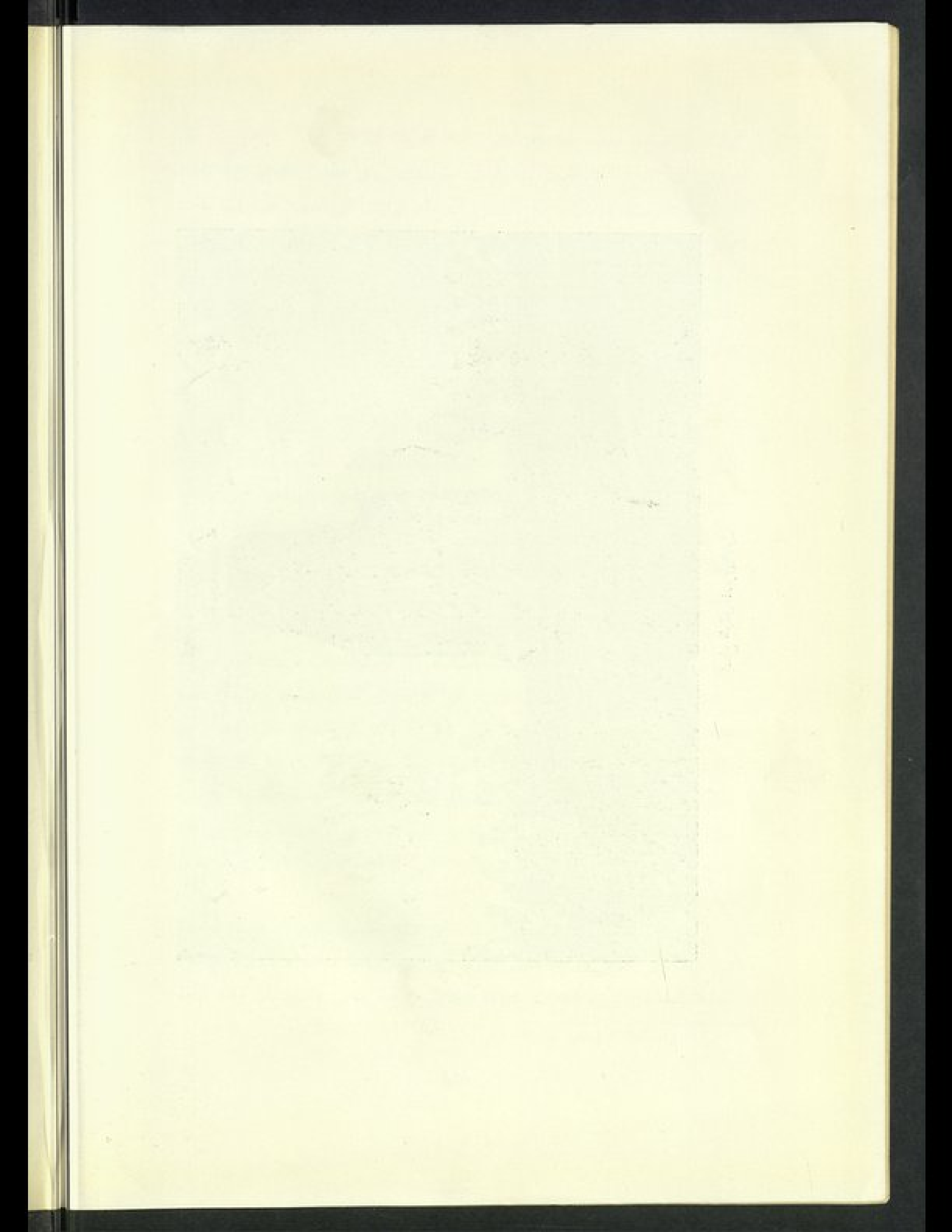
ومضت الأهرام تنشر برقياتها الخاصة على هذه الصورة التى أوضحناها حتى النصف الثانى من عام ١٩١٣ ، وهو تاريخ هام لقصة « التلغرافات الخصوصية فى الأهرام » ننشر هنا ما جاء فى أهم صفحاتها بعنوان (خطوة أخرى للأهرام فى سبيل خدمة القراء) نظراً لأن ما صنعته الأهرام فى تلك الخطوة كان حداً فاصلاً بين صحافة الأمس وصحافة اليوم ، قالت صحيفتنا « آلينا على أنفسنا أن نبذل كل ما بالاستطاعة فى سبيل خدمة قراء هذه الجريدة ، وفى سبيل خدمة الأمة من وراء خدمتهم ، فبعد أن جعلنا حجمها وموادها كحجم أكبر الصحف الأوربية وموادها . رأينا أن يكون لها فى جميع عواصم العالم مكاتبون ومراسلون يوافونها بالأنباء الخطيرة والأخبار الصادقة كل يوم بالتلغراف ، فاتفقنا مع جريدة « الدالى تلغراف » الإنكليزية التى سبقت كل جريدة فى العالم بصدق أخبارها وبكثرة هذه الأخبار حتى أصبحت الينبوع الذى تستقى منه كل جريدة بل كل مقام ، أن توافينا صباح كل يوم بما تتلقاه من أنحاء العالم ولا سيما العالم الشرقى وما يتعلق بأحواله وشؤونه » ثم تذكر عن الجريدة التى اتفقت معها على هذا الحدث بأن لها مكاتبين « فى جميع عواصم العالم قد يزيد راتب الواحد منهم على راتب أكبر وزير . حتى لقد يصح أن يقال إن أقل واحد منهم له ميزانية خاصة ومقام عال يوصلانه إلى ما لا يصل إليه سواه » .

ثم تقول « أقدمنا على هذا الاتفاق مع الدالى تلغراف ونحن موقنون أنه الوسيلة الوحيدة التى توقفنا على دقائق المسائل وعظيم الشؤون يوماً فيوماً وساعة فساعة ، فننشرها للأمة . أقدمنا عليه ومن ورائه النفقات الطائلة والمتاعب الجمة ونحن واثقون بأن إرادة الأمة

(١) راجع الأهرام فى شهر يوليه ١٩٠٩



افتتاح البرلمان المصرى الأول



أن يزاد فى خدمتها . وأن يرقى بصحافتها لخدمة شؤونها ومصالحها حتى تضارع تلك الصحافة أرقى الصحافات ، وتقف برقيها فى صف أرقى الأمم » .

السلطة الرابعة .

وتحدثنا الأهرام عن الوظيفة الصحفية التى تفرض على العاملين فى المهنة أن يقفوا عليها كل مجهوداتهم « وإذا صح أن الصحافة هى القوة السادسة فى الكون وفى حياة الأمم كان عليها واجب نحو أمتها إن هى ضعفت فيه أو وهنت قصرت وكان تقصيرها ذنباً إلى أمتها » . وتصور حياة الأمم فى ذلك العصر الذى لا حياة لها من غير ارتباط بالشعوب الأخرى قائلة « وحياة الشعوب والأمم باتت ، فى هذا العصر شديدة الاتصال متينة الروابط سياسياً ومالياً واقتصادياً وتجارياً وزراعياً ، فلم تبق مندوحة لشعب يريد مشاركة العالم المتمدن فى حياته عن أن يقف على أخباره وشؤونه وأطواره ساعة فساعة بلا انقطاع ، ولرب ساعة تقلبت فيها الأطوار وتغيرت الأحوال . والعالم يعيش الآن بالتلغراف ، وهانحن ذا نرى الحوادث كل يوم بل كل ساعة تقلب الأمر من طور إلى طور وتغير الشعوب من حال إلى حال ، فكيف بالمتاجر والمصانع وغيرها من وجوه الاقتصاد وضروبه فإنها جميعاً قيد حادث يحدث أو رهن تغيير يباغت أو يفاجئ »(١) .

وأصبحت برقيات الأهرام بعد هذا الحدث فى مفترق الطرق ، وتقول الحدث لأن دنيا الأهرام أصبحت شيئاً آخر يختلف تمام الاختلاف عن دنياها الأولى ، وفى ذلك تحدثنا الجريدة نفسها فى افتتاحية بعد اتفاقيتها مع الدايلى تلغراف بأيام ، فقد ذكرت لنا أنها برمت بالاعتماد على شركات الأنباء التى لم تكن تبعث إليها وإلى غيرها من الزميلات إلا قليلا من الأخبار فى لغة أجنبية « ولو قامت القيامة وانتصب الميزان فى تركيا أو أوربا ما زادت الشركة على أخبارها العادية خبراً ولا قدمت توزيعه ساعة واحدة فلا تراعى اهتمام الوطنيين بالحوادث وميلهم إلى الحصول على الأنباء الهامة بالسرعة اللازمة » .

وتذكر الأهرام أنها أحست النقص منذ زمن بعيد ، وشعرت أنها تعيش فى عبودية شركات الأنباء تلك « فحاولنا فى أوقات مختلفة خصوصاً وقت الحرب الطرابلسية والبلقانية أن نسد شيئاً من هذا النقص فكنا نصدر ملحقات بالأنباء البرقية التى عهدنا إلى مراسلينا فى أوربا والآستانة بإرسالها إلينا من حين إلى حين » . فهذا النقص الذى أحسته كان يكلفها من حين إلى حين إصدار الملاحق زاخرة بالبرقيات التى كانت تأتى إليها فى غير

(١) الأهرام فى ٢٨ أغسطس ١٩١٣

نظام وعلى غير موعد حتى شعرت « أن لا بد لجريدتنا (المعروفة فى جميع حياتها الطويلة بالاجتهاد والاهتمام والسعى وراء التقدم الصحافى) من التخلص دفعة واحدة من التقيد بإرادة الشركات الأجنبية والاعتماد على أنفسنا إنصافاً لقرائنا وتحقيقاً لحسن ظنهم بالأهرام بما هو ظاهر يوماً بعد يوم من الإقبال عليها والثقة بها ».

وتكشف الأهرام عن أن فكرة البرقيات الخاصة كانت من صنع جبرائيل تقلا مجدد الأهرام وصاحبها ، فتذكر أنه لما كان « صيف هذا العام قصد حضرة مدير الأهرام انجلترا واتفق مع إدارة جريدة الدايلى تلغراف المشهورة بأهميتها وعظمتها ووفرة أنبائها البرقية أن تواصلنا إدارتها يومياً بأهم الأنباء البرقية عن حوادث العالم بأسره وما يهم المملكة العثمانية ومصر خصوصاً وأن توافينا كل يوم بتلك الأنباء فى تلغرافات خصوصية للأهرام » . وتذكر جريدتنا إحصائية طريفة لعدد الكلمات التى تتلقاها ببرقها الخاص فإذا هى تتراوح بين خمسمائة كلمة وألف كلمة ، وتعقب مبينة أن برقياتها الخاصة تبلغ أحياناً سبعة أضعاف البرقيات التى تصل إليها من رويتر وهافاس ، وأن برقياتها تعنى بالمسائل العربية والشرقية وتستفيض فى روايتها بينما شركات الأنباء تقتضبها أو لا تذكر عنها شيئاً ، ثم توضح أن ما ينشر فى برقيات الأهرام اليوم ينشر فى الصحف الأخرى بعد أسبوع على الأقل ، إذ أن الصحف المعاصرة كانت تنتظر ورود الجرائد الأوربية وتترجم عنها ما سبق أن نشرته الأهرام فى يومه[1].

وأخذت الأهرام تنشر برقياتها الخاصة فى مكان بارز منها منفصلة عن البرقيات العمومية التى كانت تأتى إليها من وكالات الأنباء المختلفة ، حتى رأت أخيراً توحيد صفحة البرقيات فنشرت فيها برقياتها الخاصة والعامة[2]. وقد لاحظنا فرقاً واضحاً بعض الشىء بين أسلوب الترجمة فى البرقيات الخاصة والعامة ، فإن ترجمة الأولى كانت صحيحة ومعنياً بها وكان يقوم على ترجمتها شخص تخصص لذلك سنوات هو مترجم معروف اسمه سليم سركيس[3]، كما أن البرقيات الخاصة كانت تحتل صفحة التلغرافات بعناوين ضخمة لافتة للنظر ، بينما كانت برقيات رويتر مثلا صغيرة بعناوين متوسطة الأحجام .

---

(١) الأهرام فى ٩ سبتمبر ١٩١٣
(٢) راجع الأهرام ابتداء من ١٦ سبتمبر ١٩١٣
(٣) الأهرام فى ٢٦ سبتمبر ١٩١٣

فهرست الأهرام

وقد اعتادت الأهرام فترة ما أن تنشر فهرستاً بما يحتوى عليه عددها وذلك على رأس النهر الأول من الصفحة الأولى[1]، وتلك طريقة كان يحرص عليها فى تنظيم الجريدة صاحبها بشاره تقلا ، كما أنه قبيل وفاته جدد كثيراً من مظاهر صحيفته ، فإذا عناوين الموضوعات يكبر حجمها بشكل ملحوظ ، وخاصة الموضوعات الثابتة التى يشاهدها القارئ فى كل يوم كعناوين : حوادث محلية — تلغرافات خصوصية — تلغرافات عمومية ، إلى آخر تلك العناوين المماثلة[2]. ثم تغير رأس الأهرام بعد وفاته مرات ، وكان أول تغيير حدث له فى عهد زوجته[3]، وغير رأس الأهرام مرة أخرى بعد أن تولى شؤونه جبرائيل تقلا[4]، وكان آخر مرة تغير فيها شكل الرأس فى هذه الفترة التى نؤرخ لها فى سنة ١٩١٣[5].

غزارة الأخبار فيها

وكانت الأهرام — إلى جانب مقالاتها الممتعة فى كل ناحية — زاخرة بالأخبار وخاصة أخبار العاصمة ، كما كانت تتلقى أخبار الإسكندرية والأقاليم بالتليفون[6]، بعد أن كانت من قبل تتلقاها فى رسائل قصرت تلك الرسائل أو طالت ، وكانت تلك الأخبار التليفونية تبدو واضحة فى أعز صفحاتها تحت كليشيه بعنوان (أخبار تليفونية) ، واحتل كليشيه « مقتطفات شتى » مكانة ملحوظة من صدر الصحيفة نشرت تحته أخباراً رائعة نقلتها من هنا وهناك عن حياة الأمم والشعوب المختلفة وما يظهر فيها من جديد فى العلوم والفنون[7]. وفى ذلك العهد بدأت الأهرام تنقل أقوال الصحف المعاصرة[8] كما كانت تفعل منذ سنوات ، إذا تذكر ذلك جيلنا قارئ هذا الكتاب ، ثم أخذت تؤرخ لحوادث مصر فى القرن التاسع عشر نقلا عن أعدادها فى السنوات الأولى من صدورها

(١) راجع الأهرام فى سنة ١٩٠٠
(٢) راجع الأهرام ابتداء من ٦ يونيه ١٩٠٠
(٣) الأهرام فى سنة ١٩٠٦
(٤) راجع الأهرام فى شهر يناير ١٩٠٩
(٥) الأهرام فى ١٠ أبريل ١٩١٣
(٦) الأهرام فى ٢٧ يونيه ١٩٠٦
(٧) الأهرام فى ١٠ فبراير ١٩٠٩
(٨) الأهرام فى ٢١ أبريل ١٩١٣

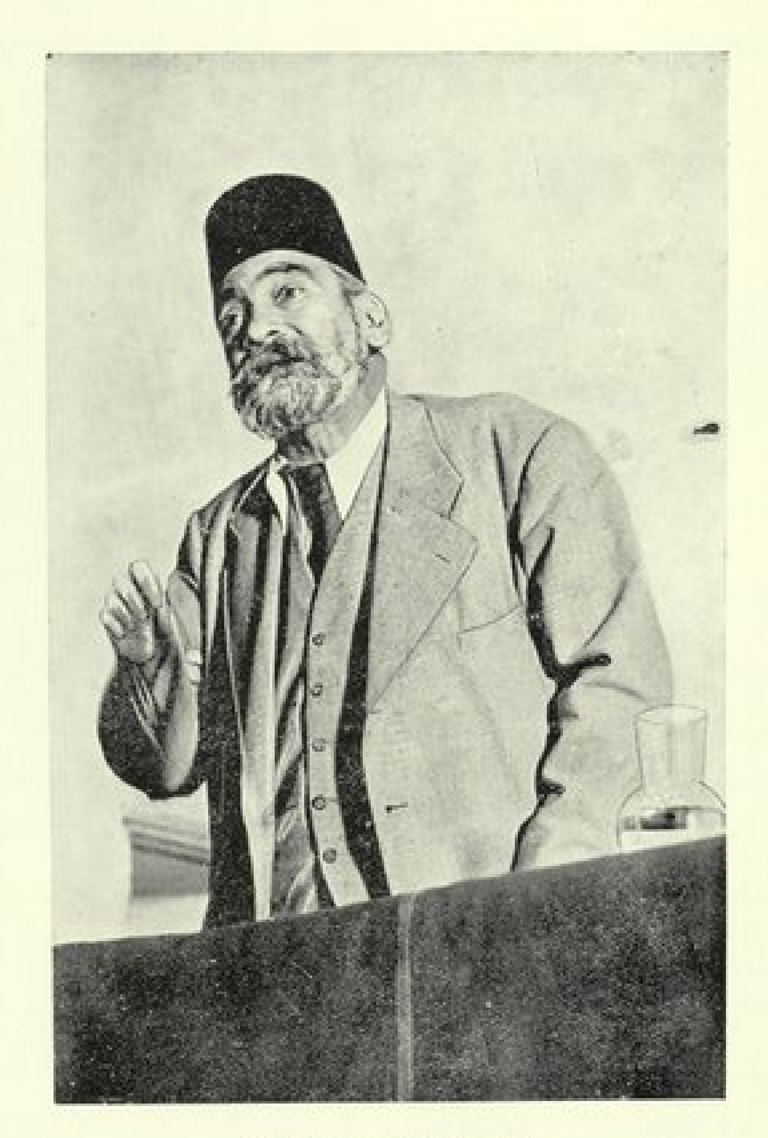
تحت (منذ ٣٠ سنة)[١] تماماً كما تفعل اليوم وهى تنقل عن الأهرام القديمة منذ خمسين عاماً.

وفى تلك الفترة أى فى الأربعة عشر عاماً الأولى من هذا القرن كانت الأهرام تنشر افتتاحياتها على نهرين فى صدر الصفحة الأولى[٢] على غير عادتها التى كانت تتبعها فى الماضى ، ثم أخذت تصدر فى ست صفحات معظم أيام الأسبوع فى سنة ١٩٠٧[٣] وفى القليل النادر كانت تصدر فى ثمانى صفحات فى تلك السنة[٤] بينما كانت تصدر معظم الأيام فى ثمانى صفحات فى سنة ١٩٠٩ ،[٥] وأصبحت الصفحات الثمان قاعدة لعدد صفحاتها قبيل الحرب الكبرى الأولى بعامين.

وقد ذكرنا طرفاً من تأييد الأهرام للحركات الأدبية وتشجيعها للمؤلفين والمترجمين ، وقد رأت من باب الخدمة لقرائها أن تشجع المشتركين فيها بأن تقدم لهم (المصور) وهى مجلة «برسومها الملونة وغير الملونة الممثلة لأهم الحوادث والوقائع السياسية والفكاهية» تقدمها لمن يطلبها من مشتركيها، وقد توسطت عند صاحبها خليل زينيه ليكرم هؤلاء المشتركين فيجعل لهم لاشتراك السنوى أربعين قرشاً والأصل فيه لغير مشتركى الأهرام خمسة وستون قرشاً[٦] . كما أنها كانت تشجع قراءها بوسائل أخرى ، فتلحق صدى الأهرام أحياناً بأعداد الأهرام وهو فى حجم صغير شديد الشبه جداً بجريدة الوقائع المصرية المعاصرة[٧] وكان يبدو على نمطها ومعظم ما كان يهتم به الصدى هو أخبار مجلس الشورى ومناقشاته[٨].

وقد تميزت الأهرام بصفحاتها الكبيرة التى لم تنافسها فيها صحف كثيرة ، وفى الحق إن كبر الصفحات كان ميزة للأهرام على غيرها من الصحف المعاصرة ، إلا أن الأهرام كانت تصدر فى مرات قليلة فى حجم الصحف المماثلة إذا قل المخزون أو نفد المخزون من ورقها وتأخر الوارد إليها ، غير أن صغر الورق كان على حسابها ولم يكن على حساب قرائها ، وفى ذلك تحدثنا معتذرة فى إحدى الظروف «تأخر ورق الأهرام عن الوصول من أوربا ، فاضطررنا إلى إصدار جريدتنا بحجم الجرائد الأخرى ، ولكنا لم ننقص المواد فأوقفنا نشر الإعلانات ، ونشرنا الرسائل الداخلية على الصفحة الرابعة . ويصل

(١) الأهرام ابتداء من ٢٤ سبتمبر ١٩١٣
(٢) الأهرام ابتداء من أواخر سنة ١٩٠٧
(٣) راجع الأهرام فى سنة ١٩٠٧
(٤) الأهرام فى ٥ يناير ١٩٠٧
(٥) الأهرام فى ١٧ فبراير ١٩٠٩
(٦) الأهرام فى أول فبراير ١٩٠٦
(٧) الأهرام فى ١٦ نوفمبر ١٩٠٩
(٨) الأهرام فى ١٧ نوفمبر ١٩٠٩



المغفور له الدكتور محجوب ثابت

الورق غداً أو بعد غد فنأمل من القراء والمشتركين المعذرة وللضرورة أحكام »[1].

الإعلان فى الأهرام

فهى تقف نشر الإعلان إذا تعذر صدورها فى حجمها العادى ، مع أن الإعلان كان مصدر الكسب الوحيد لها والمعين على أداء رسالتها ، وقد تفننت دون صحف العصر جميعاً فى إعلانها منذ مطالع القرن العشرين وطبعها فى القاهرة ، فكانت غريبة جداً فى بعض الأحوال وجذابة تلفت النظر[2] وكانت تلك الإعلانات تزحم جميع صفحات الجريدة وخاصة الثالثة منها ، وكان أجرها منذ صدرت فى القاهرة عالياً إذا قيس بأجر الإعلان فى الصحف الأخرى ، فكان السطر فى الصفحة الأولى يكلف المعلن اثنى عشر قرشاً ، وفى الصفحة الثانية ثمانية قروش ، وكانت الصفحة الثالثة أرخصها فكان سطر الإعلان فيها يكلف صاحب الإعلان ستة قروش ، وإذا تكرر الإعلان فى أى صفحة من تلك الصفحات فإن هناك تخفيضاً ملحوظاً يجرى عليه[3]، غير حساب آخر تقرر للإعلانات القضائية ولا يخضع للأجر المعلن عنه لكافة الناس .

إعلان طريف

وكانت إعلانات الأهرام طريفة حقاً وتتميز بالجدة فى العرض كما رأينا فى إعلان عن طبيب أسنان[4]، وكانت إعلاناتها التحريرية — ومعظمها فى الطب والعلاج — تتسم بالطول وتزخر بالطرائف ولا تخلو من ذلك الأسلوب الذى يمثل العصر ويرضى القارئ العادى وإن أثار فى نفوسنا نحن ابتسامة عريضة لما فيه من ألفاظ ومعان . وقد حدثتنا الأهرام عن طبيب وعيادته فى كثير من إعلاناتها التى ننشرها هنا من باب التسجيل عنواناً على غيرها من إعلانات بقولها « يعلن جناب الدكتور السيد النطاسى ، الحاذق الراسى ، الشهير الحائز الدبلوما العظمى الشاهانية ، والشهادة الطبية الألمانية بكل امتيازاتها ، أنه موجود بعيادته الكائنة بشارع الموسكى بالسكة الجديدة تجاه أجزخانة الهلال نمرة التليفون ٩٢٨ فنحث العموم على انتهاز فرصة وجوده لاجتناء ما لا يمكن

(١) الأهرام فى ١٨ نوفبر ١٩٠٩
(٢) الأهرام فى ١٠ مايو ١٩١٠
(٣) الأهرام فى ٢٤ يناير ١٩٠٠
(٤) الأهرام فى سنة ١٩٠٠
(٥) الأهرام فى ٢٥ نوفبر ١٩٠٤

الحصول عليه من سواه بمعالجة جميع الأمراض الباطنية والجراحة الكبرى على الطرق المستجدة بواسطة البنج الموضعى والآلات الكهربائية الخصوصية والحقن الجلدية (بحيث أن المرضى ينظرون لعملياتهم بأعينهم ولا يتألمون أدنى ألم كان » ، وتلك الأمراض التى يعالجها ذلك الطبيب « كالنواسير والبواسير وأمراض اللوزتان وعموم أمراض الخصية أى الكيس . وخصوصاً زوال مائها بدون حقنة وبدون بذل فى ظرف خمسة دقائق فقط بشرط أن لايعود ماؤها أبداً . وأمراض العقد الخنازيرية والفتاق (أى طق العرق) بكل سرعة وسهولة . . . » ثم يشرح بقية الأمراض التى يعالجها فى حوالى عشرين سطراً ، وأخيراً يختم بمواعيد العيادة وقيمة « الفوزيته » عن العلاج أو العمليات أو النوم[1].

وهكذا أصبح الإعلان فى الأهرام أصلا من الأصول الصحفية ، وفناً من الفنون التى ينبغى أن تعنى بها الصحف ، وقد سبقت الأهرام فى ذلك جميع زميلاتها وإن جاء فنها فى الإعلان قاصراً عن أن يجارى أو يبارى ما نشاهده اليوم فى نشاطها الإعلانى .

الإعلانات المبوبة

غير أن إعلاناتها الصغيرة التى نعرفها اليوم والتى قلدها فيها بعض الصحف بدأت فى عهد جبرائيل تقلا قبيل الحرب العظمى الأولى ، وقد ذكرت تفاصيلها فقالت « نلفت أنظار القراء إلى الإعلانات الصغيرة المنشورة على الصفحة الأخيرة من الأهرام ، فقد رأينا أن نفتح هذا الباب ليكون ملتقى المطالب يجد فيه ذوو الحاجات والأعمال أقرب الطرق إلى حاجاتهم . فمن يرغب مثلا فى مشترى أطيان أو استئجارها أو فى مشترى منازل أو استئجارها يجد الإعلانات عن كل منها فى المحل المعين له ، وكذلك طلاب الوظائف والأعمال من كل نوع والذين يحتاجون إلى مثل هؤلاء الطلاب من موظفين وغيرهم يجدون الإعلانات المختصة بمطالبهم فى الأماكن المخصصة لها . ويخصص محل منه لفقد الأختام مثلا ومحل آخر لكل نوع مما سوى ذلك حتى يصير هذا الباب فى الأهرام خير دليل فى مثل هذه الشؤون على اختلاف أنواعها » .

وتحدثنا الأهرام عن أهمية الإعلانات الصغيرة وأثرها فى الحياة العامة قائلة[2] « ولقد أنتجت هذه الطريقة فى البلاد الأوربية أفضل النتائج فى جميع المعاملات إذ أغنت الفريقين عن الواسطة ومكنتهما من إنهاء الأعمال مباشرة ، ولا يخفى ما فى ذلك من اقتصاد المال

---

(١) الأهرام فى ١٠ مايو ١٩١٩

(٢) الأهرام فى ٨ أكتوبر ١٩٠٦

والوقت فضلا عن أن الوسيط مهما اتسعت دائرة عمله فلا يمكن فى حال من الأحوال أن تبلغ عشر معشار ما تصل إليه جريدة الأهرام منتشرة فى طول البلاد وعرضها تتناولها جميع الأيدى وتقرأها جميع الطبقات ، فالأهرام بفتحها هذا الباب تقدم لأصحاب الإعلانات ولقرائها أكبر الخدم وأفيدها ، وقد رأت أن تجعل أجرة هذه الإعلانات زهيدة تسهيلا للجميع ولكى يتمكن الجميع من الاستفادة من هذه الطريقة » . ثم تحدثنا عن أجر « الإعلانات الصغيرة » فتقول إنها قررت أن تكون « أجرة الإعلان الذى لا يزيد عن خمسة أسطر (السطر ثمانى كلمات) عشرة قروش صاغ وعن كل سطر بعد الخمسة إلى العشرة سطور قرشان ولا ينشر فى هذا الباب إعلان يزيد عن العشرة سطور . . . » .

وهكذا وضع جبرائيل تقلا اللبنة الصحيحة فى تنظيم الإعلان ووسائله فى جريدة الأهرام منذ ست وثلاثين سنة ، وأخذت هذه التنظيمات الصحفية تتطور سنة بعد سنة بإشرافه حتى بلغت ما بلغته اليوم من الروعة والدقة ، ولذلك حديث آخر فى فصول مقبلة من هذا الكتاب .

شقيقة في الدار

رجاء به عشنا وحلم بدا لنا ‏ ‏ تحقق والأحلام قد تحقق

« غانم »

طالما حاول بشارة تقلا أن يحقق حلماً منذ صدرت جريدته الأهرام سنة ١٨٧٦ . وهو أن ينشئ صحيفة مصرية فرنسية تكون صدى للأهرام ، فتنقل للرأى العام الأوربى آمال مصر وآلامها وصوراً صادقة من نهضتها وجهادها فى سبيل حريتها واستقلالها .

وقد استأذن نظارة الداخلية فى إصدار هذه الصحيفة فأذنت له ، ثم كتب إليها طالباً تغيير اسمها . ولكنه لم يثبت لدينا أنه قد استطاع أن يصدر صحيفة فرنسية قبل البيراميد التى ظهر أول عدد منها فى يناير ١٩٠٠ .

وقد نشرت جريدة « البيراميد » Les Pyramides فى عددها الأول الأغراض التى تتوخاها تحت عنوان « جريدة وبرنامجها » . ونحن نلخص فى الآتى قولها .

« أتمت جريدة الأهرام عامها الخامس والعشرين وهى إذ بلغت هذا العمر تقدم إلى البيئة المصرية صحيفة جديدة باللغة الفرنسية لتكافح إلى جانبها فى سبيل تحرير مصر .

« أجل لقد كافحت الأهرام مدى ربع قرن دفاعاً مجيداً عن حقوق الشعب المصرى وثارت فى وجه الاستبداد بأنواعه رغم ما لاقته من ضروب العسف والاضطهاد ، حتى حملها دفاعها عن حق الضعيف إلى أن تضحى بكل شىء حتى بجريدتها .

« ولكنها لم تستسلم قط إلى اليأس أو الخنوع لأنها كانت مؤمنة إيماناً صادقاً بأن الحق لا بد أن يتغلب يوماً على الباطل والقوة ، وأن الدفاع عن الحق يتطلب ضمائر نقية وشجاعة بعيدة عن التهور والمبالغة .

« ونحن نعلم أن بعض المتشائمين يذهبون لغرض فى أنفسهم إلى القول بأن حل المسألة المصرية قد أرجىء إلى أجل غير مسمى وأن الجهود التى تبذل فى هذا السبيل

ستظل غير مجدية ولكننا نحن نؤمن إيماناً ثابتاً ، تدعمه بعض الأحداث الجارية ، بأن المسألة المصرية لا تزال معروضة للبحث والنظر وأنه يتحتم علينا اليوم وقبل أى يوم آخر أن نبذل ما أوتينا من نشاط لنحاول تقريب ساعة تحرير بلادنا .

« وإننا إزاء الحالة التى أوجدها الاحتلال والتى تزداد رسوخاً . نرى أن الوقت ملائم لموالاة الجهود ورفع الاحتجاجات القوية المستمرة . ونحن نرى الخطر واضحاً إلا أننا نواجهه بشجاعة وروية دون أن تتنكب أدب الجدل والمناظرة الذى يفرض احترام الخصم وتقديره .

« إننا ندافع — أمام أوربا المنقسمة الحائرة — عن هذا الشعب المصرى الذى احتفظ بكيانه وشخصيته على توالى السنين وتراخى الزمن ، وسنعمل على أن يندمج هذا الشعب فى غمار الحركة الاقتصادية وأن يأخذ مكانه اللائق فى مجموعة الأمم .

« إن الشرق كله يستيقظ وإن هناك مستقبلا زاهراً من النهضة الفكرية قد أخذت تنمو بذوره بين هذه الشعوب ، ولكن أوربا لا تكاد تتبين هذا النهوض وهذا التطور فى الشرق . .

« لقد ترسمنا خطة أساسها الاعتدال والإقناع وبسط الحقائق لأن دول الغرب لم تقف حتى اليوم على رغبات الشرقيين ولاسيما المصريين وهى تجهل ما يبذل من جهود فى سبيل تقدم هذا القسم من الجنس البشرى » .

• • •

« إن سياسة هذه الجريدة ستكون تلك التى اتبعناها دائماً وبدقة فى الأهرام . «سنطالب دون مهادنة أو هوادة بالسيادة لمصر على أملاكها ورعاياها ولكنا — ونحن نحتم — « أن تترك مصر للمصريين » سنعرف كيف ندافع عما للجاليات الأجنبية من مصالح مهمة إذ أنها تساهم بنصيب كبير فى تقدم البلاد التجارى والصناعى والاقتصادى .

« وسنجتهد فى أن نوجد دائماً وئاماً صريحاً وديا بين العنصر الوطنى والعنصر الأجنبى بإزالتنا لكل سوء تفاهم .

« سنحارب كل من يحاول أن يضعف مصر بدعوى تحريرها من التبعية لدولة أثبتت أنها شىء آخر شبيه بظل مضطرب لإمبراطورية مضمحلة فضلا عن أن هذا الانفصال — وقد عرض فى مكر — لن يكون لبعضهم سوى وسيلة لرى ظمئهم على حسابنا ، وحتى يجدوا عندنا العوض الذى سيضطرون للبحث عنه قريباً فى الأراضى الإفريقية .

« ونحن حين نعمل لهذه الغاية – أى فى سبيل عظمة وتقدم بلادنا – سعداء بأن نكون فى نفس الوقت فى خدمة الأمير المستنير الذى شجع ظهور اليقظة الوطنية فى شعبه والذى يمثل أمل مصر فى أن تتبوأ قريباً مكانها بين الأمم المتقدمة المتحضرة ».[1]

ونحن نستخرج من هذه الافتتاحية أن « البيراميد » فرضت على نفسها برنامجاً ينحصر فى ثلاثة عناصر :

أولا : تريد أن تدافع عن مصر وعن قضية الاستقلال .

ثانياً : تود أن تكون وسيلة تنير للمصريين طريق النهضة معتمدين على أنفسهم ونظمهم وبلادهم ، وهى مؤمنة بأن الشعب المصرى فيه حياة كامنة لا ينقصها إلا رفع ما يطغى عليها ويحجبها عن الأنظار .

ثالثاً : تريد أن تكون رسول سلام بين عناصر الأمة الواحدة محاولة التوفيق بين الوطنيين والأجانب فى مصر .

وإذا نحن استعرضنا تاريخ الجريدة من أعدادها وجدنا أنها منذ صدرت فى ٥ يناير سنة ١٩٠٠ إلى يوم احتجابها فى ٦ سبتمبر سنة ١٩١٤ – مضت منفذة هذا البرنامج الذى فرضته على نفسها ولم تخرج عن حدوده قط ، وإن كانت الحيدة فى الفكرة والاستقلال فى الرأى السمة الظاهرة فى كل ما كتبت .

وقد صدرت البيراميد فى فترة حرجة من تاريخ الكفاح الوطنى ، فاتفاقية السودان لم يجف حبرها بعد ، والخديو فى شبابه وعنفوانه يعالج السياسة الكرومارية بعنف وشدة ، وحول شخصيته تتركز تيارات الوطنية المصرية ، وجريدة المؤيد فترت حماستها بعض الشىء ، ومصطفى كامل يتأهب لإصدار (اللواء) بل يصدره فعلا فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ .

ونزلت البيراميد إلى الميدان تعالج سياسة الحكام فى مصر وتشغل صفحاتها بالقضية المصرية عامة فإن الجريدة فى برنامجها قررت « دفاعها عن حق الضعيف ضد قوى الظلم الغاشمة » كما أنها وعدت بأن « تبذل أكبر نشاط ممكن فى محاولتها تقريب ساعة تحرير البلاد » وهى لا تكتفى بهذا الإعلان وإنما تشيد بالأمير الذى يركز حوله كفاح المصريين ويؤيد عمل الزعماء فى سبيل التحرر والاستقلال .

وبعد ثلاثة أيام من صدور العدد الأول من الجريدة تحتفل البلاد بعيد جلوس هذا الأمير فيتاح لصاحب البيراميد ومحررها بشارة تقلا أن يعلن عن إعجابه به وأن

---

(١) البيراميد فى ٥ يناير ١٩٠٠

UNE PETITE PIASTRE LE NUMERO

Les Pyramides

Directeur-Propriétaire: TAKLA PACHA

UN PRÉCÉDENT

LA GUERRE AU TRANSVAAL

La bataille de Paardeberg

A Ladysmith

Deux généraux anglais blessés

Une lettre de M. de Villebois-Mareuil

عدد من البيراميد فى الأيام الأولى من صدورها

يمتدح للأمير وطنيته فيقول « إن حياة الأمير اتحدت مع حياة البلاد ، فهو قد تألم لكل ما أصاب حرية الوطن وهو قد ابتهج معنا فى المناسبات النادرة التى خيل للناس فيها أن فجراً من العدل يبزغ نوره فى مصر . . . لقد رأينا دائماً سمو الخديو يجاهد فى سبيل أن يكسب شعبه شعور الوطنية النبيل » . ويسترسل الكاتب مستعرضاً مظاهر كفاح الأمير فى سبيل توحيد جهود الوطنيين من أبناء مصر ليقف مستنداً إلى تأييدهم فى وجه الاستعمار والاحتلال ، ويمضى مبيناً أن إعجاب الناس به وحبهم له هو شىء يشبه رد الجميل وواجب يستحقه الأمير[1].

ويوم يجاهد المصريون فى مصر بلسان جرائدهم أو فى الخارج بما ينشره سفراؤهم الأحرار فى الصحف لا يفوت البراميد أن تشاركهم جهادهم بأن تنقل مقالاتهم أو أخبارهم إلى قرائها مؤيدة لآرائهم حيناً ومفسحة صفحاتها لأقلامهم وأنبائهم فى أكثر الأحيان ، وأنها حين لا تعلق على الأنباء فهى تعطى للوطنيين ولمواقفهم من الأهمية ما يدفعها لأن تخصص لهم صفحتها الأولى أو أن تقدم أخبارهم بعناوين ضخمة تلفت إليها الأنظار ، فإذا علقت على ما يصنعون فإنما يجىء تعليقها فى مقالها الافتتاحى .

إهتمامها بقضية الوطن

وآية ذلك كله أنها عنيت – كما عنيت كل الصحف الوطنية فى مصر – بنشر مقالات مصطفى كامل إبان وجوده فى الخارج ، ومن تلك المقالات الممتعة التى سجلتها له فى صفحاتها مقالة عنوانها (بلادى) كان الزعيم الوطنى قد نشرها فى (الفيجارو[2] Le Figaro ثم تحدثت فى يوم آخر عن نشاط الوطنيين فى مصر والخارج بعنوان (مظاهرة ضد الاحتلال) قالت فيها « يوم السبت ١٤ سبتمبر كان بالنسبة للوطنيين المصريين موضوع مظاهرة ثنائية ، ففى باريس كان مصطفى كامل يوجه للسير هنرى كامبل خطاباً نورد فى غير هذا المكان موجزه التلغرافى المرسل إلى زميلتنا L'Etendard Egyptien[3] وفى القاهرة عقد اجتماع فى الكنتننتال حضره عدد كبير من الشخصيات » ويسترسل الكاتب فى وصف ما دار فى الاجتماع ، ثم يورد نص البرقيات التى أرسلها المجتمعون إلى رئيس الوزراء فى لندن تأييداً لخطاب مصطفى كامل له[4].

---

(١) البراميد فى ٨ يناير ١٩٠٠
(٢) البراميد فى ١٦ أغسطس ١٩٠٧
(٣) اسم صحيفة أصدرها مصطفى كامل بالفرنسية
(٤) البراميد فى ١٦ سبتمبر ١٩٠٧



جبرائيل تقلا باشا وأنطون الجميل باشا

وهذا كله يدل على مبلغ اهتمام الجريدة بقضية الوطن ، مجاهرة بذلك حيناً مؤيدة حيناً آخر حركات الوطنيين بما تمنحهم من الأهمية وتضفى على أخبارهم ومساعيهم من الاهتمام ، الأمر الذى يشعر بأنها رغم الحيدة الواضحة فى مظهرها والاتزان الملحوظ فى كتاباتها ضالعة معهم فى وضوح لا يقبل الشك ، وليس أدل على ذلك من أنها بمناسبة الخطاب المرسل من مصطفى كامل إلى رئيس وزراء إنجلترا بعد ذلك بأيام تنشر النص الكامل للخطاب بعد أن نشرت موجزه من قبل[1] ، ثم تقف قراءها على ما نتج عن هذا الخطاب من أثر فى الرأى العام العالمى ، وهى إنما تريد أن تبين للوطنيين آثار كفاحهم وأن يعملوا على ضوء إدراك الناس فى الخارج لقضيتهم وعلى مدى تأييدهم أو معارضتهم لهذه القضية ، وبينت لقرائها أهمية تعليق التايمز Times على خطاب مصطفى كامل[2] ، كما نشرت وجهة النظر الفرنسية فى ذلك منقولة عن جريدة L'Eclair de Paris .

وفى مواقف أخرى تعلق البيراميد بصراحة فتظهر رأيها وتوضح تأييدها لقضية البلاد التى يدافع عنها الوطنيون ، فتكتب افتتاحية تحت عنوان (حول خطبة) فيها تعليق على خطبة لمصطفى كامل كانت ليتندار أجبسيان قد نشرتها فتقول « أولئك الذين لم يستمعوا له قرءوا خطابه على الأقل ، وإن من ير الطريقة التى كان الناس يختطفون بها « اللواء » بعد ظهر أمس حتى أمام الوزارات نفسها يدرك أن الحركة تزداد كل يوم ضخامة فى الأوساط الوطنية من بعد مأساة دنشواى المروعة . . . وبعد أخطاء دنلوب الضخمة إنه يكون من الافتراء أن يدعى هؤلاء القوم كسب ود شعب بسياسة أساسها الاحتقار الممزوج بالكبرياء والتعالى وعدم المبالاة . يجب على انجلترا أن تفهم هذا جيداً . . . لأن الشرق قاطع فى عاطفته . حبه كبغضه لا يعرفان حدوداً . . . »[3] .

موقفها من كرومر بعد إقالته

ويوماً ينشر كرومر فى إنجلترا حديثاً عن الموقف فى مصر بعد مرور فترة من الزمن على اعتزاله الوكالة البريطانية ، فتنبرى البيراميد للرد عليه فى افتتاحية عنوانها (هو يسهر) وتسخر منه سخرية لاذعة ، وتخاطبه هو والمؤمنين به فى مصر الناظرين إليه رسولاً ، أو إلهاً يرعاهم على البعد والقرب قائلة « إن هذا العجوز (النبيل) يشعر بمصر تفر منه ؛

---

(١) البيراميد فى ٢٠ سبتمبر ١٩٠٧

(٢) البيراميد فى ٢٣ سبتمبر ١٩٠٧

(٣) البيراميد فى ٢٤ أكتوبر ١٩٠٧

فهى لا تود أن تصبح مستعمرة أحلامه وهذه الفكرة تضايقه تماماً ، لذلك لا يستطيع سوى أن يحمل على خليفته لأنه لم يتمكن من أن يشعر المتمردين بقبضته الحديدية . . . وإذا سمح لنا أن نعبر عن أمل فنحن نود أن نقول للسير إلدون جورست أن عليه أن يبرهن عن ليونة فى معاملة شعب كل جريمته — وهى فى نظرنا جريمة مشروعة — أن يطالب باستقلاله »[1]. ذلك موقف الجريدة من بطل الاحتلال ، تنقده نقداً لاذعاً ساخراً مريراً ، وتحاول فيه أيضاً أن تشعر خليفته بحق الشعب فى طلب الحرية والاستقلال .

والبراميد حين لا تنقل للوطنيين مساعى زملائهم فى سبيل قضية البلاد وحين لا تجهر برأيها فى تأييد الوطنيين بمقالات عرفت عنها ، تكتفى بأن تفسح لهم صدرها ينشرون على صفحاتها ما يودون إبلاغه للجاليات الأجنبية فى مصر ، وما يريدون عرضه من قضايا ، ولن نستطيع مهما نحاول حصر الصفحات أو الأعداد التى أفسحتها الجريدة لهذا الغرض أو نلم بمجهودها فى هذا الميدان ، وإن كانت هناك مقالات ممتعة لا ينبغى أن تفوت قارئ البراميد[2]أو مؤرخه. ومن أطرف المقالات الجديرة بالتسجيل خطاب مسيو لمبير بعنوان (دانلوب وسياسته المناهضة للفرنسيين والمصريين . كيف تخنق أمة)[3]. والمقال عبارة عن شرح يقدم فيه المسيو لامبير أسباب استقالته من إدارة مدرسة الحقوق الخديوية ، والوسائل التى اتبعها الاحتلال لإرغامه على التنحى عن منصبه .

حادثة دنشواى

وإلى جانب قضية الاستقلال وجدت مسائل أخرى اعتبرها الوطنيون جزءاً من دفاعهم عن مصر وحقوقها ضد قوات الاحتلال ، وأهم هذه المسائل التى شغلت بال المصريين عامة وصحافتهم خاصة قضية دنشواى ، وموضوع مد أجل امتياز شركة القنال ، فبصدد دنشواى صورت الجريدة مؤمنة الظلم الذى وقع على المصريين من جانب الاحتلال ، وقد جهرت برأيها فى اعتدال حين وقعت الواقعة ، ولكنها اشتدت فى حملتها بعد انقضاء سنوات على تلك الحادثة حين قدم عبدالعزيز جاويش إلى المحاكمة بتهمة القذف فى حق

(١) البراميد فى ٣١ أكتوبر ١٩٠٧

(٢) راجع فى ذلك ا — خطاب مفتوح للسير إلدون جورست بقلم إسماعيل شيمى بك بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٩٠٧

ب — الاحتلال والعرف البريطانى بقلم إسماعيل شيمى بك بتاريخ ٨ يوليو ١٩٠٩

ج — شجاعة شعب مصر ، بقلم إسماعيل شيمى بك بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٠٩

(٣) البراميد فى ١٠ أكتوبر ١٩٠٧

رئيس المحكمة المخصوصة التى فصلت فى قضية « دنشواى » ، وأعضائها وكان ذلك فى سنة ١٩٠٩ ، وقد ثارت الصحف الوطنية فى تلك المناسبة ، وظن الناس أن قضية القذف ستكون مناسبة لإثارة مسألة دنشواى من جديد ، وأدلت البيراميد بدلوها وتحدثت تحت عنوان (دنشواى . إعادة النظر فى القضية) ، مبينة أن إعادة النظر فى القضية بمناسبة هذه المحاكمة فيه جلاء لما غمض من موقف قوات الاحتلال إبان النظر فى القضية أمام المحكمة الخاصة ، وفيه فرصة تتاح للمحاكم العادية لأن تبدى رأيها بالتأييد أو بالنقض فيما صدر عن المحكمة المخصوصة من أحكام ، وذلك كله تراه البيراميد « مناسبة لأن تستخرج من الجرح الشوكة التى تدميه والتى تهدد الاستقرار والأمن فى مصر . »[1].

مد امتياز شركة القنال

أما عن مد امتياز شركة القنال فقد أفسحت البيراميد صدرها لشرح الموضوع وبيان أسانيد مؤيديه ومعارضيه[2]، ودرست كل تفاصيله فى أعداد متتالية نشرت فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من سنة ١٩٠٩ وفى يناير ومارس وأبريل من سنة ١٩١٠ ، ثم أتاحت للأقلام أن تتبارى فى شرح القضية ودراستها ، ونقلت عن الصحافة الوطنية إلى الأجانب رأى الوطنيين ، ونقلت عن الصحافة الأجنبية إلى الوطنيين رأى الأجانب ، ولم يفت (البيراميد) أن تشيد بموقف الحكومة من الجمعية التشريعية حين قررت وزارة محمد سعيد أن رأى الجمعية سيكون قاطعاً فى القضية ، وقد هللت لذلك ، واعتبرت قرار الحكومة خطوة سليمة نحو الديموقراطية الصحيحة وهنأتها عليها مرحبة بالتطور الملحوظ من الحكام نحو المحكومين[3] .

وهكذا ساهمت البيراميد فى الشؤون العامة ففرضت على نفسها أن تكون أداة للإعلان عن نهضة البلاد ، وسوطاً يلهب ظهر الرجعيين ويفضح ألاعيبهم ويحذر البلاد من تعاليمهم ، وقد نقدت الحالة فى مصر محاولة الارتقاء بها إلى مصاف الأمم الكبرى ، وكانت فى ذلك الوقت تتمتع فى مقالاتها وأحاديثها بحرية واسعة النطاق ، فقانون سنة ١٨٨١ معطل ولا

---

(١) البيراميد فى ١٥ يوليو ١٩٠٩

(٢) راجع فصلا خاصا بهذا الموضوع نشرناه من قبل عن موقف جريدة الأهرام العربية فيتبين أن الأهرام كانت أشد عنفاً ، وأصدق تعبيراً . ولا يعيب البيراميد أنها كانت فى شرح القضية معتدلة ، فإنها فى الواقع تخاطب الأجانب لا المصريين .

(٣) راجع البيراميد فى ٢٦ أكتوبر وشهر أكتوبر كله ١٩٠٩ و ٦ نوفمبر ١٩٠٩ و ٧ نوفمبر ١٩٠٩ و ٥ أبريل ١٩١٠

أثر له ، فكانت الصحف تنعم بحرية وشبه استقلال ، وكانت السلطات تترك لها هذا كله ، لأنها ترى فيه صمام أمن يسرى عن البلاد كربتها ويترك للشعور الوطنى أن يتنفس دون أن ينفجر .

مهندس مركز العطف

وكانت البيراميد تنبرى فى كل مناسبة تمس فيها هذه الحرية للدفاع عنها ولبيان فوائدها وللمطالبة بها إن سلبت أو عطلت ، فنجدها مثلا تقدم لنا افتتاحية لاذعة ضد مهندس مركز « العطف » لأنه رفض لممثلى الصحافة أن يتبعوا يخت الخديو بأن أقفل فى وجههم هويساً بعد أن مر منه اليخت ، وتعلق على موقف هذا المهندس بقولها « وقد تبادر إلى الذهن أن ينسب هذا الإصرار من جانب حارس هويس العطف إلى تفان فى الشعور بالمسئولية ولكن لا . . . لأنه يظهر أن هذا الرجل كان يخضع لتأثير ضغينة قديمة . . . لأن مراسل الأهرام كان قد وجه إليه تقدأ .

« لست أدرى إن كان زميلى قد ارتكب هذا الجرم الذى كفر عنه تماماً فى العطف أم لا ولكنى أرثى له ، فهو إما أن يتخذ لنفسه ضميراً مرناً . . . وقلما مدّاحاً وإما أن يجازف أن تكون حياته سلسلة من المآسى . فليترك الصحافة دون تردد وليعمل بقالا أو حلاقاً أو بناء .

« ويل لزميلى إن سمح لنفسه بأن يقول يوماً ما إن امرأة قتلت زوجها لأنه سيصبح يومئذ طريد الجنس الناعم وسوف يعيش حياته فى صحراء العزاب . . .

« ولِمَ يجيز الصحفيون لأنفسهم أن يتكلموا عن الناس ؟ أيها الصحفيون امتدحوا جمال فتاة تتزوج . عددوا مناقب شخص أنعم عليه بلقب فاخروا بأعمال مهندس مصرى . . . ولكن ليقف عملكم عند هذا الحد . . . أجل ستظل خالدة تلك الحكمة التى ألقيت يوماً فى العطف » « أصمت وإلا أغلقت الهويس »

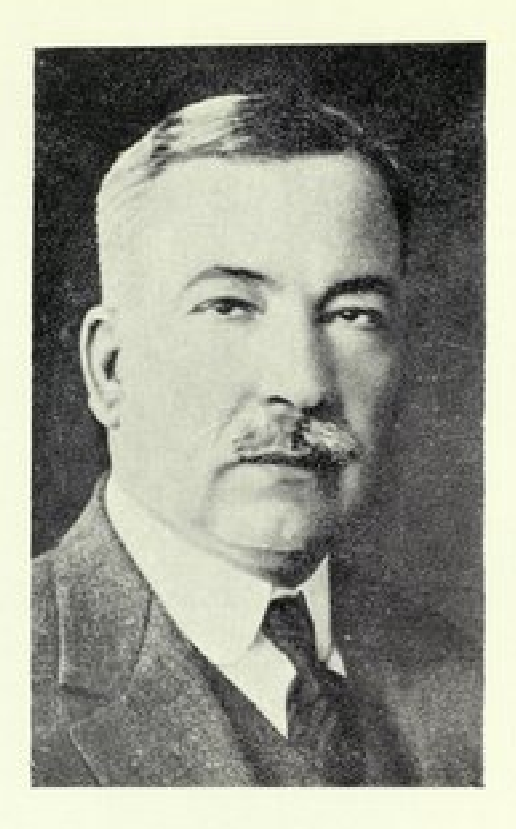
Ferme ta boite ou je ferme l'éclure[(1)]

دفاعها عن حرية الصحافة

تلك هى حماسة البيراميد اللاذعة فى مهاجمة شخص حاول أن يعرقل سبيل الصحفيين فى أدائهم لواجبهم .

---

(١) البيراميد فى ٦ مايو ١٩٠٤



عبد الخالق ثروت باشا



حسين رشدي باشا



عدلي يكن باشا

وهذه الحماسة تتضاعف فى سخريتها إذا كان موضوع البحث اقتراحاً يقدم إلى الجمعية التشريعية من عضو من أعضائها لإعادة العمل بقانون ١٨٨١ ، وذلك موضوع مقال ساخر موجه إلى « طلبه بك سعودى » عنوانه (حرية الصحافة) يسخر فيه الكاتب من محاولة هذا العضو بعث الحياة فى ميت طال رقاده واقتنع الناس بوفاته ، وتعنى الصحيفة قانون المطبوعات الذى صدر قبيل الاحتلال .

وكما تدافع الجريدة عن كيان الصحافة وحريتها فى كل ظرف يقتضى الدفاع فيه عن ذلك الكيان وتلك الحرية ، فهى تعرف أيضاً واجباتها وتعنى من آن لآخر بتفصيل هذه الواجبات كلما أتيحت لها الفرصة ، مثال ذلك أنها نشرت بمناسبة تقرير كرومر سنة ١٩٠٤ افتتاحية طويلة عنوانها باللاتينية ومعناه (لنا) أى ما يخصنا نحن الصحفيين من هذا التقرير : قالت البيراميد : « إذا كان اللورد كرومر – وهو يخصص للصحافة المصرية بعض صفحات من تقريره – لم يقدم للصحفيين ما يرفعهم إلى مراتب النبلاء التى اكتسبوها منذ أمد بعيد فى مجال الحملات الصحفية الصريحة التى لا غرض فيها ، فهو على الأقل قد منحهم للمرة الأولى شهادة عن رضاء الجهات الرسمية ، تتعارض لحسن الحظ مع شعور عدم الاكتراث الذى تكنه بعض الشخصيات الكبيرة للصحافة . . . »

ويسترسل الكاتب بمناسبة هذا التقرير الذى وضعه كرومر فى مناقشة حالة الصحافة المصرية ودراسة ما يحيط بها من ظروف خاصة فيقسم الصحافة إلى قسمين :

١ – صحافة ساقطة رديئة تعين على النميمة والعنف والتعصب الأعمى .

٢ – وصحافة أخرى يصفها بأنها فى مقدورها أن تكون صحافة مفيدة إلا أنها تعيش فى ظروف خاصة ، ثم يأخذ الكاتب فى مناقشة هذه الظروف الخاصة فيرى مع كرومر أن الرأى العام فى مصر ينقسم إلى ثلاثة أقسام تعيش معاً متعارضة الحس مختلفة الرغبات وهى : ١ – الأجانب ٢ – المصريون المتعلمون ٣ – عامة الشعب . ثم يقول إن الصحافة تجد نفسها أمام هذه الأقسام من الرأى العام مضطرة إلى سلوك إحدى سبل ثلاثة . فهى إما أن تكون بسيطة بدائية يفهمها الرأى العام الشعبى ، وإما أن تكون معقدة مرتفعة ليتذوقها كبار المصريين أو الرأى العام النابه ، وإما أن تكون تجارية لا يعنيها إلا رضاء الجاليات الأجنبية .

ويعقب على ذلك بأن حال الصحافة لا بد أن تتغير بمضى الزمان لأن إرضاء هذه

(١) البيراميد فى ٢ يوليه ١٩٠٤

الأقسام الثلاثة للرأى العام مجتمعة لا بد أن يأتى ، ولكن فى انتظار هذا العهد الذى يتم فيه توحيد الرأى العام هل من وسيلة أمام الحكومة تستطيع بها أن تستعين بالصحافة وتستند عليها فى جهودها ؟ الوسيلة هى أن تتيح الحكومة للصحافة نوعين من المساعدة ١ - سند أدبى ٢ - وسند عملى . أما السند الأدبى فبأن تحسن الحكومة معاملة ممثلى الصحافة فى المناسبات العامة إذ أنهم يمثلون الرأى العام ولهم عند الجميع منزلة خاصة . وأما السند العملى فبأن تقدم للصحافة المعلومات صحيحة بدلا من أن تحجبها عنها فتتاح الفرصة لتولد الشائعات الضارة »

ويختم هذا المقال بقوله « نحن لا نشك فى أن اللورد كرومر يتفق معنا على أن هذا الإصلاح البسيط فى موقف الحكومة فيه تغيير موفق لطالع الصحافة المصرية . . . والصحافة فى سعيها لتعميم الثقافة العلمية والأدبية وفى رسالتها التى تدور حول تنوير الشعب والكفاح فى سبيل المنفعة العامة لا تستطيع أن تعتمد على قواها وحدها . فالحكومة هى شريكها الطبعى ولا يكفيها إذن أن تكون موضع اعتراف رسمى وإنما هى تريد أن تشجع بمعاملة خاصة وأن تساعد على أداء رسالتها بصراحة تراعى فيما يقدم إليها من إعلام »[1] .

ولا تقصر البيراميد عنايتها على المسائل الصحفية وحدها ، بل تتعداها إلى كل موضوع يهم البلاد من الشؤون الداخلية ، وما يستلزمه من تغيير أو إصلاح .

العناية بشؤون التعليم

وتناقش البيراميد قضية التعليم وخاصة التعليم الشعبى ، فتحمل على إهمال الحكومة إياه ، وتدعو المصريين إلى الاقتداء بمواطنيهم عيون المنوفية فى اكتتابهم لنشر التعليم فى مديريتهم بإنشائهم جمعية المساعى المشكورة ، ثم تقول « . . . لنوحد جهود كل أولئك الذين يدركون أنه فى سبيل انتزاع مصر من براثن الجهل وتحريرها من عبودية مشينة ، يجب أن يعد لها فى المدرسة جيل جديد أشرب حب أرض الوطن وإدراك حقوقه . . . وحين تؤكد الأمة رغبتها تماماً فى أن تتعلم وأن تنفض عنها غبار الجهل ستزول كل المقاومات التى يبديها بعض رجال الإدارة فى مناهضة رقيها . . . »[2] .

ولها مقال ممتع بصدد الكتاتيب نشرته بمناسبة رياسة سعد زغلول باشا لحفل

(١) البيراميد فى ١٩ أبريل ١٩٠٤
(٢) البيراميد فى ٩ مارس ١٩٠٠

توزيع الجوائز على الفقهاء ومعلمى الكتاتيب ، وبالرغم عن صداقتها المعروفة لسعد وإيمانها بكفايته وحرصها على تأييده فإنها ناقشت بالأرقام حالة التعليم فى مصر وخاصة حالة الكتاتيب وإهمال الدولة لها ، ثم تحمل على الحكومة لأنها تنسب لنفسها فضلا تفاخر به — وهو فضل يعود فى الحقيقة إلى أريحية أبناء الشعب — إذ أنهم وقفوا من أموالهم الشىء الكثير لمصلحة الكتاتيب بينما اتكلت الحكومة على هذا الشعور الطيب من الشعب فأخذت تفاخر بنتائج لم تساهم فيها إلا بنصيب ضئيل . وتضرب البيراميد مثلا على ذلك بقولها إن ميزانية العام الجديد تشمل ٧٦٤٥٠ جنيهاً للمعارف لم يخصص منها للكتاتيب سوى ٣١٠٠ جنيه فقط . . . وتعلق على ذلك قائلة « يجب أن تفكر جدياً — أى الحكومة — فى أن كرم الشعب له حدود وأن هذا الكرم قد لا يستطيع أن يظهر كل عام بالمظهر الذى تجلى به بادئ الأمر . . . » وتدرس صحيفتنا الفرنسية الإحصائية الخاصة بعدد الكتاتيب الموجودة فى القطر المصرى كله وقدرها ٣٣٥٨ كتّاباً يقوم على التدريس فيها ٥١٧١ مدرساً ، وتبين أن نصيب المدرس فى السنة يقل عن نصف جنيه « ولا يوجد فى هذا أى شىء يشرف أو يدعو إلى الفخار »(١).

تأييدها للجامعة المصرية

فالبيراميد إذن فى جانب نشر التعليم بين أفراد الشعب ، وهى تؤيد مشروع الجامعة المصرية تأييداً لا نظير له ، بل تذهب فى تأييدها لذلك المشروع إلى حد أنها تضعه فوق الأحزاب السياسية التى يكتتب لها الناس بمبالغ ضخمة ويهملون الجامعة ومشروعها ، وتكتب فى هذا الصدد مقالا جاء فيه « تحدث الناس كثيراً عن مشروع الجامعة المصرية ، وحين ظهرت فكرتها للمرة الأولى اهتزت البلاد جميعاً بحماسة كريمة ، وأمطرت السماء الاكتتابات من كل جهة . . . ثم فترت هذه الحماسة ، وها نحن أولاء منذ أشهر لم نتقدم عن ال ٢٦ ألف جنيه التى بدأنا بها . . . ألا يظن الناس أن إنشاء جامعة أهلية أجدى بالنسبة لتحرير الأمة المصرية من خلق هذه الأحزاب السياسية التى لا نستفيد منها سوى مضاعفة الخلافات التى تقسم أبناء مصر العزيزة إلى شيع متنافرة ؟ ؟ »(٢). ثم تفسح صدرها لأنطون الجميل أحد كتاب الأهرام ليتحدث عن

(١) البيراميد فى ٦ ديسمبر ١٩٠٧

(٢) البيراميد فى ١١ ديسمبر ١٩٠٧

ضرورة وجود كلية للطب وأخرى للحقوق[1]، وهكذا لم تترك يوماً قضية التعلم فى مصر إلا وكان لها أو لكتابها أو لأصدقائها نصيب فى الرأى والتوجيه .

عنايتها بالشؤون المالية

وهكذا تمضى البيراميد تعالج مشاكلنا الداخلية ، ومن بينها ، « الشؤون المالية » . وهى شؤون لقيت من اهتمامها الشيء الكثير . ونحن نعرض لبعض كتاباتها فى هذه النواحى وهى كتابات كان لشميل ولبشارة تقلا فيها نصيب موفور . ومن أمتع ما كتبه بشاره مقال عن (المؤسسات المالية) يحمل فيه على تساهل القوانين التى تتيح لشركات أجنبية أن تتأسس فى مصر وأن تبتز أموال الشعب وتنقلها إلى الخارج دون رقيب أو حسيب ، ويطلب إلى المصريين « أن يحتجوا بلا انقطاع على مثل هذه القوانين » . ثم يقول « يجب عليهم أن يشجعوا المنشآت المالية الناشئة فى مصر والتى لن تبتعد فوائدها من منابعها ، وأن يبتعدوا عن كل هذه المؤسسات التى تجتاحنا مثل الطيور الساطية تنزل فى البلد الخصيب لتتركه بعد الحصاد » . وهو ينبه مواطنيه إلى الخطر الذى يتعرضون له أو يتعرض له اقتصادهم بتغاضيهم عن هذه الحال فيقول : « إن الحقوق السياسية والحقوق الاقتصادية كلها متصلة اتصالا وثيقاً . لقد تركنا حقوقنا السياسية يعتدىعليها فأعقب ذلك انحلالنا السياسى ، فإذا تركنا الاعتداء يتطرق إلى حقوقنا الاقتصادية فستقبل الخضوع النهائى . . . إن الشعب لا ينهض إلا بفضل ثبات وطنيته . . . والنشاط المتصل لكل مواطنيه المخلصين وهذه هى المشاعر التى ينبغى علينا إيقاظها بأن نثبت كيف أن حقوقنا مهددة فى كياننا الاقتصادى كما هى مهددة فى كياننا السياسى على حد سواء . وإلى هذا الواجب نستنهض ذوى الهمم »[2].

ثم تناقش البيراميد ميزانية الدولة وإهمال السلطات النيابية لها فتقول « أحيطت الجمعية التشريعية علماً بالميزانية فى جلستها المنعقدة يوم الإثنين الماضى . . . ومن الغريب أن يلاحظ أنه اكتفى بجلسة واحدة أو ما يقارب ذلك للنظر فى كل أبواب ميزانية من ١٥ مليون جنيه . صحيح أن البيانات المقدمة لم تتضمن تفصيلات وافية فالإنسان يستطيع أن يجعلها تنطق بما يريد . . . وربما نكون قد فصلنا بما فيه الكفاية هذه الأبواب العجيبة من الميزانية التى تندرج تحت عنوان « مصروفات مختلفة » فى ميزانية كل إدارة أو وزارة من

(١) البيراميد فى ١٩ ديسمبر ١٩٠٧
(٢) البيراميد فى ٩ يناير ١٩٠٠



الدكتور طه حسين باشا



الأمير شكيب أرسلان



المثال محمود مختار

إداراتنا أو وزاراتنا . . . وهذه تمثل تلك الأبواب التى ترصد بمهارة تامة فى مشروع الميزانية لتمر منها بعض المصروفات التى لا يستحب عرضها علانية . . . »[1].

وكما عنيت « البيراميد » بشؤون ميزانية سنة ١٩٠٧ وما تلاها من الميزانيات على مر السنين ، عنيت أيضاً بأن تثقف الشعب ثقافة اقتصادية . فأفسحت صدرها للخبراء الاقتصاديين يعرضون فى المناسبات المختلفة لموضوعات المالية المصرية بالدراسة والتحليل والإرشاد وكان بين المجلين فى هذا المضمار « أشيل صقلى بك »[2].

اهتمامها بشؤون الإدارة

وعنيت ببحث نظم الإدارة فى مصر ومدى صلاحيتها للبلاد ومطابقتها لمقتضى الأحوال ونشرت تقارير اللورد كرومر بوصفه رجلَ الإدارة الأول وناقشتها مناقشة نزيهة وصرفت اهتماماً لدراسة رجال الإدارة فى مصر وما يخضعون له من قوانين وما يقومون به من أعمال[3]. ولها فى ذلك مقال عنوانه « البوليس » ظهر بمناسبة التفكير فى تحسين حال رجال البوليس وإصلاح قواعد اختيارهم وتضمن تأييداً لهذا التفكير واستعراضاً لعيوب النظام القائم ومساوئه[4].

انتقادها للمستشارين الإنجليز

ووالت « البيراميد » نشر مقالات عنوانها « مستشارون » لعضو بارز من أعضاء الجمعية التشريعية يحمل فيها على المستشارين الإنجليز وينقد النظام الذى يخولهم الإشراف على جميع الشؤون فى الإدارات والمصالح التى يعينون فيها لتنفيذ سياسة الاحتلال العليا وتحديد المدى الذى يجب أن تصل إليه مصر من تقدم أو تأخر ، وتحث النخبة المنتقاة من شبان الجيل المثقفين أن ينصرفوا عن الوظائف الإدارية لاستغلال مواهبهم فيما يجدى ويعود بالنفع على وطنهم ، وهى بهذه الدعوة سبقت جميع الصحف وتزعمت فكرة دعاية الشبان إلى ما نسميه اليوم « العمل الحر »[5].

---

(١) البيراميد فى ١٩ ديسمبر ١٩٠٧
(٢) البيراميد فى ٣ يوليو ١٩٠٩
(٣) البيراميد فى ٢١ مارس ١٩٠٠
(٤) البيراميد فى ١٢ سبتمبر و ٢١ سبتمبر و ١٢ أكتوبر ١٩٠٧
(٥) البيراميد فى ١٦ يونيو ١٩٠٠

اهتمامها بالمرافق العامة

وتحث « البيراميد » الحكومة على العناية بشؤون الأمن العام وتعرض لمجالس المديريات ونظامها الإدارى الجديد الذى تعده أول خطوة لإصلاح الإدارة فى مصر .

وقد أصابت المرافق العامة للبلاد من اهتمام البيراميد مثل ما نالت غيرها من القضايا العامة ، فنجدها مثلا تهتم بعاصمة البلاد بما فيها من مرافق وما تحتاج إليه من إصلاحات وتجميل لتكون جديرة بالمقام الذى لها فى التاريخ وفى نفوس الناس وفى نظر السائحين ، فتخصص لمعالجة هذا الموضوع مقالا عنوانه (هواء وماء) قالت فيه « يجب أن يكون الإنسان قد شاهد قاطراتنا الكهربائية يوم الأحد وهى تجتاز بتثاقل وصعوبة كوبرى شبرا الخشبى وتتجه مسرعة نحو روض الفرج مزدحمة كالقاطرات الباريسية وقد ركب العابرون على سلمها ويجب أن يكون الإنسان قد رأى — عندما يخيل إليه — عودة هذه الوفود من الباحثين عن الهواء ، ليفهم كم كان خلق هذا التنفس الهوائى (يقصد روض الفرج) ينجذب مع حاجة قاهرية ملحة . . . » . ويسترسل الكاتب فى استعراض حاجة السكان فى الأحياء الفقيرة فى العاصمة إلى الهواء وسعيهم وراءه بأقل النفقات الممكنة برحيلهم يوم الإجازة إلى روض الفرج ، ثم يخلص من ذلك إلى إثارة مشروع كورنيش النيل الذى هو موضوع حديث اليوم حيث يقول فى ختام مقاله « نحن نطلب من الجيزة وروض الفرج نافذة صحية أو فراغاً أو رصيفاً أو أى شىء من هذا القبيل . . . . »(١).

وبمناسبة تردد شكوى الجمهور من كثرة انقطاع الماء عن المنازل فى العاصمة تنشر البيراميد مقالا عنوانه (القاهرة دون ماء) تجمل فيه ملخصاً لشكاوى الجمهور من شركة المياه وإخلالها بالتزاماتها التى نص عليها فى شروط امتيازها . ويقول الكاتب فى عنف « ربما كانت الشركة تسمح لنفسها بكل هذا لأنه لا توجد فى القاهرة بلدية تضطرها إلى احترام شروط امتيازها » ، ثم تقول ساخرة : « وربما كانت — تقصد الشركة — تؤمن بأن كل شىء أصبح لها مباحاً منذ اليوم الذى أصبح مديرها فيه إنجليزياً »(٢)

ولقيت القاهرة دائماً من صحيفتنا كل عناية ، وقد أعجبنا مقال ممتع لها بعنوان (القاهرة تحتضر) يدرس فيه الكاتب حالة العاصمة من وجهة النظر السياحية بمناسبة حديث له

---

(١) البيراميد فى ١٨ مايو ١٩٠٤

(٢) البيراميد فى أول يوليه ١٩٠٧

مع اثنين من السائحين يعيبان فيه على القاهرة معقبان بأن العاصمة ، تفقد طابعها الشرقى المحبب إلى النفس والذى يجلب إليها أنظار الأوربيين لتتخذ المظهر الغربى وتتزيا بالمدنية الصاخبة ، فتصبح بذلك فى نظر الوافدين إليها من الأجانب مدينة كسائر المدن التى يعيشون فيها ، ويسجل الكاتب فى ختام موضوعة رأى محدثه « . . . ثلاثة أو أربعة أيام تكفينا لزيارة القلعة والأهرام والقناطر وسقارة إلخ . . . ثم نضطر إلى أن نحزم أمتعتنا وأن نرحل إلى مدائن أخرى أكثر اهتماماً بإيجاد المرح واللهو لزوارها . . . » ، ثم يقول « يدرك الناس بأى إحساس مجروح كنت أستمع لهذه الشكايات دون أن أدرى بأى شىء أرد عليها أو أردها »(١)

وإلى جانب هذا الاهتمام الملحوظ بالعاصمة كانت هناك رعاية تضفيها البيراميد على غير ذلك من المرافق العامة ، فهى تكتب مثلا مقالاً عن (المعرض الزراعى) بمناسبة افتتاح الخديو له فى ذلك اليوم معلقة على الفكرة التى دفعت إلى إقامته وتعدد فوائد أمثال تلك المعارض بالنسبة لرقى البلاد وتقدمها ، وتشيد بنجاح معرضنا مقارنة إياه بأمثاله من المعارض الأوربية(٢) ثم تنشر موضوعات أخرى تعالج فيها حالات تتصل بخلق الأفراد وتربية الشعب ، وهى وإن سرها أن تسرع الحكومة فى سن القوانين للقضاء على بيوت الميسر ومواخير الدعارة ، إلا أنها ترجو شيئاً من التروى فى القضاء على تلك المواخير ، وتمنت أن يتم ذلك بعد أن تستطيع الحكومة حماية المجتمع من الأمراض الاجتماعية الخطيرة التى ستصيبه قطعاً إذا لم يسبق إغلاق تلك البيوت احتياط واسع النطاق(٣).

وقد كان للتجارة والصناعة فى مصر نصيب من اهتمام البيراميد ، وقد خصتهما بمقالات فنية دقيقة ناقشت فيها بالأرقام والإحصائيات تطور كل منهما وأثره فى حياة الأمة وكيانها ، مقترحة ما تراه من وجوه التشجيع والتأييد لتجارتنا وصناعتنا ، كل ذلك فى دقة فنية يتعذر علينا فى هذه الإلمامة أن نتوسع فى التفاصيل ورواياتها . ويكفى أن نذكر أن أهم ما عنيت به من الصناعات المحلية ما كان متصلا بصناعة السكر فى مصر غير ما أشارت إليه من ملاحظة تجارة مصر الخارجية وتنظيمها ووسائل الدعاية لها(٤) . وتبين هذه الأمثلة التى ضربناها لعناية البيراميد بالمرافق العامة مدى الاهتمام الذى اهتمت

---

(١) البيراميد فى ٢٦ نوفمبر ١٩٠٧
(٢) البيراميد فى ٩ فبراير ١٩٠٠
(٣) البيراميد فى ٩ مايو ١٩٠٠
(٤) البيراميد فى ٢٩ أكتوبر ١٩٠٧ و ٢٥ يناير ١٩١٠ و ١٩ فبراير ١٩١٠

به صحيفتنا فى شىء من الخبرة والحكمة والفراسة التى سمحت لها أن تتنبأ منذ حوالى خمسة وأربعين عاماً بمشروعات لا نزال نفكر فى تنفيذها اليوم .

اهتمامها بنهضة مصر

كان لكل القضايا العامة التى تمت بسبب إلى نهضة مصر نصيب من اهتمام البيراميد ورعايتها ، فهى تعرضها تارة مكتفية بالعرض ، وتناقشها تارة أخرى مستعرضة ما فيها من نواح نافعة وأخرى ضارة ، مؤيدة ما تراه خيراً ومناهضة ما تراه شراً على نهضة البلاد ، ويحسن أن نكتفى فى هذا المجال بضرب الأمثلة دون محاولة حصر القضايا العامة التى درستها البيراميد أو تناولتها بالبحث ، فقضية الطفولة مثلا أصابت من عناية جريدتنا الشىء الكثير ، فرأينا مقالات عن الطفولة يشيد فيها الكاتب بإنشاء « جمعية حماية الطفوله » التى كانت فى ذلك الوقت تبدأ عملها ، فتؤرخ البيراميد لتلك المجهودات فتذكر مؤسس الجمعية الدكتور عزيز نظمى بك ، وتصور اجتماع علية القوم للاكتتاب لها برئاسة رشدى باشا مدير الأوقاف[1]. ثم تنشر الجريدة قانون الجمعية المذكورة كما وصل إليها وتقدمه إلى قرائها على أنه جزء من العمل الوطنى الذى ينبغى على جميع الأفراد تشجيعه [2] . وكذلك تحظى « الجنسية المصرية » باهتمام صحيفتنا ، ولها فى ذلك مقالات يناقش فيها كاتبنا هذا الموضوع على ضوء فقرات من آخر تقرير قدمه كرومر[3].

ويوم تفرغ القضايا العامة التى تتطلب بحثاً أو تمحيصاً أو درساً ، أو معارضة أو تأييداً ، تعمد البيراميد إلى أداء جزء آخر من رسالتها الصحفية ، وهو الجزء الثقافى الذى وصفته هى نفسها على صفحاتها بأنه « تعميم الثقافة العلمية والأدبية وتنوير الشعب. . . »[4] ونجدها فى هذا المجال تعنى بأن تقدم للقارئ ثقافة مبسطة من أقلام من هم حجة فيما يعالجون من موضوعات ، فماسبيرو Maspéro مثلا يقدم للقارئ الموضوعات القديمة فى أكثر من مناسبة ، فتقرأ له مقالا موضوعه « ماذا كان الموتى المصريون يعملون باللعب الخشبية التى وجدت فى مقابرهم »[5]ثم يكتب مرة أخرى عن « مومياء الملك منفتاح »[6]. وله

(١) البيراميد فى ٩ ديسمبر ١٩٠٧
(٢) البيراميد فى ١٩ ديسمبر ١٩٠٧
(٣) البيراميد فى ٢٥ يوليو ١٩٠٧
(٤) البيراميد فى ١٩ أبريل ١٩٠٤
(٥) البيراميد فى ١٧ يوليو ١٩٠٧
(٦) البيراميد فى ٢٦ ديسمبر ١٩٠٧

كذلك مقال موضح بالرسم عن (خسوف القمر) بعد يومين[1]. وتحدثنا الصحيفة فى جميع السنوات التى ظهرت فيها أحاديث شبه متصلة بعنوان (الحياة الإنجليزية) ، وفيها دراسة طريفة لطرائق العيش عند الإنجليز ، وهى تلم بكل نواحى حياتهم ، وهكذا عنيت صحيفتنا بناحية الثقافة التى كانت غالبة على معظم أعدادها . فالبيراميد كلها – إذا استثنينا المقال الافتتاحى – عبارة عن أبحاث أدبية أو علمية كما تصنع المجلات الأسبوعية لا كما يفترض فى الجريدة اليومية الإخبارية .

عنايتها بالأخبار

لم توضح البيراميد حين أذاعت علينا برنامجها فى أول عدد منها أنها صحيفة للخبر ، ذلك لأن الصحيفة يومية وللسياسة والأخبار فيها كما يفهم المكان الأول . أما النظام الإخبارى فيها فيكاد يبلغ حد الكمال ، فالصحيفة تعنى دائماً بالبحث عن الأخبار الجديدة لتقدمها لقرائها فى نوعين من الأنهر الثابتة ، نهر يحمل عنواناً هو « آخر ساعة » حيناً وكلمة « برقيات » حيناً آخر ، ونهر ثان هو « أخبار البريد » أما النهر الأول ففيه برقيات عن وكالات الأنباء الموجودة وهى رويتر وهافاس تقدم عنهما الجريدة للقارئ موجزاً برقياً لآخر الأنباء الدولية الهامة ، وأما النهر الثانى ففيه رسائل بريدية تقدم للقارئ أخباراً طريفة من الخارج لا تحمل طابع السرعة التى تقضى بأن ترسل إليها برقاً ، وهكذا تستوفى البيراميد ناحية الأخبار الخارجية بيد أنها تقدمها موجزة دون تعليق فى أكثر الأحيان . أما ناحية الأخبار الداخلية فنجدها موزعة على أنهر ثابتة ولها عناوين مألوفة كعنوان « الحياة فى القاهرة » وهو يحمل للقارئ أهم أنباء عاصمة بلاده ، وكذلك احتفظت الإسكندرية بعنوان باسمها تندرج تحته أنباء عاصمة البلاد الثانية ، ويلى ذلك « هنا وهناك » وهى أخبار متباينة عن المجتمع المصرى وما ينتابه من أحداث وما يدور فيه من أمور وما يعرض له من شئون ، وبذلك استوفت البيراميد رسالتها الإخبارية .

ولا يفوت الجريدة فى مناسبات كثيرة أن تقدم لقرائها صورة للمقابلات التى تتم لمندوبيها مع بعض ذوى النفوذ والشخصيات الذين تنشر آراءهم بصدد قضايا معينة يهم الجمهور الوقوف على رأيهم فيها[2].

واعتادت البيراميد – كما اعتادت سميتها العربية – أن تقدم لمطالعيها الخبر وعليه

---

(١) البيراميد فى ٢٦ مايو ١٩٠٠

(٢) البيراميد فى ٢٣ يوليو ١٩٠٩

من التعليق والتفسير ما ينقله أحياناً إلى شيء قريب من البحوث . وآية ذلك أننا نستطيع أن نؤرخ للاتفاق الودى الذى تم بين الإنجليز والفرنسيين سنة ١٩٠٤ على حساب مصر وشمال إفريقية من خلال تلك الأخبار التى ازدحمت بها شهور ذلك العام . فإن البيراميد كانت تنشر الأخبار وتدرس فيها التاريخ والجغرافيا والسياسة الدولية ، فهى تلم إلماماً واسع النطاق بذلك الاتفاق ولا تنشره أخباراً جافة يعسر فهمها على كثير من القراء . وكذلك نستطيع أن نجد هذه الأخبار العلمية — إن صح التعبير — فى الاتفاق الإنجليزى الروسى الذى تم سنة ١٩٠٧ فقد حدثتنا معقبة على الأخبار عن سعى الروس نحو البحار الدافئة ، وبينت كيف كانت تلك سياستها التقليدية ، ونشرت مع تلك الأخبار تعليقات الصحف الإنجليزية عن الموضوع .

وناحية طريفة من نواحى الإعلام فى البيراميد هى تلك التى تقدم فيها الجريدة دراسات موضوعية لا تثيرها أنباء معينة أو أخبار بالذات ، وإنما تقدمها صحيفتنا للقارئ ليكون عن طريقها رأيه فى قضية عامة تشغل البال دون أن تقفز إلى مجال الأخبار أو الإعلام ، مثال ذلك تلك الدراسات الخاصة بالصهيونية التى قدمها لنا أشيل صقلى بك على صفحات البيراميد وحلل فيها مبدأ الصهيونية ودرس أغراضها ومطامعها وعرض لمراميها بفراسة سمحت له أن يسبقنا إلى كتابة ما نكتبه اليوم عن الصهيونية وطغيانها (١) .

إخراج البيراميد

لعلنا قد ألممنا فى هذه الصفحات القليلة بناحية التحرير فى جريدة البيراميد ، أما الإخراج فقد كان إلى حد بعيد موفقاً كل التوفيق ، وقد رأينا رأس الجريدة يتغير ثلاث مرات فى تاريخها كله ، فبدأ فى سنة صدورها بسيطاً فى بياناته ، ثم تعقد بعض الشيء فى مطلع سنة ١٩٠٧ وتبين منه أن الإعلانات فى الصحيفة لم تأتها مباشرة من قبل وإنما جاءت بالواسطة ، وأعلن التغيير الثالث فى سنة ١٩٠٩ أن الجريدة « يومية سياسية أدبية اقتصادية مستقلة تماماً » ، وأنذرت كتاب المقالات بأنها لن تعاد إليهم إذا لم تنشر .

وقد ظلت الجريدة تصدر فى أربع صفحات إلا فترة تنحصر بين ٢٤ أكتوبر ١٩١٣ و ٨ ديسمبر ١٩١٣ فقد أخذت تصدر فى ثمان صفحات صغيرة ، وكان ترتيب صفحات الجريدة غريباً بعض الشيء ، فكانت الصفحة الأولى تقابلها فى نهاية الجريدة الصفحة الثانية — عكس ما هو متبع اليوم فى جميع الصحف — ثم كانت الصفحة الثالثة فى ظهر

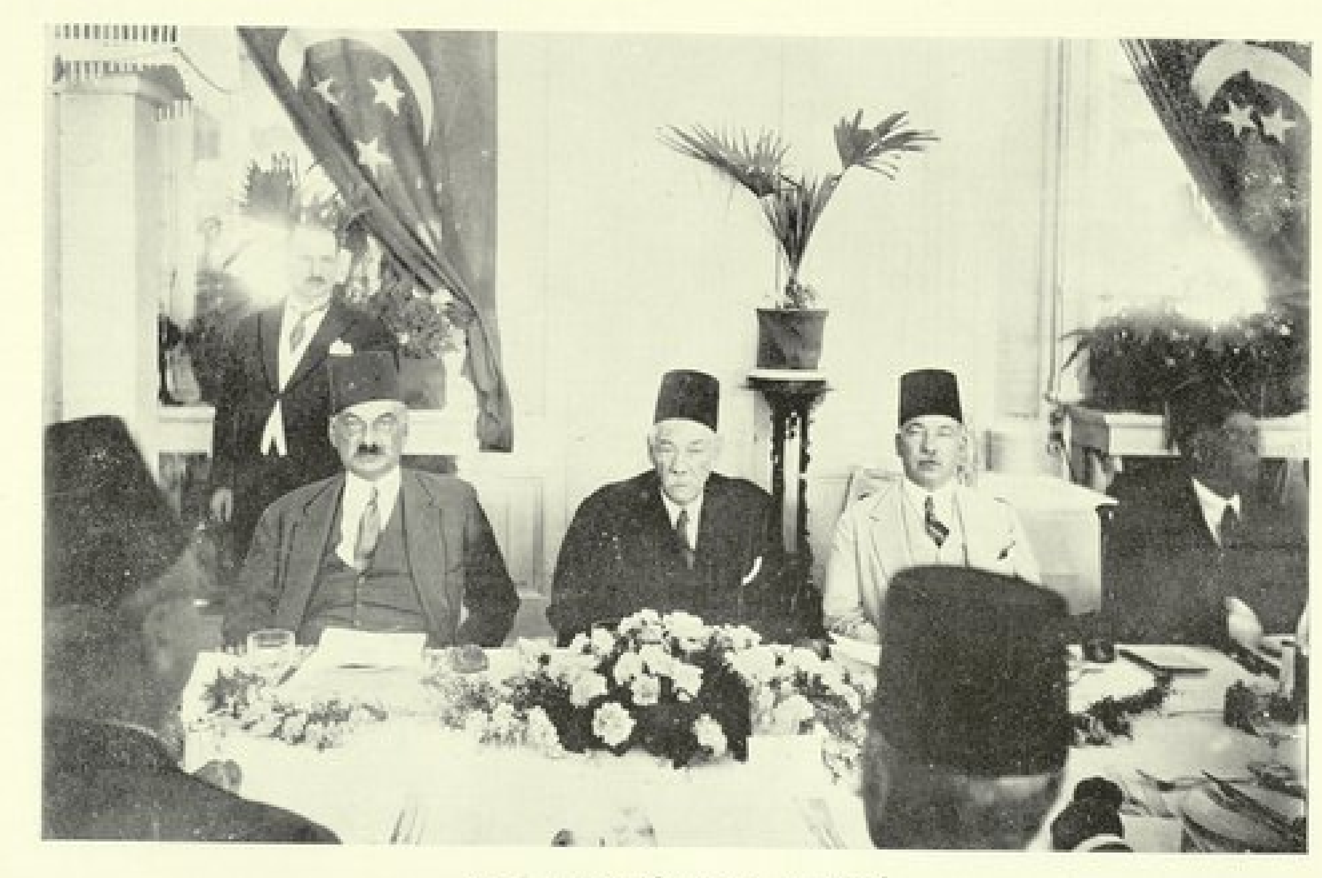
---

(١) راجع الأعداد ٢٨٦١ و ٢٨٦٤ و ٢٨٧٠ من بيراميد سنة ١٩٠٩

الثانية ، والرابعة فى ظهر الأولى بحيث تقع الصفحتان الثالثة والرابعة فى القلب أى فى الداخل والأولى والثانية فى الخارج ، وكانت البيراميد صحيفة يومية مسائية كما كانت زميلتها الأهرام فى تلك الفترة ، وكانت تحتجب فى يوم الأحد من كل أسبوع وفى الأعياد الرسمية للمسلمين والمسيحيين على السواء ، وكانت تعنى بأن تنبه قراءها فى أبرز مكان من صفحتها الأولى بأنها لهذه المناسبة أو تلك ستحتجب عن الصدور . وحدثت أخطاء قليلة نادرة فى ترقيم الجريدة لم تخل صحيفة من مثلها فى ذلك الزمان وقد احتجبت صحيفتنا من ٥ مايو ١٩١٠ إلى ١٩ أكتوبر ١٩١٣ ، ثم عادت إلى الظهور فى ٢٠ أكتوبر ١٩١٣ ، وظلت تظهر إلى أن احتجبت نهائياً بعد العدد ٣٣٧٤ بتاريخ ٤ سبتمبر ١٩١٤

وكانت صفحات البيراميد تنقسم إلى سبعة أنهر فى غير فترة ظهورها فى القطع الصغير ، كل نهر منها عرضه سبعة سنتيمترات ، وكانت المقالات تتلاحق فى الأنهر ولا يفصل بينها سوى خطوط صغيرة تكاد لا تلفت النظر ، ثم عناوين تتغير فى بنط يختلف بين الصغر والكبر على حسب أهمية الخبر أو المقال ، وكانت العناوين أحياناً ضخمة تستغرق عرض نهرين أو ثلاثة أنهر ، وكان بعضها ينشر على عرض الصفحة كلها وفى حروف ضخمة كبيرة حين تذيع خبراً خطيراً كخبر اغتيال بطرس غالى باشا[١] ، أو خبر إعلان الحرب العظمى[٢] . وكان نظام عدد الأنهر يتغير إذا نشرت صورة لأحد من كبار الناس أو رسماً لشىء من الأشياء ، وقد تضمنت البيراميد بعض إعلانات الوفيات فى أحوال خاصة ، وإن نشرت وسط الأخبار العادية، ولكن بين خطوط سوداء كما هى الحال فى سميتها الأهرام[٣]. وقد اعتزت البيراميد بشقيقتها العربية ، اعتزت بماضيها الطويل فنشرت ضمن مقالاتها مقالة يومية تقريباً بعنوان « منذ ٣٠ سنة » وهى فقرات مما نشر فى الأهرام فى سنواتها الأولى .

(١) انظر أعداد فبراير ١٩١٠
(٢) انظر أعداد أغسطس ١٩١٤
(٣) البيراميد فى ١٦ مارس ١٩٠٤



مأدبة الائتلاف فى فندق الكونتننتال عام ١٩٢٦

الكتاب الخامس
١٩١٤ - ١٩٥٠

في جحيم الحرب

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما جاء عنها بالحديث المرجم

« زهير »

هذه حقبة من تاريخ الأهرام، تراها صحف الرأى وفى مقدمتها صحيفتنا تجربة وامتحاناً ، ففى الحرب العظمى الأولى ، شاهدت صحيفتنا لوناً جديداً من الضغط وأسلوباً غريباً من الكبت والتضييق ، فسيف الرقابة قد استل وأصبح مصلتاً فوق رقاب صحافة الفكرة فى السنوات الخمس التى قضتها الأهرام تحت إعنات الحماية والأحكام العرفية ، وما استتبعها من المبالغة فى كبت الحريات وقصف الأقلام .

ولعل من ميزات صحيفتنا (الأهرام) أنها استطاعت — كجريدة رأى وفكرة — أن تعيش فى هذا الجحيم وتقطع لهبه وتصل آخر الأمر إلى بر السلامة ، وذلك فى الحق شىء ينبئ عن كياسة وقدرة فى معالجة الظروف والملابسات ، واجتياز المخاطر فى عزة وكبرياء ، وإن لم يخل عبر ذلك الجحيم من جروح وحروق أصابت الأهرام إلا أنها لم تحرمها القدرة والحياة ، ولا حالت بينها وبين أداء الرسالة الوطنية والصحفية أحسن الأداء .

مقتل ولى عهد النمسا

وتحدثنا الأهرام عن مقتل ولى عهد النمسا وزوجته وهى حائرة حزينة لبلوغ العالم الأوربى هذا القدر من الاضطراب[1] ، ثم تعقب فى افتتاحيتها عن (أمثولة سراجيفو) مبينة المآسى التى تترتب على إهمال رغبات الشعوب وحكمها بالعنف والشدة فتقول « تمر بالأمم حوادث تهزها هز الكهرباء الأجسام ، فتنبه الأذهان وتفتح الأبصار إلى ما

(١) الأهرام فى أول يوليو ١٩١٤

يجرى فى هذا العالم من الشؤون التى تثير الأشجان . ولقد كان مقتل ولى عهد النمسا وزوجته فى سراجيفو من هذا النوع . فقد فتح أبصار العالم إلى درس مسائل علائق الحكومات بالشعب والنتائج التى تنتجها فى مصالح الفريقين » ثم تبين الأهرام هذه النظرة السوداء التى تنظر بها حكومة النمسا والمجر إلى ولايتى البوسنة والهرسك ، فهى حكومة لا تملك عواطف أهل الولايتين ولا تستطيع أن تثق بإخلاصهم « فهى تحاول أن تدبر شؤونهما بشىء من العنف . وكلما شكا الشعب ضغطاً تسكته الحكومة بالوعود أو بقبول بعض المطالب ، ولكنهم لا يقبلون بها اليوم إلا ليسترجعوها غداً » .

وتمضى الأهرام مسخفة الرأى القائل بمسئولية الحكومات الأخرى فى مقتل ولى عهد النمسا « والحقيقة التى لا ريب فيها أنه لا يجب التفتيش عن هذه المسؤولية عند رجال الحكومات الأخرى ، بل يجب على الحكومات التى تحكم شعوباً لا تعرب عن رضاها من الإدارة التى تدار شئونها بها أن تعير مطالب هذا الشعب العناية الواجبة وأن لا تفتش عن مسئولية هذه الأعمال المستقبحة إلا فى نظاراتها وأعمال موظفيها ، لأنهم هم وحدهم الجناة يسببون هذه الحوادث الدموية الفظيعة . فعلى رجال حكومة النمسا والمجر وغيرهم من رجال الحكومات الأخرى الذين يوجدون فى مثل مركزهم أن يتخذوا هذه الجناية الفظيعة أمثولة وعبرة لم يعتبر ون بها ، وأن ينظروا إلى مطالب شعوبهم نظرة عطف ورعاية واهتمام قبل أن يطفح الكيل »[1] .

فالأهرام فى حديثها هذا إنما تريد أن تعطى مثلاً للإنجليز ومن إليهم الذين يترتب على سوء تدبيرهم ارتكاب الجنايات والذين يسمحون بوجود « نظارات » تفسد فى الناس وتخرجهم بخطل الرأى عن وعيهم ، فليس مقتل الأرشيدوق فى اعتبارها أمراً متصلاً بخلاف الحكومات الاستعمارية أو عملاً يقصد به إثارة حرب عامة بل هو عمل يتصل بسوء العلاقة بين الشعب والحكومة ، فلو أحسنت الإمبراطورية النمساوية سياستها لما تعرض أحد لولى عهدها بسوء ، فالشر مصدره الحكومات التى تفسد بعملها حياة الشعوب ، ولا هدوء ولا أمان لحكومة لا يتصل الود بينها وبين رعاياها .

وقد شغلت الأهرام معظم صفحاتها الخاصة بالشؤون الخارجية بحادث ولى عهد النمسا وما يقال فيه وما سوف يترتب عليه من الآثار[2] ، والذين يعودون إلى ما نشر من برقيات وما جاء عليها من تعليقات الأهرام يتبين إلى أى مدى كانت صحيفتنا تكشف عن مستقبل الأيام كشف العالم ببواطن الأمور الخبير بسياسة الأمم والحكومات .

---

(١) الأهرام فى ٢ يوليو ١٩١٤

(٢) الأهرام فى شهر يوليو ١٩١٤



مصطفى النحاس باشا



محمد حسين هيكل باشا



حافظ رمضان باشا



مكرم عبيد باشا

ولم يحجب نشاطها فى دراسة هذه الأزمة التى انتهت بقيام الحرب العظمى ، إلا خبر الاعتداء على الخديو عباس الثانى فى الآستانة[1]. وقد استغرق التعليق على خبر الاعتداء عدة أيام من صحيفتنا ، وتضمن برقيات خاصة وعامة ومقالات هى فى الحق صور من الأدب الرفيع فى أسلوب بلغ القمة فى اللفظ والتعبير[2].

نشوب الحرب العالمية

ثم نشبت الحرب بين النمسا والصرب ، وأخذت الأهرام تنشر برقياتها الخاصة عن موقف الدول من هذه الحرب الجديدة وتعنى أول ما تعنى « بالحرب العمومية المتوقعة وتأثيرها السياسى والمالى فى القطر المصرى » وهى لا تحب أن يجزع الناس من هذا النبأ ولكنها تريد أن يكونوا على بينة من الأمر فلا تدهمهم الحرب العامة ولا علم لهم بموقفهم أو بما سينالهم من شرها « إنما يجب أن نقدر ما لا سبيل إلى الوقوف عليه تقديراً من قبيل الاستنتاج ، وهذا لا يصعب على من ينظر إلى موقف مصر السياسى ، فنحن فى قطر تحتله انكلترا وتجاوره إيطاليا ، وانكلترا داخلة فى المعترك الدولى لا محالة . ونحن من زمن طويل نسمع بأن انكلترا تخشى أن تهاجم المانيا مصر نكاية بها لأنها تحسدها على مركزها الخطير فى وادى النيل ووقوفها على باب البحر الأحمر . . . »[3].

وتصدر الأهرام فى الأيام التالية زاخرة بالبرقيات الخاصة التى تفردت بها تقص حالة الحرب وما دخل فيها من الدول وما حاد منها عن سعيرها [4]ثم بدأت تنشر الخرائط الكبيرة فى صفحاتها الأولى توضح عليها بعض مناطق القتال بجانب ما نشرته فى محلياتها من ترك مصر للحياد ، واستغاثة المصريين فى الخارج بحكومتهم ، مبينة الظروف التى جعلت مصر تقف دون الحيدة ، وهى تبين ذلك فى لباقة فتعلن اضطرار مصر إلى ذلك بضغط من الإنجليز أصحاب الأمر فيها[5]. وهى حين تضمن صفحاتها تلك الأنباء المتصلة بمصر فإنما تسجل لنا فى تاريخ بلادنا صورة رائعة مروعة عن الحالة لا زخرف فيها ولا تعقيب عليها .

وقد زادت البرقيات الخاصة زيادة ملحوظة وتضاعفت على مر الأيام بالرغم من

(١) الأهرام فى ٢٥ يوليو ١٩١٤
(٢) الأهرام فى ٢٨ يوليو ١٩١٤
(٣) الأهرام فى ٢ أغسطس ١٩١٤
(٤) الأهرام فى ٣ و ٤ أغسطس ١٩١٤
(٥) الأهرام فى ٧ أغسطس ١٩١٤

أن الأهرام قد أنقصت عدد صفحاتها فكانت تصدر فى ست صفحات خشية نفاد ما عندها من ورق قبل إعداد العدة لمستقبل الأيام ، وقد أنشأت الأهرام بجانب فيض برقياتها الخاصة والعامة عن الحرب باباً جديداً سمته (مصر فى الحرب العامة — أخبار شتى) انطوى هذا الباب على سجل لمصر فى ذلك الوقت ، ودخل فيه كل ما يهم البلاد عن الحرب وما تأثرت به منها ، كما أن الخرائط الحربية للمواقع البرية والبحرية كانت تحتل مكان الصدارة فى صحيفتنا ، فلم يكن يخلو يوم من خريطة تشغل حيزاً كبيراً من صفحاتها الأولى ، هذا إلى الجديد فى تصوير القوى المناضلة فى تلك الحرب برسم صور البوارج المختلفة والمدافع المستعملة وأعلام رجال الحرب[1] .

وثبة الوحشية على المدنية

ولم تترك الأهرام الحرب وآثارها على المدنية وتأثيرها فى البشرية دون تعليق ، فقد رأيناها بين حين وآخر تعرض لها فى أقلام محرريها وخاصة رئيسهم داود بركات ، تصفها وتوضح ما جرّته على المشتركين فيها خاصة وعلى العالم أجمع من ويلات وشرور ، وفى ذلك كتب رئيس التحرير أكثر من مرة فحدثنا فى إحداها عن (هبّة الوحشية على المدنية) بقوله « لقد كانوا يعدون الحرب فى الأزمان الغابرة فصداً ينزف به الدم الراكد الفاسد فى جسم الأمة ، وهزة توقظ النائم وترسل فيه الهمة والنشاط وإن لم تخرج عن كونها شراً كبيراً ووحشية فى الإنسان يأباها الكمال وينبذها العقل .

« أما الحرب المتقد اليوم سعيرها والمتسعر الآن أتونها . فهى ليست فصداً بل ذبحاً . وهى ليست يقظة بل موتاً . وهى ليست نشاطاً بلى هموداً . بل هى ليست نزف دم فاسد راكد . بل نزف دم الحياة والعلم من شرايين المدنية لا فى الأمم المقتتلة فقط بل فى الإنسانية كلها حتى الزنجى الأسود فى عشته والصينى الأصفر فى كوخه ، والهندى الأسمر فى صومعته ، لأن الإنسانية كلها أفراداً ومجاميع تستمد المدنية الصحيحة والحضارة والعلم من المقتتلين » .

ثم يمضى الكاتب فى تصوير تلك الحرب المروعة قائلا « فهل يجد الذين ساقوا الأمم المتمدنة التى هى الآن نور العالم كله وينبوع علمه وتهذيبه ورقيه وتقدمه ونجاحه علة يعللون بها عملهم الفظيع الذى تدك لذكره الجبال إذا أحست دكاً ، وترتعد الأرض لرؤيته لو نظرت ارتعاداً ، وتخر النجوم لهوله لو شعرت خراً »[2] .

---

(١) الأهرام ابتداء من ٢٨ أغسطس ١٩١٤
(٢) الأهرام فى أول سبتمبر ١٩١٤

وقد مضت الأهرام فى صفحاتها الست على هذا الغرار تروى قصة الحرب وفظائعها وتسجل فى التاريخ حوادثها ، فى المقال والخبر والصورة والرسم ، متحدثة عن آثار ذلك كله فى سياسة مصر واقتصادياتها ، وأحجمت بالطبع عن التعرض للشؤون السياسية الداخلية إلا فيما ندر ، وتعرضت أحياناً لضغط الرقيب وإنذاراته ، وعرضت ذلك فى مقالات تولى تحريرها خليل مطران ، وهى مقالات فى الأدب والاجتماع والاقتصاد[1] إلى كثير من رسائل الكتاب والأدباء المعاصرين وفى مقدمتهم أحمد شوقى بك فى أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعطت الموقف الحربى أو الأقتصادى أو السياسى الدولى كثيراً من العناية والتقدير ، وتحسنت على مر الأيام حالة الرسوم والخرائط التى أصابها التوفيق بالقياس إلى ما كانت عليه فى الصحف المعاصرة .

سيف الرقابة

ومنذ نوفبر سنة ١٩١٤ بدأت الأهرام تعانى من تدخل الرقابة وغلظة الرقيب ، واشتدّ الضغط بعد أن دخلت الدولة العلية الحرب ضد روسيا[2] فأصبح القارىء يرى الكثير من أنهر الأهرام بيضاء بفعل الرقابة التى أجرت فيها الشطب وفرضت صدورها من غير تلك الموضوعات[3]، وقد اتخذت الأهرام منذ ذلك الوقت صفحتها الأخيرة مكاناً خاصاً للصور والرسوم[4]وكانت من قبل وقفاً على الإعلانات القضائية التى كانت تتلقاها من المحاكم المختلطة .

تاريخ الحماية

وأرخت الأهرام فى سجلها للحماية التى فرضها الإنجليز على مصر وقطعوا بمقتضاها الصلات التى تربطها بتركيا ، وأعلنت وسائلهم فى الدفاع عن وادى النيل[5]، ونشرت أنباء مفصلة عن (التغيير العظيم فى مركز القطر المصرى) وترجمت « حديث عطوفة حسين رشدى باشا رئيس النظارة المصرية وقائمقام سمو الخديو »[6] مع مراسل جريدة

(١) الأهرام فى ٧ سبتمبر ١٩١٤
(٢) الأهرام فى أول نوفبر ١٩١٤
(٣) الأهرام فى ١٠و١١و١٢ نوفبر ١٩١٤
(٤) راجع الأهرام فى ديسمبر ١٩١٤
(٥) الأهرام فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤
(٦) الأهرام فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤

الديلى كرونيكل ثم نشرت نبأ خطيراً عن خلع عباس الثانى وتعيين « السلطان الكامل حسين الأول سلطان مصر والسودان .

تحية السلطان الكامل

وبجانب هذا النبأ الخطير طلعت على قرائها بصورة للسلطان الجديد ، محيية له مقدرة لتاريخه ، وهى من قبل كانت حفية به معجبة بمواقفه المشهودة فى مجلس شورى القوانين ، وفى نشاطه العام حينما كان أميراً يرعى النشاط الدستورى ثم النشاط الزراعى من بعده ، وأبرزت فى تحيتها للسلطان الجديد تهنئة شعرية لحافظ إبراهيم بعنوان (ألا سر يا حسين ونحن نتلو)[1] ، وقد استغرق استقبالها لسلطان مصر والسودان زهاء صفحتين نشرت فيهما التبليغ الوارد إلى الحضرة السلطانية من قبل الحكومة البريطانية والأمر الكريم السلطانى الصادر لرشدى باشا وجواب رئيس الوزارة على سلطانه ، ورسائل التأييد وبرقيات الابتهاج وكتب التهنئة المتبادلة بين ملك انجلترا وعظمة سلطان مصر والسودان ، وما إلى ذلك من رسائل تبودلت بين صاحب العرش الجديد وبين من يعنيهم الأمر من مصريين وانجليز ، وحاول الكاتب أن يعلق على هذا الذى حدث فى مصر تحت عنوان (السيادة والحماية) فجاء تعليقه مبتوراً لكثرة ما أصاب المقال من شطب وتغيير[2].

معنى الحماية

ولم يفهم الناس معنى الحماية التى فرضت على بلادهم فأخذت الأهرام على عاتقها شرح ذلك كله فى مقالات كان من أهمها مقال بعنوان (مستقبلنا) تحدثت فيه عن التبعية الأولى للدولة العثمانية فى الوقت الذى كان الاحتلال الإنجليزى جاثماً على النفوس فكان الناس « فى حالة مبهمة لا يعدون مستقلين ولا يعدون تابعين ولا يحسبون أحراراً متبوعين ، « أما الآن فإنهم أمام القانون الدولى أحرار مستقلون كل الاستقلال لأنه صارت لهم (شخصية مستقلة) والحماية ليس معناها التابعية كما فهم الأكثرون » ثم تعقب على ذلك بأن مستقبل مصر على أى حال « وقف على ما يظهره المصريون من الكفاءة والجدارة والهمة والنشاط والنزاهة[3] » .

ومضت الأهرام تعبر الجحيم — جحيم الحرب — بكياسة حففت من ضيق الرقابة ،

---

(١) الأهرام فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٤

(٢) الأهرام فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٤

(٣) الأهرام فى ٢٨ ديسمبر ١٩١٤



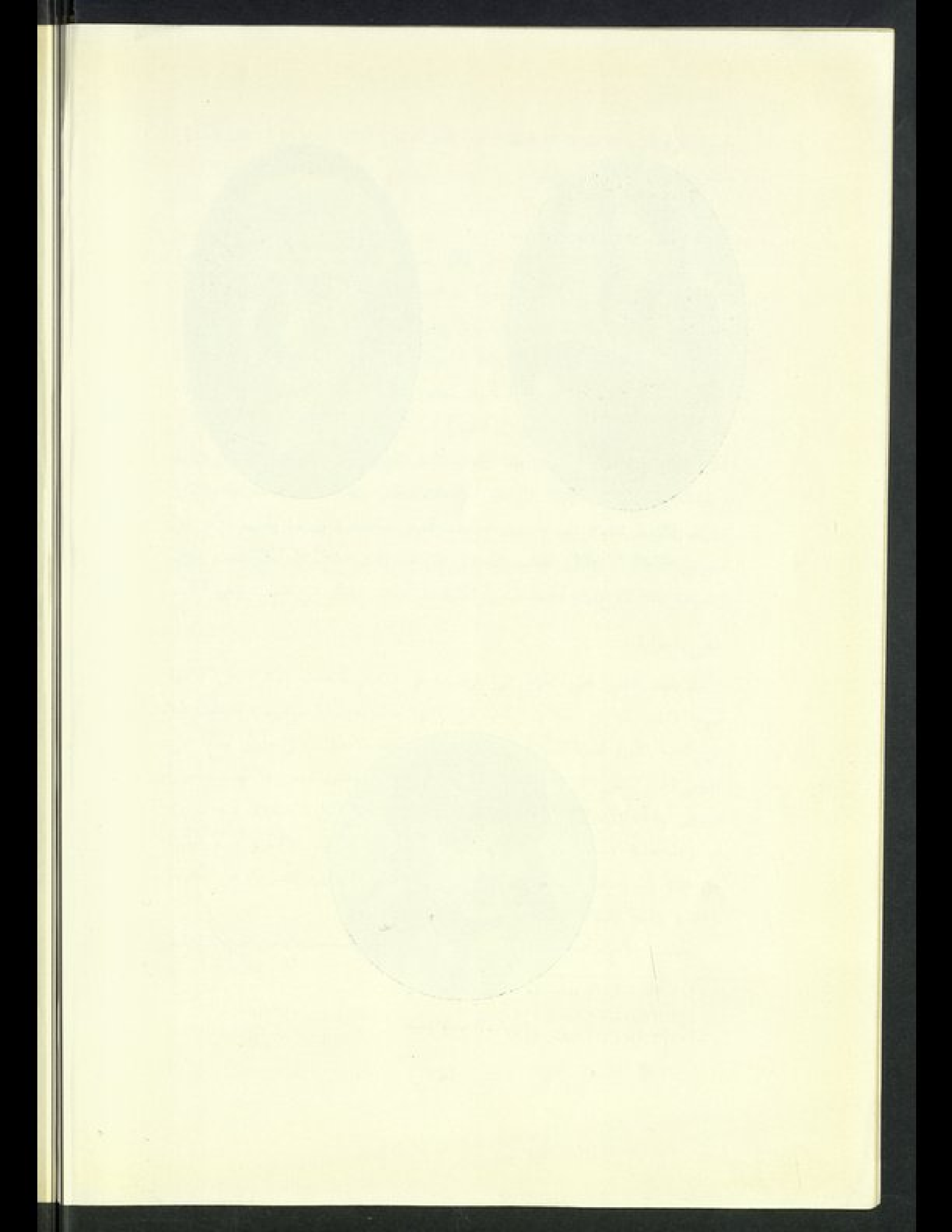
أم المصريين
صفية هانم زغلول



زعيمة النهضة النسوية فى مصر
هدى هانم شعراوى



فقيدة الأدب الآنسة مى



فقد كانت الأهرام تنشر بعض الأنباء على مسؤوليتها ودون رغبة الرقيب ، فإذا تبين لها أن الخبر يحتمل التكذيب كما يحتمل التصديق ، عادت فنشرت من نفسها التكذيب أو التصحيح ، ويؤكد لنا ذلك خطاب من إدارة المطبوعات إلى أحد المسئولين الإنجليز جاء فيه « بمجرد وصول خطابك المؤرخ فى ٢٤ الجارى اتصلت بمدير الأهرام لأحدثه بشأن الخبر الذى نشر فى هذه الجريدة فى ٧ الجارى . . . وقد لفت نظرى تقلا بك أن الأهرام قامت بنفسها بتكذيب الخبر المذكور فى رسالة نشرتها يوم ١٧ الجارى »[١].

شكل الأهرام

وكانت الأهرام فى ذلك الوقت على ما هى عليه من حيث الحجم وعدد الصفحات ، وإن كان متوسط عدد الصفحات يترجح بين ست وعشر صفحات ، فى كل صفحة سبعة أنهر ، إلا أن أبوابها قد أصابها من حيث التفاصيل شىء كثير ، فقد زادت برقياتها الخاصة ورسائل مكاتبيها الخصوصيين ، وظهرت مقالاتها فى سياسة الداخل والخارج متميزة بالنقد السليم والتحليل المنطقى والتعليقات الصادقة وإن غلبت عليها عناية ملحوظة بالحياة الاجتماعية فى مصر ، هذا إلى التحسن الظاهر فى الصور الزنكوجرافية والخرائط الحربية التى نقلت الأهرام إلى صحيفة يومية مصورة مطبوعة طبعاً أنيقاً زاخرة بالإعلان الشعبى والحكومى .

عنايتها بالأدب والشعر

وكانت عنايتها بالأدب والشعر أكثر بروزاً من ذى قبل ، وهى تتخذ من تلك العناية بالآداب والفنون مطية لتنبيه الرأى العام ووقفه على ما جريات الحوادث ، لذلك كانت قصائد شوقى وحافظ إبراهيم وخليل مطران وغيرهم تلقى صدراً رحيباً منها ، وتشغل بعض صفحاتها فى كثير من الأيام ، بجانب أحاديثها الكثيرة مع الرجال المسئولين فى موقف مصر وتطور حياتها الجديدة وسياسة الحكومة فيها ، مستوضحة منهم عما سينال الوطن من خير بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وكان يقوم بهذه الأحاديث رئيس تحريرها داود بركات[٢] أو صاحبها جبرائيل تقلا[٣].

وهى تتخذ من الحوادث الكبيرة فرصة للتحدث فى شئون مصر الداخلية فى رفق لا يؤذيها

(١) وزارة الداخلية ، محفوظات المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ١٩٤٦/٢ فى ٢٥ فبراير ١٩١٥
(٢) الأهرام فى ٧ يناير ١٩١٥
(٣) الأهرام فى ١٠ سبتمبر ١٩١٥

أو يحول بينها وبين أداء رسالتها ، فإذا عين السير آرثر هنرى مكماهون مندوباً لبريطانيا فى مصر نشرت الأهرام فى صدرها صورة له وتحتها بضعة أبيات من الشعر لحافظ إبراهيم بعنوان « ماذا تريد » يقول فيها :

وضّح لمصـر الفرق مـا ... بين السـيادة والحمـاية
ودع الوعـود فإنهـا ... فيما مضى كانت روايـة
أضحت ربوع النيـل سلط ... ـنة وقـد كانت ولايـة
إنـا بلغنـا رشـدنـا ... والرشـد تسبقـه الغوايـة
لا تأخـذونـا بالكـلا ... م فليس فى الشكوى جناية

ثم تعلق الأهرام على القصيدة فى مقال تروى فيه ما يريده المصريون وهو « أن تكون الحماية شيئاً موقوتاً تنتهى بانتهاء الحرب وتنال مصر استقلالها التام جزاء موقفها السليم من الحرب الدائرة »[1]. ثم نشرت الأهرام إلى جانب الشعر ومقالات الأدب والاجتماع قصصاً مسلسلة كان يرويها فى العادة سليم سركيس بعنوان (الشىء بالشىء يذكر) ، وهى قصص تتفق ومقتضى الحال كقصة « أسرار وزارة الحرب الألمانية » لأحد جواسيس الألمان وقصة الجاسوسة الراقية[2]. وأخذت تقدم لقرائها ترجمة لكتاب اللورد كرومر عن أسباب الخلاف بينه وبين الخديو السابق [3].

تعليقها على الأنباء

وكان من أهم أبواب الأهرام فى تلك السنوات العجاف مقالها الذى جاء تحت عنوان (حول التلغرافات) فإن الكاتب قد أخذ على عاتقه فى كل يوم مراجعة البرقيات سواء كانت خاصة أو عامة ، ومعالجة ما تضمنته من أخبار وتحليل ما بين السطور من حقائق ، وتقديم صورة جلية للموقف السياسى والحربى تنبىء عما بعدها من أحداث . وقد كانت تلك المقالات كافية لفهم الحقائق فهماً واضحاً يغنى كثيرين عن الرجوع إلى البرقيات ثم غيرت الأهرام العنوان وجعلته « حروب الأمم » تجمل تحته خلاصة للبرقيات ، وتعود كما ذكرنا إلى التعليق عليها تعليقاً يتميز بالدقة والصراحة التى لا تفسد جوها مع الرقابة والرقيب[4].

(١) الأهرام فى ١٠ يناير ١٩١٥
(٢) الأهرام فى ٧ مارس ١٩١٥
(٣) راجع الأهرام فى فبراير ١٩١٥
(٤) راجع الأهرام منذ أبريل ١٩١٥

الأهرام سجل الحوادث

وهكذا أصبحت الأهرام فى اتزان واعتدال مأخوذ من طبعها القديم سجل الحوادث وعنوان الأيام ، تستطيع أن تقرأ فيها حوادث الزمن ، فهى تعطيك صورة عادلة لقصة الاعتداء على السلطان حسين[1] وما آل إليه المعتدى[2]. ثم إذا هدأت الحال واستقامت الأمور وخلت حياة الداخل من الاضطرابات عادت إلى نشر قصائد الشعراء محتفية بها وخاصة قصائد أميرهم أحمد شوقى بك ، فقد نشرت له قصيدة فى مائة وثلاثة وخمسين بيتاً عن (النيل) ولم تنشرها من غير تعليق ، فهى المعجبة بشاعر العرب الممجدة له فى كل آن ، تسعد وتتحف – على حد قولها – قراء الأهرام « بقصيدة من الشعر الذى تتقاصر دونه القرائح وتقطع دون بلوغ مغزاه وسناه الأعناق . فهى فى شعر العرب درة وهى من شعر العرب كجوامع الكلم ، جمعت بين الطلاوة والرشاقة والحكمة والبيان وإن من البيان لسحراً »[3].

ولقد حاولت الأهرام – ولشد ما كانت محاولتها مضنية – أن تظل صورة قوية لحياتها التى كانت عليها قبل قيام الحرب ، فهى تنشر الأدب شعراً ونثراً ، وتعالج النقص فى حياتنا الاجتماعية ، وتقتنص من الدهر الشحيح الفرص للتحدث فى السياسة الداخلية . تحاول ذلك كله حتى تربط بين حاضرها وماضيها ، فإذا رأت من الناس استعداداً لمناقشة السياسة الاقتصادية للبلاد أدلت بدلوها وعادت إلى الحديث فى مشروع بنك مصر « ينادون الآن من كل جانب بضرورة إنشاء بنك وطنى مصرى يكون بنكاً لبنوك مصر تعتمد عليه فى إبان الأزمة ووقت الضائقة ويعين البلاد حينما ينقطع عنها المساعد والمعين من جانب أوربا » . ثم تمضى مزكية للفكرة مدعمة لها حاثة على تنفيذها[4] .

تحيتها للسلطان فؤاد

وقد أثر عن الأهرام حفاظها لليد واعترافها بالجميل ، فهى منذ توسط لها الأمير توفيق عند الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٩ – وكانوا قد دسوا لها عنده – شديدة الإيمان بأسرة محمد على ، ترى ذلك فيما نشرت عن البيت الملكى ، فإنها حزينة أشد الحزن

(١) الأهرام فى ٩ أبريل ١٩١٥
(٢) الأهرام فى ٢٥ أبريل ١٩١٥
(٣) الأهرام فى ٧ مايو ١٩١٥
(٤) الأهرام فى ١٤ مايو ١٩١٥

لوفاة السلطان حسين كامل[1] مرحبة بالسلطان الجديد «أحمد فؤاد الأول بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على».

وهى تذكر للسلطان الجديد مكانته من حياة الشعب منذ أشرف على الحياة العلمية الرفيعة فى مصر ، تذكرها فى جميع المناسبات ، ما مضى منها وما سوف نراه فى مستقبل الأيام ، تذكر له أياديه على إنشاء الجامعة المصرية ، ونصيبه الموفور فى رعاية الجمعية الجغرافية وجهده المشكور أثناء رئاسته لجمعيتى الإسعاف العمومية والهلال الأحمر.

وقد صدقها الزمن فإذا عهد الملك فؤاد عهد حافل بكل مميزات الأمم الحية ، فى أيامه نالت مصر لوناً من الاستقلال الملحوظ وأصبح الأمر شورى بين المواطنين ، وازدهرت الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية وتعززت النهضة العمرانية وتطورت الحياة العلمية والزراعية ، ودب النشاط فى جميع فروع الحياة الأخرى.

وبعد ، فإن الأهرام مضت قدماً تحاول جهد الطاقة أن تحافظ على مستواها العالى فى تحرير المقالة والخبر وترجمة البرقية خاصة وعامة ، وتؤرخ للحرب العظمى تأريخاً بديعاً فى تعليقاتها المتصلة يوماً بعد يوم ، إلا أن الحرب أثرت فيها تأثيراً بليغاً من حيث عنصرها المادى ، فقد كانت قبيل تلك الحرب تصدر غالباً فى عشر صفحات من الورق الجيد ، فإذا هى تضطر فى معظم سنوات المعارك إلى الصدور فى ست صفحات ، ثم تضطر أحياناً إلى طبع الإعلانات القضائية فى ورق خشن برتقالى اللون[2] ، وصدرت كلها أحياناً فى ورق أقل جودة من ورقها القديم وفى أربع صفحات فقط[3] ، وهى مع ذلك تحتفظ بثمنها الرخيص ، سواء أكانت عشر صفحات أم أربعاً حتى لا تكلف القارئ فوق طاقته ، بينما نجد غيرها من الصحف قد زاد ثمن صحيفته أو قلل من مجهوداته ووفر من الورق ولم يكلف نفسه صورة أو رسماً أو برقية خاصة.

تقييد الصحف

واشتدت أزمة الورق فى سنه ١٩١٧ ، والأهرام تجاهد وتكافح لتحتفظ بمكانتها الصحفية المرموقة ، وضجت الصحف الأخرى من تكاليف الإصدار فتدخلت الحكومة فى الأمر وذكرت الأهرام ذلك تحت عنوان (جهاد الصحافة المصرية فى الحرب

(١) الأهرام فى ١٠ أكتوبر ١٩١٧
(٢) الأهرام فى ١٦ يونيه ١٩١٥
(٣) الأهرام فى ١٣و٦ ديسمبر ١٩١٥

وقرار السلطة العسكرية بانتقاص المقطوعيـــة . ثمن الورق تضاعف ٥ أضعاف وثمن الصحف ظل على حاله) ، ثم علقت قائلة « جاهدت الصحافة المصرية هذا الجهاد الحسن وثبتت وواصلت العمل كعادتها فى أيام السلم . ولم تكتف « الأهرام » بكل ما تقدم بل زادت أنباءها التلغرافية الخصوصية زيادة كبيرة جداً حتى لتحسدها أكبر جريدة أوربية فى أوربا ذاتها على أنبائها ورسائلها » . ثم تذكر الأهرام أمر السلطة العسكرية الذى يضع للصحافة ومواعيد صدورها نظاماً يتوافر فيه الورق وتنقص المقطوعية ، وتعلق الأهرام على ذلك الأمر فتقول « فبناء على هذا الأمر العسكرى الواجب إطاعته :

١ – تصدر الأهرام من غد ١٧ يونيو فصاعداً ست مرات فى الأسبوع .

٢ – تنقطع يوم الإثنين من كل أسبوع عن الصدور .

٣ – تظل الأهرام على حجمها الحالى أى ست صفحات وقد تزيد إلى ثمان إذا رأت ما يدعو إلى ذلك .

٤ – عملا بأمر السلطة العسكرية يكون ثمن العدد الواحد من الأهرام قرشاً صاغاً .

٥ – يظل حجم الأهرام وهو الحد الأقصى للصحف على ما حددته السلطة العسكرية

٦ – قيمة الاشتراك لا تزيد على ما هى عليه الآن فالذى يرسل إلى إدارة الأهرام اشتراكه مقدماً يظل على الثمن الأول . ولنا الأمل بأن تزيد الأهرام فصولا وأنباء ومقالات تجعل زيادة الثمن بأمر السلطة العسكرية أقل من قيمة ما يجده القارىء الكريم مما يشوق إلى مطالعته وقراءته ومما يتفق مع مصلحة الشعب ويخدم مصالحه »[1].

وبعد ذلك بأيام قرأنا بياناً موجهاً من الأهرام إلى (قراء الأهرام) جاء فيه أنها قد تلقت من إدارة المطبوعات أنه « تقرر عدم العمل فى الوقت الحاضر بالفقرة الخامسة من القواعد الخاصة بتخفيض مقطوعية ورق الطباعة القاضية باقتصار الجرائد التى تباع بنصف القرش على صحيفتين بدلا من أربع صفحات فى أربعة أيام من الأسبوع » ، ثم تضيف الأهرام قائلة « فاخترنا إصدار الأهرام بأربع صفحات منذ اليوم وجعل ثمنها ٥ مليمات وهى بحجمها تسهل على القراء مشتراها كالعادة ويسهل علينا استيعاب المواد والأنباء »[2].

كيف استطاعت الأهرام أن تؤدى رسالتها الصحفية مع هذا القصور فى عنصرها

---

(١) الأهرام فى ١٦ يونيو ١٩١٧

(٢) الأهرام فى ٢١ يونيو ١٩١٧

المادى ؟ استطاعت الأهرام ذلك لأنها كانت تستعمل فى جمع بعض صفحاتها ماكينات اللينوتيب ، وبذلك أفسحت بحروفها الصغيرة مكاناً لاستيعاب معظم المواد التى اعتاد القراء أن يختلفوا إلى قراءتها فى كل صباح ، فهى منذ يوليو ١٩١٧ تصدر فى أربع صفحات ، كل صفحة تشتمل على سبعة أنهر فى حروف صغيرة عن ذى قبل ، وقد عالجت الأهرام أمرها فاختصرت إلى الثلث الجزء الذى كانت تخصصه لاسمها وللبيانات الخاصة بالاشتراكات والإعلانات ، ثم أبطلت نشر القصة المسلسلة ، وقد كانت تحتل مكاناً كبيراً من صفحاتها ، ثم صغرت كليشيهات العناوين الثابتة الداخلية ، وشغلت أكبر حيز منها بالأخبار والتعليقات وإن جاء ذلك على حساب الإعلانات التى قلت كميتها فى صفحاتها بشكل ملحوظ .

وكانت أزمة الورق عنيفة ملحة حتى أن الأهرام كانت تصدر أحياناً فى ورقتين مختلفتين طولا وعرضاً ولوناً[(١)] وخصصت الأهرام ملحقا لها يصدر بين آن وآخر فى ورقتين أو ورقة واحدة محتوياً على الإعلانات القضائية ، وقد صدرت صحيفتنا مراراً فى ورقة واحدة ذات صفحتين وإن كان صدورها فى هذا الطابع الضئيل قليل المرات .

ضغط الرقيب

ولو أن الضيق الذى نزل بصحيفتنا كان مقصوراً على قلة الوارد من الورق وغلاء ثمنه لهان الأمر ، ولكن ضيقاً آخر أشد عنفاً نزل بها من الرقابة والرقيب ، فهذه الرقابة اضطرت كثيراً من الصحف إلى الاحتجاب ، منها ما أغلق بأمر السلطة العسكرية ، ومنها ما آثر أن يحتجب من نفسه كما فعل أمين الرافعى فى صحيفته ، وحاولت الأهرام أداء الرسالة الوطنية وسط القلق الذى كان يسود نفوس الناس ، ولكن الرقيب وقف لها بالمرصاد ، وكانت أعدادها تتميز بالبياض الذى خلا من الكتابة ، بما أحدثه فيها قلم الرقيب من شطب وتغيير ، وقلما كان شر الرقباء ينال الصحف الأخرى لأنها كانت تصدر طبقاً لما تريده السلطة العسكرية ، أما الأهرام ، فكانت تحاول أن تنفس عما يدور بأذهان الناس فتلقى قلم الرقيب بالمرصاد ، وكثيراً ما نشأت المشادة تلو المشادة بين محرريها ورقباء الحكومة .

ويبدو أن حرصها على نشر آخر أنباء الحرب كان يضايق الرقيب ، فبينما كان رقباء المقطم يعودون إلى بيوتهم فى أوائل الليل كان رقيب الأهرام يضطر إلى البقاء فيها حتى مطلع الفجر ، لأن الأهرام كانت لها برقيات خاصة غير البرقيات العامة التى كانت

(١) راجع الأهرام ابتداء من أواخر أكتوبر ١٩١٧

تعتمد عليها وحدها صحف العصر ، وكانت تتوالى عليها تلك البرقيات الخاصة فى كل ساعة من ساعات الليل ، مما أوجب على الرقيب أن يبقى ساهراً حتى يجيزها أو يمنعها ، وشكا الرقباء وبرمت الرقابة ، فكتبت إدارة المطبوعات إلى الأهرام تقول « اشتكت الرقابة أكثر من مرة التأخير الذى يسببه قسم التحرير بجريدتكم لرقيبنا . وعلى الرغم من الوعود التى بذلتموها أمس صباحاً فقد تكررت الشكوى من تأخيركم فى مساء اليوم نفسه . فإن الرقيب لم يستطع ترك مكاتب جريدتكم قبل الساعة الثانية إلا الربع صباحاً .

« وإنا لا نرى عذراً مقبولا لهذا التأخير فإن جريدة المقطم وهى فى نفس ظروفكم تقدم بصفة منتظمة التجارب الأخيرة للرقيب فى الساعة العاشرة والنصف على أقصى حد .

« وإنى مضطر إلى أن أنذركم بأن مراقبينا لن يتأخروا عندكم إلى ما بعد الساعة الواحدة وألا يراجعوا أية تجربة (يعنى بروفة) تصل إليهم إذا كانت ستأخذ من وقتهم أكثر من الموعد الذى حددناه .

« ولا شك فى أنكم تقدرون العمل الشاق الذى يقوم به الرقيب الذى يضطره عمله بعد سهره الطويل أن يكون فى مكتبه كل صباح فى الموعد العادى ، وأنكم ستعملون على أن توفروا عليهم تعباً لا طائل وراءه وتوفروا علينا عمل إجراء قد لا يكون فى مصلحة جريدتكم »[1] .

تعنت الرقيب

وتعددت الشكاوى من سلطة الرقابة وأنذرت الأهرام ، وزاد الخلاف حدة حين تبين للمطبوعات أن الأهرام تنشر أنباء يشطبها الرقيب ، كنشرها ذلك النبأ المشطوب الخاص « بحرق مميت أصاب امرأة » ، فإن الأهرام لم تر ما يمنع من نشر هذا الخبر فنشرته ، وأثار نشره ضجة فى دوائر الرقابة ، التى عدت ذلك اعتداء على سلطانها[2] .

وعلى الرغم من الضجة التى أثارها نشر هذا الخبر ، فإن الأهرام عاودت نشر الأخبار الداخلية رغم شطب الرقيب لها ، كالخبر الذى نشرته فى ٢ مارس سنة ١٩١٦ عن « طلبة الحقوق والعفو عنهم » فقد احتجت الرقابة على نشره احتجاجاً شديداً ، وأعلنت أنها ستتخذ إجراءات غاية فى العنف والشدة ، إلا أنها لم توفق إلى ذلك لأن رئيس مجلس الوزراء كان قد رخص لجبرائيل تقلا بك بنشر هذا الخبر بأمر شفوى[3] .

---

(١) وزارة الداخلية ، إدارة المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ٢/٩٤٦ فى ١٩١٥/٤/١٢
(٢) وزارة الداخلية ، إدارة المطبوعات ، دوسيه رقم ٢/١١/٩٤٦ فى ١٨ يناير ١٩١٦
(٣) وزارة الداخلية ، إدارة المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ٢/٩٤٦

حجز البرقيات الخارجية

ورأت الحكومة أن تخفف عن عيونها فى الأهرام فأخذت تحجز برقياتها الخاصة فلا تسلمها لها إلا فى الأيام التالية لورودها، وكانت الأهرام تنشر بالحرف الكبير تحت العنوان التقليدى (تلغرافات خصوصية) ما يفيد أنها لم تستلم تلك البرقيات ليعلم جمهور القراء أنها لم تقصر فى أداء واجبها وأن مراسليها فى الخارج يوافونها كالعادة ببرقياتهم الخاصة وأنها عاجزة عن نشرها بفعل المسؤولين الذين لأمرما غير معروف يؤخرون تسليمها للتحرير[1].

وزادت العلاقات سوءاً بين الأهرام ورقباء المطبوعات فإن التعنت كان قد بلغ المدى ، وكان كل خبر يعرض على الرقيب ينظر إليه بمنظار أسود ، فإما أن يكتب على طريقته وإما أن يشطب ، وكان ذلك الموقف يفضى إلى منازعات بين الرقيب والمحررين ، وكان الرقيب يتعرض لكل أبواب التحرير حتى الإعلانات ، وخرجت المشادة ليلة بين رقيب وبين محرر عن طورها التقليدى ، وشكا الرقيب لرؤسائه فكتبت الرقابة إلى « حضرة صاحب العزة جبرائيل تقلا بك مدير وصاحب الأهرام » تقول « وصلنى شكوى من حضرة محمد توحيد أحد الرقباء المعينين لمراجعة تجارب جريدة الأهرام ، بصدد حادث وقع مساء الجمعة الماضى بينه وبين السيد نجيب هاشم مخبر جريدتكم ، وقد سلك الأخير مسلكاً لا يتناسب ومندوب الرقابة .

« ولما حققت المسألة وجدت أن محمد أفندى توحيد قام بتنفيذ التعليمات المعطاة إليه وأن ليس هناك ما يبرر مسلك السيد نجيب هاشم .

« ويؤسفنى أن أقول إن هذا الحادث ليس الأول من نوعه وإن المعاملة التى يلقاها مندوبونا فى جريدتكم لا يلقونها فى أية جريدة أخرى لهذا رأيت أن أتوجه إليكم لتضعوا حداً لهذه الشكاوى المتكررة .

« وإنى لست فى حاجة إلى القول بأن عمل الرقيب الليلى شاق فكيف به ومحرروكم يزيدونه عسراً ، الأمر الذى أعتقد أن ذوقكم السليم سوف يأمر بتفاديه .

« وليس لأى محرر فى جريدتكم فيما عداكم وعدا رئيس تحريركم الحق فى مناقشة رقابتنا . وإذا تعذر عليكم أن تتفاهموا معهم فما عليكم إلا أن تتصلوا بى شخصياً فى اليوم التالى .

---

(١) وزارة الداخلية ، إدارة المطبوعات ، دوسيه رقم ١١—٢/٩٤٦ فى ٧ أبريل ١٩١٨



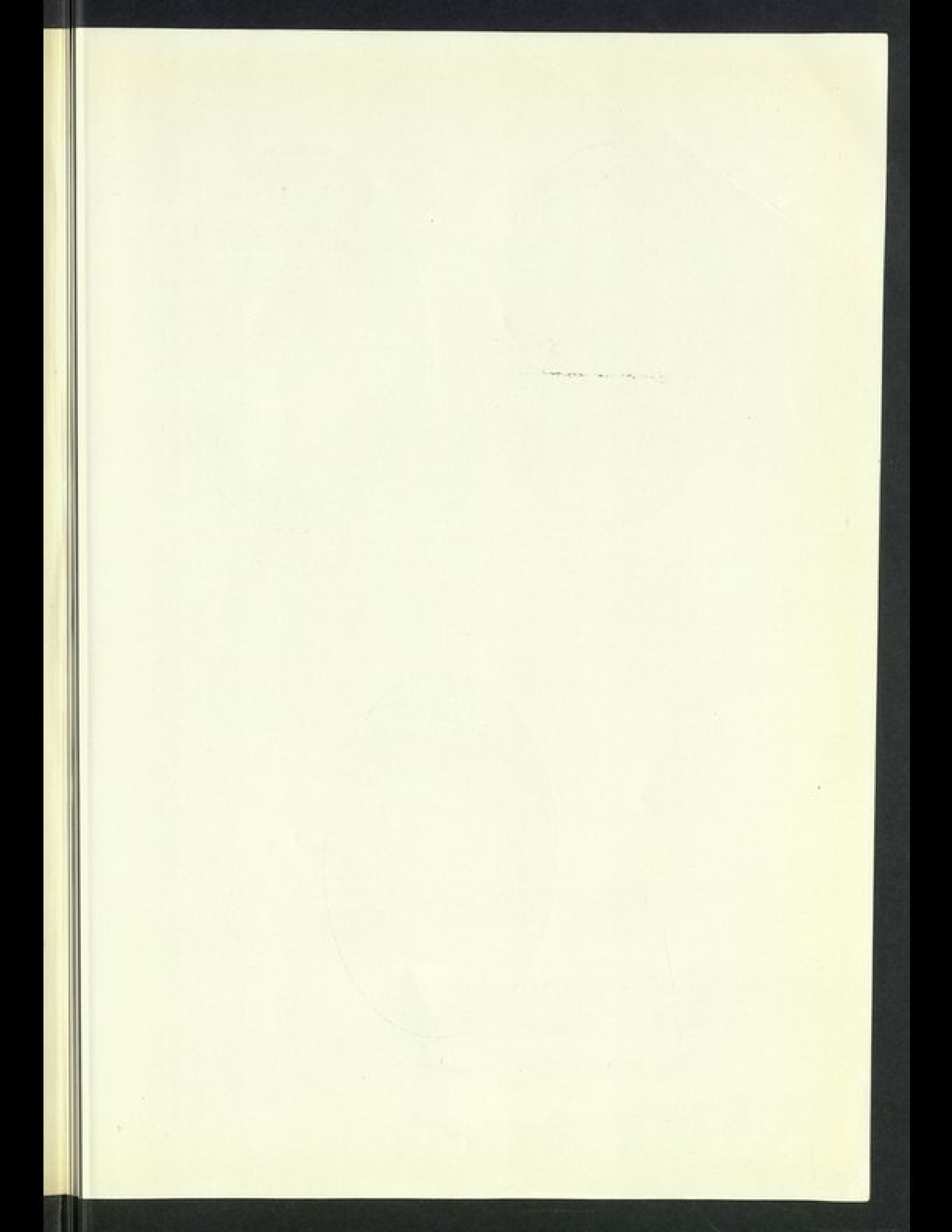
أحمد ماهر باشا



محمود فهمي النقراشي باشا



إبراهيم عبدالهادى باشا



« وإن تكرار مثل هذا الحادث سوف يضطرنى إلى فتح مكتب الرقابة فى الوزارة نفسها وأن أطلب منكم أن ترسلوا إليه تجارب جريدتكم .

« وأتعشم ألا أضطر إلى الالتجاء إلى مثل هذا الإجراء إذا سهلتم عمل مندوبينا ويسرتم لهم سبل ترك مكاتبهم قبل منتصف الليل » .

وبالرغم من هذا العنت ، وهذه المتاعب المادية والمعنوية المتصلة ، استطاعت الأهرام أن تجتاز سعير الحرب دون أن يحرقها اللهب ، فسجلت أنباء الصراع العالمى ، وأرخت لما أصاب مصر من تغيير فى نظامها الدولى أو فى نظام العرش نفسه ، وصاحبت المحنة من أولها لآخرها حتى وضعت الحرب أوزارها وتهيأت الأهرام لصفحة جديدة لعلها أزهى صفحاتها ، وبدأت هذه الصفحة العظيمة فى يوم استيقظت فيه مصر فساهمت صحيفتنا فى اليقظة ، وألقت فيها بدلوها فتأثرت بها وأثرت فيها ، وكان لها تاريخ . . .

مسرح للجهاد

ولما سار سيف الدين سرنا كما هيّجت آساداً غضابا
« أبو فراس الحمدانى »

أصبحت الأهرام منذ انتهت الحرب العظمى الأولى مسرحاً لجهاد المواطنين ، وقد كان المواطنون خلال الحرب خلوا من السلاح ، سلاح الصحف أو سلاح المجالس النيابية ، فجمعيتهم التشريعية معطلة ، وصحفهم مغلقة أو مكممة ، وليس هناك من الصحف الوطنية غير الأهرام تكافح الرقابة والرقيب وتداورهما على الصورة التى رسمناها فى الفصل السابق ، حتى استقبلت الأهرام عهد السلام فى ورقة من صفحتين ، فقد كانت مواد الصحف قليلة مصفّاة فى الرقابة بحيث لا تحتمل أكثر من صفحتين ، ولم يكن يؤذن لصحيفتنا بالتحدث عن الشئون السياسة أو الأمور الداخلية الدقيقة وإن سمح لها بمناقشة المسائل التى لا تمس السياسة من بعيد أوقريب كحديثها عن القضاء وتوحيده[1] ، فإذا كتبت أمراً له علاقة بالشؤون الخطيرة شطبه الرقيب وظهر مكانه أبيض من غير سوء[2] .

وهكذا تلقى الناس صحيفتهم الصباحية من صفحتين بخمسة مليمات ذات حروف صغيرة فى سنة ١٩١٩ وهى سنة الجهاد الأكبر للوطن وأصحابه ، وليس فيها إلا مقالات عن (المسلول فى مصر لا يجد مستشفى) [3] أو حديث عن وفاة لنصير المرأة أو حملة على وزارة الأوقاف والملاك بمناسبة أزمة المساكن[4] ، أو مناقشة التعليم الأزهرى[5] . وإذا

---

(١) الأهرام فى ١٤ يناير ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ٢٧ يناير و ١٠ و ١٣ مارس ١٩١٩
(٣) الأهرام فى ١٩ فبراير ١٩١٩
(٤) الأهرام فى ٢٣ فبراير ١٩١٩
(٥) الأهرام فى ٢٦ فبراير ١٩١٩

تطرفت بعض الشيء وتجاوزت لها الرقابة عن سلطاتها استطاعت أن تنشر برقيات عن المسألة المصرية في مجلس النواب البريطاني[1]. وهي برقيات كانت متنفساً لها تستطيع عن طريقه أن تزدلف إلى الشئون السياسية العامة .

وفي تلك الفترة كان ثلاثة من عظماء المصريين وهم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي باشا وعلى شعراوى باشا قد التقوا بممثل الحماية الإنجليزية في قصر الدوبارة ، يعرضون عليه مطالب مصر باعتبارهم النخبة المنتقاة من الرأى العام النابه وبوصفهم أعضاء في الجمعية التشريعية وممثلين للشعب المصرى ، وفي مقدمة مطالبهم الإذن لهم بالسفر حيث يجتمع المنتصرون ليقرروا مصير الأمم ، كي يبسطوا لهم حق مصر في الاستقلال بعد ما أدت من التزامات في أثناء الحرب ، وهي التزامات كانت من أهم عوامل انتصار الحلفاء في تلك الحرب الضروس .

نفى سعد زغلول

وترامت أنباء هذا اللقاء وأخذت ظروفه تتعقد ، فإن الإنجليز لم يستسيغوا هذه اليقظة ، وكانوا يبيتون لمصر أمراً ، ظناً منهم أن المصريين لا يكرهون حمايتهم ولا يتذوقون معاني الحرية ، فإذا هؤلاء الثلاثة يهزون مضاجع بريطانيا ويوقظونها من هذا الحلم الذي استكانت إليه ، ويثبتون للاحتلال أن مصر حية وأنها تريد التمتع بحقوقها كاملة ، ولا يثنيهم سيف المحتل ومدفعه ، ولن يحول بين البلاد وحقها في الحياة حائل من الرصاص والجنود ، فرأى مستشارو الإنجليز أن يأخذوا ممثلي هذه الحركة الجديدة بالعنف والشدة ، ليخمدوا الصوت في مخرجه ويقتلوا الكفاح في مطلعه ، فنشرت الأهرام في صدر محلياتها خبراً بعنوان (القبض على سعد باشا وثلاثة من الوجهاء وإبعادهم إلى مالطه) وجاء فيه « اعتقل أمس حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا وحضرات أصحاب السعادة إسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد باشا الباسل وأرسلوا إلى مالطة »[2] . ولم تستطع أن تزيد على هذا النبأ حرفاً فقد أذاعته وكأنه لا يعنيها من أمره شيء ، ولكن طريقة عرضه ومكان إبرازه كان فيهما ما يكفي لإظهار ميولها .

ولم يكن في مقدور أي صحيفة أن تزيد على هذا الخبر القصير شيئاً أو تعلق عليه برأي ، لذلك صدر عن الأهرام مقتضباً كبلاغ رسمي ، وكان للنبأ آثاره المرتقبة ، فإن المصريين

---

(١) الأهرام في ٢٨ مارس ١٩١٩

(٢) الأهرام في ١٠ مارس ١٩١٩

لم يقبلوا أن يكون مصير زعيمهم وأعوانه هذا المصير ، فهب الطلبة متظاهرين ، وهم فى ذلك يظاهرون أبطالهم ويعلنون للاحتلال ثقتهم فيمن أساء إليهم من رجال مصر ، وشوهت السلطة العسكرية أو حاولت أن تشوه سمعة المتظاهرين لدى العالم الأوربى بتصويرهم غوغاء جناة نهّازين للفرص يخشى منهم على الأجانب فى مصر .

فكتبت الأهرام تكذب ذلك كله وتدافع عن هؤلاء الطلبة لأن مجموعهم « زكى الفؤاد كريم النفس يترفع عن الدنايا فلا يخرج قيد شعرة عن الجادة القويمة لأن العاقل المربى يعرف القصد فيرمى إليه بأعماله ويعرف الشاذ فينأى عنه بمجانبته . وطلبة مدارسنا هم المربون العقلاء ، فلا يجيز العقل الحكم عليهم بارتكاب ما يستنكر .

« بقى طائفة الأزهريين وهؤلاء لا يمكننا أن نصدق عنهم أنهم يرتكبون منكراً وهم الذين يتعلمون ويتلقون كل يوم « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه »[1].

جريدة مصرية للمصريين

ومضت صحيفتنا تنشر أنباء المظاهرات ، وأخذت الرقابة تشطب بعضها فجاء الوصف المتضمن لتلك الأخبار أبيض بلا كتابة[2] . ثم أذاعت فى يوم آخر سجلا لقتلى المتظاهرين وجرحاهم ومآل أولئك الجرحى[3]. وكانت الرقابة تضطهد الأهرام اضطهاداً لم تعرفه من قبل ، فكانت معظم مقالاتها وأخبارها مشطوبة بقلم الرقيب ، وأحس الناس متاعبها فأكبروا فيها هذا الوفاء وشجعوها بالقول والفعل ، وهى توضح لنا ذلك فى وصف إحدى المظاهرات بقولها تحت عنوان (الأهرام جريدة مصرية للمصريين)[4]وهو عنوان جديد تجىء تحته أهم حوادث الداخل « مرت أمس بنا مواكب المتظاهرين من ناشئة الأمة العزيزة وعلمائها ومن أدبائها وعمالها ومن صناعها وكل مرتبة فيها ، فتجلت وهى تمر مواكب مواكب يخفق فوق رؤسها العلم المحبوب . وتكرم كل موكب منها بتحية « الأهرام » والدعاء لها . تحية قرعت الآذان فهبطت إلى القلوب وتمشت بأجزاء النفس التى نبتت فى هذا الوادى الخصيب والبلد الطيب الأمين . فنشأت على حبه والإخلاص له ، بل هى نبتت على ذلك الحب والإخلاص طفلة فيافعة فكهلة ووقفت حياتها من يوم

(١) الأهرام فى ١١ مارس ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ١٣ مارس ١٩١٩
(٣) الأهرام فى ١٤ مارس ١٩١٩
(٤) الأهرام فى شهر مارس ١٩١٩

نشأتها على خدمته . فإذا نحن قضينا من الواجب المفروض المحتم على كل مصرى قضاؤه لوطنه بمستحقين جزاء ولا شكراً . وإنما تلك التحيات الطيبة هى إفاضة نفوس شريفة .

« وإذا كانت تلك التحيات الطيبة قد هزت نفوسنا وأثلجت صدورنا فإنها تذكرنا اليوم بحياة طويلة صرفناها ونحن نماشى هذه الأمة العزيزة الكريمة ونسايرها فى تطورها الجميل وترقيها العظيم نصف قرن كامل . فنحمد الله ونشكره على التوفيق فى مرضاة الأمة بل فى خدمتها الحقة »(١)ولم تستكمل الأهرام مقالها ، فقد وقف عند الذى ذكرنا ، أما بقيته فقد أتى عليها الرقيب وفرض ظهورها بيضاء ، وكثيراً ما كان هذا الرقيب يشطب كل ما جاء تحت عنوان(الأهرام جريدة مصرية للمصريين) فتصدر بيضاء تماماً ، ويقرأ الناس هذا البياض – إن صح التعبير – فيجدون فيه نفوسهم وعواطفهم والمعانى التى تجيش بها قلوبهم(٢).

تحية الشعراء للأهرام

وقد ظهر إعجاب الناس بصحيفتنا وإيمانهم بتضحيتها وكفاحها ، فبعثوا إليها قصائد المديح متضمنة تأييدهم بجانب المعانى الرفيعة الأخرى ، ومن أفضل ما نشرته الأهرام قصيدة للشاعر أحمد نسيم جاء فيها :

أجريدة الأهرام خطى واكتبى　　آى الثناء على بنى الأهـرام
أنت الصديقة فى زمان غابـر　　تاريخـه باق عـلى الأيـام
أقباط مصر ومسلموها ضمهم　　دين المسيح وشرعة الإسلام
النـاشئون على الطهارة والتقى　　والقائمون بمصـر خير قيـام
والخالدون إلى السـكينة كلما　　جاء الزمـان بشـدة وعـرام
برح الخفـاء وبان أنـا أمة　　لم تبغ غـير محبـة ووئام
إنا لنرجو أن نعيش بغبـطة　　توحى السـلام وتنثنى بسلام(٣)

وقال فيها أيضاً محمد محمد عبد الرازق قصيدة من الشعر تضمنت :

يا آل عيسى إننـا إخوانـكم　　فـدعوا الوشاة وكذبوا النماما
هذى أيادينـا وذاك ذمامنـا　　وجميـكم لا تنقضـون ذماما

---

(١) الأهرام فى ١٨ مارس ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ٢٠ مارس ١٩١٩
(٣) الأهرام فى ١٩ مارس ١٩١٩

يا مصـــر إنا فيــك قوم واحد	نحيي المسيح ونرفــع الإســلاما
عار علينـــا والبـــلاد بـــلادنا	أن لا نصـــون النيـــل والأهراما[1]

ولا تنشر الأهرام هذه القصائد الشعرية قصد المدح فيها أو الثناء عليها، بل إن تلك القصائد قد تضمنت فى أكثرها معنى الاتحاد بين المسلمين والأقباط ، وكان هذا الاتحاد فى ذلك الوقت غصة فى حلق الاحتلال ، فقد افتقد بوجوده أهم عنصر لانتصاره ، وله فى ذلك تجارب سابقة ، فالأهرام ترحب بتلك القصائد لا دعاية لها بل تأييداً لتوجيه الأمة توجيهاً سليما ، وها هى ذى تنشر أبياتاً شعرية رقيقة فى هذا المعنى لصاحبها حسين على المناستيرلى وهو أديب متحمس تضمنت قصيدته ألواناً جديدة من الأفكار العالية ، وانطوت على كثير من الآراء التى كان يتغناها الجيل المعاصر ، ولا بأس علينا إذا نقلنا هنا بعض قصيدته التى جاء فيها :

(يا صاحب الأهرام) إن محمداً	من ولد (هاجر) زوج إبراهيما
قبطية من آل مصـــر أنجبت	فينـــا (رسولا) هادياً ورحيما
نشر الوئام وروض القوم الألى	لم يستطع أحــد لهم تقويمـا
فالمسلمون اليوم إن نزعــوا إلى	رعى القرابة كان ذاك قــديما
نسب يزيد العنصرين تآلفــاً	وينيـــل مصـــر معزة ونعيما
ضم الهــلال إلى الصليب فرحباً	بالشـــارتين تعـــانقا تسليما
والله ربك إن أتـــاح لأمـــة	خـــيراً غدا فيها الوفاق عميما[2]

ثم ختمت الأهرام هذا القصيد المتصل الذى تلقته من الشعراء بأبيات رقيقة من شفيق حنا السويفى موجهة إلى صاحب الأهرام أيضا ، وفيها :

(يا صاحب الأهرام) أعلن أننا	أتباع عيسى نكبر الإســلاما
عم التآخى قوم مصـــر فلا ترى	إلا ســلاماً بيننـــا ووئـــاما
نرجو جميعـــاً أن تنـــال بلادنا	سعة وجـــداً باسمـــاً وسلاما
إنا جميعـــاً نبت مصـــر وكلنا	يرعى العهـــود ولا يضيع ذماما[3]

ولست أريد بنشر هذا الشعر إعلاناً عن قدرة فى القريض ، فذلك شيء لم أفكر فيه ، بل قصدت من نشره أن أبين إلى أى مدى ذهب الناس فى اعتبار الأهرام وسيطاً

---

(١) الأهرام فى ٢١ مارس ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ٢٣ مارس ١٩١٩
(٣) الأهرام فى ٢٤ مارس ١٩١٩

بينهم ولساناً لهم ، وقد عز علينا نشر كل هاجاء ، فكتبت ما تعتذر إلى الأدباء والشعراء بقولها : « تفضل كثيرون من الشعراء والأدباء بإتحافنا بمنظوماتهم الشائقة وأبياتهم الرائعة فنشرنا بعضها حتى الآن ولم نستطع نشر الكثير الباقى لدينا . وإذا كان حضرات الناظمين الأدباء الكرام قد تكرموا بمدح الأهرام وحبذوا دعوتها إلى الإخاء ، فلم نتوخ من النشر إذاعة ذلك المدح الذى تفضل الأدباء علينا به — ومن قضى واجباً مفروضاً عليه حسبه راحة ضميره بقضاء ذلك الواجب — بل إن ما توخيناه هو ترويج تلك الدعوة الشريفة النبيلة التى صدرت عن نفوس العقلاء العلماء والناشئة الكريمة الناهضة فتشربتها النفوس ورحبت بقبولها الصدور وتغنى بها هذا الوادى . وكانت بين الأصوات الكثيرة ألذ ما يتلى وأعذب ما يسمع . فما وقعت كلمة الإخاء والمحبة والولاء فى الآذان حتى اهتزت لها القلوب وتمشت فى الصدور وباتت دستوراً لأعمال الجميع وهو خير ما يتمناه عاقل لأمته . بل هو خير ما ترقى به هذه الأمة وتشد أجزاءها وأواصر وحدتها وقوميتها»(1) .

السلطان والإفراج عن سعد

وكان الشعب المصرى فى تلك الأثناء ثائراً تؤرق مضاجع الإنجليز مظاهراته حتى أفلت الزمام منهم وعز عليهم ضبط الأمور ، فقد وجدوا أمة تخاصمهم ، وشعباً حساساً يفيض قوة وفتوة كممثليه تماما الذين اعتبرهم المحتلون دعاة فتنة فنفوهم إلى مالطة ، فلم يكن بد من معالجة الأمر بشىء من الكياسة ، وتدخل السلطان فؤاد لدى الإنجليز مطالباً بالإفراج عن سعد وصحبه ، فأذاع عظمته منشوراً إلى « أبنائه المصريين » يطلب فيه أن يركنوا إلى الهدوء ويكفوا عن التظاهر حتى يعالج الأمر بحكمته ، وفى اليوم التالى أنتجت وساطة السلطان فكف المواطنون عن ثورتهم وأعلن الإنجليز نبأ الإفراج عن سعد وصحبه ، وكتبت الأهرام مقالا تحت عنوان (فليحيى الشعب الكريم) جاء فيها : « بين مساء وجه فيه عظمة السلطان منشوره إلى أمته العزيزة لتعتمد عليه وتساعده فى خدمتها بالقعود عن المظاهرات وبين صباح أعلن فيه جناب الجنرال اللنبى بالاتفاق مع عظمة السلطان فك الحجر عن السفر وإباحته لجميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد . وأن يطلق من الاعتقال سعد زغلول باشا وإسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وأن يكون لهم الحق بالسفر كسواهم . بين ذلك المساء وهذا الصباح انقلب الشعب

---

(1) الأهرام فى ٢٧ مارس ١٩١٩

(2) الأهرام فى ٧ أبريل ١٩١٩

الكريم إلى أصوات الفرح والابتهاج والحمد والشكر بل الثناء حتى وصلت أصوات هتافه إلى عنان السماء . وسارت مواكبه فى الشوارع والطرقات تهتز لطربه وفرحه أعصاب أرضه ويرتل واديه العزيز آيات دعائه . فما أجمل هذا الشعب الكريم فى مظاهر أفراحه وما أجمله وأكبر نفسه فى شكر من يحققون أمانيه وآماله ، وإن شعباً تجتمع كلمته ، وتتحد فى السر والعلانية وفى السراء والضراء نفوسه ، وهو معتصم بحبل الإخاء مترابط بأسباب الإخلاص والولاء . لهو شعب إذا أريد على الخير فعل فى الخير العجب العجاب وحقق فيه آمالا كباراً . بل هو شعب تحييه من صميم الأفئدة الألسنة والأقلام ويعجب به كل من عرف الجلالة فى أخلاق الأمم ، والعظمة فى مظاهرها والفخامة فى أخلاقها الطيبة والزكانة فى إدراك العظمة واستماع الكلمة الطيبة وفى عرفان الجميل لمن عمل حسنا وفى تنشيط العاملين إذا عملوا طيباً . إن أمة هذه خلالها وتلك صفاتها لجديرة بالتحية الطيبة بل بأجل التحيات وأجل تلك التحيات ما يرتله الآن كل إنســـان فى كل جهـــة ومكان . « فلتحيى مصر والمصريون »(١).

كرماء لضيوفنا

ثم تنشر الأهرام ملخصاً لحملات الإنجليز على مصر وتفتح صدرها وأخبارها لتكذيب ما روته صحف انجلترا عن أخلاق المصريين فى ثورتهم وما أدعته كذباً عن تطرفهم فى مطالبهم وخصومتهم للنزلاء الأجانب فى وادى النيل ، وأيدت تكذيباتها بشهادة من بعض الأرمن والإنجليز المحليين يؤيدون فيها سلوك المصريين الحسن إبان ثورتهم وأنهم لا غبار على تصرفاتهم نحو ضيوفهم من الأجنبيين ، ولا بأس على طبيعتهم السمحة المواتية لكل نزيل أو ضيف طارئ أو مقيم(٢).

وقد حاول الإنجليز بعد الإفراج عن سعد زغلول أن ينتهزوا فرصة غيبته عن مصر ، فأشاعوا استعدادهم للنظر فى مطالب المصريين ، وأنهم سيبعثون لذلك بلجنة يرأسها ملنر للتحدث مع المصريين المسئولين وتقرير ما يجب أن يصنع على ضوء تلك المحادثة ، وطرب قوم للنبأ وخشيت الأهرام أن تصيب البلاد من جرائه فرقة أو ينفصم لها اتحاد ، فأنشأت المقالات المتتالية تحذر فيها المواطنين من أخطار الفرقة والانقسام(٣)، وأفسحت صدرها للقراء يؤيدون وجهة نظرها ، ويطلبون من المسئولين أن يحيلوا اللجنة على سعد

(١) الأهرام فى ٨ أبريل ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ١٧ أبريل ١٩١٩
(٣) راجع الأهرام فى شهر أغسطس ١٩١٩



فى الجلسة الرسمية الأولى لمفاوضات صدقى : بيفن ٩ مايو ١٩٤٦

فيفسدوا بذلك سياسة المداهنة والرياء التى يرجوها الإنجليز وينتظرون من ورائها انقسام المواطنين ومن ثمّ فشل الثورة وإبعادها عن أهدافها الرفيعة[1].

معنا أو علينا

وقد هالها أن يهمس الناس بأن فلاناً العظيم يأبى أن يدلى بدلوه فى شؤون بلاده بحجة أنه لا يريد أن يشتغل بالسياسة ، وقد اعتبرت ذلك هروباً من الميدان ، وكتبت مقالاً بديعاً فى هذا الموضوع بعنوان (بعض الناس . الطبيعة تأبى الفراغ) قالت فيه بعد ديباجة « لنا سياسة واضحة جلية ولا مندوحة بل لا مفر من أن تكون لنا سياسة لأنا « موجودون » والوجود كما قلت يقضى بوجودها ، فإذا قعدنا عن السياسة كنا أنصاراً لمن يعملون السياسة فينا كما ينصر الجندى خصمه إذا هو قعد عن العراك والكفاح ، أفلا يكون الأفضل له — كما قلت فى صدر هذه الكلمة — أن يعارك ويغلب فيتوج بأكليل العراك والكفاح من أن يقعد أو يجبن فينالسبة الذل والصغار . أظن أن هذه الكلمة الصغيرة كافية للرد على قول « بعض الناس » إنا لا نشتغل بالسياسة . بل أظنها كافية لأن يقال فيها لهم «إن لم تكونوا معنا فأنتم إذن علينا »[2].

ثم تجد الأهرام أن عوامل الفرقة قد بدأت تدب فى الصفوف حين كتب شيخ من شيوخ الأزهر يحاسب رشدى باشا على أحاديث كان قد أدلى بها من ست سنوات ، فكتبت بعنوان (حذار حذار إن يد التفريق لاعبة) تلفت نظر دعاة الانقسام إلى خطورة ما يصنعون قائلة « والذى راعنا فوق ذلك لهجة الأستاذ وأسلوب نقده وحدته وهو أسلوب عرفناه عن الشبان لا عن الشيوخ سيما شيوخ الدين كفضيلته فعجبنا وعجب كل عاقل معنا لأنا لم نسمع عن الأستاذ ولا منه اندفاعاً فى سبيل الاستقلال كاندفاعه فى الحملة على رشدى باشا . . . وكل ما عرفناه عنه فى الجمعية التشريعية جهاده ليكون العضو المعين مقدماً فى رياسة الجمعية على العضو المنتخب ، ثم سكت »[3].

الأمة فوق الأفراد

وهاج دعاة التفريق لهذا الذى كتبته الأهرام وأخذوا يصبون عليها جام غضبهم ويرمونها بالتحيز ، فقالت رد أعليهم « محضنا صيحتنا العالية ونحن نوقن بأن السكوت عن

(١) راجع الأهرام ابتداء من ٣ سبتمبر ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ٣١ أكتوبر ١٩١٩
(٣) الأهرام فى ٨ نوفبر ١٩١٩

خزعبلاتهم جريمة قرت أقلامنا ببعض أسماء الذين حركوا النار ولم نكن نقصد فى قول قلناه أو فى رأى أبديناه أحداً من الناس ، والأمة فوق الأفراد ونحن فى خدمة الأمة لا فى خدمة أحد من أفرادها لو لم يكن الدفاع عن مصلحة الأمة وخدمتها قد قضى بذكر تلك الأسماء عرضاً » . ثم تقول إن القوم يريدوننا على الجدل ونحن لن نجاريهم « تفادياً عن الهتر وتنزهاً عن مجاراة ذلك النفر القليل الذى نحسبه مسوقاً إلى تضحية وحدة الرأى ووحدة المسعى ووحدة الجهود بالتفريق والانقسام على هيكل « الشخصيات » ذلك الهيكل الذى لا نصلى فيه ولا نعبد ولا نخر لأحد من أنصابه ولا نسجد ، ولم نكن له ولم يكن لنا فى طور من أطوار الحياة . ولكنها الأمة ومصلحتها المقدسة هى آلهتنا ، هى عبادتنا . هى حياتنا ، هى كل شىء بل فوق كل شىء »[1].

تعالوا إلى كلمة سواء

وإلى جانب هذا الاتجاه الطيب من الأهرام المنصرف إلى إبقاء الوحدة سليمة بين المصريين حتى تجابه البلاد الخصم العتيد الجاثم فوق أنفاسها إلى جانب ذلك نشرت مقالات ممتعة غاية الإمتاع من حيث الموضوع والأسلوب تحت عنوان (تعالوا إلى كلمة سواء) تناقش فيها الإنجليز وموقفهم من مطالب الوطنيين[2] وتجعل من صدرها مسرحاً لجهاد كثير من خيرة الشباب ليكتبوا فى مشاكل الساعة كتوفيق دياب وقد خصته بعنوان (اللمحات)[3]، وهو عنوان دائم عالج الكاتب تحته كثيراً من الموضوعات الدقيقة ، وكانت تلك اللمحات تجد صداها العميق من نفوس الناس[4]. وكذلك صال فيها وجال محمود عزمى ، وكانت له مقالات ممتعة فى شتى النواحى كبحثه عن (تعدد الأحزاب طبعى حتى فى البلاد الغير مستقلة وحتى فى مصر)[5] ، وهو بحث لا توافق الأهرام عليه صاحبه ، ولكنها كمسرح لجهاد المجاهدين أفسحت صدرها لنشره على رأس جميع المقالات وهى المؤمنة أبداً بأن الشر كامن فى تعداد الأحزاب ، هذا إلى جانب نشاط الكاتب فى نواح صحفية أخرى صرفها فى سبيل الأهرام ولم يحن الوقت بعد للحديث عنها ، فقد كان عزمى يتميز فى اتصاله بالأهرام بأنه كان كاتباً من كتابها الشبان ، وصحفياً فى خدمتها نادر الطراز .

---

(١) الأهرام فى ١٢ نوفمبر ١٩١٩
(٢) راجع الأهرام فى شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩١٩
(٣) راجع الأهرام ابتداء من شهر سبتمبر ١٩١٩
(٤) الأهرام فى ٢٥ سبتمبر ١٩١٩
(٥) راجع الأهرام ابتداء من نوفمبر ١٩١٩

الوعى القومى

كانت افتتاحية الأهرام تكتب فى الأهرام حينا وقلما كان يمهرها صاحبها ، وكانت فى بعض الأحيان من أقلام النخبة المنتقاة من أهل الرأى فى ذلك الزمن، فإذا لم يكتب شيخ أو شاب افتتاحية اليوم ، ولم يكن فى ذلك اليوم حادث جدير بالتعليق نشرت الأهرام فيها أجمل ما احتملته آداب العالم فى معانى الحرية ، فإذا هى تطالعنا يوماً بخمسة وأربعين معنى فى الحرية ليقرأها الناس ويجدوا فيها درساً وعبرة[1]، وإنما هى تريد بذلك أن تزيد اليقظة حماسة ، وهى تلتمس ذلك التماساً وتجرى وراء تحقيقه جرياً ، ألم تستقبل نعى الزعيم الوطنى محمد فريد بك لتلهب حساسية الشعب ؟ إنها تسجل القضية المصرية فى تلك المناسبات المؤلمة بكلمات تفيض قوة وعنفاً ، وتروى قصة الكفاح الذى كافحه المصريون فى خلال نصف قرن ثم تمضى فى ذلك أياماً ناشرة النثر الذى قيل فى الفقيد العظيم[2] مفسحة صدرها لقصائد الشعراء تبكيه وتنعاه[3] .

مقاطعة لجنة ملنر

وشغلت الأهرام صفحاتها فى مطلع سنة ١٩٢٠ بلجنة ملنر ومشروعها الذى كان أمراء البيت المالك أول من نادى بأنه مشروع مبتور وأنهم لا يقبلون إلا « استقلال مصرنا استقلالا تاماً مطلقاً بلا قيد ولا شرط » ، وهم يعدون الأمة بالوقوف إلى جانبها مهما تشتد الأزمة فنضم « صدورنا إلى صدور أفرادها ونجعل أيدينا فى أيديهم »[4]. وتعقب الأهرام فى مقالها الافتتاحى على رسالة الأمراء تعقيباً بديعاً[5]. وتفسح صدرها لتعليق المعلقين سواء جاء تعليقهم نثراً أو شعراً[6]، هذا إلى جانب برقيات التأييد ورسائل الإعجاب التى تواترت عليها من جميع الطبقات[7]، فضلا عن نداء سعد زغلول الذى أذاعته فى صدر صفحتها الأولى وعلقت عليه تعليقاً رائعاً[8] . ثم أفسحت لمحمد

(١) الأهرام فى ١٣ ديسمبر ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ١٩ ديسمبر ١٩١٩
(٣) الأهرام فى ٢٢ ديسمبر ١٩١٩
(٤) الأهرام فى ٤ يناير ١٩٢٠
(٥) الأهرام فى ٦ يناير ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ٨ يناير ١٩٢٠
(٧) الأهرام فى ٩ يناير ١٩٢٠
(٨) الأهرام فى ١٤ يناير ١٩٢٠

حسين هيكل افتتاحيتها ليناقش فى أسلوبه البديع ومنطقه السليم المحتلين بعنوان (أما بعد فماذا يريد الإنجليز)[1]، فإذا فرغنا من هيكل قرأنا سلسلة مقالات صادرة من الأهرام بعنوان (والسودان . . . .)[2] وكلها مقالات تعالج بعض النقط التى احتوى عليها مشروع ملنر أو تعالج رأياً أو فكرة أو توجيهاً صدر عن الإنجليز فى مصر أو فى إنجلترا أو فى غيرهما من البلاد .

الملايين فى واحد

وأشد ما كانت تخشى الأهرام أن يختلف المصريون وقد كان مشروع ملنر أو مجهودات لجنة ملنر كافية لبذر بذور الشقاق ، وتهامس الناس مرة أخرى بأن قوماً يسعون هنا وهناك لفض الاتحاد والاختلاف حول ما يعرضه الإنجليز من عروض ، وتهامس القوم بأن مشروع ملنر كاف مطالب المصريين ، وكاد الناس يذهبون شيعاً ، فهجمت الأهرام هجمة قوية على (دعاة الانشقاق) لترأب الصدع وترفو الخرق قائلة « نحن ١٤ مليوناً وكأننا « واحد » يمثلنا وكيلنا الوفد وهو من هذا « الواحد » وشعارنا كلنا « واحد » نعمل له عملا واحداً فلا نسأل فى ساعة الفصل : أين كنا وماذا قلنا ولكننا نسأل فى كل ساعة : أين نحن من عملنا ، ونتساءل عن الطريق كيف يكون مصيرنا غدا لأنا نسير إلى الأمام ، دائماً إلى الأمام .

« أجل . إنا نسير إلى الأمام دائماً إلى الأمام ، ولكل يوم حوادثه وتطوراته ، وفى كل يوم نتطور بتطوره ، فمن أعادنا إلى الوراء أوقفنا ، ومن أوقفنا والدنيا على سيرها السريع الذى يتخطف العقول والأبصار فقد أجرم إلينا وأذنب « أتقفون والفلك المحرك دائر » نحن فى عجاج السياسة وفى كل يوم تهب ريحها شمالا أو جنوباً ، غرباً أو شرقاً ، فمن ذا الذى يقضى على الربان أن يبقى قلعه والسكان فى جمود لا يتحرك ولا يتحول إلا الذين يريدون أن تهب العاصفة الهوجاء فتحطم السفينة وتغرق من فيها .

« أجمود ووقوف والعالم فى حركة دائمة حتى يجوز للمخرقين أن يقولوا : لقد كنتم بالأمس هنا فلم صرتم اليوم هناك .

« مائة ونيف خطاب ألقاها وزير إنكلترا الأكبر فى إبان الحروب تقض آخرها ما ورد فى أولها وأوسطها . فهل قام قومه يطالبونه بتطور منهجه وأقواله بتطورات الحرب وحوادث

---

(١) الأهرام فى ٤ فبراير ١٩٢٠
(٢) الأهرام فى ٢٧ فبراير ١٩٢٠

العالم ؟ عشر خطب ألقيت فى المسألة المصرية على منهاج واحد وعشرة بلاغات نشرت بلهجة واحدة فهل تسأل الأمة الإنكليزية اللورد ملنر لماذا جاء مصر وقد بت فى أمرها بلندن ؟ ولماذا تقول إنك مستعد للاتفاق مع المصريين وقد حكمتم بالأمس عليهم حكماً لا يقبل نقضاً ولا إبراماً ؟

« أى الوطنيين أنتم أيها اللاعبون بالنار تشوى أيدى مضرميها ؟ وأى السياسيين أنتم أيهؤلاء الجامدين لم تعملوا ولن تعملوا ولم تدعوا العاملين أحراراً يعملون . ألا إنا إذ حمدنا الله اليوم على أمر ونحن نحمده فى تلك الأمة على كل أمر وشأن ، فإنا حمدنا له تبارك وتعالى أن تكون الأمة كلها على رأى واحد وصوت واحد ، يتجه إلى ذلك الصوت الخافت الضئيل المنبعث من أقلام قليلة ، بل هى دون القليل ، فيقضى عليها بزعقته بل بصعقته ، وهو يقول للعاملين من أبناء الأمة المخلصين : على رسلكم إن الأمة تحب من أبنائها العاملين »[1] .

مراسلو الأهرام

وتصبح مصر ولا حديث لها إلا مشروع ملنر ومحادثات سعد فى أمرها مع الإنجليز ، ولم يكن غير الأهرام صحيفة فى مقدورها أن تشبع المصريين بتلك الأخبار الهامة ، فقد كانت لها برقياتها الخاصة ومع ذلك فقد بعثت الدكتور محمود عزمى ليكون مراسلها الخاص فى محادثات سعد زغلول مع ممثلى إنجلترا[2] وعاون على شرح تفاصيل تلك المحادثات مراسلون آخرون ذكرت أسماءهم فى ذيل البرقيات الخاصة خلال شهرى أكتوبر[3] ونوفمبر[4] . كما كان مراسلوها يبعثون بالمقالات التى كتبها سعد فى الصحف الإنجليزية فتترجمها لقرائها كاملة وتحاول نشرها بحذافيرها ، غير أن الرقابة كثيراً ما رفعت بعض الفقرات من تلك المقالات الممتعة فبدت للقارىء مشوهة بتراء ، وقد تركت الأهرام دليل الرقيب فى تلك الأمكنة الكثيرة البيضاء[5]، ثم نافس صاحب الأهرام جبرائيل تقلا معاونيه المراسلين فأجرى حديثاً مع سعد زغلول عن مشروع ملنر

---

(١) الأهرام فى ٥ فبراير ١٩٢٠
(٢) راجع الأهرام فى يونيه ١٩٢٠
(٣) الأهرام فى ١٢ أكتوبر ١٩٢٠
(٤) الأهرام فى ١٥ نوفبر ١٩٠٢
(٥) الأهرام فى ١٧ مايو ١٩٢٠

وأرسل الحديث كاملا بالبرق لصحيفته يتضمن رأى الزعيم وتوجيهه ، وكانت تلك البرقية من أطول البرقيات فى هذا الباب[1].

فساد المشروع (ملنر)

ومنذ نشرت الأهرام رأى سعد فى مشروع ملنر بدأ الإجماع ينعقد بين خاصة المصريين وعامتهم على فساد المشروع ، وأصبحت افتتاحية الأهرام فى معظم أيامها وقفاً على آراء عظماء الأمة فى الموضوع ، وقد طالعتنا برسالة الأمراء ورأيهم السىء فى الاتفاق[2]، ثم قرأنا بقلم «عبد الحميد مصطفى» مقالات متصلة فى نقد المشروع الإنجليزى[3]. وكتب فكرى أباظة مقالا ممتعاً يفيض حماسة وقوة ضد ملنر ومشروعه[4]، وتابع عباس محمود العقاد مناقشة المشروع فى عدة مقالات عميقة[5] ، وكتب رأيه فيه أيضاً توفيق دياب[6]. ونشرت الأهرام قرار الحزب الوطنى برفض المشروع الخاص بملنر فى أكثر من ثلاثة أنهر[7]. وساهمت الأهرام بقلم رئيس تحريرها داود بركات فى إبداء الرأى بمقالات متتابعة[8]، وأنشأ محمد حسين هيكل مقالا فى الموضوع[9]. ونشر عبد الحميد بك أبو هيف المدرس بالحقوق بحثاً علمياً ممتازاً فى عدة مقالات كيّف فيها مشروع ملنر وناقشه من الوجهة القانونية وأبرز عيوبه الكثيرة[10]. وختم محمود عزمى الرأى بمقالات فى مشروع ملنر استغرقت كثيراً من أيام شهر أكتوبر سنة ١٩٢٠ بعنوان (أما بعد)[11]. هذا إلى مقالات التأييد التى تلقتها الأهرام من جميع الطبقات ، يؤازرونها فى موقفها من مشروع ملنر[12].

---

(١) الأهرام فى ٢٢ أغسطس ١٩٢٠
(٢) الأهرام فى ١٣ سبتمبر ١٩٢٠
(٣) راجع الأهرام فى شهر سبتمبر ١٩٢٠
(٤) الأهرام فى ١٤ سبتمبر ١٩٢٠
(٥) راجع الأهرام ابتداء من ١٤ سبتمبر ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٠
(٧) الأهرام فى ٢٢ سبتمبر ١٩٢٠
(٨) راجع الأهرام فى ١٦ سبتمبر وما بعده سنة ١٩٢٠
(٩) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٠
(١٠) راجع الأهرام ابتداء من ٢٣ سبتمبر ١٩٢٠
(١١) راجع الأهرام ابتداء من ٥ أكتوبر ١٩٢٠
(١٢) راجع الأهرام شهرى أكتوبر ونوفمبر وخاصة ١٠ نوفمبر ١٩٢٠

دعاة الهزيمة

ووسط هذا الإجماع برز دعاة الهزيمة والشقاق برؤوسهم يحملون على الوفد ورئيسه ، ونقدهم داود بركات فى افتتاحية قوية بعنوان (هذا أوان الشد فاشتدى زيم – حرب على الوفد)[1]. بيد أن إجماع الناس طغى على العابثين وبقيت الوحدة قائمة بين أعضاء الوفد وكتبت الأهرام تبارك هذا الاتحاد فى مقال بعنوان (الحمد لله . . .) قالت فيه « كلمة – الحمد لله – نود أن نكتبها فى صدر الأهرام بأضخم وأكبر ما يكتب من من الحروف . بل نود أن نرفع الصوت بها فى هذا الوادى عالياً حتى تهز أعصابه طرباً ويملأ أصداءه دوياً وتتصاعد إلى السموات العلا ، إلى العرش من كل قلب سليم ولسان حكيم . شكراً لله على فضله وما ألهم رجالنا العاملين من اتحاد ووئام وجد وسعى لخدمة الوطن ، فقد يختلف السياسيان فى طريق العمل وفى الخطة التى تتبع ولا حرج على أحدهما ولا جناح ما دام الغرض الذى يرمى إليه الجميع واحداً والمقصد واحداً . ولكن الأمة ووفدها والعاملين معه لما لم يختلفوا فى الغرض ولم يختلفوا فى الطريقة ، ولكنها وساوس ترسل اعتباطاً بين حين وآخر على أذهان الأمة ، إما عمداً لاختبار قوة اتحادها وإما جهلاً لتوهم الضعف فى وحدتها وقوة تضامنها على أمل أن تبدو الثغرة وينفرج الضعف فتندس الأيدى اللاعبة فتعبث بها .

« الحمد لله : نكررها لا لاتحاد الوفد ورجالنا العاملين فحسب بل لهز هذه الأمة بالخبر المختلق المشؤوم هزة أفصحت عن أثمن ما يرى وأغلى ما يحب ، لا عن اتحاد الكلمة فقط بل عن ثقة الأمة بنفسها وثقتها بحكمة وفدها وصدق عزيمة رجاله ورجال الأمة العاملين معه والمضى اليوم وغداً فى ما مضت به الأمة بالأمس »[2].

إن الأهرام لا يعنيها فى هذه النهضة المباركة إلا أن تعقد الأواصر على اتحاد لا تفصم عراه ، فقد جربت صحيفتنا مكسب مصر أو خسارتها إذا اتفق بنوها أو اختلفوا ، وقد عاشت إلى ذلك الحين ستاً وأربعين سنة عركت الدهر فيها ، فهى لا تخشى على يقظة مصر إلا الفرقة والانقسام ولا يعنيها إلا مصر ، مصر التى تترنم بتالد مجدها الخالد ، إستمع إليها وهى تستقبل عامها السابع والأربعين ، فقد كان الحديث فى كل سنة تسجيلاً لوفاء الأهرام وماصنعته للوطن ، أما فى هذا العام الذى نشطت فيه العقول من عقالها

---

(١) الأهرام فى ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠

(٢) الأهرام فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٠

والنفوس من ضيمها فإن الحديث يكاد يكون كله عن مصر وما لها فى التاريخ « اليوم نفتتح السنة السابعة والأربعين من عمر « الأهرام » ومبدأ نشأتها فى هذه البلاد . فإذا ما حمدنا الله على توفيقه فى خدمة هذا الوطن وعلى رضاء الأمة عن هذه الخدمة الصادقة ، فإنا مع هذا الحمد نرجع بنظرنا إلى تطورات الحياة التى درجنا أدراجها وماشينا فيها الأمة وسايرناها فى رقيها وتقدمها الأدبى والاجتماعى والسياسى والصناعى والتجارى، فنرى الفرق العظيم بين ما كنا فيه وما صرنا إليه . وبين ما كنا عليه وما انتقلنا إليه ، فلا نسر بالتقدم والرقى فقط بل نطرب جذلاً لهذه الخطوات الواسعة فى كل ضرب من ضروب الحياة كبيرها وصغيرها المادى والأدبى فيها » .

ثم تقول مباهية بالوطن العظيم ومذكرة للمتيقظين من غفلة الزمن « فأية حضارة لم تكن لمصر فيها اليد الطولى وموسى الكليم تلقى شريعته فى أرضها ، وعيسى بن مريم كانت نشأته تحت سمائها وعلماء مصر كانوا كما يفهم الباحثون المدققون « دماغ » النصرانية . والإسلام وجد فى مصر الخدمة الصالحين من العلماء والفقهاء . وبناة الأهرام علموا أساس فن البناء . وأصحاب الهيروغليفية ابتدعوا حروف الهجاء . كذلك قل عن الطب والتنجيم والتشريع والموسيقى والتصوير والزرع والضرع . فإذا كانت الدول قد دالت ، والقوة الغشوم قد تحكمت بالعقول الرصينة والنفوس الذكية والأيدى الحاذقة ، فإن لتلك القوى الأدبية مستكناً إذا ما أزيلت عنه عوامل الفرض وأزيحت ضواغط القوة نشط من عقاله كما تنشط الحبة الكامنة وقد انفتح لها مجال الظهور وبعثت فيها روح الحياة » .

« لم نكن منذ ٤٧ عاماً كما نحن فيه الآن ، فالنفوس ناشطة والهمم ناهضة والعيون متطلعة والآمال تحدو والمطامع تكبر وكل شىء يبشر بالتقدم والرقى والسير فى طريق الحياة العالية الطيبة سيراً حثيثاً متواصلا إلى حيث تنال كل أمنية وأمل وكل من سار على الدرب وصل »[1].

إياب الإمام

لقد كانت الأهرام مستبشرة بعامها الجديد ، فهى تستقبله وجميع المواطنين قد انتظمهم صف الجهاد كتلة متراصة يشد بعضهم بعضاً ، والأمل وطيد — بالرغم من فشل مفاوضات ملنر — بأن تعتدل أمور مصر ، وهاهوذا الوفد عائد برئيسه سعد زغلول

---

(١) الأهرام فى ٣ يناير ١٩٢١



لورد ستانسجيت ، يلقى كلمة الوفد البريطانى فى الجلسة الرسمية الأولى لمفاوضات صدقى : يقين ٩ مايو ١٩٤٦

والأمة فى أسمى حالاتها المعنوية ، تستقبله استقبالا منقطع النظير[1] وتسجل الأهرام ذلك كله ، تسجل « تأهب الأمة المصرية للحفاوة بزعيمها الأكبر »[2] وهى طروب معها ، تذكر فى غبطة (إياب الإمام)[3] فإذا أصبح سعد فى وطنه نشرت مقالاً تحييه فيه تحية ما قرأنا مثلها فى الصحف المعاصرة ، أنصت إليها وهى تقول « من منبع النيل إلى مصبه يحيّا الساعة سعد تحية يتساءل معها التاريخ هل حيّت مصر قبل سعد أو غير سعد بمثلها » .

وتضمن الأهرام هذه التحية ألواناً جديدة من لفتات الذهن التى أوحت إليها ببهجة الساعة وطراوة الجو ومتعة النصر ، فقد سبق سعد دعاته وأعدوا استقبالا رائعاً أوحى بهذا المقال ومنه « تحية لو وقعت الساعة من أذن صنعاء اليمن أو بغداد العراق أو دمشق الشام أو حلب الشهباء أو بيروت أو القدس أو مكة . لرددتها لسعد وأمنت عليها لمصر وإن لم تعرف سعداً . ولتجاوبت بها أصداء هذا الشرق كله وارتجت جوانبه كارتجاج الكنانة وهى تحيى بسعد لا سعداً فقط وسعد أهل لهذه التحية بل تحيى به أمانيها السامية وآمالها الكبيرة الواسعة فيحيا الشرق مع مصر روحاً كروحها طائفة فى فضائه سائرة فى شرايينه . روح الحرية . وقد قبضت عليها القوة بكلتا يديها . فكأنها تستغيث . وروح الحق وقد تناوله الباطل من كل جهاته فكأنه يستصرخ . وحب الاستقلال وقد تملك كل نفس حتى صار معه شعار كل فرد « فإما الحياة حراً وإما فلا » فإذا ما هتفت مصر فى ميناء الإسكندرية الآن وسعد يقبل عليها فليحيى سعد . وتجاوبت البلاد بهذا الهتاف وقالت ولتحيى الحرية وليحيى الاستقلال . خلص إلى النفوس كأنما صوت من العدل والإنصاف يقول مردداً . آمين . آمين .

« يلتفت هذا اليوم ، الباسم الثغر ، الطلق المحيا ، الرائع الجلال ، يوم ٤ أبريل سنة ١٩٢١ وقد وصل فيه سعد إلى مصر عائداً من جهاده فى خدمة بلاده ، إلى ذياك اليوم العبوس المكفهر الجبين ، المثير الشجن يوم ٩ أبريل ١٩١٩ وقد أخرج فيه سعد ورفاقه الأماجد من وطنهم خروج المذنبين لأنهم عقدوا العزيمة على هذا الجهاد فيضحك منه ضحكة الثائر وقد نال ثأره وبلغ وطره وكلل جبينه الفوز ، فوز مما يجب على ما لم يكن بالجائر . ويمحو هذا اليوم بروائه ما طبعه ذاك بجهمته ، وهكذا فوز العدل والحق ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة »

---

(١) راجع الأهرام فى أواخر ١٩٢١
(٢) الأهرام فى ٢٨ مارس ١٩٢١
(٣) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٩٢١

ثم تستطرد الأهرام فى تحيتها الممتعة إلى أن تقول « فإذا هنأنا سعداً ورفاق سعد بفوزهم رضا أمتهم لأنهم ساروا على إرادتها وعملوا بمشيئتها وقدموا أنفسهم لخدمتها ، فإنا نحن نهنىء هذه الأمة بروحها الناهضة التى لا يعتورها السبات بل تزيدها الأيام يقظة ومحك الحوادث حكمة وتطور الشؤون ثباتاً وجداً ، فعلى ميناء الإسكندرية اليوم وعلى محطات السكك الحديدية غداً من الإسكندرية إلى القاهرة تهتز أعصاب الأرض بتحية سعد والوفد وتحية الكبراء والأدباء والعظماء العاملين لمصر . وهى تحية تستفيض من الصدور لتجرى على الألسن وتقع فى الآذان ، فتهز القلوب وتنحصر على تعدادها بكلمة واحدة هى عنوان كل شىء : لتحيى مصر »[1].

لم يكن بد من أن تحتفل الأهرام بسعد هذا الاحتفال العظيم النادر ، فإن الشعب نفسه وهو السعيد الطروب كان ينافس بعضه بعضاً فى استقبال الزعيم الكبير ، وهى ـ أى الأهرام ـ وثيقة الصلة بالرجل وله عندها مكانة ملحوظة منذ مطالع القرن العشرين ، فقد كانت فى شتى الظروف إلى جانبه مؤيدة ومشجعة فى الصورة التى وضحناها فى فصل سابق ، فليس غريباً أن تلقاه وهو فى أوج مجده هذا اللقاء البديع ، وتشغل صفحاتها فى الأيام التالية بأنبائه وأخباره واصفة حفلات التكريم ناشرة خطبه وأحاديثه تحت هذا اللقب الذى صار تقليداً فى معظم الصحف المعاصرة وأصبح طبعياً فى صحف الوفد آخر الأمر ، أى لقب « الرئيس الجليل »[2].

وقوع المحظور

ووقع المحظور الذى كانت تخشاه الأهرام واختلف القوم فيمن يلى رياسة المفاوضات الرسمية ، سعد أو عدلى ، ووجد كل من الفريقين صحفاً ودعاة يؤيدونه ، وانشق من الوفد كثير من العيون والأنصار ، وعز على صحيفتنا أن ينتهى الصراع مع الإنجليز إلى صراع بين المواطنين فكتبت رسالة (إلى عقلاء الأمة . إلى الأمة كلها) فزعت فيها إلى الضمائر تستنجد بها قائلة « إذا كانت مهمة الصحافة فى كل أمة أن ترشد إلى الخير بعد استقصاء وجوهه ، وأن تحذر من الشر قبل أن يكشر عن نابه ، فإنا نشعر اليوم بهذا الواجب الملقى على عاتقنا . فننادى الأمة كلها كبيرها وصغيرها ، خاصتها وعامتها بصوت الوطنية المقرون بصوت المصلحة ، وما عهدنا الأمة إلا ملبية هذا النداء مصغية إلى هذا الصوت

---

(١) الأهرام فى ٤ أبريل ١٩٢١
(٢) الأهرام فى ٦ أبريل ١٩٢١

كلما ارتفع فى هذا الوادى سواء كان عالياً كأصوات الزعماء الكبار والرؤساء المطوعين أو صوتاً ضعيفاً كصوتنا يشفع له عند الأمة الإخلاص وصدق النية . وما نطقنا عن هوى » . والذين يعودون إلى صحيفتنا فى تلك الأزمة يرونها كالعهد بها لا يعنيها إلا وحدة البلاد ، ولم تسئ قط فى لفظ أو تعبير إذا ناقشت المنشقين من خصوم سعد ، بالرغم مما أثر عنها من تقدير لهذا الزعيم وإكبار لتوجيهاته .

والأهرام تذكّر بسوء المصير الذى ينتظرنا إذا عملت فينا الفرقة عملها ونحن على أول الدرج « نحن لم نصل من جهادنا ومجهودنا إلى شىء سوى المقدمة ، وهذه المقدمة التى وصلنا إليها لا تزال غامضة ، أليس من المفروض علينا أن نتذرع بالصبر والتأنى وأن ندع لأصحاب الرأى والمكانة فينا أن يتدبروا الأمر على ما فيه الوجه الأصح والأصلح »

« لقد وقعت أزمة بين زعمائنا ولكن رجال الأمة وكبارها أخذوا يعالجون هذه الأزمة بالتى هى أحسن ، وهم لا شك ولا ريب واصلون إلى وجوه التوفيق فيها . فهل من الحكمة أن نعرقل مساعيهم أو نضعف صوتهم أو غير ذلك من الشؤون والأحوال . نحن لا نناشد هيأة واحدة ولا نوجه الكلام إلى فئة خاصة بل نحن نوجه الكلام إلى الجميع وإلى كل قادر على العمل لتمر البلاد فى هذا الطور فى ظل السكون والهدوء والراحة والله الهادى إلى سواء السبيل »[1].

سبق السيف العذل

ولكن أحداً لم ينصت إلى هذا الصوت البرىء يدعو القوم إلى علاج أزمتهم الطارئة وتدعيم وحدتهم المحببة، فقد سبق السيف العذل، ولم تعد هناك تلك الوحدة التى بهرت الأمم وأزعجت المحتلين، وأصدر المنشقون عن الوفد بياناً مسهباً عن أسباب خروجهم[2]، ونشرت الأهرام ذلك كله ، ولم تغفل بالطبع أحاديث سعد فى الخلاف القائم أو حفلات التكريم التى أقيمت له ولأنصاره، ثم تأزمت الأمور الداخلية ووقفت السلطات محمود فهمى النقراشى ومكرم عبيد وأحمد خشبة وغيرهم عن العمل[3] بدعوى الإخلال بالنظام والتحريض على الاضطراب ، وضغطت السلطة العسكرية على الصحافة وضيقت على الصحف الخناق ، وقد طالبت الأهرام من قبل بإلغاء الأحكام العرفية حين زار ملنر مصر كى يتاح للشعب أن يعبر بحرية عن آماله

(١) الأهرام فى ٣٠ أبريل ١٩٢١
(٢) الأهرام فى ٧ مايو ١٩٢١
(٣) الأهرام فى ١٠ مايو ١٩٢١

وآلامه[1] وشكت مرات شكاوى غاية فى العنف والقوة من سلطان الرقابة والرقيب[2] وبعث صاحبها إلى المسئولين يبين لهم المتاعب التى تتعمد الرقابة إثارتها فى أعمال الأهرام ، ودارت بينه وبين أولئك المسئولين مكاتبات لم تأت بنتيجة[3]. فلما لم يفد الرجاء ولم تنتج الشكوى أجمعت الصحف الوطنية على الاحتجاب فى أيام ٧ و ٨ و ٩ مارس ١٩٢٠ احتجاجاً صامتاً على الرقابة الصحفية والأحكام العرفية ، فإذا عادت الأهرام بعد احتجابها طالعتنا بمقال ممتع عن (الصحافة ومهمتها فى الأمة) ضمنته جملة من الشكاوى التى تتردد فى جميع الصحف[4].

وداع الرقيب فلا لقاء

وقد بقيت الأهرام تلح فى إلغاء الرقابة ما وسعها الإلحاح حتى أجيبت إلى الطلب بعد سعي حثيث استمر سنوات متصلة ، وقد نشرت فى تلك المناسبة مقالا بديعاً بعنوان (وداع الرقيب فلا لقاء) رأيت أن اقتطف بعض فقراته فإنه يعبر عن إحساس قراء هذا الكتاب من معاصرى السنوات العشر الأخيرة التى شهد المصريون فيها قيام الأحكام العرفية ومآسى الرقابة والرقيب ، قالت الأهرام منذ تسع وعشرين عاماً وكأنها تحدثنا عن حقبه من الزمن تركناها منذ شهور « لقد يكون الرقباء الذين تحكموا بعقولنا وأقلامنا ست سنين ونصفاً من الكتاب زملائنا أو من الصحفيين أمثالنا أو من الأصدقاء الذين نتوق إلى عشرتهم وتروق لنا مباحثاتهم أو نقتبس من علمهم وأدبهم ومعارفهم ، ولكن فى الرقيب صورة الحاكم المستبد . وهذه الصورة هى الصورة المنكرة ويزيد فى المنكر من استبداده أنه لا يتحكم بالمال والعرض (بفتح العين والراء) والمادة فقط بل يتحكم بما هو فوق ذلك كثيراً جداً أى بالنفس والعقل ، فيود أن يجعل لعقلك بوتقة من مداركه يصهر بها عقلك وشعورك ويتحكم بما تريد أن تقول ، فيخرجه إلى ما يريد أن يكون قولك لاتجاه فكره وحواسه إلى وجهة واحدة هى توهمه منع الضرر من أقوالك فيجد هذا الضرر أحياناً فيما توخيت منه النفع ويجد الفائدة فيما اعتقدت به الضرر لأن عقليتك غير عقليته ، ولأنه يريد أن تكون طرق الجميع وأساليبهم ومداركهم طرقه وأساليبه ومداركه هو »[5].

أرأيت كيف صورت الأهرام الرقابة ورقباءها وما فعلوه بها وبزميلاتها ؟ إنها صورة

---

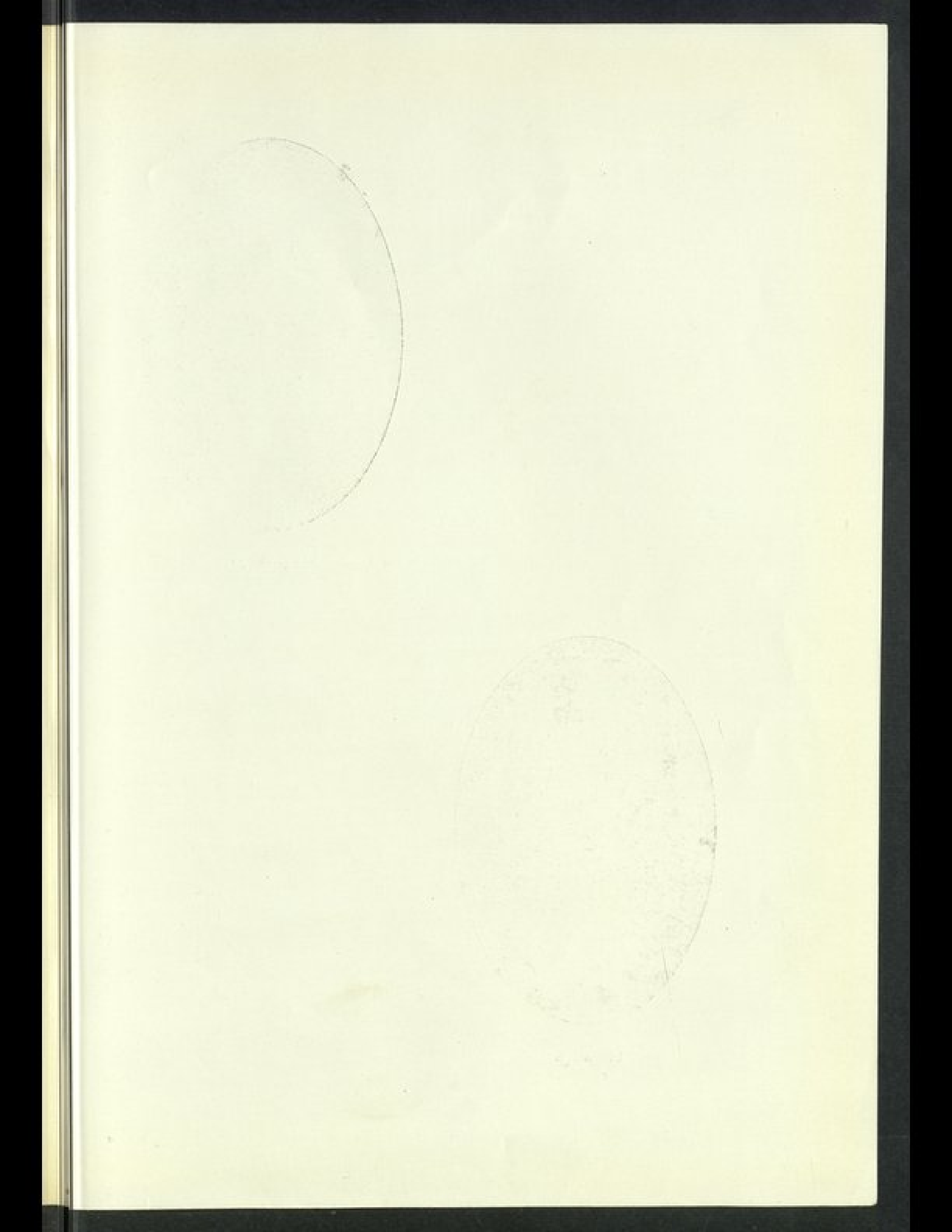
(١) الأهرام فى ٣ يناير ١٩٢٠
(٢) الأهرام فى ٥ مارس ١٩٢٠
(٣) وزارة الداخلية — إدارة المطبوعات — دوسيه رقم ١١—٩٤٦/٢
(٤) الأهرام فى ١٠ مارس ١٩٢٠
(٥) الأهرام فى ١٦ مايو ١٩٢١



علي الشمسي باشا



علي ماهر باشا



بديعة للرقيب فى كل زمان ومكان ، وإن كانت الأهرام غير معنية إلا برقيها ذاك الذى يقرؤها فى كل صباح ، ويذوب محرروها من أجله كالشموع تُضنى فى سبيل فائدته ومعرفته ، أى الألوف من قرائها الذين يتلقونها مؤمنين بما تنشر وتذيع .

رأى الأهرام فى سعد

ومما يذكر للأهرام أنه بعد مقالها هذا لم تجد فى أسلوبها أو عباراتها شططاً ، فهى من حيث تحريرها كالجدول الصافى الرقراق ، أوله كآخره ، ولم تجدها تذهب يمينا أو يساراً ، بل هى وسط فيما اختلف عليه المواطنون وإن تطرفت فى كل ما يفيد الشعب ويقتضى من المصريين التطرف ، ولم نشهد فى الأهرام أيام الخلاف بين سعد وعدلى ميلاً هنا أو ميلاً هناك وإن كان صاحبها جبرائيل تقلا ورئيس تحريرها دواد بركات فى قرارة النفس من أشد الناس وفاء وإيماناً بسعد ، فداود بركات يسميه « معالى الرئيس الجليل » ويستطلع رأيه فى الخلاف الذى شجر بينه وبين رئيس الوزارة عدلى يكن باشا[1] . ثم يعمل كلاهما على أن يُذكر سعد وحواليه هالة من التقدير ، فإذا كتب سعد قولا نشرته تحت عنوان من عندها جاء فيه (رد مصر) فجواب سعد على اللورد اللنبى أو المسئولين الإنجليز هو رد مصر كلها[2] ، وإذا خطب سعد فى قوم نشرت خطابه ووصفته « بخطاب الزعيم الجليل »[3] فلا عجب إذا رشح الوفد فى انتخابات مقبلة صاحب الأهرام فى دائرة مصر القديمة[4] . بيد أن إعجاب صاحب الأهرام ومحررها لم يمنع الصحيفة نفسها من أن تكون مسرحاً لجهاد الجميع ، فعليها اختصم الفريقان ، بل من على صفحاتها أطل أنصار الحزب الوطنى كفكرى أباظة فى مقالاته المتعددة[5] . وكتب أنصار عدلى يؤيدونه ويفندون حجج خصومه الوفديين[6] واستقل بعضهم (بحديث الصباح) يقول فيه ما بدا له وإن خالف فى الرأى والتوجيه صاحب الأهرام أو رئيس تحريرها[7] .

رسالة الأهرام

ومع أن الأهرام أصبحت مسرحاً للجميع فإن رسالتها القديمة لم تزل رائدها فى جميع

---

(١) الأهرام فى ٢٣ مايو ١٩٢١
(٢) الأهرام فى ٢٦ مايو ١٩٢١
(٣) الأهرام فى ١٦ يونيه ١٩٢١
(٤) الأهرام فى ٣٠ ديسمبر ١٩٢٤
(٥) الأهرام فى ٢٨ مايو ١٩٢١ وأول يونيه ١٩٢١ و٢٩ سبتمبر ١٩٢١
(٦) الأهرام فى ٢٥ يونيه ١٩٢١ و ١٣ أكتوبر ١٩٢١ و ٥ نوفبر ١٩٢١
(٧) الأهرام فى أواخر سنة ١٩٢١

خطاها ، فهى فى عنفوان خصومة الكبار تخرج إليهم متحدثة عن فوائد الاتحاد « يقيننا أن مصدر القوة الوحيدة فى هذه البلاد هو « الاتحاد » ويقيننا أن هذا « الاتحاد » فى مقاطعة اللورد ملنر ولجنته هو الذى أكره تلك اللجنة على فتح باب المفاوضات مع الوفد المصرى الذى تعدته اللجنة إلى مصر آملة أن تجد فى هذه البلاد من يفاوضها ويكالمها كنادى الأعيان الذى اقترحوا تأليفه قبل وصول اللجنة ، وكالحزب الحر المستقل الذى أرادوا إنشاءه فهدمتهما « الأهرام » وهما بيضة فى الافحوصة وقضت عليهما بقوة الرأى العام قبل أن تمتد جذورهما .

« ولم يكن منبت المقاطعة إلا « الاتحاد » الذى جاء عفواً من تلقاء نفسه أى من روح الأمة ، ولما وصل خبره إلى الوفد وهو فى باريز أقره بل سُرّ به إلى أن سر بنتيجته . فإذاً اتفقت كلمتنا ، واتفقت الحوادث كلها على أن الاتحاد هو وحده مصدر قوتنا الوحيدة ، فلنعد إلى أنفسنا ولنحاسبها . هل نحن فى هذه الساعة متحدون وهل اتحادنا اليوم يعادل اتحادنا بالأمس »[1] .

سفر الوفد الرسمى

وذهبت دعوات الأهرام إلى الألفة والاتحاد أدراج الرياح ، وسافر الوفد الرسمى برئاسة عدلى باشا لمفاوضة الإنجليز على غير اتفاق مع سعد زغلول ، بل على أشد ما يكون الخلاف بين الخصمين ، وعينت الجريدة توفيق حبيب مراسلاً لها يواليها بأنباء الوفد الرسمى بالبرق فى كل مكان ينزل فيه[2] ، هذا إلى جانب البرقيات الخاصة التى كان يبعث بها جبرائيل تقلا صاحب الأهرام[3] ، فوق ما كان يوافيها به مراسلها الأصيل هناك وهو المدعو خيرالله[4] . وتضمنت تلك البرقيات المختلفة سجلاً للمفاوضات التى دارت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية ، كما انطوت على كثير من آراء صحف انجلترا ، حتى انتهت المفاوضات بالفشل وعاد عدلى إلى مصر ، ووجدت صحيفتنا أن المصريين انتهوا مع الإنجليز حيث بدءوا ، وأن ذلك الموقف يفرض الاتحاد بين أعضاء الوفد من جديد ، وكتبت فى ذلك شتى المقالات[5] . وخاصة أن الإنجليز عاودوا الكرة فنفوا سعداً مرة

(١) الأهرام فى ١٩ مايو ١٩٢١
(٢) الأهرام ابتداء من ١٥ يوليو ١٩٢١
(٣) الأهرام فى شهر يوليه ١٩٢١
(٤) الأهرام فى ١٧ يناير ١٩٢١
(٥) الأهرام فى شهر ديسمبر ١٩٢١

أخرى [1]، وانضمت الأهرام إلى شيعة سعد انضماماً ملحوظاً ، وأخذت تفتح معظم صفحاتها لاحتجاجات المواطنين وللمقالات يكتبها أنصار سعد وهى مقالات تفيض حماساً وتشتعل ناراً [2].

جريدة الاستقلال

وفى ذلك الوقت الذى كانت الأهرام فيه مسرحاً لجهاد المواطنين بشيعهم وأحزابهم المختلفة كان الدكتور محمود عزمى يصدر صحيفة (الاستقلال) وكان أقوى الأقلام فيها قلم الدكتور طه حسين (بك) ، وقد مضى يحررها ويشرف عليها فى غيبة محمود عزمى حتى عاد من أوربا ومضى يصدرها فترة ما ، ثم اتفق عزمى مع جبرائيل تقــلا على أن ينقل امتيازها إلى الأخير ، وأصبحت جريدة الاستقلال فى أوائل سنة ١٩٢٢ ملكاً لصاحبها الجديد ومديرها « جبرائيل بك تقلا صاحب الأهرام » ، وأخذت تصدر « الساعة الثانية من بعد ظهركل يوم محتوية على أهم أخبار الوزارات وأهم الحوادث المحلية وتلغرافات آخر ساعة وأسعار اليوم فى بورصتى الإسكندرية ومصر — مع صور فكاهية (كاريكاتير) تمثل معنى سياسياً — ضامة أبحاثاً أدبية واقتصادية وسياسية شيقة »[3]، وأصبح لدار الأهرام صحيفتان ، إحداهما صباحية وهى الأهرام والثانية مسائية وهى الاستقلال ، بيد أن الأولى عاشت واحتجبت الأخرى بعد حين .

تصريح ٢٨ فبراير

واستمرت الأهرام تدلى بدلوها فى الكفاح حتى صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وأعلنت الأهرام وثيقة الاستقلال التى ترتبت على هذا التصريح ، وأبرزتها فى شكل غاية فى الأناقة والجمال[4]. ولم يعن ذلك أنها رحبت بالتصريح وما انطوى عليه بل هى تناقشه فى مقالات متتالية فى افتتاحيتها اليومية وتبين مواضع النقص فيه [5]. ثم تركت افتتاحية الأهرام للدكتور محمد حسين هيكل (باشا) ينقد فيها تصريح ٢٨ فبراير ويعالج أمره فى مقالات غاية فى الدقة والعمق ودليلاً على كفاية الرجل إذا كتب من حيث الأسلوب والموضوع [6].

---

(١) الأهرام فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١
(٢) الأهرام فى سنة ١٩٢٢
(٣) الأهرام فى أول مارس ١٩٢٢
(٤) الأهرام فى ١٦ مارس ١٩٢٢
(٥) الأهرام فى أوائل شهر مارس ١٩٢٢
(٦) الأهرام فى شهرى مارس وأبريل ١٩٢٢

لجنة الدستور

وألفت الحكومة لجنة لوضع الدستور ، وكانت أخبار اللجنة وبحوثها تستغرق كثيراً من صفحات الأهرام حتى يمكن لأى باحث يريد أن يتقصى أعمال تلك اللجنة أن يعود إلى الأهرام وينقل منها مطمئناً إلى سلامة التصوير[١]، فهى إلى جانب الأخبار التى نشرتها أفسحت صدرها لبحوث الباحثين فى معانى الدستور ، وجلهم من أعضاء اللجنة التى كلفت وضعه[٢] حتى صدر هذا الدستور آخر الأمر ، فأعلنت رأى الأحزاب فيه ، وكيف كرهه الوفديون والحزب الوطنى وفى مقدمته فكرى أباظه بمقالاته الممتعة ، وكيف ارتاح لصدوره الأحرار الدستوريون[٣]وكان حزباً قوياً حديث العهد بالحياة ، وقد أرخت لمولده الأهرام من قبل[٤]، ودعت فى افتتاحياتها بمناسبة إنشائه إلى الاتحاد المقدس ، فهو عندها أعز من الأحزاب وأصحابها[٥] وأيدها فى مقالات متصلة « أستاذ جليل وباحث منقب » وهو يصور (موقفنا الآن كأمة مفككة) ، وهى مقالات رائعة حقاً لها مكانها المقدور فى تلك الأيام[٦].

السودان ومحجوب ثابت

ولم تحجب قصة الدستور وتصريح ٢٨ فبراير والاستعداد للحياة البرلمانية أخباراً أخرى لها فى مقومات حياتنا أثر ملحوظ ، فهى تفصل بالبرق والبريد محاكمة الضابط على عبد اللطيف السودانى لاتهامه بكتابة مسودات تحض على كراهية الحكومة فى جنوب الوداى ، وقد شغلت الأهرام قراءها بهذه القضية وأفسحت الصدر لأخبارها[٧]وأبرزت فى افتتاحياتها ذلك الموضوع الذى تولاه فى بعض الأحيان الدكتور محجوب ثابت بما أثر عنه من عناية خاصة بشئون السودان[٨]، ولم تخل سنة من السنوات التى تلت الحرب الكبرى إلا وكان لمحجوب ثابت فيها مقالات طيبة عن السودان ومآسيه .

---

(١) الأهرام فى مايو ١٩٢٢
(٢) الأهرام فى ١٥ مايو ١٩٢٢
(٣) الأهرام فى أبريل ١٩٢٣
(٤) الأهرام فى أكتوبر ١٩٢٢
(٥) الأهرام فى نوفبر ١٩٢٢
(٦) الأهرام فى أواخر نوفبر ١٩٢٢
(٧) الأهرام فى يونيه ١٩٢٢
(٨) الأهرام فى ٣٠ يونيه ١٩٢٢



جلالة الفاروق يستقبل ضيفه الكبير عاهل الجزيرة عندما زار جلالته مصر في يناير ١٩٤٦

عود إلى الصهيونية

وإذا عنيت صحيفتنا بمسائلنا الداخلية وخاصة المسألة السودانية ، فإنها عادت تذكّر الناس بخطر الصهيونية وتنشر بيانات الفلسطينيين ضدها[1]. ولم تبخل على الناس بأن يذكروا فى أوقات الجهاد المجاهدين القدامى الذين لهم فى تاريخ مصر تاريخ ، وقد جاء ذلك فى تحيتها الطيبة لذكرى أحمد عرابى باشا إذ خصصت معظم صفحتها الأولى لمقال بقلم ابنه عبد السميع عرابى وجعلته على رأس افتتاحيتها ، ولم تفكر قط فى الخصومة القديمة التى كانت بينها وبينه ، بل رأت أنه ــ مهما تختلف الآراء فيه ــ مجاهد عظيم جدير بمواطنيه أن يذكروه فى أيام المحنة والجهاد[2].

سعد فى منفاه

لم يحجب الدستور وخلاف الناس فيه ، وغير الدستور وما شغل الناس به ، لم يحجب ذلك كله مكان سعد ورفاقه من نفس الأهرام ، أولئك المبعدين الذين ساءت صحت كبيرهم فى سيشل فجعلت الأهرام تناقش أمر هؤلاء المبعدين وتنشر فيهم برقياتها الخاصة من انجلترا وغيرها ، وهى طافحة بالحرج الذى تلقاه الحكومة الإنجليزية نتيجة مرض سعد زغلول باشا ، فإذا أعلن اللورد اللنبى نبأ نقل الزعيم من منفاه إلى مكان آخر نشرت فى ذلك افتتاحية بينت فيها كيف فرح « الناس وسروا وارتاحت أنفس الجميع إلى هذا النبأ الذى كان قبل اليوم معروفاً من تلغرافات « الأهرام » الخصوصية ولكنه لم يكن معروفاً رسمياً كما عرف اليوم »[3].

ورغم أن الأهرام كانت مكاناً ناقشت فيه الأحزاب بعضها بعضاً ، وكانت تلك الأحزاب المختلفة تجد صدراً رحباً من صفحاتها ، إلا أنها فى افتتاحيتها عن (سعد باشا ورفاقه) كانت واضحة الميول نحو الزعيم المنفى فهى تبشر بقولها « يصف البعض قرار هذا النقل بأنه خطوة إلى تحقيق أمنية الأمة المصرية وإلى إعادة الحق إلى نصابه بإعادة المبعد الجليل الشأن إلى أمته وعشيرته » ، وهى تمجد الرجل فإن « مصر لا تنسى سعداً ولا تستطيع أن تنساه . فإن سعداً كان فى وسط معمعان السياسة واضطراب أعصابها

---

(١) الأهرام فى ٣ فبراير ١٩٢٣
(٢) الأهرام فى ٤ يوليو ١٩٢٢
(٣) الأهرام فى ١٤ مايو ١٩٢٣

واكفهرار وجهها صوتها الصارخ . ولسانها الناطق . ومحاميها البارع » . وإن سعداً كما تقول الأهرام لم « يستمد قوته من نفسه ولا استمدها من دولة غريبة ولكنه استمدها من أمته . وأمته أعطته هذه القوة ليكافح بها فى سبيل استقلالها وتمثيل إرادتها . . . لذلك عدت مصر إبعاد سعد اعتداء عليها وعلى سلطتها . . . » ثم تحدثنا عن سوء تدبير الإنجليز بتلك الفعلة الشنعاء وهى نفى سعد عن بلاده « ولكن يمحو فعلها ويمحو أثرها إعادة هذا الزعيم إلى وطنه حيث يلقى بما يستحقه من الإجلال والإكرام إزاء جهاده وحيث ترى عيناه ثمرة عمله وجهاد أمته إذا صح أننا سائرون إلى الاستقلال وإلى الحكم الدستورى الذى يجعل إرادة الأمة فوق كل إرادة ، فإن إعادة سعد ورفاقه هى إرادة الأمة لمن يريد أن يحترمها »[1] .

وقف جريدة الأهرام

فى ذلك اليوم الذى كتبت فيه الأهرام افتتاحيتها عن سعد ورفاقه أصدر مجلس الوزراء قراراً بوقف جريدة الأهرام ، وقد جاء فى القرار بعد الديباجة التى استند فيها المجلس على المادة الثالثة عشر من قانون المطبوعات الصادر سنة ١٨٨١ وعلى القرارين الصادرين من مجلس الوزراء فى ٢٥ مارس ١٩٠٩ « وبما أن جريدة الأهرام التى تصدر فى القاهرة نشرت فى عددها رقم ١٣٨١٦ الصادر فى ٨ أغسطس سنة ١٩٢٢ تحت عنوان « تسمية الأشياء بأسمائها » نبذة لا صحة لما جاء فيها تقع تحت حكم المادة المذكورة قرر مجلس الوزراء إيقاف جريدة الأهرام »[2] .

وقد راجعنا ما نشرته الصحيفة فإذا به تصوير للإشاعات المحيطة بمركز وزارة عبد الخالق ثروت باشا ، وقررت فى معرض التصوير أنه قد « زال كل شيء » ولم تعد هناك أزمة ، غير أنها ذكرت أن الإشاعات تزعم أن حرج الحكومة جاء من اعتقال أعضاء الوفد الموجودين فى مصر ، كما أن ضغطاً شديداً واقعاً عليها لتبسط نفوذها على لجنة الدستور ، مبينة صحيفتنا أن الحكومة قاصرة عن تنفيذ ما يعنيه الضغط خوفاً من الرأى العام ، ثم طالبت آخر الأمر بالصراحة فى سياسة الشعب ، فذلك « أفضل وأولى وأدعى إلى وقاية ذهن الجمهور وضميره من الأقاويل والحدس والهمس فى الأذن والتقول الذى يضر كثيراً ولا يفيد شيئاً ، ولعلنا لا نسمع مرة أخرى بمثل الذى جرى فإن شخص

---

(١) الأهرام فى ١٤ أغسطس ١٩٢٢

(٢) وزارة الداخلية . محفوظات المطبوعات . دوسيه رقم ٩٤٦/٢/١١

الأمة كبير عاقل ، فيجب أن يكون العمل معها وفى شئونها كبيراً صريحاً جلياً لغرض سام فقط » .

عودتها إلى الظهور

ولم يطل احتجاب الأهرام ، فإن مجلس الوزراء قد شعر بعد أيام ثلاثة بأن عقوبته كانت قاسية ، فليس فى المقال القصير الذى لخصناه ما يستوجب عقوبة الإغلاق أو الإنذار ، وقد كان فى مقدور الحكومة أن تكذب الإشاعات دون أن تعمد إلى ما عمدت إليه من وقف الأهرام ، لذلك قرر مجلس الوزراء الترخيص للأهرام بالصدور[1] ، فعادت فى ١٨ أغسطس بعد غيبة ثلاثة أيام ، تحمل فى صدرها صورة لعطف الناس عليها وبرهم بها ، ذاكرة « أيام الأهرام الثلاثة » منذ نشأتها سنة ١٨٧٥ ، فعادت إلى التاريخ ونشرت قصة إغلاقها فى سنة ١٨٧٩ ، ثم وقفها للمرة الثانية فى سنة ١٨٨٤ ، إلى أن انتهت برواية ما أصابها فى ١٤ أغسطس ١٩٢٢ ، وذلك كله فى أسلوب الأديب الكاتب داود بركات ، كما فصل تاريخ إغلاقها فى سنة ١٨٨٤ الشاعر الناثر خليل مطران فى مقال ممتع جذاب .

طه حسين فى الأهرام

وكان أمتع ما قيل فى احتجاب الأهرام عن قرائها فى موقعة ١٩٢٢ قول طه حسين بعنوان (تعطيل الأهرام) فإن مقاله كان علماً وأدباً انطوى على معان جديدة إذا روعى الجيل الذى نشر فيه ، قال الأديب العالم يحدثنا عن تعطيل الأهرام « كانت النار متاع الآلهة يستأثرون بها ويحرصون عليها لا يبيحونها لأحد من الناس . وكان الناس فى برد شديد يعوزهم الدفء ، وفى ظلمة حالكة يعوزهم النور . فصعد إلى السماء فى حين من الأحيان مارد من المردة أو إله من الآلهة يسمى بروميتوس ، فاختلس قبساً من النار المقدسة أهداه إلى الناس فكان لهم ما يحتاجون إليه من دفء حبب إليهم الحياه . وكان لهم ما يحتاجون إليه من نور هدى أبصارهم وبصائرهم وأباح لهم فهم الحياة .

« فأما بروميتوس فقد أحس كبير الآلهة جنايته وأنه قد أتاح للناس الدفء وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فأنزل عليه عذاباً شديداً وعاقبه عقاباً صارماً . شده إلى صخرة قاحلة فى بلاد القوقاز لا يستطيع عنها بعداً ولا زوالاً . إنما هذه النار هى حرية الرأى

(١) المصدر السابق فى ١٧ أغسطس ١٩٢٢

وإنما بروميثوس هو كل باحث حر يريد أن يخرج الناس من برد الباطل وظلمة الجهالة . إنما هذه النار هي الحقيقة البينة المضيئة ، وإنما بروميثوس هو كل صحفي يشعر بواجبه ويحرص على أن يؤديه . وإنما كبير الآلهة هو الحكومة تأخذ الصحفيين بألوان القهر والشدة وتنزل بهم دروب الحجر والتقييد .

« أرادت الأهرام أن تلتمس الحقيقة . أرادت أن تتفهم أمراً غامضاً . وتجلوه للناس . أرادت أن تكون صحيفة حقاً تشعر بواجبها وتؤديه . شعرت بواجبها وأدته فقضى عليها بالتعطيل أياماً . لا نقول وفقت الأهرام إلى الحق . ولا نقول اهتدت الأهرام إلى الصواب . فقد أنبأتنا الحكومة في قرارها بأن الأهرام لم توفق إلى الحق . ولم تهتد إلى الصواب . وإنما نقول حاولت الأهرام أن تلتمس الحق وحاولت أن تهتدى إلى الصواب . وهذه المحاولة خير بل هي واجب تستحق الأهرام من أجله شكراً وبراً لا عقوقاً وعقاباً . ولكننا في عصر انتقال . الحياة فيه استثنائية فقد اختلط الحق والباطل والمخلص وذو النية السيئة والمنصف والمتأثر بالشهوة والهوى . اختلط فيه الخير والشر . وقد أخذت الحكومة نفسها في هذا العصر الاستثنائي بدروب من الشدة الاستثنائية . فهي كالأهرام تشعر بواجبها وتريد أن تؤديه . تحاول أن تسعى إلى المصلحة فتخطىء وتصيب .

« خضعت الأهرام لما تخضع له الصحف الأخرى في مصر من قسوة هذا العصر ، عصر الانتقال . احتملت هذه القسوة راضية مبتسمة مغتبطة بما أصابها من أذى في سبيل الجهاد .

« احتملت هذه القسوة لا ساخطة ولا فاتر . ويقيننا أنها تستأنف جهادها معتزمة أن تسعى إلى الحق وتهدى الناس إليه ما استطاعت ، لا يثنيها عن ذلك تعرضها لمثل ما لقيت من محنة وأذى . فليس الحق وإرشاد الناس ثمرة يكفى أن تمد إليها الأيدى فتجنى في عبث ولعب وفي لذة وسرور ، وإنما هي ثمرة محوطة بالحسك والأشواك . وخليق بمن مد إليها يده ألا ينالها إلا بعد أن يناله الألم والأذى .

« لذة الصحافة المخلصة . الشاعرة بالواجب . ليست بهذه اللذة الحلوة الخالصة من كل مرارة ومضض . هذه اللذة التي إن أمعنت فيها لم تلبث أن تعافها وتصرف عنها . وإنما هي لذة حلوة تشوبها غضاضة . فيها لنفسك قوة . ولقلبك جرأة ولعقلك غذاء .

« أوذيت الأهرام ولكنها انتفعت بهذا الأذى . أحست ما أظهر الناس يوم إقفالها من عطف الخصم ولوعة الصديق . أسف خصوم الأهرام مخلصين في الأسف لأنهم على

خصومتهم للأهرام يجلونها ويكبرونها . وجزع أصدقاء الأهرام صادقين فى الجزع لأن الأهرام مرآة نفوسهم وعقولهم ، فلتغتبط الأهرام بهذه المحنة وما أظهرت من حب الخصم والصديق . حاولت الأهرام المصلحة فنالها الأذى وحاولت الحكومة المصلحة وأوقعت الأذى بالأهرام . فلتستأنف الأهرام والحكومة محاولة المصلحة والسعى إليها لتتصافيا ولتنسيا كل غل وضغينة ولتتعاونا على الخير ، فإن مستقبل مصر رهين بنسيان الأحقاد . والتعاون على الخير . والتواصى بالبر والمعروف »[1].

أدب الأهرام

أوجزنا فى الحديث عما أصاب الناس من احتجاب الأهرام ، واكتفينا بمقال الدكتور طه حسين ليعبر عن رأى المواطنين فى هذا الاحتجاب ، وإن كان للدكتور محمد صبرى فصل ممتع فى هذا الباب[2]، وكان للبرقيات الخاصة الواردة من أوربا نصيب فى توضيح المكانة العالمية التى لصحيفتنا بين الصحف المعاصرات[3] ، ولم يحفظها موقف الحكومة الثروتية منها ، وآية ذلك أنها ودعتها حين استقالت وداعاً معتدلاً[4]، وذكرت خدماتها فى يوم آخر[5].

إنذار الأهرام

ولم تغير الأهرام من خطتها أو تنحرف عن منهاجها المرسوم من سبعة وأربعين عاماً خوف البطش أو رعاية لخاطر أحد ، فأنذرتها حكومة يحيى إبراهيم باشا لأنها نشرت قصيدة بعنوان (دمعة جزع)[6] ، ونشرت بعد أيام مقالا بعنوان (رفات الأمير عبد القادر)[7]، وقالت الحكومة « إن القصيدة والمقال المذكورين قد تضمنا كثيراً من العبارات التى من شأنها إثارة الخواطر والإخلال بالنظام العام »[8]. وفى الحق إن القصيدة والمقال لم يحتويا على شىء من هذا الذى ادعته حكومة العهد ، ولكنه القلق الذى كان

---

(١) الأهرام فى ١٨ أغسطس ١٩٢٢
(٢) الأهرام فى ٢٨ أغسطس ١٩٢٢
(٣) الأهرام فى ١٩ أغسطس ١٩٢٢ وما تلاه من أيام
(٤) الأهرام فى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢
(٥) الأهرام فى أول ديسمبر ١٩٢٢
(٦) الأهرام فى ٢٢ أكتوبر ١٩٢٣
(٧) الأهرام فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٣
(٨) وزارة الداخلية . محفوظات المطبوعات . دوسيه رقم ١١ — ٢/٩٤٦ فى ٢٨ أكتوبر ١٩٢٣

يسود مصر هو الذى خشيت من أجله الحكومة الهمس قبل القول الصريح ، وقد علقت الأهرام على الإنذار بمقال سجلت فيه رأيها قائلة « إن من ظلم أخاه أو صادره فى حريته فقد أقام مبدأ خطراً ، خطراً على أخيه وعليه على حد سواء . لأن فى ظلم فرد ظلماً للمجموع ، وفى مصادرة حرية أى إنسان تهديداً صريحاً للجمهور . فواجب الوطنى الذى يغار على بلاده وحريتها أن يكون البادىء فى صون هذه الحرية وحمايتها . أما القوى الذى يستفيد من قوة يومه لينال من حق سواه فإنما يهيىء لغده ما يبعث على الندم ، لأن الدهر قلب والسياسة لا تستقر على حال . وربّ قوى اليوم صار ضعيفاً بعد حين »[1].

وإذن فقد أغلقت الأهرام وأنذرت عقب إعلان استقلال مصر ، ولم يحل ذلك دون أن تمضى فى النهج الذى عرفناه عنها فى حياتها الطويلة ، ويبدو أنها انتقلت فى مناقشاتها العامة من اليمين إلى اليسار ، فإذا مقالاتها بعد ذلك مقالات من نار إن صح التعبير[2] ، وهى مقالات فى معظمها بحوث عن حق الشعب الذى يضعون له الدستور ، وحملة مستمرة على سياسة الإنجليز ، وكانت صفحاتها ملكاً لأصحاب الرأى من جميع الأحزاب ، حتى الأحرار الدستوريين الذين كانت لهم صحيفة ممتازة تعبر عن رأيهم وتنطق باسمهم كانوا يقصدون الأهرام لنشر ما يعن لهم من الأمور الهامة[3]. فإذا قرب موعد الانتخاب طالبت المواطنين واستحثتهم على تقييد أسمائهم فى جداول الانتخاب، وهى تعتبر ذلك واجباً وطنياً إذا لم يصنعه المصريون فقد أساءوا إلى وطنهم قبل أن يسيئوا إلى حقوقهم [4]. وكانت ترحب بالمقالات فى هذا الموضوع ، وتلح فى ذلك إلحاحاً ملحوظاً فى كثير من الافتتاحيات[5] .

الإفراج عن سعد

وبعد ذلك بقليل أفرج عن سعد باشا زغلول ، واستقبلت الأهرام الإفراج عنه استقبالاً منقطع النظير ، واحتفلت بعودته احتفالاً عز نظيره فى تاريخها العريض ، وكانت أخبار سعد والاحتفالات التى أقيمت له والخطب التى قالها والأحاديث التى أذاعها تجد صدراً رحباً من صفحاتها وتنشر فى أعز مكان منها[6]. فإذا أجريت الانتخابات

(١) الأهرام فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣
(٢) الأهرام فى سنتى ١٩٢٢و١٩٢٣
(٣) الأهرام فى سنة ١٩٢٣
(٤) الأهرام فى شهر مايو ١٩٢٣
(٥) الأهرام فى ١٢ مايو ١٩٢٣
(٦) الأهرام فى شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٢٣

ونال أنصار سعد أغلبية لم يظفر بمثلها حزب من الأحزاب منذ عرفت الحياة الدستورية إلى اليوم ، كانت رعايتها للشؤون الصحفية فى مقدمة ما رعت من موضوعات ، ولها فى ذلك مطالب القصد منها تحقيق حرية الصحافة ، وقد بدأتها بافتتاحية ممتعة بعنوان (الصحافة المصرية فى مفتتح العصر الدستورى . كلمة فى أذن الحكومة الدستورية)[1]. بينت فيها مصلحة الحياة الدستورية ومصلحة الحكومة الديموقراطية فى التمكين للحرية الصحفية لأصدقائها وخصومها على السواء .

عنايتها بالمجلسين

وقد عنيت الأهرام عناية ملحوظة بجلسات مجلس الشيوخ والنواب ، فكانت أخبار المجلسين ونشاطهما تحتل من صفحاتها – وهى ست صفحات فى الكثير من الأيام – نصفها ، فسجلت بذلك نشاط البرلمان المصرى تسجيلا فيه صورة طيبة لتاريخ مصر من هذه الناحية[2]. كما وقفت إلى جانب حكومة سعد زغلول باشا فى المشاكل الخارجية التى أثيرت فى مصر كالمشكلة التى قامت بين المستر كارتر ووزارة الأشغال من أجل مقبرة توت عنخ آمون[3]، وزحمت أنهرها بكثير من تفاصيل ما يجرى فى جنوب الوادى وما أصيب به السودان من اضطراب نتيجة فساد السياسة الإنجليزية ، ولها فى ذلك المقالات والأخبار البريدية والأنباء البرقية الخاصة[4]. وإنما تقصد بذلك تأييد الحكومة الدستورية التى تتأهب لمفاوضات الإنجليز وتقدم لها أدلة على سوءآتهم فى كل مكان ، حتى إذا بدأت المفاوضات كانت وثائق المفاوض المصرى عامرة ومدعمة بالحوادث وأسانيدها ، فقد صنعت العساكر الإنجليزية فى معسكرات الأورط السودانية فعالا وحشية سجلتها الأهرام فى صفحاتها وأشارت إليها فى رأسها بحروف كبيرة لافتة للنظر[5].

الاعتداء على سعد

وذهب سعد إلى محطة مصر فى طريقه إلى المفاوضات واعتدى عليه شاب فأصيب برصاصة أعجزته عن السفر وأبقته فى القاهرة ملازماً فراشه أياماً أخرى ، وامتلأت صفحاتها

---

(١) الأهرام فى ٨ فبراير ١٩٢٤
(٢) الأهرام فى سنة ١٩٢٤
(٣) الأهرام فى ١٦ فبراير ١٩٢٤
(٤) الأهرام فى شهرى مايو ويونيو ١٩٢٤
(٥) الأهرام فى ١٢ أغسطس ١٩٢٤ وما تلاه من أيام

بأخبار الجريمة وكتبت يوم الاعتداء على رئيس الحكومة افتتاحية تفيض حماسة وثقة بالزعيم المصرى جاءت بعنوان (عاش سعد وعاشت مصر) قالت فيها « أجل إن مبدأ سعد مبدأ لكل رجل فى هذا البلد ، لكل فتى من فتيان هذه الأمة ، والمبادئ العظيمة التى تقوم عليها حياة الشعب والتى ترخص الأرواح فى سبيل الدفاع عنها لا تميتها رصاصة تذهب بحياة زعيم مهما يكن هذا الزعيم عظيماً » ، ثم تقول بعد ذلك « لقد مات محمد فلم يمت الإسلام ، ومات أصحاب الشرائع المنزلة والموضوعة فلم يذهب الموت بالشرائع ، وكذلك فكرة الحرية فى مصر فهى لن تخمد بخمود حياة بطل من أبطالها أو زعيم هؤلاء الأبطال جميعاً .

« ولكن الله الذى كتب لمصر الاستقلال على يد سعد قد أبى أمس جلت قدرته وتبارك اسمه أن تقضى رصاصة الجانى على حياة سعد فنجاه من غدر الغادر وكتب له السلامة . تبارك الله ، وعاشت مصر ، وعاش سعد[1] » .

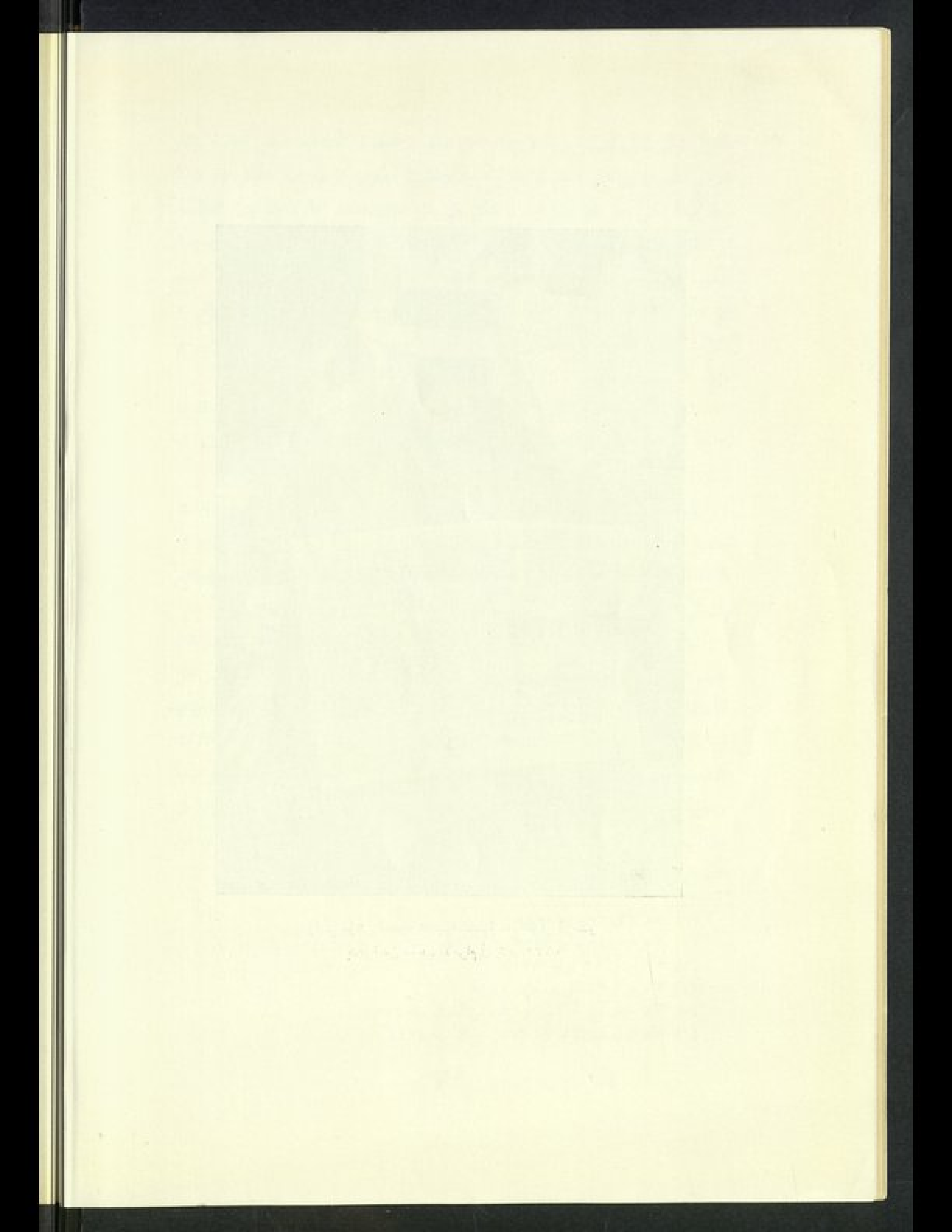
واستمرت أنباء صحة سعد ، وأخبار المجرم والجريمة تشغل صفحات الأهرام ، ووقفت بعضها على نشر برقيات التهنئة ومقالات المعجبين والمؤيدين . وكان من أجمل ما نشرته فى الاعتداء على سعد زغلول « الخريدة الشوقية »[2] لأحمد شوقى بك ، وقصيدة حافظ إبراهيم بك فى الموضوع نفسه[3] .

وشفى سعد من إصابته وسافر إلى أوربا لمفاوضة المستر ماكدونالد فى القضية المصرية ، وتطلع المصريون إلى تلك المفاوضات لخطورتها ولأن القضاء فيها سيحدد موقف مصر من الاستقلال والحرية ، وكانت برقيات التأييد وبرقيات الأهرام الخاصة بالمفاوضات وافتتاحياتها فى ذلك الموضوع تشغل صفحاتها[4] . ولم تهمل أنباء سعد وبرقيات التأييد ومقالات التشجيع حين عاد الرجل وقد فشلت مفاوضاته مع الإنجليز[5] وقد مضت الأهرام له سنداً ونصيراً حتى وقعت حادثة السردار التى هزت الموقف الداخلى ، وتنمّر الإنجليز وغالوا فى مطالب التعويض حتى أحرج سعد فاضطر إلى الاستقالة ، وتم سحب الجيش المصرى من السودان كما أراد المحتلون[6] .

(١) الأهرام فى ١٣ يوليو ١٩٢٤
(٢) الأهرام فى ٢٤ يوليو ١٩٢٤
(٣) الأهرام فى ٢٥ يوليو ١٩٢٤
(٤) الأهرام فى أغسطس وسبتمبر ١٩٢٤
(٥) الأهرام فى شهر أكتوبر وما تلاه من أيام فى سنة ١٩٢٤
(٦) الأهرام فى شهر نوفمبر وما تلاه من أيام فى سنة ١٩٢٤



رئيس مؤتمر الصحافة اللاتينية لمناسبة عقد المؤتمر فى مصر
بدعوة من صاحب الأهرام فى يناير ١٩٣٢



وهكذا اختتمت الأهرام حقبة من التاريخ المصرى الحديث كانت تحمل فيه مشعل الجهاد ، وكانت لأصحاب الجهاد من الأحزاب مسرحاً يعلنون فيه أفكارهم وينشرون آراءهم فوقفت إلى جانب القضية المصرية لساناً قوياً مدوياً من ألسنتها التى يحفظ لها التاريخ مكانها من صفحاته البيض ، صحبت اليقظة الوطنية عقب الهدنة مباشرة ومضت تذكى أوارها وتبث فيها روحها حتى جعلت الزفير زئيراً أقض مضاجع الإنجليز ، وهب الشعب المصرى يطالب باستقلاله ويكافح من أجل الدستور ، واستطاعت الأهرام أن تضع لبنات فى بناء الاستقلال الذى لم يتم إطاره بعد ، وأن تؤيد الفكرة الدستورية حتى أصبحت الحياة النيابية فى مصر حقيقة واقعة ، وأصبح المصريون يستمتعون بنعمة الدستور ، بعد جهاد عرفناه للأهرام منذ نشأت فى عهد الخديو إسماعيل .

معرض للأفكار

إنما الأهرام مرآة بها كلما تنظره منك ولك

« غانم »

قد اقتبسنا عنوان هذا الفصل من الأهرام نفسها ، فقد كان فيها باب (للأفكار والآراء) يقبل عليه قراؤها فيبثونه ما يجيش فى صدورهم ويسرّون إليه بما يدور فى أذهانهم . وفى الحق إن الأهرام بصفحاتها جميعاً كانت منذ قامت الثورة المصرية معرضاً للأفكار ، فشهدت سطورها حين أشرق عام ١٩١٩ كل جديد أو تليد من حياتنا المصرية ، فإذا صحيفتنا الأولى تسير بعد الحرب العظمى فى صدارة الصحف وفى طليعة الدوريات ، تضم فى أعطافها أقلام مصر جميعاً فى كل ناحية من نواحى الفن والعلم والأدب ، وهى نفسها تتطور من حيث الفن الصحفى تطوراً ملحوظاً فى الشكل والخدمة الصحفية العامة ، بالرغم من الظروف القاسية التى كانت تجابهها من قلة فى الورق وصعوبة استيراده ، إلى هذا الرقيب الواقف ببابها يشطب ما يشاء دون رعاية لحرمة الفكر فى عهد يقتضى من كل مصرى العمل على انطلاق جميع الأفكار ، ثم تستقر الأمور بعض الاستقرار فى سنة ١٩٢٤ ، وهى سنة يعز على كاتب التاريخ أن يلم بها فى تفصيل حذر العناء والعثرات .

بين السياسة والأدب

بعد هذه الصورة التى رسمناها لجهاد الأهرام منذ الثورة إلى بلوغ الدستور ، نرى أن نسجل لها صورة أخرى من جهاد قديم الأثر فى عالم الشعر والأدب ، وقد لمسنا إيمانها بشعراء الجيل فى مستهل القرن العشرين ، وها هى ذى تسير سيرتها الأولى حين تيقظت المشاعر ثائرة على كل قديم إلا شوقى وحافظ ، فإنهما فى ذمة الأهرام ثروة وطنية يجب

أن تذكر ويكون لها في الربح حساب حين تزيد الثروات وتثار المشاعل ، وأنها لتحفظ لشوقي « الود » ، بالرغم عن نفيه وحرمانه من بعض العطف وسخط الإنجليز عليه لصلته القديمة بالخديو السابق، وإنها لتذكر في شيء من الغبطة قرب عودته إلى الوطن، وترحب في صدرها الذي اتسع لأمير الشعراء من قبل بكتاب حافظ إبراهيم إليها ، فقد انتظر شاعر النيل أن يعود أمير الشعر لينشد بين يديه تحية الأوبة ، ولكن غيبته طالت وأوبته غابت فقالت الأهرام « أرسل إلينا الشاعر العبقري الأشهر « حافظ بك إبراهيم بكتاب لطيف ، طواه على قصيدة عصماء ، بل على درة فريدة أهداها إلى أمير الشعر والشعراء »

ثم نشرت الأهرام نص الكتاب الموجه من حافظ إبراهيم إلى صاحب الأهرام ، وقد جاء فيه « نمى إلى في العام الماضي نبأ قدوم أستاذي وصديقي شاعر المشرق « شوقي بك » فأعددت له قصيدة عزمت على إنشادها بين يديه في حفلة تقام له . ثم طال انتظاري وأشفقت أن ينزل بي ما نزل بصاحبي « حفني » من القدر المحتوم فألقى الله قبل لقاء شوقي ، وأقضي قبل أن أقضي حق ذلك الغائب . فوجهت إليك بها لتحتال على تبليغها إليه فإن بينكما من التراسل ما لا يتهيأ لغيرك . وإذا فسح لنا في الأجل وتلاقينا رجوت أن ألقاه بمثلها أو بخير منها والسلام » .

وتعقب الأهرام — وهي سجل لحضارتنا الحديثة ، وعنوان لتقدمنا في كل فن — تعقب بقولها « وقد رأينا « الأهرام » خير بريد لإبلاغ الرسالة ، فنشرناها في صدر هذا العدد ليتلوها عشرات الألوف من القراء ويشتركوا مع ناسج بردتها في إهدائها إلى نزيل الأندلس الكريم المرقوب طلوعه على هذا الوادي طلوع القمر على المدلج الساري . ونحن نسأل الله أن يفسح لحافظ في الأجل فيلقى صديقه تحت ظلال الهناء والصفاء ويغرد كلاهما طويلا على ضفاف النيل . فقد طال شوقنا إلى تلك الصدحات المطربات وطال سكوت الغاب منذ نأى عنه بلبله الفريد »[1] .

أرأيت كيف لم تنس الأهرام في زحمة الكفاح وخلال النار المشتعلة في الدار زعيماً من زعماء الفكر ، فقدمت له بكلمات من زعيم آخر وعقبت بتسجيل الفضل لصاحب الفضل . وزادت فأفسحت صدرها كله تقريباً لنشر الدرة الفريدة التي نظمها « الشاعر العبقري الأشهر » لصديقه وأستاذه « أمير الشعر والشعراء » ، فإذا عاد شوقي استقبلته استقبالاً بديعاً ونشرت قصيدته الرائعة (الرحلة إلى الأندلس[2]) ، وقد استغرق نشر القصيدة معظم

(١) الأهرام في ١٤ أغسطس ١٩١٩
(٢) الأهرام في ١٢ سبتمبر ١٩١٩

الصفحة الأولى ، ومضت تنشر لأمير الشعراء قصائده فى المناسبات التى يتخيرها ، وتقدم له فى كل مرة تقدمات غاية فى الإكبار والتكريم[1] »

وقد انطوت الأهرام منذ مطلع القرن العشرين على قصائد شوقى وحافظ وصبرى وغيرهم ، وليس فى وصل ما انقطع جديد فى عهد الثورة بالنسبة إلى أولئك الشعراء ، غير أن أيامها فى السنوات الست بعد الحرب العظمى الأولى حفلت بشعراء مجيدين كان فى طليعتهم شاعر ثائر على رأس شباب الشعراء هو الأستاذ عباس محمود العقاد ، نشرت له قصيدة ممتعة فى (ذكرى الشهيد)[2] وأخرى عن (يوم الشهداء)[3] ، ولم تخل أعدادها من قصائد له فيها من الجدة والطرافة ما يعارض الفطاحل القدماء فى المذهب واللفتات ، وقد ضربنا بالعقاد مثلاً على غيره من قارضى الشعر لما احتوى عليه شعره من جديد لم يعتده الجيل المتطلع إلى كل جديد .

وفاة شاعر موهوب

وقد قضى فى ذلك الوقت شاعر موهوب ، كثيراً ما استمتع قراء الأهرام بشعره ، وعرفه الجيل القديم على صفحاتها ، وأوشكت الحرب وما أعقب الحرب من أزمات أن تنسى الجيل الناشىء شاعرنا صبرى باشا ، فإذا نزل به القضاء المحتوم ، احتفلت الأهرام بذكره رثاء وتأبيناً استغرق من صفحاتها الست صفحتين جمعت فيهما ذخراً من تاريخه وصفاته ومذهبه بين الشعراء[4] ، فألم الناشئون فى ذات يوم بتاريخ شاعر من كبار الشعراء ، لم يكن فى المقدور بيان قدره فى تلك الزحمة لولا رثاء الأهرام له وإفساحها الصدر لما قيل فيه ، وإن هذا الذى صنعته الأهرام فى وفاة إسماعيل صبرى باشا كان حرياً بها جديراً برسالتها وهى صحيفة آية نضجها واستوائها أنها سجل لمقدره فى التأريخ لأعاظم الرجال .

وإذا نحن ذكرنا لصحيفتنا أنها كانت معرضاً لأفكار الشعراء ، فأنها كانت ميداناً رحباً خصيباً لفئة من شباب الجيل الحديث الذى نهل من أوربا ، وتذوق آدابها فى عمق لم تعرفه الأجيال السابقة ، فجاء هذا الشباب الخصب يعرض عصارة الذهن الرفيعة على صفحات الأهرام ، والأهرام تعطيه من نفسها ما يشاء ، فإذا نحن أمام جماعة من الشبان هم فى الحق قطعة رائعة من تاريخنا القومى ، فى مقدمتهم طه حسين وحسين هيكل ومن إليهما

---

(١) الأهرام فى ٦ مارس ١٩٢٠

(٢) الأهرام فى ٣ يناير ١٩٢٠

(٣) الأهرام فى ٣ مايو ١٩٢٠

(٤) الأهرام فى ٤ مايو ١٩٢٣



أعضاء وفد مصر فى مجلس الأمن عند عرض القضية المصرية فى مايو ١٩٤٧

وقد كانت للأول – بجانب مقالاته السياسية – افتتاحيات عامرة عن (عناية المصريين بتاريخ مصر[1]) ، كما شغل قراء الأهرام بكثير من المقالات عن الفنون والآداب[2] وما ينبغى أن يبذل فى سبيل إحيائها[3] . وقد اطرد نشاطه فى الأهرام كاتباً فى الشئون العامة باحثاً فى فنون الأدب والتاريخ ، فإذا انتقل إلى جريدة السياسة لسان الأحرار الدستوريين ، سواء كانت السياسة اليومية أو السياسة الأسبوعية لم يكن غريباً على قراء العربية ، بل كان علماً من أعلامها المجددين فيها المبدعين فى ميادينها ، ولم تنقطع صلته قط بالأهرام ، فهى تذكره فى الخبر وتفسح له صدرها بين آن وآن ليمتع بما يكتب قراءه الكثيرين .

حسين هيكل

وثانى الاثنين اللذين اختارا الأهرام مجالاً لهما هو الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) وكان فى صدر الشباب حين كانت صحائف الأهرام مفتوحة له ينشر فيها مقالاته المدروسة عن الدستور أو عن الخلاف المصرى الإنجليزى على ما بينا فى الفصل السابق ، ولشد ما يؤلم النفس أن ينسحب مثل هذا القلم السيال من ميادين الصحف ، فقد كان فى الأهرام متميزاً بالاعتدال ممتازاً بالأسلوب والتفكير السليم ، لا يكبو فى لفظ أو تعبير ، يعرف أدب المناقشة فى منطق ممتع وتحرير بديع ، وقد أبدع فى كتاباته الأدبية ، اتصلت تلك الكتابة بالدفاع عن اللغة العربية كأداة من أدوات التعليم[4] واحتمالها للنقل من الآداب والعلوم الأوربية[5] ، أو بنقد الكتب الجديدة والإعلان عنها وتحبيب القراء فيها لما انطوت عليه من آراء لم تعرفها الآداب العربية من قبل[6] .

منصور فهمى

وليس يعنى ما ذكرناه عن هذين الأديبين الكاتبين أن صحيفتنا قبضت صدرها فلم يستمتع به غيرهما ، بل إنى أستطيع أن أجزم بأن أحداً من الكتاب والعلماء وأصحاب الرأى الآن لم يعرف فى جيلنا إلا عن طريق الأهرام بما كتب ونشر فيها أولا ، ومن هؤلاء الدكتور

---

(١) الأهرام فى ٧ فبراير ١٩٢١
(٢) الأهرام فى ٢١ أبريل ١٩٢٢
(٣) الأهرام فى ٢٦ أبريل ١٩٢٢
(٤) الأهرام فى ١٠ مايو ١٩٢٠
(٥) الأهرام فى ١٨ مايو ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ٦ يناير ١٩٢١

منصور فهمى باشا الذى عرفناه حين قدم فى الأهرام « كتاب الأخلاق للشيخ أحمد أمين »[١] ، وكان شاباً قد فرغ إذ ذاك من دراسة الجامعة فى باريس ، وقد استمر يكتب فى الأهرام أعواماً متصلة بعنوان (خطرات نفس) بدأ نشرها فى سنة ١٩٢٢[٢] وضمنها نفثات ذهنية عالج فيها كثيراً من الموضوعات فى الأدب والسياسة والاجتماع .

الأمير حسن فاضل

وإذا كانت الأهرام اعتادت أن تنقد الكتب الجديدة عن طريق أقلام أصدقائها ، فقد كانت هى تقدم من عندها نقداً للكتب التى يغيب أمرها على الناقدين كحديثها عن (الورود الدامعة . مجموعة شعر وأدب لسمو الأمير حسن فاضل)[٣] . وهى تقدم هذا النقد الطريف لكتاب أمير محتفلة به فى كل مكان من قلبها ، وهو صدر محلياتها ، كما شجعت نشر الأدب والفنون حين ذكرت بالتأييد المؤسسات الفكرية الحديثة ، وأذنت لأصدقائها أو أعضائها بالدفاع عنها ، وقد قرأنا فى ذلك « عبد الحميد العبادى المدرس بالقضاء الشرعى » يدافع فيها عن رسالة لجنة التأليف والترجمة والنشر[٤] .

تمصير التعليم

ولسنا نزعم جديداً للأهرام فى هذه النواحى إذا رويناها فى هذا الفصل ، وذلك دأبها منذ عرفتها مصر ، غير أن النهضة السياسية صحبتها نهضات كثيرة أخرى سجلت الأهرام حوادثها صريحة معتدلة كما هى الحال فى تسجيلها لحوادث النهضة السياسية ، فقد نشط المصريون العلماء لتمصير التعليم فى مدرسة الطب ، وقد كافح الإنجليز الفكرة وانبرى لهم هيكل ، كما انبرى لهم الدكتور أحمد عيسى ينقض ما ذهب إليه ناظر المدرسة الإنجليزى ويؤيد بالدليل والبرهان فى أربعة أنهر صلاحية اللغة العربية كوسيلة من وسائل تعليم الطب فى مصر[٥] ، وجاءت إلى الأهرام مقالات فى هذا المعنى بعضها من أهل الأدب وبعضها من أهل الطب الذين فى مقدورهم أن يحكموا على الموضوع فيحسنوا الحكم .

---

(١) الأهرام فى ٢١ مايو ١٩٢٠ . والشيخ أحمد أمين هو الأستاذ أحمد أمين بك صاحب مجلة الثقافة وعميد كلية الآداب الأسبق .
(٢) الأهرام فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٢
(٣) الأهرام فى ٢٤ مارس ١٩٢٠
(٤) الأهرام فى ٧ أغسطس ١٩٢٠
(٥) الأهرام فى ٤ مايو ١٩٢٠

آثار مصر القديمة

ثم قرأنا فى الأهرام صحفاً متصلة فى أيام متقاربة عن موضوع جليل أهمله المصريون أجيالا ، وقلما كان أحد منهم يلتفت إليه ، وقد بدأه سليم حسن ، الأثرى المعروف الآن ، فحدثنا عن الآثار مرات ، وحدثنا مرات أخرى عن المتاحف فى كل مكان [1] وتصادف فى تلك الأيام أن اكتشفت مقبرة توت عنخ آمون ، وكان لاكتشافها ضجة عالية ، عالجت الأهرام أمرها بالمقالات بضعة أشهر ، بجانب الرسائل التى نشرتها لعيونها فى مكان الاكتشاف ، إلى تلك البرقيات الخاصة التى ملأت أنهراً منها عن قدر الاكتشاف فى العلم والتاريخ [2] . وزاد أهمية هذا الاكتشاف الخلاف الشديد الذى نشأ بين وزير الأشغال وبين المستر كارتر المساعد فى كشف المقبرة ، فقد كان خلافاً ذا أوجه ، كان خلافاً على الكشف وخلافاً على الكرامة ، وخلافاً على سلطان الحكومة وحق المصريين فى تقدير مسائلهم الخاصة بآثار جدودهم ، وقد سجلت الأهرام ذلك كله بحيث يستطيع المؤرخ أن يصدر عن الموضوع كتاباً يتضمن كل ما يهم المعنيين بهذا التاريخ وهو مطمئن إلى سلامة العرض وصدق التاريخ [3] .

الإسلام فى الأندلس

ويستطيع المؤرخ أيضا حين يسجل للأهرام نشاطها أن يعود إلى ما كتبه أحمد زكي باشا عن (الإسلام فى الأندلس) ، فقد أتحفنا ذلك المؤرخ بمقالات مختلفة فى هذا الموضوع ، فيها بحث ملحوظ ودقة تاريخية ظاهرة حتى رأى الناس تلك المقالات مرجعاً هاماً فى هذه الناحية من التاريخ لما انطوت عليه من وثائق وأسانيد [4] اعتمد عليها أحمد زكي باشا فى وصفه لما كان عليه الإسلام فى أسبانيا ، وكيف عاشت حضارته وكيف اندثر من تلك البلاد وبقيت حضارته حية فيها .

المكتشفون والنحاتون

ثم انظر إلى الأهرام كيف احتفلت بالرحالة المصرى « أحمد حسنين بك [5] » ، وأعلنت

---

(١) الأهرام فى شهر أغسطس ١٩٢٢
(٢) الأهرام فى أوائل سنة ١٩٢٣
(٣) الأهرام فى أوائل سنة ١٩٢٤
(٤) الأهرام فى شهر سبتمبر ١٩٢٣
(٥) الأهرام فى ٢٠ نوفبر ١٩٢٣

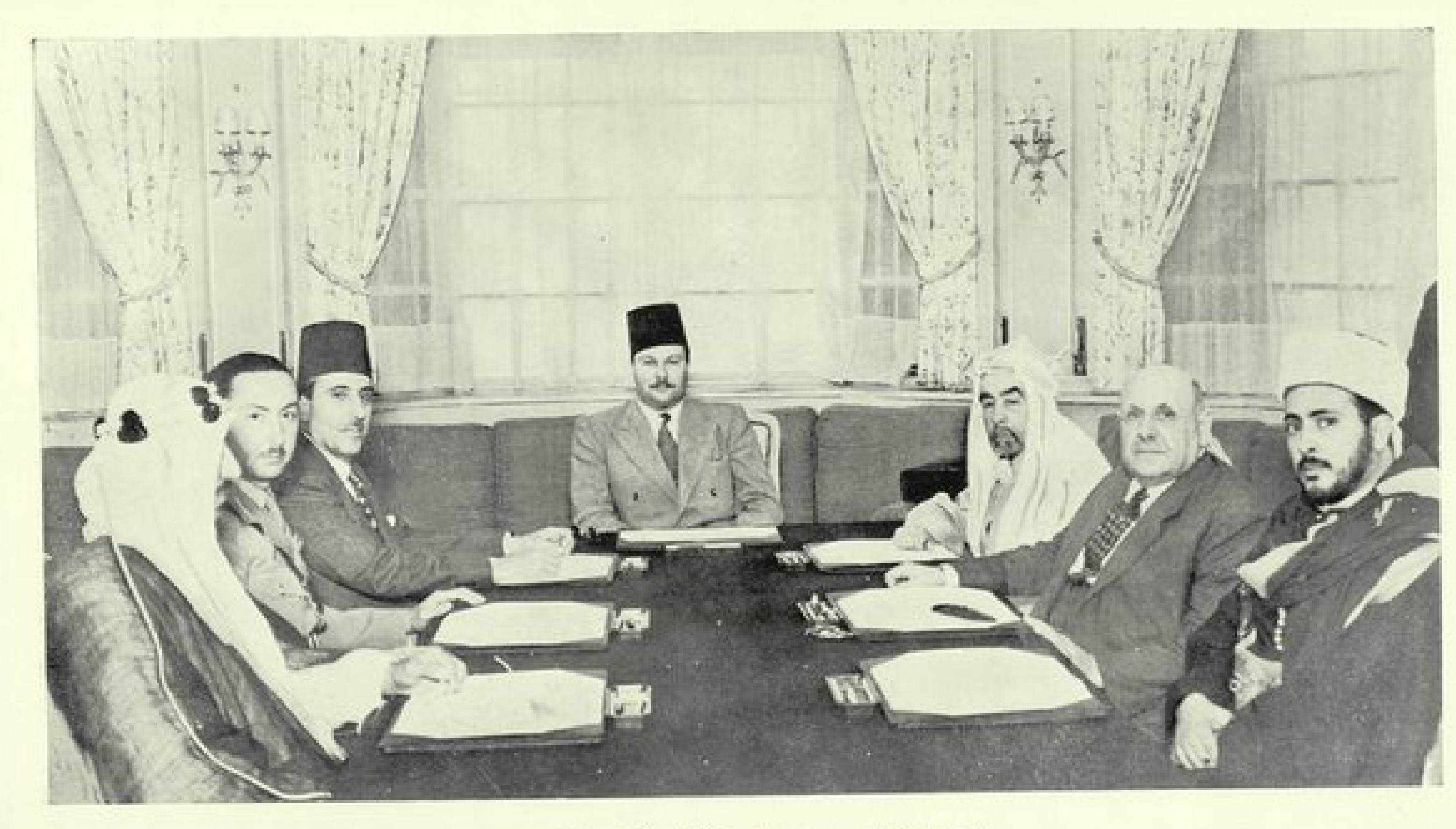
بالغبطة مجهوداته فى كشف الصحراء ، وأبرزت عناية الملك فؤاد به وتنشيطه له ومكافأته على ما بذل من جهد[1] وراجع معنا هذا المقال الرائع الذى قدمت به الأهرام « محمود مختار » لقرائها مبينة فيه هذا الحدث الذى أحدثه بصناعة تمثال نهضة مصر ، ضاربة على الوتر الحساس من وطنية المصريين وواجبهم إزاء مثالهم المختار[2]. فإذا استجاب الناس لها وأحسوا للمواطن هذا الجهد تألفت من بينهم لجنة لتكريمه والإعلان عنه ، ونشرت نبأ « لجنة تكريم النابغة مختار » فى أعز محلياتها[3] ، وذكرت بين آن وآخر الكثير من أخبار الفنان ومدى نجاحه فى الأوساط الوطنية والأجنبية ، وكذلك احتفلت بالفنون فى ألوانها الأخرى ، وأبرزت فى صدر محلياتها مقال عبد الرحمن صدقى عن افتتاح معرض الصور المصرى[4] كما نشرت كثيراً من مقالات التأييد لإحياء الموسيقى الشرقية التى وجدت فى توفيق دياب خير نصير يذيع عنها ويؤكد فوائدها ويعلن أن إحياء ذلك الفن واجب مقدس[5]

التقاليد البرلمانية

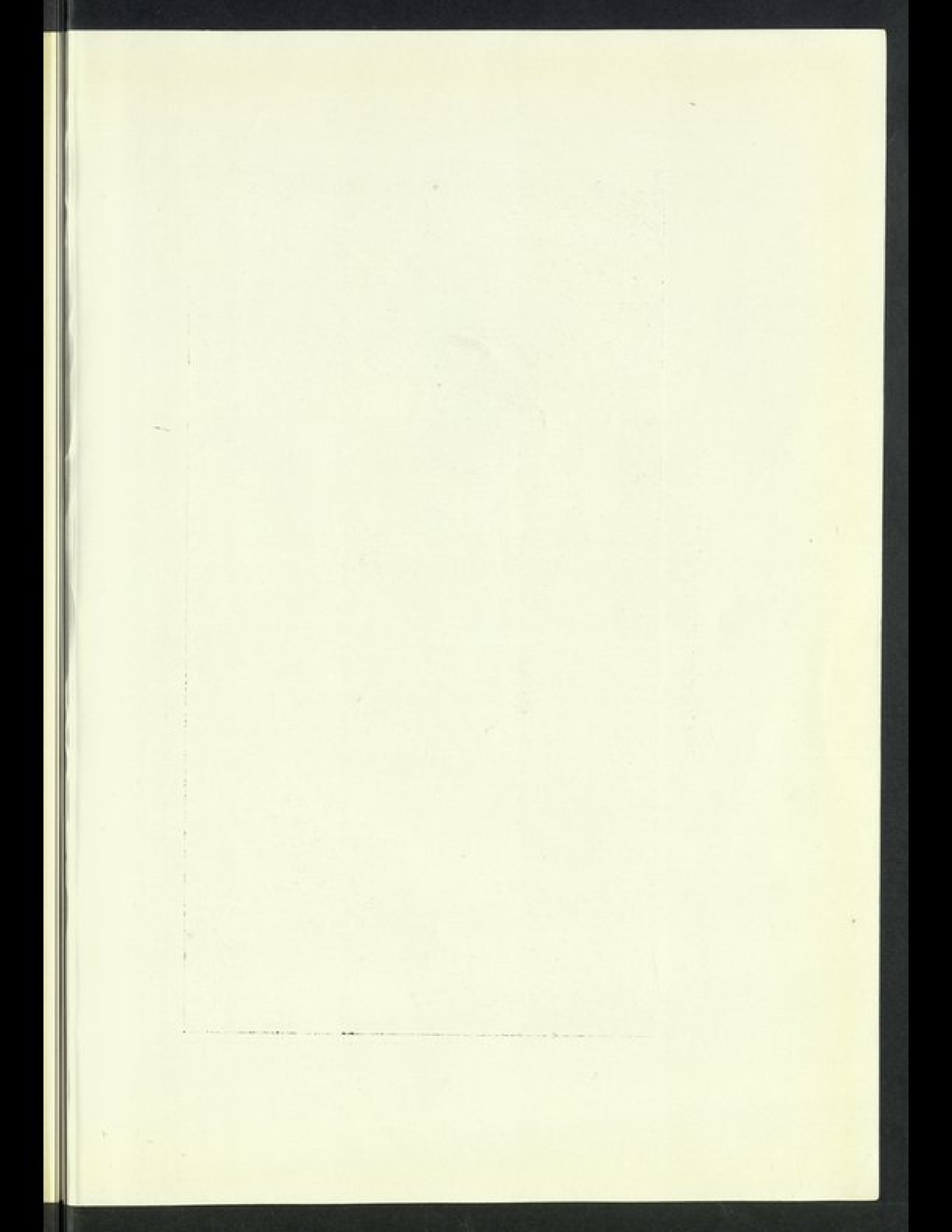
ولن نفرغ من رسم هذا العرض البديع للأفكار إبان النهضة السياسية وفى غضون الثورة المصرية التى كان الاشتغال بها وبموضوعاتها فى صحف أخرى كفيلاً بالقضاء على هذه النواحى الفكرية الممتعة وإهمالها إلى حين ، وحسب الأهرام أنها آخت بين النهضات كلها ، وكانت عنايتها بها قسمة عادلة بينها جميعاً ، فأنت تخرج من الأدب إلى الفنون ، فتجد محمد صبرى أبو علم يكتب مقالات متتالية عن (التقاليد والآداب البرلمانية)[6] ، وإلى جانبه ينشئ مقالات فى موضوعات أخرى الشيخ محمود أبو العيون[7] يزامله فى دراسة موليير أو غيره من الموضوعات المؤرخ المعروف محمد صبرى[8] . هذا إلى جانب تلك الاجتماعيات التى عالج أمرها الكاتب اللبق محمد فكرى أباظه فى مقالات يعز على مؤرخ الجريدة أن يحصرها أو يشير إليها ، وهى موزعة فى أعدادها الكثيرة منذ فجر الثورة إلى

---

(١) الأهرام فى ٢١ نوفبر ١٩٢٣
(٢) الأهرام فى ٤ مايو ١٩٢٠
(٣) الأهرام فى ٥ أغسطس ١٩٢٠
(٤) الأهرام فى ٥ أبريل ١٩٢٠
(٥) الأهرام فى ٥ مايو ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ١٤ مارس ١٩٢٠ وما تلاه من أيام
(٧) الأهرام فى ١٢ يناير ١٩٢٢
(٨) الأهرام فى ١٤ يناير ١٩٢٢



اجتماع ملوك العرب ورؤسائهم فى أنشاص أول يونية ١٩٤٦



ما بعد قيام الدستور[1] . ولم تغفل الأهرام صحة الناس فنشرت بالرسوم مقالات متتابعة عن « صحة الفلاح فى مصر » للدكتور مصطفى فهمى سرور المدرس الأول بمدرسة الطب الملكية[2] ، وهى دراسات عن الديدان البلهارسية ووسائل علاجها والقضاء عليها ، وكانت هذه الدراسات تلقى ترحيباً ملحوظاً فى الأهرام فتنشر فى افتتاحياتها ، هذا إلى تلك المقالات التى عرض لها عبد الله حسين وكان من خيرة محرريها المعروفين .

تأييد الجمعيات المفيدة

وقد دعت الأهرام لكل مشروع يفيد حياتنا الاجتماعية أو العلمية أو المادية ، فهى تؤيد من غير حدود أو قيود « جمعية المرأة الجديدة » أو « ملجأ الحرية » الذى نشرت بيانات متصلة عنه ، وكانت وسيطاً – كعهدها – بينه وبين المكتتبين له من أبناء الشعب[3] ، ثم عادت إلى الحديث عن الجامعة الأميرية ، وأحيت فكرتها وفصلت أخبارها ، ونشرت فى ذلك مقالات تضمنت مشروع الحكومة بتحويلها إلى جامعة حكومية ، ومقالات أخرى لنقد ما أحتوى عليه المشروع ، وبقيت ملازمة الفكرة ، مواتية لها ، مرحبة بها حتى أصبحت الجامعة المصرية الأهلية جامعة حكومية لها قدرها بين جامعات العالم المختلفة ، وأصبح ذلك الأمل الذى كان حلماً فى أوائل القرن العشرين حقيقة واقعة آخر الأمر[4] .

الحياة الاقتصادية

وأولت صحيفتنا الحياة الاقتصادية عناية فائقة وكان لمراسلها المالى مقالات ممتعة فى هذا الباب ، يؤازره فيها طلعت حرب الذى عرض لكثير من شئون الاقتصاد والمال فى دراسة مؤيدة بالوثائق والأسانيد ، وخلعت عليه الأهرام لقب « المالى الكبير » ، وهى تقدم لمقالاته . ولم تمض الأهرام أسبوعاً بين زحمة الثورة ولهيبها إلا وله فيها مقال عن الاستقلال الاقتصادى وقد جعلته مؤآخياً للاستقلال السياسى[5] . هذا بجانب تلك البحوث العميقة التى تولاها بين آن وآخر إسماعيل صدقى باشا بعنوان (خواطر مالية واقتصادية)[6] ، ناشرة فى كل

---

(١) ذكرنا إشارات كثيرة إلى كتابات فكرى أباظه السياسية فى فصل سابق .
(٢) الأهرام فى ٧ أكتوبر ١٩٢٢ وما تلاه من أيام
(٣) الأهرام فى سنة ١٩١٩
(٤) الأهرام فى ٦و٧و١١و١٢و١٥و١٧ ديسمبر ١٩٢٣ وفى أول يناير ١٩٢٤
(٥) الأهرام فى سنة ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ١٢ فبراير ١٩٢٠

سنة الميزانية ودخلها[١] ، معقبة عليها بنقد وسائل الصرف فى ملاحظات طويلة ، استغرقت أنهراً منها[٢] ، داعية لإنشاء المصرف الوطنى الذى تبنت فكرته منذ سنة ١٨٧٩ ، وقد عرضت لإحياء الفكرة بمجرد قيام الثورة مبينة قدره وخطره فى تأييد الاقتصاد الوطنى ونحن فى مفترق الطرق[٣] إلى أن تم إنشاء البنك وأذيع مرسوم الإنشاء فى سنة ١٩٢٠[٤] ، وتلا ذلك فيض من مقالات التأييد لبنك مصر كان من أجملها مقال لطالب فى مدرسة الحقوق تحدث فيه عن (المصرف الوطنى المصرى وواجب الأمة حياله)[٥] ولا يذهب المؤرخ بعيداً حين يقرر فى اطمئنان أن الذى صنعته الأهرام فى سبيل إنشاء البنك يعتبر عدلاً وذمة من أنصع الصفحات فى جبين تاريخ الأهرام التليد .

شئون أخرى

عرضنا لوصف معرض الأفكار العامة على صفحات الأهرام ، وقد أيدت بجانب ما ذكرنا إنشاء النقابات الزراعية ، ونشرت لجلال حسين مقالا فى ذلك الموضوع[٦] ، وما هى مقالات وأخبار تجل عن الحصر ،وكانت تفسح صدرها لمقالات العبرة مأخوذة عن التاريخ الحديث ، وكان جميلا منها أن مهدت للأستاذ محمد رفعت إنشاء تلك الافتتاحيات القوية فى « ذكرى محمد على الأكبر » ، فقد كان كفاح المصريين إذ ذاك على أشده ، وكان ذكر الأبطال المجاهدين فى سبيل مصر واجباً حتى يتنبه الوعى القومى ويأخذ العظة من التاريخ ، وكان صاحب المقالات استاذاً للتاريخ بالمدرسة التوفيقية ، والأهرام منذ عرفتاها معنية بتشجيع كل مجتهد يصوب لرفعة بلاده ، ولم تبخل فى ذلك على قرائها ، فكانت تنشر برقيات خاصة عن نبوغ الطلاب المصريين فى جامعات الغرب ، وهى إنما تضرب بهم للشباب المتحضر الأسوة الطيبة والمثل الحسن وسط الدم المراق فى سبيل الوطن[٧] .

الأهرام والمرأة المصرية

وإذا نال الرجال بمشروعاتهم وكفاحهم تأييد الأهرام ، فقد نالت المرأة المصرية تحية

(١) الأهرام فى ٢٥ مارس ١٩٢٠
(٢) الأهرام فى ٢٦و٢٧ مارس ١٩٢٠
(٣) الأهرام فى ٢٨ مايو ١٩١٩
(٤) الأهرام فى ٦ أبريل ١٩٢٠
(٥) الأهرام فى ١٩ أبريل ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ١١ ديسمبر ١٩٢٠
(٧) الأهرام فى ٦ يوليو ١٩٢٢

رائعة من صحيفتنا وتأييداً ملحوظاً لكثير من مطالبها ، إستمع إليها وهى تحيى مساهمة المصرية فى كفاح مواطنيها « المرأة فى معترك الحياة لا ينظر إليها أنثى بل ينظر إليها عضواً فى الحياة الاجتماعية كسائر أعضاء هذه الحياة . فالمرأة المصرية التى نزلت إلى الشارع ليست الأنثى ولكنها عضو الحياة الاجتماعية المصرية . فلا ينظر إلى موكب السيدات إلا من هذه الوجهة الاجتماعية ، أى وجهة رقى المرأة المصرية ومجاراتها للرجال ومسايرتهم فى منازع الحياة وأطوارها . نسأل الله الهداية والرشد — آمين[1] » .

وقد مضت الأهرام تثنى على النشاط النسوى وتبارك نهضة المصريات مبينة قدر « المرأة المصرية فى حياة الأمة » محيية ذلك التحرر من القيود والتطلع إلى المثل العليا ، ونشرت عقب ذلك شكر السيدات لها ، على كريم مواقفها « نزف إليك يا « جريدتنا المصرية » عرائس الشكر ونقدم لك لواء الثناء تلقاء تلك الخدمات الجليلة التى قمت بها لخدمة قضيتنا ، فكان لصوتك العالى فى أشد المواقف حرجاً وأصعب الأوقات شدة أحسن وقع فى نفوسنا . فلساننا عاجز وقلمنا لا يستطيع أن يعبر عما تكنه جوانحنا نحوك من الولاء ، وسيبقى اسمك مخلداً فى بطون التاريخ ومنقوشاً على صفحات قلوبنا . لتحيى الأهرام — لتحيى مصر » . وقد عقبت الأهرام بإبداء ارتياحها لكلمة السيدات « . . . لا لأن هذه الكلمة الطيبة تشد عزيمة الأهرام وتنشطها فى أداء الخدمة المفروضة حتماً عليها ، وهى الخدمة التى أنشئت لأجلها وعاشت بها وبروحها نصف قرن كامل . بل لأنها تملى علينا وعلى العالم أجمع أن السيدة المصرية قد ارتقت الرقى السامى ، واهتمت بالشئون العامة ، فهى الآن لا تقل عن المرأة الأوربية والأمريكية مقاماً وعلماً وعملاً ، والمرأة — كما قال فلاسفة التاريخ — معيار رقى الأمم والشعوب ، فكلما كانت المرأة راقية عالمة عاملة كان الشعب راقياً متعلماً عاملاً ، لأنها هى التى تربى الشعب على ما قلنا فى المقال المنشور فى صدر الأهرام لهذه المناسبة[2] » .

المرأة والثورة الوطنية

ومضت صحيفتنا تحدث قراءها فى معترك الثورة عما قدمته المرأة المصرية من خدمات للقضية الوطنية ، حتى لم يعد يخلو عدد من الأهرام منذ بزوغ سنة ١٩١٩ من حديث عن المرأة المصرية ونصيبها فى معركة الوطن ، وقد كتبت إحدى الأديبات فى ذلك مقالا سمته (تهنئة بفوز . إلى روحك يا قاسم[3]) ، وتوالى تأييد المواطنين للحركة النسائية وتشجعهم للمواطنات

(١) الأهرام فى ٢٢ مارس ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ١٥ أبريل ١٩١٩
(٣) الأهرام فى ٢٣ أبريل ١٩١٩

وكان هذا التأييد والتشجيع ينشر فى الجريدة نثراً أو شعراً ، كتلك القصيدة الممتعة من الهراوى الشاعر عن (النهضة النسائية فى مصر)[1].

واختلف الناس فى أمر النهضة النسائية وما يباح لها وما لا يباح ، كما يختلفون اليوم فى شأن الحقوق التى يطالب بها النساء مطالبة ملحة قوية ، وظهرت فى الجو مدرستان ، مدرسة المحافظين ويمثلها الشيخ عبد ربه مفتاح ، ومدرسة السفوريين ويمثلها عبد الحميد حمدى ، وقامت معركة كانت الأهرام فيها معرضاً لأفكار الجانبين ، فخطب ممثل السفوريين خطاباً مواتياً لسفور المرأة ووجوب ثورتها على القديم البالى فى يوم « قاسم أمين » ، وهو يوم إحياء ذكراه[2] ، وقد نشرت الأهرام ثلاثة أنهر فى وصف الحفل وما قيل فيه ، وقد رد على عبد الحميد حمدى الشيخ عبد ربه مفتاح رداً هاجم فيه النهضة النسائية بعنوان (على رسلكم يا نصراء السفور)[3] ، وانبرى له الأستاذ عبد الحميد يرد الصاع صاعين بعنوان (بين السفوريين والحجابيين على رسلك يا أستاذ)[4] ، واستمر أوار المعركة قائماً بين الطرفين المتخاصمين[5]. ثم تداخل فيها بعض الكتاب والأطباء ملطفين لحدتها مخففين من هذا التطرف الملحوظ فى كتابات الفريقين[6]. بيد أن المعركة التى خبت بين الرجال نشبت من جديد بين النساء[7] ، وتولت زعامتها السيدة نبوية موسى خصما عنيفاً لهذا الذى شاع — كما ترى هى — فى أوساط السيدات من تبرج وتبهرج لا يرضى عنهما الدين ولا تقرهما الأخلاق[8] ، ولم يمنع نقد الناقدين والناقدات من أن يطالب النساء وأنصارهن من الرجال بحق تمثيلهن فى البرلمان[9]. ومن طريف ما يذكر فى هذا الاتجاه أن خصوم المرأة فى مطالبها الدستورية لم يكن الرجال وحدهم ، وإن كان لها فيهم أنصار ، بل كان بعض السيدات المثقفات المعروفات من أخطر خصوم تلك المطالب الجديدة على حياة المصريين[10] وبقيت الأهرام مسرحاً لهذا النضال ، ولم تبخل مع ذلك بتشجيع التطور البادى فى حياة

---

(١) الأهرام فى ٢٦ مارس ١٩٢٠
(٢) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٩٢٠
(٣) الأهرام فى ٢٠ مايو ١٩٢٠
(٤) الأهرام فى ٢٥ مايو ١٩٢٠
(٥) الأهرام فى ٣و٤ يونيو ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ٨و١١ يونيو ١٩٢٠
(٧) الأهرام فى شهر يوليه ١٩٢٠
(٨) الأهرام فى ٢٨ يوليه ١٩٢٠
(٩) الأهرام فى شهر يونيه ١٩٢٢
(١٠) الأهرام فى ١٢ يونيه ١٩٢٢

المصريات ، فحفلت صفحاتها بأنباء المؤتمر النسوى الدولى فى روما وعلقت عليه فى تأييد واضح ملموس[1] ، إلى جانب ما ذهبت إليه من تشجيع تعليم الفتاة المصرية فى افتتاحياتها بين آن وآخر[2] .

شكل الأهرام

يخيل إلى قارىء هذا الفصل أن الأهرام التى اتسعت لكل هذه الميادين الفكرية من سياسية واجتماعية وأدبية وغيرها كانت تصدر فى صفحات كثيرة تحتمل هذا الفيض من الخبر والمقال ، والواقع أن صحيفتنا منذ انتهت الحرب العالمية الأولى بقيت تصدر فى صفحتين اثنتين فقط إلى منتصف شهر أغسطس من عام ١٩١٩ حين طلعت الأهرام على قرائها ببيان عنوانه (النظام الجديد) ، وهذا النظام الجديد قد ارتبطت به فنون الصحافة وترتب عليه كثير من جدة الفن الصحفى ، قالت فى ذلك النظام « تصدر « الأهرام » ابتداء من اليوم بأربع صفحات من قطعها الكبير المعروف ، فيتسع المجال فيها للمواضيع المتنوعة التى حتمت علينا مقتضيات الحرب باقتضابها والإيجاز فيها ، وسنعيد فتح الأبواب الكثيرة التى كان ضيق المقام قد قضى بإقفالها » .

وتمضى متحدثة عن الشئون التحريرية الداخلية « سنخصص مكاناً أوسع من ذى قبل لمعالجة المسائل المحلية والمباحث الوطنية والمواضيع الاجتماعية مما يعبر عن أمانى هذه الأمة الكريمة وآمالها وحاجاتها وتطلعها فى نهضتها الحديثة الميمونة الطالع إلى مداركة الأمم الحية فى الرقى والعمران ، وسنوسع نطاق الباب الخاص بأخبار القطر وحوادثه حتى يشمل من الأنباء والمعلومات ما يهم جميع طبقات القراء » . وتعد بإعادة باب القسم القضائى قائلة « قد أفردناه لأحكام المحاكم ونصوص الأحكام التى تتضمن مبدأ من المبادىء ذات العلاقة بالمصلحة العامة » كما سيجد القراء فى القسم المالى والزراعى « كل ما يهمهم الاطلاع عليه من الأنباء الاقتصادية وحركة السوق والأسهم المالية إلخ » أما شئون العلم والأدب « فسنطلع القراء تباعاً على سير النهضة العلمية فى العالم ونوقفهم على ما يهمهم الوقوف عليه من الفوائد والمعلومات المتنوعة فى باب الاختراع والاستكشاف . وسنفرد محلاً لأدبائنا وشعرائنا الأعلام فتتجلى فيها عرائس قرائحهم » .

---

(١) الأهرام فى أوائل مايو ١٩٢٣

(٢) الأهرام فى ٢٢ مايو ١٩٢٣

عنايتها بأنباء الخارج

وتقول الأهرام عن أنبائها الخارجية « ولما كان العالم ، ولا سيما بعد هذه الحرب ، متماسك المرافق . مترابط المصالح ، لم يكن لنا بد من مسايرة الحركة السياسية فى العالم على اختلاف مظاهرها لعلاقتها بمسألتنا المصرية . وسيجد القراء فى هذا الباب ، عدا تلغرافات الشركات العمومية الشىء الكثير من الأنباء البرقية والرسائل البريدية التى سيوافينا بها مراسلو « الأهرام » من العواصم الكبرى » وسوف تجد القصة مكانها من صفحات الأهرام الجديدة « وقد كان لقرائنا شغف كبير بالروايات التاريخية الاجتماعية التى كنا ننشرها لهم . وسنعيد هذا الباب فنفسح كل يوم فى ذيل « الأهرام » محلاً كافياً لنشر رواية متسلسلة » . ثم تعلن أن هذه الموضوعات جميعاً ستبرزها بمساعدة « طائفة من أدبائنا الأعلام وكتابنا المجيدين الذين سيتحفون القراء بكل ما شاق وراق من المباحث القيمة » .

وتختم جريدتنا قصة الجديد الذى أنبأتنا عنه بقولها « هذا ما تنويه « الأهرام » فى مطلع العهد الجديد مما يقضى به الواجب الصحفى جاعلة دائماً نصب عينيها السير فى طريق التحسين والإتقان لأنه لا بد للصحافة من أن تماشى الأمة التى تنتسب إليها فى نهضتها فتكون مرآة لها فى تقدمها وارتقائها . ونحن نشكر لهذا الشعب الكريم معاضدته للأهرام التى إنما هى له ومنه ، سائلين الله أن يوفقنا فى خدمتنا الوطنية الواجبة ، وأن يجعل هذه الجريدة دائماً جديرة بالثقة التى وضعها قراؤها فيها منذ حوالى نصف قرن[١] » .

وفاؤها بوعودها

وفى الحق إن الذى عرضناه من موضوعات منذ سنة ١٩١٩ يثبت أن الأهرام قد وفت بعهدها وزادت عليه ، فقد ذكرنا الموضوعات وكتابها ، وأظهرنا الجديد الذى أضفته الصحيفة على أبوابها ، ورأينا أسماء الأدباء والمفكرين وهم خير من رأينا فى جيلنا ، وزاملهم قوم لهم مقامهم فى وطنهم ، وفى مقدمتهم عزيز خانكى الذى كثيراً ما كتب مقالات طيبة تحت عنوان (ماقل ودل) ، وإن كان هذا القليل بلغ حيناً من الوقت أربعة أنهر طوال[٢] ، حتى جاء أحمد الصاوى محمد فجعل المجال على قدر العنوان حقاً[٣] .

---

(١) الأهرام فى ١٤ أغسطس ١٩١٩
(٢) الأهرام فى ١٥ أكتوبر ١٩١٩
(٣) الأهرام ابتداء من مايو ١٩٢٤

وأخذ الدكتور محمود عزمى يكتب افتتاحيات عن السياسة الدولية[1] وعنيت الأهرام عناية فائقة بحرب مصطفى كمال مع اليونان ، فكانت تعلق عليها ، وتنشر أنباءها بالبرق الخاص والعام فتبلغ البرقيات فى ذلك الموضوع أكثر من صفحة كاملة[2] . وكان نهر (سياسة اليوم) عنواناً بديعاً لمقالات ممتعة تناقش السياسة الدولية العامة وتحلل مشاكلها وتدلى فيها برأى مصيب[3] غير التعليق على ما جد من حوادث فى الشرق العربى ، كحرب الوهابيين مع الملك حسين التى بلغت ذروتها فى سنة ١٩٢٤ ، والأهرام هنا تسجل أنباءها وتروى تفاصيلها ، وتنشر فيها مقالات موضوعة ومعربة . وبذلك أرّخت لأول حادث أصاب البلاد العربية بعد الحرب الأولى مباشرة[4] .

وقد راعت الأهرام جميع الفصول السابقة التى كانت تنشرها ، وأضافت إليها الجديد الذى ألمعت إليه ، ثم أخذت تعنى بنقابة الصحفيين وتدعو لصندوقها وتعلن عن ليالى الطرب التى سيخصص دخلها لصندوق الصحفيين ، وهى فى غايتها وإعلانها تبين لقرائها قدر الصحافة فى حياة الشعوب[5] . وقد اعتادت الأهرام أن تصدر منذ سنة ١٩٢٢ بين يوم وآخر فى ست صفحات[6] . وفى تلك السنة أغلقت الأهرام على ما بينا فى فصل سابق ، ثم عادت إلى الظهور وفى قلبها كثير مما قالته صحف الداخل والخارج عن إغلاقها ، وجاء فى بعضها ما يسىء إلى مقام الصحافة المصرية ويزرى بكرامتها وخاصة حديث جريدة (جلاسجو هرالد) وقد أصدر مكتب الأهرام بياناً يرد فيه على مطاعن الصحف الإنجليزية فى صحافتنا ، وهى نقد للحرية الضئيلة التى يصعب معها علاج مشاكلنا فى جرأة وثقة ، ويسأل مكتب الأهرام تلك الجريدة « ماذا تنتظرون من كتبة يعيشون تحت قانون المطبوعات المصرى الحالى وماذا يكون مستوى جريدة « جلاسجو هرالد » إذا كان وجودها يتوقف تماماً على رضاء ولاة الأمور وإذا كان عليها أن تختار بين أن تنشر فقط ما يروق فى أعينهم أو القفل دون محاكمة أو إنذار[7] » .

(١) الأهرام فى ٢١ يونيه ١٩٢٠
(٢) الأهرام فى سبتمبر وأكتوبر ١٩٢٢
(٣) الأهرام فى سنة ١٩٢٣
(٤) الأهرام فى النصف الثانى من سنة ١٩٢٤
(٥) الأهرام فى ٢٦ أبريل ١٩٢٠
(٦) الأهرام فى ٧ فبراير و١٣و٢٣ مايو ١٩٢٢
(٧) الأهرام فى ٩ سبتمبر ١٩٢٢

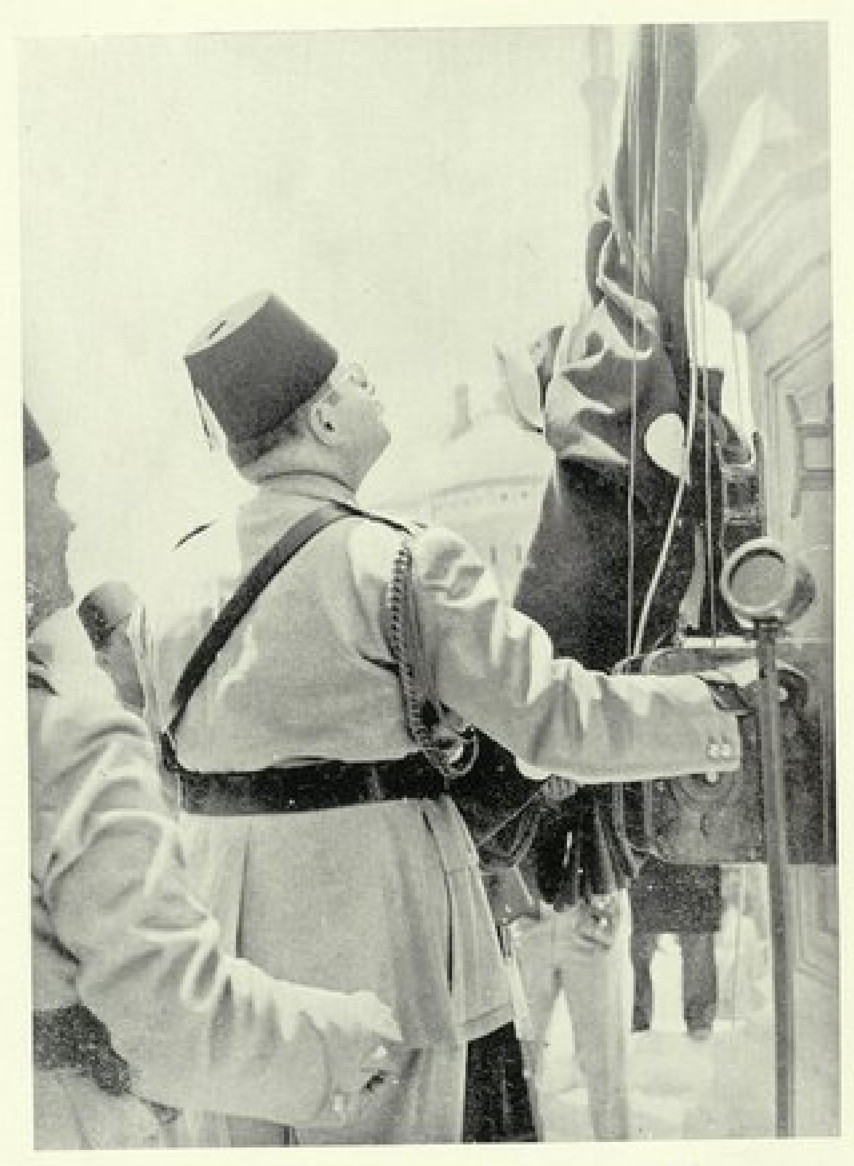
نصر صحفى

وكانت برقيات الأهرام الخاصة نصراً صحفياً دائماً لفت نظر كبار الصحفيين فى إنجلترا ، فطلب مستر وينتول رئيس تحرير مجلة « إفريكان ورلد » من مراسل الأهرام فى لندن أن يكتب له مقالات عن أسباب إعجاب الناس بتلك البرقيات ، ونشرت الجريدة الإنجليزية تلك المقالة محتوية على سبع نقط هامة هى جماع ما ينبغى أن ترسمه الصحيفة المثلى فى رسالتها الصحفية[1] ، ولم تقبض الأهرام يدها قط عن نشر الأنباء التلغرافية الخاصة مهما كلفها ذلك من جهد ومال ، وقد كانت فى بعض الأحيان تنقل إلى جانب برقياتها الخاصة اليومية برقيات خاصة أخرى عن معاهدات كبيرة كمعاهدة لوزان وفيها من التفاصيل والأنباء ما يكفى لصفحتين من صفحات الأهرام[2] ، أو يرسل مراسلوها صفحة أنباء خاصة يومياً فى قضية قرينة على كامل فهمى بك ، وفيها الأسئلة والأجوبة ، غير وصف الجلسات بتفصيل ظاهر[3] .

وتنشر الأهرام يومياً تصحيحاً متصلاً بقصة برقياتها الخاصة ، يبين إلى أى مدى لم تعتمد صحيفتنا فى أخبارها الخارجية إلا على برقياتها هى ، ويتضمن التصحيح سخرية لاذعة مما تصنعه بعض الصحف المصرية فى برقيات الأهرام ، فإنها تعتمد عليها حين تنشئ المقال أو التعليق ولا تشير إلى الأهرام بحرف ، وقد أذاعت الأهرام هذا التصحيح لأن صحيفة محلية قالت إن الصحف المصرية بما فيها الأهرام نشرت خطبتى سفير مصر فى لندن بالبرق على نفقة المفوضية المصرية ، فانبرت الأهرام فى صدر محلياتها تقول « والزميلة الكريمة تعلم حق العلم أن للأهرام مراسلاً خاصاً فى لندن يبعث إليها كل يوم بتلغرافات مطولة عن كل ما يكتب ويقال ويجرى فى عاصمة الإنجليز مما له علاقة بمصر وشئونها ورجالها . وتزيد الزميلة علماً بهذه المناسبة فتقول إن مراسل الأهرام فى لندن قد رافق سعادة عزت باشا إلى منشستر وحضر الحفلتين اللتين أقيمتا له فيها . وأن ما نشرته « الأهرام » من تفاصيل هاتين الحفلتين والخطب التى ألقيت فيهما قد تلقته بالتلغراف — على حسابها الخاص — لا على حساب المفوضية المصرية بلندن ولا سواها » . ثم ترد على الجريدة المذكورة التى زعمت أن جميع الصحف قد تصرفت فى معانى البرقيات فى سخرية ببعض الصحف

---

(١) الأهرام فى ٦ نوفبر ١٩٢٢
(٢) الأهرام فى ١٢ أغسطس ١٩٢٣
(٣) الأهرام فى ١٢ سبتمبر ١٩٢٣ وما تلاه من أيام



جلالة الفاروق يرفع العلم على قلعة القاهرة ١٠ أغسطس ١٩٤٦

المعاصرة » وقد قالت المحروسة إن الصحف التي تلقت التلغرافات على حساب المفوضية المصرية تصرفت فيها . ونحن ننتهز هذه الفرصة لنقول إن مثل هذا التصرف يصيب تلغرافات الأهرام كل يوم ، فتستند إليه بعض الصحف في مقالاتها وتعليقاتها ، وإذا هي ذكرت شركة روتر متى كان تعليقها مستنداً إلى أحد تلغرافاتها ، فإنها على أي حال تهمل ذكر اسم « الأهرام » عند اعتمادها في ما نكتب على رواية مراسليه[1] » .

وهكذا أبت الأهرام أن تبقى في صف واحد مع أي صحيفة أخرى فتقبل أن تتهم بنشر برقيات لم تدفع هي أجرها ، وهي الحريصة أبداً على التفوق والتقدم وبلوغ الصدارة بين جميع الصحف المعاصرة ، ألم تبلغ صفحاتها ثمانياً في سنة ١٩٢٣ ، وبعض الصحف الناجحة لم يتجاوز عدد صفحاتها أربعاً ؟ ألم تحقق الأهرام كل ما وعدت به في ١٤ أغسطس ١٩١٩ وزادت عليه وجددت فيه ؟ ألم تعن بالفنون فعينت لها مكاتباً فنياً ولم يكن العهد بصحيفة أن تعنى هذه العناية بالفنون[2] ؟ ثم هذا التنظيم الرائع للإعلان والتفنن فيه ألم يكن حدثاً مستحدثاً في صحافة مصر بعد الثورة[3] ؟ إنها إعلانات زخرت بها الأهرام دون الصحف المعاصرة[4] وفيها من الطرافة والإخراج الشيء الكثير[5] .

سيدة لها تاريخ

وفي تلك الأيام التي تهيأت فيها الأهرام لتستوى على عرش الصحافة المصرية ألمت بها فاجعة أليمة بفقد السيدة العاملة عقيلة المرحوم بشارة تقلا ووالدة جبرائيل تقلا صاحب الأهرام وأستاذته بالتوجيه والإرشاد ، ولهذه السيدة العظيمة تاريخ حافل إذا ذكر تاريخ الصحافة في مصر ، فقد بقيت إلى جانب زوجها اثني عشر عاماً (١٨٨٩ – ١٩٠١) تؤازره في أعماله الصحفية وتشجعه في جهاده حتى مضى في سبيله فقامت هي على التراث النفيس الذي خلفه زوجها تحدب عليه حدب الأم ، وتعمل على حفظه وإنمائه وقد كانت صاحبة الفكرة في نقل الأهرام من الإسكندرية إلى القاهرة ، وفي إصدار جريدة البيراميد لتنقل للأجانب آراء المصريين ومطالبهم في الحرية والاستقلال ، ولما وقع عليها عبء العمل أخذت تنشيء ابنها جبرائيل منذ حداثته التنشئة الحسنة التي تؤهله وتعده للسيطرة على هذا

(١) الأهرام في ٧ يونيو ١٩٢٤
(٢) الأهرام في ٥ نوفبر ١٩٢٤
(٣) الأهرام في ٨ يوليو ١٩٢٢
(٤) الأهرام في سنتي ١٩٢٢و١٩٢٣
(٥) الأهرام في ٣٠ مارس ١٩٢٣

الإرث العظيم . وتتعهده بالسهر والعناية وتوجه اهتمامها ونشاطها إلى الأهرام و« البراميد » وتسيير سياستهما ، فضاعفت بجدها وسهرها وإرشادها ويقظتها وعلمها النشاط فى العمل والاستقامة فى الخطة ، حتى ظلت الأهرام تسير سيرتها الأولى مجاهدة مكافحة فى سبيل خدمة الوطن ، ومما يؤثر عنها قولها « إذا كان الناس صفوفاً متفرقين ، فالصف الذى تقف فيه الأهرام ولا تتحول عنه هو صف الشعب . وإذا اختلفت المصالح وتضاربت فإن المصلحة الوحيدة التى تؤيدها الأهرام هى مصلحة الشعب دون سواه » .

فتاريخ حياتها شطر من تاريخ الأهرام الحافل بعظائم الأمور منذ وفاة زوجها إلى سنة ١٩٢٤ . وكانت تعمل لنشر الدعوة الوطنية والترويج لها ، وكانت دارها تزخر برجالات الشعب وزعمائه وفى مقدمتهم مصطفى كامل ، وكانت مشتركة فى أكثر من جمعية نسائية فى أوربا وأمريكا ومصر ، تناصر فى الأهرام الحركة النسائية وتعليم البنات ، وكانت محسنة كريمة لا تدرى يمينها ما فعلت شمالها ، وكان عمال الأهرام خاصة موضع عطفها ورعايتها، تداوى مريضهم وتعين بائسهم ، وكانت شديدة الغيرة على لغتها العربية رغم تلقيها العلم فى أوربا والمدارس الأوربية ، وكانت محافظة على تقاليدها الشرقية لا تقتبس من المدنية الغربية إلا القدر الصالح النافع وكانت ترى وتقول إن رقى المرأة يتم « بالأخذ عن الفرنساويات تدبير منازلهن وعن الألمانيات نشاطهن وتنظيم أعمالهن وعن الإنكليزيات تربية أبنائهن بالإقناع وإقامة البرهان[1] » . وكان إعجابها بالمرأة المصرية الناهضة المتعلمة إعجاباً ممزوجاً بالأمل ترجوه لمصر على يديها مؤملة أن تصل بتعليم الفتاة إلى مركز يشبه مركز أرقى الأمم وشعوبها فى هذه الناحية

ويذكر المؤرخون لها أنها كانت ترحب بكل جدل يثار على صفحات الأهرام إذا كان هذا الجدل مبعثه البحث عن الحقيقة وإظهارها وإلا كرهته وعملت على منع نشره. وكانت ترى جميع الأديان متآخية لأنها جميعاً تنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف ، وكان من رأيها أن هذه الأديان المتفرقة بالشرق يمكن أن تكون صلة ترابط واتحاد بين الشرقيين بدلا من أن تكون وسيلة التنابذ والتقاطع ، فكانت لا تطيق أن تسمع بخلاف بين شرقيين من أجل دينهما ، ولا تسمع لأى كان بأن ينقد ديناً من الأديان أمامها أو فى مجلسها ، وكان من رأيها أنه إذا لم تكن تلك الأديان موجودة فإنه ينبغى إيجادها لخير الإنسانية وتعليم الناس وإزالة الشرور من قلوبهم وتهذيب أخلاقهم .

---

(١) الأهرام فى ١٣ أغسطس ١٩٢٤

ونختم رأى الناس فيها بكلمة قالها أحمد شفيق باشا وهو يؤبنها على قبرها « فى ذمة الله أيتها الراحلة العظيمة بما قدمت فى حياتك وما تركت من أثر بعد مماتك ، فى ذمة الله تلك النفس الطاهرة الشريفة التى ودعت هذه الدنيا فلم تترك غير الأسى يملأ القلوب » .

« كانت حياتك أيتها السيدة مثلاً عالياً يضرب لنساء هذا الزمن ورجاله . ألم تقطعى العمر فى العمل المتواصل لما فيه خير الشرق عامة وخير هذه البلاد خاصة ، ولن ينسى المصريون هذه الخدمات الجليلة فتعهدت جريدة الأهرام بعد وفاة زوجك طيب الذكر فتقدمت على يديك إلى أن صارت فى طليعة صحف الشرق وعنواناً للنهضة الشرقية العربية . وقد تركت عملك هذا قائماً نامياً واستودعته خير من يحفظ الأمانة (1) » .

وبعد فتلك صفحة من صفحات الأهرام، وفصل من فصولها الكثيرة، وضح لنا فيه جهد أصحابها ، وبان لنا كيف حاول صاحبها جبرائيل تقلا بعد أن شب عن الطوق أن يجعل صحيفته ، بالرغم من الحرب ، وبالرغم من الثورة ومتاعب الحكام والمصادرة والإلغاء والإنذار على رأس الصحف الوطنية تحريراً وتفكيراً وتوجيهاً ، وقد وفق ذلك الصحفى النابه توفيقاً ملحوظا يسطر له فى سجل التاريخ الصحفى المصرى ، وهو إذا كان قد استطاع أن يبلغ بصحيفته بين سنى ١٩١٩ و ١٩٢٤ هذه المكانة الطيبة بين الصحافة العربية المعاصرة بل بين الصحافة الأوربية من حيث الشكل والموضوع ، فإن مواهبه التى تجلى لنا بعضها ونحن نجتاز روضة الأهرام قد بلغت قمتها ووصلت إلى نضجها واستوائها فى ربع القرن الأخير الذى نؤرخ له بعد قليل ، ونختم به سيرة الأهرام مثلاً رفيعاً على سير الحياة الحافلة بالنشاط والوطنية والأخلاق ، الحياة التى يرى فيها العبرة من أراد أن يعتبر من العاملين فى أشرف مهنة عرفها التاريخ .

(1) الأهرام فى ٢٨ أغسطس ١٩٢٤

هذه السيرة

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى
«شاعر عربى»

قطعنا مع «الأهرام» خمسين عاماً نقيد من جهادها كل شاردة وواردة، فإذا هى سجل رائع لمقومات الحضارة المصرية الحديثة، وإذا هى مرجع أصيل يعود إليه الباحث فى آدابنا وعلومنا وظواهر حياتنا العامة، والآن وقد بلغنا سنة ١٩٢٥، يعز علينا — مؤرخين — ألا نستطيع أن نعرض للحوادث السياسية هذا العرض المفصل الذى اعتدناه فى الأبواب السابقة خشية الحرج، أو مخافة الاتهام بالغرض، ولا غرو فلا يؤرَّخ للأحياء.

ولكن مما لا يختلف فيه اثنان، أن «الأهرام» لم تنحرف يوما ما إلى يمين أو يسار، فهى أبداً مرآة لآلام الشعب وآماله، وهى أكثر الصحف الوطنية تأثراً بشعور الشعب وتأثيراً فيه دون النظر إلى أى اعتبار غيره.

الأهرام فوق الأهواء

أقبلت سنة ١٩٢٥ فتفرقت صفوف المصريين وانقسمت شيعاً وأحزاباً. وارتفعت «الأهرام» فوق الهوى، وجعلت قضية مصر قبلتها، وقد نادت فى السنوات التالية لحل البرلمان بمبدأ الاتحاد بين الجماعات المتنافرة، وبجلت فى سنة ١٩٢٦ وحدة المواطنين، تشد أزرها آيات من التأييد والتشجيع، فإذا اختلف بنو مصر مرة أخرى فى سنة ١٩٢٨ عادت إلى قضية وادى النيل تنافح عنها، وتدعو الزعماء إلى التضحية بأشخاصهم فى سبيلها؛ وكان للمعتدلين المتهالكين على الذود عنها مكان ملحوظ فى «الأهرام» وإن تميزت مقالات محرريها بالشدة والعنف حيناً، وعلى صفحاتها تبارى المختصمون فى الرأى. ويبدو أن حكومة ذلك العهد كانت



مدام تقلا باشا تقدم كأس المغفور له جبرائيل تقلا باشا في مباراة التنس

حساسة برمة ، فقد أنذرتها سنة ١٩٢٨ ، لنشرها نبأ يتعلق بكلية الحقوق ولم يكن النبأ إلا تسجيلا لواقع ملموس[١] .

وقد جابهت حكومات لم يرض عنها أكثر المصريين ، وأدلت برأيها فى الشئون الداخلية والخارجية فى قوة وثبات ، وكثيرا ما أرقت تلك الآراء رجال الحكم وأصحاب السلطان ، وما كانوا يقبلون من خصومهم مثلها ولكنهم كانوا يقبلونها من «الأهرام» لأنها صحيفة الرأى الذى لا يشوبه هوى ولا يدفع إليه غرض، ولم يكن فى وسع حكومة تعتز بسلطانها أن تحارب الرأى فى صحيفتنا ، والناس يقبلون عليها مؤمنين باعتدالها ، مطمئنين إلى ترفعها ، وهكذا كانت الحكومات تهيب التحامل على « الأهرام » ، وكم أحرجت صحيفتنا من حكومة إذ بسطت على صفحاتها حاجات الشعب ومطالبه ، فى أسلوب عف يستمد قوته من الحق !

موقفها من الأحداث التاريخية

يطيب لنا أن نفصل رسالة « الأهرام » فى المفاوضات التى دارت بين انجلترا ومصر ، وقد أدتها مقالات لمحرريها أو غيرهم من علماء القانون الدولى وأهل الرأى ، سواء فى مفاوضات ثروت باشا سنة ١٩٢٧ ، أو فى مباحثات محمد محمود باشا سنة ١٩٢٩ أو فى مفاوضات النحاس باشا السنة التالية ، أو فى مفاوضات الجبهة المصرية التى انتهت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ . مفاوضات وعتها صفحات «الأهرام» وتناولها البحاث والكتاب بالتعقيب أو التنويه أو النقد ، ولا ريب أن قراء جيلنا يذكرون ذلك كله ، كما يذكرون أحداث مصر قبيل الحرب العظمى الثانية أو فى تلك الحرب التى لا تزال آثارها مطبوعة فى نفوسنا .

وقد كانت «الأهرام» فى ذلك كله لسان الشعب المصرى ما برح يلقاها فى عونه ، تدافع له عن مثله وأمانيه ، وتشد أزر زعمائه وقادته ، وتقف فى صفهم إذا نزلت بهم نازلة أو احتاجوا إلى غوثها . ولم تغفل « الأهرام » مقومات حضارتنا الأخرى من علم وفن واقتصاد ، خلال ربع القرن الأخير ، فقد سارت فى ذلك سيرتها التى عرضنا لها فى مطلع القرن العشرين ، وفصلناها فى القرن التاسع عشر ، ولم تقصر فى جانب من تلك الجوانب ، حتى إن تاريخ الشعر والنثر ، وتاريخ العلم والفن ، وتاريخ الاقتصاد والرياضة والزراعة وغيرها ، حرى بأن يكتب من سطور « الأهرام » فيأتى تاريخاً كاملا صادقاً .

التجديد فى الأهرام

صانت الأهرام تقاليدها فى التحرير ، ثم أضافت من الجديد الصحفى ما جعلها

(١) الأهرام فى ٣٠ نوفبر ١٩٢٨

رأس الصحف المعاصرة وقدمها على صحف الشرق جميعاً ، ومنه شرق أوربا ، وقد نافست ، بما أحدثته من أساليب صحفية ، كبريات الصحف الغربية .

فتنظيم «الأهرام» هو التنظيم الذى عرفناه قبل سنة ١٩٢٥ لا يتغير إلا لأسباب جوهرية كأنباء المفاوضات أو الحوادث الداخلية الهامة مثل أزمة وزارية أو تأليف وزارة جديدة ، وقد بقيت «الأهرام» تصدر عدة سنوات منذ سنة ١٩٢٥ فى ست صفحات ، وأحياناً تزيدها إلى ثمانى صفحات . وجاءت سنة ١٩٢٨ ، فإذا «الأهرام» تطلع على قرائها فى ثمانى صفحات ترتفع إلى اثنى عشرة صفحة فى كثير من الأحيان ، وكانت الأعداد التى تصدر فى اثنى عشرة صفحة تحمل فى الصدر فهرستاً يوضح محتويات العدد (١).

واحتجبت «الأهرام» يوماً فى الأسبوع ، ولم تشذ عن ذلك إلا فى القليل النادر ، وتغير يوم عطلتها ، فكان حيناً يوم الجمعة وحيناً يوم الأحد ، ثم أصبح يوم الاثنين من كل أسبوع ، وطلعت علينا فى أحد الأيام بنبأ نشرته على نهرين فى صدر المحليات ثارت فيه على العطلة الأسبوعية وقررت أن تلغيها « بمناسبة الظروف الحالية ولما يتوقع حدوثه لتقرير مصير العلاقات بين مصر وبريطانيا ورغبة فى أن يقف قراؤها على كل ما يقع أولا فأولا » .

وكالات الأنباء

ولا تزال « الأهرام » معنية بنشر جميع الأبواب التى ذكرنا طرفاً عنها فى الفصل السابق ، وإن كانت عنايتها بالقصة المسلسلة قد وضحت فى سنة ١٩٢٧ ، وأصبح مقالها فى السياسة الخارجية من أبرز مقالاتها ومن أدقها درساً وأعمقها بحثاً ، ففيه يشهد القارئ تحليلا دقيقاً للموقف السياسى الدولى وكشفاً عن التيارات المؤثرة فى السياسة الدولية ، وهى تضع هذا المقال بين برقياتها العامة والخاصة ، فإذا قرأ الناس تلك البرقيات استطاعوا أن يقارنوا بين حكمهم الخاص فى الحالة الدولية ، وبين ما تقدمه صحيفتنا من أنباء فى الموضوع .

وللأهرام عدة مصادر لأنباء الخارج ، منها وكالات الأنباء ، وكان أهمها قبيل الحرب العظمى الثانية وكالات رويتر وهافاس والوكالة الإيطالية ، تمدها بأنباء شتى من مختلف بلاد العالم ، ثم الوكالة اليونانية « فوس » ، وكانت تقصر أنباءها على أخبار اليونان ، وقد أضيفت إليها الوكالات الحديثة التى يعلم أمرها قراء الأهرام المعاصرون .

وكانت «الأهرام» تنشر الأنباء التى تجيئها من وكالاتها الخارجية تحت عنوان (تلغرافات

---

(١) الأهرام فى أول يناير ١٩٢٨

عمومية) على نهر أو نهرين حسب الظروف ، وكان لها بجانب تلك الوكالات مكاتبون خاصون قد يكونون أصدق من الوكالات العالمية الأخرى أو أسرع منها فى موافاة صحيفتهم بأنباء الخارج . وهؤلاء وقف على «الأهرام» ، ولهم مكافآتهم الخاصة تنفق عليها «الأهرام» فى سخاء ، وكانت « الأهرام » قبيل الحرب الأخيرة تنشر أنباء مكاتبيها فى أبرز أمكنتها تحت عنوان « تلغرافات خصوصية للأهرام » وكان لها مكاتب خاصة لذلك منذ سنة ١٩٢٥ فى لندن وباريس والآستانة وبرلين وروما ، ثم أضيفت إليها مكاتب أخرى فى جنيف وبيروت إلى أن انتهى الأمر بإنشاء مكاتب خاصة للأهرام فى كل عاصمة هامة من العالم الأوربى والعالم الأمريكى ، هذا إلى أن « الأهرام » كانت تكلف بعض محرريها أو كبار الصحفيين من معاصريها ، القيام بدور المراسل الخاص فى المناسبات الهامة كما بينا فى فصول سابقة .

° ° °

وقد يبدو للبعض أن يتساءلوا عن مكانة المراسلين الخاصين أو المكاتب الخاصة بالأهرام بين وكالات للأنباء العالمية ، أغنى من « الأهرام » وأقدم وأوفر عدة لاستقاء الأنباء . وهم ينسون إرشاد صحيفة كالأهرام لمراسليها ومكاتبيها فى الخارج ، فإن الأهرام — على ما أعلم ويعلم غيرى — كثيراً ما تهمل نبأ بلغ منتهى الخطورة من حيث آثاره أو من حيث هو سبق صحفى إذا كان مشكوكاً فى روايته .

بين الأهرام ورويتر

ولسنا نذكر هذا التقدير للأهرام مغالين أو مبالغين ، فإن لها قصة مع وكالة روتر بشأن نبأ قد اختلفتا فيه سنة ١٩٢٦ ، وشغل الرأى العام المصرى أسابيع ، وانتهى بانتصار لجريدة الأهرام .

وتؤرخ الأهرام لهذا الحادث فتقول : « يذكر القراء مما نشرناه فى العدد الماضى أن مراسل « الأهرام » فى لندن كان قد أرسل إلينا تلغرافاً فى ٢٩ يوليه الماضى ونشرناه فى اليوم التالى ، وهو يتضمن خلاصة تلغراف أرسله مكاتب روتر فى القاهرة إلى لندن وقال فيه إن مجلس النواب المصرى بحث ثلاثة أيام متوالية فى الاقتصاد وانتهى بأن وافق على زيادة مرتبات أعضاء البرلمان » .

تلك خلاصة البرقية التى أقامت مصر وأقعدتها ، وقد استطردت الأهرام فى حديثها فقالت : « وعند ما كان مجلس النواب يبحث ميزانية وزارة المواصلات فى الأسبوع الماضى تكلم النائب الأستاذ فكرى أباظة بك فى موضوع ذلك التلغراف بمناسبة مخصصات شركة

« روتر » فى ميزانية وزارة الموصلات ، وأبان ما فيه من التعريض بكرامة المجلس ، فوعده حضرة صاحب المعالى وزير المواصلات بالبحث فى المسألة . وفى يوم السبت الماضى وقف معاليه فى مجلس النواب وتلا بياناً نشرناه صباح الأحد الماضى وأكد فيه استناداً إلى ما قاله له مكاتب شركة روتر فى القاهرة أن المكاتب المذكور لم يرسل فى يوم ٢٨ يوليو سوى تلغراف واحد لا يتفق فى شىء مع معنى التلغراف الذى عزاه إليه مراسل الأهرام فى لندن ، فعند ما اطلعنا على هذا البيان وما فيه من التهمة الصامتة بالتزوير نشرنا كلمة فى العدد الماضى ذاته وعدنا فيها القراء بجلاء الغامض وصرحنا باطمئناننا إلى صحة روايتنا وإلى ثقتنا التامة بمراسلنا فى النقل وأمانتنا فى النشر » .

ثم تمضى «الأهرام» معتزة مفاخرة : « وفى اليوم التالى جاءنا وكيل شركة « روتر » فى القاهرة واعتذر عما بدر منه، وصرح لنا أنه أرسل فى يوم ٢٨ يوليو تلغرافين لا تلغرافاً واحداً وأن التلغراف الذى نشرناه وكان موضوع البحث فى مجلس النواب ، منطبق كل الانطباق على تلغرافه الذى نشر فى لندن، فبادرنا إلى إبلاغ حقيقة الأمر إلى وزير المواصلات ورجوناه تصحيح الواقع » .

ولم تكتف الأهرام بأن تكتب لوزير المواصلات وحده ، فإن الأمر كان قسمة بين الوزير ومجلس النواب ، لذلك كتبت إلى سعد زغلول رئيس مجلس النواب تقول : « ألقى حضرة صاحب المعالى وزير المواصلات التصريح التالى فى جلسة أمس :

« لاحظ حضرة العضو الأستاذ محمد فكرى أباظه فى جلسة الثلاثاء الماضى أنه لا يليق إعطاء إعانة سنوية قدرها ٢٣٠٠ جنيه لشركة روتر لأنها تنشر عن مصر أخباراً تسىء إلى سمعتها . وقد أطلعنا حضرة النائب المحترم على عدد جريدة الأهرام الصادر فى يوم الجمعة ٣٠ يوليه سنة ١٩٢٦ وفيه التلغراف الآتى (وهنا أوردت الأهرام نص البرقية التى لخصناها) ففى اليوم التالى استحضرت جناب وكيل شركة روتر فى القاهرة وأطلعته على التلغراف المذكور فنفى نشر الشركة له نفياً باتاً . وأطلعنى على التلغراف الوحيد الذى أرسلته الشركة بتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٢٦ وهو يناقض التلغراف المتقدم مناقضة تامة ، وإلى حضراتكم ترجمة هذا التلغراف .

« جزع موظفو الحكومة بسبب المناقشات التى دارت فى البرلمان حول تخفيض مرتباتهم وإيقاف علاواتهم والحملات التى وجهت إليهم . وقد عقدوا أمس اجتماعاً للاحتجاج على ذلك وكان الهدوء شاملا الاجتماع . وقد كان دولة زغلول باشا فى رياسة المجلس من أكبر أنصارهم، والثناء عام على ما يتحلى به زغلول باشا فى رياسته من الوقار والاعتدال ومن سرعة



الملك زوغو والملكة جيرالدين يتخذان مصر موطناً لهما



الملك اسكندر ملك يوغوسلافيا وأسرته فى مصر

وانتظام أعمال المجلس أثناء وجوده فى الرياسة » . ثم يعقب الوزير على ذلك التلغراف بقوله : « هذا وقد وعدنى جناب وكيل شركة روتر بأنه سيستعلم من مكاتب الأهرام فى لندن عن مصدر التلغراف الأول » .

ومضى الأهرام بعد ذلك مخاطبة دولة رئيس المجلس : «فالحقيقة التى يهمنا أن تبلغها لدولتكم ولهيئة المجلس الموقرة ، هى أن وكالة روتر هنا أرسلت فى ٢٨ يوليو التلغرافين المتقدمين : الأول الذى نشرناه وأنكرته ، والثانى الذى أطلعت عليه معالى وزير المواصلات ، وقد نشرنا التلغرافين فى عدد ٣٠ يوليو .

« وقد رجعنا إلى صحف لندن الصادرة بتاريخ ٢٩ يوليو فوجدنا التلغراف الذى أنكرته وكالة روتر منشوراً فى كثير منها بنفس النص الوارد فى الأهرام . وفوق هذا فقد زارنا وكيل شركة روتر هنا معتذراً عن الخطأ الذى حدث أمس بعدم تقديم نص التلغراف الثانى إلى معالى وزير المواصلات . وأطلعنا وكيل الشركة على مستند من الشركة نفسها وفيه التلغراف بالنص المنشور بالأهرام حرفياً . وقال إنه فى الأصل الذى أرسله كان قد كتب « مرتبات الموظفين» ولكن النص الذى أذيع على صحف لندن ورد فيه « مرتبات أعضاء البرلمان » .

« ولسنا نبحث فيما إذا كان التحريف من شركة الإيسترن أو من شركة روتر ، وإنما الذى يهمنا كثيراً هو أن تطلع هيئة المجلس الموقرة على حقيقة الأمر وتعرف أن مراسل « الأهرام » فى لندن و « الأهرام » هنا كانا أمينين فى النشر والنقل . وإنى باسم جريدة الأهرام التى خدمت القضية الوطنية أكثر من خمسين عاماً أرجو دولتكم أن تتفضلوا فتأمروا بتلاوة هذا الإيضاح فى المجلس لتصحيح ما نسب إلى الأهرام » ، ثم تقولها فى غبطة : « وقد تكرم دولة الرئيس الجليل بتلاوة هذا الكتاب فى مجلس النواب مساء يوم الأحد الماضى فطلب كثيرون من النواب أن يتكلموا فى الموضوع ولكن دولة الرئيس أراد أن يقفل باب المناقشة فيه بعد ظهور الحقيقة واضحة للجميع وظهور أمانة الأهرام فى ما نقلته وما نشرته » .

انتصار الأهرام

فإذا فرغت الأهرام من رواية هذه القصة ، عقبت بحديث طويل فيه كثير من المعانى المتصلة بأمانة الصحف والصحفى ، ذاكرة طول باعها فى نشر الأخبار البرقية قائلة : « إننا من أبعد الناس عن الرغبة فى إثارة هذه المسألة فى مجلس النواب وما كان نشرنا لذلك التلغراف إلا اتباعاً لخطة سلكناها منذ أسسنا مصلحة « الأهرام » التلغرافية وأنشأنا لها المكاتب فى العواصم الكبرى ، وانتخبنا المكاتبين من خيرة رجال الصحافة ، وهى أن نطلع الأمة المصرية الكريمة على كل ما

يقال ويكتب عنها بين أمم الغرب والشرق الراقية، وتأتيها بأهم الحوادث والوقائع مجردة من أثواب الدعاية والأغراض، لكي تكون واقفة على حقيقة ما يقال عنها وما يقع من الأمور المهمة خارج القطر المصرى. أما وقد أثيرت مسألة ذلك التلغراف فى مجلس النواب، فكان من الممكن تلافيها وإظهار حقيقتها قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه، لو أن حضرة صاحب المعالى وزير المواصلات أكمل البحث الذى وعد به فى الجلسة الأولى ونظر نظرة إنصاف ومساواة إلى مكاتب شركة روتر وإلى هذه الجريدة. ولكن معاليه اكتفى باستدعاء المكاتب إليه وبما صرح له به، دون أن يوجه إلى الأهرام أى سؤال فى هذا الموضوع، فكأنه اكتفى بما قاله مكاتب روتر وعده حقيقة ثابتة ولم يبال بما يتضمنه بيانه من اتهام «الأهرام» بالتزوير. وأغرب من كل ذلك أنه بعد ما وقف على الحقيقة لم يقل أية كلمة عنها فى المجلس مع أن صاحب الخطأ الأصلى بادر إلى الاعتذار للأهرام ولمعاليه فى يوم واحد، ولولا مزايا الإنصاف والحكمة السامية التى يتحلى بها دولة الرئيس الجليل لما تسنى لمجلس النواب أن يطلع على حقيقة هذا الحادث الذى اتهمت به جريدة الأهرام بتحريف الأخبار واختلاقها، وبرز فيه المذنب فى موقف البرئ والبرئ فى موقف المذنب».

وبعد أن عاتبت الأهرام وزير المواصلات هذا العتاب المهذب دعت إلى إنشاء وكالة مصرية خاصة للأنباء، وذلك فى قولها: «إن لجميع الأمم المستقلة صغيرة أو كبيرة مصلحة تلغرافية تنقل إليها ما يقال عنها فى الخارج وتصحح حقائق ما يروى عنها من الأخبار، وتنشر ما تدعو المصلحة العمومية إلى نشره، أما مصر فإنها اكتفت حتى الآن بتخصيص مبلغ غير قليل لشركة غير وطنية لتأتيها بأخبار العالم. ولم تكتف بتخصيص هذا المبلغ بل خطت خطوة أخرى فى هذا العهد — عهد الحكم البرلمانى وسلطة الأمة — بأن يحمل وزير مسئول تبعة الدفاع عن هذه الشركة بدون تثبت فى التحقيق، وبإزاء ذلك تقوم هذه الجريدة (تقصد نفسها) بكل المهمة التى تلقى على عاتق شركة تلغرافية وطنية من مالها الخاص وتنفق ألوفاً من الجنيهات على القيام بهذه الوظيفة من دون أن تكلف خزانة الحكومة أية نفقة فى هذا السبيل، ولا تلاقى من الوزير الذى تعنيه هذه الأمور سوى ما لاقته فى جلسة يوم الأحد الماضى».

وتختم الأهرام هذه القصة بقولها: «ولكن «الأهرام» أسست لخدمة الأمة، وظلت أمينة على مبدئها أمام جميع العواصف التى هبت عليها وعلى الأمة، فهى تبتهج الآن ويحق لها أن تبتهج لأنها لقيت كل إنصاف وكل عطف من رئيس الأمة أمام ممثلى الأمة، وبذلك محا الرئيس الجليل بحكمته السامية تهمة ألصقت بها عن قصد أو عن غير قصد».

هكذا انتصرت «الأهرام» فى ناحية من النواحى الفنية الصحفية انتصاراً مكن لها فى نفوس الناس ، وعرفهم المجهودات التى تبذلها فى سبيل حصولها على الأنباء من الخارج وهى أنباء صادقة لا يتطرق الشك إليها ، كما كشفت لنا «الأهرام» عن مقدار الخسارة التى تتحملها مصر فى إعانة شركة رويتر ، بينما تقوم صحيفتنا بأفضل مما تقوم به الشركة دون جزاء أو تقدير ، داعية لمصر، ناقلة إليها آراء العالم فيها ، فى صدق وأمانة وإخلاص .

ولم يشغل فكر «الأهرام» إلا خدمة القراء ، فهى تعلق على الأنباء بما يشفى غليل القارئ ويكفيه مؤونة الرجوع إلى المصادر ، مراعية فى ذلك طبقات قرائها وميولهم ورغباتهم وما يعنيهم من أنباء فى الداخل أو فى الخارج ، باذلة وسعها لتوضيح أخبارها ومقالاتها بالخرائط أو الجداول أو الرسوم أو الصور .

نشر الصور

ولعل أهم الوسائل التى اصطنعتها «الأهرام» لإيضاح أخبارها هى الصور ، فقد رأينا من عشرات السنين رسماً أو رسمين ، وقلما كنا نجد صورة بالمعنى المفهوم حتى بلغنا سنة ١٩٢٦ فإذا الأهرام تسبق صحافة الشرق فى إيراد « الأخبار المصورة » وكانت أول صورة نشرت فيها متصلة بالألعاب الرياضية وإن جاءت مطموسة المعالم مضطربة القسمات(٢) ثم مضت شهور بدأت الأهرام بعدها تنشر صوراً جميلة للأشخاص والأحداث ، وهى صور وكلت صناعتها وإخراجها إلى « هاتزلمان » وكان من خيرة مصورى الجيل، وقد كانت أولى الصور الناجحة ثلاثاً لصالح عنان باشا ومحمد نجيب الغرابلى باشا والمسيو ماتنستيشن رئيس دورة عصبة الأمم(٣) وكانت جميعاً كما ترى صوراً لأشخاص ، أما صور الأحداث فلم تعرفها « الأهرام » إلا بعد شهرين إذ نشرت مشهداً فى مقابر اللاتين بالقاهرة يوم الاحتفال بذكرى النصر فى الحرب العالمية الأولى(٤)، ثم مضت تنشر صور الأشخاص والحوادث ، كل صورة منفصلة عن الأخرى، حتى رأت آخر الأمر أن هناك أحياناً صلة بين الشخص والحوادث فكانت تضع صورة الشخص فى ركن من صورة الحادث وبذلك تجلو فكرة واضحة لما كتب عن ذلك الموضوع ، وتدخر فى الوقت نفسه مكاناً

(١) الأهرام فى ٣١ أغسطس ١٩٢٦
(٢) الأهرام فى ١٩ فبراير ١٩٢٦
(٣) الأهرام فى ٩ سبتمبر ١٩٢٦
(٤) الأهرام فى ٥ نوفبر ١٩٢٦

يخصص لغرض آخر ، وإذا كانت صور الأشخاص والحوادث الفوتوغرافية أول الصور التي نشرت فيها ، فسرعان ما اقترنت بصور كاريكاتورية لشخصيات وأحداث ، وكانت أول صورة من هذا النوع لمرقس حنا باشا بريشة الرسام « Kem » رسمت بصدد مقال عن التصوير الهزلي كتبته الأهرام بمناسبة إقامة « Kem »معرضاً للصور الهزلية في القاهرة[1] .

التصوير الليلي

وكان هذا التجديد في الأهرام وقفاً عليها ، وأخذت الصحف الأخرى تقفو على أثرها ، وقد بقيت الصور التي تظهر في الأهرام صوراً أخذت في وضح النهار ، أما التصوير الليلي فلم نره فيها إلا بعد ذلك بسنوات حين طلعت علينا بأربع صور التقطت بآلة تصوير دقيقة أثناء الليل في إحدى الحفلات التي أقامها رئيس الوزارة المصرية في المفوضية المصرية بلندن ، وقد تمكن مراسل الأهرام من الحصول عليها — كما تقول هي — « بعد بذل جهد كبير » ذاكرة « أنها أول صورة من نوعها تنشر في القطر المصري بل في العالم ما عدا انجلترا »[2] . وكانت معظم الصور التي تنشرها « الأهرام » تطبع في الصفحة الأولى ، وقد بقيت محافظة على هذا التقليد سنوات ، ثم خصصت الصفحة الأخيرة لذلك[3]، وإن لم تخل صفحاتها الكثار من صور منثورة هنا وهناك .

ونسجت «الأهرام» على منوال الصحف الأروبية في نشر الأحاديث فلم يكن يحلو لها نشر حديث لكبير دون نشر صورة أو صورتين مناسبتين ، وكان أول الأحاديث المصورة ذلك الحديث الذي أدلى به إلى مندوبها الخاص الشاعر « طاغور الهندي » فور وصوله إلى ميناء الإسكندرية[4] ، ثم جرت على ذلك في الموضوعات المختلفة التي عنيت بدراستها فلم تكن تعرض لها دون رسم أو صورة ، وبذلك وضعت الأساس للريبورتاج الصحفي المصور في مصر .

الأهرام والأحداث الكبرى

ولا نشير إلى المنازعات السياسية التي اكتوت «الأهرام» بنارها ، وإن لم تكن هذه

---

(١) الأهرام في أول مارس ١٩٢٧
(٢) الأهرام في ٩ أغسطس ١٩٢٩
(٣) الأهرام في ١٠ يناير ١٩٣١
(٤) الأهرام في ٢٨ نوفبر ١٩٢٦

النار إلا الإنذار مثلا (1) . فمن شأن الحديث عن ذلك أن يحرج كثيرين من الأحياء ، ولولا هذا الحرج لروينا فصولا فى هذا الباب ، على أن معظم قراء هذا الكتاب من المعاصرين الذين شهدوا مواقف صحيفتنا من شتى الحكومات .

لكنا نذكر هنا ما للأهرام من عناية بكبريات الحوادث ، وتقديرها لعظماء الرجال ، وحسبنا ما فاض من الحزن فى صفحاتها حين وفاة سعد زغلول ، فلقد كانت من أخلص الراثين لعبقريته ، وجللت صفحاتها بالسواد أياماً وكتبت فى تاريخه العظيم وكفاحه المشهود(2) .

ولا نريد أن نعقب على ذلك بنعيها للعظماء والكبراء ، فهو معروف لمن عاصر السنوات الأخيرة من حياة الأهرام ، كما لا نريد أن نكرر العرض لمجهودها فى قضايا مصر مع انجلترا أو فى الشئون المتصلة بالاستقلال والدستور ، فذلك جزء من تاريخها لم يحن الوقت لتفصيل بيانه .

جلسات البرلمان

والجديد الذى ينبغى ذكره لها أنها كانت فى مقدمة الصحف المصرية التى عنيت بجلسات البرلمان ، فلم تكن تنشر أنباءها أخباراً وروايات جافة ، بل كانت تحدثنا عن أجواء الجلسات وتعلق على ما دار فيها من أحداث(3) ، وكان لها أكثر من مندوب ليوافيها بذلك كله فى أسلوب ممتع جذاب ، ولم تأل جهداً فى إجراء تحقيقات صحفية داخلية وخارجية تعهد فيها الى محرريها فيطوفون أحيانا فى أرجاء البلاد طلبا للرواية الصحيحة .

تشجيعها للرياضة والأدب

وقد احتضنت الأهرام الرياضة البدنية فى مجال واسع آيته هذه الأنهر تروى أخبارها ، وتلك الصور لمبارياتها ، ولم تقف عند هذا المسعى بل نظمت مسابقات للشطرنج قدمت هى جوائزها(4). كما أهدت الكؤوس لمسابقات التنس وغيرها(5) ، وعاونت بالمال فى السر والعلانية كثيراً من القائمين بأمر الرياضة البدنية ! .

وقد عرفنا لها تشجيعاً متصلا آخر ميدانه الأدب ، غير أن صورته تطورت بتطور

(1) الأهرام فى ٣٠ نوفبر ١٩٢٨
(2) الأهرام فى أواخر أغسطس ١٩٢٧
(3) الأهرام فى سنة ١٩٢٧
(4) الأهرام فى ٥ مارس ١٩٢٧
(5) الأهرام فى ١٩ أبريل ١٩٢٧

الزمن ، فقد أعلنت «الأهرام» عن مسابقة أدبية هى ترجمة عشر قصائد لشوقى أمير الشعراء أذاعت شروطها فى صفحاتها الأولى ، وأعلنت أنها ستنشر « ملحقاً خاصاً بترجمة القصائد العشر مع صور الفائزين بالجائزة » مبينة أن أمير الشعراء سيقدم من عنده جائزتين أخريين لأحسن مترجم إلى الفرنسية ولنظيره فى الترجمة إلى الإنجليزية[١] ، ثم نشرت فى يوم آخر نص القصائد العشر التى أعلنت عنها تسهيلا لمهمة المشتركين فى تلك المسابقة[٢]. وكانت هذه المسابقة عنواناً بديعاً لغيرها من المسابقات التى عقدتها « الأهرام » أو أعلنت عنها فى كثير من الظروف والمناسبات .

تحقيقات الأهرام الصحفيه

وكانت صفحات « الأهرام » تتراوح كما ذكرنا بين ثمانى صفحات واثنتى عشرة صفحة سنة ١٩٢٨ ، وفى تلك السنة بدأت « الأهرام » تحقيقاتها الصحفية خارج مصر عن أحداث فى الشرق والغرب ، فنشرت أول تحقيق صحفى بعنوان « الأهرام فى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش[٣] » ، وكانت تلك التحقيقات ترسل بالطائرة فتنشر فور وصولها ، ودأبت على نشر تحقيقات مماثلة لها فى ظروف أخرى كان أهمها تحقيقات « الأستاذ إميل خورى » التى نشرها عن ألمانيا وأوربا الوسطى فى سنة ١٩٣٩ وأثار نشرها ضجة كبيرة فى الدوائر السياسية الأوربية نفسها ، وقفى عليها بتحقيقات أخرى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٦ سجل فيها مشاهداته وفصل فيها المحاكمات الخاصة بمجرمى الحرب ، وكانت أولى مقالات ذلك التحقيق الأخير بعنوان « عواصف من نار »[٤]. ولم يمض على تلك التحقيقات الصحفية الأخيرة عامان حتى عاود الأستاذ خورى تحقيقاته تحت عنوان « عالم بدون سلام »[٥] ، وهى دراسات وتعليقات وأحاديث متصلة ببلاد أوربية لا تزال إلى اليوم مكاناً لصراع عنيف بين الدول الكبرى ، هذا الصراع الذى يشبه الحرب ، وإن سموها حرباً باردة .

ولم تفوت « الأهرام » فرصة لخدمة قرائها ، فقد علمت بنبأ رحلة عالمية للمنطاد جراف تسبلن ، وكانت تلك الرحلة حدثاً تاريخياً فى عالم الطيران ، فاقتحمت «الأهرام» أبواب المنطاد

---

(١) الأهرام فى ٢٢ يناير ١٩٢٨
(٢) الأهرام فى ٦ فبراير ١٩٢٨
(٣) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٩
(٤) الأهرام فى أول فبراير ١٩٤٦
(٥) الأهرام فى أبريل ١٩٤٨

واستطاعت أن تنال موافقة المسئولين عنه على تمثيل الجريدة بين ركابه ، مع ما كان ذلك التمثيل يكلفها من بالغ النفقات . وقالت الأهرام إنها « احتكرت للرأى العام المصرى أخبار المنطاد فى رحلته الجوية ، وهذه الأخبار كما رأى القراء ترد علينا تباعاً منذ ثلاثة أيام بأوفى تفصيل بل بأوفى بيان ؛ ومنذ الليلة لا تتلقى الأخبار عن رحلة هذا المنطاد من الأرض، بل تتلقاها من الجو . ومصر فى نظرنا أحق الأمم والشعوب الشرقية التى تجول المنطاد فى جوها أو جو بحارها بالاشتراك فى رحلته وتلقى أخبار ركابه وبرفع الأعلام الشرقية » .

وأخذت « الأهرام » تتلقى البرقية تلو البرقية يصف فيها مندوبها ما رأى وشاهد ، ويبث فيها مواطنيه ضيقه من حرمان المنطاد زيارة الجو المصرى لغير ما سبب مفهوم قائلا : « يلفت طربوش مندوب الأهرام أنظار الكثيرين ، وقد سألنى فى الأيام الثلاثة التى قضيتها هنا أكثر من ستين شخصاً عما إذا كان جراف تسبلن سيقصد أخيراً إلى مصر فكان هذا السؤال يورثنى ارتباكا وحيرة . إن مصر هى البلاد الشرقية الوحيدة التى لها ممثل فى هذا المنطاد ، وهى البلاد الشرقية الوحيدة التى أوصدت أبوابها فى وجهه »[1] . ومضت صحيفتنا تنشر أنباء الرحلة يوماً بعد يوم مصحوبة بالرسوم والخرائط التى تبين المناطق التى يمر فوقها المنطاد إلى جانب عدة صور أخرى لقائده ومهندسيه مع مندوب الأهرام[2] .

ولا شك أن رحلة «الأهرام» فى منطاد جراف تسبلن قصد بها فائدة القارئ أولا ، والدعاية لمصر ثانياً ، وقد نجحت «الأهرام» فى أن تذلل جميع الصعاب التى حالت دون دخول المنطاد مصر فتمت زيارته لها فى سنة ١٩٣١ ، وشغل وصوله الرأى العام المصرى إذ أخذ الشعب يتطلع إليه كعجيبة من عجائب الدنيا ، ورآه رأى العين بعد أن فصلت جريدتنا شتى البيانات عنه فى أيام متصلة[3] ولن ينسى المصريون أنهم استمتعوا بزيارة هذا المنطاد ، وشاقهم حديث قائده الدكتور اكنر الذى شكر الأهرام « على المساعى الموفقة التى بذلتها لتحقيق مجيء المنطاد إلى مصر[4]» .

مؤتمر الصحافة يعقد على نفقتها

وإذا كان اشتراك الأهرام فى رحلة المنطاد جراف تسبلن دعاية حية لمصر ، فقد

(١) الأهرام فى ٢٥ مارس ١٩٢٩
(٢) الأهرام فى ٢٦ مارس ١٩٢٩
(٣) الأهرام فى شهر أبريل ١٩٣١
(٤) الأهرام فى ١٢ أبريل ١٩٣١

اعتاد «جبرائيل تقلا بك» صاحب الأهرام أن ينتهز الفرص للإعلان عن بلاده بين الأمم المتحضرة ، فقلما كان يفوته الاشتراك فى مؤتمر صحفى ، فشهد معظم المؤتمرات والمعارض الصحفية الدولية فى أوربا ، وكان آخر المعارض التى حضرها ممثلاً لمصر « معرض الصحافة الدولى فى كولونيا »[1] . ثم اتخذ خطوة إيجابية نحو الدعاية لمصر والمصريين فعمل جاهداً على أن ينعقد « مؤتمر الصحافة اللاتينية العاشر » فى مصر . وقد أخذ على عاتقه أن تقوم « الأهرام » بنفقات الدعوة من جميع الوجوه ، وكان هذا المؤتمر يمثل مئآت من الجرائد فى خمس وعشرين أمة ، وأخذت وكالات الأنباء تذيع الأخبارعن دعوة الأهرام إلى انعقاد المؤتمر فى مصر ، وحدثتنا صحيفتنا عن ماهية الصحافة اللاتينية التى سيعقد مؤتمرها فى بلادنا ، وبينت لنا أغراض تلك الصحافة ومراميها ، ويذكر «جبرائيل تقلا بك» الملابسات التى انتهت بدعوة هذا المؤتمر إلى القاهرة وقبول الجماعة للدعوة التى وجهتها إليهم « الأهرام » ، فيقول إنه دعى إلى مأدبة من المآدب التى تقيمها هذه الجماعة شهرياً فى باريس مقرها الدائم وكان ذلك فى صيف سنة ١٩٣٠ فقرر بينه وبين نفسه أن يدعوها باسم « الأهرام » إلى عقد مؤتمرها فى القاهرة .

وكانت الجماعة قد قررت أن يعقد مؤتمرها فى سنة ١٩٣١ فى ريودى جانيرو فى البرازيل، ولكن الاضطرابات السياسية هناك حالت دون ذلك ، فانتهز الفرصة ودعا المؤتمر إلى الانعقاد فى القاهرة « لتعريف هذا الجمع من حملة الأقلام بمصر الحديثة . . . فينشرون بعد عودتهم على الملايين من قراء الصحف السيارة ما رأوا وشهدوا فى هذا القطر العزيز، من مظاهر النهضة الفكرية والوطنية والعمرانية والاجتماعية » . ثم كتب صاحب الأهرام إلى مدير المؤتمر فى باريس وإلى السكرتير العام للجماعة يدعوهم إلى عقد المؤتمر فى القاهرة على أن تضيفهم الأهرام فى سفرهم وخلال إقامتهم فى الديار المصرية ، ثم يقول « جبرائيل تقلا بك » : هذه هى الصحافة اللاتينية تبدو عظمتها بمئات الجرائد التى تمثلها وعشرات الملايين من القراء الذين يطالعونها وبرؤساء الحكومات والوزراء وعظماء السياسة الذين اشتركوا فى مؤتمراتها ، « وهذه هى المقدمات التى سبقت تقرير مؤتمرها العاشر فى مصر بسطناها بالتفصيل ليعلم بها الجميع . ولا يخفى ما فى ذلك من الدعاية لمصر العزيزة وإطلاع العالم على نهضتها وتطلعها إلى الحلول فى المركز اللائق بها بين الأمم المتمدينة » .

ثم يمضى «جبرائيل تقلا» متحدثاً عن قدر المؤتمر وخطورة انعقاده فى مصر « وإذا كانت حكوماتنا المتعاقبة تنفق فى كل عام بضعة آلاف من الجنيهات لاستصدار عدد خاص

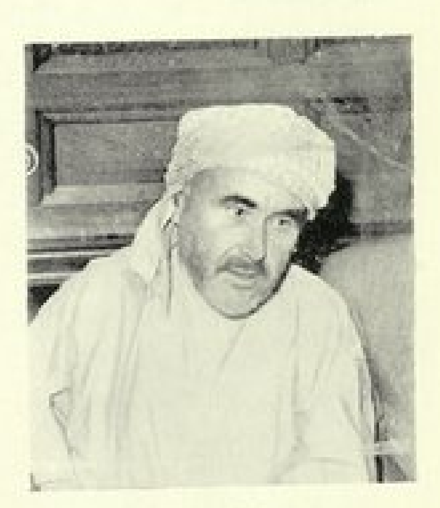
(١) الأهرام فى ١٣ مايو ١٩٢٨



ملكا إيطاليا في مصر عام ١٩٤٧
بعد إلغاء الملكية في إيطاليا عام ١٩٤٧



سماحة مفتي فلسطين
عند ما لجأ إلى رحاب الفاروق عام ١٩٤٦



سمو الأمير عبد الكريم
عند ما لجأ إلى حمى الفاروق عام ١٩٤٧

بمصر من صحيفة أو صحيفتين أجنبيتين رغبة فى تعريف العالم بمصر ، فلا أقل من أن نرحب بقدوم جماعة من خيرة الصحفيين سيوافون المئات من صحفهم بالرسائل عن مصر والمصريين ، وهذا أقصى ما يتيسر لنا من وسائل الدعاية والنشر . لذلك لم تتردد « الأهرام » فى عمل ما يجب عمله من وراء عقد هذا المؤتمر الصحافى الكبير فى ضيافتها لوثوقها أنها بذلك ستقوم بخدمة كبيرة للدعاية لهذا القطر العزيز » . ثم يتوجه جبرائيل تقلا « إلى جميع المصريين » يدعوهم إلى الاشتراك معه « فى إنجاح هذه الفكرة فالمصرى مضياف كريم » وهو يوجه دعوته « بنوع خاص إلى جميع زملائنا الأفاضل من رجال الصحافة بمصر على اختلاف مذاهبهم السياسية ! ، فإن الزائرين الكرام سيجدون فى زملائهم الوطنيين روح التضامن والتعاون والزمالة الصادقة لأنهم لا يعرفون — كما قال رئيس مؤتمر الصحافة فى مدريد — مهنة أسمى من مهنة الصحافى »[(١)]

ثم يقصد مندوبو الجريدة إلى أوربا ليكونوا فى صحبة الأعضاء وهم فى طريقهم إلى مصر[(٢)] وكان عدد الأعضاء المؤتمرين تسعة وخمسين عضواً نشرت «الأهرام» أسماءهم وأسماء بلادهم والصحف التى ينتمون إليها أو الوكالات الصحفية التى يعملون فيها[(٣)] ، وأخذت تصف استقبالهم فى الإسكندرية[(٤)] وتفصل الحديث عن ، حفل الافتتاح الذى أقيم فى الجمعية الجغرافية الملكية وخطبة الداعى ، إلى جانب كثير من الصور لأعضاء المؤتمر[(٥)] فإذا فرغ المؤتمرون من مؤتمرهم وعادوا إلى بلادهم كتبوا مقالات ممتعة عن مصر وحياتها قديماً وحديثاً ، ونشرت « الأهرام » ترجمة لذلك كله ، كما أذاعت الأثر الطيب الذى خلفته زيارة مصر وانعقاد المؤتمر فيها ، وما تركته من الإعجاب فى نفوس الأعضاء[(٦)] الذين صاروا رسل دعاية لها حتى إن بعض بيوت « الأزياء » أطلقت أسماء مصرية « كالقاهرة » وهليوبوليس ، والأقصر ، وأسوان ، على أزياء السيدات فى تلك السنة[(٧)] .

وحسب « الأهرام » هذا الذى صنعته فى الدعاية لمصر وتعريف البلاد المتحضرة بها ، فإن ذلك كان شيئاً ينقصنا ، وأكبر الظن أنه لا يزال ينقصنا وإن كانت

---

(١) الأهرام فى ١١ نوفبر ١٩٣١
(٢) الأهرام فى ٦ يناير ١٩٣٢
(٣) الأهرام فى ٩ يناير ١٩٣٢
(٤) الأهرام فى ١٠ يناير ١٩٣٢
(٥) الأهرام فى ١١ يناير ١٩٣٢
(٦) الأهرام فى ١٦ فبراير ١٩٣٢
(٧) الأهرام فى ١٧ مارس ١٩٣٢

وزارة الخارجية المصرية قد نهجت نهج جبرائيل تقلا أخيراً فأخذت تدعو بعض الصحفيين من مختلف البلاد إلى زيارة مصر وتعرف رقيها وتقدمها ، لعل ذلك يكشف للغرب عن حضارتنا ويبين للغربيين قدمنا الراسخة فى العلوم والفنون ، فوق ما تزخر به بلادنا من آثار مجيدة تتحدث عن ماضيها فى العلوم والمعارف.

وكانت «الأهرام» تستقبل دعاة مصر من الأجانب استقبالا حسناً ، وتحتفل بكل صديق لها احتفالا كريما ، وخاصة الصحفيين الذين كانوا يزورون بلادنا محققين فى شئونها العامة ، فترحب بهم صحيفتنا وتقيم على خدمتهم ، حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم ورووا ما شاهدوا ، نشرت أحاديثهم فى أعداد متصلة[1] .

دفاعها عن الصحفيين

وإذا كانت « الأهرام » قد شرفت صحافتنا بالنجاح الفذ الذى هيأته لمؤتمر الصحافة اللاتينية ، فإنها قد تزعمت الدعوة إلى الحرية الصحفية التى كانت الصحافة تفتقدها فى تلك الأيام ، إذ كانت صحفنا تجتاز محنة من التعنت كان بودنا أن نؤرخ له لولا أن ممثليه لا يزالون على مسرح الحياة .

دعت « الأهرام » رجال الصحافة المصرية إلى اجتماع عقد فى دارها فلبوا دعوتها على اختلاف نزعاتهم، وافتتح الاجتماع رئيس تحرير الأهرام « داود بركات» ، فعرض وصفاً مؤثراً لما وصلت إليه حالة الصحافة المصرية من جميع الوجوه ، وبين سوء المعاملة التى يلقاها الصحيفون ، وتتمثل واضحة فى معاملة الزميل توفيق دياب وما يعانيه من خشونة السجن وظروف الحياة فيه ، وتداول الحاضرون فيما وصلت إليه الصحافة من الضيق وما أصابها من العنت والإرهاق ، واتخذوا فى ذلك قراراً قالوا فيه « يطلب الصحيفون من الحكومة اتخاذ الإجراءات اللازمة السريعة لإصدار مشروع القانون الخاص بجرائم الرأى الذى وضعه الأستاذ عبد القادر حمزة وعدلته اللجنة البرلمانية فى سنة ١٩٢٧ ، وإلى أن يصدر ذلك التشريع يطلبون معاملة زميلهم الأستاذ دياب على أساس هذا التشريع[2] وتداول المجتمعون فى يوم آخر[3] ، ولم يكفوا عن الطلب حتى تحققت بعض أمانيهم ورغباتهم فى آخر الأمر بصدور قانون نقابة الصحفيين وتوحيد التشريع الخاص بالمطبوعات .

---

(١) الأهرام فى ٢ يونيه ١٩٣٣
(٢) الأهرام فى ٦ مارس ١٩٣٣
(٣) الأهرام فى ٩ مارس ١٩٣٣

تطور الأهرام

أخذت الأهرام تتطور تطوراً ملحوظاً فى ربع القرن الأخير ، وتعد سنة ١٩٣١ مفترقاً للطرق من حيث شكل الجريدة التى نتلقاها فى كل صباح ، فقد زادت صفحاتها منذ ذلك التاريخ حتى تجاوزت أحياناً ست عشرة صفحة ، ورتبت موادها ترتيباً يريح البصر ويهديك إلى ضالتك من غير جهد ، حتى ليضرب المثل بتنظيمها فى توزيع المواد وتخصيص أماكنها ، وقد فاقت فى ذلك كثيراً من أمهات الصحف الأروبية والأمريكية ، والشبه بين الأهرام والتايمز فى التنظيم والإخراج شبه كبير ، فأنت تبحث فى الصباح عن خبر معين فتجده فى مكان معين من صفحة معينة ، ونظائره من الأخبار منثورة فى المكان نفسه منذ عشرين عاماً فلا تجد فى ذلك اضطراباً ولا شذوذا .

ولا نعود إلى نشاطها الأدبى والاجتماعى ، ولكن لا بد من التنويه بأنها أسبق الصحف إلى كل جديد ، فلما بدأ الاتصال التليفونى بين مصر وأوربا ، كانت أول مكالمة — بعد وزير المواصلات — للأهرام مع برلين[١] . وكذلك كانت أول صحيفة تحصل على حديث تليفونى يتم بين مصر وبين كثير من البلاد الأوربية كباريس وروما ومارسليا وجنيف[٢] وأخيراً كانت أول من تحدث إلى رئيس الجمهوريتين السورية واللبنانية بالتليفون حين تم اتصال مصر بالبلدين الشقيقين .

وقد طرقت « الأهرام » كل باب من أبواب الفكر ، وعرضت كثيرا من الموضوعات على الرأى العام تستفتيه فيها ، كهذا الاستفتاء الخاص « بالبوليس النسوى فى مصر »[٣] ، وهو أول استفتاء من نوعه طلعت به «الأهرام» على قرائها فجاءتها آلاف الردود ونشرت بعضها[٤] ، وكانت صحيفتنا تقدم تلك الاستفتاءات فى مكان ظاهر داخل إطار حتى تلفت النظر إليها ، وكان من أجمل استفتاءاتها استفتاء موضوعه : « من الرجل الذى تتمنى لو يبعث حيا إذا قدر لك ذلك ولماذا ؟ »[٥] . وقد دأبت على نشر تلك الاستفتاءات فخلقت بينها وبين قرائها بريداً متين الأوصال .

(١) الأهرام فى ٦ يوليو ١٩٣٢
(٢) الأهرام فى ١٩ يوليو ١٩٣٢
(٣) الأهرام فى ١٩و٢١و٢٦و٢٨ فبراير ١٩٢٥
(٤) الأهرام فى ١٢ فبراير ١٩٣٠
(٥) الأهرام فى ١٢ سبتمبر ١٩٣٠

وتحقق صحيفتنا لقرائها كل موضوع يثير فضولهم ، فإذا تحدث الناس عن الدكتور (سلمون) المنوم المغناطيسى دعته إلى دارها وجاز أمامها امتحاناً ، ونشرت ذلك كله فى ريبورتاج مصور[1] ثم أخذت تعلن آراء مطالعيها تحت عنوان جديد سمته (بريد الأهرام من السبت إلى السبت)[2]. وكفلت للمجتهدين المتفوقين أسماء نابهة ، فكانت تنشر صور الأوائل فى الامتحانات العامة المختلفة تشجيعاً للمتفوقين من الطلاب وإعلاناً للأسوة الحسنة والمثال الطيب[3] . ثم أخذت تذكر المصريين بمفاخرهم ناشرة فصولا ممتعة عن « البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام منذ مائة عام ١٨٣٢ » وبلغت هذه الفصول ستة وثلاثين فصلا ، استغرقت من تاريخ الأهرام أربعة أشهر متصلة[4].

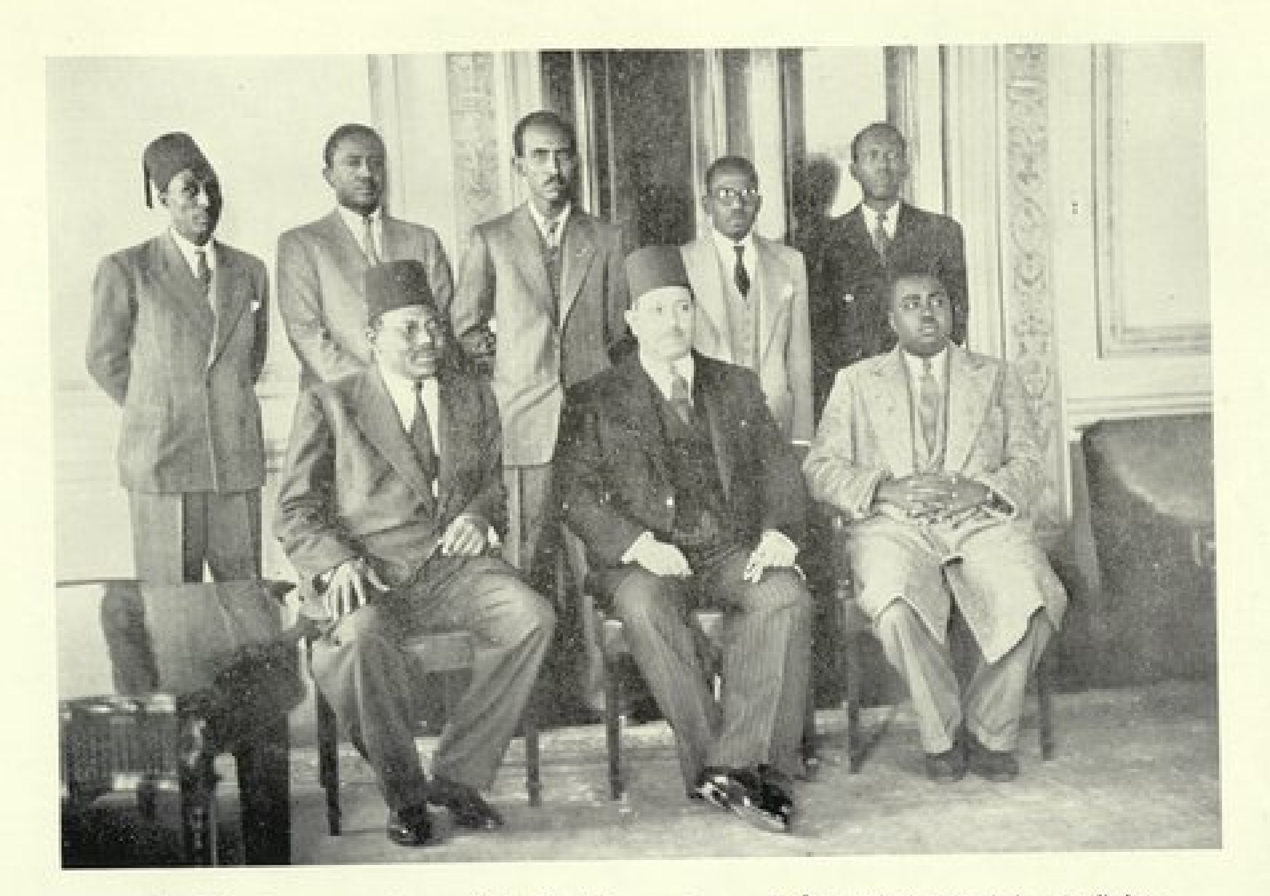
الحروف الجديدة

واستطاعت «الأهرام» منذ شهر يوليه سنة ١٩٣٢ أن تزيد مقدار الأسطر المطبوعة فى الصفحة بفضل استحداثها لحرف اللينوتيب الذى عممت استعماله شيئاً فشيئاً وأتاح لها ذلك إنشاء أبواب جديدة فرأيناها تعنى ببرامج الإذاعة اللاسلكية تحت عنوان ثابت « ماذا تسمع الليلة وغداً »[5] ثم تنظم النشاط الأدبى تحت عنوان « أدب — علوم — فنون[6] » ، وقد عاش هذا العنوان طويلا ، واحتل من الأهرام صفحة كاملة . وكذلك خصصت صفحة كاملة بعنوان « السينما والملاهى » ، درست فيها الموضوعات المعروضة فى هذه الدور ، وجلت بدراساتها ما استغلق على قرائها من شئون هذه الفنون الجديدة .

وفاة داوود بركات

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٣٣ أصيبت الأهرام بوفاة رئيس تحريرها الكاتب الصحفى الأديب « داود بركات » الذى ساير نهضتها وأفنى العمر فى خدمتها ، ويؤرخ له صديقه بولس غانم فيقول : « كان رحمه الله حاضر الابتسامة سريع الجواب نشأ فى قرية بحشوش من أعمال لبنان وتلقى العلم فى مدرسة الحكمة فى بيروت وهى معهد راق تخرج فيه الكثير من أدباء اللغة العربية وشعرائها .

(١) الأهرام فى ٣٠ يونيو ١٩٣٠
(٢) الأهرام فى ٣٠ مارس ١٩٢٩
(٣) الأهرام فى شهور يونيه ابتداء من ١٩٣٠
(٤) الأهرام من ١٨ فبراير ١٩٣٢ إلى ٥ مايو ١٩٣٢
(٥) الأهرام فى ٥ أبريل ١٩٣٣
(٦) الأهرام فى ٢٠ يوليو ١٩٣٣



دولة النقراشي باشا يستقبل الوفد السوداني إلى مصر عند وصوله إلى القاهرة في ٢٦ مارس ١٩٤٦ لمناسبة المفاوضات

هبط مصر فتى جياش الصدر بالآمال وتولى التدريس زمناً ثم حدا به أدبه إلى الاشتغال بالصحافة ، فتولى رياسة تحرير جريدة « المحروسة » ثم أنشأ جريدة « الأخبار » ، وفى سنة ١٨٩٩ دعاه صاحب الأهرام لمعاونته حتى إذا توفاه الله تولى داود رياسة تحرير صحيفتنا فساس أمورها بحكمة وإخلاص ، وقادها وسط العواصف قيادة الربان الماهر حتى أصبحت أرقى الصحف وأوسعها انتشاراً . . . .

« وكان فيه من الصحفى حسن الكياسة وسعة الاطلاع وسرعة الخاطر وبعد النظر فى استخراج النتائج المرتقبة للحوادث المشاهدة ، بحيث كان يوجه الرأى العام والحكومات . وقد امتاز بالمقدرة على الإشارة إلى مرام خفية وأغراض مقصودة بأسلوب يفهمه الناس ويتبينه الرقيب ولكن لا يقوى على التعرض له ، وهكذا أمكن « الأهرام » إبان الحرب العالمية وفى ظل الأحكام العرفية أن تطلع قراءها على كل خفى ممنوع نشره ، دون أن تتعرض إلى إيقاف أو تعطيل .

وكان فيه من الأديب دقة التصور ، وجميل الخيال ، وحسن الديباجة . . .

وكان تاريخاً حيا لمصر وحوادثها ورجالاتها ، حافظاً لأنساب المصريين وحياة عظمائهم ومذاهبهم السياسية ونزعاتهم الفكرية بحيث إذا أراد أن يكتب أو يؤرخ قلما يرجع إلى كتاب بل يملى كل ذلك عن ذهنه وذاكرته .

وكان فى عقيدته السياسية مشرباً بروح مصطفى كامل الوطنية ، معجباً بمبادئه وتعاليمه لما بثه فى صدور الناشئين من روح الوطنية والوعى القوى وحب الإقدام والتضحية .

وكان من أعف الكتاب قلماً وأقلهم عنفاً فى الخصومة وأكثرهم إلماماً بالنهضة المصرية والحركة الفكرية . ولا شك أن وفاته قد محت صورة تاريخية من صور الأدب والخلق والوفاء . . . »

وقد وفت «الأهرام» لعميدها داود بركات كل الوفاء فرثته أجمل رثاء[1] وعادت إلى الإشادة بقدره[2] وتجلت مرة أخرى أياديه البيضاء حين قام الصحفيون والأدباء بإحياء ذكراه فى دار الأوبر الملكية[3]

تنظيم الأهرام للبعثات العلمية

وبذلت «الأهرام» فى هذه الحقبة نشاطاً عظيما فى تنظيمها للبعثات العلمية وأجدرها

(١) الأهرام فى ٥ نوفبر ١٩٣٣
(٢) الأهرام فى ٦ نوفبر ١٩٣٣
(٣) الأهرام فى ١٦ ديسمبر ١٩٣٣

بالذكر « بعثة الأهرام فى صحراء ليبيا » وقد نظمتها لإتمام تخطيط تلك البقعة ورسمها على خريطة مصر ، ولاستكمال نقوش ما قبل الحرب وتسجيلها بالرسم والتصوير الفوتوجرافى ، ولكتابة تقرير مفصل عن جميع ذلك ليقف العالم على تاريخ حضارة مصرية قديمة سبقت حضارة الفراعنة بآلاف السنين .

وقد ذكرت «الأهرام» أن نادى السيارات الملكى ساهم معها فى تلك البعثة فمثله فيها سمو الأمير محمد عبد المنعم كما اشترك فيها كثير من الملمين بأغراض أمثال هذه البعثات .

وقد ندبت «الأهرام» مراسلا خاصاً خبيراً فى علوم الآثار ، وفصلت لنا معدات البعثة ووسائل انتقالها ، وقد أمضت البعثة فى بحوثها أربعة وثلاثين يوماً جابت فى خلالها الفيافى[1] ، وأخذ مندوب الأهرام المرافق لها ينشر مقالات متتالية عن أعمال البعثة ، كان آخرها فى منتصف شهر مايو[2] ، وأهمها المقالات التى تضمنت النتائج العلمية للبعثة موضحة بالصور مؤيدة بالوثائق والأسانيد[3] .

الأهرام فى ١٦ صفحة

واستكملت « الأهرام » عدة الصحيفة المثالية فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العظمى الثانية ، فأخذت تصدر فى ست عشرة صفحة وتصل أحياناً إلى عشرين صفحة ، وزادت الصفحات فى الأعداد الخاصة إلى أربع وستين كما حدث فى عدد الأهرام الزراعى[4] ، أو « عدد الأهرام الصناعى » [5] أو فى غيرهما من الأعداد الخاصة كعدد الأهرام الخاص الذى صدر فى اثنتين وتسعين صفحة عن المعرض الزراعى الصناعى الذى افتتح فى فبراير سنة ١٩٤٩ [6] . وهذه الأعداد الممتازة تعد مراجع حقيقية فهى مؤيدة بالوثائق ، مفصلة بالأسانيد ، محلاة بالصور والرسوم .

الحركة التجارية

ثم اهتمت «الأهرام» بحركة التجارة والأسواق الخارجية فأفردت لأنبائها مكاناً خاصاً اختارت له عنوان (الأسواق الخارجية) ترد أخباره من مراسليها الخصوصيين فى الخارج

---

(١) الأهرام فى ١٨ أبريل ١٩٣٤
(٢) الأهرام فى ١٦ مايو ١٩٣٤
(٣) الأهرام فى ٤ مايو ١٩٣٤
(٤) الأهرام فى ١٥ مايو ١٩٣٥
(٥) الأهرام فى ٤ أبريل ١٩٣٦
(٦) الأهرام فى ١٤ فبراير ١٩٤٩

بالبريد والبرق ، واستتبع ذلك اهتماماً خاصاً بحركة القطن أسبوعياً، فخصصت لها باباً كل يوم أحد جمعت فيه تحريات مراسليها التجاريين وتعليقاتهم المختلفة تحت عنوان (أسواق القطن فى أسبوع) ، ثم نظمت إعلاناتها وبوبتها تبويباً رائعاً .

وليس الغرض الأول من نشر الإعلان الكسب كما يتبادر إلى الذهن ، فإن الصحيفة المثلى تعد الإعلان وسيلة من وسائل الرقى فى الشعوب المتحضرة ، تستفيد منه الصحيفة فى تغطية نفقاتها التى قد تبلغ ضعف ثمنها ، ويستفيد منه المعلن إذ يوصل به إنتاجه إلى علم أكبر عدد من الناس ، ويستفيد منه الجمهور إذ يتعرف به الجديد فى أبواب الصناعة والتجارة ، وقد ثبت أنه لولا الإعلان لكان الإنتاج ضئيلا والاستهلاك طفيفاً فيترتب على ذلك غلاء الحاجيات .

الاجتماعيات

وقد ابتدعت « الأهرام » إعلاناً نفسياً يرضى المشاعر فى تلك « الاجتماعيات » وغيرها من ألوان الأفراح والأتراح . وقد كانت إعلانات الصحف ركيكة العبارة ضعيفة المعنى ، سقيمة العرض، فعنيت «الأهرام» بتهذيب أسلوبها والتفنن فى عرضها، وكانت أولى الصحف المصرية التى أدركت قيمة الإعلان فى حياة الشعوب وتقدمها ، فأنشأت فى سنة ١٩٣٣ مكتباً لها يضارع أعظم مكاتب الإعلان فى الصحافةالأوربية ويفوق بعضها ، وهى تتعهد هذه الناحية الصحفية معتمدة على الأصول الفنية ، فلها مكاتب للرسم والخط والكليشيهات والإخراج ، تعرض رسومها على طالب الإعلان دون أن تكلفه شيئاً ، خلافاً لما تجرى عليه مكاتب الإعلان فى الصحافة الأروبية ، وليس على طالب الإعلان فى « الأهرام » إلا أن يبدى رغبته ، فيبتكر المكتب الإعلان ويصوره ويخرجه طريفاً جذاباً يفيد منه المعلن والمستهلك معا .

أبواب مختلفة

وبجانب هذا التنظيم المادى المتصل بالإعلان رأينا فصولا تحريرية ؛ منها باب (الكتب الجديد) الذى يتابع حركة التأليف ويعرض لها بالنقد المهذب على أحدث منهج وأرق أسلوب ، ومنها القصة التى دأبت «الأهرام» على نشرها فى كل يوم مسلسلة كما كانت الحال قبيل الحرب الكبرى الثانية ، أو كاملة فى يوم واحد كما هو الغالب فى السنتين الأخيرتين ، ثم أخذت «الأهرام» تحيى تاريخها بفقرات تنقلها عن (الأهرام منذ

خمسين سنة) ، كما أخذت تولى أخبار المواصلات عناية ملحوظة ، فخصصت لذلك بابا تنشر تحته بين آن وآخر ما أصاب « السيارات والطيران » من جديد ، وكانت تقدم هذا الباب محلى بالصور والرسوم . وعنيت كذلك بأخبار السباق ، وأفردت لها بابا بعنوان « سباق الخيل » .

تنظيم الرحلات

ثم بدأت صحيفتنا تعمل جاهدة للترفيه عن قرائها فأعدت لهم رحلات إلى الخارج تميزت بطول الأمد وقلة التكاليف ، فزارت بعض رحلاتها أثينا ونابولى وروما والبندقية وفيينا وبودابست وبوخارست وكونستانزا واستامبول وأثينا وبيروت وحيفا[1] . ثم عادت إلى إعداد رحلات مماثلة فى سنوات تالية[2] .

مسابقات الأهرام

وبث « الأهرام » النشاط بين قرائها بإعلان مسابقات مختلفة ، « كمسابقة الأهرام الانتخابية » فى سنة ١٩٣٦ ، وقد جعلت مجموع جوائزها مائتين وخمسين جنيها تمنح للمتسابقين الذين يقدرون أقرب تقدير إلى الحقيقة ، عدد المشتركين فى انتخابات مجلس النواب[3] وأعلنت عن مسابقة للتعداد جوائزها مائتا جنيه ، عند ما قامت الحكومة بتعداد سكان القطر سنة ١٩٣٧[4] وجرت على ذلك فى شتى المناسبات ، وكانت هذه المسابقات ، إلى جانب ما تثيره من نشاط ، تجلو إحساس الشعب و تبين مدى تتبعه لتطور الحال فى مصر .

وأعدت « الأهرام » الجوائز للمتفوقين فى نواحى الحياة العامة ، فها هى ذى ترصد جائزة قدرها مائتان وخمسون جنيها تعطى للفائز الأول فى سباق الطلبة المعروف بدورة الواحات[5] كما تقدم كأسا من الفضة تعطى لأول من يستطيع التحليق بطائرة شراعية فوق الهرم الأكبر . وهى بذلك تبث النشاط فى الناحية التى اهتم بها المصريون سنة ١٩٣٧[6] .

ومما يذكر لها فى هذا المقام تأليف بعثها التى بحثت مع المسئولين عن وزير ألمانيا

(١) الأهرام فى ١٨ مايو ١٩٣٥
(٢) الأهرام فى ١٦ مايو ١٩٣٥ و ٢٧ يوليو ١٩٣٨
(٣) الأهرام فى ١٥ أبريل ١٩٣٦
(٤) الأهرام فى شهر مارس ١٩٣٧
(٥) الأهرام فى ٢ مارس ١٩٣٧
(٦) الأهرام فى ٣١ مارس ١٩٣٧



مجلس الوصاية على العرش عام ١٩٣٦

الذى ضل سبيله فى الصحراء[1].

و « الأهرام » تعاون المسئولين فى شحذ الهمم وشد العزائم كما رأينا ، ثم تشترك مع الدولة فى مكافحة الشر أو كشف الجريمة ، عن طريق عيونها من المخبرين والمراسلين ونشر صور الهاربين من وجه العدالة

• • •

وليس يعنى ما ذكرناه هنا من تفاصيل ، أن ذلك كان كل جهد «الأهرام» فى السنوات الأخيرة من تاريخها العريض ، وإنما نذكر تلك التفاصيل بياناً للجديد الذى ضمته أهرامنا إلى القديم ، فهى هى تلك الصحيفة التى وسعت صفحاتها جميع ألوان الفن الصحفى ، وهى هى السجل الشعبى الدقيق لتاريخ مصر الحديث ، والصورة الصادقة لحياة الشعب ومثله . فأنت تستطيع أن تعود إليها إذا أردت البيان الوافى الدقيق للمفاوضات بين مصر وإنجلترا فى سنة ١٩٣٦ ، وهى المفاوضات التى انتهت بتلك المعاهدة المعروفة . وكذلك هى السجل الواعى للمفاوضات التى جرت بين مصر وكثير من الدول صاحبات الامتيازات ــ والتى حددت مدة معينة لحياة الامتيازات والمحاكم المختلطة ، انتهت فى سنة ١٩٤٩[2] ــ وقد شغلت تلك المفاوضات العالم كله لخطورتها واشتراك كثير من الدول فيها ، وكان من أجمل ما صنعته «الأهرام» فى مفاوضات الامتيازات الأجنبية ، تكليفها لاثنين من الرسامين العالميين القيام برسم جميع أعضاء المؤتمر رسوماً كاريكاتورية بارعة نشرت بعضها فى صفحاتها ونقلتها عنها كثير من الصحف العالمية[3] .

مات الملك يحيا الملك

وبمثل هذا الجهد شغلت « الأهرام » مكانها الممتاز فى تاريخ مصر الحديث . وأنت تستطيع أن تعود إلى « الأهرام » فتعرف أنباء العلة التى نزلت بالملك فؤاد وأقلقت بال الشعب عليه[4] . وتقرأ كيف تطور المرض[5] . ووقعت النازلة وآب العاهل العظيم إلى ربه ، ونودى بالفاروق ملكاً على مصر[6] . وهنا تصف لك الأهرام وداع الشعب

(١) الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٩٣٦
(٢) الأهرام فى سنة ١٩٣٧
(٣) الأهرام فى ٩ مايو ١٩٣٧
(٤) الأهرام فى أبريل ١٩٣٦ وخاصة ٢٤و٢٥ منه
(٥) الأهرام فى ٢٦و٢٧و٢٨ أبريل ١٩٣٦
(٦) الأهرام فى ٢٩ أبريل ١٩٣٦

لملكه الراحل إلى مستقره الأبدى بين الدموع والحسرات[1]. ثم تلتفت «الأهرام» بعد ذلك إلى الملك الشاب ، فتقدم إلى قرائها تأريخاً دقيقاً لجلالة الفاروق[2] وتصور حفلات تتويجه وتقلده جميع حقوقه الدستورية[3].

على أن الأهرام لم تقصر سجلها على المناسبات الكبيرة فى مصر وحدها ، بل عنيت بالحوادث الاجتماعية العالمية كتتويج الملك جورج السادس مثلا[4] ، وما إلى ذلك من أخبار نحيا فى زمانها إذا عدنا إلى تقليب صفحات الأهرام فى تلك الأيام .

أثر الحرب فى الأهرام

وأعلنت الحرب فى سنة ١٩٣٩ ، وصليت الأهرام نارها من جديد ، فنقص عدد صفحاتها من عشرين صفحة وست عشرة صفحة ، إلى اثنتى عشرة صفحة قد تزاد إلى أربع عشرة فى القليل النادر ، واقتصر نشاطها الصحافى على الأنباء الخارجية المتصلة بحياة مصر ، وعلى كثير من أنباء الداخل ولم تكن تلك الأنباء – الخارجية منها والمحلية – تنشر إلا بعد أن تجوز امتحاناً عسيراً من الرقابة والرقيب ، كما وجهت « الأهرام » عناية خاصة إلى أخبار الحرب المصورة ، فنشرت منها صوراً كاريكاتورية بديعة ، منقولة عن الصحف الأجنبية أو مصنوعة بريشة رساميها الكثار[5].

وكادت مناقشة السياسة الداخلية التى اعتادت « الأهرام » بحثها ، يضطرب أمرها بفعل الرقيب ، وصار من المتعذر على صحف الرأى أن تبدى رأيها مجلواً خلواً من القيود ، والرقابة لها بالمرصاد ، فاتجهت « الأهرام » حيناً من الزمن إلى نشر تحقيقات مصورة عن مفاخر الجيش المصرى بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦[6] ، أو التحدث – فى المناسبات القومية الكبرى – عن وطنية عظمائنا وكفاحهم فى سبيل الاستقلال ، ثم تنتهز فرصة إزاحة الستار عن مصطفى كامل لتخصص صفحتيها الأولى والثانية ، لنشر صفحات من تاريخ حياة الزعيم ، مع مجموعة من صوره[7] مسجلة نصيب الملك فاروق فى إحياء تلك الذكرى الوطنية العطرة[8].

---

(١) الأهرام فى ٣ أبريل ١٩٣٦
(٢) الأهرام فى شهر مايو ١٩٣٦
(٣) الأهرام فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧
(٤) الأهرام فى ١٣ مايو ١٩٣٧
(٥) الأهرام فى ١٣ يناير ١٩٤٠
(٦) الأهرام من أواخر ١٩٣٩ إلى شهر مارس ١٩٤٠
(٧) الأهرام فى ١٤ مايو ١٩٤٠
(٨) الأهرام فى ١٥ مايو ١٩٤٠

نقص صفحاتها

ثم أخذت صفحات الأهرام تتناقص : إلى ثمان أو عشر[١] ، وقلت فيها برقياتها الخاصة قلة ملحوظة ، وذلك لتعذر اتصالها بمكاتبها فى أوربا بعد معركة فرنسا[٢] ، ثم حددت الحكومة عدد صفحاتها مرة أخرى بأمر عسكرى جاء فى مادته الأولى : « ابتداء من أول اكتوبر سنة ١٩٤٠ إلى أن يقرر ما يخالف ذلك ، لا يجوز إصدار الصحف اليومية إلا من ست صفحات دون أن تصحبها ملاحق أو أن تشتمل على نشرات أو أية أوراق مطبوعة ترفق بها أو تحشر بين صفحاتها ، ومع ذلك فيجوز لها فى كل شهر ، نشر عشر صفحات إضافية تختار أيامها كيف تشاء ولا يمنع عدم ظهور جريدة مرة فى الأسبوع من تطبيق القاعدة المتقدمة عليها » . وكانت عقوبة من يخالف هذا الأمر العسكرى بمواده المختلفة الغرامة من خمسين إلى خمسمائة جنيه مع مصادرة أعداد الجريدة[٣] على أن يشترك فى المسئولية ، صاحب الجريدة والناشر والطابع .

وكان تخفيض عدد صفحات الجرائد اليومية محنة لا مثيل لها بالنسبة إلى صحيفة تتصدر الصحافة العربية جميعاً ، وترتبط بعقود خاصة بالإعلان لم يكن من المستطاع التحلل منها وإن أعفاها الأمر العسكرى من الارتباط بتلك العقود وذلك ما تأباه تقاليد الصحف الكبيرة فضلا عما للإعلان من أهمية ذات بال ، إذ تستعيض به الصحيفة عن كثير من خسائرها ، وتستعين به على الإخراج الكامل : من حيث الشكل والموضوع ، لذلك بلغت المحنة أقصاها حين صدر أمر عسكرى آخر سنة ١٩٤٢ بتخفيض الصحف إلى أربع صفحات فى معظم أيام الأسبوع ، كما يفرض عليها عطلة أسبوعية[٤] .

هنا تذكر « الأهرام » أنها اختارت يوم السبت لعطلتها الأسبوعية ، تنفيذاً للأمر العسكرى[٥] . ثم تحدث قراءها عما تعانى من متاعب نتيجة إهمال بعض أبواب الجريدة . وتؤرخ لذلك كله بقولها : « قضت ظروف الحرب وما صارت إليه وسائل النقل والشحن بتخفيض مقدار الواردات إلى مصر . . . ومن ذلك مقدار الورق المعد لطبع الصحف . . . لذلك رأى

---

(١) الأهرام فى أول يوليو ١٩٤٠
(٢) الأهرام فى شهر يوليو ١٩٤٠
(٣) الأهرام فى ٢٧ سبتمبر ١٩٤٠
(٤) الأهرام فى ١٢ أبريل ١٩٤٢
(٥) الأهرام فى ١٧ أبريل ١٩٤٢

صاحب المقام الرفيع الحاكم العسكرى إصدار الأمر العسكرى الذى نشرناه منذ يومين » .

ثم تقول : « وتنفيذاً لأحكام هذا الأمر العسكرى ستصدر الأهرام كغيرها من الجرائد اليومية فى أربع صفحات ابتداء من اليوم بعد أن كانت قبل الحرب تصدر فى ١٦ و ٢٠ صفحة ، وبعد أن كانت تنشر فى كل سنة أعداداً ممتازة يصل عدد صفحاتها إلى ٦٤ صفحة » .

ثم تحدثنا عن أثر ذلك التخفيض فى أبواب التحرير بقولها : « وستبذل أقلام تحرير الأهرام أقصى ما فى الطاقة لئلا يترتب على إنقاص عدد الصفحات نقص فى الأنباء ، وذلك بزيادة عدد السطور فى الأعمدة ، والإيجاز فى تدوين الأخبار ، وتلخيص البيانات والخطب تلخيصاً وافياً لا يخل بمضمونها ، وبعبارة واحدة بتقديم أكثر ما يمكن من المواد فى أقل ما يمكن من المكان » . ثم تخاطب قراءها : « ولا نرى بدا من التوجه برجاء إلى حضرات الكتاب والشعراء الذين اعتادوا أن يوافوا « الأهرام » بنفثات أقلامهم ، وهو أن يتفادوا الفصول المستفيضة والأبحاث الطويلة التى يضيق عنها نطاق الجريدة فى حجمها الجديد » . وتذكر الإعلانات بقولها : « وسنضطر كذلك إلى الاقتصار على ما يسمح به المجال من الإعلانات راجين من حضرات المعلنين أن يكتفوا بأقل حيز ممكن حتى لا نكون مضطرين إلى رفض الإعلان لضيق المقام » .

وتختم «الأهرام» وصف هذه المحنة بقولها : « والصحافة المصرية التى ما برحت تساير البلاد فى نهضتها عاملة على مجاراة صحافة أرقى البلدان فى أنبائها الداخلية والخارجية وفيما تنشره من الفصول والبحوث السياسية والاقتصادية والأدبية والاجتماعية ، تذعن مضطرة للظروف الحالية القاهرة ولها فى ذلك أسوة بصحافة العالم أجمع التى قضت عليها الحرب بمثل ما تقضى علينا به مراعاة لندرة الورق . . . . وإذا كانت الأمة جمعاء قد رضيت بما فرضته الحرب من ضروب الحرمان فى شتى مناحى الحياة فلا شك فى أن جمهور القراء سيقابلون هذا الحرمان الجديد بزيادة العطف على صحفهم الأمينة التى ستظل خادمة مخلصة للمصلحة العامة »[1] .

ويعتبر هذا الحديث منهجاً جديداً للأهرام ، فقد وطدت نفسها على أن تعيش فى هذا الحيز الضيق أيام الحرب جميعاً ، وكان المعروف أن أيام الحرب ستطول — وقد طالت فعلا —

(١) الأهرام فى ١٤ أبريل ١٩٤٢

الأهرام تؤدى رسالتها

وعلى الرغم من هذه المحنة ، مضت الأهرام تؤدى رسالتها أحسن الأداء ، فكانت تحدث رؤساء الحكومة المصرية آنا بعد آن فى الشئون العامة ، فتنقل عنها صحف الغرب ووكالات الأنباء تلك الأحاديث الخطيرة [1] . هذا إلى جانب المقالات التى كانت وكالة رويتر تنقلها من الأهرام نفسها [2] . وقد حالت الحرب دون وصول أعداد «الأهرام» إلى أوربا ، فشق ذلك على قرائها هناك ، حتى إذا وصلت بعض الأعداد إلى جنيف بعد خمسة أشهر غابت فيها عن القراء العرب النازلين فى سويسرا «تلقاها المصريون والشرقيون جميعاً بكثير من السرور ، لأن كل فرد وجد فيها صورة لبلاده» . ويعنى ذلك أن «الأهرام» كانت فى تلك الأيام السود ، لساناً للبلاد العربية جميعاً [3] .

نقل الصور بالراديو

ومع أن «الأهرام» كانت تعبر فى سنوات الحرب جحيا من الرقابة ، وتخضع للأوامر العسكرية التى حرمتها الإعلان الكثير ، فإنها لم تأل جهداً فى استكمال ما ينقصها من نواحى الفن الصحافى ، ومن مظاهر عنايتها بالفنون الصحافية ، وحرصها على إرضاء جمهور قرائها ، وتقديرها لمكانتها الرفيعة بين عامة الصحف أنها علمت أن شركة ماركونى قد نجحت فى نقل الصور الفوتوغرافية بوساطة الراديو بين القاهرة ولندن ونيويورك ، فأبرقت إلى مكتبها الخاص فى لندن ، فبعث إليها صورة نشرتها فى صفحاتها الأولى تحت عنوان «صورة تنقل من لندن إلى الأهرام بالراديو» ، وهى تمثل سفير مصر فى عاصمة الإنجليز أثناء زيارته لسفير تركيا الجديد فى دار السفارة التركية [4] . ثم تابعت «الأهرام» نشر الصور الهامة ، فكانت كالعهد بها ، حاملة لواء التجديد فى صحافتنا .

الأعداد الخاصة

وأخذت بعد ذلك تنشر أعداداً خاصة شهدناها فى سنوات الحرب ، فقرأنا عدداً خاصاً بالمناقشات التى دارت فى مجلس النواب سنة ١٩٤٣ [5] ثم رأينا عدداً آخر

(١) الأهرام فى ١٧ ديسمبر ١٩٤٠
(٢) الأهرام فى ٧ يونيه ١٩٤١
(٣) الأهرام فى ٤ مارس ١٩٤٢
(٤) الأهرام فى ٣١ مايو ١٩٤٢
(٥) الأهرام فى ٢٤ مايو ١٩٤٣

آخر غاية فى العمق والإتقان عن « الحرب فى أربع سنوات ومجهود مصر فى الحرب »[1]. وقد أبدعت فى وصف « مجهود مصر فى الحرب » ومدى مساهمتها فى تأييد الدول الديموقراطية والروح التى سادتها فى تنفيذ التزاماتها حيال بريطانيا العظمى ، كما أرخت فى عدد ممتاز « لقصة جامعة الدول العربية » وشرحت ظروف كل دولة منها جغرافياً وسياسياً شرحا مدعما بالصور والرسوم[2]. ودعت فى عدد خاص إلى « مؤتمر القطن » الذى عقد فى القاهرة سنة ١٩٤٨[3]، وهكذا رأينا الأعداد الخاصة تعود إلى الظهور بين آن وآخر ، وكلها فى موضوعات هامة تشغل الرأى العام ، كعدد « إبراهيم باشا البطل الفاتح » بمناسبة انقضاء مائة سنة على وفاته [4]، وعدد « المعرض الممتاز » [5]، وأخيراً عدد « محمد على الكبير » فى نوفبر سنة ١٩٤٩ .

الصحف ترفع ثمنها

وقد جازت « الأهرام » زهاء أربعة أعوام من سنى الحرب وهى تصدر محتوية على كل ما يهم قراءها بالرغم من القيد الذى يكتم الأنفاس ويحد من عدد الصفحات ، باذلة أقصى ما يمكن من جهد ومال ، لتحقيق رسالتها التى دأبت على أدائها من عشرات السنين ، حتى فاض كيل الصحف جميعاً — وكان معظمها ينوء بالحمل المادى — فطلعت علينا الأهرام ببيان جاء فيه : « نظراً إلى ارتفاع أسعار الورق وسائر أدوات الطباعة من جهة ، وإلى ندرة وجود اللازم منها من جهة أخرى ، يرى أصحاب الصحف أنفسهم مضطرين بعد أن حاولوا معالجة هذه الحالة بجميع الوسائل الممكنة ، أن يحذوا حذو الصحف فى جميع البلدان فيرفعوا ثمن النسخة من صحفهم إلى عشرة مليات سداً لبعض النفقات الباهظة التى يتحملونها ، وحدا لمقادير الورق المستهلك ، وهذا ما عمدت إليه الصحف الإفرنجية المحلية منذ شهور . وهم إذ يتذرعون بهذا التدبير مضطرين لا مختارين ، يعتذرون إلى قرائهم الذين يقدرون حرج الظروف الحاضرة التى قضت بذلك ، كما يرجون أن تعود الحالة قريباً إلى ما كانت عليه فتعود للصحف سيرتها الأولى إن شاء الله من حيث عدد الصفحات وثمنها[6].

(١) الأهرام فى ٣ سبتمبر ١٩٤٣
(٢) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٤٤
(٣) الأهرام فى أول أبريل ١٩٤٨
(٤) الأهرام فى ١٠ نوفبر ١٩٤٨
(٥) الأهرام فى ١٤ فبراير ١٩٤٩
(٦) الأهرام فى ٢٤ مايو ١٩٤٣

وفاة عميدها جبرائيل تقلا باشا

وفى تلك الأثناء التى كانت « الأهرام » تكافح فيها رقابة الحرب وضيق الصفحات ، وتؤدى مع ذلك التزاماتها كاملة غير منقوصة ، حم القضاء وفقدت « الأهرام » صاحبها ومجددها وباعث نهضتها « جبرائيل تقلا باشا[1] » : ألمع رجال الصحافة المصرية ، وأعمقهم حساً فى هضم الشئون الصحفية ، والعلم البارز ، بين أعلام العصر ، خلق فى معبد الصحافة ومات فى محرابها ، لم تشغله الدنيا طول حياته عن « الأهرام » ، بل عكف عليها متفانيا حتى جعلها — فى مدى الأعوام الثلاثين التى أشرف عليها — أكبر الصحف فى الشرق جميعاً ، ونافس بتحريرها وفنونها أمهات صحف العالم طرا .

تاريخ ناصع البياض

وإذا أردنا أن نؤرخ له فينبغى أن نعود إلى سنة ١٩١٢ ، حين اكتمل شبابه وعاد من دراسته فى أوربا وتولى مع صديقه « داود بركات » توجيه الأهرام ، فكان وجوده ثورة جرفت تلك الحياة التى بدأت « الأهرام » تعيش فيها منذ مطلع القرن العشرين إلى سنة ١٩١٢ ، وهى سنة توليه أمورها ، فإذا عدنا إلى الفصول الماضية ، متلمسين الجديد الذى طرأ على « الأهرام » ، وجدنا ذلك كله من صنعه أو من وحيه ، فما كان يخلق جديداً إلا أضفى عليه من فنه وخبرته وتجاربه — بعد أيام أو بعد أسابيع — جديداً آخر ، ينقل «الأهرام» عن معاصراتها خطوات فخطوات ، ويجعلها بالنسبة إليهن ، المثل الأعلى ، والغاية البعيدة التى لا تدرك .

جبرائيل فى تاريخ الصحافة

ولم يكن جبرائيل تقلا صاحب الأهرام فحسب ، ولا كان موجهاً لأمورها فقط ، بل كان واحداً من عمالها ومحرريها : فهو كاتب من بين كتابها ، وهو فى خدمتها مخبر طويل الباع ، صادق الخبر ، وعلى صفحاتها قرأنا أحاديثه مع الكبراء والعظماء من كل لون ودولة ودين ، كما كان يفعل أبوه «بشارة باشا» من قبل. وهو يغذ السير إلى أوربا كلما جدت الحاجة ، وتهيأ الرأى العام لجديد من الآراء ومستحدث من التوجيهات ، فيقف إلى جانب المفاوضين ، أو إلى جانب الحوادث الأوروبية الكبيرة أو القضايا الخطيرة ، ثم يبعث ببرقياته إلى « الأهرام » التى كانت توالى نشرها كل يوم ، وهو الذى أنشأ مكاتبها فى

(١) الأهرام فى ٧ يوليو ١٩٤٣

الخارج ، ونظمها ، وبسط يده فى سبيل ذلك كل البسط ، ورتب جميع الوسائل لتكون الأهرام فى الصدارة خبراً ومقالا .

تجميله للأهرام

ثم التفت إلى الجريدة من حيث الشكل فظفرت بقدر من جمال العرض وأناقة الإخراج ما كان يمكن أن يتم بغير ذوقه ورعايته وابتداعه : تخير ورقها وحبرها ، وأعد مطابعها وملحقاتها على أحدث ما عرفت الصحف الكبرى من المطابع والمسابك وآلات التصوير . وحسبه أنه كان أول من استعمل ماكينات اللينوتيب فى جمع الحروف ، ويظن البعض – ومنهم أقرب المقربين من الأهرام – أن تلك الماكينات دخلت مطابع « الأهرام » من سنة ١٩٢٠ ولكن الحق أنها بدأت تؤدى واجبها – وإن كان فى حيز ضيق – منذ مطلع سنة ١٩١٧ ، يؤيد ذلك كتاب من جبرائيل بك تقلا إلى المطبوعات ، يعتذر فيه عن وجود بياض سببه « أن هذه المقالة جمعت حروفها بماكينة « اللينوتيب » التى تستعمل ، فى مطبعتنا من عهد قريب على سبيل التجربة ، وكان عمال هذه الماكينة قد انصرفوا »[1] .

تجديده لماكينات اللينوتيب

فماكينات « اللينوتيب » إذن ، قد عرفتها « الأهرام » قبل جميع الصحف ، وبقيت تستعمل فى حيز ضيق فترة غير قصيرة ، غير أنها لم ترض « جبرائيل تقلا » ولم تقنع طموحه ، فجاء بمهندس أخصائى أخذ يجرى تجارب مختلفة فى الحرف العربى ليمكنه من الاستعمال عن طريق ماكينات « الأنترتيب » وهى التى تستعمل الآن فى الأهرام ، وقضى هذا المهندس ستة شهور يعمل عملا متواصلا حتى وفق إلى الحرف العربى الجديد ، وكلفت تلك التجارب عميد الصحافة النابه أربعة آلاف من الجنيهات ، استطاع بها أن يضيق السطر ويقلل من ارتفاع الحروف . ثم أجريت تجارب أخرى بعد سنوات كان من نتيجتها أن أمكن صنع الحروف السوداء التى تعنون بها اليوم الأخبار ، وكان هذا العمل كافياً لإحداث ثورة فى مطابع الصحف التى قلدت « الأهرام » ونقلت عنها بعد ذلك بسنوات ، فشتان ما بين الحروف المجموعة بأيدى العمال ، وبين الحروف المجموعة عن طريق آلات « الأنترتيب » ، فضلا عن السرعة التى لا يجوز مقارنتها فى الحالتين .

---

(١) وزارة الداخلية — محفوظات المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ٢/٩٤٦ فى ٢١ مارس ١٩١٧



جلالة الفاروق ، يفتتح مجلس الدولة (١٠ فبراير ١٩٤٧)

ومع أن « جبرائيل تقلا » أدخل هذا الحدث فى الصحافة المصرية الحديثة ، فإنه تجنب فيه الطفرة والاندفاع ، وبدأ تنفيذه على مهل وفى حيز ضيق ، لأن آلات « الأنترتيب » تستلزم توفير عدد ملحوظ من جامعى الحروف ، وتحتاج إلى عمال مهرة على خبرة بالآلة وعلى علم بأجزائها ، وقد أعد بناء خاصاً بعيداً عن « الأهرام » ، لماكينة « الأنترتيب » الأولى ، ثم أخذ – بإشراف أخصائى – يبعث إليها عاملا بعد عامل ، يقضى فى ذلك البناء « بعثة » شهرين للتمرين ، فمن نجح من العمال المبعوثين أبقى عليه ، أما الفاشلون فقد رتب لهم أعمالا أخرى ، وذلك كله توطئة لاستعمال حرف « الأنترتيب » دون أن يؤذى عماله – وتلك الآلة هى خصمهم الطبيعى – ولما استكمل العمال الفنيون بعثتهم ، وتدربوا تماماً على الطريقة الجديدة ، استقدم اثنتى عشرة آلة من آلات « الأنترتيب » وصدرت « الأهرام » وقد صنعت جميع حروفها عن طريق تلك الآلات .

أرأيت كيف عاش « جبرائيل تقلا » فى خدمة مطابع «الأهرام» سنوات لا يكل ولا يمل ولا يخشى الفشل ؟ أرأيت كيف أحدث انقلاباً فى مطبعة الصحيفة كان له أبعد الأثر فى تقدم الصحافة المصرية جميعاً ؟

تقديره للعاملين

ولم يقصر جهده على التحرير أو الأخبار أو تجديد الصحيفة بما يرضى الذوق الفنى أو الفن الصحفى ، بل كان يلتفت إلى المحررين فيجعل لكل منهم « صحيفة أحوال » خاصة ، ثم لا يبخل على المجتهد فيهم وإنما يسخو فى تقديره ومكافأته .

وعندى أن تقديره للعاملين ليس مصدره اجتهاد المجتهد وحده ، بل إنه كان يدرك أن محررى الصحف الأمناء ، يبذلون دائماً من نفوسهم وقلوبهم ، وجيوبهم أحياناً ، فى سبيل المهنة التى ينتسبون إليها ، وأنه جدير به أن يمكن لمعاونيه من تناول الحياة تناولا ينشط نفوسهم ويقوى قلوبهم ، ويرد عليهم بعض ما تفقده إياهم متاعب المهنة وأحداث الزمن .

ويذكرون لإنسانيته حوادث تجل عن الحصر ، ويذكرون أن بيوتاً بأسرها كانت تعيش من يده السمحة ، وخاصة بيوت من كانوا يعملون فى الصحافة أو يمتهنون مهنة الأدب ، وكان يرتب لعماله الذين تقعد بهم العلة أو تحول الشيخوخة بينهم وبين أعمالهم ، « معاشات » كريمة يتقاضونها دون منّ أو إخلاف .

ولهذا الصحفى القادر تدين الأهرام والصحافة الراقية ، بكثير من تقاليدها المرعية ، فضلا عن أنه جددها ، بل خلقها فى الصورة التى شرحناها للقارئ فى فصول سابقة ، ومن يراجع كتبه الخاصة لرؤساء التحرير وكبار المحررين ، ير كيف كان الرجل يعيش لمهنته وفى سبيل إعلاء شأن صحيفته ، وكيف كان يفكر فى أن يلائم بين الصحافة وبين الرقى المتصل الذى شمل الحياة المصرية جميعاً ، وهو الفخور دائماً بوطنه ، العامل أبدا على الدعاية له وإذاعة مآثره والتحدث بأمجاد حضارته إلى العالم أجمع . ولقد صدق فى التعبير عن الفجيعة فيه ، رئيس مجلس النواب الذى كان الفقيد أحد أعضائه حين قال : « لا أخالنى إلا معبراً عن شعوركم جميعاً فى تقدير هذه الخسارة الجسيمة التى وقعت بفقد النائب الكريم المغفور له جبرائيل تقلا باشا الذى كرس حياته وماله لخدمة البلاد عن طريق الصحافة فضلا عن النيابة[1]» .

ولن تستوعب صفحات كتابنا ما قاله فى « جبرائيل تقلا » أصدقاؤه وتلاميذه ومقدروه ، حين ألم به طائف الموت ، وما قالته فيه الصحف المصرية والعالمية عربية وإفرنجية[2]. فإن ما ذكر فيه حين وفاته ، وما قيل فى حفلة تأبينه من شعر ونثر[3] ، جدير بكتاب نرجو أن ينشر على حدة ، ليرى الصحافيون فيه مرآة لهم ، يسيرون على هداها . وحسب الرجل أنه ربى فى الأهرام مجموعة طيبة من أعلام الصحافة ، ساروا على دربه وحاولوا تقليد سيرته ، مؤمنين برسالته ، عاملين على تحقيق أمانيه وأحلامه .

الإرث الخالد

وأنت ترى الإرث اليوم شاهق العلو مرفوع العماد ، فالأهرام صورة بديعة من أهرام جبرائيل تقلا ، تنطلق كل صباح حاملة أدق الأخبار وأعمق الموضوعات فى تنظيم لا يبارى وفى ثقة لا تعرف التوانى ، وفى قوة لا تضعفها المتاعب . عد إلى « الأهرام » فى السنوات الأخيرة تقرأ سجلا تاريخياً لسياسة « الملك فاروق » فى خلق الجامعة العربية ، أو فى تصفية ما كان بين البيت العلوى وبين البيت الوهابى ، عد إلى « الأهرام » لتعرف كيف انتهت الحرب العالمية الثانية وكيف روى قصتها « الكونت شيانو » وزير خارجية إيطاليا الفاشية ، وكيف أجاد المترجم

(١) الأهرام فى ١٣ يوليو ١٩٤٣
(٢) الأهرام فى شهر يوليو ١٩٤٢
(٣) الأهرام فى ٢١ نوفبر ١٩٤٣

ترجمة مذكرات ذلك الوزير[1] ، ثم عد إلى « الأهرام » لتسجل فى التاريخ أنها ما تركت حادثاً وطنياً إلا هللت له أو عرضت له بالبشر إن كان يليق البشر به أو عرضت له مجللة بالسواد كاتفاقية السودان وما تركت تلك الاتفاقية من أسى وأحزان[2].

والرزايا إذا تبدت توالت

وفى ١٣ من يناير عام ١٩٤٩ ، توفى رئيس تحرير الأهرام « أنطون الجميل باشا » الأديب الصحافى الممتاز . نشأ فى لبنان وتثقف فى مدارسها فأتقن اللغتين العربية والفرنسية . واختار الصحافة مهنة له ، فرأس تحرير « البشير » فى بيروت ، ثم انتقل إلى مصر واشتغل محرراً فى « البراميد » – شقيقة الأهرام – منذ عام ١٩٠٧ . وحوالى عام ١٩١٠ ظهرت مجلته « الزهور » فرأى الناس فيها لوناً جديداً من الأدب الأنيق الرفيع ، ولم يكد يمضى على ظهورها عام وبعض عام ، حتى صارت مجال الأقلام البارعة لأشهر أدباء العصر . ثم اختفت « الزهور » قصيرة العمر ، وعين « أنطون الجميل » فى وزارة المالية ، حيث رفعته كفايته إلى منصب سكرتير اللجنة المالية ، ثم عاوده الحنين إلى الصحافة ، فاعتزل وظيفته الحكومية ، وعاد إلى « الأهرام » سكرتيراً ثم رئيساً لتحريرها .

وقدا ستطاع فى عهده لتحرير « الأهرام » أن يقف فى الوسط إذا تنافرت الأحزاب أو اختلفت حتى ارتاح له جميع المشتغلين بالسياسة العامة ، فرحبوا به عضواً فى مجلس الشيوخ وقد تجلت كفايته فى لجان المجلس – وخاصة اللجنة المالية – عضواً فيها أو مقرراً لها عشر سنوات متصلة ، كما كان عضواً عاملا فى معظم المجالس والجمعيات واللجان التى تتولى النهضة الفكرية والقومية ، وفى مقدمتها « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » ، « والشعبة القومية لهيئة الأمم المتحدة للثقافة والتربية والعلوم » ، « واللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية » وغيرها من اللجان والجماعات العلمية والأدبية أجنبية وعربية[3].

* * *

ومن ذلك الحين ، و « الأهرام » تجد فى السير ، مؤدية رسالتها التى لم تتخل عنها منذ كانت حاملة نصيبها الكبير من أعباء النهضة ، ورافعة لواء الرأى الحر وشعل المعرفة ، فى هذه الفترة الدقيقة الحرجة من تاريخ مصر ، والشرق ، والعالم أجمع .

---

(١) الأهرام فى أول أغسطس ١٩٤٥
(٢) الأهرام فى ١٩ يناير ١٩٤٧
(٣) الأهرام فى ٣و١٤و١٥و٢٣و٢٧ يناير ١٩٤٨

إن روح « جبرائيل تقلا » تشرف من علاها على دار « الأهرام »، وترنو إلى بنيانها الشامخ، وإن للأهرام بعد هذا في عائلة الفقيد، وفي مستشارها وأصدقائها خير من يسهرون على حماية هذا التراث المجيد، كما أن لها في أسرة التحرير والإدارة — وهي تضم عدداً من صفوة تلاميذ الفقيد — من ينهضون بالعبء الجليل في كفاية وإخلاص.

ولقد شهد العالم جريدة « الأهرام » تنطلق في الفترة الأخيرة من قيود الرقابة، فتحلق في الآفاق الفسيحة التي عاقتها القيود زماناً عن التحليق فيها، حتى أصبح الشرق العربي يزهو بصحيفته الأولى، ويباهي بها — خبراً ومقالة، وشكلا وموضوعاً — أرقى صحف الغرب.

مرت على مصر في العهد الأخير أحداث جسام، منها ذلك الدور الجديد في معركة الجلاء وحوادث الاغتيالات السياسية، وحرب فلسطين وتحقيقات الجيش، كما شهد العالم في هذه الفترة مولد القنبلة الهيدروجينية وصراع الكتلتين الشرقية والغربية صراعاً اندلعت منه شرارة أشعلت الحرب في كوريا.

مرت بمصر والعالم هذه الأحداث الجسام في الداخل والخارج، فكانت « الأهرام » كالعهد بها، مرآتها المجلوة، وسجلها الواعي الأمين.

و« الأهرام » مع هذا كله، تقوم بدورها العتيد في رعاية النهضة الحاضرة، والكفاح في سبيل تنقيتها مما يشوبها من علل وما يعتورها من نقص، لا تكاد تهمل في ذلك زاوية من زوايا حياتنا العامة: سياسية، واقتصادية، وفنية، واجتماعية، دون أن تتصدى لها موجهة ناقدة مرشدة.

ولها في كل ناحية من ذلك، فكرة وهدف:

أما الفكرة فهي حماية جهود مصر الحديثة من أخطاء الارتجال أو التهور أو الجمود، وأما الهدف فهو المصلحة العامة دائماً، وقبل كل شيء.

وسيذكر التاريخ لها دائماً، أنها كانت الداعية أبداً إلى الخير، الساعية دائماً إلى الاتحاد، الحريصة حقاً على ضم الصفوف.

وبهذا ومثله، استحقت مكانها الرفيع المرموق، الذي أوصلها إليه جهاد خمسة وسبعين عاماً، كانت فيه رسول نهضة، وصورة أمة، والمنبر الحر لهذا الشعب الكريم الذي يذكر لها ما قدمت وتقدم إليه من خير، بالشكر الجميل والتقدير الصادق.



الاحتفال بتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية فى سراى الزعفران : ٢٠ مارس ١٩٤٥

مراجع البحث

رأيت أن أقدم فى كلمة قصيرة أختم بها فصول هذا الكتاب، بعض الملاحظات عن الكتب والوثائق والصحف التى رجعت إليها وأخذت عنها فى تدوين هذا السجل الخاص بأقدم الصحف اليومية المعاصرة ، حتى إذا عاد القارئ إلى الثبت الملحق بالكتاب ، أو نظر إلى هوامش الصفحات ، عرف قدر المرجع وأهميته إذا أراد أن يستزيد بالرجوع إلى المصدر نفسه .

وقد قرأت عشرات من الكتب العربية التى تناقش الحياة الأدبية أو السياسية أو الاجتماعية فى الجيل الذى نشأت فيه الأهرام والأجيال التى عاشت فى أعطافها ، ثم قصرت الإشارة إلى بعض من الكتب التى كان اعتمادنا عليها أوفى ، وهى سبعة عشر كتاباً ، لى فيها ستة كتب أكثرها يعنى بتاريخ الصحافة المصرية أو العربية ، وعرض للأهرام فى أكثر من موضع ، ثم كان من أهم الكتب التى عنيت بالأهرام وتتبع خطاها كتابان أحدهما لفيليب دى طرازى وثانيهما خاص بتاريخ بشارة تقلا باشا أحد مؤسسى الأهرام ، أما الكتاب الأول فهو من خيرة المراجع التى يعتمد عليها فى تاريخ الصحافة العربية عامة ، وهو وإن لم يعن صاحبه بالتعليق على تاريخ الصحف أو يفصل فى رأيه الخاص إلا أنه مزدحم بالمادة الصحفية ، غنى بأخبارها ، وبالرغم من بعض الأخطاء التى أصابت أجزاء الكتاب المختلفة فإنه مرجع يدل على وفاء صاحبه لتاريخ الصحافة ويبين مقدار ما عاناه فى كشف أسماء الصحف وتتبع صدورها فى كل مكان من الأرض ، سواء كان ذلك فى الشرق العربى أو فى الأمريكتين أو فى أوربا .

وإنى أعلم أن الكونت فيليب دى طرازى قطع من العمر أكثر من ستين عاماً قضاها فى جمع الصحف ودراستها والبحث عن تاريخها ، فكان اجتهاده هذا خيراً على الصحافة وتاريخها ، واستطاع فى تلك السنوات أن يكوّن مجموعة من عدة آلاف نسخة معظمها

عبارة عن العدد الأول من كل صحيفة عربية صدرت فى العالم ، أما الكتاب الثانى فقد قام بنشره شاعرنا المغفور له خليل مطران بك عن بشارة تقلا باشا . وقد تضمن بعض تاريخ الأهرام ، وإن فصّل فى تاريخ بشارة تفصيلاً كان عمدتنا فى التأريخ لتلك الشخصية الصحفية النادرة ، وكان أجمل ما فيه مقالات بشارة التى نشرت فى الأهرام ، وإن لم تكن كاملة فقد فات بعضها مؤلف الكتاب .

وفى الكتب العربية الأخرى التى رجعنا إليها ، وجدنا روايات صادقة متصلة بتاريخ الأهرام أو بمن قام على تحريرها ، فوسع ذلك آفاق البحث ومكننا من تتبع أولئك الصحفيين فيما نشروا من خبر أو مقال ، وبين لنا الظروف والملابسات التى عاشوا فيها . وميزة هذه الكتب أنها فى معظمها كتب للسيرة وتراجم للأدباء العلماء ، كتبها أصحابها وهم على صلة خاصة بمن كتبوا عنهم أو رووا تاريخهم .

ثم عدنا إلى الوثائق التاريخية فى سراى عابدين العامرة ، وهى وإن لم تشر فى كثير إلى قصة الأهرام إلا أنها أعانتنا على تصوير العصر الذى نشأت فيه صحيفتنا ، وبينت لنا ما كان يلقاه الصحفيون المعاصرون من سماحة أو شدة ، وهى ظروف شهدتها الأهرام ، وبلت حلوها ومرها على الصورة التى فصلناها فى أبواب هذا الكتاب . أما محفوظات إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية فكانت نبعاً لتاريخ الأهرام عميم الفيض زاخراً بالتفاصيل ، قدمها لنا الأساتذة محمد عبد الله عنان وكيل المطبوعات السابق ، والدكتور يحيى الخشاب مدير المطبوعات المنتدب والأستاذ تحسين سكرتير المطبوعات ، فكان لوثائقهم فضل يذكر فيشكرون عليه أجمل الشكر .

وأحب أن أشير هنا — سعياً وراء الصالح العام — إلى أن إدارة المطبوعات تضم مجموعة طيبة جداً من سير الصحف والصحفيين ، هى حقل عظيم لمن شاء أن يكتب تاريخ الصحافة فى مصر معتمداً فى تأريخه لها على هذا الجدول الأصيل ، وإن كان جدولاً يتخلله الحصى وتعترضه الحصباء ، ذلك لأن الوثائق الموجودة مبعثرة ، ومضطربة فى وضعها ، وتحتاج إلى خبير فى فن الوثائق والمكتبات ، عالم بتاريخ مصر الحديث ، حتى تستوى وتتضح للباحثين إذا اختلفوا إليها ، فلا يجدوا المتاعب التى وجدتها وذللها بحصافته سكرتير المطبوعات .

أما الصحف العربية التى عدنا إليها فى التأريخ للأهرام فكانت هى محاضر جلسات الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين مراجع هامة لا يستغنى عنها فى تأييد وجهات

النظر أو رواية الحوادث التى عرضنا لها ، وخاصة جريدة الأهرام نفسها ، فقد راجعت جميع مجلداتها ، وما كان يمكن أن يكتب تاريخ الأهرام دون الرجوع إلى جميع تلك الأعداد بلا استثناء ، فقد كانت الجريدة خير مصدر عن نفسها ، ومن معينها ندبنا أنفسنا لإنشاء هذا الكتاب ، ومهما كلفنا هذا من جهد فإنه كان متعة لا يحس لذتها إلا من كابد متاعبها .

أما الكتب والوثائق المطبوعة والصحف والمجلات الفرنجية ، فتلك أيضاً كانت مراجع لها قدرها وخطرها فى بحثنا ، فقد صورت جانباً من البحث سواء أكان سياسياً أم تاريخياً أم اجتماعياً ، وسواء عرضت للأهرام بالذات أو سجلت ظروف الصحافة المعاصرة ، فإنها على أى حال كانت نبعاً آخر غذى طريق البحث ، وأخصّ جريدة « البيراميد Les Pyramides » فإنها كانت عظيمة القدر فى معاونتنا على كتابة فصل خاص بها ، ولولا مراجعتها لعز علينا إنشاء هذا الفصل أو جاء على الأقل مبتوراً غير مستوف للشرائط العلمية التى نهجناها فى كتابة هذا التاريخ .

• • •

أما بعد ، فإن هذا الكتاب الذى يصور حياة مصر وتاريخها من خلال « صحيفة » قد استوفى غايته من البحث المتصل قرابة ثلاث سنوات كاملة ، ولست أزعم أنه أروع صورة لجريدة « الأهرام » ، وإن قرب تاريخها إلى المعاصرين ، وبين كثيراً من مواطن قوتها ، وأعلن عن تطورها إعلاناً مقبولاً ، وحسبى هذا الجهد فإن غابت عنى أشياء أو استغلقت علىّ بعض المنافذ ، أو كبوت فى تفصيل أو رسم أو تصوير لتلك الجوانب التى شرحتها ، فأملى أن يتجاوز القارئ عن زلتى ، ويطمئن إلى سلامة طويتى ، ويؤمن معى بأن كل عمل علمى لا يخرج من النقد بريئاً أو من الخطأ سليما .

المراجع العربية

١ - الكتب

١ - إبراهيم عبده | تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١) | القاهرة ١٩٤١

٢ - إبراهيم عبده | تاريخ الوقائع المصرية (١٨٢٨-١٩٤٢) | القاهرة ١٩٤٢

٣ - إبراهيم عبده | تطـور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية | القاهرة ١٩٤٥

٤ - إبراهيم عبده | أعلام الصحافة العربية | القاهرة ١٩٤٨

٥ - إبراهيم عبده | حول الصحافة فى عصر إسماعيل | القاهرة ١٩٤٧

٦ - إبراهيم عبده (بالاشتراك) | طلعت حرب | القاهرة ١٩٤٥

٧ - أحمد شفيق باشا | مذكراتى فى نصف قرن | القاهرة ١٩٣٤

٨ - الجبرتى (الشيخ عبدالرحمن) | عجائب الآثار فى التراجم والأخبار | القاهرة ١٣٢٢ﻫ

٩ - الرافعى (عبد الرحمن بك) | الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى | القاهرة ١٩٤٢

١٠- الرافعى (عبد الرحمن بك) | مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال | القاهرة ١٩٣٧

١١- الرافعى (عبد الرحمن بك) | مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية | القاهرة ١٩٣٩

١٢- السيد رشيد رضا | تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده | القاهرة ١٣٤٢ﻫ

١٣- جورجى زيدان | تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر | القاهرة ١٩٢٢

١٤- خليل مطران | تاريخ بشارة باشا تقلا | القاهرة ١٩٠٢

١٥- سليم خليل نقاش وجرجس ميخائيل. مصر للمصريين | القاهرة ١٨٨٦

١٦– فيليب دى طرازى	تاريخ الصحافة العربية	بيروت ١٩١٣

١٧– لويس شيخو	الآداب العربية فى القرن التاسع عشر	بيروت ١٩٢٤

٢ – الوثائق

١ – وثائق المحفوظات التاريخية بسراى عابدين العامرة (وثائق عربية وتركية وفرنجية) وقد اكتفينا بالإشارة إليها فى هوامش الكتاب .

٢ – وزارة الداخلية – محفوظات إدارة المطبوعات	(ملفان خاصان بالأهرام)

٣ – محاضر جلسات الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين (١٨٨٤ – ١٩١٣)

٣ – الصحف والمجلات

١ – مثال الأهرام	٢٥ يوليو ١٨٧٦
٢ – الأهرام	١٨٧٦ – ١٩٥٠
٣ – روضة الأخبار	١٨٧٦ – ١٨٧٧
٤ – الوطن	١٨٧٨ – ١٨٧٩
٥ – صدى الأهرام	١٨٧٩
٦ – التجارة	١٨٧٩
٧ – مرآة الشرق	١٨٧٩
٨ – الوقت	١٨٨٠
٩ – المحروسة	١٨٨٢
١٠ – الأحوال	١٨٨٢
١١ – مصر	١٨٨٤
١٢ – العروة الوثقى	١٨٨٤
١٣ – الوقائع المصرية	١٨٨٣ – ١٨٨٤
١٤ – الشعب	١٩١٢
١٥ – البصير	(بمناسبة انقضاء خمسين سنة على صدوره)
١٦ – مجلة الهلال	السنة الثانية عشر
١٧ – مجلة الشباب	١٩٣٦

المراجع الفرنجية

١ ـ الكتب

1 — Baignières (P) : L'Egypte Satirique, 1896.
2 — Charles — Roux: Bonaparte Gouverneur d'Egypte, Paris 1936.
3 — De La Roque: Voyage au Liban et Syrie, Paris 1719.
4 — Douin : Histoire du Règne du Khédive Ismail, 1933 — 1941.
5 — Lloyd : Egypt since Cromer 1933.
6 — Lord Lindray : Letters on Egypt; Edom and the Holy Land, 1818.
7 — Sabry (M) : La Genèse de l'Esprit National Egyptien, 1934.
8 — Young (G) : Egypt . London 1937.

٢ ـ الوثائق المطبوعة

1 — Blue Books 1876 — 1914.
2 — Livres Jaunes 1876 — 1914.

٣ ـ مقالات فى مجلات

1 — Canivet. Bulletin de l'Institut Egyptien, 1909.

٤ ـ الصحف والمجلات

1 — Le Bosphore Egyptien 1884.
2 — Le Journal des Debats 1884.
3 — Le Moniteur Egyptien 1878—1884 .
4 — Les Pyramides 1900—1924
5 — The Egyptian Gazette. 1884—1914

المراجع

١ — كتب

1 — Rousseau (P.) : L'Egypte Saïnique, 1896.
2 — Charles-Roux : Bonaparte Gouverneur d'Egypte, Paris 1936.
3 — De La Roque : Voyage au Liban et Syrie, Paris 1719.
4 — Douin : Histoire du Règne du Khédive Ismaïl, 1933 — 1941.
5 — Lloyd : l'Egypte depuis Cromer 1933.
6 — Lord Lindsay : Letters on Egypt, Edom and the Holy Land, 1838.
7 — Sabry (M.) : La Genèse de l'Esprit National Egyptien, 1924.
8 — Young (G.) : Egypt, London 1927.

٢ — الكتب الزرقاء

1 — Blue Books 1882 — 1914.
2 — Livres Jaunes 1882 — 1914.

٣ — مقالات في مجلات

1 — Ghaleb, Bulletin de l'Institut Egyptien, 1920.

٤ — الصحف والمجلات

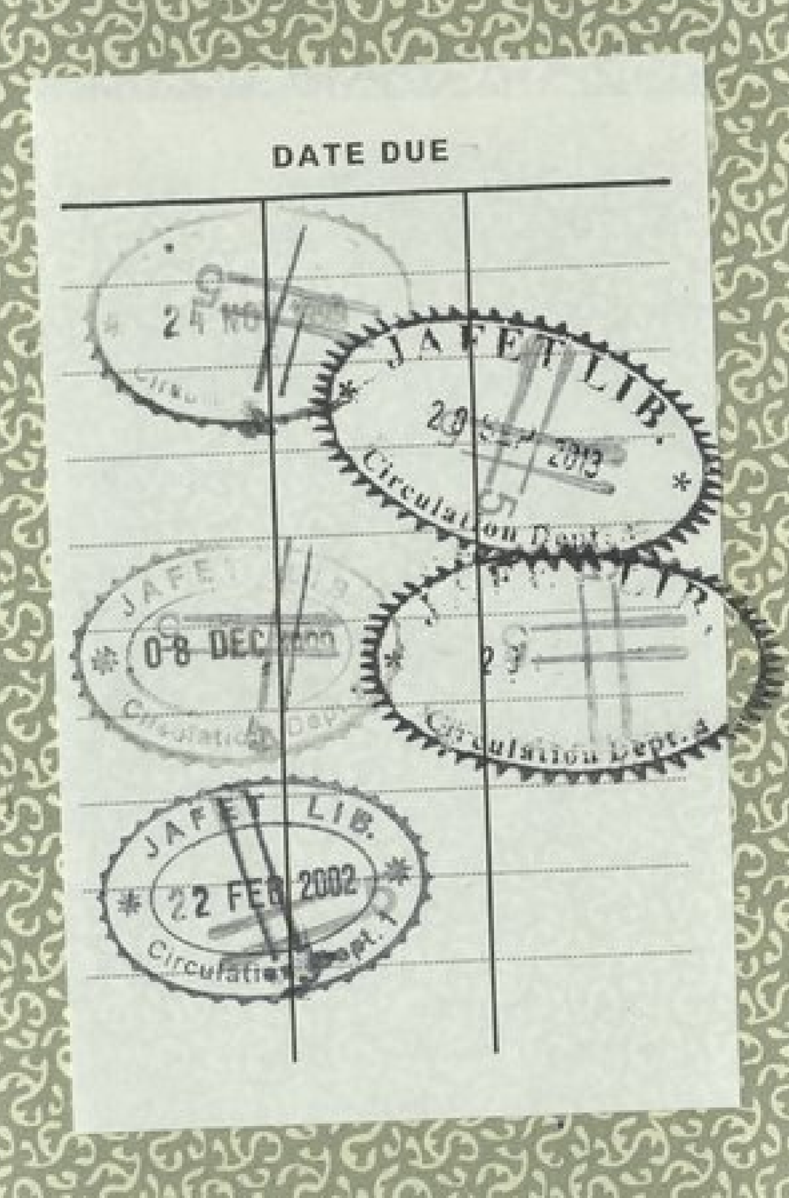
1 — Le ... Egyptien 1881.
2 — Le Journal des Débats 1882.
3 — Le Moniteur Egyptien 1878—1882.
4 — Les Pyramides 1900—1924.
5 — The Egyptian Gazette 1882—1914.

فهرست الأعلام

١٩٦/ت/١٩٥١






DATE DUE
24 NOV
JAFET LIB.
29 SEP 2013
Circulation Dept.
JAFET LIB.
08 DEC 2000
Circulation Dept.
Circulation Dept.
JAFET LIB.
22 FEB 2002
Circulation Dept.

